المركز القومى للترجمة

إفيوما شنوبا

فى انتظار ماريا

ترجمة: صبرى محمد حسن



1603

سلسلة الإبداع القصصى

المشروع القومى للترجمة

فى انتظار ماريا

(روايــة)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1603
- فى انتظـــار ماريـــا
- إفيوما شنوبا
- صبرى محمد حسن
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة رواية:
Waiting for Maria
By: Ifeoma Chinwuba

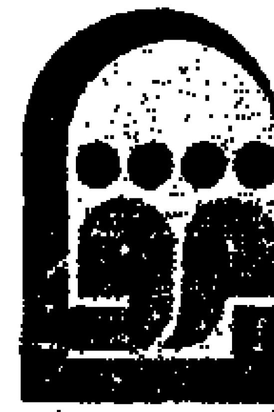
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: 27354524 - 27354526 فاكس: 27354554
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

فى انتظار ماريا

(رواية)

تـــأليـف: إفـــيــومـا شنــوبـا

تــرجمــة : صــبرى محمد حـــســن



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

شنوبا، إفيوما

فى انتظار ماريا/ تأليف: إفيوما شنوبا، ترجمة: صبرى محمد حسن

ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩

٨٢٤ ص، ٢٤ سم

١ - القصص الإنجليزى

(أ) حسن ، صبرى محمد (مترجم)

(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ١١٢٩١ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى: I.S.B.N-978 - 977- 704 - 123 - 2

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

مقدمة الترجمة

إفيوما شنوبا : الإنسانة والأعمال

صبرى محمد حسن

اسمها بالكامل إفيوما أكابوجو شنوبا، وهى من مواليد بلدة ننوى فى العام ١٩٦٠ الميلادى بعد أن أنهت تعليمها الابتدائى، التحقت بالمدرسة الثانوية التى يطلقون عليها اسم الكلية الحكومية الفيدرالية، التى تقع فى بلدة وارى Warri، فى دلتا نهر النيجر فى نيجيريا. وأنهت تعليمها الثانوى فى العام ١٩٧٦ الميلادى، والتحقت بجامعة بنين، فى مدينة بنين فى نيجيريا أيضًا.

ولما كانت إفيوما شنوبا من مواليد العام ١٩٦٠ الميلادى، فذلك يعنى أنها تبلغ من العمر حاليًا حوالى ثمانية وأربعين عامًا، وجاء مولدها مصادفًا لحصول نيجيريا على استقلالها عن بريطانيا. كان والدها ناظرًا شهيرًا من نظار واحدة من المدارس التى يطلق عليها اسم: "كلية الصبيان"؛ فى حين كانت أمها قابلة مدربة، آثرت البقاء فى المنزل لتقوم بتربية تسعة أطفال. هذا يعنى أن إفيوما نشأت فى أسرة مكونة من تسعة أبناء علاوة على الأم والأب. لكن الحرب الأهلية، وإن شئت فقل: حرب بيافرا التى دارت فى الفترة من العام ١٩٦٦ إلى العام ١٩٧٠، أدت إلى بعثرة أفراد هذه الأسرة. فى سن السادسة أو السابعة، فى عنفوان الحرب، توقف التعليم وسعت إفيوما إلى اللجوء إلى ليبرفيل، وجرى نقلها عن طريق البحر إلى آيرلنده. هناك تولت أسرة الدكتور سين Seen أو سوليفان رعاية كل من إفيوما وأختها التى تصغرها.

عادت فى العام ١٩٧٠ الميلادى أسرة إفيوما من جديد إلى نيجيريا المتحدة، الأمر الذى مكن إفيوما من إكمال تعليمها الابتدائى، كما أتمت أيضًا المرحلة الثانوية، مما أدى إلى التحاقها بجامعة بنين فى العام ١٩٧٦ لدراسة اللغة الفرنسية. وبعد ذلك بأربع سنوات، أى فى العام ١٩٨٠ الميلادى، حصلت إفيوما، بعد

تخرجها فى الجامعة، على منحة دراسية من الحكومة الفرنسية، للدراسة فى جامعة جرينبل Grenoble. تخرجت إفيوما فى تلك الجامعة، وكان عنوان الأطروحة التى تقدمت بها للجامعة عن تيمة الفشل فى الرواية التى كتبها أحمد كوروما بعنوان: "شموس الاستقلال" Les Soiels des Independances .

التحقت إفيوما بجامعة ليجوس حيث حصلت على دراسات عليا فى العلوم السياسية. وهناك قامت ببعض الأبحاث الخاصة بدور الصناعة الاستخراجية فى إطالة أمد واستمرار الفصل العنصرى.

ذكاء إفيوما الاجتماعى

أفضل أصدقاء إفيوما هى إيوا مانج Manig Ewa. التقتها إفيوما فى فرنسا فى العام ١٩٧٩، عندما كانتا طالبتين فى جامعة جرنيبل. وإيوا الآن متزوجة، وتعمل حاليًا فى فرانكفورت مع الخطوط الجوية الألمانية. ولها صديقة أخرى دبلوماسية مثلها، هى آما جلوفر Ama ، التقتها فى مدينة أكرا فى غانا فى العام ١٩٨٧. ولا تزال صداقتهما قائمة إلى الآن؛ وآما تعيش حاليًا فى لندن مع زوجها وأبنائها. وإفيوما تقول إن منزل آما فى لندن هو محطة عبورها إلى سائر أنحاء أوروبا. ولإفيوما صديقة أخرى تدعى دوريس تيموف Doris Temofe التقتها فى ليجوس، حيث كان أطفالهما يتعلمون فى المدرسة الابتدائية. وكانت دوريس تيموف قد آلت على نفسها تحمل مشقة توصيل وإحضار الأطفال من المدرسة، الأمر الذى جنب إفيوما مشقة هذا العمل.

إفيوما شنوبا لها منزل فى مدينة أبوجا فى نيجيريا؛ وصديقتها وزميلتها بت أليبو pat تستأجر هذا المنزل وتعيش فيه مع زوجها، الذى هو ضابط متقاعد من ضباط البحرية. وبات أليبو من المقربين إلى إفيوما بحكم أنها كانت جليسة لأبناء إفيوما عندما كانوا صغارًا. أما غسلين الدهان Dahan Ghislain، فقد التقتها إفيوما

في باريس أثناء عملها الدبلوماسي هناك؛ وغسلين باعتبارها صاحبة لشركة من شركات العقارات في باريس، هي التي وفرت وهيأت السكن المطلوب لإفيوما في عاصمة النور. هيلين Helen إدوسو Idosu كانت صاحبة من صاحبات إفيوما في جامعة بنين، وهي التي طبعت مجانًا لإفيوما شنوبا بحثها الذي تقدمت به للحصول على درجة الليسانس من الجامعة نفسها. يزاد على ذلك أن إفيوما كانت كبيرة وصيفات هيلين إدوسو في حفل زفافها في العام ١٩٨٠ .

في روما تعرفت إفيوما شنوبا على لطيفة بالوجن، زوجة زميلها حكيم. كانت إفيوما وحكيم يعملان سويًا في السلك الدبلوماسي في روما. ومع انتهاء فترة عمل إفيوما في روما، تطوعت لطيفة مشكورة بإيواء أبناء إفيوما في منزلها إلى نهاية العام الدراسي. ولطيفة بالوجن، على حد علمي، واحدة من سيدات الأعمال في مدينة أبوجا النيجيرية. نكيشي عطا Atta Nkechi هي الأخت الصغرى لبات أليبو ، وهي تعيش حاليًا في مدينة ليجوس في نيجيريا، ومن عادة إفيوما في كل مرة تسافر فيها عن طريق ليجوس، أن تقوم بزيارة خاطفة لتلك السيدة.

على الصعيد الأدبي، ترتبط إفيوما شنوبا بصديقة كاتبة اسمها شنيري Chinyere، شنيري هذه محامية مصرفية في أبوجا، وهما تتزاملان في حضور المناسبات والصالونات الأدبية. فولوك جوز Jose Foluke، طبيبة مقيمة في ولاية كاليفورنيا، في الولايات المتحدة الأمريكية مع زوجها وأطفالها الثلاثة، وقد التقتها إفيوما في لندن يوم أن كانت في طريقها إلى بودابست في دولة المجر في العام ٢٠٠٥. ويوم أن كانت إفيوما في مهمة رسمية في بودابست، ألمت بها وعكة صحية؛ وأجرت فولوك اتصالاتها بمعارفها وتمكنت من توفير الرعاية الطبية المطلوبة لإفيوما.

هذا الذكاء الاجتماعي لم يذهب هباء، إذ أن هذه الأسماء جرت الإشارة إليها تلميحًا، بل وتصريحًا في بعض الأحيان في الرواية التي بين أيدينا.

استطاعت إفيوما شنوبا توظيف وقت فراغها فى كتابة ثلاث روايات، أولاها "تجار اللحم البشري"، وهى من منشورات دار سبكترم فى إيبادان فى العام ٢٠٠٣ الميلادى، وقد ترجمت إلى العربية ونشرها المركز القومى للترجمة فى جمهورية مصر العربية؛ ونشرت لها دار بوك Book جيلد فى سسكس فى بريطانيا رواية أخرى فى العام ٢٠٠٤ بعنوان "بلا خوف" Fearless، وقد ترجمت إلى العربية ونشرها أيضًا المركز القومى للترجمة، ولها رواية ثالثة بعنوان "فى انتظار ماريا" فازت بجائزة رابطة المؤلفين النيجيريين السخية فى أبوجا.

إفيوما شنوبا لديها مجموعة ضخمة من القصائد التى كتبتها باللغتين الفرنسية والإنجليزية، ولديها أيضًا عدد كبير من القصص القصيرة، التى أطمح إلى الحصول عليها وترجمتها ونشرها، وعرفت أيضًا مؤخرًا أن لديها مسرحية، أتوق شوقًا إلى الحصول عليها وترجمتها ونشرها، من منطلق أن هذه المسرحية ستكون عينة من الكتابات المسرحية فى غرب أفريقيا، إذا لم تكن هى باكورة ذلك الفن فى هذه البقعة من أفريقيا. وقد عرفت منها شخصيًا أن لديها بعض الروايات التى لا تزال فى مرحلة الاكتمال. وهى ترى أن رواياتها تصور روح النصر(*) فى نيجيريا فى مرحلة بعينها، هذا يعنى أن هذه الروايات إنما ترسم صورة لطابع العصر الذهنى والأخلاقى والثقافى فى مرحلة محددة.

فى انتظار ماريا:

لماذا أبقيت على هذا العنوان؟

الموروث البريطانى يطلق الاسم "ماريا" Maria مضيفًا إليه الصفة "سوداء" Black، ليدل به على تلك السيارة سوداء اللون التى تستخدم فى نقل المسجونين،

(*) تقول إفيوما فى إحدى قصائدها:
يراودنى حلم أنه فى يوم ما ستتحول هذه الدولة الصحراويةالتى تتورم بفعل حرارة الظلم والقمع إلى واحة من الحرية والعدل. يراودنى حلم.

من السجن إلى المحكمة والعكس، وهو ما نطلق عليه نحن هنا فى مصر "سيارة الترحيلات". هذا الموروث شائع تمامًا ومعروف فى كل الدول الأفريقية الناطقة بالإنجليزية، وكان بالإمكان ترجمة عنوان الرواية ليكون "فى انتظار سيارة الترحيلات"، لكن الرواية من بدايتها إلى منتهاها قائمة على دور كبير لتلك السيارة، ولم تغب عن ذهن المؤلفة على امتداد اثنين وأربعين فصلاً، هى عدد فصول الرواية، إلى أن احترقت بمن فيها من النزيلات، بسبب إهمال من قام بإصلاحها، وبسبب تقاعس سائقها وحارسها الذى رفض فتح الأبواب لإنقاذ النزيلات، تخوفًا من السلطة، وتركهن يحترقن مع السيارة، التى هى رمز من رموز الرواية المهمة، ولذلك آثرت الإبقاء على العنوان من باب التركيز على أهميته.

موضوع الرواية

"ارتفعت كلفة المحكوم عليهم بالإعدام، ارتفاعًا كبيرًا، الأمر الذى أسفر عن تحميل مصلحة السجون مصروفات جارية كبيرة. والحكومة تشعر بالقلق إزاء تنفيذ أحكام الإعدام التى صدرت خلال السنوات القليلة الأخيرة، لكنها تباطأت فى ذلك بسبب عدم وجود جلاد. عقب فك التجميد المفروض على الخدمة الحكومية، سوف يجرى الإعلان عن وظيفة الجلاد الشاغرة، وسوف يجرى التعجيل والتسريع فى تنفيذ أحكام الإعدام وذلك من باب سد الأبواب الخلفية؛ ومن باب الاقتصاد فى النفقات سيجرى تكليف جلاد واحد بالمرور على السجون، وتنفيذ الأحكام فى أقصر وقت ممكن طبقًا للجدول....".

"فى انتظار ماريا"، حكاية رهيبة لنساء ينتظرن تنفيذ حكم الإعدام، فيهن فى جناح النساء فى سجن فريمان فورت: وُنمى، تاوا، سوزانا، أولورى، مودى، بردجت وكثيرات أخريات يصلن إليهن... إيتوها، انديورنس، كاجارا؛ كلهن محكوم عليهن بالإعدام لكنهُن لا يردن الموت...

هذا هو ظاهر الرواية، لكن لجنة التحكيم فى رابطة المؤلفين النيجيريين التى منحت جائزتها السخية لهذه الرواية، قالت فى حيثيات حكمها: إن "فى انتظار ماريا" تعد تجربة جريئة وشجاعة. نجد هذه الجرأة فى صوت الكاتبة من خلال النزيلة الجامعية أنتلى، فى سجن فريمان فورت، وهى تتكلم عن أطروحتها: "أصول ومصادر ثروة الأفارقة" التى قالت فيها: "أسرع الطرق إلى الإثراء فى قارتنا تكون عن طريق الوظيفة الحكومية. وذلك يُمكّن المرء من "تهليب" الأرصدة العامة، وهى تقول إن كل إدارة، وكل وزارة، وكل وكالة لها ميزانية أو بالأحرى صوت. كل ما يتعين على المسئول التنفيذى عمله، هو أن يغمس يده ويسيء توزيع السلع العامة، سواء أكانت نقودًا، أو أرضًا، أو ضخًا للبترول، أو عقارات ومبان، أو مركبات، أو ممتلكات حكومية. وكيما يستر أثره، يقوم بترسية العقود على نفسه، وعلى خلأنه، وعلى الوجهاء. والعقود السخية، التى لا تُنفَّذ فى بعض الأحيان، ولكن تُدفع قيمتها بالكامل، تكون فى الطليعة والمقدمة فى أغلب الأحيان. تجيء الرشوة بعد ذلك، وهى تقول: إن كل عامل من العمال قادر، وعنده المهارة الفطرية التى تمكنه من طلب رشوة، قبل القيام بأى عمل من الأعمال؛ وهو من أجل تحقيق مآربه يلوى القانون، أو يكسره بطريقة مباشرة. هذا موجود فى القطاعات كلها. إصدار التأشيرات، استخراج جوازات السفر، الشهادات الأكاديمية، الحصول على درجة النجاح فى الامتحانات، والحصول على القروض من البنوك، الحصول على لقب رئيس، ما عليك سوى أن تحدد المطلوب. ويطال ذلك أيضًا مسألة الحصول على أحكام مناسبة من المحاكم. وأوردت مسألة العفو برهانًا على ذلك، وقالت: إن ذلك موجود فى المنظومة كلها. هذا يعنى أن المرء يتعين عليه دفع أجر مروره. حكت لنا قصة المرأة الحامل، الأم لأربع بنات التى كانت تشتاق إلى ولد (ابن)، كان عليها أن ترشى هيئة العاملين فى غرفة عمليات الولادة، كيما تتأكد من عودتها إلى بيتها ومعها طفل ذكر.

"هذا يعنى أن الرشوة، مصدر أساسى من مصادر الثروة الشخصية فى هذا الجزء من العالم. كلما كبرت المحاباة، أو بالأحرى العقد كبرت الرشوة أيضًا. قالت أيضًا: إن الرشوة لا تكون دومًا فى شكل نقود. إنما يمكن أن تكون على شكل هدايا، وعلى شكل جنس، قطعة من الأرض، منزل، مركبات، أو منصب سياسى. على الرغم من موافقتها فى المحصلة النهائية على أن الرشوة تكون على شكل نقد فى الأغلب الأعم.

الشيء نفسه موجود فى القطاع الخاص. تقول أنتلى من ناحية أخرى إن الأفراد لهم هنا وسائل عجيبة؛ وهى تعنى بذلك أصحاب المهن الحرة، إنهم يعملون لوحدهم، ولابد أن يكونوا دهاة وأذكياء حتى يتفوقوا على منافسيهم. فى القطاع الخاص تقع الجرائم على شكل سرقات مباشرة سواء من الرئيس أو الشركة، حوادث سرقة، مخدرات، إتجار بالبشر، دفعة مقدمة على سبيل الغش (٤١٩)، سرقة حقوق التأليف، التى نسميها (سرقة الملكية الفكرية). الأفراد يمكنهم أيضًا إنتاج المخدرات المزيفة، والآلات المزيفة، والسلع الاستهلاكية المزيفة، السلع المغشوشة (مثل الكيروسين والبنزين، والمشروبات إلخ) تندرج أيضًا تحت هذا التصنيف. قالت أيضًا: إذا ما فشل ذلك كله يستطيع المرء افتتاح كنيسة، ويعلن عن المعجزات. قالت أيضا: إن التحصيل من جمهور المصلين على شكل ضرائب العشور، والقربان والنثريات التى من قبيل مناديل المعجزات، وزيت المعجزات، جعلت الكثيرين من الإنجيليين يذهبون إلى البنوك فى الداخل والخارج، وعلى وجوههم ابتسامة عريضة. وهذا يفسر انتشار أماكن العبادة فى هذه الأيام، ولا يصاحب ذلك زيادة فى الأخلاقيات أو الخير.

أنتلى أخيرًا تقول: بالنسبة للنساء اللاتى يردن الثراء، فإن ذلك يكون عن طريق الجزء الخاص، أو الممر الخاص. وهنا نجد أنتلى تقول: إن كل امرأة تجلس على منجم من الذهب، وينبغى عليها استغلال ذلك الشيء الذى يجعلها امرأة، فى جمع الثروة. وقالت: إن المرأة الغبية هى التى تتزوج أو تصادف رجلاً فقيرًا.

يجب أن تستهدف النساء الزواج من أصحاب العروض الكبيرة، أعنى الرجال الذين يمكنهن جذبهم إلى المذبح، ثم يتعلمن الحب بعد ذلك، أو أن تحمل مثل هذه المــرأة من الرجل الثرى فى أفضل الأحوال".

بعد هذا التعميم الصارخ، يبدأ التخصيص فى شكل إسقاط مباشر على الحياة النيجيرية، من خلال شخصيات الرواية: هذا هو الشريف عبد الجليل يعقوب عضو البرلمان، الطاعن فى السن، يصادق مارسى المشرفة العامة على السجون، ويطلب منها إنشاء شركة باسمها، لأنه سوف يقوم من خلال أصدقائه بترسية العقود السخية عليها، والثمن المدفوع هو الجنس.

وهذه هى مارسى نفسها، المشرفة العامة على سجن فريمان تستغل مــسألة العفو الذى يصدر بحق بعض النزيلات؛ وقد قُدِّر لسجنها أن يجرى العفو فيه عــن اثنتين من النزيلات، وتعرض على السجينات تلك الصفقة، وأن الفوز لمن ســتدفع أكثر وقدرتها بحوالى: ٥٠ ألف نيرة لكل واحدة من هاتين النزيلتين.

وهذا ضابط شرطة، تتقدم له مواطنة جميلة بشكوى ضد جارتهــا، ويــروح يساومها، ويصطحبها إلى غرفة مخصصة له فى فندق قريب من مركز الــشرطة، ويشرع فى معاشرتها، لكنه لم ينل منها وطرًا، فانقلب عليها فى شكواها.

وهذه رقية زوجة الشريف عبد الجليل يعقوب، عضو البرلمان، تستصدر من القضاء حكمًا بإعدام مارسى، بعد أن علمت أنها عشيقة لزوجها، بحجة أنهــا هــى التى تسببت فى موته عندما كان فى منزل مارسى، علمًا بأن الطبيب كان لــه رأى آخر، عبد الجليل يعقوب كان طاعنًا فى السن، ولم يكن يعاشر زوجتــه، وعنــدما تعرف على مارسى، قصد طبيبًا، فوصف له الفياجرا، ونصحه بعدم الإفراط فــى تناولها، وأن يكتفى بحبة واحدة، ونصحه بالتزام الراحة الكاملة بعد المعاشرة حتى يعود إلى حالته الطبيعية، ولكن فى تلك المرة، وعندما أراد معاشرة مارسى لم يفلح فابتلع أكثر من حبة وكان ما كان.

هذا مجرد غيض من فيض، لأن الروايـــة عـــامرة بالشخـــصيات، وكـــل شخصية، كبرت أم صغرت، تجسد خصيصة أو أكثر مـــن هـــذه التعميمـــات، لأن الرواية صيحة مدوية فى سماء الفساد فى نيجيريا.

هذه شخصية من شخصيات الرواية تقول: أنا أود محاكمة المنظومة القانونية فى هذا البلد، على أن تكون المحاكمة علنية ويجرى الحكم فيها بالإعدام. "أن يكون رئيس الدولة مذنبًا سابقًا، وأنه السبب فى ذلك كله، وأن يعرف كل ما يـــدور فـــى السجون؛ وأن يرى ذلك كله ولا يفعل شيئًا، هذا أمر عجيب!

وهذه شخصية أخرى من شخصيات الرواية تردد قول بلزاك: "إن كل ثروة كبيرة وراءها جريمة كبيرة أيضًا". إنه الفقر. ومن المهم أن نعرف ذلك الذى يجعل الناس فقراء. لماذا هناك عدد كبير من الناس فقراء، فقرًا مدقعًا، على الرغم مـــن وجود ثروة جمعية ضخمة فى البلاد؟".

وهذه شخصية أخرى تقول: "العدالة فى هذا البلد لمن يدفع أكثر. ألا تعرفين أن من هو أغنى منك، فى هذا البلد يستطيع أن يرشى رجال الأمن فيحبسونك لأنه أكثر منك مالاً؟ ألا تعرفين ذلك؟

فى زحمة هذا الفساد تقتبس المؤلفة قول مانديلا، وتورده على لسان شخصية من شخصيات الرواية "الطريق ليس سهلاً إلى الحرية. سوف يتعين على الكثيـــرين منا السير خلال وادى الخيال والموت".

وهذه شخصية من الشخصيات المحورية فى الرواية تقول: "المجـــال الخـــالى الوحيد أمام الجميع هو السياسة ــ السياسة ليست بحاجة إلـــى مـــؤهلات ــ عنـــدما يتقاعد الإنسان من عمله سواءًا أكان سطوًا مسلحًا، ٤١٩، أو من الخدمة، أو الجيش، أو إذا رأيت أنه ليس لديك ما تفعله، فأنت تلتحق بالسياسة وتدخل المجلس".

أليست الرواية "تجربة جريئة وشجاعة" على حد قول المحكمين فى رابطـــة المؤلفين النيجيريين؟

إفيوما والجنس الوظيفى المحتشم

ساءلت نفسي كثيرًا وأنا أقرأ روايتها الأولى "تجار اللحم البشري" حول هذا الأمر، وبعد أن انتهيت من قراءة الرواية وشكلت حكمًا نقديًا، وتقييمًا مبدئيًا لهذه التيمة (الموضوع) كتبت إليها وهاتفتها، وجاء ردها مؤيدًا لما اعتمل فى داخلى، كنت قد توصلت أن رواية "تجار اللحم البشري" ليست سوى صرخة مدوية، صادرة من صاحبة فكر ملتاع، يئن صاحبه ويتوجع من هذه المسألة المؤلمة، وبخاصة أن نيجيريا، بل ومصر أيضًا متهمتان عالميًا بالإتجار فى البشر. كنت قبل ذلك أتساءل: هل يمكن لخريجة جامعة جرينبل الفرنسية، وصاحبة الماجستير من الجامعة نفسها، عن فن الرواية، وشاغلة ذلك المنصب الديبلوماسى الرفيع فى الخارجية النيجيرية، يمكن أن تسف؟ لكن ردها جاء بردًا وسلامًا على حيرتى قالت بالحرف الواحد فى رسالتها إلىّ "تيمة الجنس فى تجار اللحم البشري" الجنس هو الموضوع الرئيسى فى الرواية كلها، من منطلق أن الرواية تتناول العاملات فى تجارة الجنس، وكيف يجرى استغلالهن من قبل المجتمع" . وفى رواية "فى انتظار ماريا" تبّدى لى شيء جديد تمامًا، أن الجنس – وهو قليل جدًا فى هذه الرواية – ناجم "عن العلاقة غير الزواجية بين المشرِّع والسجَّان. وأن الجنس الذى بين النزيلات أو بالأحرى المسجونات، إنما هو نتيجة رغبة، رحن يحققنها مع أفراد جنسهن، لأن هذا هو المتاح لهن". لكن ما رأى إفيوما فى ذلك؟

تقول إحدى شخصيات الرواية عن التشوش الجنسي ونتائجه: "كان يجـــرى فى المتوسط العثور على طفل لقيط فى أماكن الفضلات والمخلفات كل أسبوع. فى بعض عطلات نهاية الأسبوع كان أهل الخير، الذين يصادفون أطفالاً تصرخ ملقون على جانب الطريق، يقومون بإحضار اثنين أو ثلاثة منهم إلى الملجأ. كان واحـــد من هؤلاء اللقطاء ملقى داخل كرتونة، وموضوع فى منتصف الطريق السريع كيما يسحقه السائقون. عدد كبير من هؤلاء الأطفال كانوا مرضى. واحد مـــن هـــؤلاء اللقطاء الذين أسموه peace (سلام) جرى العثور عليه فى حفـــرة كانـــت تـــستعمل مرحاضًا. هذا الطفل كان أنثى، وكان جسمه الصغير مغطى بالغـــائط والحـــشرات الضخمة، وكان الكثير من تلك الحشرات قد شق طريقه إلى داخل منظومـــة هـــذه الرضيعة. وبقيت هذه الرضيعة، بعد إحضارها إلى الملجأ، محطًـــا للـــذباب علـــى امتداد أيام عدة.

وهذه أم مات عنها زوجها، وكفلها ولدها الصغير، الذى لم يجد أمامـــه مـــا يفعله سوى تهريب الأسلحة؛ الأمر الذى أسفر عن وضعه فى السجن، وأصـــبحت الأم بلا عائل تقول: "كان يقوم بعملى نيابة عنى، إذ كان يوفر مطالب الأسرة، لكن لم يكن أمامه بديل عما فعله، لو كان بوسعى ممارسة البغاء لكى نعيش نحن لفعلت ذلك، أين أخلاقياتى ومثلي"؟!

وتقول المؤلفة من خلال شخصية أخرى: "هى نفسها لم تكن امرأة جسدانية، وحتى يوم أن كانت فى الجامعة، كانت تقف على الحياد من الرذائل المعروفة كلها، كان من الصعب عليها التورط فى مثل هذه الرذائل.

وهذه أنتلّى: إحدى الشخصيات الرئيسية فى الرواية تقول: "الرجال والنقـــود هما سبب مشكلات النساء. قالت – أبعدوا الرجال، وأبعدوا النقود يـــسود الـــسلام العالم".

وهذه مارثا تقول: "في زماننا كانت الواحدة منا تذهب إلى بيت زوجها عذراء أما الآن...".

وهذا صوت المؤلفة من خلال شخصية من الشخصيات: "كثر ذلك في أيامنا هذه. البنات يفرشحن أرجلهن في هذه الأيام كلما تهيأت لهن الفرصة لفعل ذلك. الكثيرات منهن لسن مستعدات لتربية الأطفال، الكثيرات منهن لا يستطعن إنشاء أسره، ومع ذلك فهن يعشن حياة الكلاب.

على الصعيد اللغوي نجد أن لغة الرواية إنجليزية سليمة باستثناء خطأين احدهما في الصفحة: ٣١٦ من النص الإنجليزي a nreterral، وتصحيحه: a letter والخطأ الثاني على صفحة ٣٢٦ من النص الإنجليزي Seidled، وتصحيحه: Seated، وأظن أن الخطأين مطبعيان، هذا من ناحية؛ ومن الناحية الأخرى هناك أيضًا بعض التعبيرات والكلمات الأمريكية المبتذلة التي لا تستعمل إلا في لغة الشوارع الأمريكية، لكن إفيوما شنوبا كانت حريصة أشد الحرص في توظيف هذه الكلمات عندما أوردتها على ألسنة شخصيات ومبتذلة، الأمر الذي يجعل القارئ يفطن إلى هذه النوعية من البشر، وقد أوردت المؤلفة هذه التعبيرات والكلمات في سياقات ومشاهد قصدت بها إثارة الاشمئزاز والتقزز، ومن ذلك مثلاً takes two to tango بمعنى "الاثنان متورطان في الجريمة"، body – shaking بمعنى "ابتزاز" long – prick, or short – prick بمعنى "دميم"، smooch بمعنى "يُقَبِّل"، crook بمعنى "حرامي"، twat بمعنى "عضو التأنيث عند المرأة"، boogie: هذه الكلمة أمريكية الأصل معناها "حفلة راقصة" لكن المؤلفة أضافت لها الظرف down وبذلك يصبح معناها "يعاشر جنسيًا".

النزيلات في سجن فريمان فورت لسن من منطقة واحدة في نيجيريا، وإنما هن من مناطق مختلفة، ومنهن المسلمات، ومنهن غير المسلمات اللاتي ينتمين إلى ملل وكنائس مختلفة. ولذلك نجد الرواية تعرج كثيرًا على التعبيرات اللاهوتية: هذه هي كلمة: CAVALRY، أوردتها المؤلفة بأحرف كبيرة في الحوار الذي دار بين

شخصيتين عن الفرق بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الإنجليكانية، والكلمة بهذا التدوين تعنى "صلب المسيح". وهذه: altarboy بمعنى "قندلفت" بفتح القاف وكسر اللام وهو "خادم الكاهن فى القدّاس"، cassok بمعنى "الغُفارة" بضم الغين وفتح الفاء، وهى "رداء الكاهن فى الكنيسة"، cloistered life بمعنى "حياة الكافة: جمهور المؤمنين باستثناء رجال الدين"، وهذا أيضًا مصطلح: pente costral بمعنى "العنصره: هى عيد الخمسين عند النصارى، وعيد الحصاد عند اليهود؛ وهذا العيد يحل فى اليوم الخمسين عدًّا من اليوم التالى لعيد الفصح"، catena بمعنى: "سلسلة مقتطفات من آباء الكنيسة"، Gethsemane بمعنى الجشمانية، وهى عند النصارى "الحديقة التى اعتقل فيها المسيح خارج القدس"، والمعنى المجازى هو "منطقة العذاب".

هذا بخلاف التعبيرات الإيطالية والفرنسية، والإجباوية، واللاتينية التى تكشف عن موسوعية معرفة إفيوما شنوبا من ناحية، وتضفى على الرواية طابع الإيغال فى المحلية.

بقى أن أقول إن إفيوما شنوبا، فى هذه الرواية التى تعد علامة فارقة فى كتاباتها، اعتمدت، من الناحية الفنية على حبكة محورية، وإن شئت فقل: حبكة رئيسية تمثلت فيما يحدث بين التشريع، ممثلاً فى الشريف عبد الجليل يعقوب، والتنفيذ ممثلاً فى الضابطة مارسى، المشرفة العامة على جناح النساء، فى سجن فريمان فورت، هذه الحبكة مخدومة بحبكات فرعية، جرى نسجها فى ترابط منطقى أسفر عن خلق عنصر التشويق فى الرواية كلها، مما يؤكد تمكن المؤلفة من أدواتها التى مزجت بين الحوار، والسرد، ومناجاة النفس، والرجوع إلى الماضى.

يزاد على ذلك أن استعمال إفيوما للغة فى هذه الرواية جاء على ثلاثة مستويات: المستوى العام للرواية الذى يتباين بين اللغة الشاعرية فى بعض المشاهد الرومانسية، واللغة الجافة الحاسمة فى مشاهد السجن وما يتصل به من تعليمات. والمستوى الثانى: هو مستوى لغة الرسائل التى أرسلتها بعض النزيلات لأهليهن،

ولغة هذه الرسائل تنفطر لها القلوب، وهذا ناتج من أن إفيوما شاعرة بطبيعتها. أما المستوى الثالث: فيتمثل فى تلك اللغة التلغرافية الصحفية التى برعت إفيومـــا فـــى استخدامها على لسان مراسلى الصحف، الذين تناولوا مسألة كشف المـــستور فـــى تصرفات ومقتل الشريف عبد الجليل يعقوب عضو البرلمان.

إهـــداء

أهدى هذه الرواية إلى أصدقائى وصديقاتى

إوا مانج

أما جلوفر

دوريس تيموف

بات أليبو

غسلين داهان

الدكتور هيلين إيدوسو

لطيفات آديوك بالوجن

نكيشى عطا

شنيرى أوبى - أوباسى

وإلى

الدكتور فلوك جوس

أشكركم جميعًا

إفيوما شنوبا

تصدير

كان السير فردريك فريمان حاكما عامًا لنيجيريا الموحدة، منذ زمن طويـــل، فى ظل الحكم البريطانى كان السير فردريك قليل الأفعال، وصمُوت، مزهو بنفسه ومحتقر للآخرين. كان الرجل أيضا صاحب إصلاحات عديدة وسياسات أدت إلـــى رفع وزيادة الدخل الذى تحصل عليه بريطانيا مـــن الأراضـــى المـــستعمرة فـــى أربعينيات القرن العشرين. كان المواطنون يخشون فريمـــان ويخافونـــه، وكـــانوا ينفذون أوامر الرجل بلا معارضة وبحذافيرها. لم يكن من الصعب الوصول إلـــى الأسباب التى أدت إلى هذا الحال. السبب فى ذلك هو قلعة فريمان، التى هى وسيط من وسائط الاحتجاز الأمنى التى بناها الرجل فى المناطق الداخلية. لـــم يتعـــرف الناس حقيقة تلك القلعة، لكن أسوار هذه القلعة العالية وبواباتها الحديديـــة، كانـــت تنشر وتذيع الكثير من أخبار هذه القلعة. واقع الأمر أن قلعة فريمان كانت ســـجنًا أبشع من السجون التابعة لسلطات الحكم المحلى.

هذه القلعة لا تزال سجنًا إلى يومنا هذا. غنى عن القول هنا أن هذه القلعـــة أصبحت مهدَّمه ومخربة. الواقع أن بعض أجزاء هذه القلعة تهدمت وتداعت. بادئ ذى بدء، كان هيكل هذه القلعة الرئيسى مبنيًا من اللَّبن والطين، وكان مـــن عـــادة سوزانا القول: إن هذه القلعة لو لم تُبْنَ تحت إشراف الرجل الأبيض لانهارت كلهـــا منذ زمن طويل مثلما حدث لأنقاض بومبى. ودرجت انتلى Intelle على القول: لو أن مانديلا جرى سجنه فى هذه القلعة، لما بقى على قيد الحياة بعد هذه المـــصيبة. ولو قدر له البقاء على قيد الحياة؛ لما أصبح مثل المخلوقات البشرية.

كانت تلك القلعة تقع على طريق صخرى؛ على بعد حوالى خمسين ميلاً من أقرب المدن إليها. فى منتصف هذا الطريق الوعر والمتعرج يوجد مجـــاز ضـــيق ينحدر نازلاً من ارتفاع ستمائة قدم إلى الوادى. كانت قلعة فريمان مقامـــة وســـط مسوّر كبير كما لو كانت وحشًا كاسرًا، يتحفز للانقضاض على فريسته. كان لـــون

الجدران قد تغير بفعل الزمن وأصبح شاحبا. كانت الثقوب تطل على الرائـــى مـــن بين حبات الطوب اللبن التى تآكلت بفعل العناصر الطبيعية. كان هناك ميزاب شبيه بقناة ثعبانية يطوق تلك القلعة البائسة.

مقابل تلك البوابات، كان هناك عدد صغير من الأكشاك المبعثرة هنا وهناك. كانت تلك الأكشاك القليلة تمثل الأحياء التى يقيم فيها السجانون والسجانات. كـــان هناك مجتمع صغير قد نشأ فى تلك المنطقة لخدمة هذه المنشأة. كانت هناك ســـوق صغيرة مكونة من بعض الطاولات والرفوف، عـــلاوة علـــى عامـــل لإطـــارات الكاوتش، وحظيره يتخذ منها الميكانيكى مكانا له، وكانت هناك سيارة مكسرة فـــى ذلك المكان.

كان الأطفال شبه العراة مبعثرين بين تلك الأكشاك. كان البعض من هـــؤلاء الأطفال على وشك القيام بما كُلّفوا به، أو ربما كانوا يتجولون هنا وهناك بحثا عن الترفيه والمتعة. كانت هناك بعض السلع المعروضة للبيع. هذا طفل يجرى خلـــف إطار مهمل من إطارات الدراجات، وهذا طفل آخر يتمتع بالقوس الـــذى يـــصنعه ببوله.

بعد خمسين عامًا من إنشاء تلك القلعة، أصبحت تأوى الآن ما يزيـــد علـــى خمسمائة نزيل. بعض هؤلاء النزلاء ليسوا مجرمين، أو بالأحرى لم يثبت علـــيهم الإجرام بعد. واقع الأمر، أن غالبية هؤلاء النزلاء ينتظرون المحاكمة. سعة تلـــك القلعة التى تقدر بمائة نزيل زيدت إلى خمسة أضـــعافها. صـــحيح أن الـــسلطات الإدارية المتعاقبة أضافت إلى تلك القلعة بعض التوسعات هنا وهناك، وقامت أيضًا بترميم المبانى الضعيفة وتحصينها، لكن تلك التوسعات كانت لمـــصلحة الـــسجانين والسجانات، وليست لمصلحة النزلاء.

فيما يتعلق بالنزلاء، أضيفت قضبان حديديـــة إلـــى النوافـــذ، والطرقـــات، والممرات المتهاوية، نظرًا لأن القضبان الاستعمارية تآكلت مـــع مـــرور الـــزمن.

وجرت تعلية السور المحيط بالقلعة، ووضع سلك شائك حلزونى من فوقه. أدت تلك التحصينات إلى تقوية أمن تلك القلعة، وجرى أيضا تطوير معايير اختيار نزلائها. كانت تلك القلعة مقصورة على المتهربين من الضرائب، والخارجين على الأمن لكن المجرمين الخطرين أصبحوا الآن من نزلاء هذه القلعة أيضًا. الرجال والنساء الذين قتلوا جيرانهم بصورة أو بأخرى، أو حاولوا ارتكاب جرائم أخرى مشينة. عزل المجتمع كل هؤلاء هنا فى هذا المكان انتظارا للإعدام.

قلعة فريمان، شأنها شأن مؤسسات أخرى من هذا القبيل، كانت مبنية على شكل حرف H الإنجليزى. وكان كل جناح منها يأوى فئة جنسية معينة. كان حزام الوصل يقسم خدمات السجن الإدارية إلى أربعة أقسام. هذا الغرب كان خطرًا تمامًا على هيئة العاملين. فى هذه القلعة أصبحت المربعات السكنية الجديدة تضم مكاتب للتحقيق وغرفًا للزوار، كما جرى تحويل ممر الوصل إلى غرفة يتناول فيها العاملون طعامهم.

يتواصل تناول النزلاء لطعامهم داخل زنازنيهم، وكان يجرى إدخال الأطباق المصنوعة من الخشب أو البلاستيك، من خلال الشبكات المعدنية، وجحور الحيوانات الصغيرة. كانت الرائحة المنبعثة من غرفة الأكل تنبئ عن التعيين الذى يجرى تقديمه للنزلاء. كان الطبق عند تقديمه يحتوى على كمية صغيرة من مادة مائية أو مطاطية. كانت أنتلّى Intelle تسمى تلك المادة طعام الموت جوعًا. قالت: هذا هو الموت البطيء، أو الموت عن طريق التحكم من بعد.

كانت أنتلى تغمغم للمسئول قائلة: "أعطنا فرصة الموت قبل أن تدفننا".

أما إذا كانت المتكلمة هى مستشيف Mischief (سوء الحظ) كالعادة، فإنها كانت تصيح فى المسئول قائلة: "نحن على وشك الموت، وهذه مضيعة للطعام. "ثم تروح بعد ذلك تقلد فصيلة الإعدام، وتنبح قائلة: "كبا، كبا، كبا، كبا، كبا، ثم تنهار جالسة على الأرض".

كانت هناك غرفة تحت الأرض. كانت تلك الغرفة، فى زمن الحاكم فريمان، تستخدم فى تعذيب المواطن العصى المتمرد، الذى يزدرى العلم البريطانى. كان يعذب بشيء بسيط من لوى العظام والجلد. أُضيف إلى الاستعمالات، هذه الغرفة السرية لتعذيب العزل، والحبس الانفرادى، وإزهاق الحياة على الفور.

يحتوى جناح النساء على غرفتين، كلتيهما مليئة بالنزيلات. ربما كان فردريك فريمان قصير النظر فى هذه المسألة، وربما كان يظن أن إرهابيى صاحبة الجلالة يمكن أن يظلوا إلى مالا نهاية تحت حكم الإمبراطورية البريطانية. وفى مثل هذا الحال، تكفى قوة نيران الرجل الأبيض الفائقة لقمع المواطنين وبالتالى، عدم ازدحام القلعة بالنزلاء. إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعنى أن الاستعماريين مخطئون فى حساباتهم. لقد حدثت جلبة وضوضاء المطالبة بالاستقلال قبل أوانها، وعكس ما كان يتوقعه المستعمر. وجرى سجن الوطنيين فى القلعة. وأدت قلة عدد الوطنيين النزلاء إلى ترف الإشغال الفردى، ثم تبع ذلك عدم وجود أية فوارق بين عنابر الرجال وعنابر النساء. كان النزلاء جميعًا من الذكور.

ومع حصول الأقاليم والمناطق على الاستقلال؛ وجدت الأمة الجديدة الناشئة نفسها معوقه تمامًا، وعاجزه عن المحافظة على القانون والنظام، والسيطرة على الرعايا الملحاحين. تزايدت الجريمة وارتفعت معدلاتها. وهذا هو القضاء الذى فى طور التكوين، القضاء الجاهل قليل الخبرة فى هذه الأمور يسارع بسجن المذنبين الذين يمثلون أمامه، وبذلك، تصبح قلعة فريمان تغص بالنزلاء، خلال فترة وجيزة. وعلى مر السنين يجرى نقل المجرمين الأقل خطرًا إلى سجن آخر فى داخل البلاد. على كل حال، لقد أنهار ذلك السجن فى إحدى الليالى، وقتل نزلائه الثمانية والستين، وبذلك يصبح ذلك السجن ظهرا وخلفية لقلعة فريمان.

استمرت القلعة فى إيواء الخارجين الخطرين على القانون، وتحولت فى نهاية المطاف إلى غرفة لانتظار الموت. هذا يعنى أن المحكوم عليهم كانوا يُودعون هذه القلعة لإحصاء الوقت، وانتظار الإعدام. والآن، وبسبب ضيق المكان،

وحد بعض الذين لم يجرى توجيه الاتهام إليهم، وجدوا أنفسهم فـي تلـك الغرفـة المجاورة للموت. كان السجانون يقولون: إذا ما اتُّهِمتَ بجريمـة تـستحق عقوبـة الإعدام، فإنه يفضل مجيئك إلى هنا وانتظار جزاءك. ولما كان ذلك هـو الـسجن الوحيد فى المنطقة، فإن صغار المجرمين والمتهمين المدنيين، ينتهى الأمر بهم إلى وضعهم فى بطن هذا السجن مثل (سيدنا) يونس (ع).

مسألة رحيل هذه الأرواح عن هذا العالم تخضع لكثير من التخمين. فى بداية الأمر تنطلق طلقات البنادق مثل الرعد فى الميدان من خلف هذه الأرواح، ويـسبق فتح هذه الطلقات مرور الأحذية الثقيلة التى تمشى على الأرض، ومعهـا الأوامـر التى تتردد بصوت عالٍ. فى بعض الأحيان ينفجر المحكوم عليهم بالإعدام فى نوبة من الغناء الأجش غير المنسق، وذلك من باب التحدى، ولكن طلقات البنادق تسارع إلى إسكات تلك النوبة إلى أبد الآبدين. كان التعامل بهـذه الـشاكلة، يجـرى مـع المتآمرين الذين يفشلون فى إحدى الانقلابات.

لهذا السبب، كانت مستشيف Mischief على حق عندما راحت تقلد الـصوت الرهيب الصادر عن مدفع الماكينة. لمَّح شخص ما إلى أن تلـك المعاملـة كانـت خاصة باللصوص المسلحين. هذا يعنى أنه إذا لم يقتل أحد بدون سرقة، فإنه سوف يشنق؛ على مسرح الأحداث فى الغرفة التى تحت سـطح الأرض؛ عنـدها يمـر المحكوم على غرفة التأمل ليقابل قسيسًا من دينه، ثم يجرى اقتياده بعد ذلك، إلـى غرفة المشنقة. قف منتصب القامة، أرفع رأسك لأعلى، الخيَّة، أسحب المقعد، ثـم إلى اللقاء.

قالت أنتلى إن هذه الطرق كلها بربرية، وغير متحضرة. وإذا ما أصر البلد على الإبقاء على عقوبة الإعدام نظير سبب دولى أو ممارسة دولية، فإن هذا البلـد يتعين عليه، ملامة اعتراضية تحديث طريقة إزهاق هذه الأرواح التعيـسة. كانـت انتلى تفضل الإعدام بالكرسى الكهربى وبالحقن المميتة. قالت إن الكرسى الكهربى يشويك خلال ثوانٍ معدودات، كما لو كنت قطعة من الكبـد عنـد تنـاول طعـام

الإقطار، فى حين يرديك الحقن أرضًا كما لو كنت ضُربت ضربة قاضية من مايك تايسون. وأتت سوزانا Susanna على ذكر المقصله التى استخدمها الفرنسيون، وقالت: إنها شبيهة بالخنق لكن عن طريق قطع الرأس.

قالت أنتلى فى نهاية الحوار: "هذه هى قائمة الإعدام أيتها السيدات". وتتأدب أنتلى كما لو كانت خادمة، وهى تشير بذراعها اليمنى متسائلة: "سيدتى، لن يضير ذلك سواء أكان كرسيا كهربيًا، أم إبرة قاتلة، أو مقصلة؟" وتحنى أنتلى رأسها، واضعة قدمها اليمنى على بعد خطوة أمام القدم اليسرى.

وترد عليها سوزانا Susanna " لا، شكرًا. أنا أموت، يا سيدتي". وتنفجر الاثنتان ضاحكتان من هذه النكتة السرية التى لم يفهمها سواهما.

طوال هذا الحوار، بقى السواد الأعظم منا كما لو كان شخص ما قد سكب علينا ماءًا باردًا. كانت زوجة القسيس وحدها التى تغمغم بترانيم بينها وبين نفسها، رافضة وملغية طرق الإعدام كلها ومقيدة شياطين الإعدام.

وبُختهما الممرضة قائلة: "أنا لا أعرف كيف تتبادلان النكات والطرف حول هذا الموضوع".

"كانت هى أبشع المخيفات من بين النزيلات، فقد دخلت السجن بسبب عملية إجهاض أضاعت كلاً من الجنين والأم".

كانت الزنزانة ١٠ وآخر الزنزانات فى الصف. هذه الزنزانة كانت مخصصة لنزيلتين. فى زمن هذه الرواية، كانت تلك الزنزانة تُئوى عشر نزيلات، ما بين المحكوم عليهن بالإعدام وأولئك اللائى ينتظرن المحاكمة، وسوف ترى المزيد فى الوقت المناسب. سيحتضر الكثيرون.

الفصل الأول

المساء

كانت المشرفة العامة على جناح سجن النساء تقطع غرفتها الصغيرة جيئة وذهابا، وهى مستغرقة فى التفكير. كانت يداها إلى الخلف على ظهرها، كان رأسها منحن إلى الأسفل، فى حين كانت عيناها تنبئ عن سرحان بعيد، كانت تمشى ببطئ جيئة وذهابا داخل مكتبها، وهى تفتش فى ذهنها وتعتصره. خلاصة القول، كانت تلك المشرفة تتدبر بعض الجوانب المختلفة من وجودها، لكنها لم تصل إلى شيء من وراء هذا التفكير. كانت تلك المشرفة كالعادة، تتدبر حياتها كامرأة عزباء وهى فى الأربعينيات من عمرها، هذا يعنى أنها كانت مثل "ديك البرابر" على حد قول المثل.

وتنشط فجأة آلة الاتصال الكهربية، الأمر الذى آثار دهشة المشرفة العامة. كانت لوحة مفاتيح هذه الآلة تعمل بأصابع خفية، لتُخرِج رسالة مطولة مملة. وهنا تقوم مارسلينا أوكو أوجولوجو Ogologo oko Marcellina بالتوقف، وتطيل النظر إلى الرسالة والماكينة. يتعين عليها الانتظار إلى أن تكمل الماكينة الإرسال، وقبل أن تقرأ الرسالة، لقد تعلمت من سنوات العمل الطويلة الصبر. أن تكون رواقية أى لا تهتم بالفرح أو الترح فى الحياة.

تواصل المشرفة العامة سيرها، وقد انصرف ذهنها إلى مركز الرئاسة. ترى ماذا يريدون بعد ذلك؟ لقد صدر أكثر من توجيه منذ تعيين وزير جديد للداخلية منذ شهرين: أرسلوا لنا الإحصائيات الفلانية: أعدوا لنا الموجز العلانى، وضحوا لنا حال هذا ومتعلقات ذلك. قامت قلعة الرجل الحر Freeman بإرسال كل شيء، فما الذى يريده رؤساؤها أكثر من ذلك؟ والآن، وبعد أن أصبح العيد القومى على الأبواب، كانت تعلم أن جماعتها سيجرى اختيارها فى كل الاحتفالات التى تخطر على بال رؤسائها؛ مثل الاستعراضات، والندوات، وفى التماسات الرحمة والعفو...

ترددت معدة الاتصال وتأنت، وتشتت أفكار مارسى Marcy بسبب إيقاع الماكينة غير المنتظم. فى بعض الأحيان قد تتباطأ الماكينة وتتوقف برهة من الزمن. تنتظر مارس لأنها تعرف الماكينة حق المعرفة. هذه المنظومة تستغرق بعض الوقت؛ وهى بعد أن تتوقف برهة من الوقت عن الإرسال، تنشط من جديد وتواصل إخراج برقيتها.

كان ذهن مارسى، يتركز بين الحين والآخر، على الرجلين اللذين كانا فى حياتها: يعقوب وجمعه، هى رفيقة ليعقوب منذ بضع سنوات، لكنها التقت جمعة فى العام الماضى فى ندوة عن إصلاح السجون. لقد جلسا على طاولة واحدة وبحثا موضوعًا واحدًا، وبعد انتهاء الندوة قامت بتوصيلة إلى منزله فى سيارتها القديمة، وعلى حد تعبيرها على النحو الذى يحلو لها لقد "حملته على المتن".

مضى الحال على هذا المنوال طوال العام الماضى وضع شاذ لثلاثة أشخاص. كان جمعة أمرًا ضروريًا لها لأن يعقوب كان متزوجًا، وكان يمارس عملاً مجهدًا. لابد أن الأمر سينكشف شاءت أم أبت. كانت دومًا تفكر فيما يمكن أن يحدث. لابد من حدوث شجار مرة أو مرتين؛ فضلاً عن حدوث العديد من الإنذارات المرفوضة، وسوف يبقى الوضع على ما كان عليه، لن تغير مارسى من الوضع شيئًا، لأن الحاج كان يعرف أنها لن تُقبل على ذلك.

كانت مارسى تذكر يعقوب بين الحين والآخر "أولاً وقبل كل شيء، يجب أن تقبل الوضع على ما هو عليه، وأنت لك زوجة فى منزلك".

ويرد عليها يعقوب (فى ضعف) : "أنا رجل": قاصدًا بذلك أن هذا أمر مسموح ومباح للرجال.

وترد عليه مارسى "هذا لا علاقة له بالجنس، والقلب لديه القدرة على أن يحب أكثر من واحد".

كان جمعة يعرف الرجل الآخر الذى فى حياه المشرفة العامة على السجون،

لكنه لم يكن يهتم أو يعوّل على ذلك كثيرًا. لم يكن يعرف بالضبط شخصية ذلك الرجل، وكيف يكسب عيشه.

كان موقف الرجل المبدئى منذ البداية: "أنا لدى الرغبة فى تقاسمك معه، طالما أنه هو أول من ظهر فى المشهد. انسى هذا الموضوع. لا مستقبل لك مع مثل هذا الوضع، المستقبل بالتأكيد للدماء الشابة".

إذا كان لدى الأم أطفال كثيرون تساوى بينهم فى حبها لهم، فالسيدة بدورها تستطيع أن يكون لديها متسع للعيش مع رجلين أو أكثر من رجلين، توصلت مارسى إلى هذا الاستنتاج بينها وبين نفسها، وتركت الأمر عند هذا الحد. لم تكن تمانع فى أنه طالما أن الرجل بوسعه الاحتفاظ بزوجات كثيرات، فلماذا لا يكون للمرأة أزواج عدة؟ هذا يمكن أن يكون أمرًا جوهريًا. وطالما أنها ليس لديها خيار فى ذلك، فقد آثرت ترك الأمر للرجال أنفسهم: أى أنهم هم الذين يحددون البقاء معها أو الانصراف عنها. قال الناس: إن هذا أمر غير طبيعى. على كل حال، فإن مرحلتها السنية، لا تسمح لها بالبحث عن الأمور العادية، أو ما قاله الناس أو ما يعتقدونه. هذا يعنى أن هذا المرأة كانت تعيش حياتها على النحو التى هى عليه.

إذا ما سُئلت – وهذا ما لايجرؤ أن يفعله إنسان– فإنها تجيب بأن الرجلين يلمسانها بطريقتين مختلفتين، ويشبعان جانبين مختلفين من جوانب حياتها. وكانت تردف قائلة: إن من لا يعجبه هذا النظام، عليه أن يعفى نفسه منه. ولهذا السبب، كانت مارس تعيش وحدها، ورفضت التصرف حسب ما يقوله المحامى. كانت تفضل العيش منفردة، أى أنها كانت تلتقى الرجال بشروطها الخاصة.

كانت تعرف أنها فى يوم من الأيام سوف تختار شخصًا وتترك آخرًا، وقد يؤثر أحدهم الانسحاب برغبته هو. كانت تأسى فى بعض الأحيان لأنها سوف يتعين عليها الإقدام على هذا الاختيار مستقبلاً. كانت تعرف، بصورة أو بأخرى، أنها سوف يتعين عليها اختيار جمعة وتفضيله فى نهاية المطاف. الحاج (يعقوب) لديه زوجة بالفعل، ولم تتخيل مارس أنها يمكن أن تدخل بيتًا متعدد الزوجات. كان

جمعة خريجًا ضعيف الحال، مجرد "محامى كفالات أو ضمانات". وسوف تحدث مشكلة إذا ما كان جمعة يرغب بإنجاب الأطفال، فى الوقت الذى تعد فيه المشرفة على السجون عاجزة عن الإنجاب. لقد فشلت محاولة إنجابها الأولى نتيجة لأن الاثنين كانا عقيمين. يزاد على ذلك أن جمعة كان فقيرًا، فى حين كان يعقوب يمطرها بالثروة. ترى هل كان يمكنها إغفال هذا الجانب، ثم تذهب إلى رفيق مناضل، مجرد شخص مزاحم ومتدافع؟ بعد أن ذاقت الثروات وبعد أن ذاقت الحياة الطيبة، هل يمكن لها أن تقبل على الفلس والإفلاس؟ هزت رأسها منفعلة فى محاولة منها لإخراج تلك الأفكار المعقدة من أذنيها.

نشطت الماكينة مرة أخرى ونهائية، وأطلقت بعد ذلك صرخة شبيهة بصوت الجرس، ثم سكتت بعد ذلك. اتجهت السجانة صوب الماكينة، وغمغمت السجانة للماكينة، أخيرًا، لقد فعلت المطلوب منك. ومع وجود يديها من خلفها، راحت السجانة تمد عنقها كى تتمكن من قراءة البرقية. وعلى الفور تغير تعبير وجهها، ووضعت السجانة يديها على صدرها، وراحت تتحسس الميدالية الموجودة على صدرها. كانت تلك العملية تريحها بصورة دائمة.

تعجبت وهى ترسم إشارة الصليب "أيها الملائكة المقدسون!" ووضعت نظارتها على عينها، وراحت تقرأ البرقية باهتمام.

سرِّى للغاية ــ محظور

ارتفعت كلفة المحافظة على المحكوم عليهم بالإعدام ارتفاعًا كبيرًا، الأمر الذى أسفر عن تحميل مصلحة السجون مصروفات جارية كبيرة. والحكومة تشعر بالقلق إزاء تنفيذ أحكام الإعدام التى صدرت خلال السنوات القليلة الأخيرة، لكنها تباطأت فى ذلك بسبب غياب الجلاد.

عقب فك التجميد المفروض على الخدمة المدنية، سوف يجرى الإعلان عن وظيفة الجلاد الشاغرة.

أُعطى المتقدمون فترة قصيرة للتقدم خلالها لشغل الوظيفة الشاغرة. وسوف تجرى المقابلة الشخصية غدًا الموافق لليوم الحادى عشر من شهر أغسطس، وستكون المقابلة فى مكتب مدير شئون الأفراد. ويتعين على كبار القيِّمين على السجون حضور عملية الاختيار. وسوف يجرى التعجيل والتسريع فى تنفيذ أحكام الإعدام، وذلك من باب سد الأبواب الخلفية. ومن باب التوفير سيجرى تكليف جلاد واحد بالمرور على السجون، وتنفيذ الأحكام فى أقصر وقت ممكن طبقًا للجداول....

كانت هناك قائمة طويلة من سجون الإصلاح والتأديب فى سائر أنحاء البلاد. كان ترتيب سجن قلعة فريمان الثامن فى هذه القائمة.

غادرت مارسى الماكينة وهى مهزوزة، وانصرفت عيناها إلى مجلس التكوين المعلقة قائمته على الجدار. كان هناك الرقم (١٠) من بين قائمة المحكوم عليهم بالإعدام، وتتجه مارس إلى مكتبها وتخرج سجلاً ضخمًا باليًا بفعل الطقس. وراحت تقرأ فى السجل إلى أن وصلت إلى منتصفه، وعندما وصلت إلى الصفحة الصحيحة، راحت عيناها تتفحصان القائمة التى تضم أولئك الذين أشرفوا على الموت فى سجنها.

آمن، وأنتلّى، وأولوربو، وسوزانا، كل هؤلاء مسجونات. كانت هناك أيضًا زوجة القسيس؛ كانت هناك وُمى Wumi القابلة؛ وكانت هناك أيضًا بنتا Binta

ورحمة Rahmatu؛ وهذه موديباجا، وتلك أومـــو المراهقتـــان. إذن، لقـــد اقتربـــت نهايتهم، خطر ذلك ببالها وهى تشعر بالأسف. المنظومة تستغرق الوقت المطلوب، لكنها فى النهاية تمسك الذى يجيء عليه الدور.

قالت زعيمة النساء للمرأة الإيطالية: "الكلمة معك يا سوزانا افتحى صندوق باندورا.(*)"

نظرت المرأة البيضاء إلى الأعلى موجهة ناظريها إلى المتكلمة. هذا يعنـــى أنه جاء دورها فى الكلام. لمت المرأة شعرها الطويل المهفهف، والذى لـــه لـــون قشرة الموز الناضجة؛ لمت شعرها على شكل كعكة. وبينما كانـــت تفعـــل ذلـــك انكشف تحت إبطيها فظهر الشعر المتموج. سأحكى لكم ما حدث بالـــضبط، قالـــت ذلك لنفسها بلغتها الوطنية. أنتن نساء، ضحايا مثلى. ستفهمون ما أقول. وتركـــزت على سوزانا ثمانية أزواج من العيون. ودست سوزانا يدها اليمنى تحـــت مخـــدتها المتهالكه. كانت أصابعها تتحسس الأيقونة الدينية الموجودة تحت المخدة، وبعـــد أن تأكدت من وجود الأيقونة، وضعت سوزانا يديها بين ركبيها وبدأت كلامها:

" فى تلك الليلة، استيقظت كالعادة عند الساعة الثالثة صباحًا تقريبًا، وذهبـــت إلى دورة المياه، وفى طريق عودتى من الحمام، عبرت الصالة ودخلت الغرفة التى على يسارى، التى كان أطفالى ينامون فيها فى هدوء. جرت العادة أن أمر علـــيهم أثناء الليل. كانت الشغالة تنام فى هذه الغرفة هى أيضًا. كان هناك شكل داكن فـــى سرير الشغالة، يمتد من سطح السرير متجهًا نحو المخدة كما لـــو كـــان إنـــسانًا. انحنيت ولمست ذلك الشكل. إنه طرى، كان عبارة عن بطانية. إذن أين الـــشغالة؟ أنا أشك دومًا فى أنها كانت تتأخر دومًا فى الليل، ثم تختفى بعد أن يخلد كل من فى المنزل إلى النوم.

(*) بندورا: امرأة أرسلها زيوس عقابا للجنس البشرى، بعد سرقة بروميثيوس للنار، وأعطاهـــا علبة Pandora box ما إن فتحتها بدافع الفضول، حتى انطلقت منها جميع الشرور والرزايـــا فعمت البشر ولم يبق فيها غير الأمل. (المترجم)

"أعود إلى بسطة السلم وأروح أنحنى على الدرابزين، وأنظر إلى لا شيء أسفل السلم. كان الجو ساكنًا وهادئًا. اللهم من شعاع من ضوء من أضواء الأمن خارج المنزل كان منعكسًا على بسطة السلم. سأواجهها هذه الليلة. سوف أنتظرها إلى أن تعود. وفكرت فى إيقاظ زوجى كبير السن، الذى ينام فى غرفة النوم الرئيسية، لكنى قررت عكس ذلك. هذه هى فيلو Philo إحدى قريباته وسوف يتساهل معها بلا شك. كنت أحس بالقلق. كان بطنى الثقيل يشدنى إلى الأرض.

عند الساعة الرابعة والنصف صباحًا تقريبًا؛ وعندما كان الجوار ساكنًا على نطاق كبير، كنت أود النوم. وهنا سمعت بعض الضوضاء. فى وسط هذا الجو شبه المظلم لم استطع تحديد مكان انبعاث تلك الضوضاء، إلا بعد أن زيّق صوت باب غرفة زوجى عند فتحه. كانت فيلو تقف عارية تمامًا، وكانت هناك قطعة من القماش تتدلى من فوق كتفيها العاريين. وكان هناك جزء من ملابسها فى يدها. كان شيف Chief يقف خلفها، قليلاً إلى الناحية اليمنى. نظرت الشغالة يمينًا ويسارا، ثم تركتنى، دون أن تنظر إلى، وقصدت سريرها على أطراف أصابعها، ومع ذلك، استطاعت أن ترانى عيون الرجل الشبيهة بعيون الصقر، ويلمس كوع الشغالة لينبهها إلى وجودى ويحذرها. ودُهشت الشغالة عندما رأتنى.

يسأل "ما الذى تفعلينه هنا فى هذا الوقت من الليل؟".

"كان صوته متوترًا، وأنا الأخرى كنت مندهشة من كلامه. زوجى وشغالتي! أعتقد أنى أُغمى على أو شيء من هذا القبيل. كل ما أعرفه أن الزمن توقف بالنسبة لي".

قاطعت إحدى الحاضرات الراوية قائلة: "هل حدث ذلك عندما كنت .....؟"

أجابت سوزانا "لا، لم يكن كذلك....."

قالت زعيمة الجماعة: "واصلى كلامك". ثم تخاطب الأخريات قائلة : "ممنوع المقاطعة من فضلكن. سيكون هناك وقت كاف للأسئلة عندما تنتهى من كلامها".

"كانت البنت تمشى متدللة عبر بسطة السلم متجهة إلى المكان الذى تنام فيه، عندما دنوت منها للتكلم معها:

" مُاذا كنتما تفعلان فى هذه الغرفة يا فيلومنا Philomena؟ ماذا كنتما تفعلان فى غرفة نوم زوجي؟ فى هذا الوقت؟"

"قال العجوز: "لقد كانت تدلك لى ظهرى. وأنت تعرفين مشكلة ظهري". كان الرجل فى ذلك الوقت بين الباب والجدار. كانت إحدى يديه تمسك بـــأكرة البـــاب؛ الأخرى مسنودة على حلق الباب.

" صرخت فى الرجل العجوز "تقول أنها تدلك ظهرك على امتداد أكثر مـــن ساعتين، وهى عارية تمامه أيها الداعر".

حذَّرنى: "انتبهى إلى لغتك، اذهبى إلى فراشك". وبعد برهـــة أردف قـــائلاً: "حيزبونة".

غضبت، ارتبكت، وَمَخُونة. شغالتى وزوجي! وأمسكت بها ولطمتها لطمـــة شديدة، جعلتها تصطدم بالحائط. وإن هى إلا ثوانٍ حتى انهال على العجوز، وأمسك يدى اليسرى، وأبعدها عن أعضائه التناسلية Putana.

" اتركها ترحل!"

كنت على وشك أن أصفع البنت مرة ثانية، عندما أحسست بضربة قوية فى معدتى، وعلى جانبى، وعلى ظهرى. ثم بعد ذلك سلـــسلة مـــن الـــصفعات التـــى أعمتنى. كان زوجى يعاود ضربى مرات ومرات من جانب واحد. كانت البنت قـــد وقفت هى الأخرى وراحت تضربنى من الأمام، والفستان فى يـــدها. كانـــت تلـــك بلوزتها (قميصها). كانت الأزرار المعدنية تؤلمنى. وصرخت واستغثت بـــالجيران كى يجيئوا لمساعدتي".

التمعت عينا سوزانا، واقشعر بدنها.

قالت موديانا متعجبة وهى تهدهد رأسها: "آه!".

تصمت المتكلمة. وراحت تعبث بالأيقونات الدينية، ثم عادت إلى حالها الطبيعى تدريجيًا بعد ذلك.

"استغرق مجيء الجيران وقتًا طويلاً. أعتقد أنى متُّ. أحسست بسائل ينساب بين رجلى. تورم وجهى. لم أعد أرى بهذه العين اليمنى. أكاد يغمى على، وأحس بالضعف والدوار. كانت هناك خبطات وطرقات ودوى على بابنا الأمامى الآن، ذلك الباب الذى جرى غلقه بالمزلاج طلبًا للأمن. لم يستطع أحد الدخول.

"كان الجيران يصرخون حتى يسمعهم الجميع. "افتحوا الباب! هل تريد قتلها؟ افتح الباب!"

"واصل الشيطانان عدم اكتراثهما بالجيران. واستمرا فى ضربهما لى. وعندما سقطتُ مُتَكَوِّمَةَ على الأرض، بدأ يركلنى برجله ويمطرنى بأبشع السباب، وهو يقول لى إن ذلك سيعلمنى ألا أتحداه مستقبلا. وصفنى بأنى حيزبونة، وأنانية عبيطة، وآكلة لحوم البشر.

يستمر الطرق على الباب إلى أن سمعنا صوت آلة التنبيه فى سيارة الشرطة عن بعد. لابد أن أكون قد أُغمى على مرة ثانية، لأن ما سمعته بعد ذلك كان عبارة عن صرخة صادرة عن صوت رخيم: "الشرطة، افتح الباب!" فى ذات الوقت كان بعض الناس يدقون الباب كما لو كانوا يحاولون كسره. كان الباب على وشك الانكسار عندما نزل العجوز مترددًا، وراح يفك السلاسل والأقفال الكثيرة.

"انتظر، انتظر. أنا قادم" قالها وهو يصيح فى الناس. استرقت السمع عليه وهو يقول للناس "إنها مجرد مشكلة أسرية بسيطة". انتحبتُ أكثر وأكثر. وبصعوبة، زحفت إلى أن وصلت إلى رأس السلم. كان باب المنزل الرئيسى أسفل بئر السلم مباشرة، ورحت أحملق فى الناس الذين راحوا هم أيضًا يحملقون فى.

"سألنى أحدهم: "سوزانا، هل أنت بخير؟".

"هذا الحيوان كان يطأ هذه الشغالة الشرموطة" - كنت أحاول توصيل ذلك إلى الناس- "وعندما أثرت الذعر رَاحَا يضربانى. لقد انكسر حوضى وأنا لا أقوى على المشى. أرجوكم أن تنقلونى إلى المستشفي". كنت لا أزال أولول وأنتحب. استيقظ طفلانا. بدا الخوف عليهما. وبدءا يصيحان أيضًا.

ناديت على طفلى فى المكان الذى أرقد فيه، وأنا أطمئنهما قدر استطاعتى "حبيباى، عودا إلى نومكما". لكن لا طائل من ذلك كله. إريك Eric وماريا حبيباي!".

تختنق الرواية، "ولدى إيرك! ابنتى ماريا، حبيباي!" وتروح تجفف وجهها بطرف ردائها. وتصمت قليلاً. وينتظرها الجمهور. وتلتقط سوزانا أنفاسها وتستأنف رواية قصتها من جديد.

"قال العجوز موجهًا كلامه إلى لا أحد :"لقد نالت جزاءها".

"قالت له جارتى فى غير خوف: "أيها الوحش! وهى فى هذا الحال!" ثم تستدير جارتى إلى وتسألنى بصوت عال "مامدة حملك؟".

"أنا فى الشهر التاسع. والطفل متوقع نزوله فى أى وقت اعتبارًا من الآن".

"كان عدد قليل من الناس قد ارتقوا السلم. جاءوا إلى. وعلى الرغم من توسلاتهم إلى الرجل بنقلى إلى المستشفى فإنه يرفض ذلك، ويقول: إننى أنا الذى جررت ذلك كله على نفسى، ولم تلن عريكة الرجل إلا بعد أن هددته الشرطة بتوجيه تهمة القتل العمد إليه، وحذّرته الشرطة من أنه إذا ما حدث لى مكروه خلال عام من الضرب، فإن زوجى سيصبح مسئولاً عن ذلك. صاحَبنا إلى المستشفى العام عريف من الشرطة وجارة من جيرانى، كنت لا أزال أنزف نزفًا غزيرًا. كنت خائفة، وأحس أنى سأموت".

"قالت مودى Mudi متعجبة ومتعاطفة معى: "آه! أختاه. الطفل بخير".

" فى المستشفى أدخلونى غرفة العمليات على الفور، قال الطبيب إن الطفل ليس فى وضعه الطبيعى وفى حال سيء، كان زوجى يتجول هنا وهناك غير عابئ بما يحدث، يطلب الطبيب منه التوقيع على بعض الأوراق، ويرفض التوقيع، وترجوه هيئة العاملين فى المستشفى أن يوقع، لكنه يستمر فى رفضه. وعندما اشتد الألم ولم أعد أقوى على تحمله، أمسكت الورق ووقعت عليه بنفسي. وعندما طلبوا منه إيداع مبلغ تحت حساب الولادة القيصرية، حسب تعليمات إدارة المستشفى، رفض من جديد.

"قال لمسئولة الولادة: "إذا كان لديها القوة التى تمكنها من التشاجر معى، فلابد أن لديها القُدرة أيضًا على الإتيان بطلق الولادة".

"خلاصة القول، أعطونى حقنة".

قالت الممرضة وهى تهز رأسها علامة الموافقة: "أوكسيتوسين Oxytocin".

"يبدأ العمل، وبعد سبع ساعات، وبفضل الكُلاَّب، يجيء الطفل ألفونسو إلى الحياة. لم ينجح اختبار أعضاء الطفل؛ لأن طرفين من أطرافه كانا مصابين، يد ورجل. هذه الإصابات ناجمة عن اللكمات التى وجهها إلى والده، قبل أن أضعه، على حد قول الطبيب. بقينا فى المستشفى مدة تزيد على ستة أسابيع.

"عندما وصلت إلى المنزل، تعين على أخذ الطفل الرضيع إلى عيادة العلاج الطبيعى، بواقع ثلاث مرات كل أسبوع، بسبب طرفيه المشوهين. أصاب التلف أعصاب كثيرة، بعض آخر من أعصاب الرضيع كانت ضعيفة، ولا تستجيب للمثير. قام زوجى برحلة واصطحب معه فيلو Philo. كانت فى البيت أربع سيارات؛ واحدة منها رسمية وتخص زوجى، أما السيارات الثلاث الأخرى فكانت سيارات ملاكى. أَقْفَلَ هذه السيارات إقفالاً تامًا. تعين على ركوب حافلة النقل العام كيما أقوم بتوصيل إريك وماريا إلى المدرسة، ثم أذهب بعد ذلك بالطفل إلى عيادة العلاج الطبيعى، قبل أن أعود بعد ذلك إلى المدرسة لإحضار الطفلين، ثم أعود بعد ذلك إلى المنزل

لتجهيــز طعام الغداء، وهلم جرا. لم يكن معنا نقود كافية. لم يكن معنا نقود للطعــام، أو الانتقال. لم يكن معنا نقود لأى شيء. واقع الأمر أن أحد الجيران هو الــذى قــام بدفع فواتير المستشفى. ولولا ذلك، لما أُخلى سبيلنا من المستشفى.

"اختصارًا للكلام، عاد العجوز بعد ذلك بأيام قلائل. وأنا أعتقد أنه كان فى فنــدق من فنادق المدينة، لأن الناس قالوا لى إنهم رأوه فى وسط المدينة. عاد ومعه الشغالة."

بصقت باتسى Patsy وهى تقول :"جيل عنيد!".

"ينصحنى الأصدقاء بالحرص، وتجاهل اســتثارته. "فكِّــرى فــى أبنائــك وبخاصة الطفل الجديد. انتبهى لصحتك، احترسى، اثنان ضد واحد، أنت لا يمكــن أن تفوزي". هذه الدادة، الشغالة المزعومة، لم تعد تعمل أى شيء فى المنزل بعــد ذلك. لقد رقيت بحق إلى مرتبة الزوجة. كانت تصحو من النوم متــأخرة، وكانــت تذهب إلى السوق المركزية القريبة وتشترى طعام إفطار لنفسها، ثم تقوم بعد ذلــك بتنظيف غرفة العجوز، وبغسل ملابس صاحب الجلالة، ثم تستحم وتروح تنتظــر تناول الغداء. لم تكن تقــم بــأى عمــل مــن أى نــوع كــان داخــل المنــزل. يا لها من جهنم عندما يجرى ترقية شغالة لتصبح عشيقة. أنا أعــرف أن الرجــال مزواجون، وأن الرجل لا بد أن تكون له عشيقة. كنت أجلس وأســائل نفــسى، إذا كان الأمر كذلك فلماذا شغالة الزوجة، أو صديقتها، أو زميلتها؟ ما الــذى يجعلهــا تقترب من منزلة الزوجة؟ لماذا يهيننى على هذا النحو؟".

الواضح أن هذا السؤال لم يكن بحاجة إلى جواب. هز من يــستمعن إليهــا رؤوسهن على سبيل الموافقة.

أردفت أولورى Olori قائلة: "أنا أتعجب. لماذا يكون ذلك قريبًا جــدًا مــن المنزل؟ لماذا؟ "وتفرك كفيها وهى تقول: "لماذا؟".

واصلت المرأة البيضاء كلامها "لم أكن مريضة؛ ولم أكن على ما يرام. لقــد ضاع منى تركيزى، ضاع منى اهتمامى بما يحيط بى، ضاع منى احترامى لنفسى.

أحسست وكأنى لا أساوى شيئًا. خف وزنى. لم أقدر على الأكل أو النوم. فكـرت مرات عدة فى العودة إلى موطنى ومعى أبنائى، لكن من أين لـى بـرأس المـال المطلوب لذلك؟ أحسست مرات عدة، وكأنى أنهى هذا الأمر كله، عن طريـق دس السم لنا جميعًا، الأبناء وأنا". وتتوقف مرة أخرى عند هـذه المرحلـة. والتمعـت عيناها.

قالت متعاطفة أخرى: "ألم تكونى تعملين؟".

أجابت سوزانا "لا، افتتح لى صالونًا، لكنه أغلقه ثانية ومنعنى من الـذهاب إليه؛ أعطى هذا الصالون لدايو Dayo، إحدى شقيقاته، لكى تقوم هى بتشغيله. ثـم فتح بعد ذلك مركزا لرجال المال والأعمال، وطلب منى إدارة ذلك المركز. وبعـد ذلك بشهرين أخذ ذلك المركز منى. وقال إننى كنت ألتقى الرجال فى ذلك المركز. وأعطى المركز لابنة عمه كى تديره".

"ياله من جيل شرير!".

"أبنائى وأنا نعتمد على ما يعطيه لنا الأصدقاء والجيران والأبرشـية. كنـت أحس بالخجل والعار. هناك حد للشحاذة، والضعة، والاستجداء، والانكسار، كـان أطفال الضيعه يشيرون إلى ويقولون: "يالها من امرأة بيضاء مسكينة". كنت أرثـى لحال أطفالى، إذ كانوا دومًا جوعانين وتعساء. لم يكن عندهم ما يكفيهم من طعـام، وهم بذلك يكونون على العكس من رفاقهم أصحاب المعى المختلفة دومًا. فى أحـد الأيام، تجرأت وطلبت برفق من الريس أن يعطينا نقودًا للطعام والمدرسة.

"قالت المرأة البيضاء وهى تقلد العجوز: "هل أنت آسفة على مـا فَعَلْـتِ؟" وأصرَّ على أن اعتذر له ولفيلو Philo؛ وأصر أيضًا على أن أكتب له تعهدًا بحسن السير والسلوك، قبل أن ينظر فى طلبى. فعلت ذلك كله، ثم أمرنى بعـد ذلـك أن أكتب له مائة مرة "يجب أن أُحسن دومًا إلى فيلو. فيلو بنت لطيفة". يا له من إذلال ذلك الذى لقيته، كل ذلك كان من أجل أبنائى. التزمت بذلك. وراح يلـصق ذلـك

الأمر على جدران غرفة المعيشة، وعلى جدران المطبخ، وعلى بسطة السلم، كيما يذكرنى على حد تعبيره. ونادى على فيلو لكى تصحبه إلى مركز التسوق لـشراء زجاجة من البيرة، لأن هذه المرأة المسترجلة جرى استئناسها فى نهاية المطـاف. وأن هذا الأمر يستحق الاحتفال به.

ترتدى البنت ملابس الخروج. يمسك الرجل برزمة من النقود فى تباهٍ. أنـا أذكر جيدًا ما حدث. كنت أحمل الطفل المشوه على ذراعـى اليـسرى. وقـصدت الرجل فى المكان الذى يوجد فيه جهاز التليفزيون. كان ينتظر الشغالة كيما يأخذها معه ويخرج. مددت له يدى ليعطينى شيئًا من النقود.

بقينا مدة تزيد على خمسة أسابيع وأنا أحاول تدبير أمورى. وأنا الآن بحاجة ماسة إلى النقود كيما أشترى غذاءً لنا، وأدفـع نفقـات تطعـيم الطفـل والـدواء، ومصاريف الانتقال إلخ. مُدَدت يدى. تجاهلنى، ويقف فى تباهٍ ويتجه صوب الباب. عندئذ تصل البنت، ويخرج الاثنان ويتجاهلانى.

قررت الذهاب إلى منطقة التسوق كى التقيهما. كنت أشعر باليأس. لم يكـن فى المنزل شيئًا نأكله، لا شيء. جهزت الأطفال الكبار، وقصدنا مركز التـسوق/ بهو البيرة. كانت هناك سوق مركزية ملحقة على ذلك البهو. كنت أنتـوى شـراء بعض التموينات للصغار، وأطلب من الرجل العجوز دفع الحساب لراعى الـسوق. كان العجوز فى السوق المركزية مع فيلو، وكان فيما بينهما سلطانية مـن حـساء الفلفل. تجاهلتهما، ودخلت السوق وتناولت بعض الأشياء. عرفنى راعـى الـسوق كما عرف زوجى أيضًا. كان من عادة راعى المحل أن يعطينى بعـض الأشـياء بالأجل. خرجت ومعى الكيس المصنوع من البلاستيك، وضـعت الكـيس علـى الأرض بجوار إيدى Eddy كى يجرى تفتيشه. كان ما بداخل الكيس عبـارة عـن تموينات. تموينات خاصة بالأطفال: حليب، وخبز، وسكر وحبوب. كانت ذراعـى اليسرى لا تزال تحمل ألفونسو. مساكين. كان الطفلان الآخـران إلـى جـوارى، ويمسكان بتنورتى. لم يعلق العجوز بأى شيء، لم ينبس ببنت شفة. وعندما انحنيت

لتناول الكيس والتوجه إلى المنزل، أمسك بيدى، وقبل أن أصرخ أو أستغيث كانت يدى فى فمه، وأمسكت أسنانه الحادة بأصابعى. كان عضه مؤلمًا إلى حد أن سقط الرضيع ألفونسو من فوق ذراعى، ولطخ الدم قميصه الأبيض، دمى. صرخت صرخة مدوية، ورحت أصيح وأقول، يدى، آه، آه، يدى، ويتجمع الناس. ذاع صيت سمعتنا السيئة فى هذه المنطقة. بدأ العجوز يلوى يدى، فى حين كانت أصابعى لا تزال بين أسنانه يعضها عضًا شديدًا".

"شكاسة، وعناد!"

ولولت مودى قائلة: "آه!".

"أنقذنى بعض الرجال الأقوياء الذى استطاعوا سحب ذلك الوحش بعيدًا عن يدى، فى الوقت الذى كان هناك بعض آخر من الرجال الذين أبعدونى عنه. سال الدم فى كل مكان، دمى. وراحت أصابعى تؤلمنى كما لو كان مسمار قد جرى دقه فيها. كان أطفالى يعوون خوفًا، وهم يضربون أباهم بطريقة جنونية. صاحوا قائلين: "توقف عن ضرب أمنا، لا تضرب أمنا" آه يا ماريا. آه يا إريك Eric. أمنا حبيبتنا!".

توقفت الرواية من جديد.

تساءل كثيرون: "هل الرجل مجنون؟ هل يقاتل امرأة؟ هل تتصورون ذلك؟"

"قال أحد المارة "يا امرأة، إذا كان يفعل ذلك فى العلن، فأنا أرتعد خوفًا من ذلك الذى يمكن أن يفعله عندما تكونا فى منزلكما".

"قامت امرأة بدفع فيلو Philo حتى تفسح الطريق، "هذه هى السبب فى هذا السلوك المجنون الذى يأتيه هذا الرجل". سمعتها وهى تقول ذلك كانت تتكلم همسًا وتطيل الكلام. "شغالة تريد أن تسرق زوج مخدومتها". وحدقت غريمتى بنظرة شريرة. "لصه! اذهبى وابحثى لك عن زوج.

"قال أحد الحاضرين: "خذوها إلى العيادة، هذه العضة تحتاج إلى عمل بعض الغرز". ويردف آخر قائلاً: "وهى بحاجة أيضًا إلى عقار مضاد لداء الكلب".

"عدت إلى المنزل، خاوية الوفاض، ومتورمة وجوعانة. عدت إلى المنزل ومعى أطفالى الجوعانين. كنت كلما سمعت الصوت الناتج عن تناول أدوات المائدة فى منزل الجيران، أقوم بإرسال أطفالى إلى هناك. كانت المرأة تفهم أن ذلك من حسن حظنا. كانت تقوم بإطعامهم. كنت أنام بلا عشاء. وكان طفلى ألفونسو يبكى طويلاً قبل أن يغالبه النوم. جف أيضًا الحليب من صدري".

بدأت الرّاوية تبكى دونما خجل. وانهمرت الدموع على وجهها. كانت تجفف دموعها براحتى يديها، ثم تمسح أنفها بعد ذلك بطرف ثوبها، وعندما استأنفت حكايتها كانت نبرة صوتها قد تغيرت.

"صحوت فى الساعة الثالثة صباحًا فى تلك الليلة. كان المنزل هادئًا. تناولت الدمبلز من تحت سريرى. كنت استعمل هذا الدمبل فى بعض الأحيان لتدريب عضلاتى. كانت أصابعى المجروحة لا تزال تؤلمنى. كانت جارة من جاراتى قد وضعت مطهرًا على الجراح، ولفته بقطعة من الشاش. كما أعطتنى أيضًا مضادًا حيويًا وحبة بنادول لتخفيف الألم. اتجهت إلى غرفة العجوز. كنت أعرف أن بيرة المساء أدخلته فى النوم. كانت نظارته لا تزال على أنفه العريض. كانت هناك صحيفة مفرودة على صدره. ضربته مرات عدة على رأسه الشبيه برأس الطائر. انشرخت جمجمته مثل ثمرة جوز الهند. ثم قمت بعد ذلك بتحطيمه، وتهشيم ما بين رجليه، وتركته وهو ينتفض، ودخلت غرفة الأطفال، وفعلت الشيء نفسه فى البنت، ثم سحبتها بعد ذلك إلى غرفة نوم الرجل، وغطيتها فى عارها ببطانية فيلو".

خيم الصمت على الزنزانة عندما كانت نزيلاتها يستمعن إلى حكاية سوزانا. كانت واحدة أو اثنتان تتنحنحان طلبا للكلام، لكن أنتلى Intelle دفعتهما إلى ذلك.

"أنا شخصيًا، إن مكانك ليس هنا فى هذه الزنزانة. أنت متهمة بما يسميه الفرنسيون جريمة الإنفعال. وقد قُمْتِ بما قمت به دفاعًا عن النفس. وبالتالى يجب ألاَّ تكونى هنا فى هذه الزنزانة".

ردت سوزانا ردًا متأخرًا: "هذا دفاع متأخر عن النفس". وتطلق بعد ذلك تنهيدة تفيد الارتياح وهى تجفف عينيها، أحست بالتخفف مما كانت فيه. كانت تعرف أنهن سيقدرن موقفها. "عانيت الكثير. كان ينبغى على إنهاء هذه العلاقة منذ سنوات، على كل حال، أنا أنتظر المحاكمة".

"هذا المكان ليس مكانك. لأنه خاص بالمذنبين والمتهمين".

قالت إحدى الحاضرات "المذنبات والمدانات".

قالت الراوية شارحة وموضحة :"قالت السّجانة: لم يكن هناك متسع فى المُجَمَّع الآخر. كان مملوءا عن آخره. وهذا هو السبب وراء إحضارى إلى هنا". "قال السجان: إنى سوف أجيء إلى هذا المكان فى نهاية المطاف، وبذلك فمن الأفضل أن أتعود على هذا المكان....".

قالت الممرضة: "أنت تقولين إنها ينبغى ألا تكون هنا، إذن فمن الذى ينبغى أن يكون؟ أنا أقرأ أن عقوبة الإعدام قد ألغيت فى المجتمعات المتحضرة: ومع ذلك نحن هنا فى انتظار تنفيذ الحكم بالإعدام".

ذكرتها إحدى الحاضرات، وهى تؤكد على كلمة "متحضرة" فى الدول المتحضرة".

"لا يزالون يحكمون بالإعدام فى أمريكا، ومعروف أنها من الدول المتحضرة".

"مفروض أنها من الدول المتحضرة".

"ما لم أفهمه هو، ما الذى منعك من الاستيقاظ والذهاب عائدة إلى بلدك؟".

"إنها النقود. أنا لا يمكن أن أمشى من هنا إلى نابولي".

"أين نابولى هذه؟".

"فى إيطاليا".

قالت آمن Amen "قد لا ينفذ فينا حكم الإعدام. أنا محكوم على بالإعدام منذ أكثر من خمسة أعوام ولا أزال على قيد الحياة. وعليه، قد تكون هى الحياة التى سنحصل عليها فى نهاية المطاف".

واصلت المرأة البيضاء كلامها: "لقد زارنا المسئول القنصلى؛ وقال: إنهم سيخرجونى من هنا".

تساءلت أولورى بطريقة سفيهة "ولماذا يبعدونك عن هنا؟".

"أنت قتلتِ رجلين. أما أنا فقد قتلت رجلاً واحدًا فقط. وإذا ما كنت حرة، فأنا أيضًا يتعين إطلاق سراحي".

قاطعتهما الممرضة: "وأنا أيضًا".

قالت إنتلى Intelle مفسرة فى تُؤَدة: "الحال ليس على هذا المنوال. سوزانا أجنبية. بلدها يمكن أن يطالب بإعادتها أو تسليمها إليه، وبخاصة أنها هنا تواجه حكم الإعدام. انتبهن، فاجأ أو داهم رجل زوجته هى وعشيقها. ونشرهما إربًا، إربًا مثلما تُنْشَرُ قطعة الخشب. ما هى العقوبة التى أُنزلت به فى رأيك؟ الحياة!".

قالت بنتا Binta وهى تشير بيدها لتجذب انتباه سوزانا. لم تسمع سوزانا صوتها. كان ذلك الصوت العالى شبه غارق فى الضجيج. "فى تلك الليلة الأولى عندما أمسكت شغالتك مع زوجك، ألست متأكدة إن كنت قد حطمّتِ أشياء المنزل كلها؟".

غمغمت المرأة البيضاء قائلة: "لقد أُغمى على. أنا لا أتذكر جيدًا ذلك الذى حدث".

أصرت بنتا على كلامها. "ألم تكسرى التليفزيون، والأوانى الخزفية، والأدوات الزينية التى فى البيت؟".

قالت القوقازية موافقة: "ربما أكون فعلت ذلك. أنا لا أتذكر ما حدث".

كانت بنتا على صواب. زوجات كثيرات لجأن إلى أقصر الطرق المتمثلة في أثاث المنزل في كل مرة يحدث فيها مشادة مع أزواجهن. وكلما جرى تدمير أغلى الأثاث فإنهن يشعرن بالارتياح. هن يردن الوصول إلى أزواجهن الذين سيتكبدون مبالغ كبيرة لاستعواض ذلك الذى جرى إتلافه. كان ذلك خطأ مكلفًا نظرًا لأن الرجال يكرهون النزعة التدميرية في زوجاتهن. وبالتالي يزداد عنفهم نتيجة لذلك.

فيما يتعلق بسوزانا، فقد كسَّرت الأدوات الخزفيه الغالية، وجهاز التليفزيون، وحطمت الشاشة، وجهاز إضاءة الشاشة، وأمسكت بكرسي كان قريبًا منها وضربت به مرآة الحائط. وأمسكت بكرسي البار، وألقت به على أحد دواليب العرض، الأمر الذى دمر كل الأطباق والأشياء الزجاجية التى كانت في ذلك الدولاب. حاول زوجها الغاضب تهدئتها. وعندما رأى الزوج جهاز التليفزيون مقاس ٣٠ بوصة يُحدِّق فاغرا فاه، ملأه الحقد الأسود، وسيطرت عليه رغبة الانتقام من زوجته. وعليه لكمها لكمة شديدة في بطنها، غارت في بطنها وقطعت بعض الأغشية.

قالت إحدى الحاضرات: "دعونا نعود إلى القضية. نحن نضيع الوقت سدي".

"أى وقت نضيعه نحن سدي؟ نحن لدينا وقت العالم كله".

استأنفت إنتلى كلامها من جديد "لا تنسى أنه حان موعد "إطفاء الأنوار" خفّضن من أصواتكن".

"ما رأيك يا آمن Amen؟".

كانت آمن أكبر أفراد هذه المجموعة سنًا. كان شعرها الخفيف الذى علاه الشيب قد ابيض عند الصدغين. هناك شائعة تقول: إن آمن جرى استئجارها

لارتكاب عملية قتل. كانت تقوم بضرب أعدائك وتزهق حيواتهم، كانت تلك مجرد شائعة. لم تعرف الحاضرات حقيقة حكاية هذه المرأة. لقد أطلق عليها رفاقها اسم الدلع: (آمن)

لم تكن آمن معتادة على كثرة الكلام، ولم تقل حتى ولو كلمة واحدة طوال فترة المساء. سلكت حلقها أو بالأحرى تنحنحت. كان لها تسعة أصابع فقط. فقد خسرت واحدًا من أصابعها فى عملية من العمليات. كانت تخفى أصابعها تحت، خلف بلوزتها الباهتة خضراء اللون. نظرت آمن إلى المرأة البيضاء وقالت فى صوت خفيض:

"قبل ارتكاب جريمة القتل يجب أن تفكرى فى أمرين؛ أولهما، الهروب؛ ثانيهما، الجثة وكيفية التخلص منها. إذا لم يتم العثور على الجثة أو الجثث، يصبح القتل وكأنه لم يحدث. وهنا يظن الناس أن العاشقين قاما برحلة. وهنا تنتقلين سالمة معافاة أو تذهبين إلى نابولي".

"لم يجر تأمل الأمر أو التفكير فيه".

"ثم بَدَأْتِ بعد ذلك تتأملين الأمر، هذا هو الخطأ الذى وَقَعتِ فيه، ليس هناك معنى لعملية القتل لأنت كنت ستموتين بسببها مع الضحية. هذا انتحار".

أردفت إنتلى وهى تناجى نفسها: "هذا صحيح نحن لسنا فى اليابان".

"لماذا، ما الذى يحدث هناك؟"

"قد يقرر الرجل هو والمرأة قتل نفسيهما. وهذا هو ما يسميه اليابانيون هراكيرى Harakiri".

"أيصل الأمر إلى هذا الحد؟".

"لماذا يزهق الإنسان حياته بنفسه؟"

أردفت إحدى النزيلات قائلة: "لماذا تزهقين روح إنسان آخر؟".

كان نادى تضامن نساء سجن قلعة فريمان يعقد اجتِمَعاتهُ الدورى. وكالعادة، راحت النزيلات يدرسن، ويتدبرن قضية نزيلة من النزيلات. واليوم كان الدور على سوزانا. عبرت النزيلات عن آرائهن. تكلمت كل واحدة منهن. تكلمن جميعًا فيما عدا أومو Omo. كانت أومو قد راحت فى سُبَاتٍ عميق. كان اجتماعهن غير قانونى، نظرًا لانعقاده إلى ما بعد موعد إطفاء الأنوار. مفروض ألا يُسْمَعَ صوت النزيلات بعد هذا الموعد، وذلك طبقًا لما تقضى به القوانين، لكن سلطات السجن لم تكن توفر الوقت المطلوب لمثل هذه الاجتماعات، من هنا تواصل الاتحاد السرى.

ويعود إلى الحياة فجأة مصباح الفلورسنت المعلق فى السقف المرتفع، الأمر الذى جاء مفاجئًا لبعض الفئران والفراشات أثناء لعبها. فى ذات الوقت جاء صوت مساعد المشرف العام على السجون، عبر مكبر الصوت المتصل بالزنزانة. كان ذلك صوت السجانه السيدة/ إيز Eze، التى أطلقت النزيلات عليها اسم مستشيف Mischief (الأذى).

دوى صوت إيز (الأذى) داخل الزنزانة، "أنتن يا من تنتظرن الموت. أوقفن هذه الضوضاء. أغلقن أفواهكن. وأنت يا أنتلى، أيتها الناطقة غير المحترمة باسم المجلس، ادخلى إلى فراشك ونامى. هذا إنذار أخير. ثم تطفئ إيز النور من مكانها، وتعيد فتحه مرة أخرى. كان بريق الضوء محيرًا.

أثناء وميض الضوء استرعت النائمة التى كانت ترفس فى نومها انتباه النزيلات الأخريات. نظرت جارتها من السرير العلوى، فى الوقت الذى راحت فيه بقية النزيلات يحملقن فى السُّرر المرصوصة بطول الغرفة الصغيرة. راح الجميع يراقبن أومو Omo وهى تتهرش، وترفس، وتعطى أردافها لخصمها الخيالى.

أومأت أقرب النزيلات إليها قائلة: "هل أوقظها من نومها؟".

سألتها المتحدثة "لماذ توقظينها؟ لقد سمعت مستشيف (الأذى). يُكتفى بتغريمها لنومها أثناء الاجتماع".

كان يجرى فرض غرامة على كل من يسيء التـصرف أثنـاء الاجتمـاع، وكان يندر دفع الغرامة نظرًا لقلة النقود.

أبدت سوزانا ملاحظة: "كَوِّن جوقة".

قالت المتحدثة: "النصاب".

"تأجيل الاجتماع: التضامن!".

دوّى صوت المجتمعات "مدى الحياة!".

أضيئت الأنوار مرة أخرى، ثم أطفئت من جديد. تحولـت النـزيلات إلـى النظر إلى الجدار، وهن يحاولن النوم. البعض منهن كن يحسدن أومو. لديها القدرة على النوم حتى وإن كان على شكل نوبات متقطعة.

هبت نسمة قوية مصطدمة بجدران السجن. أحدثت تلك النـسمة خشخـشة خطيرة فى السقف. عندما بدأت تلك النسمة أحست بها إحـدى النـزيلات، وعلـى الرغم من التأكيد على أن كل النزيلات بوسعهن تحمّل هذه النسمة الـشديدة، فـإن أحدًا منهن لم يستطع ذلك. كان من السهولة بمكان تناسى تلك النسمة أثناء النهـار، طوال الروتين اليومى المبتذل؛ لكن صوت هذه النسمة كان يبدو كمـا لـو كـان سيقضم وعينا، الأمر الذى كان يثير غضبنا وحنقنا. صـاحت إحـدى النـزيلات صيحة ذهبت أدراج الرياح وهى تطلب إيقاف تلك النسمة!

"أوقفوا هذه النسمة! أوقفوا هذه النسمة! أوقفوا هذه الضوضاء!".

نظرت النزيلات الأخريات إلى أعلى مندهشات. وتعدن النزيلات إلى النوم من جديد، ذلك النوم المشوب بالقلق وقلة الراحة. لقد فهمن، لم يكن بوسع أى أحـد فعل أى شيء. كان ذلك جزءًا من عدم الإحساس بزمن الحياة فى هذا المكان.

تناهى إلى مسامع النزيلات صوت حذاء كان صاحبه يقترب من الزنزانـة. وخلال لحظة، امتد مصباح السجان الكهربى داخل الغرفة، مـن خـلال البوابـات الحديدية، وبدأت أشعة المصباح تنتقل من مكان إلى آخر فى الغرفة، ومـن نزيلـة

إلى أخرى. صمت كامل. تظاهرت النزيلات بالنوم. وهنا أمسكت مستشيف (إيــز) المصباح الأسود كما لو كان مدفع ماكينة، وراحت تصوب طلقات خيالية إلى كــل شكل من الأشكال النائمة فى السُّرر، الواحد بعد الآخر، كبا، كبا، كبا، Kpa ، Kpa ، Kpa أحدثت إيز هذه الأصوات باستعمال فمها، ثم أطلقت بعد ذلك ضحكة شيطانية فيمــا بينها وبين نفسها. وعندما تأكدت أن شيئًا لم يحدث، استدارت، واتجهت عائدة إلى مكانها عند الزاوية وهى تغمغم قائلة: "موتى أحياء".

الفصل الثاني

فترة المساء

كان الوقت مصادفًا لموعد الترفيه فى قلعة فريمان. ونظرًا لصغر حجم فناء السجن فإن المربعات السكنية كانت تمارس الترفيه بالدور، أى مربع بعد مربـــع.. جرت العادة أن يرفه المحكوم عليهم بالإعدام عن أنفسهم قبل بقية النزلاء الآخرين. كان الترفيه عبارة عن التجوال خارج الزنزانة فى الفناء، واستنشاق النسيم العليـــل القادم من التلال. فى حين كانت السيدات يتكئن على الجدار، ويرحن يراقبن الزمن وهو يمر بطيئًا، ولا يفعلن شيئًا سوى التفكير فى أحبائهن الـــذين تـــركنهن علـــى الجانب الآخر.

كانت الأمهات من بين هذه السيدات يتدبرن مصائر أطفالهن. ترى ما حـــال ذلك الطفل الذى كان يعانى من المرض، وكيف يتناول طعامه؟ وذلك الطفل المعاق إعاقة خفيفة، كيف يتعامل مع هذه الإعاقة؟ ترى هل ما يزال هذان الطفـــلان فـــى المدرسة؟ من الذى يرعاهما، ويطبخ لهما طعامهما، ويغسل لهما ملابسهما، ومـــن الذى يواسيهما؟ ومن الذى ينصح لهما، ويدفع لهما المصروفات المدرســـية؟ مـــن الذى يفض شجارهما، ومن الذى يهتم بجراحهما الصغيرة؟ مـــن؟ ومـــن؟ كيـــف ينظران إلى غيابى الطويل، وكيف ينظران إلى حبسي؟ هل لا يزالان يذكراني؟ هل يفكران فيّ؟ هل هما على ما يرام؟ أسئلة، وأسئلة كثيرة، وهموم لا تنتهى.

كانت سوزانا مهمومة بطفلها المشوه. هم لا يعرفون الحـــدود. لـــو كانـــت تعرف أن بالإمكان إحضار الطفل معها لجاءت به إلى هذا المكان. هـــذا الرضـــيع بحاجة إلى الحب أكثر من أى شيء آخر. ومن الذى يمكن أن يعطيه هذا الحـــب؟ ظلت سوزانا مهمومة بذلك الرضيع ومشغولة به إلى أن أُبلغت فى أحد الأيـــام أن صهرا سابقًا لها قد أودع الطفل فى مؤسسة تدعى: دار أمل الأطفـــال (للمعـــاقين).

وهنا أحست سوزانا بالارتياح. كانت سوزانا على يقين من أن الأخوات الأيرلنديات فى تلك المؤسسة سيقمن برعاية الطفل والاهتمام به. وفيما يتعلــق بطفليهـــا إرك Eric وماريا Maria فسوف يتمكنان من الحياة. كانا مستقلين بالفعل. ومع ذلك فإن غياب حب الأم ورعايتها لن يؤذيهما كثيرًا. كانت سوزانا تردد بلا انقطاع وبلغتها التسبيحية التى تقول:

Ave o Maria. Pina di grazia. il signor `e con te. Tu sei benedetta fra le donne e benedetto il frutto del tuo seno, Gesu. Santa maria, madre di Dio, prega per noi peccatori, adesso e nel ora della nostra morta. Amen.

كانت لكل من نرس Nurse ومودياجا Mudiaga وأولورى بنـــت مراهقـــة، وكن يشعرن بالقلق إزاء مستقبلهن. ترى هل بدأت ينكا Yinka تحيض؟ إذا كانـــت الإجابة بنعم، فمن الذى يُعَرّفها حقائق الحياة؟ وماذا عن روث Ruth؟ كيف تتعامل مع فترة المراهقة وبخاصة الصبية؟ وأنت يا فونلايو Funlayo، يامن بلغــت ســن الرابعة عشر الآن، هل بدأت تتعاملين مع الدورة الشهرية؟

تذكرن أزمانهن، عندما نزل عليهن الطمث الشهرى، وكيــف أنهــن كــن مندهشات، ومتأكدات من أنهن ربما كن قد أصبن بمرض من أمراض الدم يمكــن أن ينهى عليهن. من حسن الحظ، أنهن لم يتركن يضربن أسداسًا فى أخماس، حتى يعرفن أن ذلك هو بداية عهد الصِّبا.

هذه هى نيرس، التى كانت قد التحقت بإحدى المــدارس الداخليـــة، تنـــدفع متجهة صوب المستشفى، فى إعياء شديد، وهى تمسك الجزء الأسفل من بطنهـــا. كانت هناك زائرة صحية فى المستشفى فى ذلك الوقت. كانت لدى هـــذه الزائـــرة الخبرة المطلوبة ولذلك راحت تطمئنها، وأعطتها بعض الفوط الصحية وكـــل مـــا يلزم. كانت فوط "ليدى سبت" Ladysept الصحية ذائعة الصيت فى تلك الأيام، على

حد تذكر نيرس. لا تزال نيرس تذكر تلك اللفائف الزرقاء العميقة التى لا تثبت فى مكانها. كانت نيرس تتحرك فى هذه الناحية وتلك الناحية مثل بطة تود العودة إلى مكان نومها. من حسن الحظ أن الآلام المصاحبة للدورة الشهرية مكنت نيرس من الحصول على إجازة مرضية لمدة يومين.

اهتاجت ذكريات مودى هى الأخرى. لابد أنها كانت فى الثالثة عشر من عمرها. أحست برغبة شديدة فى التبول، واندفعت ذاهبة إلى دورة المياه، التى هى عبارة عن تحويطة من الأسمنت فى الشقة المكونة من غرفتين التى استأجرها والدها لأسرته المكونة من سبعة أعضاء. وترى فى هذه التحويطة المادة الصلبة وهى تتدحرج نازلة من خلال الماسورة إلى الحفرة التى فى الجدار، ومنها إلى مؤخرة المنزل فى الخلف. فى هذه المرة فقط، لاحظت مودى عندما نظرت، كتلة حمراء داكنه مختلطة بالسيل. أطالت مودى النظر إلى ذلك الشيء، وهى تتعجب مندهشة، هل نزل هذا الشيء منها أم أنه موجود هنا من قبل؟ وعندما ألقت نظرة على سروالها الملطخ بالدم زادت مخاوفها. تذكر أنها عرفت أنها كانت على وشك الوفاة، وصرخت تعبيرًا عن خوفها ورعبها، وجاءت أمها تجرى. رأت ابنتها وهى شبه عارية، استوعبت المشهد، وفهمت حقيقة الأمر. وضمتها إليها وطمأنتها.

أما أولورى فقد أحست بإعياء شديد وغثيان، وأخذتها أمها إلى العيادة. كانوا يعيشون فى مخيم شركة (شل) فى ذلك الوقت. كان الطبيب الأبيض يود الكشف عليها، ولكن أمها رفضت. لقد سمعت حكايات من قبل عن مداعبة الأطباء لأشياء البنات الصغيرة.

قالت والدة أولورو للرجل الأبيض: "هى مصابة بصداع. فلماذا تود الكشف عليها من أسفل؟"

دخلوا غرفة الكشف. وهذه هى أولورى ممددة على طاولة الكشف، وهذا هو الطبيب الحرج لا يعرف كيف يتصرف أو يبدأ.

تدخلت الممرضة النيجيرية.

أكدت الممرضة للأم العنيدة، التي وافقت وهي مترددة "سأكون هنا عندما يبدأ الكشف". انظري وناظري، هذا هو السروال ملطخ بالدم.

شخّص الطبيب التعب قائلاً: "هذه هي دورتها الشهرية قد بدأت. من الطبيعي أن تكون الدورة الشهرية مصحوبة بالحمى والصداع".

أعطتنا فوط صحية كثيرة مع بعض المسكنات. كانت الممرضة قد أبلغت أولوري بأن تكون حريصة في لعبها مع الصبية اعتبارًا من الآن، لأنهم يمكن أن يجعلوها "حاملاً أو حبلى....".

رحن يولولن من الداخل، من ذا الذي يجرؤ على جعل بناتنا حوامل؟ من الذي يمكن أن يعلمهن حقائق الحياة؟ سرحت عقولهن بطريقة منطقية في المستقبل ووصلت إلى شأو بعيد ورأين بناتهن وهن على وشك الزواج، ثم بعد ذلك وهن يهدهدن أطفالهن الرُّضع. تلك هي الأوقات التي يتحتم فيها وجود الأم، والتعويل على وجودها الذي يصبح أمرًا لا غنى عنه. من الذي سيقوم بزيارة بناتنا، ويقوم بتحميم الطفل، وينظف ويقلل من آلام ما بعد الولادة؟ آه من هذا القيد، آه، من فقدان الحرية، آه، من فقدان الحياة، آه، من هذه الحياة بين المنسيين.

كانت إنتلي تحثهم قائلة: "أوقفن هذا الكلام. أوقفن هذا الكلام. تناسين كل ما هو خارج السجن. لأن هذه هي الطريقة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة إلى النهاية، مهما كانت هذه النهاية".

هذا هو وادي خيال الموت، على حد قول باستور Pastor في يوم من الأيام، أو بالأحرى عندما قالت هذا الكلام فيما بينها وبين نفسها. ثم راحت بعد ذلك تردد كالعادة مزمورها المفضل:

على الرغم من سيري خلال وادي خيال الموت

لن أخاف أى شر، لأنك معى.

أنت الذى تبعث وأنت الذى تجهز لى هذه الراحة.

فكرت الكثيرات فى إزهاق حيواتهن، فكرن فى إنهاء حيواتهن إلى الأبد، فكّرن فى كل شيء يمكن أن يجعلهن يهربن من آلام الذهن المفكر، من ذلك الذهن الذى يعود إلى الماضى بصفة مستمرة. أهذا أنا؟ كيف، كيف جئت إلى هنا؟ أهذا هو أنا؟ المرأة نفسها التى كانت قبل أشهر قلائل؟ ربة البيت؟ وعضوة فى نادى إيانجا، أتحرك فى حرية، وأقيم علاقات اجتماعية. ما الذى حدث؟ كيف أصل إلى هذه النهاية؟ كيف؟

نعم، كن يفكرن فيما حدث وما يحتمل أن يحدث، الشيء الوحيد أنهن لا يمكن لهن التصرف فيما هن فيه. أخيرًا، وبطريقة حتمية تخرج من بين شفاههن تنهيدة محملة بالألم، ويرحن يتهامسن بعد ذلك فى قلق وضيق. وبصورة حتمية ينتهى بهن الأمر إلى وضع أسرهن، وبخاصة أبنائهن بين يدى الله.

كن يدعين "يا الله، أرجوك لا تنسى أبنائى. ارع إيابو Iyabo، وداود، وفيومى، وكنل Kunle، وبود Bode، وأبيجيل Abigail، وسيث Seth، وروث Ruth وينكا Yinka. ارع الأبناء الذين أعطيتنى إياهم. احمهم من أخطار الأسر الممتدة، إحمهم من المرأة الأخرى. أرشدهم، عَزِّهم، كن لهم أما وأبًا. يارب، اجعلهم يسامحوني".

كانت باستور تتضرع إلى الله، ويرد عليها كل من هن فى الزنزانة "أنا أغطيهم بدم يسوع الثمين. دم يسوع، دم يسوع". وكان يؤمن عليها غير المسيحيات أيضًا.

كانت إنتلى تحثهم على تغيير الحديث، لكن بلا طائل، لأنه لم يكن بوسعهن فعل ذلك مثل محطات FM الإذاعية ... كانت سوزانا تبحث عن وساطة أو الرب. كانت سوزانا تتلو كل يوم ابتهال مريم العذراء من أجل أبنائها. كانت تتلو وتنشد

ذلك الابتهال مرات عديدة وعيناها سارحتان إلى بعيد، ربما كانتا سارحتين فى فترة شبابها إذ كانت تخرج من شفتيها عن غير وعى بعض الكلمات الأجنبية.

Rivedere napolie poi muorire, madre di Dio; prega per me, Modre dello salvatore Mundi prega per I miei bambini.

يا أم المسيح، يا راحة المكروب، ياعون المسيحيين.

كانت إنتلى هى وأُمو النزيلتين الوحيدتين فى الزنزانة رقم (ww10) اللتين لم تذهبا بعد إلى غرفة العمل.

قالت نيرس للمتحدثة ذات يوم: "اعتبرى نفسك حظيظة؛ لأنك لا تعانين من ذلك نحن نعانيه: نحن منعزلات عن أبنائنا، وقد أعيانا التفكير فيما يمكن أن يحدث لأبنائنا، كما أعيانا أيضًا الارتباك الذى سيكونون عليه، وكذلك سوء المعاملة التى يمكن أن تطالهم من منافسينا وأعدائنا، وكيف أن هؤلاء الأعداء سيسيئون إليهم".

ردت عليها إنتلى قائلة: "لقد اعترفت بأنك كنت أُما لمن حلت محلك فى أضعف الأحوال".

أنتلّى، لم يحدث أن عجزت تلك المرأة مطلقًا عما تقوله، وكان ذلك هو السبب وراء جعل النزيلات منها رجلاً شرفيًا، وانتخابهن لها لتكون ناطقة باسم المجلس.

أعندما تموتين ستكونين قد خلّفت وراءك تذْكرة الموت التى تذكر الناس بك؟ وعندما يرى الناس طفلك، سوف يتذكرونك. هذا يعنى أنك ستبقين على قيد الحياة من خلال أبنائك. تدخل إنتلى فى عالم النسيان مع ماضيها ومستقبلها؛ لقد ذهبت وولت ولن يتذكرها أحد بعد ذلك. وأنا حتى عندما أتنفس فى هذا المكان، فأنا محسوبة فى عداد الأموات. أنا لا أوجد فى أى مكان آخر. الويل لي! يا لها من خسارة!" ثم تطلق بعد ذلك فحيحا رطبًا طويلاً.

تعجبت نيرس بعد أن دار في رأسها "أي تذكار، أي موروث سأخلّفه ورائي؟ في كل مكان تذهب إليه ابنتي، سوف يشيرون إليها، على أنها ابنه لأم جرى تنفيذ حكم الإعدام فيها، سيشيرون إليها من منطلق أن أمها ماتت في السجن، أمر يدعو إلى الرثاء، شيء يدعو إلى الاستهزاء والاحتقار. أي تذكار هذا؟".

تعجبت باتسى Patsy وهي تتلاعب بأصابعها "حاش لله! هذا ليس نصيبنا من اسم المسيح. أنا أقيد أرواح الإعدام وألقي بها في غيابة الجب". ثم ترفع ذراعيها وعينيها إلى السقف. وتختم كلامها قائلة: "لن أموت وسوف أحيا".

دار بخلد إنتلى أنهن كلُّهن جانوس Janus، كلنا جانوس، كلنا بوجهين: وجه منهما ينظر دومًا إلى الخلف، والآخر يتطلع إلى المستقبل. من ذا الذي قال إننا لا نعرف ذلك الذي يخبئه الماضي لنا؟

كانت أولوري جالسة مهمومة على الأرض. كانت تمسك برأسها بين يديها كما لو كان بطيخه. بوسعك القول إن الألم كان لا يطاق.

ولولت قائلة: " Ori mi O!. آه! رأسي يؤلمني. رأسي فيه مطرقة، وأنا بحاجة إلى شيء من البنادول!" لكن البنادول لم يكن موجودًا. لقد طلبن البنادول مرات كثيرة في الماضي. ولم يحصلن على أي شيء منه. كانت الصيدلية خلوًا من البنادول.

صرخت ستاف Staff، لأنها لم تكن قادرة على تحمل الألم. "عجبًا! ليس لديهم حتى البنادول العادي!".

تنبأت باستى "سيذهب الصداع مثلما جاء". كانت باستى تنتمي إلى الكنيسة التي لا تؤمن بالدواء والعلاج.

كان من عادتها القول "ارجعي للكتاب المقدس. كل الناس الذين شفاهم يسوع، هل (عليه السلام) استعمل معهم دواءًا؟ هل وصف لهم أقراصًا أم حقنًا؟ لا! بوسعه (عليه السلام) أن يشفيك بلا دواء أو عقاقير. المطلوب هو الإيمان بذلك ليس إلا. اهدئي، ودعي الأمور تجرى في أعنتها اتركي الأمر لله! أقول دعي

الأمور تجرى فى أعنتها وسلمى أمرك لله!" وكانت تستأنف وضعها من جديد، بأن تمد الذراع الأيمن كيما يكون بحذاء كتفها.

ذكرتهن نيرس، ونمى Wunmi: "انتبهن، هذا وقت الراحة. هذا التفكير كله، هذا التفكير كله ليس فى صالح صحتنا". ثم تتحول ناحية المرأة العجوز وتقول لها برفق "اسكبى ماءًا باردًا على رأسك عندما تستحمين فى المرة القادمة. وعندها سيذهب عنك الصداع".

خطر ببال إنتلى مقولة: أنا أفكر، إذن أنا موجود. يقول ديكارت: "أنا أفكر، إذن فأنا موجود". لكن التفكير الذى نحن فيه أكثر مما ذهب إليه ديكارت. جانوس، كانت تريد الإمساك بالرأس ذى الوجهين وتديره. لكن لا طائل من وراء ذلك. إذ سيبقى وجه ناظرًا للخلف، والأخير ناظرًا إلى الأمام. ربما استطعت إحضار قطعة من القماش وأغطى بها الوجه الخلفى. أعمى عينيه، وأعمى عينى الوجه الذى ينظر إلى الأمام أيضًا. أولاً وقبل كل شيء لماذا التطلع إلى المستقبل؟ ليس هناك مستقبل، ليس هناك أى شيء، سوى الموت والظلام، والنسيان.

حثتهن نيرس "هيا بنا جميعًا، هيا بنا نلعب. هيا بنا نحول أذهاننا إلى التفكير فى اتجاه آخر".

كان أحد الزائرين قد أحضر كرة، كرة أطفال كانت الكرة زرقاء اللون ومصنوعة من البلاستيك الناشف. أمسكت سوزانا بالكرة فى شيء من التردد وقذفتها إلى مودى. نظرت مودى حولها ثم قذفتها متراخية إلى ستان التى قامت بدورها بقذف الكرة إلى باستور. انتشرن فى المكان، وحاولن التركيز على اللعبة، حتى يتناسين الأمور الأخرى.

كانت أومو تقبع فى أحد الأركان، وتروح تراقب اللاعبات وهى فى نوبة من نوبات الشرود الذهنى. كانت تناجى نفسها وتمضغ أفكارها.

اقتربت إنتلى من الشرخ الموجود في الجدار. كان الشرخ صغيرًا، عبارة عن فجوة بين كتلتين قديمتين غير مليستين. كان ذلك الشرخ كافيًا لتحقيق

أغراضها. كانت إنتلى تحسد السحالى التى كانت تحبو حرة من جانب هذا الشرخ إلى الجانب الآخر. كانت تسمع من خلال هذا الشرخ أصوات الطيور، وهي تغدو وتروح من فوق جدران سجن فريمان فورت، وتروح تصنع لنفسها أعشاشاً فوق نخلة على الجانب الآخر من ذلك الحاجز العظيم. كان الناس على الجانب الآخر من ذلك الحاجز من غير النزيلات: كانوا يفعلون أشياء كثيرة، يتحدثون، يضحكون، يعيشون حيواتهم. وفجأة ينطلق صوت إحدى الدراجات.

كان صوت فتاة ينادى قائلاً: "ماء نقي!".

وينطلق صوت آخر: "الفول السوداني! الكولا الحلوة اللاذعة!"

وتهل علينا من الخارج رائحة الدخان. وتتشمم إنتلى الدخان، تتشممه بنهم. بوسعك طى نقودك على شكل عقدة صلبه وتلقى بها من فوق الجدار. ويقوم البائع الجائل بإلقاء السلعة المطلوبة فى الداخل. كانت السلعة المطلوبة فى الداخل قطعة من الحلى، وبالتالى يمكن تمريريها من خلال الشق. تضع إنتلى شفتيها داخل الشق.

قالت بصوت معتاد "فول سودانى بعشرة نيرات". وقعت عينها على عين البائعة الشابة من خُلال الشق، ثم ألقت لها بالعملة الورقية.

أومأت البائعة برأسها. عايرت البائعة السلعة المطلوبة، ثم لفتها فى قطعة من ورق الصحف القديمة، ولفتها لفًا جيدًا، ثم وضعت ذلك كله داخل كيس من البلاستيك الشفاف، وراحت تضغط ذلك كله خلال الشرخ كيما تناوله للمشترية.

كانت السجانة تقوم بدورية داخل رباعى الإصلاح. استشعرت إنتلى أن الضابطه تراقبها، على الرغم من عدم رؤيتها تقترب منها. فكت النزيلة اللفة ثم نقلت حبات الفول السودانى من ورقة الصحف إلى الكيس البلاستيك. وألقت الورقة بطريقة غير مبالية وراحت تأكل حبات الفول. عندئذ كان الحذاء الثقيل قد اقترب منها. فردت يدها ومدتها إلى المرأة الشريرة، دون أن تنطق بكلمة واحدة، وأخذت كل ذلك الذى اشترته النزيلة وعادت أدراجها مرة ثانية.

"أنتلّي، أنت تعرفين أن النقود ممنوعة فى السجن، أنت تعرفين ذلك جيـدًا. وأنت من هواة مخالفة الأوامر".

لم تقل السجينة شيئًا. وعندما اختفت السجانة فى بطن المبنى المظلم، انحنت وتناولت ورقة الصحف.

فى ساعة متأخرة من تلك الليلة، فردت السجانة الورقة. وكلح وجهها عندما وجدت أن الورقة تحتوى على مواد صحفية عامة. تنهدت لأن الورقة كانت شـبه خالية من الأخبار. فى المرة القادمة سأطلب من البائعة الجائلة استعمال جزء مـن الورق العامر بالأخبار. وبهذه الطريقة يمكننى معرفه ما يدور خارج السجن. لكن يكفينى ما عندى فى الوقت الحاضر. شيء أحسن من لا شيء. راحت إنتلى تقـرأ بمساعدة شعاع الضوء الخافت الذى كان يتحدى القضبان بالمرور خلالها.

قرأت فى البداية العنوان: "تغيير الأسماء". كنت أعرف من قبل، بل وناديت بأن السيدة/ دس Dis تود الآن أن تُعرف وين اديها الناس باسـم الـسيدة دات Dat. ستبقى المستندات السابقة كما هى وسارية المفعول. وهذا الإعلان لمعلومية الوزارة العلاّنية هى وعامة الناس. بلاه، بلاه، بلاه. وهنا ناجت إنتلـى نفـسها أن النـاس مازالوا يتزوجون. أنا بعيدة جدًا عن ذلك العالم.

كانت هناك تغييرات كثيرة فى الأسماء، وبخاصة فى أسماء الإناث حـديثات الزواج. كانت تتعجب فيما بينها وبين نفسها عن حقيقة احتياج النـساء التـى تتغيـر أسماؤهن عندما يتزوجن، وبخاصة أن حياة الزوجية قصيرة الأجل. نـساء كثيـرات يحملن فى ذلك الوقت اسم حرم فلان أو علاّن، وذلك من الناحية الاسمية فقط، نظرًا لأن صاحب هذا الاسم انتقل بالفعل إلى شريكة أخرى، أو شريكات أخريـات. قلـة قليلة من الذكور غيرت هى الأخرى أسماءها أيضًا. بدأ الناس يتخلون عن الأسـماء صعبية النطق، ويستعملون الأسماء الأبسط والأسهل. أنا من قبل كانوا يدعوننى نوسو Nwosu، وأود الآن أن يدعوننى نواشوكو، أو فيفور، أو نجاح، أورتشمان.

انتقلت عينا إنتلى إلى السطور الأخرى، واستقرت على إعلان صادر عن ممارس طبى تقليدى.

> **لماذا تموت فى صمت؟ عليك بزيارة المعلم سانى زونجو الشهير فى المنطقة ما بين رأس الرجاء الصالح والقاهرة. هو الذى يستطيع شفاء الأمراض كلها، الطبيعى منها والذى من صنع الأعداء بما فى ذلك الورم الخبيث بلا عمليات، وهو يعالج أيضًا السيلان، وضعف العضو، وسرعة القذف، والمنى المائى، وكبر الفخذين، والفقر، واكتشاف السم، ومسحوق المطاردة، النغمة المسيطرة، منديل وقلم الاختبار، انفاق النقود واستردادها، منع رجُلك من الحصول على امرأة أخرى والعكس صحيح... إلخ.**

تمتعت إنتلى بالمقالات. وراحت تقرأ وهى مرحة وقانعة. لم تكن إنتلى فى أوقاتها الطبيعية أو المعتادة تطيق تضييع الوقت سدى حتى ولو لحظة واحدة فى هذا القسم من الجريدة. لكنها بحكم وجودها هنا فى السجن، وبحكم تعطشها إلى قراءة المواد، كانت ترحب بقراءة مثل هذه الأشياء. كان أمامها صف طويل من المقالات التى يتعين قراءتها. كانت القراءة بمثابة الشيء الوحيد الذى افتقدته فى هذا المكان المخيف. آه من الافتقار إلى القراءة! كانت إنتلى قبل أن يحط عليها كل ذلك الذى حدث لها، قارئة نهمه، كانت تقرأ كل ذلك الذى كانت تصادفه، أو يقع تحت يديها: كتب، مجلات، صحف، كتيبات.

كانت إنتلى فى تلك الحياة خريجة من خريجات الجامعة. كانت قد انتهت من دورة عملها. واقع الأمر أنها كانت قد أوشكت على أن تبدأ كتابة أطروحتها، عندما غربت شمسها فى عز النهار. وهنا تراءى لها موضوع أطروحتها على شكل ومضة فى ذهنها، "الإثراء فى إفريقيا". لا، ليس هذا هو العنوان بالضبط. كان عنوان

الأطروحة "جمع المال فى إفريقيا". كانت قد بدأت بتقديم المقترح ثم عمل المخطط بعد ذلك، والذى وافق عليه مشرفها. كانت إنتلى قد تقدمت وبدأت كتابة الجزء التمهيدى من الأطروحة، وأنهت ذلك القسم، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الفصل الأول من الأطروحة، وعندها حدثت الكارثة. الواقع أنها كانت سلسلة من الكوارث. من الذى لايقول إن المصائب تأتى على شكل تدافع، وإنما على شكر مطر؟

أنا أعرف الموعد الذى بدأ المطر فيه ينهمر على، قالت ذلك وهى تتنهد فيما بينها وبين نفسها. لقد بدأت المسألة ببطئ وقع المحاضرات فى الجامعة الأمر الذى قلل من سرعة أنتلّى. لقد بدأ المشرف عليها فى تناول أمور أخرى كيما يعيش ويواصل الحياة. وبعد أن قامت بزيارات عدة ولم تجده أو تلتقيه، بدأت تحس باليأس. هذا يعنى أن الأطروحة التى كانت تسيطر على ذهنها بدأت تبرد وتفقد بخارها. ومن أجل البقاء على قيد الحياة، أضطرت إنتلى إلى العمل، الأمر الذى صرفها عن الأطروحة إلى أمور أخرى، إلى أن تتعدل الأمور مرة أخرى. الشيطان يوجد العمل للأيدى العاطلة.

قال لها ذهنها: اخرجى مما أنت فيه يا سبيلا Sybilla، اخرجى منه تمامًا. تناسى ذلك الذى أنت فيه. أنت بذلك تعذبين نفسك.

صاح شخص ما فى الظلام "ألا تنتهين مطلقًا مما أنت فيه؟" "لا تنسى أننى ألاحقك".

تعرفت إنتلى صوت أولورى. ولذلك أجبرت ذهنها إلى العودة إلى الصحيفة مرة أخرى، وراحت تتصفح على وجه السرعة بقية ادعاءات ممارس الطب التقليدى:

> **دواء حاصل على جوائز، تصغير أو تكبير النهود، أكياس نقود الشبح المقدس، مرآة المعجزات، الموافقة على التأشيرات، والعقود الثقيلة، أكثر من مرة واحدة.**

كنت أتعجب إن كان لدى ذلك المداوى شيىء للهرب، شيىء يمكن أن يخفى الإنسان عن أنظار الناس: ربما كان ذلك مسحوقًا يدعك به الإنسان جسمه فيجعلــه يختفى فى الهواء، ثم يعود إلى ما كان عليه خارج هذا المكان. كنت أعجب إن كان لديه مثل هذا المسحوق. كانت إنتلى تعرف أن الأدوية التى من هــذا القبيــل لهــا وجود، لكن هل لها مفعول أو تأثير بالفعل؟ لقد فات أوان ذلك. وراحــت تحملــق وتطيل النظر إلى بقية الصفحة.

كان الإعلان عند أسفل الركن الأيسر من الصفحة. كان يبدو وكأن المعلــن كان يود إخفاءه من باب البر بالفضيلة والوفاء بالالتزامات، ولذلك كــان الإعــلان مجرد شيء صغير منشور. وقعت عينا إنتلى على الإعلان:

مطلوب: جلاد حكومى (عشماوى)

على أن يكون صاحب بنية قوية

ويحمل أقل مؤهل ممكن: التقدم

يكون شخصيًا لمساعد مدير السجون

فى إدارة السجون، فى وزارة الداخلية

وفى لمحة كلمح البصر، تقوم إنتلى بطى الصفحة، وتسارع بإخفائها تحتها. كانت يدها اليمنى المرتعشة لا تزال تمسك بالصفحة، بينما وضعت يدها اليــسرى على عينيها. وتزايدت ضربات قلبها.

وعليه، فهذا هو سبب بقائنا على قيد الحياة فترة طويلة! خطــر ببالهــا وظيفــة الجلاد (عشماوى) الشاغرة. وفى محاولة منها كى تبدو طبيعية وعادية اعتــدلت فــى سريرها الخفيف النقال وراحت تنظر ممعنه فى كل نزيلة من النزيلات الأخريات فــى الزنزانة، والمنكومات فى سررهن المثبتة فى الجدران، بواقع نزيلتين فى كل سرير.

كانت سوزانا، تلك السيدة البيضاء تشخر شخيرًا مقبولاً. إما ســتاف التــى أصبحن يسمينها القابلة، فكانت مستلقية على سريرها مثل الجنية، كانت على شــكل

فاصلة، وقد وضعت إحدى رجليها على أولورى، كانت القسيسه مفرودة الـذراعين كما لو كانت نبيا مصلوبًا. لقد دخلت باعتبارها زوجة لراعي أبرشية هارب. كانت تؤم المجموعة أثناء الصلاة. كانت على يقين من أنها تحل محل زوج هارب. وها هى الآن أصبحت قسيسه بحق وحقيقة. كانت تبكى طلبًا للصفح والعفو كلما كانـت تتصرف تصرفًا سيئًا بين الحين والآخر مع النزيله مبودياجـا Mudiaga. مـسألة وقوعها فى الخطأ أمر لابد منه لم يكن هناك أحد يحاكمها. ضميرها فقط هو الذى كان يؤنبها.

ساد الهدوء الزنزانة. كانت الضوضاء الوحيـدة تـصدر عـن الـضفادع وصراصير الغيط الموجودة فى الخارج، والصوت الناتج عن اصطدام الريح بمبنى السجن. كانت إنتلى قد اشرأب عنقها، وتحدقت عيناها كيما تـرى أومـو. كانـت زميلاتها النزيلات قد قمن بسبب جنونها، بربط ساقيها فى أعمدة سريرها مخافة أن تؤذى أحدًا منهن. ومع ذلك، كانت أومو ترفع جسدها بين الحـين والآخـر مثـل عروس البحر، وتروح تحرك ذلك الجسد إلى الخلف وإلى الأمام مثـل المحـارب المصلى عندما يكون فى غشية.

خطر ببال إنتلى أنها ينبغى أن لا تكون هنا فى السجن. الأنسب لها أن تكون فى مستشفى الأمراض النفسية. أى بلد هذا.؟ كانت تسائل نفسها مرة بعد أخـرى. ليست هناك معايير ثابتة، لا شيء يعمل كما ينبغى أن يكون الحال. الأشـياء هنـا مقلوبة رأسًا على عقب. كل إنسان هنا يتصرف حسبما يشاء؛ كـل إنـسانة هنـا تناضل كيما تفعل ما تريد. نحن هنا نعيش فى غابة. نحن هنا فى أزمـان هـوبس وداروين. البقاء هنا أيضًا للأصلح فى هذه الحياة المقيتة، والوحـشية والقـصيرة. الأبرياء من الناس يموتون بفعل خطايا الآخرين. هذه بلهاء وغبية محكـوم عليهـا بالإعدام لأنها ارتكبت عملية قتل. لو قدر لها أن تكون هنا ستكون فى خبر كان.

لم تتبين إنتلى شيئًا بعد أومو. لم تتبين سوى أشكال المحكومات الأخريـات وهن فى سررهن، وعلى وشك أن يُعدَمَن. كانت إنتلى تعلم أن الضُرتين كانتا فـى

ذلك الظلام فى مكان ما يرحن بعضهما البعض. كان من عادتهن فى الحياة الأخرى التقاتل بصورة مستمرة على عضلة من العضلات. عندما جاءتا إلى سجن فريمان فورت راحت الزوجة الكبيرة تتهم الأخرى بأنها "سارقة الخصي". وكانت الزوجة الأصغر تصف غريمتها بأنها فرج جاف. والآن وفى غياب تلك العضلة راحتا تريحان بعضهما. لم يحدث أن جاء زوجهما لزيارتهما. يبدو أنه تركهما لمصيريهما. لم تتذكر إنتلى سبب مجيء هاتين الضرتين إلى هذا السجن. هل قتلتا طفلاً من أطفال الجيران، أم أنهما قتلتا أطفال بعضهما، هذا أمر لا تتذكره إنتلى جيدًا. ستحكيان حكايتهما للجمع فى يوم من الأيام.

بعد أن ازداد هدوؤها، أمسكت بالورقة وقرأتها مرة ثانية. وبلا صوت طوت الورقة إلى أربعة أجزاء قبل أن تخفيها بين طيات ملابسها.

هل ينبغى على إخطار الأخريات بانتهاء موعد الانتظار؟ هل ينبغى أن أقول لهن إن الحكم أوشك على التنفيذ؟ هل ينبغى أن أقول لهن أن المعجزة التى تتمتع بها على وشك الانتهاء؟ استعر الجدال داخلها. ما هى جدوى معرفتهن بذلك؟ لماذا لا أتركهن يعشن بهذا الأمل إلى أن يطلع النهار؟

كانت القسيسه تصلى دومًا طلبا للخلاص. تكهنت بأن الله سيرعاهن، وبخاصة أنها لم تكن مذنبة، وإنما المذنب هو زوجها. هناك أمر ما حول فرار الرجل من الكفالة، الأمر الذى دفع الشرطة إلى إلقاء القبض عليها. هذه حالة غريبة يموت فيها برئ بفعل خطيئة ارتكبها شخص آخر.

كان من عادتها القول: "أنا أتوسلَ بحَمل الله(*) لكنى لست هو (عليه السلام). أنا أتوسل بالمسيح المصلوب، ولكنى لست هو. أنا لم أجئ إلى هنا كى أموت بفعل خطيئة الغير، حتى وإن كان ذلك الغير هو زوجي؟".

(*) الإشارة هنا إلى المسيح عليه السلام. (المترجم)

حاولت إنتلى تفسير الأمر على أنه تحمل المسئولية عن الغير، لكن أحدًا لم يلقِ لها بالاً أو يفهمها. لم يكونوا من أصحاب المواهب الفكرية، مع أنهم كانوا ناجحين وفوق مستوى الممارسين العاديين لمختلف المهن والحرف. سوزانا هى الوحيدة التى فهمت ذلك، لكن لغتها الإنجليزية كانت محدودة.

هاجت الزنزانة واضطربت أحوالها. وفى هدوء الليل وظلمته، كن يسمعن همهمة مجنونة. كانت تلك الهمهمة صادرة عن زوجة القسيس. كانت رفيقاتها فى الزنزانة يسمينها القسيسة، لكنها كانت تفند هذا النعت تفنيدًا شديدًا.

"أنا لست قسيسة. أنا كنت مجرد زوجة لذلك القسيس. امرأة قوية وشجاعة، هذا حقيقى، لكنى لم أكن قسيسه".

قالت سوزانا: "طبقًا لكنيستى، يحل معلم الدين محل القسيس عندما لا يكون موجودًا، وعليه، إذا كان معلم الدين يحل محل القسيس، فإن الزوجة يمكن أن تحل محله هى الأخرى".

ضحكت ضحكة بلهاء وهى تقول: "ذلك الذى جمَّعه الرب ....." كانت سوزانا تكمل دومًا أنصاف جملها بضحك أبله غبى.

أبدت مودى ملاحظة "القسيس ليس له زوجة فى كنيستك".

"هذا هو السبب وراء إحلال معلم الدين محل القسيس. وبغير ذلك فإن الزوجة هى التى ينبغى أن تحل محل القسيس. هذا يعنى أن الاثنين أصبحا شخصًا واحدًا".

طرحت بيشنس Pateience سؤالاً بليغًا: "من يقول إن القسيس ليست له زوجة؟ إن لهم زوجات، لكنهم لا يتزوجون". هناك عداء دائم بين الكنائس الجديدة والكنيسة الرومية الكاثوليكية.

أوضحت إنتلى قائلة "كيف يكون للإنسان زوجة ولا يكون متزوجًا؟ هذا تناقض. ربما تقصدين أن لهم عشيقات".

"ربما كان ذلك، لكنهم ..... كما تعلمين" واصلت سوزانا كلامها مدافعة عن قساوستها.

"أشكرك. إنهم ينظرون إلى عشيقاتهم ليس إلا، وهذا هو كل ما في الأمـــر. هذا على حد ما يقولونه في دوائر المجتمع الراقي، "قولى هذا للبحارة".

خطر على بال أولورى "القسيس الذى كان يزورنا فى بعض الأحيان، عندما كان يزورنا بعد ذلك كنت أجرى إليه وأقــول لـــه "هوهـــا" hoha وأســـأله "(*) do you shag? وتروح تسعل بطريقة مزعجه. وتنفجر الزنزانة كلها ضاحكة.

"إذا كان القساوسة الآخرون يستطيعون الزواج ويستمرون فى الــتحكم فـــى الشياطين وإخراجها، فلماذا لا يفعل الكاثوليك ذلك؟ هذا ليس عدلاً".

تدخلت نيرس منفعلة "لم يقل أحد إن القساوسة ينبغى ألا يفترســوا". قالتهـــا وهى تهز أردافها. أثارهن الحديث عن الجنس، وجعلهن يسخنّ. وأصبح الحــديث عن هذا الأمر هو مادتهن المفضله. اعترفن وأقررن بذلك، لكن بتر الأمر، ومسح الفم بعد ذلك، كما لو أن شيئًا لم يحدث؛ هذا كله نوع من النفاق".

عندما وصلت إنتلى فى بداية الأمر، كانت تتسود الكلمات المبتذلة النابية. كانـــت الممرضة السابقة شخصية دنيوية تمامًا. ارتعدت أنتلى. هل تتكلم النساء لغة وسخة من هذا القبيل؟ لقد أصبحت الآن معتادة على هذا الكلام. هى الآن بـــصحبة مجتمـــع واطِ. هذا المجتمع خال من لطائف التعبير. الفأس هى الفأس فى هذا المجتمع.

راحت إنتلى تتصت عندما كانت امرأة الــصلاة تحاصـــر الليـــل، وتطـــرد الشياطين، وتقيدهم، وتلقى بهم فى غيابة الجب بلا شك. كانت الدعوات المهموســـة مصحوبة بحركات الأيدى التى توحى بالابتعاد والتخلص. ومع اشتداد أوار الدعاء

(*) السؤال هنا تلميحى ومعناه "هل تفترس؟" . (المترجم)

أصبح من الصعب تمييز الكلمات عن العبارات. وتقف المرأة فجأة كما لو كانت في غيبوبة، وتنزل واقفة إلى جوار سريرها المعلق في الجدار. وألقى بقطعة من القماش القديم فوق رأسها. وواصلت المرأة صلاتها، وهي تضرب الهواء بقبضة يديها. اتخذت إنتلي وضع الدفاع عن النفس وهي تراقب تلك الصلاة. وراحت إنتلي في هدوء "تؤمن" على كلام المصلّية في المواضع التي تستحق ذلك "التأمين".

أغلقت عينيها، وعليه لم تدرك أن النزيلات الأخريات قد أوقظن ووقفن أيضًا بجوار أسرّتهن المثبتة في الجدران، ورحن يشاركن في ذلك التقيد. لم تبق سوى أومو مستلقية على سريرها، نظرًا لربطها من قدميها إلى أعمدة السرير بواسطة بعض الملابس.

سمعت النزيلات وقع حذاء ثقيل في الممر، وصاحبه يقترب أكثر وأكثر منهن من جديد. لم يتعجلن، كما لو كانت صاحبة الحذاء تقوم بنزهة تزجي خلالها وقتها. وعندما زاد اقتراب خطو القادم منهن، راحت القسيسة تزيد من حدة صوت كلامها.

"كل هذا أيها الأب (الرب)، وأنا أسألك باسم ولدك العظيم، يسوع!".

وترد عليها النزيلات الباقيات "آمين!".

وعندما تصل السجانه إلى قضبان الزنزانة المصنوعة من الحديد، تحذر نزيلة النزيلات الباقيات قائلة: "مستشيف!" وتلزم كل نزيلة من النزيلات سريرها.

تغمغم النزيلات فيما بينهن وبين أنفسهن "دم المسيح! دم المسيح!" ما هذا العنف والانتهاك الذى يمارس ضدهن؟

لم تكن القادمة هي السيدة/ إيز Eze، وإنما كانت أليس Alice، التي ينعتونها ماليس Malice بمعنى "الحقد". كان يمكن لأليس هذه أن تكون توأما ل ـــ مستشيف

Mischief لو لم تكن بدينة وزائدة الوزن. سرت شائعة مفادها أن آليس كانت السبب فى تقصى غذاء النزيلات وإساءة تغذيتهن. كانت أليس تحتفظ بتعيين النزيلات لنفسها. قالت بعض النزيلات إن آليس هى متعهدة غذاء السجن؛ وأنها كانت عشيقة الحاكم العام وأنه هو الذى كافأها بأن أسند إليها مسألة التغذية فى سجن فريمان فورت. كانت آليس قد تخطت منتصف العمر بفترة قليلة. كان محيًّا آليس يوحى بعدم الحزم. ربما كانت شقراء فى يوم ما، وأنها سعت بعد ذلك إلى التغيير.الآن توجد على كل خد من خديها دائرة كبيرة يميل لونها إلى الإحمرار، وهذه الدائرة قريبة من عينيها كما لو كانت هالة من هالات الشياطين. كانت ألـيس قد صبغت سبلتيها الخديتين. كانت كثيفة الشعر مثل ألتيس، وكان لها شنب ظاهر وتتدلى بعض جدائل شعرها على فكها البارز. كان زيها الكاكى ضيقًا بصورة دائمة، مما كان يبرز حجم صدرها. كان من عادتها دومًا جذب تنورتها الواصلة إلى ركبتها، إلى الأسفل، وتقوم بتعديل تجاعيد تلك التنورة. وراحت ماليس (آليس) تهز السلسلة التى توصد القضبان الحديدية. وهنا تندفع النزيلات مثل عفاريت العُلب.

قالت ماليس مخاطبة النزيلات: "أنتن يا من حكم عليكن بالإعدام. أنا أعرف أنكن لستن نائمات. وعليه انتبهن إليّ".

تتجه النزيلات جميعهن نحو ماليس. كانت تمسك فى إحدى يديها كشافًا كهربيًا قويًا موجهًا نحو الشيء الذى كانت تمسك به يدها الأخرى. كان فى يدها حبل، من نوع الحبال التى تستخدم فى اقتياد الماشية. وعندما تسلطت أنظار النزيلات على ماليس، قامت ماليس بلف الحبل حول عنقها، وراحت ترفعه نحو الأعلى، ووضعت إحدى يديها على زورها (حلقها) محاكاة لإزهاق الروح عن طريق الخنق. ويتدلى لسانها على ذقنها، وتظهر حدقتا عينيها كما لو كانتا قناعًا مخيفًا. تظاهرت بالاختناق، وراحت تخص الزمن بقدميها، وتتصارع مع نفسها. تَتوقع ماليس بعد هذه الدراما (التمثيلية). كانت الرسالة واضحة، الأمر الذى جعل النزيلات يعدن قلقات إلى أسرّتهن.

قالت السجّانة بصوت يشبه النباح: "إذا ما سمعت "بم": Pim من أية واحدة منكن بعد ذلك، فسوف يكون هناك حبس انفرادى لكل واحدة منكن إلى أن يُفرّق الموت بيننا"، ثم تتصرف ماليس بعد ذلك.

قالت النزيلات وهن يتهكمن: "يا لها من ماليس!" (حقدًا).

ترد عليهن: "أيتها المحكومات بالإعدام".

تساءلت النزيلات أفرادًا وجماعة عن قصة ماليس. ما الذى حدث لها فى حياتها حتى يجعلها شريرة إلى هذا الحد، وقاسية إلى هذا الحد؟ ما سبب هذه الوضاعة وهذا السوء؟ لماذا هى شغوفة بالإيذاء والإيلام، وصب المعاناة على الأرواح المحطمة؟

استنتجت بعد ذلك واحدة من النزيلات أن "الإعدام سيكون بطريقة حبل المشنقة، وأنهن سوف يشنقن جميعهن".

إذن، فالذى أعلنوا عنه هو "عشماوي" وليس جلادًا، قالت إنتلى ذلك لنفسها وهى تدير وجهها للجدار فى محاولة منها للنوم. وعلى امتداد بضع دقائق قبل أن تروح فى النوم، راح ذهنها يميز بين "عشماوي" والجلاد.

راحت باتسى تتمعن تلك الدراما (التمثيلية) التى أدتها ماليس. هل يمكن أن يكون الإعدام بطريقة حبل المشنقة فعلاً؟ إذا كان الأمر كذلك؛ فما هو ذلك الحلم الذى يعاودنى عن النار المشتعلة؟ أهذا من باب التنبؤ؟ أم أن هذه نار الشبح المقدس الوارد ذكره فى الكتاب المقدس (الإنجيل)؟ حدث ذات مرة، عندما تطرقت إلى حلم النار هذا، أن قامت النزيلات بمناقشة ذلك الحلم قبل أن يبعدن هذه الفكرة عن أذهانهن. أوضحت لهن السيدة/ المتحدثة باسم الاجتماع، أن الإعدام لا يمكن أن يكون عن طريق الكرسى الكهربى. كان الكرسى الكهربى هو أقرب التفسيرات لذلك الحلم المتعلق بالنار. نحن ليست لدينا هذه التقنيه. إذن سيكون تنفيذ حكم

الإعدام عن طريق فصيل الإعدام؟ هل يعنى ذلك أن رؤية النار فى الحلم تعنى فتح نيران البنادق؟ لابد أن هذا الصنف من الإعدام قد توقف، وإلا كنا قد سمعنا عنــه. وبقيت النار، تعاودها فى منامها بين الحين والآخر، وهى تحرق النزيلات.

الفصل الثالث

منذ زمن بعيد

عاد والد أومو من بهو احتساء البيرة، وهو يغنى فيما بينه وبين نفسه. سمع الجيران ذلك الغناء وتنهدوا عجبًا. انتحبوا، لأن ذلك لا يمكن أن يحدث مرة ثانية. لقد تحولت هذه المسألة إلى عادة، وبخاصة الدخول فى السُكر فى ساعة مبكرة من المساء، وذلك على الرغم من حنان الرجل وكونه بلا حول أو طول. كان الرجل يعبد زوجته وطفليه وكان يساعد زوجته فى إنجاز الأعمال المنزلية. والإنسان لا يمكن أن يكون صالحًا بنسبة مئة فى المئة، على حد قول بعض الناس. وهو إما زوج سيء أو والد سيء، أو يشرب ويدخن أو يطارد الفتيات.

وإذا ما نحينا جانبًا الغناء بصوت عال نجد أن يود Ude لم يكن يزعج أحدًا من الناس. واقع الأمر أن الرجل كان معتادًا على الاستماع إلى الأغانى الدينية. يقول الناس أنه كان شمَّاسًا فى بعض الكنائس. لم يكن من عادة جيرانه مشاركته فى الغناء. وبعد أن دخل هذا الرفيق إلى مسكنه، وبعد استئناسه عن طريق نظرات زوجته الصارمة والحادة، كان الآخرون لا يزالون يترنمون بالتراتيل التى سبق أن أطلقها فى الشوارع.

هذه الليلة، كان الدور على الترنيمة الشعبية "خذ العظمة أيها الآب، خذ العظمة أيها الأبن، خذ العظمة، أيها الشبح المقدس فقد وُلدت من جديد". كان يتغنى بهذه الأغنية وهو يسير فى الطريق عائدًا إلى منزله. كان من عادة زوجته أوزو Ozo أن تلقاه عند الباب وتسكته مانعة إياه من الغناء، قبل أن تأخذ جانبًا كيما يتمكن من دخول المنزل.

كان الأمر مختلفًا هذه الليلة. كان فى حال سكره هنا يعرف ما هو عليه إلى حد ما، لكنه لم يتمكن من تقييم حاله تقييمًا كاملاً. كان يقف وهو يترنح أمام الباب،

وهو يبحث عن مفتاحه. كان مفروضًا أن تكون أوزو Ozo قد فتحت الباب فى تلك اللحظة، فى الوقت الذى كان هو يتفكر الأمر فى ضعف. كان يود لا يزال يتمتم بأغنيته فيما بينه وبين نفسه على شكل نتف. كان المفتاح يروغ منه. كان يسائل نفسه حول ما إذا كان قد تذكر أن يأخذ المفتاح. طرق الباب. لا مجيب. حاول استعمال مقبض الباب، يالها من مفاجأة! لقد انفتح الباب. حدث هدوء لكنه لم يكن يستسيغ ذلك الهدوء. أين أوزو؟ أين كانت أومو Omo، ابنته البالغة من العمر ستة عشر عامًا؟ وأين جينيور Junior، ابنه البالغ من العمر تسعة أعوام؟

فى الظروف العادية، تكون أوزو فى منتصف طهى الوجبة الليلية، ويكون الصبى جينيور واقفًا إلى جوارها، يعبث ببعض الأشياء أو يُطيِّر الطائرات الورقية التى صنعها هو بنفسه، أو يقوم بدحرجة سيارته اللعبة على رخامة المطبخ، وهو يبث الحياة فى الماكينة عن طريق فمه. وهذه هى الرائحة الطيبة التى لم تفشل مطلقًا فى فتح شهيته. لابدأن الفتاه فى مكان ما، وتقوم بعمل واجباتها وعينها على جهاز التليفزيون. بدت له تلك الليلة مختلفة تمامًا عن الليالى الأخرى.

راح يود، بحذر واحتراس يطيل النظر إلى الباب الذى على يساره. كان ذلك باب المطبخ. وأذهله ذلك الذى رآه إلى حد أنه صرخ صرخة عالية. وهنا غلبه ذلك السُكْر الخفيف الذى كان يحاول التغلب عليه، وتقيأ بعد ذلك على الأرض. وتبعثرت محتويات أمعائه غير المهضومة حوله على الأرض.

كان جسم زوجته المخضب بالدم مُلْقىً أمامه على الأرض، ووجهها متجه إلى الأرض أيضًا. كان رأسها مهشمًا وكانت تنورتها وتلفيحتها ممزقتين ومخضبتين باللون الأحمر. كان المطبخ عبارة عن فوضى من اللون الأحمر. كانت الأرض، والجدران، والأوانى، والمواعين، كل ذلك كان ملطخًا بالدم. بالقرب من الباب الآخر الموصل من المطبخ إلى الفناء الخلفى، كان يوجد الصبى جينيور. تُرى هل كان الصبى يحاول الهرب، حتى ينادى طالبًا النجدة والعون؟ كان الصبى رافعًا وجهه إلى الأعلى وقد تحطم خدّاه. كان سكين قصاب محاطًا بالدم لا يزال

بارزًا من بدنه. كانت بلا حياة على جانبيه. وفى المسافة ما بينه وبين أمه، كانت توجد السيارة اللعبة من طراز أوبل، وقد انقلبت إطاراتها إلى أعلى.

سمع الجيران ما يدور. وجاءوا يهرولون. ذهب يود إلى زوجته. كانت يداه ترتعدان، وراح يتحسس نبضها. لم يكن هناك نبض. كان جسمها باردًا. لم يتمكن من جعل نفسه يصل إلى الصبى.

"يود، ما الذى حدث؟ أوزو، هل أنتم بخير أيها الناس؟"

غمغم يود، وهو يفكر فى ابنته "ماذا دهاك يا أومو؟".

راح الرجل يجرجر قدميه خوفًا قاصدًا غرفة الجلوس "أيـن أومـو؟" كـان يتوقع العثور على جثمان ابنته.

فى هذه اللحظة، برزت من الغرف الداخلية فتـاة فـى منتـصف سـنوات المراهقة. كان يبدو عليها الخوف، وتشعَّث شعرها. وكانت هناك بطانيـة رماديـة اللون ملفوفة حول جسمها.

صرخت الفتاة، وجرت، ولفت ذراعيها حول الرجل المسكين كبيـر الـسن وهى تقول: "أبتاه! أبتاه، لقد جاءوا يصرخون ويصيحون، وهم غـضبى وشـاهرو سكاكينهم. كنت خائفة، ولذلك هرولت إلى غرفتى واختبأت فيها".

سأل أحد الجيران بحذر، وهو يطيل النظر إلى المراهقـة: "مـن هـم الـذين جاءوا؟".

ويقوم الأب الممزق بين الغوث والندم، باحتضان الفتاة والتعلق بها.

سادت المكان نشاطات الهياج والهيستريا. "ماذا حدث؟" "من الذى جرؤ على فعل ذلك؟" "استدعوا الشرطة!" "ماذا حدث يا أومو؟" "أين كنت؟".

"أنا لا أعرف. كنت أشاهد التليفزيون عندما سـمعت الـصياح والـصراخ والضوضاء فى المطبخ دخل الناس المطبخ من الفناء الخلفى. كانت أمى تطبخ، ثم سمعتها هى وجينيور يصرخان بعد ذلك. كنت خائفة. جريت واختبأت".

تدخل يود قائلاً: "لقد فعلت خيرًا يا ابنتي" وبدا عليه الخوف. ويضع الرجل ذراعه على كتف أومو، بحيث يتلامس جانبيهما.

تعجبا "من الذى جرؤ على فعل ذلك؟ ولماذا فعل ذلك؟".

تساءل بعض السكان "يود، من الذى أسأت أنت إليه؟".

أعرب يود عن أفكاره فيما بينه وبين نفسه "هل هم جنود مسلحون؟ أنا ليس لدى مال أو ثروة. هل هم قتلة مأجورون؟ أنا ليس بينى وبين أى أحد من الناس أى نوع من أنواع الصراع. أنا لم آخذ شيئًا من أحد. كما أنى لست سياسيًا أيضًا".

تساءل أحد الجيران بصوت عال: "كيف أننا لم نسمع شيئًا على الإطلاق مما دار، مع كل هذا الصراخ؟" "ألم يقاوموا؟".

أجابت الفتاة: "لا أدرى، لأن التلفاز كان مفتوحًا. وقد جريت إلى الطابق العلوي".

"ألم يكن بوسعك أن تصرخى فتنبهينا؟"

قال والدها بصوت واهن: "لابد أنها كانت مرتبكة". راح يود يولول "أوزو، أوزو، زوجتى، زوجتى الحبيبة، يا بدايتى ويا آخرتى. ولدى، سمى، ولدى حبيبى. من الذى جنى على بذلك؟" "من الذى أجرمت فى حقه حتى يجرجنى على هذا النحو. قولوا له إنه نجح فيما فعل. كائنا من كان، قولوا له إنه أصابنى. قولوا له: إنه أجهز على .....".

تناهى صوت آلة تنبيه قادمًا من بعد.

وافق الجمع، وهم يهزون رؤسهم مرارًا "إنه عمل مريع". خرج أحد الواقفين وسمع صوته وهو يميل إلى التقيؤ "تعال يا يود. الشرطة موجودة هنا. تعال وأقم فى منزلى، إلى أن تهدأ الأمور بعض الشيء".

اقتادوه هو وطفلته المتبقية إلى منزل قريب. يعود يود، قبل أن يغادر مسرح الأحداث، ليلقى نظرة على الجثث المضرجة بالدم. ارتد على عقبيه، وهز رأسه مرات عدة، ثم اقتادته الأذرع بعيدًا عن مسرح الأحداث.

عند عتبة باب داره، وقبل أن يقتاده الحاضرون بعيـدًا عـن المكـان، راح يخاطب السماء على النحو التالى:

"يـا من فعل ذلك، لا تفرح. لا تبتهج مطلقًا لأن حماى كان مداويًا شـهريًا. لا تفرح مطلقًا يا من فعلت ذلك. لا تبتهج، لأنك قتلت أوزو بحق، لكنك بفعلك هذا قد أنهيت حياتك أيضًا".

ترتعد أومو.

* * *

قبل ذلك بأربعين عامًا

استيقظت المرأة، عند الفجر، ولفّت طفلها حديث الولادة فـي قطعـة مـن القماش السميك واندفعت خارجة من الباب الخلفى. تركت والدتها التى كانـت فـى زيارة لها، نائمة، ومشت على أطراف أصابعها خارجة مـن الفنـاء، وأسـرعت خطاها فى اتجاه الضريح، الذى كانت تعرف أن زوجها لابد أن يكون فيه. كانـت الحزمة التى بين ذراعيها تنام فى سلام، والشفتان مُغلَقتَان عـلامة الرضا، والـذى لا شك فيه أن النسيم العليل، وحركة اليدين الحاملتين كانا يهدهدان من بداخل هـذه اللفة ويجعلانه يروح فى سبات عميق.

عندما رأت الرجل، حيته قائلة: "أبونا". كانت تلـك إشـارة مـن إشـارات الاحترام والاعزاز من جانب امرأة وهى تنادى زوجها ناعتة إياه بـالأبوة وهـى تقول: يا كل مالى فى هذه الدنيا، يا بدايتى، يا آخرتى، يا سيدى، يا مالكى.

يرد الرجل معترفًا "مرحبًا بك، ما الذى جاء بك إلى هنا؟" وينقـل الرجـل نظراته إلى الطفل ويقول متعجبًا: "الطفل!" "آمل ألا يكون شيء قد حـدث؟" كـان ترتيب ذلك الطفل بين أطفالها الخامس فى تتابع سريع. أما الأربعة الآخرون فقـد كانوا ضمن معدل الوفيات.

"لا شيء، يا رجُلي. أوزيو مينا Ozoemena نمير".

أطالت النظر إلى الوجه المستدير، الذى كان بمثابة الجزء الوحيد المرئي من اللّفّة. وينتظر المداوى، وفي يده سيف حاد من سيوف الملاّحين. كان المداوى على وشك الدخول إلى الغابة بحثًا عن الأعشاب، وطلبًا للمشورة، لكن فطرته ومنخاره أنبآه بمقدم زوجته. وهو يقف هناك الآن، ينتظرها ويترقب مجيئها، وهو سارح في ذكرياته.

عجبًا لحب هذا الرجل لهذه المرأة! إنه مستعد لفعل أى شيء من أجلها! لقد آلمته سنوات أسفها إيلاما تعجز الكلمات عن التعبير عنه، عندما راح الجيران يُعَيِّرُونه بعقمها. أمضيا السنوات الخمس أو الست من حياتهما الزوجية بلا أطفال. لقد مارس كل ما كان فى وسعه من التكهن بالغيب، بل إنه استشار أيضًا زملاء آخرين يمتهنون الطبابة. وكرروا هم جميعًا الحكم نفسه الذى توصل إليه ألا وهو: ليس هناك ما يمنع. الأرباب ليسوا مستعدين بعد. ترى، متى يصبحون مستعدين؟ كان يطرح هذه الاسئلة على نفسه فى صمت. أنا لست إبراهيم، ونكولى Nkoli ليست سارة. ويدخل عام وينقضى عام وهما ينتظران. كان الناس يتكلمون عنه سلبًا من وراء ظهره.

"قالوا: لقد غيَّر كثيرا من حالات العقم، لكنه لن يستطيع شفاء زوجته من هذا العقم". قال آخرون: "إن يديه ليستا نظيفتين".

لقد تطرق أبوه إلى مسألة الزواج من امرأة أخرى، لكنه لا يرى فائدة في مثل هذا الزواج. لم يكن قلبه يتسع لكل الحب الذى كان يكنه أو يحبه لنكولي؛ أين المتسع فى هذا القلب حتى يمكن أن يُوفّق بين ما فيه وحب امرأة أخرى؟ كيف نطلب من خرقة القماش التى لا تكفى إلا لستر الأرداف، أن تتدلى إلى الأرض؟

ويحين فجأة الموعد المقدَّر لمجيء الأرباب، وتحمل نكولي. قال أهل العشيرة بعد ذلك إنهم لم يتمكنوا من تحديد من كان أكثر سعادة من الاثنين المرأة

أم زوجها. وأخذ ناتى Nati يغدو ويروح هنا وهناك على وجهه ابتسامة عريـضة مثل شقة القمر. كان الناس فى بعض الأحيان يسترقون السمع وهو يدندن بأغـانى القرية وهو يبحث عن الأعشاب فى الغابة، لأنه كان أيضًا كبير راقصى العـشيرة، وكبير مغنيها أيضًا.

على كل حال، كانت كل حالة من حالات الميلاد تنتهى بالأسـف والنـدم. اتخذت نكولى الترتيبات النهائية للولادة خمس مرات. دفنت أطفالها خمس مـرات. كان الطفل الأول مولودًا ميتًا. لم يسمح لها حتى برؤيته. كل ما قيل لهـا هـو أن المولود كان أنثى. سمتها نواجبوليوى Nwagboliwe فيما بينها وبين نفسها — معنى هذا الاسم هو: الطفل الذى أزال الغضب والضغينة. كانت تواسى نفسها أن الطفـل الميت خير من عدم الحمل على الإطلاق. أضعف الإيمان أن يتوقف أنسبائى عـن نعتى من وراء ظهرى بأننى رجل.

كان الطفل الثانى ذكرًا. لقد حدث الحمل على وجه السرعة نظرًا لأن نِنـى Nne نصحها بعدم التأخير، وعدم ترك حقيبة الأطفال حتى تنغلق مرة ثانية. حـدث الحمل سريعًا وعلى نحو جعل الناس يظنون أن هذا هو الحمل الأول، لكن الواقـع أنه كان حملها الثانى. لم يستمر ذلك الحمل إلى ما بعد الأسبوع الثالث. كانت عيناه بلون القمر. أسماه ناتى أوديميجو Odimegwu Nati — ياله من مفاجأة لي! جاءت بالطفل نواكا Nwaka بعد ذلك، لكنها لم تعش طويلاً.

قال الناس عند هذه المرحلة إن الأطفال كانوا أطفالاً روحانين، مرسلين من قبل الأرباب لكى يعذبوا آباءَهم، لكن ناتى أوضح أن الأطفال الذين يكونون من هذا القبيل عادة ما يكونون من الجنس نفسه.

صحيح أن نكولى حملت من جديد، لكن سعادتها لم تكـن كاملـة. نـصحها البعض بالذهاب إلى منزل والدها لتضع حملها هناك، وبذلك يتعذر علـى الـروح الشريرة العثور عليها. نفذت نكولى ذلك، ومع ذلك فإن الابن شيما Chima، الـذى وُلد، يشهد الله، فإنه لم يعش. حدث له ما حدث لأخيه شكوى Chikwe. الواضح أن الرب لم يكن راضيًا عن ذلك الخلف.

أشاحت نكولى بعينها عن الطفل وتحولت إلى زوجها. لقد قاسيا أشياء كثيرة. كانت تحب ناتى وكانت متيمة به. وهو أيضًا وقف إلى جانبها وساندها طوال فترة عدم إنجابها. كانت على استعداد للموت فى سبيله. دلائل الحب هذه كانت نادرة فى هذه المناطق من البلاد. الواقع أن هذه الدلائل لم يسمع عنها أو يعرفها أحد من الناس. قال الناس: إنها أعطت الرجل شيئًا يأكله، وأن ذلك الشيء منعه من النظر فى اتجاهات أخرى.

بدأت كلامها والحب يملأ عينيها ويغمر صوتها: "يا أبانا!".

"زوجتي".

قالت: "هذه الطفلة".

"كم عمرها الآن؟".

"لقد دخلت شهرها الثالث. أظن أنها ستبقى على قيد الحياة".

"لعل الأرباب يباركونها ويحفظونها".

"يا أبانا".

"يا زوجتي".

"لقد عانيت طوال سنوات ...."

تساءل "أتظنين أنك تخبرينني شيئًا لا أعرفه؟ ألم أكن معك طوال ذلك الوقت؟ ألم أشاركك الألم والمعاناة؟ ألم أعانِ وأُقَاسِ أكثر مما عانيتِ وقاسيتِ؟" ثم راح يضرب الهواء بسيفه.

"افعل شيئًا، يا أبانا. افعل أى شيء. احْمِ هذه الطفلة. احمها من القوى الشريرة، من الأعداء، احمها من الأشرار من الناس".

بقى الزوج فى مكانه غارقًا فى تفكيره.

"إن ما حدث شيء لهذه الطفلة فسوف لا....."

"صه، لن يحدث لها شيء. هل سميناها أوزيومينا Ozoemena هباءً؟ لن يحدث ذلك مرة ثانية. لن يحدث لها مكروه. لن تسمح الأرباب بحدوث مكروه لها". ويروح الرجل يقطع الهواء بسيفه مرة ثانية. "لكنى أتفهم الأمر. الدنيا شريرة. أنا مشغول بتأمينها وحمايتها أيضًا. اجلسى هنا وانتظرى. سوف أدخل الغابة. واقع الأمر، أننى كنت على وشك الدخول إلى الغابة عندما أحسست بمقدمك. انتظرى هنا، لن أغيب عليك كثيرًا".

عندما عادت نيكوليكا Nkolika إلى منزلها بعد ذلك بساعات قلائل، ووسط نظرات أمها التساؤلية، شرحت لأمها ذلك الذى حدث فى الضريح. ووافقت أمها على ما قالته تمامًا.

أكدت ننى Nne "هذه الدنيا حاقدة، الإنسان لا يستطيع فيها المبالغة فى حماية نفسه".

واقع الأمر أنى كنت أفكر فى اقتراح هذا الأمر عليك. الإنسان لا يمكن أن يسبح فى نهر ويسمح للصابون بالدخول فى عينيه. زوجى مداوٍ كبير. وهذا هو السبب وراء عدم فهمى لوقوفه ومراقبته لأعدائه وهم يضعون أصابعهم فى عينه".

"أى إنسان يقتل طلفتى هذه .....".

تنهى المرأة العجوز الكلام قائلة: "سيموت ميتة مفاجئة؟".

"لا، يا أماه، أبشع من ذلك. لن يموت وإنما سيحوم فيما بين الجنون ووهن العَجَز وضعف ذهنه. سوف يعيش لكنه سيرجو الموت ويتوسل إليه أن يأخذه، لأن حال الموتى سيكون أفضل من حاله".

"هذا دواء عظيم".

"إنه كذلك، يا أماه. لقد بذل أبوكم جهدًا كبيرًا فيه. وهذا الدواء ملزم طالمـا بقيت طفلتى على قيد الحياة. وحتى إن ماتت موتًا طبيعيًا سيكون الحال على هـذا المنوال. الموت رداء سوف نرتديه فى يوم من أيام حياتنا. حيواتنـا بـين أيـدى الأرباب. لكن إذا ماتت أوزيو مينا غدرًا بيد أى أحد من البشر، سيكون ذلك نهايـة هذا الشخص".

"ولتبارك الأرباب ذلك".

الفصل الرابع

الليل

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساء. وكانت المشرفة العامة على السجون قد حفظت برقية اليوم السابق. أغلقت الباب الذى يقع عند الناصية. لابد أنها قد انتوت العودة إلى بيتها، لكنها كانت تود قبل ذلك مراجعة النزيلات والتفتيش عليهن من جديد هؤلاء. المسكينات أصبحن صديقات لها من خلال المدة التى قضينها تحت رعايتها. البعض منهن كن معها منذ أكثر من خمس سنوات. كثيرات منهن. إنهن كن ينتظرن على قائمة الموتى. لقد تعوّدن على الانتظار الطويل، وهن يحسبن أن انتظار الحكومة إنما هو من أجل حيواتهن. آه، لم يتمكنّ من الهرب. سوف تتجه المشرفة العامة على السجون اتجاهًا آخر. لن تساعد، ولن تحث على الاشتراك فى الجريمة، ولكنها ستنظر فى اتجاه آخر. كانت الإنشاءات متهالكة ولن يكون من الصعب كسرها وهدمها، لأنها مبنية من كتل رملية هشة ومتهاوية، وموضوعة فوق بعضها البعض مثل جذور اليام.

لم تكن النزيلات يعرفن ذلك، لكن جزءًا من الجدار الخلفى كان قد انهار، محدثًا فجوة فى المكان. جرى تكويم بعض الأحجار والكتل المكسرة لقفل المكان بصورة مؤقتة، حتى تفرج السلطات عن رأس المال المطلوب لهذه التجديدات. وهذا أمر غير محتمل. سيظل ذلك بصفة دائمة إجراءا مؤقتًا. لم تقم أية مشروعات رأسمالية فى فريمان فورت، منذ دخولها إليه. كان يجرى الوفاء بالميزانية المعتادة بشق الأنفس. وعليه سوف يتواصل تآكل الجدار....

ليت إنتلّى Intelle تستطيع ترتيب شيء ما. مارسى Marcy تعلم أن إنتلّى هى وحدها القادرة على رسم خطة من هذا القبيل. ثم تمسك بعد ذلك ببطاريتها الكهربية وتأخذ عصا القيادة وتخرج من مكتبها.

فى الخارج، لم تكن كبيرة السّجانات مندهشة عندما شاهدت مقاعد مساعدات السجون شاغرة. ستكون النوبة (النوبتجيه) فى هذه الليلة من نصيب كل من ألـــيس Alice، وسلامبو Salambo وجين إيز Eze Jane. لابد أنهن يقمن بـــدورهنّ حـــول الجناح؛ خطر ذلك ببال المشرفة العامة على السجون. وعلى الرغم من ذلك، كانت مارسى تمشى فى صمت خلال الممرات وخلال مجازات السجن. كانت مارســـى تقصد الزنزانة رقم ١٠، والتى كانت فيها المرأة التى تنظر تنفيذ حكـــم الإعـــدام. كانت تلك الزنزانة فى نهاية المربع السكنى.

عندما اقتربت من الزنزانة المقصودة، استطاعت تمييز خيال واحـــدة مـــن مساعداتها أمام السور الحديدى. عرفت مارسى أن التى تقف هنـــاك هـــى ألـــيس، وذلك بحكم حجمها الضخم. كانت النزيلات قد نعتتها ماليس Malice بدلاً من أليس Alice. اتضح أنها كانت تجرى بيانًا عمليًا على شيء ما أمام النزيلات.

اقتربت مارسى Marcy فى صمت ووقفت على بعد خطوات قليلـــة. كـــان المصباح الكاشف محروقًا. سيقوم عمال الصيانة باستبداله فى يـــوم مـــن الأيـــام. طوقها الظلام. كانت مرؤستها منهمكة فى عملها إلى حد أنها لم تلاحـــظ وصـــول رئيستها. راقبت مارسى أليس وهى تنزع القشر عن إصـــبع كبيـــر مـــن المـــوز. وراحت تقرب إصبع الموز بطريقة أخّاذة من شفتيها وغطت الجزء العلـــوى مـــن إصبع الموز بين شفتيها البضّتين. وراحت عيناها تدوران بطريقة حالمـــة، هاتـــان هما عينا غرفة النوم. وراحت تمص إصبع الموز باشتهاء شديد. ثم تخرج إصـــبع الموز ببطء لكى تراه الحاضرات كلهن. كانت أسنانها قد قضمت أو أحدثت حـــزًّا فى إصبع الموز، لتصنع لهُ رأسا مختنًا. وبطريقة مغرية راحت تدفع إصبع الموز نحو الأعلى وإلى الأسفل؛ فوق، تحت؛ فوق، تحت، تحت. كانت النزيلات كلهن يتـــشكين ويتوجعن، وهن ينظرن إلى السجانة فى شوق وحنين.

قالت أليس على سبيل السخرية: "أنا آسفة لك، يا من على وشك أن تمـــوتى. لن تذوقى المرود بعد اليوم. لن تذوقيه أبدًا". وراحت تهز ردفيها إلى الأمام وإلـــى الخلف مرات عدة، وهى تتلوى "آه، أنا آسفة".

تهامست السيدات وهن ينظرن إليها وكلهن رغبة وشـوق "عجبًـا لمـاليس Malice!

عجبًا لها!"

قالت أوكو ـــ أجلوجو، المشرفة العامة على السجون، وفـي هـدوء تـام لمرؤستها: "هذا الذى فَعلْته يكفى يا سيدة سلامبو. ثم تخرج بعد ذلك من المنطقـة المظلمة. اندهشت أليس، وانسحبت بعيدًا عن القضبان الحديديـة وحيـت الرَّيِّـسة Boss. "كنت أمزح معهم يا سيدتى، ليس إلا".

كررت مارسى كلامها "أقول إن ما فَعلْته يكفي".

وتمد مارسى ذراعيها لتمسك تمامًا بأذنى مرؤستها، وتسحب أليس بـالقرب منها. لم تكن أليس تتوقع هذا التوبيخ. وقبل أن تعود إلى مكانها كانت ريِّستها قـد قرصت شحمتى أذنيها مرات عدة. ثم تدفع مارسى مرؤستها دفعًا عنيفًا وشديدًا.

وتبدى النزيلات استنكارهن "فتاة شريرة!".

تتراجع أليس. وتحاول مداعبة أذنيها من باب تخفيف الألم والإهانة. وتنظر أليس إلى رئيستها فى الظلام، ثم تستدير وتنصرف بعد ذلك. وهنا تروح النزيلات يعبرن عن استنكارهن بصوت عال لذلك الشكل المنسحب.

قالت أليس فيما بينها وبين نفسها، وهى تلعن رئيستها وتسبها "يا لـك مـن امرأة شريرة! امرأة عقيم، زوجة ذكر، قردة بلا ذرية!".

تقف مارسى بالقرب من القضبان الحديدية وتبتسم إلى النساء المحكومـات، وتقول: "التضامن!".

وترد عليها النزيلات: "مدى الحياة!".

تساءلت مارسى وهى تنظر إلى إنتلّى "هل انتهى الاجتماع؟".

ترد إنتلّى من فوق سريرها الموجود فى الركن: "ليس لدينا اجتمـاع هـذه

الليلة، أيتها المشرفة العامة على السجون. لن يكون هناك اجتماع قبل غـد. الليلـة هى قدّاس الخلاص. هذا لا يعنى أنك عضو فى هيئة شهر أغسطس، إلى اللقاء".

تهكمت إحدى الحاضرات على سبيل المداعبة "نحن نقيم قدّاس الخلاص فى كل وقت وحين مع ذلك لا نزال هنا".

أنبتّها زوجة القسيس قائلة: "أنت ليس عندك إيمان، وهذا هو السبب".

قالت الممرضة المولعة بالجدل، وهى تقدر حجم الغناء بطريقة النظر: "لا يكفى أى قدر من الإيمان لهدم هذا الجدار ولا لفتح فتح هذه البوابات الحديدية".

اقتبست باتسى patsy، بعض الأقوال، وهى تضم الإبهـام والسـبّابة إلـى بعضهما: "أقول لكن، إذا كان إيمانكن صغيرًا مثل حبة من خردل، فلن تصدقن أن الجبل "يمكن تحريكه وإلقاؤه فى البحر". وأن ذلك سوف يحدث. مَجِّدن يسوع!".

قالت سوزانا وهى تضحك فيما بينها وبين نفسها: "أنا لا أريد تحريك الجبل، وإنما أريد تحريك هذه البوابة الحديدية".

سألت مارسى النساء. وهى تنتقل ببصرها من واحدة إلى الأخرى: "هل أنتن على ما يرام؟ هل تردن أى شيء؟" وما إن انتهت من كلامها حتى ندمت على مـا قالت.

ردت عليها إحداهن: "أنا بحاجة إلى إصبع من الموز!".

"وأنا أيضًا!".

"أنا بحاجة إلى إصبعين. لأن واحدًا لن يكفيني".

"أنا بحاجة إلى حفّاضة. فقد آن أوان الدورة الشهرية".

"أنا لا أريد أى شيء. أخرجونى من هنا فقط".

"أنا أريد الحرية، أطلقوا سراحي".

"أنا بحاجة إلى أطفالي".

أكدت مارسى للنزيلة: "غدا يوم زيارة، وسوف يجيئون إليك".

شقت إنتلّى طريقها إلى شبكة القضبان وسط هذا الاهتياج، وهمست قائلة لمارسى "رأيت إعلاننا فى الصحيفة، عن طلب جلاد (عشماوى)".

"هذا صحيح. هذه صفقة كبيرة".

"هذا يعنى أن وقتنا قد انتهي".

"أنا لا علم لى بذلك".

راحت تراقب وجه السجّانة، وهى تحاول قراءته: "خبرينى، هل هذا صحيح؟".

أصرت السجّانة على موقفها "أنا لا أعرف ذلك الذى تتحدثين عنه".

وضعت انتلى يدها داخل صدرها وأخرجت الورقة؛ وفردتها لمارسى التى اطلعت عليها بعينها دون أن تلمسها.

"إنتلّى، أنتن غير مسموح لكن هنا بالصحف. كيف حصلت على هذه الورقة؟".

"تناسى طريقة حصولى على هذه الورقة. فهناك طرق ووسائل لذلك". وراحت تحملق بعينيها فى عينى مارسى. "هذا صحيح. لديهن صحيفة الآن. لقد بدأ العد التنازلي".

"صه! لم نحدد شيئا بعد".

"بقيت عينا إنتلّى مثبتتين على مارسى لكن الأخيرة كانت تتحاشى تلاقى العيون. وخطر ببال السجينة، إذن، فهذا حقيقى. النهاية قريبة، قريبة جدا.

أردفت السجانة قائلة: "لقد استمعتِ إلى القسيسة". وراحت تراقب المرأة

البيضاء وهى تقترب منهن "آمنَّ، فالمعجزات تحدث".

تتجه سوزانا ناحية المسئولة.

"أحييى المشرفة العامة على السجون!".

"سوزى، بنتي!".

"ألم تصل بعد أية أخبار من القنصل؟ هل ستعرفين ذلك؟".

"لا، لم يصل شيء بعد. لابد أنه منشغل بالأمر. ربما هذا الأسبوع".

"تقولين إن غدًا يوم زيارة؟".

"نعم".

أردفت إنتلّى قائلة: "ربما يجيء لك بأخبار طيبة".

"أتمنى ذلك".

"الغد لا يأتى مطلقًا، لا ينتهى. أود العودة إلى وطني".

يتغضن وجه سوزانا فجأة مثل صفحة من صفحات الطباعة وتنفجر فى البكاء.

ولولت بلغتها القومية: "أود العودة إلى وطنى،(*) أود العودة إلى وطنى، ثم صاحت: "لقد سئمت هذا المكان، لقد سئمت هذا البلد، أنا أود العودة إلى وطني(**)"

مالت إنتلّى على الضابطة. ونظرتا إلى المرأة الغضبانة. كانت النزيلات معتادات على نوبات هذه المرأة الهيستيرية التى كانت تنتابها بين الحين والآخر. من ذا الذى لا يريد العودة إلى موطنه؟ وضعت المتحدثة باسم الزنزانة يدها على كتف سوزانا وراحت تربت عليه مطمئنة إياها إلى أن توقفت الدموع. وعادت إلى

(*) وردت هذه العبارة بلغة سوزانا القومية Non Posso, non posso. (المترجم)
(**) وردت هذه العبارة أيضًا بلغة سوزانا القومية Non posso di piu. (المترجم)

وجهها حمرته، كان وجهها يتنفَّخ، وممتقعا امتقاعا رماديًا على الجـانبين. جففت عينيها وراحت تتشمم على نحو متتالٍ.

سألت إنتلّى السجانه: "ما هى وسائل فعل ذلك إذن؟".

نظرت مارسى إليها نظرة بلهاء. تسألين ما هى وسائل فعل ذلك؟ ما الـذى كانت تتحدث عنه؟ ما الذى كن يناقشنه؟ كانت النزيلات كلهن يتكلمن إليها فـى آن واحد، وعليه لم تستطع تتبع توجيهات كل منهن.

سألت إحداهن المشرفة العامة على السجون: "كم تاريخ اليوم؟".

"هاى يا بنات! ابتهجن ـــ لماذا هذا الحزن! افرحن! هيا بنا إلى شـىء مـن المرح، هيا. باستور، غنى لنا بعض الأغاني".

ولولت النزيلات قائلات: "لا، لا، لا! لقد سئمنا الأغنيات".

أصرت إنتلّى وهى تحاول التغلب على الضجيج، وتساءلت وهى تربت على ذراع المشرفة العامة على السجون "ما هى وسائل فعل ذلك؟".

كررت إحدى النزيلات السؤال نفسه "ماذا يصادف اليوم، يـا سـيدتي؟ مـا الشهر الذى نحن فيه؟ هل هو شهر مارس؟ هل هو شهر إبريل"؟.

"نحن فى شهر أغسطس. الرابع من أغسطس".

"تقولين أغسطس! هذا يعنى أنى هنا منذ عامين!".

"هذا ليس كلامًا دقيقًا. أنت جئت إلى هنا فى العام ٢٠٠١. ونحن الآن فـى العام ٢٠٠٢ يا حبيبتي".

قالت إنتلّى مغيرة موضوع الحديث: "سألِتنا عما نريد أو نحتاج. ولدى قائمة باحتياجاتنا" "**انظرى هنا، أشعلى بطاريتك الكهربية هنا فى هذا المكان**". قالت أنتلى هذا الكلام، وهى تتحرك ناحية أولورى Olori.

وجهت مارسى ضوء بطاريتها الكهربية إلى رجل المرأة. كانت هناك بقعة داكنة بحجم البرتقالة تغطى مقدم الساق. كانت هناك بثرات مائية كثيرة تلمع في هذه المنطقة من الساق.

قالت أنتلى لنزيلة أخرى: "أريها صدرك، يا امرأة". ترفع وُنمى Wunmi البلوزة الكاكى. كانت على صدرها بقعة أكبر من البقعة السابقة، تغطى الثديين المترهلين والجزء العلوى من البطن.

تحركت إنتلّى ناحية باستور Pastor. "اكشفى ظهرك! وأنت يا رحمة اكشفى أنت أيضًا عن ظهرك". عرَّت النساء أجسامهن طلبًا للفحص وإمعان النظر.

أعلنت إنتلّى "هذا مرض جلدي: مرض الغراب، مرض اليوء Yaw(*)، ومرض سكابيز(**). نحن بحاجة إلى رعاية طبية، بحاجة إلى المنظفات والمطهرات، بحاجة إلى الصابون، اقصد الصابون الطبى .....".

تساءلت المشرفة العامة على السجون وهى تفرد ذراعيها "من أين لنا بالنقود التى نشترى بها ذلك يا أنتلّي؟ أنت تتكلمين وكأنك لا تعرفين ما يجرى، أنت لا تعرفين كيف ندير هذه الموازنة الصغيرة، أنت دون سائر النزيلات الأخريات. من أين لنا بالنقود المطلوبة؟".

"إذا لم يكن لدى الحكومة المال اللازم للاحتفاظ بالسجناء، فالأفضل لها أن تطلق سراحنا".

"الحكومة بحاجة إلى السجون. لا حياة لأى مجتمع بدون السجون. أنت تعرفين ذلك".

"إذن عليهم أن يوفروا لنا احتياجاتنا. وأنتم لا يمكن لكم الاعتماد على

(*) مرض جلدى استوائى متطور المراحل، وفى مرحلته الثالثة والأخيرة ينال من عظام المريض. (المترجم)

(**) مرض جلدى معد يقوم على حك الجلد. (المترجم)

التبرعات والإحسان فى تلبية احتياجاتنا". ويرتفع صوت إنتلّى ليشمل ويحتوى النزيلات الأخريات اللاتى أومأن برؤسهن علامة على موافقتهن على ما تقوله إنتلّى. "إذا لم تقم المؤسسات الدينية ومؤسسات الخير والإحسان بزيارة السجون، فلن تطيق النزيلات تمضية ولو ليلة واحدة فى السجن".

قالت مارسى راجية: "إنتلّى "من فضلك تعاونى معنا. تعاونى معنا، أرجوك، سّهلى الأمر علينا جميعًا. أنا أعرف أن الأمر صعب. نحن مغلولو الأيدى. أنت تعرفين ذلك".

تذكرت كبيرة السجانات الرسالة التلكسية. هذه التكاليف الجارية هى التى تجعل السلطات على وشك تنفيذ الأحكام واستئصال المحكومين. هذه السلطات يتعين عليها خفض التكاليف والنفقات؛ هيئة العاملين بالسجون لم تستكمل بعد احتياجاتها وأدواتها الشخصية. كل ضابط يتعين عليه شراء زيه والحصول عليه من السوق المفتوحة، ثم يأخذه بعد ذلك إلى الترزى لإخاطته. النتيجة: وجود أشكال متباينه من القماش الكاكى. زد على ذلك أن الكتيفية(*) وكذلك الحبال معروضة للبيع فى الأسواق. لقد تدهورت الأشياء وانحدرت الأمور. ظننت أن الخطوة التالية ستكون متمثلة فى إزالة هيئة العاملين فى السجون. لقد ارتفعت تكلفة الحكم ارتفاعًا كبيرًا.

لابد من "تصحيح الحجم" وهذا تعبير لطيف هين ولين عن "تقليل الحجم". يتعين علينا إعادة تشكيل السجون، وإدخال الحاسب الآلى إليها، حكومة إلكترونية، وأن نعيد النظر فى المنظومات الهندسية، إلخ إلخ. بدا الأمر وكأنه تسجيل مكسور. لا نظر ولا اعتبار لما يمكن أن يحدث للمطرودين من السجون. خطر ببال المشرفة العامة على السجون، أن السواد الأعظم من هؤلاء المطرودين من السجون، سيعودون إليها على شكل نزلاء.

(*) الكتيفية: هى القماش المقصب الذى يوضع على كتف السترة العسكرية. (المترجم)

قالت المشرفة العامة على السجون، في مشاركة منها للنساء "صبرًا. تحملن معنا. أرجوكن، مائة عام لا تعني مدى الحياة".

بعد تبادل آخر للمزاح، ودعت مارسي النساء وعادت إلى بيتها انتظارًا لطلوع النهار. وبينما كانت تسير عائدة إلى مكتبها، ثم الخروج بعد ذلك من مبنى السجن لاحظت شرخًا محشوًا في الجدار. هذا الشرخ جديد. كان ذلك الشرخ يمتد من أعلى الجدار إلى الأرض. تفكرت الأمر، ما لم يجر عمل شيء ما على وجه السرعة، فإن العناصر الطبيعية ستكسب الحرب في مواجهتها لفريمان فورت.

الفصل الخامس

دخول الليـل

"أولورى Olori، الكلمة معك. دافعى عن قضيتك".

اتجهت الأنظار كلها إلى المرأة متوسطة العمر التى تحمل هذا الاسم. كانت عيناها توحيان بالشرود، كانت نظرتها توحى أن هذه المرأة كانت منفصلة ذهنيًا عن هذه المرأة. كانت أولورى فاتحة البشرة، لكن آثار الدمامل والرؤوس السوداء غلّظت منظر وجه هذه المرأة. كانت الآثار المتخلفة عن مرض الإكزيما مبعثرة فى ذقنها وفوق عنقها. كان حاجباها كثيفين، من فوق عينين منتفختين قريبتين من بعضهما. كانت فى منتصف جبهتها قوباء حلقية شبيهة بالختم. أما أنفها فكان من النوع الشائع، إذ كان مستويا عند القنطرة ومرتفعا إلى أعلى عند الطرف. كانت هناك على جانب فتحة الأنف اليمنى شامة سوداء تظهر منها شعرة واحدة سوداء. كانت شفتا أولورى من النوع السميك المدوَّر، وغامقتان، وجافتان بطبيعة الحال. كانتِ شفتها السفلى تمتد إلى ما وراء الشفة العليا. كان وجه أولورى خاليًا من المكياج. لم يكن ذلك الوجه غير مطلوب وحسب، وإنما كان غير ضرورى أيضًا.(*)

بعد ذلك، وفى عشية موعد هؤلاء النساء مع تنفيذ حكم الإعدام فيهن، رسمت مارس خطة لإحضار بعض أقلام الحواجب، وأحمر الشفاه، والمساحيق، والأمشاط، وكل ما يلزم لو قدر لها أن تكون هى ضابطة النوبة فى ذلك اليوم. هذا يعنى أن النزيلات سيقمن بتزيين وجوههن، ثم يجرى بعد ذلك التقاط صور لهن، على أن تقوم مارسى، فيما بعد بإرسال هذه الصور إلى أقرب أقارب هؤلاء النزيلات؛ على أن تقوم مارسى بكتابة العبارة التى تقول: "التقطت هذه الصورة قبل تنفيذ حكم الإعدام فى صاحبتها"، خلف كل صورة من هذه الصور. كان ذلك

(*) القوباء الحلقية: مرض جلدى معد. (المترجم)

من قبيل تذكار العشاء الأخير؛ أى الليلة السابقة لوفاته (عليه السلام)، عندما تناول الخبز إلخ. هذه المرة ليس "هو" وإنما "هي". أمك، أختك، زوجك، فى الليلة السابقة لوفاتها، كان هذا هو الحال التى كانت عليه.

هذه الليلة، كانت النزيلات طبيعيات وغير مهملات لشعورهن. لم تكن هناك عطور أو مساحيق من مساحيق الزينة. لم يكن السجن يوفر الأشياء التى من هذا القبيل، هذا يعنى أن المنظمات الإنسانية هى التى كانت تعنى باحتياجات النزيلات. كان آخر هبة أو عطية قد نفذت عن آخرها. كانت النزيلات ينتظرن يوم الزيارة التالى أملاً فى مجيء تموينات جديدة من أقاربهن ومن المحسنات أيضًا، ومن المؤسسات الدينية والمؤسسات الإنسانية.

كان مسموحًا لكل نزيلة من النزيلات بالحصول على بضع سلطانيات من الماء "للاستحمام" الأسبوعى. لم يكن هذا القدر من الماء كافيًا تمامًا مع وجود هذا المناخ الحار الرطب. كانت صنابير المياه خاوية. كانت هناك عربة صهريج تقوم بجلب الماء على فترات طويلة. كانت النزيلات يقتصدن فى الماء. كانت تلك المركبة قد تعطلت فى شهر من الشهور وترتب على ذلك عدم جلب الماء. الترتيبات تجرى حاليًا لحفر بئر أو ثقب ومن فوقه خزان للماء، لكن هذا الأمر توقف لعدم توفر الأرصدة أو المبالغ اللازمة لذلك. فى تلك الأيام، كان النزلاء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يقومون بالذهاب إلى المجرى المائى الموجود خلف السجن، لجلب وإحضار الماء لوضعه فى البرميل الكبير الموضوع خلف جناح النساء.

كانت النساء قد تعودن على عدم وجود احتياجاتهن الأساسية. فى بعض الأحيان، كن يعتمدن على الإصبع والماء فى الحصول على التصحاح الفموى. هذا يعنى أن النساء قللن من استعمال المساويك التى كان يجلبها لهن زائر من الزائرين. هذا المسواك كان يستخدم مشطًا لفرق شعورهن. كانت الصديقات منهن يجدلن شعورهن على شكل سنابل القمح. ومع ذلك، كان السواد الأعظم من هذه

الرءوس تعج بالقمل والحشرات الزاحفة. كانت المحبات يساعدن بعضهن فى تنقية القمل وقتله.

كانت أصعب الأمور عند هؤلاء النزيلات تتمثل فى غياب حفاضات العادة الشهرية، نظرًا لأن القسم الأكبر من هؤلاء النساء كن لا يزلن فى سنوات الخصوبة والإنجاب. وعليه، فإن الزنزانة كلها كانت تفوح منها تلك الرائحة المتعفنة التى كانت تتردد بين رائحة البيض الفاسد، والجرح المتقيح. كانت تفوح من الزنزانة رائحة الغائط ورائحة الحيض. لم تكن الفوط الصحية تصل إليهن بصورة منتظمة. كان تموينهن عبارة عن قطعة من شريط أوراق الحمام فى كل يوم أثناء النهار، وقطعة أخرى أثناء الليل، وعليك أن تدبرى أمورك وتنظمين "وقتك". كان السواد الأعظم من النزيلات يلجأن إلى دس قطع من قماشهن داخلهن، لكن قطع القماش هذه لم تكن تستبدل أو حتى تُغْسل. ماذا يفعلن؟ هل يستعملن البول فى غسل هذه القطع؟ كانت المراتب، والحصير المصنوع من الرافيه، وكذلك الألبسة المصنوعة من الرافيه أيضًا يعاد توزيعها على النزيلات وهى لا تزال محملة ببقع الإناث.

قالت إنتلى: إن المؤسسة كلها كانت عبارة عن وباء يتحين الانتشار. كانت كل واحدة منهن تعانى من سعال شديد. كانت رائحة الدم المتعفن مختلطة بجردل الفضلات الموضوع فى ركن من الأركان، تكفى لخنق فيل من الفيلة، على حد قول هذه المرأة. لم يكن هناك ورق للحمام حتى تستعمله النزيلات فى المسح. وعلى حد قول المسئولين: فإن السجن لم يكن يجرى تزويده بالتوريدات والتموينات. كانت هناك كومة من أكياس الأسمنت الفارغة، لكن أوراق هذه الشكائر كانت تسبب نوعًا من الطفح الجلدى، وعليه تحولت النزيلات إلى التمسح فى جدار الجردل. كانت الزنزانة خالية من الخجل وخالية من الخصوصية. البعض منهن، كن يأتين ذلك التمسح مباشرة، بأن تمسك الواحدة منهن فلقتى مؤخرتها مباعدة بينهما وتروح تحك مؤخرتها على الجدار. بعض آخر منهم كن يستعملن أيديهن. هذا يعنى أنهن

كن يكشطن بقية الغائط ثم يقمن بوضعه فى الجردل، وإذا ما استعصى نزوله فى الجردل كن يُلَيِّسنه على الجدار.

وقد تسبب ذلك الطابع غير الصحى لهذه البيئة فى معاناة الكثيرات من الدوسنتاريا والإسهال. كانت نزيلات كثيرات يعانين من هذين المرضين فى آن واحد.

كانت الممرضة التابعة لهيئة إدارة السجون، قد طلعت بفكرة التبول فى إناء ثم استعمال الماء بعد ذلك فى غسل الأيدى، والتشطيف من أسفل فيما بعد. كانت نزيلات كثيرات قد رفض هذه الفكرة، وهن يُبوِّزْن ويسددن أنوفهن. ومع أنهن وصلن إلى حافة الهاوية، فإن ذلك سيظل عملاً غير انسانى، هل يعقل ذلك؟

كانت الممرضة قد أصرت "البول مطهرّ تمامًا، وهذا لعلمكن". عندما تكون الممرضة منفعلة، فإنها عادة ما تتكلم وعيناها مغلقتان، كما هو حالها الآن" يجب أن تعلمن أن ذلك هُو النطف الخيارات المعروضة علينا". لقد سبق لها العمل فى إحدى المستشفيات، بل إنها كانت صاحبة عيادة فى يوم من الأيام، عيادة من عيادات الطفولة والأمومة.

وعليه، راحت النزيلات اعتبارًا من ذلك التاريخ يُبلْن فى سلطانية. كانت المحتويات، التى كان لونها مثل لون البدر، تستخدم وتستعمل استعمال الماء. كانت رائحة ذلك البول تنضم هى الأخرى إلى الروائح التى فى الغرفة الصغيرة. وأنت إذا ماكنت قادمًا جديدًا على هذه الغرفة ستفاجئك هذه الرائحة، لكن بعد فترة ومن خلال العيش فى هذا الوسط، تتعود على هذه الرائحة.

قالت إنتلى ذات يوم وهى تنظر إلى الدم الأحمر، وتشعر بعدم الارتياح: "أعتقد أن العلماء يتعين عليهم اكتشاف مصل مضاد للدورة الشهرية. بعض النسوة لا يردن هذا الطقس الشهرى. هذا الطقس الشهرى يخص البشر الذين يرغبون فى الإنجاب. الإناث المتحررات، وأنا أعنى بهن النساء غير المسجونات، اللاتى أنهين

مسألة الحمل والولادة يمكن حقنهن بمصل مضاد للعادة الشهرية. أنظـرى إلينـا، على سبيل المثال، فنحن لن نحمل مطلقًا مرة ثانية، وعليه لماذا نعـانى مـن هـذا النزيف. إنها مضيعة للوقت".

بصقت القسيسة وهى تقول: "حاش لله! سوف أستمر فـى الإنجـاب بحـق المسيح. سوف أحزم روح العقر وعدم الإنجاب، وسوف أربطها وألقى بهـا فـى الهوة السحيقه. آمين".

رد بعضهن فى صوت جماعى خافت وضعيف يوحى بعدم الاقتناع "آمين".

نصحت الممرضة إنتلى قائلة: "انتظرى سن اليأس". كانـت لا تـزال فـى منتصف العمر، لم تكن مواعيد الدورة الشهرية منتظمة. كانت الدورة تجيئوها على فترات متباعدة. لم يكن توقف الدورة بالشكل الذى كانت عليه من قبل. كانت تسائل نفسها، هل هذا سن يأس مبكر، أم أن ذلك نتيجة للغذاء غير المتوازن؟

واصلت إنتلى كلامها غير عابئة بالمقاطعة، "علـى حـد قـول الأخـوات الموقرات (الراهبات)، ما جدوى أو فائدة الدورة الشهرية؟ فى اللحظة التى يـتمكن العلماء فيها من هذا النزيف السفن، سيوفر ذلك علينا الحفاضات، وسـيوفر علينـا أيضًا مواردنا، وفى حالنا هنا سيوفر علينا صحتنا. وسيوفر أيضًا ساعات وساعات من الطاقة البشرية التى تنفق فى آلام الدورة الشهرية، والأمـراض الأخـرى ذات العلاقة بهذه الدورة".

تساءلت سوزانا "وفرن صحتكن للجلاد (عشماوى). ما الهـدف مـن ذلـك كله؟".

قالت بنتا Binta وهى قابعة فى ركنها: "هذا مرض".

"الحيض مرض. واقع الأمر أن كينونة المرأة نفسها مرض. إنهـا مـرض مرحلي".

"قلت لكن بالفعل أن ما نمر به هو الموت البطيء. الحكومة تقتلنا ببطء، عن طريق الجوع والمرض. فى البداية، الجوع يضعفكن، ويجعلكن معرضات واهنات، وبعد ذلك يقضى المرض عليكن".

كانت هذه النوعية من الأفكار تراود إنتلي. تنحنحت آمن Amen، فاتجهت الرؤوس كلها إليها. كانت آمن جالسة على الأرض، متكئة على الجدار. كان آمن أكبر نزيلات الغرفة سنًا، أو هكذا كانت تظن النزيلات، تأسيسًا على ملامحها التى توحى بكبر السن؛ كانت بشرتها جافة ومتجعدة، وكانت عيناها ضعيفتين، وكان شعرها خفيفًا ورمادى اللون. كانت عندما تتكلم تتحرك عيناها حركات سريعة ومتتالية، كما لو كانتا تعيدان ترطيب نفسيهما.

قالت: "قبل وصولكن إلى هنا، كانت النزيلات يمتن كل يوم مثل الذباب. كنا نصحو كل يوم لنرى بيننا جثة هامدة بلا حراك".

أردفت مودى Mudi قائلة: "كن ننادى عليها، ونهزها. إلى أين؟ ولا تستجيب".

قالت إحداهن قولا صائبًا "لقد هربت من البندقية".

"قلت لكن، إنه الموت البطيء. ينبغى أن نجأر بالشكوى. نحن لنا حقوق".

غيرت إنتلي رأيها. لقد ذكرها الحديث عن الدورة الشهرية بكلمة mensa اللاتينية التى معناها "طاولة". هذا هو التصريف الأول. حاولت تصريف هذه الكلمة فيما بينها وبين نفسها. قالت مناجية نفسها: الكلمات اللاتينية القديمة لا تفنى مطلقًا، وإنما يعتريها شيء من التدهور. تصريف الكلمات اللاتينية له خمسة أو ستة تصريفات، ويمكن التمييز بين هذه التصريفات إذا ما استطاع المرء تحديد حالة الرفع أو صيغة المنادى؛ حالة الرفع، وحالة المنادى، حالة النصب، حالة الإضافة، مفعول الأداة، وحالة المجرور بحرف الجر. هذا صحيح، وطالما أن حالة الرفع وحالة النداء هما صورتان لشكل واحد، فإن صورة واحدة تكفى للحالين. كلمة

Mensa فى التصريف الأول فى صيغة المفرد تكون على النحو التالى:

Mensa

Mansam

Mensae

Mensae

Mensa

نعم، هذا هو المطلوب. سأحاول تصريف هذه الكلمة فى صيغة الجمع.

كانت سوزانا تقول: "نحن محكوم علينا بالإعدام. هذا يعنى أننا محرم علينا حق الحياة. إذن، ما هى الحقوق الأخرى التى لدينا غير هذا الحق؟".

ذكَّرتهن زوجة القسيس وصوتها يحمل نبرة الاتهام "أنتن جميعًا قتيلات".

ساءلت نفسها، لماذا أفعل ذلك؟ لماذا أتحول إلى مثل هذا الصلاح وأتحدث إليهن كما لو كنت إنسانة صالحة، فى الوقت الذى قال فيه (مجِّدوه) لا أحد خال من العيوب، ومع ذلك لم تستطع زوجة القسيس التوقف عن الحديث. لأن من طبيعتها أنها إذا ما بدأت الكلام فإنها تعجز عن التوقف.

أشارت بأصابع الاتهام إلى من يكبرونها "لقد أنكرتن حق الحياة على أحد من البشر. وهذا هو السبب وراء إنكار هذا الحق عليكن. العين بالعين.... يجب أن تندمن".

"وماذا عنك؟ ألم تقتلى أنت أيضًا واحدًا من البشر؟".

أجابت زوجة القسيس على السؤال "أنا لم أقتل أحدًا. الذى فعل ذلك هو زوجى....".

لم تسمح لها الأخريات بالانتهاء من كلامها. وأكملن لها جملتها، "... الذى أخذ المريض من المستشفى إلى الكنيسة، وأن المريض مات هناك".

كررت إنتلى كلامها "أولورى، الكلمة معك الآن". كانت تفهم زوجة القسيس لكنها كانت تتجاهلها أنا نفسى لم أفعل، لكن من ذا الذى يمكن أن يصدق ذلك؟

تنحنحت أولورى مرات عدة. كان ذلك سعالاً شديدًا. التنحنح البسيط لا يزيل هذا السعال. كانت أولورى ترتدى الثوب الكالح الذى يجمع بين اللونين الأزرق والأخضر، هذا الثوب واحد من ثياب المؤسسة الكثيرة وتحمل الرقم (FF109) مكتوبًا على الصدر. وكانت تلف حول وسطها حزامًا محليًا به بعض الثقوب. أطالت النظر إلى أصابعها وأزالت من ظفر إبهامها بعضًا من الأقذار الخيالية. كانت أولورى غارقة فى تصفح ماضيها، ولا تعرف من أين تبدأ. وبصوت منخفض، يكاد يكون همسًا، والذى عمر بالحماس عندما بدأت تبث الحياة فى تاريخها، هنا تبدأ أولورى فى الحديث.

"بدأت مشكلاتى فى حقيقة الأمر بعد وفاة زوج جارتى. كنا فى ذلك الوقت نعيش فى ضيعة فى جزيرة فيكتوريا".

كانت الزنزانة ساكنه وهادئة. كانت الأعين كلها مركزة على الراوية. لم يكن مسموحًا بالمقاطعة أو طرح الأسئلة. واقع الأمر أن ذلك لم يكن ممنوعًا، لكن لم يكن مفضلاً أو محببًا. كان مسموحًا بطرح الأسئلة بعد أن تنتهى الراوية من كلامها، تلك كانت قاعدة وضعها المتحدث الرسمى. وعلى الرغم من ذلك، كان يحق للمستمع الذى تلتبث عليه الأمور، أن يطلب شيئًا من التوضيح. مثلما حدث عندما قالت الراوية إن مشكلاتها بدأت بعد وفاة زوج جارتها.

تساءلت بنتا، ترى هل كنتما تتقاسمان الرجل نفسه أم ماذا؟ كيف تفقد امرأة زوجها لتبدأ مشكلات امرأة أخرى؟ لم تستطع تبين حقيقة ما حدث لكن إنتلى طلبت منها الانتظار حتى تنتهى أولورى من كلامها. وإذا ما بقى الأمر مستغلقًا وجب بعد ذلك طرح الأسئلة. واصلت أولورى كلامها متناسية ذلك الارتباك الذى تولد فى ذهن بنتا Binta.

"فى أفضل الأحوال، وفى ظل الظروف العادية لم أكن أنا وجـارتى علـى وفاق. هذا يعنى أن فكرة حسن الجوار لم تكن موجودة بيننا مطلقًا. كنا نغار مـن بعضنا البعض، وكنا نغار من عائلات بعضنا، ومن أطفالنا، ومن منجزاتنا، ومـن تقدمنا ومن كل شيء. كنا نتشاجر أيضًا لأتفه الأسباب. كانت أتفه الأسـباب التـى تتغاضى عنها النساء الأخريات تسفر عن شجار ضارٍ وعراك بيننا أو بين أطفالنا. فى بداية الأمر، كان جيراننا يخرجون ويهدؤننا، ويهدئون أزواجنا. لكننى أرى أن جيراننا سئموا هذه العملية، وبدأوا يتركوننا إلى أن نتعب أو إلى أن تهـدأ ثورتنـا. وأنا عندما أتذكر ما جرى أرى أن ميرو Mero كانت مصابة بعقدة مركب النقص، أو أن هذه المرأة كانت تعانى من مرض نفسى فى أضعف الأحوال. وأنـا أرثـى لحالى عندما سمحت لها أن تجرنى إلى سكوتها الفج الفظيع. يبدو أن تعليمهـا لـم يتجاوز المرحلة الثانوية بأى حال من الأحوال. بلغنى أن أهلها زوجوها فى سـن مبكرة. أما أنا فكنت أحمل شهادة عالية، وكان زوجى يحمل مؤهلاً عاليًـا أيـضًا. قمت أيضًا بتأدية خدمة الشباب وكل شيء يتعلق بهذه الخدمة؛ وعليه" من هى هذه القروية التى تحاول أنا تنافسني؟ سوف أريها كيف تكون المنافسة". وهنا تعقد جبين أولورى بطريقة لا إرادية.

"كنت كلما ارتديت فستانًا اليوم، أوغدًا، أرى ميرو تشترى الفـستان نفـسه وتلبسه، لكى ترينى أننا متساويتان، أو أن بوسعها شراء الفستان ومجاراتى، لباسـا بلباس. وعندما جاءت موضة الدانتيلا، تنافسنا شديدًا. وحدث الشيء نفسه يـوم أن جاءت موضة الشموع الفائقة.

حدث الشيء نفسه مع بروشات الزينة، ومع الحلى الهندية المدراسية، ومـع الحلى السنغالية، كنا نتنافس فى كل شيء. سار الحال على هذا المنـوال إلـى أن وصلنا إلى اللون الأحمر الضارب إلى اللون البنى. اشتريت أنا هذا الـدمقس فـى بداية الأمر. أذكر ذلك جيدًا؛ كان ذلك القماش له زرقة لـون البحـر، ومرصّـعًا بتيجان تجذب الأنظار. لبست هذا الثوب أول مرة فى يوم مصادف ليـوم الأحـد.

غنى عن القول أنى فى ذلك اليوم وقفت خارج المنزل وقتًا طويلاً إلى أن ترى هذه الحمقاء ذلك الفستان، وتزداد غيظًا على غيظها، لأنى كنت أعلم أنها تراقبنى من خلف زجاج نافذتها. انتبهن وركزن، فى يوم الثلاثاء أقول: أى بعد ذلك بيومين، كانت تلك الحيزبونه ترتدى فستانًا دمقسيًا من نفس لون الفستان الذى ارتديه أنا؛ وله التيجان والزينات التى فى فستانى. رحت أغلى من الداخل. إذا كان لها أن تقلدنى، فلماذا تختار اللون نفسه، ولماذا تختار الطراز نفسه، دونا عن سائر الطرق الأخرى التى فى السوق؟ وعليه، قررت شراء كل الألوان التى تصل إليها يدى من هذا النوع من الملابس. لم يكن بوسعى تحمل هذا المبلغ دفعة واحدة، لكن صاحب المحل باعنى ما أطلب بالأجل. وقلت فيما بينى وبين نفسى، سوف أرى ما ستفعله هذه الحيزبونه، تلك الحمقاء الأمية".

عقدت أولورى إبهامها، وراحت تزيل العرق من فوق جبهتها اللامعة. "فى غضون شهر، كانت تلك الحيوانة قد حصلت على ألوان فساتينى الدمقسية كلها وراحت تعرضها حتى يراها الجميع".

ضحكت الراوية ضحكة توحى بالإزدراء والاستهزاء. أم أنها كانت ضحكة شيطانية؟ لم تستطع إنتلى تحديد كنه تلك الضحكه.

من يمن الطالع أن زوجينا كانا ميسورين وباستطاعتهما إشباع جنوننا. كان زوجى، بارك الله فيه، من رجال المال والأعمال، كان يعمل فى مجال المقاولات الحكومية. كانت له اتصالات بأصحاب المناصب العالية. كان يحصل دومًا على المقاولات الكبيرة، لأنه على حد قوله، كان يود أن يكون متعاونًا. كان يقول لى دومًا المسألة "خذ وهات". كان زوجى واجهة لكثير من المديرين الذين كانوا يكافئون المقاولين. كنا ميسورى الحال. كان ديلى Dele كلما انتهى من عمل من الأعمال جاءه عمل آخر. فى بعض الأحيان تكون لديه مقاولتان، أو ثلاث مقاولات من وزارات مختلفة فى آن واحد. كانت لدينا فيلا من دورين فى دولفن استيت Dolphin Estate، وكانت لدينا أيضًا قطعة أرض زراعية فى ليكى Lekki. عبر

زوجي مرارًا عن رغبته في انتقالنا من جديد إلى البيت الكبير. وكنت أنـا التـي تؤجل هذا الانتقال، لأنني في داخلي، كنت أود وضع هذه الحيزبونه فـي حجمهـا الصحيح، الذي ينبغي أن تكون فيه. وعليه نصحت ديلـي Dele بتـأجير الفـيلا، ووافقني على ما طلبت على غير رغبة منه.

قالت أولوري همسًا: "كان يونس، زوج ميرو، يعمل في الجيش. كنت فيمـا بيني وبين نفسي إينوس Anus (بمعنى الشرج أو فتحة الـاست). لم أعرف رتبتـه مطلقًا لكنه كان ضابطًا من الضباط العظام. كان من عادته استرجاع السيارات التي كان يجري عليها المزاد في المطارات. كان يحتفظ بعدد قليل من هـذه الـسيارات ويقوم ببيع المتبقي منها. كان من عادتنا رؤية المشترين وهم يكاسرون معـه فـي متنزه الضيعة. شاهدنا ذات مرة إحدى عشرة سيارة من مختلف الطـرز، وكانـت تسير على شكل "قول". كانت تلك السيارات ملكًا ليونس. في بعض الأحيان، كـان يونس يعود بالسجاد، لفائف السجاد، إلى المنزل ويقوم ببيعها بعد ذلك. فـي مـرة أخرى، كان الرجل يحضر حاوية من الملابس، والثلاجات، والمكيفات أو الإطـارات. في كل عام، كان يونس يسافر ضمن بعثة الحج الحكومية، ويعود ومعه صـناديق مليئة بالبضائع من الأراضي المقدسة. وهنا كان الزبائن يتوافـدون علـى منزلـه لشراء ذلك الذي عَادَ بهِ من الأرض المقدسة. النصَّاب الحرامي!".

"بدأت مشكلاتي عندما توفي ذلك اليونس. أنا لا أعرف ذلك الذي قتل هـذا الرجل، لكنني أشك في زوجته. كل ما بلغنا هو أن الرجل توفي وجرى دفنه طبقًـا لعـاداته وتقاليده. عادت ميرو إلى موطنها. بقيت في موطنها زمنًا طويلاً خـشيت ألا تعود بعده مطلقًا. خشيت في واقع الأمر من اضطرارها إلى العودة إلى قريتهـا وتضيع على فرصة كسب الحرب المشتعلة بيننا. كنت أفتقدها كثيرًا. فقـد فقـدت فساتيني معانيها. واقع الأمر، أن هذه الفساتين لم تحدث عندي بعد ذلك أي قدر من الرضا أو الإشباع. كانت تراودني رغبة الانتقال من الضيعة إلى فيلتنا في دولفـن Dolphin. ومع ذلك، وطالما أن ديلي Dele قد أجر الفيلا، فقد تعين علينا البقاء في مكاننا الذي نحن فيه.

"عادت جارتى فى يوم من الأيام. ورافقنا بعض الجيران الآخـرين وذهبنـا بصحبتهم لأداء واجب العزاء. كانت تلك أول مرة أدخل فيهـا شـقتهم المؤثثـة. أوضحت لنا أن الجيش عرض عليها العمل مساعدة بروتوكول مع زوجـة وزيـر الدفاع، وبذلك يمكنها الاحتفاظ بالشقة الحكومية. وبعد فتـرة مـن الـزمن جـاء أصهارها وأنسباؤها وأخذوا ابناء المتوفى. وهنا بدأت المرحلة الثانية من مراحـل التنافس فيما بيننا". وتصمت أولورى بعد ذلك.

راحت تطيل النظر إلى السطح الذى لا سقف له، كما لو كانت تحاول تذكر الماضى الراسخ فى ذهنها. لاحظت كثيرًا من السحالى تجرى هنا وهنـاك وهـى مقلوبة رأسًا على عقب، والتى كانت تندفع نحو جردل الغائط وزوّاره الآخرين من المجنّحات الأخرى.

"اختصارًا للقصة ......".

رجتها سوزانا قائلة: "لا تختصرى القـصة. مـاليس Malice ومستـشيف Mischief غائبتان اليوم".

وافقت إنتلى قائلة: "حقا، أمامكن متسع من الوقت، لكن قولى لنا: كيف جئتِ إلى هنا؟ هل قتلتى ميرو؟".

"أنت مُضلِّلة يا إنتلى. لقد قلت ممنوع الأسئلة".

"أنا آسفة. واصلى كلامك، يا عمتي".

أجابت أولورى نادمة "أنا لم أقتل ميرو. وهذا هو الجانب المحزن فى الأمر: إنها حرة، حرة مثل الهواء، أما أنا فأنا هنا بعيدًا عن أبنائى الأعزاء وعن أحبـائى، وعلى وشك الموت، وهذا كله بسبب غبية جاهلة".

حملقت الباقيات فى أولورى. كن ينتظرن أن تهدأ وتصل إلى اسـتنتاجاتها. كانت كل واحدة منهن تخوض معركة من القتال الذهنى. كانت كل واحـدة مـنهن

مغلوبة على أمرها بحكم موقفها المشابه لموقف الراوية، الأمر الذى مكنهـا مـن توكيد مواقف الآخرين العاطفية والاقتراب منها.

"انضمت ميرو إلى إحدى الجمعيات. هذه الجمعية هى نادى العزاء والسلوان أو شيء من هذا القبيل. هذا النادى مقصور على الأرامل فقط. هذه الجمعية أو النـادى تنظم عضواته رحلات خلوية، ويذهبن إلى الحفلات، وحفلات الزواج، واحتفـالات السبوع، وكن يشاركن أيضًا فى المناسبات الأخرى التى ينصبن فيها ظللهن. هؤلاء العضوات كن يشترين الأزياء ويمضين وقتًا طيبًا. كان أحد معارفنـا يـسكن فـى منطقة الهلال، وهو الذى أعطانى هذه المعلومات كلها. كنت أقف إلى جوار النافذة، وأروح أراقب ميرو وهى جالسة فى واحدة من سيارات المرحوم زوجهـا، وهـى ترتدى أبهى الثياب. كانت ميرو تعود إلى بيتها بعد منتصف الليل، كانت تعود فـى ذلك الوقت وتسارع بالدخول إلى شقتها. كانت صديقة لها تأتى إليها لتأخـذها فـى بعض الأحيان، كانت صديقتها هذه أرملة أيضًا. كانت تعود إلى بيتها عندما أكـون أنا مستيقظة. كانت ميرو وأصدقاؤها يقفون عند عتبة بابها ويتسامرون فترة طويلة بصوت خفيض، وضحكات وقهقهات خافتة أيضًا. كنت أمد عنقى كيما أرى أكبـر قدر منهن. فى بعض الأحيان عندما كان يُحضِرُها رجل إلى منزلها، كانا يسارعان بالدخول إلى الشقة. كانت الجدران الضعيفة التى تفصل بيننا تهتز بفعل نـشاطهما. وكان الرفيق يغادر الشقة فى ساعة مبكرة جدًا، أى قبل الفجر بوقت قصير. لكننى عندئذ أكون قد رأيتهما وسمعتهما.

"كانت ميرو تُغيِّر الرجال مثلما تغير النساء أُزرارهن. كـل صـنوف الرجـال كانوا يأتون إليها فى سيارات فاخرة. رجال طوال ورجال قصار، رجال يلبسون الحلل وآخرون يلبسون الزى الوطنى. بعضهم كان نحيفا مثل عود من البوص، وبعض آخر كانوا من أصحاب الكروش التى تشبه بطون الحوامل فى شهرهن العاشر؛ كان بعضهم يقود سيارته بنفسه، وبعض آخر يأتون فى سيارات يقودهـا سـائقون. كـانوا كلهـم يقصدون شقة الأرملة السعيدة فى أوقات مختلفة أثناء الليل أو النهار.

"كنت أحسد ميرو على أسلوب حياتها الجديدة، وعلى حريتها، وعلى ثرائها. عند هذا الحد يصبح ذلك ممتلكا لا يمكنني الدخول إليه، ممتلكًا لا يمكنني المنافسة عليه، ممتلكًا نوعًا من المتعة المنغلقة دوني. واقع الأمر، أني كنت اتحرق شوقًا إلى الانضمام إلى ذلك النادى، نادى الأرامل".

كان الجمهور خاضعا. وهذا شيء من الشخير المعتدل يتناهى إلينا من مكان ما داخل الغرفة، ومن الصعب تحديد مصدره. وتحلحل أولورى أردافها الكبيرة وتتناول طرف ثوبها آخذة إياه إلى وجهها وتروح تبكى وتنتحب.

"جيبى ديلى Dele، زوجى العزيز سامحنى، يا زوجى يا أبن آجالاً، يا ابن أوجيكوتو، يا ابن إليشا. زوجى ديلى، يا أبا فنولايو وموبوا Muyiwa. لا تضايق نفسك، سامحنى. يا ابن المحاربين العظام، يا ابن الحكّام والأجداد المرموقين، رحمك الله".(*)

"تركتها النزيلات الأخريات تفعل ما تريد. وراحت تجفف الدموع من عينيها المكروبتين، وأطالت النظر إلى الفضاء. وبعد أن هدأت بما فيه الكفاية استأنفت كلامها.

"بعد عودة ميرو بوقت قصير، بدأ ديلى ينتقدنى وينتقد ملامحى. كان يقول "أنت تبدين أكبر من سنك وقد زاد وزنك. لقد ترهل ثدياك وبطنك. انظرى إلى ذراعيك ووركيك". كان ينظر إلى وأنا أتناول الطعام كما لو كان يقول لى: "ها أنت تفعلينها ثانية. أتأكلين هذا القدر من الطعام؟" وكنت أواصل تناول الطعام فى صمت. كنت آكل القليل من الطعام ونحن جالسون على طاولة الطعام ثم أقوم بعد ذلك بأخذ بغيتى من الطعام فى المطبخ، أو عندما أكون وحدى. كنت أنظر دومًا إلى صورتى فى المرآة. لقد غير الحملان شكلى وشوّهاه. لم أكن سعيدة بذلك. ذات

(*) وردت هذه الفقرة بلغة الإجبو على النحو التالى:
"Oh Dele. oko mi, omo Ajala, omo ojikutu ni Ilesha, oko mi, Dele baba funlayo ati Muyiwo, ema bi mu. Oko mi esunre o. Forgive me".(المترجم)

مرة فتح زوجي، زوجي الوحيد فمه ليقول لي: إن "شيئي" تفوح منه رائحة غير طيبة". وهنا راحت تشير إلى مُنْفَرجها.

"ترتب على ذلك، أننا لم نعد نعاشر بعضنا أثناء الليل، هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى واصل زوجي انتقاده لملامحي، وراح يقارن بيني وبين النساء الأخريات اللاتي يسهرن إلى ساعات متأخرة من الليل. ومن هنا عرفت أن له عشيقة في مكان ما".

تساءلت ستاف Staff: "ألا يفعلون ذلك كلهم؟".

قاطعتها باتسي Patsy: "باستثناء زوجي" "أخي ....".

قالت أولوري: "من فضلك يا باتسي. بعض القساوسة يعدون من أبشع أكلة لحوم البشر: هل هذا ورم، أم عيد، أم أمر رسولي كل الأرامل، والغرباوات، من منهن ..... انتبهي، أرجوك، لا تجعليني أتكلم في هذا الأمر".

قاطعتها إنتلي، بعد أن عجزت عن السيطرة على نفسها: "الرجال متيمسون بالنقد، كما لو كانوا كاملين. كان من عادة عشيق من عشاقي أن يقول لي إن شعر عانتي خفيف وهو يحب الشعر الغزير. واصل الرجل انتقاده لي. وذات يوم لم أطق تحمل هذا النقد. قلت له أن "شيأه" لا وجود له؛ وأن بعض الرجال الذين أعرفهم كانت لهم خيارات بارزة وملحوظة، وبعدها لم أر ذلك الجلف مطلقًا". ثم تطلق أولوري فحيحًا طويلاً كما لو كانت تقول: "خلاص جيد".

قالت بنتا: "دأب زوجي على القول إني متينة أكثر من اللازم. كان يقول إنني كنت أُشبه أمه. أمه هذه كانت تكبرني بما لا يقل عن خمسين عامًا، وصلعاء من الأذن إلى الأذن الأخرى. قلت له: "حاشا لله". وقلت له أيضًا: أنت شبيه بجدي، الذي كان في يوم من الأيام رفيقًا أو زميلاً له في الدراسة". ووضعني زوجي بعد ذلك ضمن القائمة السوداء، ثم تزوج رحمه هنا Rahma" وراحت تربت على وركي زميلتها.

قالت إنتلى: "واصلى كلامك من فضلك يا أولورى. أنا آسفه لمقاطعتك".

"ذات مرة، سافر زوجى فى مهمة مالية وأعمالية لمدة أسبوع. لم أر ميـرو فى الضيعة طوال ذلك الأسبوع. لكنها ظهرت عندما عاد ديلى Dele. وهنا عرفت أنهما كانا مع بعضهما. وفى مرة أخرى سافر زوجى إلى لنـدن، وعنـد عودتـه أحضر معه حقيبة ملابس ثقيلة جدًا منعنا من لمسها أو فتحها. قالت لى الشغّالة إنه فى اليوم التالى، وبعد نزولى إلى عملى، سحب ديلى تلك الحقيبة، وأوصـلها إلـى بيت جارتى؛ كانت الحقيبة مليئة بالهدايا التى أحضرها لها".

* * *

منذ زمن مضي

قصد السيد/ ديلى آب منزله نتيجة إحساسه بالإرهاق. كـان يومـه عـامرًا بالعمل والانشغال. راح الرجل يتأمل ويعمل فكرة فى الساعات الطوال التى أنفقهـا فى انتظار رئيس مجلس إدارة التنفيذ، فى المكان الذى كان يقدم فيه عطاءً لعقد من العقود. وبتوفيق من الله، لم تضع تلك الساعات هباء بأى حال من الأحوال. وعـد الريس بإعطائه تلك المقاولة.

"سوف نتظاهر بالمضى قدمًا فى الإجراءات يا ديلى. أنت تعـرف مـسألة الإعلان عن اجتماع مجلس العطاءات، وأن هذا المجلس هـو الـذى يعلـن عـن الأعمال كلها. ومع ذلك ستكون هذه المقاولة لك أنت. لعلنا نخفـى الآثـار الدالـة علينا. الأعداء كثيرون، أناس كثيرون يخططون للاستيلاء على أعمال الآخـرين. أنت تعرف ذلك لأنك نيجيري".

"فهمت ما تقوله يا ريس. كل ما أريده هو تحديد موقفى قبل الحصول علـى قرض قصير الأجل من البنك. وأنت تعلم أننى لست من حملة الأسهم فى مصرف اللوتس".

"سيحدث ذلك فى الأسبوع القادم، وهـذا وعـد منى. أنـا أراقب ما يدور. لا تقلق".

كانت حركة المرور مزدحمة وهو فى طريق العـودة إلـى منزلـه. فقـد استغرقت المسافة التى تقدر بحوإلى عشرة أميال مترية ساعتين كاملتين فى ذلـك المناخ الحار الرطب. وعندما وصل ديلى إلى الضيعة التى فيها منزلـة، انحـرف انحرافًا مكنه من المرور من أمام شقة الأرملة. كان يعرف أنها ليست فى الشقة فى تلك اللحظة، لكن جرت العادة أن تحدث له هزّة عندما يمر من أمام شـقتها. وراح الرجل يمرر يده على رأسه الأصلع.

خطر بباله، أن تلك الهزة هـى التـى كـان يـونس يتمتـع بهـا طـول الوقت، وراح يسترجع اللقاءات الغرامية المتعددة مـع أرملـة المرحـوم جـاره. الطريقة التى تستر بها هؤلاء النساء أنفـسهن، تجعـل المـرء لا يقـوى مطلقًـا على تصور الوحشيه التى يكن عليها وهن وراء أبـوابهن المغلقـة. كـان ديلـى يقارن ذلك بحريق الغابة الذى يندلع بفعل رياح السموم، فجأة وبلا توقع.

تمنى لو أن يونس كان على قيد الحياة .... لكنه سرعان ما طرد هذه الفكرة من ذهنه. لو كان الرجل على قيد الحياة لما أمكن الوصول إليها. بعض أصـدقائه فى النادى متخصصون فى إعطاء المواعيد الغرامية للنـساء المتزوجـات. كـان الرجل يتعجب من الإحساس الناجم عن معاشرة امرأة ثم الخروج بعد ذلك لتنـاول الشراب مع الزوج، أو مقابلته فى المكتـب بعـد ذلـك. معـروف أن جرعـات الأدرينالين الزائدة عن الحد يمكن أن تسبب أوجاع القلب. ومع ذلك كـان تونـدى Tunde يفعل ذلك، أو هكذا يقول؟ وقد فعلها أيضًا كل من أولـوى Oloye ومايـك Mike. سرح فكره فى زوجته. ترى هل قام أحد من أصدقائه ...... لا، هذا أمـر غير ممكن. سوف أقتلها إن فعلت ذلك.

أثناء دخوله إلى موقف السيارات قطع على نفسه وعدًا بالقيام بالمزيد من "الرحلات إلى الخارج". ذهبا آخر مرة إلى أبوجا، ونزلا في فندق أربعة نجوم، ولم يغادرا الغرفة إلا لظرف قاهر. كان الإفطار، والغداء، والعشاء يأتيهما في غرفتهما. كان يشعر بالأسف عندما انتهى الأسبوع وتعين عليهما العودة إلى الضيعة.

سرح ذهن ديلي، لكنه عاد إلى الواقع عندما أبصر زوجته تفتح باب الشقة، وتندفع ناحيته لتحيته والسلام عليه. أين الشغالة آيو Ayo، التي كان من عادتها الترحيب به عند عودته وتحمل له حقيبته.

ابتسمت له أولوري وهي تقول: "حبيبي Eka abo".

"هل عدت إلى المنزل مبكرًا اليوم.

"استأذنت عن فترة العصر لأقوم بتسوق بعض الأشياء والأمور المنزلية الأخرى. كيف أمضيت يومك؟".

"نشكر الله".

"دخلا المنزل. كانت المرأة تحمل حافظة أوراق زوجها. لم يقاوم الرجل رغبته في إلقاء نظرة على شقة الأرملة. لم يكونا قد فعلا شيئًا، لكن ذلك الشيء يمكن أن يحدث في يوم من هذه الأيام، قد يجد الرجل العذر الذي يجعله يوفد الأسرة إلى موطنها أو حتى إلى الخارج في إجازة. وعندها يمكن أن يفعلاها على سرير يونس. سيكون ذلك هو اليوم الموعود. كان ما بين وركيه قد بدء يقف وقفة الانتباه. كان يحثه على الوقوف صفا. ويقول له: استرح.

تناهت إليه رائحة صلصة لذيذة المذاق، ليدرك على إثرها مدى جوعه. تلك كانت مساحة لا يمكن أن تخطئ فيها زوجته، إذ كانت تعرف جيدًا أصول الطبخ. صحيح أن الفرصة لم تتهيأ للمرأة الأخرى كي تطبخ له، لكنه لم يكن يشكو من هذا الأمر في منزله. كانت أولوري تعرف إعداد الوجبات اللذيذة.

وما أن جلس الرجل حتى جثت أمامه زوجته وراحت تخلع له حذاءه، وتدلك قدميه وتقرص إصبعى قدميه الكبيرين، وفكت له أيضًا رباط عنقه، وتناولت سترة بدلته، وسارعت بذلك كله إلى الدور العلوى.

قال لنفسه "هذه المرأة بدأت تتغير. إذا كانت تتصرف على هذا النحو فذلك يعنى أن هذا البيت سيكون خلوا من التوترات. لكن، ليتها تفعل شيئًا فى وزنها الزائد ......" ثم خطر بباله أن هناك هدفًا لهذا الاهتمام. فى المرة الأخيرة التى حظى فيها فى منزله بمعاملة الأشخاص المهمين، تعين عليه أن يدفع خمسة وعشرين ألفًا ثمنًا للثياب، والملابس، والأحذية، وحقيبة يد تناسب مجتمع الزوج.

ردت أولورى على زوجها، عندما سألها عن المبلغ الذى تريده هذه المرة: "يا زوجى الحبيب، لا شيء مطلقًا من هذا القبيل". وقامت بوضع سلطانيات الحساء والفوفو fufu أمام زوجها.

"يا زوجى الرائع، أنا لا أفعل سوى الواجب على نحو رجلي".

تأدبت، بأن عقدت يديها أمام محاشمها، وعلت وجهها ابتسامة خجل. كانت تحرك رأسها هنا وهناك وكانت عيناها دائمتى الحركة. ابتسم ديلى. كان يشعر بالسعادة والرضى.

"وهو كذلك، هذه خمسين ألف نيرة مصروف جيبك. اشترى ما تشائين. أنا شبه متأكد من الحصول على ذلك العقد".

وبينما كان ديلى يتناول طبق الفوفو، وضعت أولورى ورقة البنكنوت على جبهتها وراحت ترقص فى سائر انحاء غرفة الجلوس، وهى تغنى لزوجها أغنية "حبيبى، ابن آجالا، ابن أوجيكوتو ولد إليشا لا تتضايق"(*).

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة بلغة الإجبو oriki, omo Aiala, omo ojikutu ni Ilesha, oko mi . (المترجم)

تناول ديلى قسمًا صغيرًا من طعام الفوفو. وكوّره فى راحة يده على شكل كرة. كان الحساء من نوع الأويدو ewedu، حساءه المفضل. هذا الحساء مكون من السمك، واللحم، "ومواد خام" أخرى كانت مفضله لديه وتفتح شهيته. غمس الكرة النشويه في الحساء. تعرّف أجزاء من كوارع البقر ونيول الثيران فى الحساء. ما هذا الجمال، ما هذا الطعام اللذيذ! ابتسم فيما بينه وبين نفسه فى حين كان ركن من أركان عينيه يتابع حركات زوجته الدائرية على الأرض. وملأ فمه مرة، ثم أخرى ثم ثالثة. وأتبع ذلك بقطعة من الكرش، ثم قطعة من الكبد. طعام لذيذ. لم يفتئت على أولورى فى مسألة الطبخ. ويدفع بجزء من عكوة الثور فى فمه مختتما بها طعامه.

راود معدته إحساس بالرضا والشّبع فيما يتعلق بفكرة إمكانية عودة الوئام إلى زوجته فيما يتعلق بمسألة العلاقة التى بينه وبين جارتهما. لم يناقشا هذه المسألة لكنها لابد أن تكون قد أصبحت على علم بها. لن تتوقف حياته الأسرية بشأن هذه العلاقة. وهو فى داخله، لم تكن لديه نية هدم ذلك الاستقرار الذى توفره له كل من أولورى والأبناء. وراح ديلى فى صمت يرجو أولورى وهو يقول: "إفهمى إن ذلك المقلاع لا يعرض وضعك أو منزلتك للخطر. وأنا بعد الحصول على بغيتى سينتهى كل شيء. تحملى، ستمر هذه الزوبعة. لكن متى تنتهى تلك الزوبعة؟ هذا هو ما لا أعرفه، لكن المؤكد أنها سوف تمر وتنتهي".

راحت أولورى تراقب زوجها عديم الإيمان الذى اقترب من حافة الحياة "آه، لقد سببت لى كثيرًا من الأسف والندم. وكوّمت على رأسى كثيرًا من الضّعة والكرب، بأن صادقت غريمتى، وخدمتها، وأهملتنى مثل صحيفة قديمة بالية. أخذتنى إلى السوق، وخلعت عنى ملابسى. يا رجل، يا عديم النفع، وحكمت على بعدم الثقة وتخليت عنى كما لو كنت برتقالة جرى مص عصيرها. وعاشرت هذه المرأة البذيئة، غريمتى اللدودة، عدوتى العنيدة. ستموت أيها الدّاعر!".

أحس بطعنة خانقة فى صدره. واشتعلت النار فى أحشائه. وتملك حلقه ومعدته إحساس حريف. ويتناول كوب الماء بإحدى يديه، وكان الماء مخلوطًا

بالحامض، فى الوقت الذى كان الحامض الآخر يحكم قبضته على بطنه. جحظت عيناه وهو يرى ذلك الذى يشبه الدخان يتصاعد من فتحتى أنفه، وأذنيه وفمه. وضع رأسه المرتبك على الطاولة طلبا للراحة. لهث، وحاول أن يسعل. وهربت من فمه نفثتا دخان. راح يمسك بمصارينه التى تتقطع، ويمسك بكليته التى تحترق راقبت عيناه المرأة وهى تسارع بأخذ ما تبقى من الحساء إلى دورة مياه الضيوف، لتسكب عليها الماء كيما تطردها إلى شبكة الصرف. وتعود المرأة وتدفع الأشياء من فوق الطاولة. لم يكن قد فارق بعد الحياة، عندما قامت بحمله، وجره إلى مكانه المفضل على الكنبة لتضعه على النحو الذى كان يفضله وقت القيلولة. لم يسمع صوت أرملته عندما راحت تستغيث بصوت حاد، نظرًا لأنه كان قد وصل الأرض التى لا يعود منها من يذهب إليها.

قال صوت صادر من مكان ما: "لدى بعض الأسئلة".

"ممنوع الاسئلة احتفظ بها إلى مرة أخرى".

"لكن هناك بعض الأجزاء التى أفهمها ....".

قالت إنتلى متعجبة: "بحق يسوع! ألا ترين أن العمة ليست فى وضع يمكنها من الحديث أو الكلام؟" أدركت المتحدثة أنها بلغت من القسوة حدًا صعبيًا، وعليه لانت قناتها وقالت: "وهو كذلك سأترك ذلك إلى مرة قادمة".

"أنتن تغيرن القواعد طول الوقت. فى البداية قلتن بالاحتفاظ بالأسئلة إلى النهاية، وأنتن تقلن الآن ممنوع الاسئلة. يا للعجب!".

قالت مودى Mudi "دعوها تطرح أسئلتها. ومن تستطع، تقوم بالإجابة عن هذه الأسئلة". وبلغة العيون أعطين إشارة الاستمرار للمتحدثة.

"كانت العمة تقول: إنها تود الانضمام إلى نادى الأرامل. فلماذا لم تنضم إلى ذلك النادي؟".

"والله يا رحمة Rahmatu، هل أنت على يقين من أسباب وجودك هنا؟ أنت تفتقرين إلى الذكاء اللازم لقتل ذبابة، فما بالك بـ .....".

"أنا آسفة، لا مضايقات، فأنا لم أُنهِ تعليمى المدرسي".

تجاهلت المرأة السؤال. وفي هدوء، وبدون إزعاج للأخريات، استرقت السمع على جارتها الحبيبة إلى قلبها عندما كانت تشرح كلمة "أرملة".

قالت بنتا Binta بعد ذلك: "قضيتي تشبه قضية العمة إلى حدما. هذه القضية لها علاقة بـ.....".

قالت إحداهن مُقاطعة: "دعونا ننتهى أولاً من قصة أولورى يا بنتا Binta. لم يجيء الدور عليك بعد".

بدأت باتسى كلامها قائلة: "سؤالى على النحو التالى، لماذا تصادق نساؤنا رجالاً متزوجين بالفعل؟ اعتقد أن ذلك سبب من أسباب الآلام والأوجاع التى نعانى منها نحن السيدات: أزواج شاردون. المرأة تعرف أن الرجل متزوج، وله أبناء. لماذا تتدخل فى هذه العلاقة؟ هل يكون ذلك بقصد إنهاء هذه العلاقة؟ أم من باب الاغتصاب، بمعنى أخذ شيء امرأة أخرى؟ لماذا تتعدى وتسرق ذلك الذى ليس لها؟ لماذا لا تنظر فى اتجاه آخر". كانت تنظر بالتتابع من نزيلة إلى أخرى. "لماذا تفعل ذلك؟".

ردت عليها إحداهن بحلاوة لسانها: "لأن عدد الرجال الذين يلفون ويدورون ويتسكعون غير كاف" سألت سوزانا باتسى: "ألست أنت قسيسة؟ هل نسيت أنه ليس من الصواب أن يبقى الرجل وحيدًا، أو تبقى المرأة وحيدة؟".

وعليه أنت تسرقين زوج امرأة أخرى؟".

"انظرى إلى ميرو، على سبيل المثال. كان لديها عدد كبير من الرجال تحت تصرفها. لمَ أخذ زوج الجارة أيضًا؟".

أبدت مودى Mudi رأيها قائلة: "الرجال هم السبب. وهم يعرفون أنهم متزوجون، ومع ذلك يطاردون النساء الآخريات. لماذا؟".

قالت إحداهن: "الرجل بطبعه مزواج".

كانت الراوية تنقل بصرها من نزيلة إلى أخرى، وهن يناقشن قضيتها. لم تكن تعارض فى أن تكون لزوجها عشيقات. كانت له عشيقات كثيرات وهن فى عامهن التاسع من الزواج، لكن ما الذى يجعله يُقَرِّب هذا الشأن من منزل الزوجية، ولماذا بالذات جارتها وغريمتها؟ وعلى حد قول المرأة البيضاء، لماذا يُقَرِّب الغريمة على هذا النحو؟ هل كان يقصد بذلك الإساءة أو الإضرار؟ لقد كانت هذه المسألة مؤلمة. وهى تجعل الإنسان يشعر بالغثيان والجنون.

تكلمت أصوات كثيرة فى آن واحد.

"لكن هل يتعين أن توافق المرأة، وهى تعلم أنه متزوج؟".

"انتبهى، بعض النساء يمارسن ذلك، مقابل ما يحصلن عليه؛ أو مقابل النقود، أو الأشياء المادية الأخرى".

"بعض الرجال يخفون الحقيقة التى مفادها أنهم متزوجون، لكن عندما تنظرين إليهم وإلى رؤوسهم التى علاها الصلع، وكروشهم التى تمتد أمامهم، تعرفين أنهم أزواج. بعض آخر من الرجال يقولون: إن زوجاتهم لا تفهمهم، وإن البيت خال من الحب وإنهم يتحينون فرصة ترك ذلك البيت. أنت تعرفين الرجال بطبيعة الحال".

"بعض ثالث يقول إنهم لا يعاشرون زوجاتهم. يا له من كذب!".

"فى ظل قضيتك هذه، لو كنت مكانك لقتلت ميرو. كان مفروضًا عليه تصفية ميرو وليس زوجك".

"ألا تفهمين، لقد كانت تود الانضمام إلى نادى الأرامل، وهذا هو السبب الذى حتم على الرجل الذهاب إليها".

"اسألينى أنا عن الرجال! عرفت رجلاً كان له زوجتان فـــى ليجــوس. لـــم تعرف الزوجتان شيئًا عن بعضهما. وكانت له أيضًا زوجة فى إيلورن، وأخرى فى أبوجا، وكانت له عشيقات كثيرات yafu yafu. وأنا لا أعرف ماذا يفعــل الرجـــال بكل هؤلاء، بكل هؤلاء النساء....".

أعربت باتسى عن رأيها بصوت عال: "إنه الشذوذ الجنسى. جيــل الــشذوذ الجنسي!" وفتحت ذراعيها ونظرت إلى السقف المصنوع من الزنــك "مـــا مـــدى صبرى عليك؟".

"أقول لكن، إنه مرض".

قالت المتحدثة: "أنصتن إلى. قال سيجموند فرويد: "إن الرجل العادى يفكـــر فى الجنس ست مرات فى الدقيقة الواحدة". وأنت إذا ما سألتنى أنا شخصيًا، أقـــول: "إن مشكلة النساء يمكن تلخيصها فى كلمتين....".

تناهت إلى مسامعهن الأصوات الناتجة عن حذاء ثقيل يمشى صـــاحبه فـــى الممر مقتربًا من النزيلات. تسمرت الأعين كلها على الاتجاه الذى ســـيظهر فيـــه لابس ذلك الحذاء. وبسرعة البرق انتهزت أولورى تلك الفرصة، لتختفـــى داخـــل لباسها. ورفعت شفتها اليسرى قليلاً، وراحت تهرشها وتحكها. كما أطلقـــت أيـــضًا ريحًا خفيفًا، أنضم بدوره إلى الرائحة النفاذة فى الغرفة. وهنا جرت أيضًا ملاحظة قدمين آخرين كانا يجرجران الخطى.

قصدت إينتلى القضبان الحديدية، ومدت عنقها لترى القادم. وبعد ذلك، عادت على الفور لتقف بجوار سريرها. وبعدها مباشرة، جاءت الـــسجانة، وهـــى تحكـــم قبضتها على امرأة كبيرة السن، وجهها عامر بالتجاعيد. جاء ثلاثة ســـجانين فـــى المؤخرة. كان لباس السجن الذى ترتديه تلك المرأة أكبر من حجمها. كان الثـــوب يتأرجح، وهى تحاول اللحاق بخطى ضباط الأمن. كانت قدماها النحيفتان تبـــدوان من تحت حافة الثوب. كانت تلبس فى قدميها شبشب من المطاط، كل فـــردة فـــى

فردتيه مختلفة عن الأخرى. كان شعرها خفيفًا لكنه كان ملمومًا على شكل أربعة جدائل بواسطة خيط أسود لامع.

فتحت الحارسة قفل القضبان الحديدية السفلى، التى أدت إلى فتح باب قفص من الأقفاص. ترددت القادمة الجديدة. نظرت إلى أعلى الزنزانة لتلتقى نظراتها رفيقاتها المرتقبات. أشارت الحارسة إليها بالدخول. همست الحارسة وهى تضرب الباب وتغلق القضبان الحديدية: "لا تضيعى وقتي". واستدارت الحارسة بغية الانصراف، ثم توقفت بعد ذلك. وأطالت النظر إلى الزنزانة، وراحت تحرك فكها إلى الأعلى وإلى الأسفل وهى تعد النزيلات.

قالت لها سوزان بشجاعة: "الزنزانة مزدحمة بالنزيلات أكثر من اللازم".

وترد عليها السجانة بدون تروٍ "لا تشغلى بالك بذلك، ستفرع هذه الزنزانة عما قريب. سيحدث ذلك عاجلاً وليس آجلا".

نظر واحد من السجانين المرافقين للحارسة إلى المرأة البيضاء وقال: "اشكرى ربك إن الزنزانة مزدحمة بالنزيلات، اشكرى ربك لأن معك أناسًا تتحدثين معهم، بل وتلعبين معهم أيضًا". وبعد أن أحصت يد الرجل الزنزانة كلها قال: "أمثالك فى الخارج يُسْجنّ سجنًا انفراديًا، البعض منهن يبقين على هذا الحال بضع سنوات .... فى انتظار الاعدام. فكرى فى ذلك جيدًا. سجن انفرادى، عام يحل وآخر ينصرف، وأنت فى ذلك السجن الانفرادي".

وتقوم حبيبة بتكملة كلام السجان: "خلال الوقت الذى تتحدثين فيه مع نفسك طيلة شهرين، يتشتت ذهنك، وتقولين مزدحم بالنزيلات أكثر من اللازم". رأت حبيبة المرأة البيضاء وهمست همسة طويلة بصوت عالٍ، ثم استدارات وانصرفت بعد الضابطات الآخريات.

"تفو! Tufia" تفلت القادمة الجديدة على زميلاتها النزيلات فى الغرفة. كانت لا تزال مكوّمة على الأرض، فى المنطقة التى ألقتها عليها السجانة.

صفقت القادمة الجديدة بيديها مثلما يفعل الصنَّاج[*] وقالت: "تفو" Tufia عليكم أيها البشر، هل أنتن على وشك الموت، أم أنكن ميِّتات بالفعل وتنتظرن الدفن؟ أنتن ميتات بالفعل، وهذا ما ينبغي على قوله. صعب على أن تقوم فتاة صغيرة عديمة النفع بإلقائي هنا مثل قطعة من الغائط الملفوف، وأنتن واقفات تحملقن ولا تفعلن شيئًا؟

أبعدت رفيقات الزنزانة أنظارهن عن الأزياء الرسمية المتراجعة، ورحن ينظرن إلى المرأة النحيفة التي تقف في وسط الزنزانة. كانت المرأة شابة أولاً وقبل كل شيء، زادت المصاعب سني عمرها. حركت المرأة أنفها، ونظرت حولها ووقع بصرها على المرحاض ووعاء التبول. وتنهض المرأة ببطء وتتحرك ناحية الجدار المتقشر، وتلمسه بيدها. وتقفز إلى واحد من الأسرة، وتمسك بالقضبان الحديدية الموجودة أعلى النافذة وتهز تلك القضبان. وتنظر إلى أعلى، محاولة رؤية السماء. لم يكن بوسعها تحقيق ما أرادت. ونزلت من فوق السرير وقصدت إلى قضبان الباب، وراحت تهز تلك القضبان. وأومأت مرات عدة إلى الرؤوس الساكنة التي كانت تراقبها ثم قالت: "مادة استعمارية".

"هل مضى وقت طويل على مجيئك هنا؟".

لم يكن هذا السؤال موجهًا إلى نزيلة بعينها. واقع الأمر أن هذه القادمة الجديدة كانت تساند النزيلات، وتدعمهن وهي تتفحص بناء الزنزانة. وراحت عيناها تراقبان القضبان الصدئة، والجدران المتُعْبة.

أجابتها أولوري: "نعم".

"منذ متي؟"

"منذ وقت طويل جدًا. لا أعرف بالضبط. ولا أتذكر ذلك".

(*) الصنَّاج: تشديد الصاد وفتحها وتشديد النون وفتحها أيضا، هو العازف بالصنجين (المترجم).

وتستدير القادمة الجديدة لمواجهة النزيلات. ومع تحريك فكها حركة رأسية، تروح هى الأخرى تعد النزيلات.

"أنا رقم أحد عشر. من هى رقم عشرة؟"

"قالت إنتلى، وهى تقترب من وسط الغرفة: "أنا رقم عشرة".

بهرتها تلك الفتاة، تلك الروح المتوقدة، بهرتها أيضًا الألفة المباشـرة، كمـا بهرتها صفة القيادة.

قالت آمن Amen مُصَحِّحَةً: "أنت لست الرقم عشرة يا إنتلى. أومو هى آخر نزيلة جاءت إلينا".

"هذا صحيح، أنت على حق، لقد نسيت. هى إذن الرقم عشرة. أما أنا فـرقم تسعة".

"متى جئت إلى هنا؟".

أشارت النساء إلى الجدار. كانت على الجدار بعض الأرقام المكتوبة بـالفحم النباتى، وكانت تلك الأرقام تمثل التواريخ. كان هناك قـدر كبيـر مـن المسح والإزالة. على الجانب الآخر من الجدار كانت النـزيلات قـد دوّن أطـوال مـدد الإقامة؛ ستة أشهر، اليوم يمر عامان، ابنتى عمرها اليوم أحد عشر عامًا؛ اليوم بلغ سنى أربعة وعشرين عامًا، آبا فاذر. قالت إحداهن: "مضت أزمان مختلفة. كل ذلك يدون على الجدار".

تساءلت القادمة الجديدة، وهى تنظر إلى إنتلى: "هل كل هـؤلاء النـزيلات جئن قبلك؟". أومأت إنتلى برأسها علامة الموافقة.

تفحصت السائلة الوجوه المحيطة بها ثم قالت: "هل تعرفن مـاذا يـصادف اليوم من أيام الأسبوع؟".

ردت النزيلات كلهن ردًا واحدًا "لا، لا نعرف".

"اليوم هو الحادى عشر من شهر أغسطس من العام ٢٠٠٢!".

"بحق المسيح! أنا هنا منذ ما يزيد على ثلاث سنوات!".

وهنا تندفع إحدى النزيلات إلى الجدار وتمحو بعض الأرقام براحة يدها. وتتناول قطعة من الفحم النباتى من على الأرض وتدون تاريخًا آخر.

أنا جئت إلى هنا منذ أربع سنوات ونصف السنة ...".

"ما عدد السنين المحكوم عليها بها؟".

"تسألين كم عدد السنوات؟ ليتها سنوات. إنه الموت".

أوضحت القادمة الجديدة "أنا انتظر المحاكمة".

سألتها نزيلة أخرى "ما ذنبك؟".

"وفاة شخص بطريق الخطأ. موضوع يخص الأرض".

"مذبحة بشرية إذن. الكل ينتظر الموت".

"لا، هى ليست مذبحة بشرية".

"ها هم، على قيد الحياة. اسألى أويبو Oyibo، اسألى ستاف Staff" المعروف أن كلمة أويبو Oyibo هى الكلمة الدارجة التى تدل على الشخص الأبيض.

قاطعتها أويبو قائلة: "أنا أنتظر الموظف القنصلى القادم من سفارتي".

"ستنتظرين إلى الأبد".

"لا، لن أنتظر إلى الأبد".

"ستنتظرين إلى الأبد".

سألتها القادمة الجديدة وهى تتجاهل التخاصم والشجار: "هل حاولت الهرب؟".

أجابها الصمت على سؤالها.

"لم لا؟".

تساءلت باتسى "كيف لنا الهروب؟ ألا ترين الجدران، والقضبان الحديدية، والحراس؟ هذا أمر تعجز عنه المعجزات....".

"هل تجلسن طول الوقت داخل الزنزانة؟".

"نحن نحصل على ساعة من الترفيه كل أسبوع".

"كل أسبوع أم كل يوم؟".

تساءلت آمن Amen "لابد أنك شرطية؟ لماذا كل هذا الاستجواب؟".

"لكى أكون أمينة معك، نحن لا نعرف السبب. عندما يحسون أنهم يودون ذلك، يقومون بإخراجنا من الزنزانة".

قالت المرأة الجديدة: "لقد فهمت. أعطنى أسبوعًا واحدًا، وسوف أقول لكن كيف نستطيع الهرب من جحر الفئران هذا. "أقصى ما فى الأمر أسبوعان" كررت كلامها وهى تشير بإصبعين من أصابع يدها اليسرى حتى يراها الجميع، "هذا لمن تريد الهرب".

قالت إنتلى فيما بينها وبين نفسها: إن قُدر لنا البقاء على قيد الحياة. قد ينفذ فينا حكم الإعدام خلال اسبوعين. كانت النزيلات قد نسين أولورى وجارتها. كان وصول نزيلة جديدة يثير الكثير من الأشياء، كما كان يتسبب فى الهياج والثورة، والإخلال بالروتين السائد. صحيح أنها كانت مصدر الأخبار عن العالم الخارجي، لكنها كانت أيضًا مصدرًا من مصادر الاحتكاك. هذا يعنى أن النزيلات القديمات أو الأكبر منها سنا كن يعاملنها كما لو كانوا هم الرجال. كن يبدين إعجابهن بها، يأسرنها، ثم يطاردنها إلى أن ينتهى بها الأمر إلى الحال العادية. كانت النزيلات المحترمات يقاومن دومًا فى بداية الأمر. ومع ذلك، وعندما تستبد بهن الرغبة، وسط تحزُّب جيرانهن يخضعن في نهاية المطاف. وكن يُغتَصبْن فى بعض الأحيان.

قال هاتف لإنتلى: إن هذه المرأة مختلفة. كان السواد الأعظم مـن النسـاء الأخريات لهن خطّاب بالفعل. كانت إنتلى هى وسوزانا هما العزبتان الوحيدتان. لم تكن لآمن Amen امرأة ثابتة، لكنها مثل البطريارك، كانت تحصل علـى الإشـباع من مراقبتها وتنصتها على الشابات الصغيرات أثناء العمل.

كان من عادة المرأة البيضاء إشباع نفسها بنفسها. كانت إنتلى تلاحظها، فى ساعة متأخرة من الليل، وهى تداعب حدباتها وبروزاتها. كانت تَمُدُّ يدها بهدوء من تحت الغطاء السائب المصنوع من القماش. كانت الخريجة الجامعية السابقة تعرف أن ذلك بمثابة القرص المنوِّم. حاولت ذات مرة أغواء المـرأة القوقازيـة، لكـن سوزانا كانت تخاف خوفًا شديدًا من أن تصاب بشيء مخيف من السود. وقد تركتها المتحدثة تفعل ما تريد.

هى نفسها لم تكن امرأة جسدانية. وحتى يوم أن كانت فى الجامعـة كانـت تقف على الحياد من الرذائل المعروفة كلها، كان من الصعب عليها التورط فى مثل هذه الرذائل. كانت تحتسى المشروبات الكحولية بين الحين والآخر، كانـت مقتـرة جدًا فى مسألة الجنس، لكنها كانت تدخن أكثر من الطالبة العادية. تتـذكر إحـدى لياليها فى الحرم الجامعى، عندما ذهبت لوحدها لحضور واحدة من الحفلات التـى يجتمع فيها الطلبة إلى بعضهم البعض. كان ذلك الحفل مقامًا فى سكن أعضاء هيئة التدريس، داخل شقة واحد من المحاضرين الشهيرين. وقفت خلال هذه الحفلة فـى الشرفة وهى تدخن فى جوف الليل، وصوت بوب مارلى هوو ويلز يتناهى إلـى مسامعها بالأغنية التى تقول: **"كثير من المتاعب فى الأرض"**.

كانت أغانى الرجّاء Reggae شهيرة فى تلك الأيام. كان الطُّلاب متفقين على أن هذه الأغانى لها إيقاع. وشاعت فى تلك الأيام أيضًا أغنية بطرس توش: إباحـة العشب(*) والتى تقول "قننوه، نعم نعم ولا تنتقدوه".

(*) المقصود بالعشب هنا، هو نبات الماريجوانا المخدر (المترجم).

كانت أغانى الهيب هوب Hip hop على الأبواب، تحاول الدخول لكن الرّجاى لم يأفل نجمه، شأنه فى ذلك شأن تيدى بندر جراس Teddy pendergrass، ولوثر فاندروس Vandross، وبارى هوايت Barry white، فى مسألة أغانى البلوز (*).

كان من عادتها التقاء طالب واحد فى حرم الجامعة، حدث ذات مرة أن مر عليها وبدأ يداعبها فى لحظة من لحظات الشرود الذهنى، فى الوقت الذى كانت هى تدخن فيه فى الشرفة. وبدون كلام، وفى ظل عدم وجود أى خط من خطوط المقاومة، اقتادها إلى الداخل وتبعته كما لو كانت غزالاً صغيرًا، اقتادها إلى منطقة الرقص التى تتناثر عليها علب البيرة من طراز (هاينكن وبكس Becks)، ومنها إلى غرفة فى ركن من أركان الشقة. كانت الغرفة عامرة بالفعل بالثنائيات. كان بعضهم يقف بجوار الجدار يتباوسون؛ بعض آخر كانوا فى وضع أفقى على المرتبة الكبيرة. كانت هناك أكوام من الألبسة متناثرة على الأرض. كانت الأحذية غير المتناسقة تختلف عن بعضها البعض مثل أصحابها. عثر الصبى على مكان بين متصارعين مشتبكين، وكان قد قام بتهيئتها. وبلا كلام راح يفتح سحّاب بنطالها الجينز، وخلع عنها كل الأشياء الأخرى وهيَّأ رجليها. ومضى يتعرفها جنسيا بينما كانت تنفخ أنفاس سيجارتها. لم يستغرق الأمر وقتًا أطول من الوقت الذى تستغرقه مصّاصة من مصّاصات بنسون وهيدجز. دار بخلدها أن بعض الطلاب لم يجيئوا إلى قلاع العلم والمعرفة الأكاديمية. كانت الغالبية الساحقة من هؤلاء الطلاب تنتهى إلى اكتساب المعرفة الجنسية فى البرج العاجى.

ناما فى مكانهما بعد انتهاء العملية، وسط القوى المنهكة الأخرى. كانت لا تزال عارية من منطقة الوسط إلى الأسفل. لا يمكن أن يكون واحدًا من شباب النهود. كان الجزء العلوى منها لا يزال بلا مساس، الجزء العلوى من جسمها وعيناها. لم يحدث ذلك إلا عندما أحست بمنتحل للشخصية، أم أنه كان الشخص نفسه، لكنها لم

(*) البلوز: أغانٍ يقال إن أصلها إفريقى وطابعها حزين. (المترجم).

تستطع تبين ذلك في العتمة، إذ قام ذلك المنتحل للشخصية بالفتح محاولاً إدخال المرود إدخالا عنيفًا، مما أدى إلى استيقاظها. كانت قد ارتدت من جديد الملابس التي خُلعت عنها وغادرت مكان التلاقي. كان من السهل تَعَّرف أن الجو كان فجرًا. كانت هناك مجموعة قليلة من الراقصات السياميات يدرن حول الأرض الخالية في الوقت الذي كان فيه مارفن جاي Gaye يرجو طفله أن يكون برفقته. شقت طريقها عائدة إلى داخلية الإناث وآدم سميث يشغل بالها.

قال لها عقلها: "ها أنت تذهبين إلى هناك مرة ثانية يا سيبي، ابتعدي يا سيبي، ابتعدي. هذا هو الطريق الوحيد للنجاة من هذا الموت".

دخلت السجانة وهي تزأر أمام النزيلات: "من التي تتكلم عن الهرب؟" وهنا تضيق إنتلي من رحلتها مع التاريخ.

لم يسمعوها وهي تمشي عائدة إليهن على أطراف أصابعها. اتكأت على البوابة وراحت تشجع النزيلات.

وتلَوِّح السجانة بالعصا متسائلة: "من منكن تريد الهرب؟". وراحت عيناها تنتقل من امرأة إلى أخرى، إلى أن استقرتا على عيني النزيلة الجديدة التي يشع منها التحدي، والتي كانت لا تزال تضع يديها على خاصرتها.

"أنت، أيتها الحَبُوبة، قرِّبي مني، تودين الهروب. تودين الشجار!".

وتروح السجانة تطلق الصافرة التي تتدلى من جيبها الأمامي. وفي الحال يُسمَع صوت الأقدام المتعددة التي تهرول. وعلى الفور كان هناك ثلاثة من المسئولين يقفون أمام الباب، وهم يمسكون بالحراب والسلاسل في أيديهم. تقوم حبيبة، وهذا هو اسم السجَّانة بفتح البوابات الحديدية. وتدخل ضابطتان. وفي لمحة عين كانت النزيلة الجديدة قد طُرحت أرضًا. كان سجان قد وكز رجليها من الخلف، الأمر الذي أدى إلى سقوطها على الأرض. ورفعت السجانة الأخرى عصاها، *وكانت على وشك أن تهوى بها على ركبتي المرأة، لكن يدا أمسكت بيد* السجانة. كانت تلك يد آمن Amen، الأطول من الشجرة.

قالت السجانة مُهّددة "لن تهرب أية واحدة منكن. توقفن عن الكلام عن هـذا الأمر".

أكدت حبيبة "لكنى سمعتها تقول ذلك، إذ كنت قريبة من الباب. أنا سـمعتها بالفعل. قالت إن ذلك سيحدث خلال أسبوعين....".

وكما يحدث فى مخطوطات المسرحيات، أمسكت إحدى النـزيلات بوعـاء البول وقذفت به فى وجه حبيبة. أُطلقت صافرة، وسُمِع المزيد من أصوت الأقـدام التى تجرى مهرولة فى اتجاه الزنزانة رقم (وو ١٠)ww10. كان ذلـك مـصادفا لوصول كبيرة ضابطات التأديب، فقد أصبح الجميع فى حـيص بـيص. وتغلبـت النزيلات على المسئولين.

صاحت إنتلى فى زميلاتى النزيلات وهى تقول باللغة اللاتينية(*): "لابد مـن تدمير قرتاجو!"

انهالت النزيلات بالعصى على السّجانات. ورقدت حبيبة مـع العديـد مـن السجينات ووجوههن متجهة ناحية الأرض، ورحن يرفسن، ويضربن، ويلكمن.

كشفت كبيرة ضابطات التأديب قناعها، وأخذت ترش جرعة ثقيلة من الغـاز المسيل للدموع داخل الزنزانة التى لا يجرى تجديد هوائها.

شرحت حبيبة الأمر قائلة وهى تحاول التقاط أنفاسها: "هذه الحيزبونة هـى التى استبدأت ذلك كله. وراحت تلمس صدغها وتفحص النتيجة الدامية، وأشـارت إلى النزيلة الجديدة: "لقد سمعتها تتحدث عن الهرب. وعندما واجهتها ثـرن كلهـن عليّ".

قالت كبيرة ضابطات التأديب: "حسن جدًا. انقلنها إلى السجن الانفرادي".

(*) Carthago delenda est!

الفصل السادس

جرى استدعاء مارسى أوكو أوجولوجو، بصفتها المشرفة العامة على جناح النساء فى سجن فريمان فورت، إلى مكتب الرئاسة العامة لإجراء مقابلة شخصية مع جلاد حكومى (عشماوى). وقع الاختيار على ثلاثة مرشحين من بين السبعمائة متقدم الذين تقدموا للإعلان. جاءت المشرفة العامة متأخرة عن موعدها. لقد تعطل طريقها بفعل سور بشرى أقامه الناشطون فى حقوق الإنسان الذين قرءوا الإعلان وجاءوا ليعربوا عن احتجاجهم على عقوبة الإعدام. وبينما كانت المشرفة العامة تتجول خلال الممرات الملتوية، ومنها إلى السلم الذى يفضى إلى مكان التدريب، خطرت على بالها اللافتات التى استعملها أولئك المضربون:

مطلوب إلغاء عقوبة الإعدام فورًا!

الحكومة = القتلة

يسقط حكم الإعدام!

لا للقتل القضائي!

أيتها الحكومة، لن تَقْتُلى!

اقتلوا حكم الإعدام!

وجهت مارسى اللوم إلى الإدارة والقائمين عليها لعدم اللياقة فى الإعلان عن هذه الوظيفة الشيطانية المزعجة. وشاء الله أن يكون فى كل أسرة كثيرون ممن تسربوا من المدارس، وأصبحوا متبطلين ويبحثون عن عمل. وكل ما تعين على أفراد الإدارة عمله هو تعريف أسرة من الأسر أن وظيفة من هذا القبيل موجودة وأنه سيجرى شغلها، وبخاصة أن شخصًا واحدًا هو المطلوب لهذه الوظيفة. بدلاً من تصرف الإدارة على هذا النحو السابق قامت بنشر إعلان فى الصحف اليومية

حتى يراه الجميع، وهنا بدأت الطلبات تتوافد على الإدارة مثل المطر. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، لأن عيون مراقبة حقوق الإنسان التى تشبه أعين الصقر، انجذبت إلى ذلك الإعلان. وكل ما تعين عليهم عمله، هو أن يضعوا اثنتين مع اثنتين وبذلك يصلون إلى قرار حكومى بالتخلص من المتأخرات الكبيرة لأحكام الإعدام. يزاد على ذلك أن النزيلات علمن بأخبار هذا الإعلان.

تعجبت مارسى أيضًا من أن تلك المقابلة الشخصية كانت لها مبرراتها. واقع الأمر، ما نوعية المؤهلات المطلوبة لهذه الوظيفة؟ ما المطلوب لهذه الوظيفة؟ قيل لها إن نصف المتقدمين لهذه الوظيفة كانوا من خريجى الجامعة، أما النصف الثانى فكانوا من البائعين الملحاحين ومن المعربدين. قالت مارسى فيما بينها وبين نفسها: المرء ليس بحاجة إلى درجة جامعية كيما يكون جلادًا. واقع الأمر، أن هذا الشيء لا يحتاج إلى أى نوع من التعليم؟ الخبرة؛ هل هذا واحد من الأعمال التى تحتاج إلى خبرة؟ على الجانب الآخر، كل إنسان يود أن يكون موظفًا حكوميًا. والأفضل من ذلك أن يكون المرء مستخدمًا فى الحكومة الفيدرالية. وهذا يعنى الحصول على معاش وعمل مضمون.

لا، هذه العمليات كلها ليست مهمة أو ضرورية، لكن رياح الديمقراطية التى تهب على البلاد أدت إلى دِمقَرطة البنى كلها، بما فى ذلك إجراءات التوظيف فى الخدمة المدنية.

كانت مارسى تعرف منظم هذه المظاهرة، وحاولت إسكاته لكن جهودها باءت بالفشل. كان ذلك الرجل ناشطًا فى هذا المجال حتى منذ أيام الدراسة. كان من عادة ذلك الناشط أن يقول: "الإنسان لا يمكن أن يكون جزيرة منعزلة داخل نفسه"، "وفاة أى إنسان تنقص من حقوقي".

قالت مارسى له فى مناسبات كثيرة: "أنت تعرض عملى للخطر، أنت ناشط فى مجال حقوق الإنسان وأنا مشرفة على السجن، ليس هناك وجه للاتفاق! الناس

سيدعوننى جاسوسة. الناس سيقولون إننى أُفشى الأسرار الرسمية، سيقولون أيضًا إننى أنام مع العدو".

"أيتها المشرفة العامة على جناح سجن النساء، أدى عملك وسوف أؤدى أنا عملى أيضًا. أنا محام بحكم المهنة. ويتعين على محاربة الظلم الذى أراه على الأرض. نحن لا يمكن أن نتجاهل ذلك، أو نتمنى زواله. الحقوق الإنسانية الأساسية مطلوبة لكل مواطن من المواطنين".

كان من عادة هذا الرجل عندما يتكلم أن يستعمل يده اليسرى فى التأشير إلى أصابع يده اليمنى، نظرًا لأنه كان أشول.

"هذا هو كل ما أعمله. فما هو الخطأ فى ذلك أيتها المشرفة العامة على فرع النساء فى سجن فريمان فورت؟"

كان ذلك واحدًا من الأشياء الأخرى التى حرضت المشرفة على الرجل. لم يحدث أن نادى هذا الرجل تلك المرأة مطلقًا باسمها الأول. كان يخاطبها دومًا باسم المشرفة العامة على السجون.

كانت مارسى قد سألته ذات يوم: "ماذا سيحدث إذا ما رُقيت؟" وهنا بدت على الرجل الدهشة والذهول.

رد عليها وهو لا يصدق ما تقول: "تُرقين؟ وفى مصلحة السجون؟ سيكون ذلك هو اليوم الموعود".

أوضحت: "لدينا مدير عام جديد". حاولت الدفاع عن مصلحتها قائلة: "لقد وعد بإحداث إصلاحات فى السجون". لكن الرجل كان على صواب نظرًا لأن كثيرًا من السجانين والسجانات بقين فى درجاتهن مدة عشر سنوات أو أكثر.

"ينبغى عليه إحداث إصلاحات فى رفاه النزلاء والنزيلات، وليس فقط لمصلحة العاملين. هل قمت بالذهاب إلى بورستالز Borstals؟ ستبكين إذا ما ذهبت إلى هناك".

"سنصل إليها (بورستالز). سنصل إليها تدريجيًا".

"تقولين تدريجيًا. يجب ألا يغيب عنك أن هذا هو القرن الحادى والعشرون. لقد هلت علينا حقوق الإنسان. هل تعرفين عدد الجانحين الذين ينتظرون المحاكمة ويقيمون فى السجون؟ يعيشون حياة يختلطون فيها بالمجرمين، والقتلة، واللصوص المحترفين والمسلحين؟" وأعقب ذلك خيط من الأرقام والمعطيات. وهنا قاطعته عشيقته.

أوضحت "النزيلات اللاتى ينتظرن المحاكمة هن نتاج لعدم كفاية المحاكم القانونية من ناحية، وشرطة الإدعاء هى ومكتب المحامى العام من ناحية أخرى. السجون موجودة وتتسع لهؤلاء البشر. نحن لم نحكم على أحد ولم نتسبب فى احتجاز أحد، هل فعلنا ذلك؟ لماذا توجه اللوم إلينا؟".

واصل المحامى كلامه "انظرى وتمعنى فى ازدحام السجون. هذه نتيجة من نتائج إدخال الناس (AT1) يوميًا السجون على ذمة انتظار المحاكمة، وإنكار حق إطلاق سراح المتهم فيها قبل المحاكمة، على المحتجزين، ونتيجة أيضًا للتأجيلات الطويلة، والمغالاة فى شروط دفع الضمان المالى. ناهيك عن التحريات الشرطية، وتهمة إلقاء القبض. أستطيع الاستمرار فى ذلك إلى مالا نهاية". ومعروف أن(AT1) تعنى [نزيل ينتظر المحاكمة].

"لما كان القضاة لا يحبذون الغرامات، فإن ذلك يحتم على المتهم قضاء بعض الوقت خلف القضبان، هل هذا خطأ السجون؟".

"أيتها المشرفة العامة على جناح سجن النساء، أجيبينى من فضلك، من الذى يهتم بالحقوق والقواعد المنصوص عليها من قبل الأمم المتحدة؟"

لقد أقرت الأمم المتحدة هذه الحقوق والقواعد فى العام ١٩٥٧ وهى خاصة بمعاملة الأشخاص المسجونين.

احتجت قائلة: "لقب المشرفة العامة الذى تنادينني به، يجعلنى أحس وكـأننى أمارس عملى طوال الوقت".

* * *

وصلت إلى نهاية الطرقة ثم انحرفت يمينًا. كان الهواء زنخ الرائحة. كـان هناك شخصان جالسان خارج مكان التلاقى، وعليه ظنت أنهمـا مـن المرشـحين للوظيفة، أو بالأحرى أنهما هما الاثنان المفضلان. أومأت لهما برأسها فى هـدوء، وهى تمسك أكرة الباب بإحدى يديها. كانت عيناها تتساءلان، من الذى تعرفانه هنا؟ كانت تود أن تطرح عليهما هذا السؤال، لأنها تعلم أن كل من يود العمل فى الخدمة المدنية يتعين عليه أن يكون ذا صلة، أو بالأحرى أن يكون له راعٍ. ما هى القـوة العارمة التى تعرفانها.

انعقدت المقابلة الشخصية وكانت اللجنة مكونة من أربعة مسئولين، وكانـت هى الخامسة. كان رئيس اللجنة يجلس فى المنتصف، وأمامه ضميمة مـن الأوراق والملفات. وقفت المشرفة العامة على السجون وقفة الانتباه، وحيت الرئيس. ونظر الرئيس إليها من خلال نظارته ثنائية البؤرة، كان وجه الرجل متجهما. كان ذلـك الرجل يشغل منصب مساعد مدير عام السجون. كان رجلاً كبيرًا، وقـوى البنيـة. سبق لها معاشرته فى سنوات خدمتها الأولى فى مصلحة السجون، عندما ظنت أن ذلك سوف يؤدى إلى تقدمها فى حياتها العملية. لكن ذلك لم يحدث. هى تذكر جيدًا أن مروده كان دون المعدل، وصغيرًا ورفيعًا، على الرغم من حجمه الكبير. ندمت على هذه المغامرة. لم يكن حجمه دبوسيًا فقط، وإنما كان هو نفسه من النوع العجل المتسرع؛ وهذه مضيعة للوقت.

وضعت مارسى خطة تقضى بأن تنصت طول الوقت كيما تحـصل علـى زبدة الكلام والنقاش قبل أن تسأل سؤالا أو سؤالين. والذى أزعجها هو أن رئـيس اللجنة هو الذى بدأ الكلام.

"حدث ذلك لمصلحة الضابطة التى وصلت فى التو ....".

"آنا آسفة، على التأخير، يا سيدى. المضربون يعوقون حركة المرور".

قال رئيس اللجنة، متجاهلاً اعتذار المشرفة العامة على سجن النساء "السيد/ سولى Sully خريج قسم الحيوان منذ ثلاث سنوات".

سألته مارسى "هل لديك خبرة عملية؟".

رد عليها المرشح قائلاً "أنا أعمل فى المجزر منذ انتهائى من الخدمة الوطنية. أعمل فى ذبح الثروة الحيوانية وفى مجال سلخ الحيوانات".

تتفكر مارسى فى الأمر، هذه خبرة مشتركة. إنها خبرة مناسبة تمامًا.

اختتم رئيس مجلس الإدارة كلامه "حسن، ياسيد سولى Sully، يبدو أنك مناسب لهذا العمل. هل تود أن تطرح أى سؤال عن مصلحة السجون؟".

تهلل الجلاد الحكومى، وهو يفرك يديه، كما لو كان يسلم على نفسه "أشكركم أيها السادة/ أشكرك يا سيدتى. واقع الأمر أنى أريد معرفة الطرق المستخدمة عندكم فى ..... إرسال المحكوم عليه إلى العالم الآخر".

أطال رئيس مجلس الإدارة النظر إلى المرشح أولاً، ثم إلى مارسى من بعده.

"أيتها المشرفة العامة على السجون، بوسعك تعريفه بالمطلوب".

تحولت الأنظار كلها عندئذ إلى السجانة. كانت مارسى تشعر بالقلق. كانت تتلوى فى كرسيها كما لو كانت دودة من ديدان القز. لقد فوجئت بشيء لم تكن مستعدة له.

ردت أوكو أجلوجو، المشرفة العامة على السجون: "واقع الأمر يا سيدى، أن هذا هو السؤال الذى كنت أود توجيهه إلى المتقدم" وراحت عيناها تتنقلان من

عضو إلى آخر. وراحت تعصر ذهنها بحثًا عن أفضل الطـرق التـي يمكـن أن تستعملها فى طرح سؤالها.

أبدت المشرفة ملاحظة "كان هناك، فى السنوات القلائل الماضية، شيء من التراخى فى تنفيذ عقوبة الإعدام. واقع الأمر أنى لم أعرف شيئًا عـن ذلـك منـذ تعيينى فى مصلحة السجون منذ سنوات قلائل".

اتجهت إلى السيد سولى وسألته "فى رأيك الشخصى، ما أكثر الطرق إنسانية لتنفيذ حكم الإعدام؟" وراحت تطيل النظر إلى المرشح للوظيفة. أنا أقصد بذلك، إن كنت تريد التقدم ببعض التوصيات إلى إدارة السجون الوطنية".

وهنا راح المرشح للوظيفة يفرك يديه عن رغبة ورضا بعد أن لحس شفتيه إذ كان ينتظر توجيه الاسئلة إليه. وهنا استاءت مارسى منه على الفور.

"حسن، وعلى حد قول المثل العامى هناك طرق عديدة لقتل الفئـران. لقـد شرحت وقطّعت حيوانات كثيرة فى المعمل، وأنت تعرفين أننى إلـى الآن لازلـت أُقطعّ الكثير من الحيوانات فى المجزر. وقد أجريت بعـض الأبحـاث عـن هـذا الموضوع وتوصلت إلى أمور كثيرة. ومن يمن الطالع أن ما توصلت إليه يجـرى الاستفادة منه فى المجازر. هناك التدويخ باستعمال الكهرباء، وهناك أيـضًا القتـل بطريقة السهم الآسر، وبطريقة السهم الخشبى، وهناك القتل عن طريق اسـتنزاف الدم وعن طريق الخدش (وهما أكثر الطرق شيوعًا)، وهناك القتـل عـن طريـق التخدير باستخدام ثانى أكسيد الكربون. أما فيما يتعلق بإعدام البشر فإن القاضى هو الذى يحدد طريقة الإعدام. وهذا يعتمد إلى حد كبير على الجريمة التـى ارتكبهـا الجانى. هناك الشنق، وهو أكثر طرق الإعدام شيوعًا هنا". ويجرى المرشح بيانًـا عمليًا وذلك بوضع يديه حول عنقه، محدثًا صوت حشرجة مخرجًا إياه من مـسافة بعيدة داخل حلقة. "يلى ذلك الإعدام بفصل الرأس عن الجسم، وهذا شـبيه تمامًـا بالشنق اللهم باستثناء الإطاحة بالرأس. وأفضل الادوات المـستخدمة لـذلك هـى

السيف أو المقصلة". ويحول المرشح راحة يده إلى ما يشبه السيف، ويستخدمها فى قطع عنقه.

كان أعضاء اللجنة ينصتون باهتمام إلى المرشح الفائز، الـذى بـدا عليـه استغراقه فى سرد الوقائع. قطّبت مساعدة المشرفة العامة على الـسجون جبينهـا. وشعرت مارسى بالغثيان من منطلق أن اللامبالاة التى من هذا القبيل كثيرة الغثيان عند مواجهة الموت".

يواصل المرشح حديثه "هناك أيضًا فصيل الإعدام، وهذا يتم عادة بواسـطة الجنود".

خطر ببال مارسى، أن هذا المرشح القاتل. هو شخص غير عادى.

وينظر المرشح فرحًا إلى لجنة الاختيار "هناك مكان لـذلك خلـف سـجن كريكيرى، وهناك مكان آخر فى بار بيتش Beach Bar فى ليجوس. هذه الأمـاكن تجذب إليها جماهير كثيرة. لقد شهدت بنفسى بعض حالات قليلة من حالات الإعدام فى تلك الأيام. لقد حضرت إعدام أويويس Oyewusi هو وأولاده بفتح النار عليهم. كنت فى ذلك الوقت، صبيًا صغيرًا لكنى أذكر أننى كنت أتسلل وأذهب إلى هنـاك لمشاهدة ما يجرى. كنا نعيش فى أجيجونل Ajegunle ذلك الوقت. وهنـاك أيـضًا الكرسى الكهربى، وهو بحد ذاته مسألة شديدة الخـصوصية. وأنـتم تعلمـون أن الشخص يجرى ربطه بحزام إلى كرسى، ثم يجرى بعد ذلك تمرير جهـد كهربـى عال خلال منظومته. وبذلك يجرى إعدامه فى ثوان، أو بالأحرى شويه أو تحميره خلال ثوان معدودات. ومع ذلك؛ وفى ظل الحال التى عليها مؤسسة الكهرباء فـى الوقت الحالى، قد لا يكون هذا النظام أفضل النظم المتبعة فى الإعدام فى هذا البلد. تخيل انقطاع التيار الكهربى عند تشغيل الكرسى الكهربـائى، أو عنـد منتـصف الطريق فى إطلاق التيار الكهربى. هنا كما تعرفـون يـصبح الـشخص نـصف مطبوخ، شأنه شأن شرائح اللحم. هذا يعنى بقاء الشخص لحين مجيء التيـار مـن

جديد حتى يمكن طبخ الرجل طبخًا محكمًا. وبفرض أنه ليس هناك مولّد كهربائى فى السجن؟".

شاهد المرشح نظرة الخوف التى ارتسمت على وجوه أعضاء اللجنة" هناك فيلم سينمائى يدعى "الميل الأخضر"؛ لقد شاهدت هذا الفيلم إحدى عشرة مرة. وهذا الفيلم مهم جدًا". ويعترف الرجل بخطئه قائلاً: "هذا مريع. أليس كذلك؟" ثم يستطرد المرشح فى حديثه بعد ذلك.

"هناك أيضًا الحقن المميت عن طريق ضخ أى محلول من محاليل منظومة الكربون (١٧)، والتى تُحَجِّر الأوردة. ويمكن أيضًا الإعدام عن طريق السم، وبخاصة الهملوك(*)، ويجب ألا يغيب ذلك عن بالنا. وهو السم الذى مات به سقراط". وراحت عينا المرشح تتنقلان بين أعضاء اللجنة.

"ما عليك سوى إعطاء السم للمحكوم كى يشربه. فى زماننا كان مخلوط الأسمنت أو الحامض يكفى للوفاء بهذا الغرض. أنا أرى أن هذه الطريقة الفجة هى من صنع الدهماء، هى نوع من العدالة الغابية، هى طريقة غير متحضرة. الحكومة لا تعتمد بعد بهذه الطريقة. ويتعين على الحكومة دراسة هذه الطريقة. هى فى واقع الأمر طريقة رخيصة. بعض الثقافات، تعلق حجرا حول رقبة الشخص ثم تلقى به فى البحر. ولعل ذلك هو السبب وراء بناء كثير من السجون بالقرب من البحر. هذه الطريقة ورد ذكرها فى الكتب المقدسة. أنتم تعرفون الموقع الذى يقول فيه الصبي: "أفضل لحجر الطاحون أن يوضع حول رأس المجرم ثم يلقى به فى البحر". أعنى أن هذه الطريقة مذكورة فى الكتاب المقدس، قالها (عليه السلام)".

"بدأت مارسى تشعر بالقلق. فردت يديها. خرِّيجة جامعية؟ كانت مارسى تتساءل. لابد أنها من خريجات قسم الحضارة. كانت تود الصياح قائلة" هذا الرجل

(*) واحد من الأعشاب السامة ينتمى إلى العائلة الجذرية، وأورقة محددة الشكل وله زهور صغيرة بيضاء اللون، ويجرى استخدامه فى صناعة المحاليل السامة. (المترجم)

قاتل. أوقفوه. أوقفوه قبل أن ..... لكن الإعلان يطلب عشماوى، يطلب جلادًا، يطلب قاتلاً ..... إنه مؤهل لهذه العملية....

حاولت الإفلات منه "كفي! وهو كذلك". وتسمع فارسى نفسها وهى تقول فيما بينها وبين نفسها وعلى العكس من البرتوكولات كلها "هذا يكفى، يا سيد سولى Sully".

"هل لى أن اسأل عن سبب عدم الاكتراث بوفاة أى أحد من البشر؟ أعنى أن البشر ليسوا حيوانات. نحن لسنا ثروة حيوانية".

رد عليها المرشح الفائز: "هذا عمل مطلوب القيام به. ويتعين أن يقوم به أحد من الناس".

رد عليه رئيس مجلس الإدارة صاغرًا: "أنا أفهم ذلك، عندما تخرج، أرجوك أن تنادى على المرشح التالي".

يبتسم المرشح إلى أفراد اللجنة ابتسامة تدل على المغالاة والمبالغة فى التقدير، ثم ينحنى. ويتجه الرجل إلى الباب، وكان قميصه الفضفاض الطويل يهفهف من حوله مثل الكفن. وهنا أدركت مارسى أن الآدمى يتعين عليه أن يكون مخبولا كى يقوم بهذا العمل.

كررت مارسى كلامها لمصلحة رفاقها وزملائها: "يا لهذه اللامبالاه!".

علَّقت الرئِّيسة متسائلة "ألم تسمع أن الابن الذى يوفده أبوه للسرقة لا يكون متلصِّصًا وإنما يحطم الأبواب والنوافذ؟".

"ماذا تعنين بذلك؟".

أوضح ضابط آخر؛ وهو من السجن المشدد فى ليجوس.

قال: "الحكومة تستخدم جلادًا للقتل. لماذا يتعين على مثل هذا الجلاد أن يكون متواضعًا أو متحفظًا، ومحترزًا فى هذه المسألة؟".

استدار مساعد المدير العام إلى مارسى. يبدو بجد يا سيدة أوكو أجولوجـــو، أنك بدأت تَرِقّين. أين الضابطة الشجاعة التى لا تخاف، التى أعرفها؟".

"أنا لست مفرطه فى الاحتشام أو أى شيء من هذا القبيل يا سيدى؛ أنا أقصد بذلك أننى لن أقوم بتنفيذ الإعدام بنفسى، وإنما .....".

"لكن ماذا؟".

"سيدى، بعض الأشخاص ينتظرون المحاكمة".

لم يكن ذلك هو ما أرادت قوله، وإنما خرج منها بهذه الصورة. مـــن يعلـــم ربما بدأ قلبها يرق أولاً وقبل كل شيء. من يدرى، ربما تكون تبحث عـــن عمـــل آخر، على حد تقريع جويس Joyce لها.

"إذا كن ينتظرن المحاكمة بسبب القتل، فإنهن مثل المحكومات بالفعل، وأنـــا أقول لك، أنهن إذا لم يكن ثريات، فإنهن لن يطلق سراحهن بكفالة ماليـــة. القـــانون حمار، لكن يسهل التنبؤ به كما تعرفين".

"بعضهن لم يبلغن الـــسن القانونيـــة. إنهـــن قاصـــرات، طبقًـــا للمعـــايير القانونية....".

رد عليها رئيسُها: "سيحصلن على الأغلبية فى السجن" علت وجهه الكئيـــب تكشيرة تنم عن السذاجة.

خطر ببال مارسى، أن ذلك أمر غريب. أنا لا أصدق أنى ضـــاجعت هـــذا الجلف المهرج.

"انتبهى يا مارسى، أمثالك من البشر هم الذين جعلوا الشرطة تلجأ إلى فـــتح النار على اللصوص المسلحين عندما تراهم. لا وقت للنقاش أو الهذر. هل استمعت أمس إلى المفتش العام فى نشرة أخبار الليلة الماضية؟ لم يبق أحد من اللـــصوص المسلحين على قيد الحياة حتى يحكى قصته؟ هل تعرفين المبلغ الذى تنفقه الحكومة

للإبقاء على هؤلاء المسجونين فى السجون وإعاشتهم؟ وأن تحرسهم على مدار أربع وعشرين ساعة، أو بالأحرى على مدار الساعة؟ هل تعرفين ذلك الذى تنفقه الحكومة على المحافظة على النظام؟ ومع ذلك تدورين وتشتكين من نقص الموارد اللازمة لإدارة تسهيلات، ومرافق السجون. مرتبات السجانين تتأخر عن المواعيد المحددة لها؛ البدلات مغلقة؛ بدل الأجازات، والمعاشات والمنح لا يجرى صرفها. أقول لك، فى يوم من هذه الأيام سَيُضْرِبُ السجانون وليس النزلاء. انتظرى إلى أن يقوم العمل بتنظيمهم. لقد احتجزنا هؤلاء الناس فترة طويلة. بعض النزلاء موجودون معنا منذ عقود. هذه مضيعة وتبذير، هذا إسراف كبير. تخلصى منهن وحولى الموارد إلى اتجاهات أخرى، واجعلى منها حُزمًا للرفاة".

قالت مارسى فيما بينها وبين نفسها، وهى تغادر مبنى الإدارة: "كان ينبغى علىَّ سؤال المرشح عن مبررات قبوله للوظيفة، إن كانت هناك مبررات، لعقوبة الإعدام. لكنى سألته عوضًا عن ذلك، عن الطرق الإنسانية لتنفيذ عمل غير إنسانى. غير إنسانى بحق وحقيقة!".

تنحنحت مارسى. حاولت الاحتفاظ بثباتها وعدم ظهور انفعالها على وجهها، وحاولت تخبئة الاستياء الذى يحتشد فى فمها مثل العصاره الصفراء المرة التى يفرزها الكبد فى حال مرض الملاريا. وعندما أصبحت فى ضوء الشمس، عاد ذهنها من جديد إلى الاجتماع، إلى الحوارات المختلفة، والإشارات المختلفة والنظرات المختلفة والموضوعات المختلفة التى جرت إثارتها ومناقشتها، والتخلص منها.

أبدت المشرفة العامة فى موضع من المواضع: "يوم الاستقلال قادم. هل سيمارس الرئيس سلطاته الدستورية فى منح العفو من خلال التمسك بالرحمة؟".

وافق مساعد المدير العام بلا تردد: "هذا أمر أكيد، هناك لجنة دائمة خاصة بهذا الأمر".

"كيف سينفذ ذلك؟".

"نحن الذين نوصى، بناءٍ على حقائق القضية، وطول المدة والسلوك، الخ. أنت تعرفين ذلك. جناحك سيحصل على عضوين، على حد علمى. اعملى فى ضوء هذه المقولة".

قررت مارسى عندئذ، اختيار العضوتين المحددتين لها عن طريق القرعة. هؤلاء اللاتى يردن الحياة سوف تقدم أسماؤهن لطلب العفو. أما الأخريات فسوف يُعطين أرقامًا على أوراقهن توضح النظام الذى سيذهبن به إلى المشانق. لم يكن أمامهن بديل آخر عن هذا الخيار.

كانت تعرف أن بعض زملائها لم يكونوا موضوعيين أو أمناء فى مثل هذه الأمور. فى بعض السجون كان العفو يصدر للنزلاء الذين لهم أقارب يتقاضون أكبر الرشاوى. وصل السعر فى العام الماضى إلى خمسين ألف نيرة. اضرب هذا المبلغ فى اثنتين فيما يخص جناح النساء، وعند ذلك تحصل على مائة ألف نيرة تهبط عليك وكأنها هبة من السماء.

على الصعيد الذهنى راحت سجانة فريمان فورت، تتجول خلال عنابرها. لقد صارت المسجونات صديقات وشقيقات بسبب الارتباط الطويل. لو قدر للسجانة أن تعمل عن طريق المزايدة، فهى تعرف أن اثنتين أو ثلاث فقط هُنَّ اللاتى يمكن أن يفزن فى ذلك: هذه سوزانا الإيطالية سوف تفوز على سبيل المثال لأن سفارتها تستطيع الوفاء بهذا المبلغ بسهولة كبيرة؟ لكن هل هن قادرات على ذلك؟ كانت السلطات الإيطالية تقاتل من أجل جعل سوزانا تقضى العقوبة فى بلدها. هذا يعنى أن الرشوة ستصبح وسيلة غير سوية لإطلاق سراح هذه المرأة. لقد سمعت أن الإيطاليين يشبهون الأفارقة فى أمور كثيرة. هذا يعنى أن الغاية تبرر الوسيلة. كان ميكيافيلى فلورنسى أولاً وقبل كل شيء. هذا يعنى أنهم لن يترددوا فى دفع المطلوب لإطلاق سراح مواطنتهم.

أنتلّى المتخصصة رقم "٤١٩"، تستطيع هى أيضًا دفع هذه الرشوة من خلال رفاقها فى دنيا المال والأعمال، وذلك إذا ما قدر لأولئك الرفاق الحضور إليها. وربما استطاعت زوجة القسيس هى الأخرى دفع المبلغ، إذ بوسع الكنيسة توفير هذا المبلغ. الأمر لا يتطلب سوى توفير المال بطريقة خاصة. واقع الأمر أن واحدًا أو اثنين من الإخوان المتحمسين أو الأخوات المتحمسات يستهلك هذا المبلغ. عندما كانت مارسى تغادر الوزارة رفعت وجهها إلى السماء.

لم تكن الفرصة متاحة للنزيلات الأخريات. واقع الأمر أن أقرب أقاربهن تخلوا عنهن. البعض منهن كن فقيرات فقرًا مدقعًا، عجزن معه عن توكيل محامٍ يدافع عن المتهمة التعيسة. وهذه آمن Amen منذ أن جاءت إلى هنا، لم يأت أحد لزيارتها، اللهم إلا أهل الكنيسة الذين يقومون بزيارة السجون، لكنهم لم يكونوا من أقاربها. يزاد على ذلك أن بعض النزيلات كن ينقلن من مكان إلى آخر مرات عدة دون أن تدرى عائلاتهن بتلك التنقلات. وبسبب عدم زيارة الأهل لكل المرافق فى البلاد، لم يكن أمامهم أية وسيلة من الوسائل التى تجعلهم يعرفون المكان الذى يجرى فيه احتجاز محبوبتهم. يزاد على ذلك أن البنت الصغيرة الهاذية جرى تركها هى الأخرى هناك من قبل. تجيء بعد ذلك الزوجتان المتقاتلتان اللتان قتلتا أطفال بعضهما. لم يحضر "زوجهما" لزيارتهما بأى حال من الأحوال.

توصلت مارسى إلى أن الاختيار لذلك العفو سيكون عن طريق الاقتراع السرى. لذا فالأفضل تركهن يواجهن قدرهن. لم يقف الأمر عند هذا الحد، لأن هؤلاء اللاتى سيخسرن العفو، سوف يخترن، فى الوقت نفسه، مكانهن فى الصف المتجه إلى غرفة الإعدام. وأنا لن أكون المسئولة عن تحديد ذلك. والسبب فى ذلك، أننى أعلم أن هذا الجلاد بعد أن تتم إجراءات استخدامه وتسجيله ضمن قوائم العاملين، سوف يتحول إلى العمل على وجه السرعة.

الفصل السابع

روث

أخيرًا، ها أنذا اكتب إليك. لقد استغرق الأمر منى زمنًا طويلاً. وسوف تعرفين سبب ذلك عما قريب.

حدث مؤخرًا، وعندما كنا نرفه عن انفسنا، أن قامت واحدة بإحضار بعض من الفول السودانى المحمص، من خلال الشرخ الموجود فى الجدار. لم تكن كمية كبيرة، وإنما ما مقداره عشر نيرات. كان الفول السوداني المحمص ملفوفًا فى ورقة من جريدة مضى عليها أسبوع. والأخبار القديمة طبقًا لمعاييركم تعد أخبارًا جديدة علينا هنا. وهذه هى الطريقة التى استطعنا بها معرفة أن الحكومة كانت على وشك استخدام جلاد جديد. هذا يعنى، أن الحالات المعلقة سيجرى التخلص منها على الفور. أعتقد أن العملية قد بدأت بالفعل.

صباح أمس واليوم، سمعنا صرخات استغاثة قادمة من قسم الذكور، لأناس كان يجرى سحبهم إلى مسافة المائة متر الأخيرة، التى تسبق الأبدية. ونحن نطلق عليها اسم شرطة المئة متر، أو سباق الزكائب. وهى تعتمد على طريقة قطع النزيل لها، سواء تباطأت قدماه أو تشجعت. لم يجر اقتياد أية واحدة منا نحن النساء. وإذا كان الرجال يصرخون على هذه الشاكلة فما الذى سنفعله نحن النساء. البعض منا يشعرون بالخوف والقلق. وهذا هو ما دفعنى إلى الكتابة.

سيحل الدور علينا فى أى وقت من الأوقات اعتبارًا من الآن. وأنا عندما استخدم ضمير المتكلم الجمع، فذلك يعنى أننى أشير إلى رفيقاتى النزيلات اللاتى على وشك أن يُعْدمن. نحن إحدى عشرة نزيلة فى هذه الزنزانة، التى تساوى حجم المطبخ الذى فى بيتنا. هناك أخريات فى زنازين أخرى أراهن أثناء تدريبات الرياضة البدنية، وأثناء دخول الحمامات، لكنى لم أشغل نفسى بأماكنهن، أو بما يفعلن.

سيجرى استخدام جلاد جديد! هذا يعنى أن أمك سوف تُعْدم فى أى وقت اعتبارًا من الآن. لم تقل الجريدة شيئًا عن الجلاد السابق؛ هل قد تقاعد أم توفى أثناء الخدمة. قالت الجريدة أنه سيجرى استئجار جلاد جديد. وأنا أفهم السبب الذى جعل البعض منا يعشن إلى هذا اليوم.

بعضهن، من أمثال زوجة القسيس كثيرة الصلاة، كن يتحدثن على معجزة. هى موجودة هنا فى السجن منذ أكثر من عام. لا واحدة يعرف بالضبط المدة التى انقضت على كل واحدة منا هنا فى السجن. لا واحدة منا لديها فكرة عن الزمن. ليس لدينا روزنامه (نتيجة) أو ساعة. نحن لا نعرف التاريخ إلا عندما تجيء إلينا نزيلة جديدة، عندها نعرف التاريخ. وتحاول بعضهن إحصاء الأيام اعتبارًا من ذلك التاريخ، بأن يقمن بتعليم أو تدوين كل يوم من الأيام على الجدار باستعمال الفحم النباتى، لكنهن سرعان ما يفقدن ذلك التدوين. وكما سبق أن قلت: كانت زوجة القسيس مفعمة بالتفاؤل والأمل.

أتساءل. من الذى سيتولى عمل الجلاد هذا؟ وما مؤهلات ذلك الشخص، إن كان لديه مؤهلات، أو إن كانت تلك الوظيفة تحتاج إلى مؤهلات؟ وهل هو رجل أم إمرأة؟ قالت إحدى النزيلات، القسيسة، إننا سنمر على جهنم. هى يراودها حلم بين الحين والآخر عن نار مهلكة. ربما كانت تقصد بذلك فصيل الإعدام، مثلما تعودوا أن يفعلوا فى بار بيتشى Beach Bar. وأبدت نزيلة أخرى هذا التفسير لذلك الحلم، قائلة إن فصيل الإعدام مختص باللصوص المسلحين، وللقتلة فقط. آميه Ameh، أو بالأحرى آمن Amen احتجت على ذلك احتجاجًا شديدًا، ووصل الأمر إلى حد تهديدها لرفيقاتها فى الغرفة. هى محبوسة بتهمة القتل، هذا هو كل ما يتعلق بآمن. سوف تقابلين رفيقاتى فى الغرفة، وكلهن عشر نزيلات. نحن جميعًا ننتظر الإعدام. كبا، كبا، كبا كبا كبا، هذا هو ما اعتادت السجانة ترديده على مسامعنا، وهى تقلد صوت مدفع الماكينة. اسمها الآنسة إيز تشيف Eze ، الذى أضفينا عليه السمة الإنجليزية وحولناه إلى مستشيف Mischief.

يبدو أن الأمر كله أصبح مركزًا على. منذ البداية، نجح ذهنى فى استبعاد أحداث الشهور والسنوات الماضية. ولما كنت قد بقيت هنا فترة طويلة بعد الحكم، حسبت أنه ربما، ربما تكون الحياة، على حد قول سوزانا.

سوزانا هى الأخرى واحدة من نزيلات غرفتنا. بيضاء البشرة، إيطالية من المكان الذى تسميه هى نابولى. لقد أمسكت بزوجها وشغالتها معًا فى ليلة من الليالى، وهشمت رأسيهما تهشيمًا تامًا. هى فى انتظار دائم لوصول مسئول قنصلى يقوم بترحيلها إلى بلدها. تقول إن بلدنا غير متحضر؛ وتقول أيضًا إن عقوبة الإعدام قد ألغيت فى بعض البلدان الأخرى؛ وأننا جميعًا سنحصل على الحياة بدلاً من الموت. سألتها إنتلى كيف ألغيت عقوبة الإعدام فى الوقت الذى قامت هى فيه بإنزال هذه العقوبة على كل من زوجها وعشيقته فى منتصف الليل.

إنتلى واحدة منا أيضًا. نحن نسميها إنتلى بدلاً من إنتلكشيوال Intellectual (المفكرة)، لأنها قامت فور وصولها بتشكيلنا على شكل رابطة أطلقت عليها اسم جماعة تضامن جناح النساء، وكانت تقوم بتنسيق سلسلة من المحاضرات حول الموضوعات كلها: الحب، الزواج، الجنس، الخ. وهى التى جعلت الممرضة Nurse تتكلم عن حقائق الحياة. ثم تكلمت آمن عن الموت بصورة عامة. قالت إنتلى إن ذلك سوف يكشف غموض الموت وسوف نواجهه رابطات الجأش عندما يجىء الموعد المحدد.

هى محبوسة بسبب قتل رجل أبيض. أعتقد أن المسألة تتعلق بتزوير سار فى الطريق الخطأ. قالت إن شركتها هى الملامة فى ذلك، وقالت إنها كانت طالبة تعد لدرجة الدكتوراه فى العلوم الاجتماعية قبل أن تمتد يداها إلى ورشة الشيطان وتفعل ذلك الذى ظلت تفعله بمرور الزمن. كانت إنتلى تعد لدرجة الدكتوراه بأطروحة تحت عنوان: "**الإثراء فى أفريقيا**". وهى عندما تتملكها روح البحث تروح تحاضرنا حول هذا الموضوع. وهى تقول إن لديها حق النسخ مدونًا على هذه الأطروحة، وإنها تفشى ذلك لنا لأن أية واحدة منا لن تستطيع الإفادة من هذه

الأطروحة بأى حال من الأحوال. وسوف أحكى لكن عن هذه الأطروحة فيما بعد. قد تجدون فيها شيئًا من الفائدة، أقصد الأطروحة.

وهنا بدأت تتجلى لى أهمية ذلك الذى اقترفته. أقتل زوجى، الشخص الذى قلت "أنا فعلت" أبو أولادك! هل أنا نادمة على ذلك؟ هل أنا آسفة على ذلك؟ أنا لست آسفة على ذلك أو نادمة. وطالما أننى سوف ألقى خالقى، فذلك يحتم على الندم وطلب العفو والصفح، لكننى لست آسفة. كما أننى لست نادمة على ما فعلت. سألتنى إنتلى ذات مرة عن السبب الذى منعنى من ترك بيت الزوجية القاسى. ورددت عليها أن أوان ذلك قد فات، وأن هذه الأسئلة لم يعد لها مكان الآن. لقد حدث ما حدث، ودعونا نترك هذه النقطة. أنا أعرف أنك أنت نفسك سوف تطرحين هذا السؤال. أُماه، لماذا لم تتركى بيت الزوجية؟ لماذا تحتم عليك قتل والدي؟

اسمحى لى بالإجابة عن سؤالك الآن. روث، لقد كنت ضحية. كنت أنا زوجة والدك الثالثة فى إطار التعدد الذى كان يمارسه ذلك الرجل. عندما التقيته خبَّأ عنى أشياء كثيرة. لم أكن أعرف أنه سبق له الزواج مرتين من قبل. كنت اتساءل عن ذلك الذى منع مثل هذا الرجل "الكبير" من الارتباط. اعتقد الآن أنى كنت متسرعة فى عملية الزواج، وكنت أود أن أحمل اسم "مدام" أو "حرم" مثل بقية رفيقاتى وصديقاتى، وأن أغض عينى عن المتناقضات الصارخة. وبعد الزواج بدأ أنسباؤه وأعضاء أسرته الممتدة وكذلك أبناؤه يظهرون على السطح ويجيئون من أنحاء البلاد كلها، كما بدأت حيواته الماضية تظهر للعيان. تركته زوجته الأولى بإصبعٍ مكسور وعين مفقودة. أما الزوجة الثانية فقد فقدت قدمها فى مشاجرة منزلية عقب ضربة بالمنجل وجهَّها إلى ساقها. وليس هناك داع لتدوين الإصابات التى أحدثها فىَّ. أنت تعرفين هذه الإصابات والإهانات. جسمى مليء بالشامات والأنسجة التى لم تلتئم بفعل جنونه. ذهنى مصاب هو الآخر. لقد اعتدتِ على تمريضى، أنت وسيث Seth؛ تعودتِ أن تجففى دموعى، ونحن فى جوف الليل على إثر سلوكه العنيف.

إذن، ما الذى منعنى من مغادرة بيت الزوجية؟ السبب فى ذلك يا روث أن شيئًا ما فى داخلى كان يرد على بجفاء وحدة شديدين فى ذلك اليوم. هذا الشيء هو أننى لا يمكن أن اتحمل بعد ذلك الذى يجرى. كما أننى لا يمكننى الذهاب لحال سبيلى وأترك امرأة أخرى تقع فريسة له من بعدى. لو أن زوجاته السابقات قد تصرفن، ولو أنهن تخلصن من ذلك الرجل المهُول المرعب أو حبسنه، لما كنت أواجـــه نهـــاية العـــالم الآن. كـــان لابد من قيام شخص ما بهذا العمل. سمِّه الثأر أو الانتقام إن أردت. كان ذلك دفاعًا عن النفس. لقد هاجمنى مرات كثيرة فى الماضى. وفى ذلك اليوم كان فى ما يكفينى. لم أكن قادرة على تحمل أكثر مما كنت فيه.

يجب أن تنتبهى أن القتل لم يكن مع سبق الإصرار مثلما ادعى المدعى العام أثناء محاكمتى. لو كان الأمر كذلك، لكانت تلك أطول جريمة قتل فى الدنيا كلها: سبعة عشر عامًا. لقد كنت متزوجة من ذلك الشرس طوال سبعة عشر عامًا. لم يحدث مطلقًا طوال هذه السنوات أن فكرت فى التخلص منه. كل ما فى الأمر أننى كنت انتظر إلى أن تكبروا يا أبنائى، ويمكنكم الاعتماد على أنفسكم؛ ثم أتركه وأعيش حياة أعتمد فيها على نفسى. ومع ذلك، تزايد ضربه لى، وأصبحت حماقته أكثر رذالة وقسوة مما مكنه من لوى ذراعى. وهذا فى رأى، هو السبب الذى بنى عليه محامى الحكومة التابع للمساعدة القانونية، دفاعه عنى أثناء المحاكمة. وقال أيضًا إن عدم الإصرار والترصد يمكن أن يعطينى الحياة. لكن القاضى قضى بأننى قتلت الرجل مع سبق الإصرار والترصد. نسى القاضى الدور الذى لعبه الكحول فى الحادث. نعم، اللوم يجب أن يوجه إلى الكحول إلى حد ما، وسبب ذلك أن والدكم عندما كان يعب ذلك المسكر، كان يفقد السيطرة على نفسه، ويتحول إلى حيوان. وفى ذلك اليوم، لم يكن بوسعى تحمل أكثر مما كنت أتحمله بالفعل.

روث، قبل أن أنسى، كيف حال سيث Seth؟ أنا عندما أفكر فيه تفيض عيناى بالدموع وأنخرط فى البكاء. ديرى بالك عليه. وأنا عندما أتفكر ما حدث، يصبح سيث هو الشخص الوحيد الذى تمنيت بسببه عدم حدوث كل ما حدث. بعدى عنه يقتلنى.

لا تغارى. هناك علاقة خاصة بين الأمهات والأبناء، وإن الله هو الذى يُقيم هذه العلاقة، نظرًا لأن سيث كان طفلاً ضعيفًا. أنا لازلت أتذكر أنه عندما كان فى المرحلة قبل الثانوية، كان يرجونى أن أترك له شيئًا من ماء حمومى حتى يضيفه إلى ماء حمومه. لازلت أتذكر أنه وهو فى الثالثة عشرة من عمره، كان يدلف إلى سريرى ويستخدم ذراعى مخدة له، ولازلت أتذكر أيضًا أننا كنا نتغطى بغطاء واحد من القماش.

اعتنى به قدر المستطاع. وأنت الوحيدة التى له فى هذه الدنيا. قولى له إنى أحبه وسأظل أحبه. لا تجعليه يتشكك فى ذلك، وهو فى المرتين اللتين جاء فيهما إلى سجن فريمان فورت، وُوْجِه برفضى لقاءه. قلبى كسير بالفعل، فلماذا أُقَطّعُه إلى نتف صغيرة؟

اعتنى به، وبخاصة أن بقاءه على قيد الحياة لن يدوم طويلاً. واسيه فى وقت الأزمات. عندما تبدأ عضلاته ومفاصله فى التورُّم، مررى عليها لزقة ساخنة، مثلما كنت أفعل أنا أمامك. يجب أن لا تسمحى له بفقدان الأمل أو الإرادة فى الحياة. أنا لا زلت أعرف أنه سيتبعنى، بعد وقت قصير، فى أرض الموتى. أنا أعرف أيضًا أن عمره لن يطول بالقدر الذى يصبح معه صيدلانيًا على النحو الذى كان يطمح إليه، حتى يتمكن من اكتشاف علاج للمرض الذى عكّر عليه صفو حياته كلها، واصلى تشجيعك له. كونى قوية يا روث. يجب أن تكونى قوية.

وعليه، يا ابنتى الوحيدة، ستكونين وحيدة فى هذه الدنيا فى نهاية المطاف. يجب أن ترثى كل أشيائى. هذه الأشياء ليست كثيرة، وأنا أعرف ذلك، لكن ابدئى من الآن جمع هذه الأشياء إذا لم تكونى قد بدأتِ ذلك بالفعل. يجب أن تكونى قوية لا تشعرى بالخجل مما حدث، أو مما فعلته أنا، وأنا لم أكن مذنبة بالقتل أو السرقة المسلحة.

كل ما فعلته كان لتحرير نفسى من الضرب والخنق الذى كان يحدثه لى ذلك الزوج العنيف. هناك عدد كبير من هذا النوع من الزوجات، وأنا أشارك مجموعة

صغيرة منهن فى هذه الزنزانة. وبعد أن تعاملت معهن فترة طويلة، وصلت إلى النتيجة التى مفادها أنى لا استطيع إدانة أية واحدة منهن. نحن جميعًا فرائس للظروف. واقع الأمر أنى استطيع القول: إننا هنا لأننا كلنا نساء. المجتمع هو الذى جعلنا على النحو الذى نحن عليه الآن. والآن، هذا المجتمع نفسه هو الذى يديننا ويتخلص منا.

غدا يوم زيارة. وسوف أرسل هذه الرسالة من خلال بعض الأجانب الذين سيجيئون لزيارة أحبائهم. صلى من أجلى. سامحينى. أنا آسفة على الألم الذى سببته أعمالى لك ولسيث Seth. أتمنى لك حياة أفضل من الحياة التى عشتها أنا، أمك.

تشجعى.

بكل الحب،

أمك.

* * *

يوم مطير

كانت السماء تمطر مطرًا غزيرًا. برق البرق، ودوى الرعد. وكانت حبات المطر تدق سطح الزنزانة رقم (١٠وو)؛ وهذا يعنى أن الزنزانة سوف تغرق فى الماء من جديد. كانت النزيلات قد جمعن أشياءهن وكوَّمنها كلها فى ركن من أركان الغرفة، كان سقفه سليمًا. وسحبت نزيلتان جردل التبرز إلى مكان فيه تسرب كبير بغية جمع قطرات المطر. من يمن الطالع أن الدلو كان قد جرى تفريغه وامتلأ إلى منتصفه بالفعل.

كانت إنتلى موجوده فى المكان تلقى واحدة من محاضراتها المعتادة على

أولئك اللاتى يجدن الاستماع. كانت إنتلى لغزا لزميلاتى النزيلات. سألوها مرة أو مرتين عن قضيتها. ولم تقل لهن سوى أن ما فعلته كان من عمل الشيطان. كانت السجانة قد كشفت أن قضيتها من نوعية القضايا رقم (٤١٩) والتى ذهبت إلى شأو بعيد، وترتب عليها اغتيال رجل أبيض. كان ذلك من سوء الطالع. تساءلت أولورى، ترى ما الذى كان يبحث عنه هذا الرجل الأبيض فى تلك الاصقاع العامرة بالخطر؟ ردت عليها إحداهن، اذهبى إلى السفارات، لترى بنفسك كيف يجاهد النيجيريون من أجل الهرب من أرضهم الأم. ما الذى يمكن أن يبحث عنه رجل أبيض عاقل فى هذا المكان؟

كانت إنتلى قد لخصت الأمر لهن بأن قالت: حيثما تزداد المخاطرة يزداد العائد أيضًا. "فى نيجيريا، تستطيع استثمار عشرة آلاف دولار وتحقق ربحًا لا ينتهى من ملايين النيرات. القانون يسمح بذلك. ولا تدفع عن ذلك حتى ولو كوبو واحد".

بقيت النزيلات حائرات؛ تمامًا عندما لم يفهمن السبب الذى جعل سوزانا تتزوج رجلاً نيجيريا. قُلن لها: "هناك رجال بيض كثيرون يعيشون فى بلادكم بطريقة قانونية. ما هو السبب وراء اختيارك الزواج من نيجيري؟" كن يرددن عليها هذا السؤال مرات ومرات. كان ذلك سرا من أسرار الحياة.

قلن: "نحن هنا، نبحث عن الزواج من رجال بيض ليخرجونا من هذا العفن؛ فى حين أنكِ أنت المرأة البيضاء تتزوجين فى هذا العفن".

كانت إنتلى قد أوضحت أن سوزانا تزوجت أيدى Eddy بسبب الجنس. فى كل أنحاء الدنيا، البيضاوات يفضلن السود، لأننا نؤدى أداء طيبًا فى الفراش. وفى المقابل يعين البيض السود فى ارتقاء السلم الاجتماعى. نعم، الرجال السود، يؤدون أداء أفضل.

قالت وهى تسخر من المرأة البيضاء "انظرى، المكان الذى جعلك الجنس تجيئين إليه".

بدأت إنتلى كلامها "قلت لكنَّ إن مشكلات النساء يمكن تلخيصها فى أمرين. على كل حال، سوف أتناول هذا الأمر فى يوم من الأيام. وكما قلت، كنت أُعِدُّ هذا البحث لنيل درجة الدكتوراه عندما ضرب الشيطان ضربته. وأنا أعنى بذلك أن محاضرى الجامعات قاموا بإضرابهم المستمر، أى غير المنتهى. الكلمة Perennial تعنى "لا ينتهي". تعين على إنتلى شرح بعض المصطلحات لزميلاتها، اللاتى لم يكن متعلمات. "دخلت فى أمور أخرى، ولكن تلك كانت قصة أخرى أيضًا. أنا لا أعرف كم منكن سمعن عن آدم سميث؟".

صمتت إنتلى وألقت عليهن نظرة. كن منهمكات فى ألعابهن. كانت أعينهن يقظة لأصغر التحركات التى تصدر عن خصمهن. إذا ما حاول الخداع أو الخيانة. أنتن تطلن التفكير فى الأفاعى، قالت هذا الكلام وهى تستفزهن من الداخل. تلعبن دومًا الورق ولعبة الليدو. هذه هى موديا‌جا هى وأولورى تلعبان الليدو، وهذه هى الممرضة تنافس كلا من بيشنس patience، وسوزانا فى لعبة "الهوت" whot. كان صدر الممرضة مكشوفًا. كانت حبيبتها تداعب وبلا خجل حلمتى ثدييها الواقفتين. كانت الضرتان منحنيتين عن قصد على رقعة الليدو وأذرعهن يحتضن بطونهن. قالت إحداهن وهى شاردة الذهن: "إذن، آدم له اسم عائلة؟ أنا لم أكن أعرف ذلك". ثم ألقت بورقة فى المنتصف ونظرت إلى شريكتها فى اللعبة. ثم أمرتها قائلة "تجمة!".

قالت إنتلى: "هذا لا يهم".

كانت إنتلى مقيدة بافتقارهن العام إلى التعليم، أو بالأحرى تدريبهن المقصور على ميدان، أو مجال واحد من مجالات الدراسة: كانت نيرس محدودة بمجال التمريض، وكانت باتسى محدودة بالاختزال. أما سوزانا فقد حصلت على شهادة المدرسة الثانوية، وأصبحت موظفة مبيعات فى محل بيع الجلود المملوك للأسرة إلى أن التقت السيد/ بلاكمان Blackman وهربت معه. أما آمن فكانت تعمل كبابجية فى أحد البارات، وكانت كل من رحمة وبنتا، ربتى منزل متسربتين من المدرسة الثانوية.

واصلت إنتلى كلامها "قام آدم سميث بتحرى طبيعة وأسباب ثروات الدول. وقد حذوت فى بحثى حذو آدم سميث. وأنا أعنى بذلك أن بحثى هو تحرى لطبيعة وأصل ثروة الأفارقة. أو إن شئتن فقلن: "الإثراء فى إفريقيا". طرحت سؤالا. يجب ألا يغيب عنكن، أن التحرى العلمى يطرح دومًا سؤالاً واحدًا. وهذا صحيح. كيف حقق الأثرياء الأفارقة ثرواتهم؟"

وراحت تقطع عرض الزنزانة مثلما يفعل المحاضر، وهى ممسكة فى يدها بأوراق نقاط المحاضرة. كانت تنظر إلى الورق فى بعض الأحيان. كانت إنتلى قد فقدت نظارتها أثناء التدافع على باب المحبس.

"لقد قطعت شوطًا كبيرًا فى أُطروحتى. بصريح العبارة، أنا ليست معى هنا الحقائق كلها والأرقام كلها، لكننى منذ أن بدأت البحث وكتبت الخطة بنفسى، لازلت أتذكر خلاصة جهدى. هل أنتن معي؟" وجاءتها إجابة خفيفة متحفظة.

رفعت إحدى المستمعات ذراعها محذرة "الورقة الأخيرة!".

أكدت إنتلى: "نعم، أنا أذكر الورقة الأخيرة. انتبهن، الكتبة الأشباح هم مؤلفو كثير من الأطروحات فى جامعاتنا. أما أطروحتى، فقد قمت أنا بإعدادها والبحث فيها. أنا أعرف تمامًا المادة التى قدمتها. إنتلى تعرف المادة التى كتبتها". ثم راحت تخبط على صدرها "أنا لست بحاجة إلى تذكيركن أن نصف المرشحين الذين يكتبون الامتحانات فى هذا البلد هم من الأدعياء، الذين يُستأجرون. من المؤكد أنكم تعرفن ذلك". ويجيء الصمت بمثابة خير إجابة لها على كلامها.

"لا عليكن. أولاً، وعلى العكس مما تفكرن أو سمعتن، جمع الثروة في إفريقيا أمر سهل جدًا، أمر فى غاية السهولة....".

قالت سوزانا وهى تُهَوِّى على نفسها باستعمال ورق اللعب "إذن ما سبب وجود عدد كبير من الفقراء فى هذا البلد؟ عدد كبير منهم فقراء، محطمين لا يملكون مأوى أو طعام؛ خلاصة القول: هم فى فقر مدقع".

"هذا سؤال وجيه، ولكنى سأعود إليه بعد لحظة، يا سيدتى الجميلة". كانت المُحَاضِرَةُ تضع قلمها فوق أذنها اليمنى. وألقت نظرة خاطفة على ملاحظاتها وواصلت كلامها "ثانيًا، هناك طرق كثيرة لتحقيق ذلك الثراء. وسوف أعطيكن قائمة بهذه الطرق، ثم تقمن بالاختيار من بينها. أنا أعلم أننا لن نغادر هذا المكان ونحن أحياء. وهذا هو السبب وراء كشفى لأسرار هذه الحرفة هنا. الناس فى الخارج على استعداد لدفع أغلى ما عندهم. أنا أقصد بهذا التعبير ــ أنَّ الناس على استعداد لدفع الغالى والنفيس نظير الحصول على المعلومات التى تحصلن عليها مجانًا وتعاملنها باحتقار. ومع ذلك، لن تكون هذه المعلومات مفيدة لَكُنَّ هنا. وهذا هو السبب وراء حصولكن على هذه المعلومات بلا ثمن.

تصعد المتكلمة إلى سريرها وتقف عليه كما لو كانت واقفة على منصة الخطابة. وراحت تسيطر على غرفة الدراسة من ذلك المكان، مستشعرة الهيمنة بعد أن عادت إلى الحياة فى داخلها الرغبة فى التدريس والتعليم. كانت تمسك بقلم أحمر فى يدها اليسرى وقطعة من ورق الأسمنت بنى اللون.

كان القلم مملوكًا لواحدة من السجانات. فقد قامت آمن بعد الفوضى الناجمة عن التخويف من عملية الهرب، بإعطاء ذلك القلم الى إنتلى.

سبق أن قالت: "أنت تحبين الكتابة. ها هو القلم أُعطيك إياه". كانت إنتلى قد دونت النقاط الرئيسية فى أطروحتها. وقد تواردت تلك النقاط على ذهنها فى سهولة ويسر. وأسعفها ذهنها، على تمثل مخطوطتها الموجودة فى المنزل، وراحت تتخير منها كلمات وعبارات وحجج.

بعض النزيلات كن مستلقيات فى سررهن، يهززن أرجلهن بلا جدوى كالعادة. كان الوقت غير المجدى كثيرًا فى هذا المكان، الوقت الذى تنفقنه النزيلات فى عمل لا شيء، كل ما فى الأمر أنهن يستعدن الذكريات، انتظارًا لحدوث شيء يمكن أن يغير من ذلك الملل، الـــذى يخيم على هذه الزنزانة ذات الجدران الثلاثة أو الحاجز الحديدى. الشيء الوحيد الذى كان يحدث فى نهاية المطاف هو الطعام،

والتزاوج إن صح لنا أن نقول ذلك، بين النساء؛ يدخل وقت وينقضي الوقت بعد ذلك. وفيما بين لعب الورق، تقمن العاشقات بمداعبة بعضهن البعض، وذلك من باب قتل الوقت، ومن باب افتقاد الشيء الحقيقي.

تصرخ إحداهن "أريد رجلاً! أريد رجلاً. أريد رفيقًا!" تقول ذلك بعد أن أصبحت لا تطيق الصبر، ولا تقوى على تحمل ما هي فيه. وتروح تربت على مكحلتها وتهرشها بطريقة يائسة.

صاحت إحدى اللاعبات قائلة وهلي تلقي بورقة الجوكر على الأرض: "استمري في الدائرة". قالت نزيلة أخرى وهي تنظر إلى الأخريات: "مربع!" لقد سحبت "السوق" إلى مسافة أقرب.

واصلت إنتلي كلامها: "أسهل الطرق إلى الثراء في إفريقيا هي الوظيفة الرسمية، وهذا أمر سهل وبسيط. هذا باختصار هو موضوع أطروحتي. هذا يعني أن كل وكالة من الوكالات الحكومية أو إدارة من الإدارات الحكومية لها حصة تصل إلى ملايين الوحدات من العملة المحلية كل عام. يزاد على ذلك أن مجالس الحكومة المحلية لها مخصصات تزيد على الأربعين مليونًا كل شهر. ناهيك عن التدعيمات".

"وأنت عندما تكون مسئول التنفيذ الرئيسي في مثل هذه الوكالة أو الإدارة، فذلك يعني أنك جالس على منجم من مناجم الذهب. وبوسعك إساءة تخفيض هذه النقود وبذلك تصبح ملكًا لك. نعم. بدون آلام كبيرة. لكن كيف تفعل ذلك؟ هل يعني ذلك مد يدك الوسخة في الغلاية وإمساك ما بداخلها؟ نعم! البعض يفعلون ذلك، وإن كان يبدو أمرًا لا يصدق. ويخرجون ما يمسكون به".

"ومع ذلك، هناك طرق أخرى غامضة، ووسائل أخرى غامضة يمكنك استعمالها لتحويل الأرصدة الحكومية لحسابك الخاص، إحدى هذه الطرق يُطلق عليها اسم "حصة الأمن" "Security vote" حصة الأمن هذه هي واحدة من الحصص غير المحسوبة. بمعنى آخر، أنت لا يتحتم عليك تحري ذلك المبلغ أو تفسير

الطريقة التى تم بها إنفاق هذا المبلغ. أنا لا أعرف ذلك الذى صَرَفْتُ عليه هذه الحصة، نظرًا لأن قوة الشرطة هى التى توفر الحماية للمسئولين الحكوميين، وهم لديهم بالفعل حصصهم الكبيرة أيضًا. وهنا يجيء ذلك الذى أسميه أنا "التقاولية" "Contractocracy".

"كل واحد من كبار الموظفين التنفيذيين عنده شركة باسمه أو باسم أحد من أفراد أسرته. هذه الشركة هى التى تمثل ذلك التنفيذى الكبير؛ هذه الشركة هى التى تقوم بالتوريدات، والأعمال المطلوبة للوكالة الحكومية التى يرأسها ذلك التنفيذى. العقود تكون ضخمة والفواتير مبالغٌ فيها. والأعمال إذا ما انجزت تكون رديئة. وعادة ما يكون ذلك الإنجاز على الورق فقط. ليست هناك شيكات، أو موازنات نظرًا للشخصيات الداخلة فى الموضوع. ولو قدر وكانت الشيكات والموازنات موجودة، فإن ظرفًا بنى اللون كفيل بالعناية بهذه الأمور. لا تشغل بالك بلجنة العطاءات. كل أعضاء هذه اللجنة من الذين يقولون: آمين. واقع الأمر أن أعضاء هذه اللجنة كلهم لديهم شركاتهم الخاصة التى تتقدم بالعطاءات المطلوبة للأعمال على اختلاف أنواعها..... وأنا أرحب بمارسى أوكو أجولوجو فى هذا الاجتماع. هل أنت نزيلة جديدة، أيتها السيدة؟".

واقع الأمر أن مارسى كانت قد دلفت فى هدوء نظرًا لأنها كانت معتادة على فعل ذلك. كانت تقف بجوار البوابة، تراقب وتستمع. نظرت اللاعبات إلى أعلى فترة قصيرة إلى سجانتهن الودودة.

"الكارت (الورقة) الأخيرة!".

"تسألين من جديد عن الورقة الأخيرة؟".

ابتسمت السجانة وقالت: "أنا مجرد مراقبة أيتها المتحدثة باسم المجلس". كانت إنتلى شخصية مغرمة بالتمثيل بصفة مستمرة.

كررت نزيلة أخرى الكلام نفسه: "مارسى أوكو – أُجولو، هل أنت

نيجيرية؟".

"نعم، أنا نيجيرية بكل تأكيد. والدى من اليوروبا،كان زوجًا سابقًا لامرأة من الأجبو. لماذا تسألين هذا السؤال؟".

"السبب هو أن اسما مثل اسمك... مكون من كلمتين: أوكو oko وهى كلمة من لغة اليوروبا ومعناها "شيء" thing وكلمة أوجولوجو ogologo فى لغة الأجبو تعنى "طويل" long.

"أنتن تشتهين المرود اشتهاءًا كبيرًا.

"كش ملك!" لقد كسبت سوزانا.

قالت أولورى بلا خجل: "ثلاث". ثم قالت وهى تحضن الممرضة وتشدها بالقرب منها "لكن حبيبتى هنا".

أدت سنوات السجن إلى ارتماء النزيلات فى أحضان بعضهن. كن ينمن اثنتان فى سرير واحد، متخليات بذلك عن البرد والوحدة فى أسرتهن وذاهبات إلى الدفيء والرفقة مع جسد آخر. كن يفعلن أشياء حميمة لبعضهن البعض، الأشياء التى تَعَّود الرجال أن يفعلوها فيهن. كن يفعلن هذه الأشياء على نحو أفضل من الرجال. وبحكم أنهن نساء كن يعرفن المشاعر، ويؤكدن، ويفهمن، وكن يفعلن هذه الأشياء بطريقة مرتجلة. لا عجب، أن تنتشر بينهن الأمراض الجلدية انتشار النار فى الهشيم.

قالت مارسى: "اشكرك على هذه المعلومات ثمنًا لذلك. هذه المعلومات ليست مجانية. هذه أسرار تجارية كما تعرفين. وأنا صاحبة حق النسخ فى هذه المعلومات".

"هذه صفقة كبيرة! ليس هناك حق نسخ فى إفريقيا يا عزيزتى. يضاف إلى ذلك كنت على المنصة. مطلوب منك الاستمرار فى كلامك".

"نعم، هذه المعلومات مجانية لمن هن على وشك الموت، لأنها عديمة الفائدة عندهن، أو إن شئت فقولى إن هذه المعلومات غير قابلة للاستعمال عندهن. قولى أيضًا إنها فن من أجل الفن(*) وأشياء من هذا القبيل، إنها معرفة من أجل المعرفة. أما بالنسبة لك... فأنا صاحبة حق النسخ".

"لقد فهمت. ما الثمن الذى تطلبيه إذن؟ حددى هذا الثمن".

"وهنا فارت الزنزانة كلها وثارت. صاح بعضهن مناديات: "رَجُل"، وصاحت أخريات نريد "الحرية". وراحت مارسى تراقبهن وهى مسرورة. نزلت إنتلى من سريرها، وهى تطوى ورقتها. واقتربت من البوابة وهمست للمشرفة العامة على سجن النساء.

"الأول من شهر أكتوبر قادم. هل هناك التماسات بالعفو؟".

ردت عليها السجانة محاولة تحاشى عينيها: "أنت ذكية جدًا يا إنتلى على نحو قد يضر بمصلحتك. لكن أقول إنه لا بد أن يكون هناك عفو. كالعادة". كانت مارسى ذات طبع حسن.

"كيف سيتم اختيار المرشحات للعفو فى هذه المرة؟".

"السلطات هى التى سوف ....".

"لا تقولى ذلك لى يا امرأة. أنت السلطات نفسها، يا مارسي". راحت منتظرات الموت يراقبن الضابطة، محاولات تفسير تعبير وجهها.

"كم الثمن؟".

"قلت لك يا إنتلى أن ذلك سيكون عن طريق الاقتراع. أقول لك إن ذلك سيكون بطريقة الاقتراع".

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة بالفرنسية L'art pour l'art. (المترجم)

"كم يساوى الاقتراع بنعم يا مارسي؟".

نظرتا إلى بعضهما وحدقت كل منهما فى الأخرى.

قالت مارسى وهى حزينة: "أنت تهيننى يا أنتلي". "أنت تعرفين أن النقود ليست كل شيء. ولا حتى عندما يصبح الأمر مسألة حياة أو موت". وتصمت مارسى بعد ذلك.

فهمت السبب الذى يجعل الاقتراع السرى بلا معنى عند النزيلات. لقد حطت الانتخابات من شأن هذه الطريقة من طرق الاختيار. سرت شائعة مفادها أن صناديق الاقتراع تظهر على السطح فى منازل فتوات الأحزاب وقد امتلأت بالفعل بأوراق وبطاقات الاقتراع، وذلك بفعل عملاء الأمن. ومع ذلك يسمون ذلك انتخابات.

"هذا ليس اقتراعًا سريًا على الانتخابات السياسية يا إنتلى، هذه مسألة حياة أو موت سيكون ذلك الاقتراع بوسائل شفافة. أنت تعرفينى. أنا دوغرى وصريحة، وأنا أحاول أن أكون كذلك فى أضعف الأحوال".

حدثت جلبة وضوضاء فى الزنزانة. كانت النزيلات يتحدثن كلهن فى آن واحد. كان اليوم مصادفًا لليلة السبت. كُنَّ حُرَّاتٍ فى الترفيه عن أنفسهن؛ وكانت رئيسة السجانات مختلطة بهن اجتماعيًا، لم تكن النزيلات فى عجلة من أمرهن للذهاب إلى أسرَّتهن. على كل حال، هن كن فى الفراش طول الوقت.

كانت مارسى على هذه الشاكله بصفة دائمة مع السجانين. كانت تنظمهن عند الضرورة، ثم تخفف من قبضتها بعد ذلك. وطالما كن مسالمات وملتزمات بالقانون، كان يجرى تخفيف القواعد الصارمة. فقدان الإنسان لحريته يعد مصدرًا كبيرًا من مصادر القلق. كن ينمن، ويأكلن، ويسترخين، ويتجولن من أجل الحفاظ على الحياة، فى الوقت الذى كانت مارسى تنتظر فيه قيام الحكومة باتخاذ القرار، أو ينتظرن مرور الوقت. فى غرفة واحدة.

صاحت مارسى رافعة قبضة يده اليمنى: "التضامن!".

"مدى الحياة!".

بدأت مارسى كلامها: "أنصتن إلى أيتها السيدات، طالما أن إنتلى لا تود الاستمرار فى الكلام، هيا بنا نناقش ما أقوله أنا. أنا عندى مشكلة".

كانت مارسى كل حين ومين تقدم لهن بعض المشكلات، طلبًا للنصيحة وللحل أيضًا. بعض هذه المشكلات كان خياليًا، والبعض الآخر واقعيًا، وهى مستقاة من حياتها أو من وسائط الاتصال. كانت تلك العملية تبعد أذهان النزيلات عن ورطتهن. كانت تلك المشكلة تتعلق دومًا بمشكلة مارسى الخاصة بالزوج والزوجة والعشيق(*). وقبل أن تستأنف رئيسة السجانات كلامها أعربت عن تلك المشكلة وعبرت عنها.

صاحت سوزانا منادية: "كيف حالكم أيها الرجال mens؟".(**)

صَحَّحَت إنتلى كلام سوزانا: "تقصدين الرجال men وليس الرجال mens" كانت سوزانا تعانى شيئًا من الخلل فى لغتها الإنجليزية. واستعمالها للنحو والقواعد يصعب التّلفُّظ به.

درجت سوزانا على القول عندما يصحح لغتها أحد من الناس: "أنا إيطالية، والإنجليزية غريبة على كما هى غريبة عليكم أيها البشر. لقد تعلمت الإنجليزية".

قالت إحداهن على سبيل التقريع "إذن تعلّيمها تعلُّمًا حسنًا".

كانت سوزانا قد تقدمت فى دروسها الإنجليزية اعتبارًا من زواجها من ذلك الرجل النيجيرى، لكن يبدو أن كل شيء بدأ يذهب الآن أدراج الرياح. يزاد على ذلك أن النزيلات الأميات لم يساعدنها فى هذا الأمر. وقد بدأت سوزانا فى تحسين لغتها الإنجليزية بعد مجيء إنتلى التى بدأت تصحح لها لغتها، وهفواتها اللغوية.

(*) أوردت المؤلفة هذا التعبير بالفرنسية Menage – a – trios والأصل الفرنسى لهذا التعبير هو Menage – a – trios ومعناه "الزوج والزوجة والعشيق". (المترجم)

(**) استعلمت سوزانا كلمة mens بدلاً من men فى صيغة الجمع. (المترجم)

قالت آمن Amen فيما بينها وبين نفسها: "هى ليست بحاجة إلى تعلم هذه اللغة الآن ــ وهى لن تكون بحاجة إلى هذه اللغة".

"أنا عندى مشكلة".

كانت تلك هى الطريقة التى تبدأ مارسى بها كلامها. كانت إنتلى قد أوضحت لها ذات مرة أن الآخر لديه أحلام وليس مشكلات. كانت إنتلى قد تغنت ببعض أبيات قلائل من مأخوذة من "حلم" مارتن لوثر كنج. كانت تلك الأبيات تمثل كل ما تتذكره إنتلى من ذلك الحلم، ومع ذلك كانت تلك الأبيات وثيقة الصلة بالموضوع المطروح.

يراودنى حلم أنه في يوم ما ستتحول هذه الدولة الصحراوية

التى تتورم بفعل حرارة الظلم

والقمع إلى واحة من الحرية والعدل. يراودنى حلم.

بادرت باتسى إلى القول، وهى تتذكر النار الموقدة "لدى أحلام كثيرة".

قالت أولورى: "هذا الذى عندك هو كابوس".

طرقت مارسى القضبان الحديدية: "استمعن أيتها السيدات. انتبهن من فضلكن!" وبعد أن استرعت انتباههن، استطردت قائلة.

"هى كارثة بالفعل ــ العشيق (أ) سافر إلى لندن منذ حوالى ستة أسابيع لحضور دورة من الدورات. وسوف يعود فى اليوم الخامس عشر من هذا الشهر؛ واليوم يصادف اليوم الثانى عشر، انتبهن. وسوف يتطلع إلى المعاشرة، عندما يصل إلى أرض المطار".

"هل تعنين أنه سوف يتطلع إلى المضاجعة؟".

"هذا هو ما أود قوله بالضبط".

"سمِّ الفأس باسمها أيتها السيدة. المجتمع الذى نحن فيه ليس مجتمع الصفوة أو مجتمعًا راقيًا". كان ذلك كلام سوزانا وهى تقهقه.

"وماذا عن العشيق (ب)؟".

"هذه هى المشكلة، لأن العشيق (ب) صائم. لأن هذا هو شهرهم المقدس و....".

صرخت أولورى قائلة: "ياه! أنا لم أعرف ذلك. أنا بدورى ينبغى أن أكون صائمة أيضًا".

"أنت معفاة من الصيام".

"لا، أنا لست كذلك".

"إذن ابدئى من اليوم، الآن. واصلى كلامك يا مارسي".

"سينتهى الصيام فى اليوم الرابع عشر، وهو يتطلع بالفعل إلى .... أنت تعرفين ذلك الذى يتطلع إليه. فماذا أفعل؟" وراحت تنظر إلى النزيلات اللاتى بدا عليهن التفكير فى الأمر.

"التضامن!".

"مدى الحياة!".

قالت إنتلى مرحِّبة: "بماذا تنصحين يا آمن؟".

"أرسليهما إلينا. وسوف نتعامل معهما نيابة عنك، وعندها سينسيانك".

صاحت النسوة فرحات، وهن يصفقن، ويتهللن، ويضربن الأرض بأرجلهن "نعم. أرسليهما إلينا".

لم يكن رد آمن متوقعًا لكنه جاء مناسبًا. هن موجودات هنا بلا رجال منذ زمن طويل. صحيح أن بعض العلاقات الجسمانية تطورت فيما بينهن، لكن الرجل رجل، وهذا هو الشيء الحقيقى.

قالت مارسى متوسلة إليهن: "أنا بحاجة إلى مساعدتكن لى بحق وحقيقة. ساعدونى. قولوا لى ماذا أفعل، من منهما ألقاه أولاً؟ قولى أى شيء يا أنتلي".

بدأت إنتلى كلامها "يا مارسى، أنا أرى أنه ليست لديك مشكلة، لأنك بنيت حساباتك على فرضيات زائفة. وأنت تسلمين بأن الرجل اللندنى غير متزوج، وأنه ينتظرك. وهنا لن تكونى بعيدة مطلقًا عن الحقيقة. أنا أعرف هؤلاء الرجال. فى نفس الليلة التى سيصل فيها إلى لندن، سوف يحصل على فتاة مؤقتة. وربما بدأ ذلك أثناء رحلة الطيران. تقولين إنه سيعود فى اليوم الخامس عشر، تأكدى أنه فى اليوم الرابع عشر، سيكون بين أحضان هذه الفتاة الجديدة، وذلك من قبيل التوديع والذكرى، وعليه أقول: استمرى مع الرجل الصائم. احتفلى معه بانتهاء صومه. عوضيه عن إخلاصه وتقاه".

"هل توافقين على ذلك يا أولوري؟".

"من الذى تريدين أن تكونى معه؟ لو كنت فى مكانك، وأردت أن أكون مع (س) فإننى سأقول لـــ (ص) أنى فى فترة الدورة الشهرية. وبذلك تجعليه ينتظر إلى أن تنتهى فترة الدورة. وهذا راجع إليك".

قالت إحداهن: "الرجال لا يعولون على هذه المسألة، وهم لا يعولون كثيرًا على مسألة الدم هذه".

خطر ببال إنتلى "الدورة Menses. التصريف اللاتينى الأول لهذه الكلمة هو Mensis، وهو أيضًا صيغة الجمع، وصيغة المجرور بحرف الجر ومفعول الأداة، لكن ما هى صيغة الرفع، والمضاف إليه؟

ولولت مارسى قائلة: "أنا عاجزة عن الاختيار؛ لأنى أحب الاثنين".

"هذا مستحيل"؟

"أنصتى إلى بإخلاص؛ أنصتى إلى هذه الأغنية التى ألفتها وأنا فى لحظة الضيق والقلق. أنصتي". ثم تلقى نظرة خاطفة على ساعتها. الساعة تجاوزت

الثامنة. بعد ذلك يتعين على العمل بسرعة. لقد تأخرت. ادرسن مشكلتى وأنا فى انتظار نصحكن لى فيما بعد".

عدّلت السجانة من ذيلها المكرمش (المتجعد) قدر المستطاع، وهندمت نفسها وتنحنحت كى تحسِّن من صوتها. ونظرت إلى جمهورها وكلها ثقة. وبابتسامة على وجهها، وبتحركات مثل تحركات مغنية الأوبرا، انطلقت تغنى تلك الأغنية التى ألّفتها:

قلب المرأة كبير بما فيه الكفاية

واسع بما فيه الكفاية

ليتسع لحب رجال كُثُرُ،

فى آن واحد

لا تسألنى كيف

ولا تسألنى لماذا

أنا أعرف أن ذلك ممكن

بسبب الحب

أفعل ذلك بحق

١-٢ رجل فى المرة الواحدة.

أحدهما يطلب مني

ترك الآخر

والاقتصار عليه

لا أقوى على ذلك، لا أقوى على ذلك بحق

على الرغم من أنى لم أحاول

فأنا أعرف أنى لا استطيع ذلك

أترك عشيقا

من أجل آخر

س يداعب خيالي

ص يُحَقِّرُني

ف ضخم وظريف

ع ينزل إلى الأرض

وعليه لابد من رجل إلى رجلين

رجل إلى رجلين لى أنا مارسي

لأن قلبى ضخم بما فيه الكفاية

وكبير بما فيه الكفاية

أقول لك، أنى أعرف وعليه

يمكن حب رجلين فى آن واحد

تتأدب المشرفة على سجن النساء، وتنحنى إلى حد أن رأسها كاد يلامس ساقيها. ذراعاها كانا ممدودين إلى الخلف. صفقت النزيلات، ضحكن، ورحن يصفرن صفير الاحتجاج والسخرية. وتصيح إنتلى قائلة: أعيدى، أعيدي! تقف مارسى وقفة الانتباه، ويخطر ببالها أن هذا القدر من الترفيه كافٍ لهذه الليلة.

"طابت ليلتكن أيتها السيدات".

صاحت إحداهن "لا تنسى إصبع الموز".

"أو شمعة"

"ماذا حدث لكن، أنا معى قلم".

"القلم رفيع جدًا".

فى تلك الليلة حدث قدر كبير من التأوهات، ومداعبة النساء بعضهن البعض فى الزنزانة رقم (وو١٠).

الفصل الثامن

عشية الرحيل

فى الأسبوع الثانى من شهر سبتمبر أُلقى بالزنزانة (و. و. / ١٠) فى الحزن الشديد. كانت مارسى ستغيب عن السجن، لأن ذلك هو موعد إجازتها السنوية. سوف تغيب عن السجن مدة خمسة أسابيع. أثناء غيابها سيكون جناح النساء من مسئولية كل من السيدتين "ألِيس" "وإيز". غنى عن القول إن الخوف والتوجس بالشر كانا يسودان بين المحكومات بالإعدام.

وولولت النزيلات "لا تنتظرى رؤيتنا مرة أخرى يا مارسى، لأنهم سيذبحوننا مثل الماعز قبل عودتك".

قالت مارسى مؤكدة لهم: "هى خمسة أسابيع فقط. لقد أرسل الرجل الأبيض الذى يدير العمل الحكومى مرسومًا بأن الموظف المدنى من حقه الحصول على إجازة سنوية .... وأنا أفكر فى الزواج. انتبهن فأنا لم أحصل بعد على الرجل، لكن لا ضرر من الاستعداد لذلك. إذا كانت لديكن نصائح لى فإلى بها".

سخرت إحداهن من ماليس Malice "كبا، كبا، كبا، كبا، كبا".

"أنا لم أقل افتحن النار على. وإنما قلت اقذفننى بما عندكن من نصائح".

"أطعن الأمر الأخير".

لم يكن رد فعل النساء مفاجأة للمشرفة العامة على السجون. لقد تألمت من مسألة إفشاء خبر رحيلها المعلق عليهن. فى مرحلة من المراحل كانت تود الرحيل دون إزعاجهن. لكنها استقر رأيها فى نهاية المطاف على إبلاغهن بخبر رحيلها. كانت مسألة الزواج هذه مجرد قصة من قصص الروغان، تهدف من ورائها إلى تشتيت انتباه النساء.

قالت مارسى لمودى: "هل لديك أية نصيحة؟".

"سر الزواج السعيد عندى، هو أن تتزوجى رجلاً يحبك أكثر مما تحبينه".

"أشكرك. وأنت يا آمن؟".

تشير آمن إلى مكحلتها. "تزوجت طيلة سبعة عشر عامًا، قبل أن أفقد رجلى. وطوال كل هذه السنين لا أظن أن زوجى شرد حتى ولا ليوم واحد. السر هنا، فى منطقة التقاء الوركين. أعطنى عصاك. تصورى أن هذه العصا هى مرود رجلك. وهى تستعمل استعمالات مختلفة".

راحت آمن تجرى بعض الحركات العملية مثل وضع العصابين رجليها المفرشختين. وتدليك العصا، وحك العصا، وتجاوز العصا، وتسلق العصا. كانت النساء الآخريات يحيينها: "آمن، آمن!".

اعترفت آمن وهى تستشعر شيئًا من الحرج "الأمر يتعلق بالتنفيذ".

صاحت إحداهن: "حق النشر لك فى هذه المسألة"(*).

قالت الممرضة "هناك تمرينات خاصة بهذه المنطقة أيضًا. كنا فى المستشفى نقول دومًا للأمهات بعد الولادة بأن يتوقفن فى منتصف عملية التبول؛ وأن يحاولن التحكم فى البول ويوقفن انسيابه. وبهذه الطريقة يمكن تقوية عضلات المهبل. وهذا هو ما يطلقون عليه اسم تدريب كيجل".

تواصل آمن كلامها من مكانها "عندئذ وفى منتصف العملية، عندما لا يكون الرجل فى كامل وعيه، قلصى هذه العضلات. أنت تبتسمين. وأنا جادة فى كلامى. لقد أنهيت كلامي".

"أشكرك يا آمن. وأنت يا إنتِّي؟".

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة بلغة خليط من الأجبو والإنجليزية Na your copyright be dot o! (المترجم)

"النقود. الأمر عندى مسألة نقود. هذا هو خط النهاية. أنا لا أقول إنك ينبغى أن تتزوجى رجلاً ثريًا. ولكنى أقول: تزوجى رجلاً يهتم بك الاهتمام المناسب. الحب طفيل من الطفيليات، هذا الطفيل يتغذى على النقووود". قالت هذه الكلمة وكأنها تطيل فى لفظها.

"وأنت يا سوزانا، ماذا عندك؟".

قالت الفتاة البيضاء: "لا تضعى بيضك كله فى سلة واحدة. لابد أن تكون لديك سيارة جانبية".

"صديق حميم".

"صديق حميم حتى إذا ما بدأ يسيء التصرف معك، وأنا متأكدة من ذلك تمامًا، وأنه سيحدث عاجلاً وليس آجلاً، لا يؤدى ذلك إلى تحطيم قلبك. تلك كانت غلطتى. كان ينبغى أن يكون لى عشيق. وبهذه الطريقة، عندما ....".

"وأنت يا أولوري؟".

"إذا أردت لزوجك أن يبقَ إلى جوارك فترة طويلة، فأنا أوصيك بالاهتمام بمعدته. لأن المسافة بين قلب الرجل ومعدته قصيرة جدًا".

أكدت الممرضة: "هذا كلام صحيح، من الناحية البيولوجية فى أضعف الأحوال".

"غذيه جيدًا. تعلمى طهى أطباقه المفضلة وأعديها له. ثم، عودى بعد ذلك إلى نصيحة آمن".

"ماذا عندك يا باتسي؟".

أوردت القسيسة اقتباسًا يقول: "العائلة التى تصلى مع بعضها تبقى مع بعضها".

قالت إحداهن: "لا يهمك ما تقوله. أين السيد القسيس الآن؟ لماذا هرب الرجل؟"

"أشكركن يا بنات. وأنت يا بنتا ماذا عندك؟".

"تسألينى عن الزواج. لن أكررها ثانية! أليست هناك خلطة أو وصفة للزواج السعيد طويل الأجل. المسألة تعتمد على المصادفه، على الحظ. إذا أردت اطبخى له من الصباح إلى الليل، ومارسى معه المعاشرة الجنسية من الليل إلى الصباح، ومع ذلك سيظل الرجل شاردًا. وهذا هو رأيي".

ردت عليها ضرتها "أنا اتفق معها. ليس هناك سر للزواج الجيد. فإما يكون عن طريق الحظ أو عن طريق الصبر. أنت تتعلمين الحياة من خيبات الأمل والإحباط، وأوجاع القلوب خلاصة القول، سر الزواج هو الفاليوم (المسكنات).

صاحت المشرفة العامة على السجون قائلة: "نحن لا نستطيع فعل ذلك لأن الموت يعفو عن الحرب. هذا يعنى أننا يتعين علينا الاستمرار فى الزواج على الرغم من عيوب هذه المؤسسة. انظرى إلى. إن لى تجربة سيئة فى الزواج لكنى على استعداد للمحاولة والتجربة مرة ثانية".

كررت بنتا قولها: "أنا شخصيًا، يستحيل أن أتزوج مرة ثانية. الرجال لديهم الكثير من العادات المزعجة. لكن قولى لنا، يا مارسى، من أى وغد تتزوجين؟"

ردت عليها السجانة: "بأمانة أنا لم أعرف بعد". كان الزواج لعبة كانت السجانة تلعبها معهن. لـم يكن لديها أى عـرض بالزواج، لكنها كانت بلا حول أو طول. وهى تلعب دور المحاكاة طلبًا للتصديق.

"كلاهما أعطانى إنذارًا ينتهى أجله بانتهاء هذا الشهر. وعليه عندما أغادر هذا المكان أعرف أنى سوف أتزوج واحدًا لكن أيهما الأصلح، هذا ما لا أعرفه".

تثاءبت إحداهن: "كم أنت محظوظة!".

"قدميهما لنا، واسمحى لنا بدراسة مزاياهما وعيوبهما". صدر هذا الكلام عن أنتلّى. "لاحظى يا أنتِ، أن العلم يمكن تطبيقه على أية منظومة من المنظومات، أنا أعنى بذلك التحرى العلمى. الزواج ليس استثناء من هذه القاعدة. قدمى لنا الخطيب الأول".

"تغيرت الأسماء كلها، إيه".

"إن أردت، على الرغم من أن هذا ليس أمرًا ضروريًا. ولن نلقاهم مطلقًا، هل نفعل ذلك؟"

"لا، لن نفعل ذلك!".

"لا تنسى أننا على وشك الموت".

قالت باستور: "حاش لله. أنا سوف لن أموت لكنى سأحيا".

لم تشعر مارسى بالارتياح. أحست أنها كانت تخدع رَجُليها، فهى تناقشهما علانية، وبلا غطاء مطلقًا، لكن لماذا التنكير، ولما تخفين شخصيتهما؟ لم يكن محتملاً لهما عبور مجازات هؤلاء النساء المحكوم عليهن بالإعدام.

كانت أولورى تود أن تعرف "ماذا عن الحجم؟".

"هل تعنين حجم ......".

"لا، أنا لا أعنى ذلك. أنا أعنى حجم جسمه".

تلت ذلك مناقشة لهذا المعيار. قالت بعضهن أن الحجم لا يعد أمرًا ضروريًا. الرجل يمكن أن يكون ضخمًا أو صغيرًا أو طويلاً أو قصيرًا، وهذا كله لا يعنى، أما أن كنت تعنين شيئًا فتلك لعبة أخرى من لُعب الكرة.

صاحت أنتلى فيهن: "عارٌ عليكن يا بنات. كيف تقلن أن الحجم لا يهم؟ هذه هى مارسى، ضخمة، وطويلة، وقوية. فهل ينبغى أن تتزوج قزمًا أو رجلاً نحيفًا؟

هل سيشهد هذا النوع من المنازل السلام والهدوء؟ سيتكون عند الرجل مركب نقصٍ له حجم صخره زوما. هل يمكن أن تتحملى ذلك يا مارسي؟ الحجم مهم".

"هذه صفقة كبيرة! لكنى أرى أنك على صواب. أوبد obed كبير الحجم على أى حال، وهو أطول منى، ووزنه مثل وزنى مرتين. وأنا لا أجد أية مشكلة فى ذلك. المشكلة تتمثل فى أن فيه عادة سيئة واحدة".

قال صوت جهورى: "خصلة واحدة! أنت حظيظة!".

كان الجميع يُنصتن إليها بانتباه، وهن يراقبن كبيرة السجانات وهى تحكى قصتها.

"هو لا يزال يستعمل المبوله إلى الآن!".

"ما هذا الذى تقولينه!".

"هو لا يزال يستعمل "القصيرية!".

"كم عمره؟ خمسة، عشرة؟".

قــالت مــارسى "أنا جادة فيما أقول، يا باتسى. عمره ثمانية وأربعين عامًا أو نحو ذلك. وهو لا يزال يستعمل المبوله أثناء الليل. لا يقوى على المشى إلى الحمام. يقول إن ذلك يزعج نومه".

" يتعين عليه ارتداء حفاضة أثناء الليل. فى إيطاليا توجد حفاضات للكبار وهى من نوع خاص".

ذكّرت واحدة من الحاضرات الفتاه البيضاء "نحن هنا، ولسنا فى إيطاليا". قالت الممرضة ونمى متعجبة "قد يكون خائفًا من اللصوص".

"لا. إنه يعيش فى منزل. وغرفة النوم الرئيسية ذاتية، هى عبارة عن جناح".

"ومع ذلك يتحتم عليه استعمال مبولة؟"

قالت مارسى "ليس بالضرورة أن تكون مبولة، فقد تكون دلوا أو سلطانية، أى وعاء معقول الحجم".

أطالت النساء النظر إلى السجانة. أحست المشرفة العامة على السجون بشيء من الضيق. استأنفت شرحها، وهى غير قادرة على التوقف.

"فى الصباح يتعين على، إفراغ محتويات تلك المبولة، والغائط وكل ما إلى ذلك".

قالت أنتلّى: "مهلاً. ولم يطلع الصبح بعد. أين تخزنون ذلك ألإف، وذلك المورد المعدنى إلى أن يطلع النهار؟".

"تحتفظ به فى الغرفة بجوار السرير، حتى يمكنه الوصول إلى المبولة من فوق الوسادة (المرتبة)".

"هل هو أمي؟".

"لا".

"هل هو معاق بَدَنيًّا؟".

"لا".

"ألا تنبعث رائحة من تلك المبولة؟".

"رائحة سيئة".

"قلت لك إن الزواج ليس لي". قالتها مكررة كلامها مرة ثانية، وبصقت على الأرض وراحت تطرقع بأصابعها. "تحملين الكاكا" على حد قول رجال الشرطة".

أبدت إحداهن ملاحظة: "بعض النساء أيضًا مذنبات فى هذا الصدد".

"نحن نتحدث الآن عن الرجال".

"ونحن نشتكي من هذه الرائحة النفاذة التي في زنزانتنا". وهنا اتجهت الأنظار كلها إلى جردل المخلفات الموجود في ركن من أركان الزنزانة.

"حاش لله!".

"تقولين: "حاش لله"، ألم يسبق لك العيش في ليجوس؟" قالت نيرس ذلك وهي تلمس أولوري على كتفها. "انتبهي، لقد درجت على العيش في أورايل Orile. في كل صباح يصطف المستأجرون على شكل طابور خارج دورة المياه. وإلى جانب كل شخص من الأشخاص الكبار توجد مبولة مليئة بالمخلفات، ينتظر إفراغها في واحد من الدلوين الكبيرين العامين اللذين يتقاسمها أو يشترك فيهما المستأجرون. مبولة مستخدمة أثناء الليل، داخل غرف النوم، بواسطة الكبار. وعليه يجب ألا تتصرفي وكأنك لا تدرين شيئًا عن ذلك".

"هذا لا يحدث في أوراويل وحدها. إنما يحدث في كل الأماكن الأخرى، ألم تسافري إلى أجنجول، وألوري، وباريجا؟ وماذا عن أوشودي، وموشن، وإيجورا؟".

سألت أنتكي وهي تدون بعض الملاحظات "هل هناك شيء آخر لا يعجبك في أوبيد Obed؟".

"إنه يشخّر".

"بوسعك أن تكون لك غرفة مستقلة. هذه مشكلة يمكن حلها". جاء ذلك التعليق من مودي.

"هو لا يشخر الشخير العادي. إنه من النوع الشبيه بالعزف على الآلات الموسيقية. تصدر عن قصبته الهوائية شتى الأصوات عندما يكون نائمًا".

قالت أنتلي: "هل يصفر، هل يكون مثل الترمبون، أم مثل البوق؟" وراح قلمها يتحرك على ورقة الأسمنت الموجودة على راحة يدها.

"هذا ما يحدث بالضبط".

"أنا أعرف هذا النوع من الرجال".

نصحتها ستاف: "اطلبى منه النوم على بطنه، ولن يشخّر بهذه الطريقة".

"بطنه كبير جدًا ولا يمكنه النوم عليه فترة طويلة".

غطى الصمت الغرفة. ترى أهذا حال ميئوس منه؟ كانت مارسى تواسى نفسها وتشفق عليها. أيها الشريف المسكين، هل أنت بحق بهذا السوء الذى صورتك عليه؟

"نصحنى والدى ألاَّ أتزوج مطلقًا من رجل يأتى هذه الأشياء الثلاثة" قالت المرأة البيضاء وهى تحصى تلك الأشياء على أصابعها: "الذى يضرب زوجته، والذى يفرط فى الشراب، والذى يقامر".

كانت سوزانا تمتع نفسها: "هل أبيدنا يفعل شيئًا من هذه الأشياء الثلاثة يا حبيبتي؟".

"إنه يقامر: يشارك فى الصناديق .... يدخل فى المراهنات".

تعلن أنتلى: "إذن لن يصبح رجلاً ثريًا". وراحت تفرد ذراعيها "اسمعن، أنا لا أعرف شيئًا عنكن، لكنى أدين هذا الأوبيد".

قالت مارسى وهى ترفع صوتها فى محاولة منها لقول شيئ طيب فى حق عشيقها رقم (١) "إنه ثرى، وهو مقاول حكومي".

خطر ببال أولورى أن أوبيد مثل ديلى Dele.

قالت أنتلى فيما بينها وبين نفسها، هذا حسب ما ورد فى أطروحتى.

"أيتها المرأة، أنت تتكلمين الآن. هل لديك أشياء أخرى عن هذا الرجل؟".

"يستطيع الأداء".

مع هذا التوضيح دار الصخب فى الزنزانة. راحت النسوة يصفقن، راح بعضهن يضربن الأرض بأقدامهن، فى حين ذهب بعض ثالث إلى السور الحديدى ورحن يهزنه وهن منفعلات. حذرتهن الضابطة بالتزام الهدوء.

"الآن، أنتن تتكلمن بحق الآن".

"التضامن!".

"مدى الحياة!".

صاحت أنتلى قائلة "النظام !".

قالت لمارسى: "إذن أنت تعيشين مع هذه المتاعب من أجل تلك المتعة التى تدوم دقائق قليلة؟".

"أنتلى أقول لك، إنها ليست دقائق معدودات، إن بوسعه الاستمرار ساعات".

رحن ينظرن إلى بعضهن البعض، ويبتسمن وينسين همومهن بصورة مؤقتة. وراحت واحدة منهن تهرش مكحلتها، فى حين راحت واحدة أخرى تهرش تحت إبطها.

تدخلت نيرس "أقول لكن إن السبب فى ذلك هو الفياجرا. كثير من النيجيريين يتعاطون الفياجرا مدى الحياة، طلبًا لجودة الأداء، بما فى ذلك الشبان الصغار".

قالت المتحدثة: "سعة، المبني" لم تفهم الأخريات النكته لكن أنتلى راحت تضحك فيما بينها وبين نفسها.

"وهو كذلك، هل لديكن نقاط أخرى طيبة عن "أوبيد Obed؟".

"إنه ثري".

"لكن هل هو ليبرالى أم ممسك؟ بعض الناس يكونون أغنياء لكنك لا ترين نقودهم".

"ليبرالي".

"أعود إليكن أيتها النساء. هل لديكن ملاحظات أخرى؟".

"نعم. هل لا تزال أمه على قيد الحياة؟".

"هل هذا مهم؟"

"هذا مهم بطبيعة الحال ألا تعرفين الحموات؟ بوسعهن إصلاح أو تكدير صفو الزواج".

"أنا لست متأكدة من ذلك لكن أظن أن والدة أوبيد متوفية".

"هذا بحد ذاته يساوى عشرة نقاط".

قالت مارسى متعجبة "عار عليكن يا نساء أن تفكرن على هذا النحو، وأنتن كلكن نساء وحموات مستقبليات". وتهز رأسها ببطيء مرات متكررة "عار عليكن".

"زوجات أبنائنا محظوظات. نحن لا نريد أو نبغى أن نكون معهن حتى لا نزعجهن" أبدت إحداهن هذه الملاحظة على أنها تحصيل حاصل.

"هل آن موعد التصويت؟".

ردت أنتلّى "ليس بعد، ليس بهذه السرعة، يا أولورى. فى ظل الديمقراطية يتحتم أن تكون هناك خيارات. لا عليكن من مسألة الحزب الواحد التى تتولاها الحكومة. أيتها السيدات، هيا بنا نسمع الآراء فى المرشح الثانى. ما اسمه؟".

كتبت إنتلّى "إسمه داود موسباو Musbau".

قالت سوزانا وهى تتهكم: "أتمنى أن لا يكون دقة قديمة أو جبان فى ضوء اسمه هذا".

"واصلى كلامك يا مارسى. أنت تعرفين العناوين الرئيسية التى ندرس تحتها كل حالة من هاتين الحالتين".

"فيما يتعلق بالحجم، فهو متوسط الحجم؛ ليس فارع الطول أو متين وليس قصيرًا أو نحيفًا. أستطيع القول: إنه متوسط" ثم نظرت إلى ساعتها. نحن الآن نبعد عشر دقائق عن موعد إطفاء الأنوار. "الشيء الذى لا يعجبنى فيه، أنه كثير الكلام. بوسعه أن يتكلم ساعات طوال دون توقف".

"ألا يستطيع الغناء أيضًا، وبذلك لا تكونين بحاجة إلى جهاز راديو؟" جاء هذا السؤال من سوزانا.

"نحن لا نمزح يا سوزانا".

"عن أى شيء يتحدث؟".

"يتحدث عن كل ما يمكن أن يخطر لك على بال، وهو فى عمله الحالى منذ العام (١٩٠٠) الميلادى، ولا يزال لديه حذاؤه الأول، ما الذى حققه، هو فى الحكومة. إذن هو ينصحك فى نهاية المطاف. وهو يعرف المواضيع كلها. وهو يحتكر الحوارات لنفسه، ولا تستطيعين أن تشاركى فيها بكلمة واحدة. وأنا قد لا أطيق ذلك فى بعض الأحيان".

"لابد أنه مُمل".

"هو بحاجة إلى امرأة صمّاء".

"أنت بحاجة إلى مسكن الفاليوم".

"كنت أحسب أن النساء فقط هن الثرثارات".

"اسمعينى، أنت لم ترينا شيئًا. بعض الرجال عبارة أجهزة راديو بالفعل؛ هم ينتقلون من شيء إلى آخر، وهلم جرا. هم لا يريدون للطرف الآخر أن يتنفس".

"هل لديه أية عادات سيئة أخرى؟".

"نعم. إنه كذاب. أعنى بذلك أنه يكذب من أجل متعة الكذب. وهو يحكى لك اليوم شيئًا، ثم يجيء فى اليوم التالى ويحكى شيئًا آخر؛ كل ذلك عن ماضيه وعن

أسرته. واقع الأمر أنى لا أعرف الذى يمكن أن أصدقه؛ لديه الكثير من أنصاف الحقائق هنا وهناك".

"انتبهى، الشخص كثير الكلام لابد أن يكذب".

"هذا صحيح".

"ما هى مميزاته، إن كان له مميزات؟"

"إنه كريم. فقد اشترى لى السيارة التى أستعملها. وهو يشترى لى الهدايا، ويعطينى نقودًا، لكنها ليست كثيرة.... وأنت تعرفين ذلك".

"هل يشرب أو يقامر؟".

"نعم. يفعل الشيئين. وهو يشرب شـــربا اجتماعـــيا، ولا يبـــالغ فى الشراب أو يفرط".

"والدته: أهى حية أم ميتة؟".

"هى حيّة".

"ناقص عشر نقاط".

تساءلت المتكلمه "حسن أيتها السيدات، ما رأيكن؟" وراحت تتنقل ببصرها من واحدة إلى أخرى.

"ماذا عن الإدارة الأخرى؟ هل يجيد الأداء؟ تساءلت آمن.

"هو لا يجيد الأداء تمامًا".

"ناقص عشر درجات أخرى".

"هل يُطيل؟ وهل هو من الذين يمهدون؟".

"إنه كذلك، لكن أفضل ألا يفعل ذلك. فهو يضغط على الحلمات ضغطًا شديد وهذا يؤلم. شعر عانته خشن، وهو ليس نظيفًا من أسفل....".

أتمت أولورى كلام مارسى "تقصدين قطاع المجرى السفلي" ورحن يضحكن جميعهن.

"هل هو ميكانيكي؟".

"أليس فلاحًا؟".

كانت واحدة منهن تود أن تعرف "وماذا عن فم العضو؟".

"هو يقول: إن هذا ليس فى دينه".

"كذّاب".

"هل حاولت تعليمه؟".

"لقد استعملت الإشارات، والعجائب لكن يبدو أنه لا يفهم". قالتها مارسى وهى تبدو بلا حول أو قوة.

كررت سوزانا وهى تضحك فيما بينها وبين نفسها "إشارات وعجائب. هل أنت نبية أو شيء من هذا القبيل؟ استعملى فمك ويدك لتريه، لا؟"

"لا أقوى على ذلك. سيؤذى ذلك مشاعره".

قالت سوزانا: "هذا هو الخطأ الذى تقع فيه سيدات كثيرات". كانت تقول ذلك بجدية تامة "يكون لديهن رجل لا يعرف كيف يؤدى وهن يعانين فى صمت، يوتوبيا زائفة. يتعين عليك أن تُريه الخيط".

صححت أنتلى كلامها "تقصدين الخيوط".

أنهت سوزانا الكلام "..... أو الباب".

قالت ستاف موافقة "هى على حق. انتبهى ليس هناك سبب يمنع المرأة من الوصول إلى الذروة فى كل مرة تلتقى فيها رجلها....".

قالت أنتلى وهى تحاول الإمساك بلسانها: "أو امرأتها ....".

ضربتها أولورى برفق على كتفها، وداعبتها: "أنت غيرانة".

قالت المتكلمة لزميلتها: "انتبهى، اليوتوبيا ليس لها وجود فى أى مكان. كان السير توماس مور.....

قالت الإيطالية فى إصرار: "اليوتوبيا موجوده ـــ إنها موجودة فى غرفة النوم". ثم تنفجر ضاحكة بعد ذلك.

واصلت نيرس كلامها "هناك ألف وسيلة ووسيلة. إذا كان فى شك، وجب عليه أن يسأل".

قالت سوزانا: "يجب عليه أن لا يتنصل من مسئولياته".

قالت الجامعية مصححة الكلام: "تقصدين Shy، وليس Shine". كان يبدو عليها الإحباط "انتبهى إلى لغتك من فضلك".

قالت سوزانا قبل أن تتحول إلى أنتلى: "يجب أن لا يسلم بأنه يفعل الشيء الصحيح" "لغتى لا تضايقنى طالما أن النـــاس يفهمون ذلـــك الـــذى اتحدث عنه، أو أحاول قوله".

"والمرأة ينبغى عليها أن تُعلّمه. وإلا فإنها تكون مقصرة فى حق نفسها".

سألتها بنتا وهى تعدل أسمالها: "هل لابد لك من الزواج؟" كانت بنتا حتى وهى فى السجن ترتدى ملابس من النوع الذى ينص عليه دينها "لأنى لا أرى أحدًا من الرجال يرقى إلى مرتبة الزواج. كلاهما مخطئ. وخطآن لا يصنعان صوابًا".

قالت زعيمة النساء لنفسها: الوقت يمر(*) "أنا فى الأربعين من عمرى هذا العام. ولابد من الزواج لأن الوقت يمر.

"قول من هذا؟".

"إنها أمى. تحذرنى طول الوقت. تود أن يكون لها أحفاد".

(*) ورد هذا التعبير باللغة اللاتينية: Tempus Fugit. (المترجم)

قالت الشخصية الجالسة على السرير: "أنا قتلت أمي".

توقف الحوار كله.

"أنا قتلت أمي!".

كانت المتحدثة أومو. وكانت تمسك خنجرًا خياليًا، راحت تطعن به الهواء مرات ومرات. كانت العيون كلها قد تسمرت على هذه المرأة متغيرة الشكل. كانت عيناها تحمل نظرة تدل على الجنون، مليئه بالحقد، والغضب والتحدى. مطّت شفتيها، ورفعت ذراعها وطعنت أمها مرة بعد أخرى، وراحت تتباطأ تدريجيًا، وربما كان ذلك بسبب استسلام الضحية للعدوان فى داخل ذلك المعطل المعتوه.

تلا ذلك صمت مؤقت. ثم تكلمت نزيلات كثيرات فى آن واحد.

"هذه المرأة، ينبغى أن لا تكون هنا، فمكانها المستشفي".

"ما قصتها؟ ماذا فعلت؟" لم يكن أحد منهن يعرف سوابق هذه المرأة. تطوعت ستاف بتنويمها تنويمًا مغناطيسيًا، لكنهن خفن لأنها تتحدث لغة لا معنى لها، لا يفهما أحد.

نظرت مارسى إلى ساعتها. لقد تجاوزت الساعة موعد إطفاء الأنوار، ويتعين عليها قطع واختصار إفراطها مع النزيلات؛ وإلا قد تعلم الرئاسة بذلك وتعاقبها عليه. هى تعرف أن زميلات لها غاضبات من أُلفتها وتبسطها مع النزيلات وصداقتها معهن فى العنابر. على كل حال، طالما أن عملها هو والأمن لا يعرفان الحلول الوسط، فهذا أمر طيب، ولن يكون هناك من يجأر بالشكوى.

هدأت البنت المجنونة. لفتت المشرفة العامة على السجون انتباه النزيلات إلى المهمة الرئيسية التى يتعين عليهن القيام بها قبل الانصراف.

قالت المتحدثة "هل ندلى بأصواتنا؟".

كانت سوزانا قد صوتت لصالح داود قبل الإجماع.

قالت أولورى "أنا أصوت لصاح أبُيد obed" وهى ترفع ذراعها إلى أعلى.

"أنصتن إنسين، أوبيد، وداود، أو داودا".

قالت أنتلى وهى تؤنبها: "أنت مسئولة حكومية خالصة، وبالتالى فقد خرقت عملية الانتخاب".

قالت مارسى: "هذان الرجلان غير حقيقتين، إنهما من ابتكار مخيلتى وخيالى. انتبهن. اليوم الأول من شهر أكتوبر قادم. جرت العادة أن نحصل على ما يسمى العفو أو العفو الدولى الخاص بالدولة نفسها. أنتن جميعًا تعرفن ذلك حق المعرفة. بعضكن فعلن ذلك من قبل. هذا يعنى أن واحدة أو اثنتين منكن سيجرى العفو عنهما. فى العام الماضى لم يجر اختيار أية نزيله من نزيلات سجن النساء على الرغم من التوصيات التى تقدمنا بها للسلطات. أنا السلطة على حد علمكن. سوف أرفع الأسماء لرؤسائى. أنتن جميعًا صديقات لى. وعليه قررت أن نفعل ذلك عن طريق الاقتراع. ليس هناك طريق آخر للقيام بهذه العملية. أم أنكن تردن تسمية نزيلات بعينهن؟".

صحن كلهن "أنا أعُين نفسي!".

كانت مارسى قد توقعت ذلك الذى حدث. فى المرة الأخيرة أتت النزيلات هذا التصرف نفسه، وراحت كل واحدة منهن تسوق أسبابًا غبيه تبرر أن تكون هى الحاصلة على هذا العفو: أبنائى لوحدهم، والداى كبيران فى السن. عند البعض منهن، كان الثأر هو السبب، كانت أنتلّى تود تصفية الحسابات مع ناسها الذين ظلموها، وتحصل أيضًا على نصيبها من عائد صفقة السيارة الجولف.

"لقد جهزت أوراق الاقتراع. وما عليكن سوى الاختيار. لا تفتحن الأوراق. التقطن الأوراق وأعطيننى إياها. وسوف أقوم بتسجيل حظوظكن فى دفترى. ثقن أن هؤلاء اللاتى ستكتب لهن الحياة سوف يجرى تصعيد أسمائهن إلى الرؤساء. سوف أقوم بإعداد المذكرة المصاحبة لتلك الأسماء. إياكن والإفراط فى التفاؤل.

أرجوكن، المسألة ليست آلية أو ميكانيكية. الرئاسة سوف يتعين عليها القيام بعملية الفرز النهائية قبل إرسال القائمة إلى لجنة العفو الحكومى، التى ستقوم بإرسالها إلى السيد/ الرئيس الذى سيقوم بدوره بتقديمها إلى المجلس التنفيذى الفيدرالى. وأنا ما على هنا سوى أن أبدأ هذه العملية. هل فهمتن ما أقول؟".

"نعم!" كن كلهن ثملات فى هذه اللحظة.

طرحت النزيلات أسئلة: "كيف سنعــرف النتيجة؟ ومتى ستغادر المحظوظة أو المحظوظ هذا المكان؟ يجب ألا يغيب عنك أنى لم أحصل على ذلك فى العام الماضي؛ لكن ماذا عن هذه المرة؟".

"أيتها السيدات، لو كان الأمر بيدى، لفتحت بوابة هذا السجن وجعلتكن تذهبن لحال سبيلكن. أنتن. تعرفن ذلك جيدًا. إنه النظام. أنا أقوم بواجبى أؤدى عملى، أنا أرفع للريس وهو الذى يقرر. وأنتن تعرفن ذلك أيضًا".

جثت زوجة القسيس فورا على ركبتيها، وبدأت تصلى طلبًا للفضل. فردت ذراعيها إلى أعلى وراحت تنشد:

خلّص بولس وسيلاس.

خلص بولس وسيرس،

ربّى، وهو خلّص بولس وسيلاس

من المؤكد أنه سيخلصنى.

أحدثت سوزانا إشارة الصليب، وجثت على الأرض وانضمت إلى الداعية. وشاركن كلهن الواحدة بعد الأخرى فى أداء هذه الترنيمة العاطفية، وأذرعهن مفرودة ورؤسهن تهتز تعبيرًا عن التقوى. وتحدث أثناء الدعاء لحظة من لحظات التذكر. بينما كن يدعين، قامت مارسى بهدوء بإحضار الأوراق المطلوبة ووضعتها فى جيوبها المنشاة. كانت المرأة البيضاء أول الواقفات. أحدثت علامة الصليب على نفسها من جديد واقتربت من الأوراق المطلوبة الموضوعة فى كف الضابطة. وقبل لحظات من التفاف أصابعها حول العقدة البيضاء ترددت.

"هل تعتقدن أنى ينبغى أن أختار؟ ألا يجب على الانتظار لحين حضور المسئول القنصلي؟ وبالتالى أعطى فرصتى للنزيلات الأخريات؟

أشارت بحركة من يدها إلى زميلاتها النزيلات.

ردت عليها سوزانا متعاطفة معها: "الأمر يرجع إليك يا سوزانا. افعلى ذلك الذى ترين أنه فى صالحك".

تحمست النزيلات كلهن، واصطففن خلف سوزانا، ورفعن أيديهن متضرعات. دعت المسيحيات منهن قائلات "بحق يسوع"، ودعت المسلمات قائلات: "باسم الله الرحمن الرحيم". ورحن الواحدة بعد الأخرى يخترن ورقة، ويسلمنها فى صمت إلى مارسى، التى كانت تفتح هى الأخرى الورقة المطلوبة، ثم تكتب اسم من ناولتها الورقة. لم يرتسم على وجهها أى تعبير من التعبيرات، أثناء قيامها بتسجيل النتائج. على غير علم من النزيلات كانت أولئك النزيلات اللاتى لم يشاركن فى اقتراع العفو، يحملن أرقامهن فى طابور الذاهبات إلى غرفة الإعدام. بعد ان اقترعت النزيلات كلهن، قامت المشرفة العامة على السجون بالاقتراع نيابة عن المراهقة المجنونة.

تناولت آمن الرقم واحد. وجاءت أومو بعدها تحمل الرقم اثنين ثم جاءت بعد ذلك كل من سوزانا وأنتلى. كل واحدة منهن فيما عدا اثنتين منهن، كان لها مكان على طريق الخلود. لم تكن أية واحدة منهن تعرف ذلك. كانت مارسى هى الوحيدة التى تعرف حقيقة الموقف، وهى تسير مكتئبة عائدة إلى مكتبها. سوف تكتب تقريرها قبل قيامها بإجازتها السنوية. وفى يوم الاثنين، ستقوم الضابطة التى حلت محلها، بإرسال هذا التقرير.

سوف تتغيب المشرفة العامة على السجون مدة خمسة أسابيع. وعليه كانت هناك أشياء كثيرة تحدث. كانت تعرف أن ذلك لم يكن أفضل أو أونسب وقت للتغيب، لكن كشف الإجـازات يجرى إعـداده مع بداية العـام، وأن كل ضابطه

أو ضابط يتعين عليها أو عليه القيام بالإجازة عندما يجيئ موعدها. خمسة أسابيع ليست بالمدة الطويلة فى ظل الظروف العادية، لكن فى هذه الدائرة، كانت الإجازة طويلة. هناك أشياء كثيرة يمكن أن تحدث خلال هذه الأسابيع الخمسة.

وحدثت أشياء كثيرة بالفعل.

* * *

فى عصر أحد الأيام

عادت بردجت من السجن الانفرادى بعد قيام مارسى بإجازتها. ولهذا السبب لم تشارك بردجت فى الاقتراع الخاص بمسألة العفو. ومن حسن الحظ أنها لم يكن لها مكان فى طابور غرفة الإعدام. هذا يعنى أنها أمضت خمسة أيام تحت الأرض.

لم يكن سجننا انفراديا بمعنى الكلمة، على الرغم من تسميته بذلك الاسم. لم يكن هناك مكان للسجن الانفرادى فى سجن فريمان فورت. كان المكان ضيقًا. كانت النزيلات المتمردات يجرى إلقاؤهن فى زنزانة نصفها تحت الأرض، والنصف الثانى تحت مستوى سطح البحر. كان الماء فى تلك الزنزانة يصل إلى ركبتى المسجون. كانت الفئران، والسحالى، والفراش يستأجرن جزءًا من هذه الغرفة (الزنزانة). كانت الفئران تهجع فى ذلك المكان أثناء النهار. كانت الفئران تسطح نفسها على الجدران مثل المراوح الشرقية. كانت ثعابين الماء شائعة فى هذا المكان وهى تطارد الضفادع بغية افتراسها، وأكلها.

من سوء الطالع، وبسبب نقص الأماكن فى السجن، كانت تلك الزنزانة تستخدم سجنًا انفراديًا لقسمى الذكور والأناث. وعندما جرى اقتياد بردجت إلى هناك ويداها فى (الكلبوش) كان فى الزنزانة ثلاثة نزلاء فى السجن "الانفرادي". وبذلك تتحول عقوبة الرجال إلى وليمة.

أُعيدت بردجت إلى الزنزانة (وو١٠) ww10، وهى شبه ميتة. لم تستطع الوقوف أو المشى. كان يتحتم سحبها بين اثنين من السجانين. كانت رجلاها تجرجران كما لو كانت عروسة مصنوعة من القماش، ويجرجرها رجل يمشى بخطى قصيرة. كانت ترتعد بفعل البرد. كانت بشرتها شاحبة؛ تحول شعرها إلى اللون الرمادى. كان الضابطان المصاحبان لها قد وضعاها مثل جوال من البصل فى ركن من الأركان، حيث انهارت وراحت تتأوه وهى تمسك بفخذها.

قالت حبيبة وهى تعيد قفل بالبوابة الحديدية بالسلسة: "إذا ما سمعتك تتحدثين عن الهرب مرة أخرى، فسوف أكسر لك فكًا من فكيك. أتودين وضع الرمل فى طعامى؟"

فى تلك الليلة، وإظهارا للتضامن، قامت رفيقات الزنزانة بإعطاء ثريد الغداء لبردجت. وكن يتناوبن على تدليك جسمها الذى يؤلمها. كان بعضهن يغنين لها، وبعض آخر منهن كن يواسينها.

قلن لها: "لقد انتهت الغُمَّه. وبقيت على قيد الحياة. عليك الآن بارتداء ثياب الصبر".

راحت أنتلى تنظر إلى الشكل الملقى على الأرض، وأطالت النظر إليه. وعندما التقت عيونهما تأكدت أن روح الفتاة المعنوية لم تخفض أو تتحطم، وأنها أصبحت تطمح أكثر من ذى قبل، إلى الفكاك. وهنا تداعت إلى ذهنها أغنية شعبية كانت تتغنى بها أيام الجامعة:

منظومة بابليون خفاش

يمص دم من يعانى

تمردوا ، تمردو ، تمردوا

الفصل التاسع

كان السيد/ سولى مستخدما فى وزارة الداخلية؛ فى وظيفة رجل يقوم بأعمال مختلفة من الفئة (١) براتب من مستوى الدرجة (١٠٣). ونظرًا لصغر حجم هذه الوظيفة لم يتعين تمريرها أو اعتمادها من خلال لجنة الخدمة المدنية الفيدرالية التى تختص بعملية التوظيف بدءا من الدرجة (١٠٧) فما فوق. وكلمة handyman التى تعنى "رجل يقوم بأعمال مختلفة" ليست سوى استخدام رقيق عوضًا عن كلمة "الجلاد" executioner. وجرى توثيق مستندات السيد/ سولى والتصريح له ببدء عمله.

ذات صباح، وفى وقت أبكر من الوقت المعتاد، سُمع وقع أقدام ثقيلة تمشى أثناء سكون فترة الفجر، الأمر الذى أدى إلى إيقاظ روح النزيلات. زيّقت البوابات من ناحية قسم الذكور وكان صوت ذلك التزييق يأتى عبر الفناء، ثم ينكتم بعد ذلك. وسمع صليل السلاسل الحديدية. استحوذت على المكان صرخة حادة تقول أمّاه ، أمّاه(*). معروف أن الإنسان عندما يواجه الموت ينادى باسم من أنجبه وجاء به إلى هذه الحياة. أيقظت تلك الصرخة الأرواح النائمة وأدت إلى سريان قشعريرة الخوف بين كل من سمعتها. لقد انبعث الموت، مثل حوت لوياثان(**)، قادمًا من مرقده.

داخل الزنزانة (١٠وو) ww10 كانت النزيلات ينظرن إلى بعضهن البعض نظرة خوف وفزع، وهن عاجزات عن التعبير عن شكوكهن ومخاوفهن. سمعت أنتلى تلك الصرخة وارتعدات هى الأخرى. هذا يعنى أن الرجل جرى استخدامه، إنه جلادنا، على حد ما خطر ببالها، ثم سارعت إلى رسم علامة الصليب على

(*) ورد هذا التعبير بلغة الأجبو mama mo, mama mo. (المترجم)

(**) حوت لوياثان: حوت كبير ورد ذكره فى التوراة. (المترجم)

نفسها. عاجلاً قبل آجلاً، سوف تمشي كل واحدة منا عبر الممر إلى المقصورة التي لا عودة منها إلى الأبد. ترى ما الذى حدث لمسألة العفو الحكومى إذن؟ من هى التي حظيت بذلك العفو؟ أين مارسي؟ يا له من وقت تغيب هى فيه عنا. ياله من وقت تتأمل هى فيه مسألة الزواج!

قالت بردجت بطريقة مكشوفة: "لابد أن هناك أمرًا ما يحدث، فى أضعف الأحوال". هذا أفضل من لاشيء، أفضل من الانتظار الذى لا يعرف الحدود. لقد بدأ هرمس(*) عمله من جديد، وراح يقتاد الأرواح إلى نهر ستكسي(**).

* * *

كانت السيدة/ آليس، مساعدة السجن، مسئولة بصفة مؤقتة عن جناح النساء بعد قيام المشرفة العامة السيدة/ م أوكو ــ أوجلوجو بإجازتها السنوية. السيدة آليس هذه كانت غيارا منتظرًا لتحل محل المشرفة العامة أثناء تغيبها. كان مطلوبًا من السيدة / آليس فى ذات الوقت إرسال بعض من البريد والمكاتبات إلى الرئاسة العامة.

تناولت السيدة/ آليس المظاريف، ووزنتها فى يدها. إنها مسئولة الآن ومن حقها أن تعرف ما يدور. وبدون تردد تفتح آليس المظاريف وتقرأ محتويات المكاتبات. كانت محتويات المظروف الأول تتعلق بالعفو وترشح نزيلتين للحصول على هذا العفو.

توقفت آليس فجأه. وتعجبت من وصول المشرفة العامة إلى هذين الاسمين. هل أدت النقود إلى تبادل الأيدي؟ إذاكانت الإجابة بنعم، فما قيمة المبلغ الذى دُفع؟ لابد أن يكون هذا المبلغ كبيرًا مما دفعها إلى القيام بإجازتها. لكن أين نصيبى، أيتها المشرفة العامة على السجون؟

(*) هرمس فى الأساطير الاغريقية القديمة هو: ولد كل من زيوس ومالا، وهو رسول الأرباب ورب العلم والطلاقة. (المترجم)

(**) نهر ستكسى هذا ورد ذكره فى الأساطير الإغريقية، وهو فى عالم الأرواح السفلى. (المترجم)

العفو لا يأتى رخيصًا. فهو يتعلق بالحياة أولاً وآخرًا. قال لها زميلها فى جناح الذكور إن المعدل الدائر يدخل فى آلاف النيرات. هذا يعنى أن مارسى اختفت وراء الستار وأبرمت الصفقة كلها لنفسها. وتجرأت على تكليفى بإرسال المكاتبات نيابة عنها. حسن، يا مارسى أيتها الذميمة(*) اعلمى أن آليس سالامبو ليست غبية أو حمقاء.

فى ذلك المساء، وبالتحديد فى وقت الترفيه، اقتربت آليس من العديدات من النزيلات المشرفات على الإعدام، اقتربت من كل واحدة منهن على حدة وهمست لهن بالاقتراح.

"عفو اليوم الأول من شهر أكتوبر أصبح على الأبواب. ما هو المبلغ الذى يرصده أهليكن لإطلاق سراحكن؟ الأحد القادم سيكون موعدًا من مواعيد الزيارة. أبحثن. صاحبة العطاء الأكبر هى التى ستبقى على قيد الحياة. أما الأخريات: كبا، كبا، كبا، كبا. آخر موعد لدفع النقود هو نهاية هذا الشهر. معنى ذلك أنه لم يعد أمامكن سوى أسبوعين اعتبارًا من الآن. ممنوع الشيكات". ثم تضحك ضحكة خشنة: "الآجل ممنوع، والعودة باكر".

اقتربت أنتلى من السجانة: "سامحيني"، وراحت تنظر فى عينى آليس. "لقد أنهت المشرفة العامة على السجون، هذا الأمر قبل قيامها بإجازتها السنوية. هل هذا عفو إضافى أم ...؟" لم تتركها السجانة تنهى كلامها.

"أقول لك، لقد اخترت الموت يا أنتلي" قالت آليس ذلك بطريقة رذيلة "هل سَمِعتِ ما أقول؟" إذا ما اتبعنا طريقة المشرفة العامة على السجون، تجدين أنك اخترتِ الموت وأنت رقم ثلاثة فى طابور الموتى، هل تسمعين ما أقول؟ وعليه إن أردتِ ذلك فما عليك سوى البقاء هنا، والاقتباس عن النحو "العفو الإضافي".

(*) استعملت الكاتبة تعبيرا نابيًا long - prick or short – prick ولعل هذا من قبيل التوفيق لأن هذه المفردات النابية يشيع استعمالها بين الشرطيين وفى مجال السجون. (المترجم)

اهتزت أنتلّى. الموت! وأنا ترتيبى الثالثة فى طابور الموتي!

صاحت فى الجدران صارخه: "لكن، لكن، لقد استأنفت الحكم. استئنافى معلق....." وتقف الكلمات مثل قطع البرتقال بين أسنانها.

واصلت الضابطة كلامها: "اسمحى لى أن أقول لك إننا استأجرنا جلادًا بالفعل. وقد بدأ عمله مع الرجال فعلاً. وذبح خمسة منهم هذا الأسبوع. خمسة!" وفردت أصابع يدها. وتكورت أنتلى. "عندما ينتهى من الرجال، سيجيء دوركن أيتها النساء".

أُسكتت انتلى. ولم تقوَ شفتاها على طرح السؤال التالى.

من التى اختارت الحياة؟ ومن التى اختارت العفو؟"

نبحت ماليس: "هذا ليس من شأنك!" لقد قالت أكثر مما هو مطلوب منها بالفعل "طالما أنا المسئولة هنا، فإن من تدفع أكثر، وتدفع أولاً ستحظى بالحياة. هل تسمعيننى؟

الفصل العاشر

صباح الأحد

كان يوم الأحد من الأسبوع الثانى فى كل شهر، مصادفًا ليوم الزيارة فى سجن فريمان فورت. كان يجرى السماح للزوار بالدخول بعد تناول الغداء. وكانت الخدمات الكنسية تجرى فى الصباح. كانت الطقوس الكنسية تبدأ عند الساعة الثامنة، بعد تناول الإفطار المكون من طعام مائى مهموك، كانت النزيلات يغرقنه بسلاميات أصابعهن، أو يشربنه مثل السوائل، نظرًا لعدم السماح باستخدام أدوات المائدة. كانت الطقوس الكنسيه تستمر حتى الساعة الواحدة بعد الظهر. كانت الكنائس المختلفة توفد قساوستها لمرافقة النزيلات. وبسبب زيادة الطلب من مختلف الكنائس، جرى تحديد ساعة واحدة لكل كنيسة من الكنائس، يجيء بعدها الدور على الكنيسة التى تليها. كان هناك مكان، فى وسط السجن للاجتماعات. كانت بعض الكنائس تتبرع فى بعض الأحيان بإرسال مجموعة من الآلات الموسيقية ومعها نسخ عديدة من الإنجيل. كانت بعض النزيلات ذوات الميول الفنية قد علقن على الجدار رسومًا لكثير من الشخصيات المقدسة التى قمن برسمها. كانت هناك صورة للمسيح مصلوبا وهو يشير إلى ذوى الأحمال الثقيلة. وهذا رسم آخر يمثل قيام المسيح. تلك بعض المقاعد الموزعة فى أنحاء المكان. ونظرًا لكثرة عدد الرجال، كان صدى جماعتهم يتردد فى سائر أنحاء فناء السجن، الأمر الذى كان يؤدى إلى انجراف رفاقهم غير المسيحيين إلى جمهور المصلين.

كانت صلاة الأحد فى جناح النساء تجرى فى الغرفة المجاورة لزنزانتهن، فى المكان الذى يوجد فيه السجان. كان هناك حصير مفروش فوق الأرض الطينية أمام المقعد القديم. وكان هناك منبر متأرجح أمام جمهور المصلين. كانت بعض السجينات الأخريات من الزنزانة المجاورة يتجمعن مع نزيلات الزنزانة (١٠ وو) ww10 .

كانت باتسى تقوم بدور المرشدة. قالت: إن لديها خبرة سابقة. كانت هناك شارة ورقية معلقة حول عنق باتسى توضح مكانتها، التى كانت تطلق عليها أسم وضيعة من الأحد إلى الأحد، شأنها فى ذلك شأن علاج الملاريا السائد فى ذلك الوقت. بعد أن يتم إجلاس النزيلات المسيحيات، كانت باتسى تتجه إلى المدخل وترافق ثلاثة من الوعاظ القادمين إلى كنيسة النساء. هؤلاء الوعّاظ جاءوا من بعثة الكنيسة البروتستنتية. هى تعلم أن هؤلاء القساوسة حصلوا على إذن من الرئاسة العامة للسجون، حتى يقوموا بهذه الزياره. وقفت باتسى وقفة تواضع بينما كانت السجانة تراجع أوراقهن وتوقع عليها.

يصل القسيس إلى المنبر.

قال: "المجد لله".

ردت عليه النسوة: "المجد لله". خطر ببال رجل الدين أن الرد لم يكن متحمسًا بما فيه الكفاية، وعليه كرر القسيس ما سبق أن قاله.

"مجِّدن الله واشكرنه".

تشجع القس على أثر الرد الحماسى الذى سمعه.

"هل لى قبل أن أبدأ أن أدعو اختا من الأخوات لتقودنا فى شكرنا للرب؟.

دوى صوت باتسى. وارتفعت يدها مثل شهاب من الشهب. أومأ لها القس برأسه. تنحنحت باتس وراحت تردد أغنية من الأغانى الشعبية الشهيرة.

أنت الرب

هذا هو اسمك

لن يشاركك أحد قط فى عظمتك

لن يشاركك أحد فى عظمتك

يا إله يا قادر

هذا اسمك

دم المسيح خلّصني

من الخطيئة والندم،

دم المسيح خلصني

كان أحد المبشرين يحمل طبلة صغيرة تتدلى من كتفه الأيسر. أعطى هذه الطبله لباتسى التى راحت تدق عليها، وتلعب دور واحدة من المشاركات فى الجوقة. وراحت آمن تلعب على آلة موسيقية من آلات النفخ جرى صنعها من مشط صغير، وغشاء من البلاستيك. كانت بقية جمهور المصليات يتمايلن بأجسادهن ويصفقن بأيديهن بإيقاع من طراز الأباب abab. ورحن ينتقلن من ترنيمة إلى أخرى، دون توقف، بقيادة المرشدة. اصطدمت موسيقاهن بموسيقى الرجال؛ لكن هذا لا يهم. إذ كان كله من باب العبادة:

شاهدت عيناى، وسَمِعت أذناي

سوف يتحدث فمى عن فضيلة الرب

شَاهَدَت عيناى، وسَمِعت أذناى،

آمين، آمين، البركة والعظمة،

الحكمة، الشكر والشرف

القوة، والعظمة للرب

دوما وإلى الأبد، آمين.

ارفعوه أعلى وأعلى، '.

ارفعوه أعلى وأعلى،

الرب خير،
سأرفعه أعلى وأعلي
فى كل مكان أذهب إليه،
سأرفعه أعلى وأعلى.
سقطت جدران جركو إلى الأسفل منبسطة
سقطت جدران جركو إلى الأسفل منسبطة،
عندما كان عيال الله،
يُمجدون الرب،
سقطت جدران جركو إلى الأسفل منبسطة.

الرب الذى يَرُدُّ بالنار،
لعله يكون ربى،
الرب الذى يَرُدُّ بالنار،
لعله يكون ربى.

Zam o chineke, zam o.

Zam o onye kere uwa, zamo.

Zam o chineke mo

Zam o chineke zamo

Zam o, onye kere uwa zam o.(*)

(*) ويجرى تكرار هذه الفقرة السابقة بلغة الأجبو على النحو التالي:

بعد التعبير عن الشكر، دخل القس هو والجمهور فى الصلاة. كان الناس يصلون فرادى وعيونهم مغلقه، وهم يتمتمون ويتوسلون إلـــى الله. كـــانت نزيلة أو نزيلتان تدوران مثل قمة دوارة بطيئة الحركة.

تكلم القس فى ذلك اليوم عن الحب. واقتبس الرجل الكثير عن الكورنثيين(*).

قال: "لو أن لدى كل شيء، لكن ليس لدى الحب فأنا مجرد صنج مدوّى. هؤلاء الثلاثة موجودون؛ الإيمان، والأمل والحب ولكن الحب هو أعظمهم. أعظم الوصايا هى الحب؛ أحب الله من كل قلبك وعقلك وقوتك. ثم أحب جارك. ومن هو جاري؟"

وتلت ذلك قصة سماريتان الطيب، المأخوذة عن إصحاح لوقا، والتى كان رسمها يزين الجدران المواجهة فى الكنيسه البديلة. وقبيل انتهاء الوقت المحدد قيلت كلمات النصح والإرشاد لتشجيع المسجونات.

قال رجل الدين: "أيتها الاخوات، أنا أحمل لكن تحيات أخواتكن فى الخارج. هم يراسلون، لكن حُبّهن ودعواتهن لكن بالصبر، والمثابرة، وتغيير القلوب من أجلكن. أود أن أقول لكن إن بعض اللاتى فى السجن، وبخاصة هؤلاء اللاتى ندمن على خطاياهن وسلّمن بالمسيح سيدا ومنقذا لهن Lord، هن أفضل حالاً من أخريات كثيرات فى الخارج لا يزلن على كفرهن. نعم. المسيح قادم لخلاصكن. آمين؟"

رددت السيدات الدعاء بقوة "آمين!" طمعًا فى الخلاص.

"عما قريب، سأدعو لكن بأن يخصلكن دم المسيح من أحمالكن ويرفع النير عن أعناقكن".

"آمين!".

"سيكون الحكم عادلاً".

(*) رجل المتعة والسرور عند اليونانيين القدماء. (المترجم)

"آمين!".

"وأدعو لكُن بأن تظهر ملفات أولئك اللاتى ضاعت ملفاتهن، أو سافرت عنهن ضابطه الادعاء، كل ذلك سيتحقق باسم المسيح!"

"آمين!".

أضافت أنتلّى "وأن يُعْدم الجلاد".

وعلى سبيل الانتهاء من الوعظ، بدأ الواعظ يردد أغنيه العفو. وراح جمهور المصليات يشاركن الواعظ وهن مصفوفات فى الفناء الصغير.

خلَّص بولس وسيلاس،

خلَّص بولس وسيلاس،

منقذى خلَّص بولس وسيلاس،

سيخلّصنى بكل تأكيد.

وقفت باتسى وخرجت من الصفوف الجانبية لتشكر المبشرين. وتلتها نزيلات أخريات. كان من عادتهن إرسال رسائل عبر المبشرين إلى عائلاتهن وصديقاتهن. صحيح أن أقارب كثيرين تخلوّ عن النزيلات وتركناهن لحال سبيلهن. كان بعض النساء يعربن عن احتياجهن إلى، أشياء النظافة، والفوط الصحية، والمساويك، وقلم العيون، والمهرشه، (ريح الهرمتان على الأبواب)، والتموينات، والملابس الداخلية، ومصابيح الناموس أو بالأحرى شلتوكس.

جرى تمرير الملاحظات على السجانة للتدقيق فيها والحكم عليها. وتلغى السجانة ملفات البعوض. هذه الملفات من الأشياء المسببة للحرائق.

نظرت سوزانا إلى زعيمة الجماعة وابتسمت لها وانصرفت لحال سبيلها.

"من فضلك يا سيدى، هل يمكن أن ترسل رسالة إلى السفارة الإيطالية فى ليجوس نيابة عني؟"

"بالتأكيد".

"من فضلك، اطلب إلى القنصل القيام بزيارة سوزانا فى سجن فريمان فورت على وجه السرعة. أنا لم أره هنا منذ شهور".

قال الواعظ: "مبلغ علمى الآن، أنى أعتقد أن السفارات كلها انتقلت إلى العاصمة الجديدة".

"هل انقلت السفارات كلها؟ ألم يبق منها شيء فى ليجوس؟

"لقد أعطت الحكومة السفارات كلها إنذارًا نهائيًا، نظرا لأن مقر الحكومة قد انتقل بالفعل إلى العاصمة الجديدة. ومع ذلك، سأبذل قصارى جهدى للاتصال بالسفارة الإيطالية فى مكان تواجدها. ترى من ذا الذى سوف أسأل عنه فى القنصلية؟".

"القنصل السيد/ ستيفانو".

"حسن جدًا، سأوافيك بالرد يوم الأحد القادم".

"الأحد القادم، بعيد جدًا إذ يتعين عليه الحضور فورًا، من فضلك".

"وهو كذلك، سأقول له ذلك".

"هناك شيء آخر، أنا بحاجة إلى قسيس. أنا رومية كاثوليكية".

"وهو كذلك، يا أختاه. سوف أراعى ذلك أيضًا".

"أشكرك يا سيدي".

قالت سوزانا بصوت عالٍ: لقد انتقلوا إلى أبوجا!

سألهن حنا: "هل تحتجن إلى شيء آخر أيتها الأخوات؟ "كان حنا زعيمًا للجماعة" إن كان الأمر كذلك لا تترددن وسوف نبذل قصارى جهدنا من أجلكن".

تقدمت بردجت فى حذر.

سألها "نعم، يا أختاه، ما الذى يمكن أن نفعله لك؟" نظر إليها عن قرب. وقد احمر وجهها خجلاً.

"مـــن فضلك يـــا سيدى، أنا انتظر المحاكمة. أنا هنا منذ وقت طويل، وأنا لا أعرف منذ متى بالضبط. أنا فى انتظار المثول أمام المحكمة". كانت بردجت تتكلم بسرعة دون توقف. وكانت النزيلات الباقيات يستعجلونها. كانت النزيلات قد وقفن خلف بردجت على شكل صف. "المشكلة فى المركبة. لقد تعطلت ماريا السوداء. المركبة بحاجة إلى إطارات، على حد ظنى. وعليه إذا ما استطاعت كنيستك تقديم يد العون، فلتساعدنا على إصلاح المركبة، هذه المركبة سوف تساعدنا فى قضيتنا، سوف تدفع بالقضية إلى الأمام".

فتح رجل الدين إنجيله، تقولين: "ماريا السوداء". كانت هناك قطعة من الورق فى منتصف الإنجيل. كتب على تلك الورقة: "سوف أرى ماذا يمكن أن أفعل" قالها بعد أن رفع رأسه. "سوف أناقش هذا الأمر مع كبير السجانين، ثم بعد ذلك مع رؤسائى فى الكنيسة. يتعين علينا أن نكون قادرين على عمل شيء ما".

"شكرا لك يا سيدى".

عندما همت النزيلة بالانصراف، لاحظ القسيس الذى كان طيبا مشيتها البطيئه، ولاحظ أيضًا رداء السجن محكمًا من حول وسطها، كما لاحظ أيضًا استدارة خط الخصر، كما لاحظ أيضًا وجهها المنتفخ. قال القسيس فيما بينه وبين نفسه أتمنى لو أنها تتعاطى أو تحصل على رعاية جنينية.

كان الوعاظ، أو بالأحرى القساوسة الثلاثة، قد مروا وهم فى طريقهم إلى قسم النساء على مستشفى السجن؛ التى لم يكن فيها سوى وعاء علاه الصدأ، ودولاب معدنى بنى اللون، وبعض اللوحات الورقية الحائطية المكتوب عليها أن

مرضى الإسعاف كانوا بشرا ويستحقون الحب والرعاية، لم يكن في عيادة سجن فريمان فورت أي شيء غير الذي وصفته.

* * *

بعد ذلك بثلاثة أيام

طلب القسيس حنا عقد اجتماع مع المشرف العام على سجن فريمان فورت. جرى الترحيب به في المكتب الصغير بواسطة الضابط الصغير، الذي انتحل الكثير من الأعذار لحال التهدم الذي عليه محطته. يزاد على ذلك أن صوت التليفون الحاد كان واحدًا من المناسبات الأخرى التي تحينها الضابط الصغير، مرتدي الزي الأخضر، لتقديم المزيد من الأعذار. كان جهاز التليفون من النوع القياسي القديم؛ تليفون من النوع الاستعماري المزيف أسود اللون. كانت المكالمة التليفونية عند الأخ حنا أمرا حظي بالترحيب، على الرغم من أنها جاءت كما لو كانت مفاجأة تكنلولوجية في تلك الظروف البالية التي توحي بتداعي كل شيء في هذا المكان. وقد تمكن رجال الدين من فحص المهجع، في الوقت الذي كان مضيفه يتكلم في سماعة الفم. (الميكروفون).

كانت هناك لوحة إعلانات كبيرة معلقه على الجدار خلف كبير السجانين. كانت تلك اللوحة بمثابة البيان الخاص بالسجن. كانت تلك اللوحة تشتمل على سكن السكان من النزيلات ومن الضباط. وجد الواعظ حنا أن في سجن فريمان فورت حوالي خمسمائة وستة مسجونين: من بينهم أربعمائة وثمانية مساجين وستًا وعشرين سجينة. وكان من بين هذا العدد مائة وسبعة عشر سجينًا، صدرت ضدهم أحكام. أما البقية التي تقدر بحوالي أربعمائة وتسعة وثمانين سجينًا فكانوا جميعًا ينتظرون المحاكمة. وكان من بينهم سبعة وثلاثين من القتلة، من بينهم ثمانية من النساء. كان من بينهم أيضًا ثلاثة معتوهين، وأحد عشر مدنيا. كانت هناك أرقام أخرى عن السرقات، ودخول المستشفى للعلاج، والهروب. كان الفضاء المواجه "للمستأجر" خاليًا، على الرغم من أن الزائر لم يعرف معنى هذا الفراغ.

عندما أتى الزائر على موضوع زيارته، ابتسم الضابط من قبيل الترحاب للمرة الثانية. خطر ببال حنا أن الضابط يبدو حنونًا؛ إنه ليس من النوع النازى. الحمد لله. راح الرجلان ينظران إلى بعضهما عبر المكتب الأنيق.

قال الضابط الصغير موجها نظره إلى حنا: "هذه هى المشكلة التى تواجهنا هنا. السجون لا تحصل على الميزانيات الكافية، ميزانياتها أقل بكثير مما هو مطلوب. نحن نحاول بذل قصارى جهدنا لكن هناك حدود لاستطاعة أى فرد منا. ونحن فى حدود الموارد الصغيرة المتاحة لنا نحاول تقديم وجبات أساسية للنزلاء، والرعاية الطبية بين الحين والآخر. وأنا لا استطيع أن أفعل ما هو أكثر من ذلك. نعم، السيارة بلاك ماريا مركونة منذ أكثر من عام الآن. كتبت كثيرًا من المعاملات وأرسلتها للرئاسة، وشرحت فى هذه المكاتبات المشكلة بكاملها، لكنهم فى الرئاسة يردون بعدم وجود النقود، فى الوقت نفسه، يتهمنى النزلاء هم وأقاربهم بأنى الذى لا أرسلهم إلى المحاكمه. هل مطلوب منى أن أحملهم على ظهرى من هنا إلى المحكمة؟ وإذا ما استطعت ذلك فكم منهم استطيع أن أحمل؟ أنظر إلى هذه اللوحة. هناك أربعمائة وتسعة مساجين ينتظرون المحاكمة من بين إجمالى المساجين الذى يقدر بحوالى خمسمائة وستة نزلاء".

"لمذا لا يخرجون بكفالة مالية؟"

"التهم الموجهة إليهم لا تخضع للكفالة المالية ــ قتل، سطو مسلح، اغتصاب، إحراق المبانى والممتلكات عمدًا".

قال رجل الدين وهو يهز رأسه: "لكنهم ينتظرون وقتًا طويلاً إلى أن تتم محاكمتهم. البعض منهم قد ينتهى إلى إخلاء سبيله أو تبرئته".

"هل الخطأ هو خطأ سلطات السجون لأنها تبقى هؤلاء المتهمين بلا محاكمة؟ نحن مضغوطون. نحن نحبس النزلاء بأعداد تزيد على ما تتسع له أية زنزانة من الزنزانات. نحن نستقبل يوميًا أعدادا من الذين ينتظرون المحاكمة. النسبة المئوية

للزحام تصل إلى حوالى مائتين وخمسين فى المئة. ونحن ليس لدينا الحق فى نقل من ينتظرون المحاكمة إلى سجون أقل ازدحامًا. الادعاء الشرطى لا يتم بالسرعة التى تتطلبها العدالة، الادعاء لا يستجوب الشهود. القضاة يقضون بأحكام على مخالفات تستحق الغرامة، وهم يعرفون حقيقة الزحام الذى نحن فيه. وعليه فنحن نبذل قصارى جهدنا فى ظل هذه الظروف. إذا كان هناك من يود مساعدتنا سواء أكانوا أفرادًا أم مؤسسات، فنحن على استعداد لقبول هذه المساعدات بيدينا".

بانتهاء الحوار، جرى الاتفاق على أن تقوم الكنيسة بإصلاح المركبة. تردد الرجل قبل أن يغادر القسيس فناء السجن.

قال القسيس لرئيس السجن: "يبدو أن هناك نزيلة حامل". ويندهش الرجل الآخر.

قال الرئيس، وهو حائر، وفاغر فاه، "كيف حدث ذلك؟" ويسأل القسيس: "قبل دخول السجن أم بعد دخوله؟".

قال حنا وهو يهز كتفيه: "لا أستطيع القطع بذلك. أنا لا أعرف".

"أنا لا علم لى بذلك. وأنا لم أبلَّغ بذلك رسميًا".

"حسن، أنا لست متأكدًا مائة بالمئة من ذلك". يمكن أن يكون ذلك مرض، قال هذا الكلام فيما بينه وبين نفسه": الأورام الليفية هى والأنيميا بدأت تعود من جديد مثلما حدث أيام الحرب الأهليه. "لكن فى حال حدوث طارئ، هذا هو رقم هاتفى. وأنا طبيب بحكم مهنتي".

"أشكرك شكرًا جزيلاً. نحن بحاجة إلى الخدمات الطبية هنا، ناهيك عن الزحام والافتقار إلى الإمدادات الصحية الكافية والمناسبة. إذا أمكن لكنيستك أن تساعدنا فى الرعاية الطبيه، من حين لآخر، وتعطينا بعض التموينات والإمدادات مثل المضادات الحيوية، والمسكنات، والأقراص المنومة، والمحاقن، ومواد تضميد

الجروح، والصابون الطبى، والفوط الصحية للسيدات، فإن ذلك سيكون شيئًا ممتازًا تمامًا. والواقع الأمر أن أى شيء يمكن أن يساعدنا من نواحى كثيرة. أنا مشفق على النزلاء. بعضهم، بل السواد الأعظم منهم يعانون من مشكلات طبية: ارتفاع ضغط الدم، السل الرئوى، الام الأسنان، مرض السكر، لكننا مغلولو الأيدي".

كان المشرف العام على السجون سعيدا فى داخله لأن تنفيذ أحكام الاعدام كان قد بدأ بالفعل، وذلك من أجل خاطر النزلاء. لكن المشرف العام على السجن لم يفصح عن ذلك. الناس الذين خارج السجون لن يفهموا أن الحياة على عمق ستة أقدام تحت الأرض ستكون أفضل من هذا الوجود غير الإنسانى الحبيس فوق سطح الأرض.

قبل أن يغادر الأخ حنا السيد/ موسى المشرف العام على السجون، كان مبلغ ثلاثة آلاف نيرة الذى كان فى سترته، قد انتقل إلى راحة يد كبير السجانين.

الفصل الحادى عشر

دلفت مارسي إلى غرفتها بنفسها على السرير وهي مرتدية زيها وكامل ملابسها. كانت تمسك بغطاء رأسها الأخضر (البيريه) بأطراف أصابعها. راحت تحرك رجليها إلى الأعلى الواحدة بعد الأخرى. كان يراودها إحساس بالجنس. كال ابتعادها عن الرجل أكثر مما تريد. هي التي كان لها خليلان طول الوقت أصبحت الآن جافة. كان ذلك نوعًا من السخرية والتهكم، لكن هذه هي الحياة.

كان أحد الخليلين صائمًا. طوال هذه المدة كان يقول لها إنه لن يكون في متناولها. كانت تود أن تقول له، آمل ألا تكون في متناول زوجتك أيضًا، لكنها لم تجرؤ على ذلك. كان يطلبها كل يوم في جوف الليل ويتكلمان كلامًا قبيحًا، عما سيفعله معها بعد أن تنتهي الدورة الشهرية ويجتمع شملهما مرة ثانية.

الآن بعد أن تولى النائب الخدمة طول الوقت، فقد تعين عليه الذهاب إلى لندن لحضور دورة مدتها ستة أسابيع. قالت لجهازها equipment: "يتعين عليك الانتظار، أيتها البنت الكبيرة". انتظري أفراد الخدمة. سوف تقدم لك الخدمة إذا ما تيسر أحد منهم، أو بالأحرى سوف تخدمين خدمة جيدة.

ارتعدت فرائصها من خطر مصادقة رجلين في آن واحد، كلاهما غيور إلى أبعد الحدود. هي لا تعرف ذلك الذي يمكن أن يحدث عندما يلتقيان وجهًا لوجه. هي تعرف أن المسألة لا تعدو أن تكون مسألة وقت ليس إلا. كان كُلٌّ منهما يشك في وجود الآخر. الناس في هذه الأيام لا يثقون ببعضهم البعض. لكن طالما أنه ليس هناك دليل، فهي في مأمن. هي تعرف أنه ربما يكون هناك عنف. وتعرف أيضًا أنها ستكون الضحية والفريسة. ومع ذلك، لم تستطع وقف ذلك الذي كانت فيه.

قالت بصوت عالٍ: "إحساس متساوٍ تجاه الرجلين. أنا عاجزة عن الاختيار. سيعرف كل منهما الآخر في يوم من الأيام. وعندها سأفقدهما أو يتعين علي الخيار بينهما".

أحست أن ذلك اليوم أصبح وشيكًا. القدر يصنع سلة هى التى ستحدد المستقبل. كان الصيام على وشك الانتهاء فى الوقت الذى سيعود فيه خليلها من الدورة. الاثنان يتوقعان منها أن تكون جاهزة فى ذلك الوقت، الاثنان سيكونان مشتاقين اشتياقًا كبيرًا بعد فترة طويلة من الامتناع. وعلى حد قول أولوري"، قولى لأحدهما أن لديك الدورة ثم اذهبى مع الآخر".

أولورى، سوزانا، مودياجا، أنتلى، أومو، ستاف، آمن، بنتا ورحمه، وباتسى وبردجت. انصرف ذهن مارسى إلى النزيلات اللاتى خلفتهن وراءها، أولئك المحكوم عليهن بالإعدام. اثنتان منهن حصلن على العفو. ساءلت نفسها عما إذا كانت مساعدتها قد أرسلت المعاملة إلى مركز الرئاسة حسب التعليمات. كانت الإذاعة أفضل الطرق لتحقيق ذلك. كلهن كن أصدقاء لها. هى تعلم أن بعض السجانين يمكن أن يطلبوا نقودًا ثمنًا لذلك، لكن مارسى ليست هى التى تفعل ذلك الشيء. لن يسمح لها ضميرها بفعل ذلك. يزاد على ذلك، أنها لم تكن بحاجة إلى المال. المال الحلال مكفول لها. ماذا يحدث لو أن آليس Alice لم ترسل المعاملة (الرسالة) فى الوقت المحدد؟ ماذا يحدث لو فتحت الرسالة وعبثت بمحتواها، وغيرت الأسماء؟ بوسعها فعل ذلك، لأنها تعلم أن مارسى ستغيب طوال الأسابيع القليلة القادمة. خطر ببال مارسى، أنها تغيبت فى وقت عصيب.

كشف الإجازات منظم فى الخدمة، ويعرف الجميع موعد قيامهم بالإجازة منذ بداية العام، ويقوم بالإجازة مستحقها عندما يحل عليه الدور. يجب ألا يخطر على بالك أن المصلحة ليس لديها المال الذى تدفع منه بدل الإجازة، كل ما هو فى الأمر هو أن تقوم بالإجازة. وعندما تعود من الإجازة سننظم كل شيء. تحدث عن قصة لا تنهى. لولا الشرف....

هل سألتقيهن أحياء، عندما استأنف عملي؟ هل تسلم الجلاد عمله؟ هل بدأ عمله بالفعل؟ ما نوع هذا العمل؟ كيف لى بالبقاء فى عمل يقوم على القتل، عمل قاتل؟ لقد طلبت جوى Joy منها الاستقالة من عملها.

سبــق أن قـــالت للسجـــانة: "هذا العمل، لا يناسبك، يا مارسى. هذا العمل لا يتفق مع شخصيتك؛ كل هذه المعاناة والألم، والأسف، والحرمان. وفوق ذلك كله الآن الإعدام والدم".

خطر ببال المشرفة العامة على السجون أن الناس سيقولون: إن المرأة العاقر يجب عدم توريطها فى مسائل الموت، وأن روح هؤلاء الموتى هى التى أصابتنى بهذه اللعنة، ولتذهب هذه الفكرة إلى الجحيم! أنا لست عاقرًا. ماكسويل هو العقيم، ولست أنا. سوف أنجب فى الوقت الذى يريده الله! آمين! الله ﷻ هو الذى يخلق الحياة وهو الذى يهب الأطفال. سيعطينى ثمرة الرحم. آمين! لكنى إذا ما استقلت من هذا العمل، فإلى أين سأذهب؟ ما الذى يمكن أن يحدث لي؟ السوق خالية من الأعمال. ماذا أفعل بنفسي؟ هل انضم إلى طابور خريجى الجامعة المتعطلين؟ سيشمت فى ماكسويل.

ينصرف ذهن مارسى، على الفور، إلى زوجها الأول. ماكسويل. الشرفاء يشيرون إليه ويسمونه حاليًا ماكسباد Maxbad. والمؤسف أن الذكريات السيئة راحت تنساب من هذه الإغارة على حياتها الزوجية.

بعد أن أمضيا أكثر من عامين مع بعضهما، كانت مارسى لا تزال بلا حمل. كانت تخشى كل شهر رؤية اللون الأحمر. كانت تقول وهى حزينة، آمل ألا أرى اللون الأحمر ثانية. رباه، لا تخيب أملي! اجعلنى أفقد دورتى الشهرية. أرجوك يا الله، أرجوك. كان ذلك على النقيض تمامًا من دعائها أيام الجامعة يوم أن استسلمت للجسد. عندما كانت تدعو أن يحل عليها ذلك الزائر الشهرى. بعد ذلك، تحول الدعاء طلبًا لعدم حلول ذلك الزائر الشهرى، لكنه قادم لا محالة. كان الإحساس بالغرق فى الحالين يبدأ بالبلل فى الأسفل. ترى، أهذا هو الزائر الذى أخشاه وأخافه؟ كانت تقوم بمراجعة التقويم. كانت تناجى رب الدورات الشهرية وتتوسل إليه أن يمنع دورتها. أود أن أكون حامل. أنا متزوجة، رحمتك يا الله. كانت طوال اليوم، وبين الحين والآخر تضع إصبعها فى مكان البلل لتتبين إن كان

هنا لون أحمر أم لا. لا تجيئى. إتركينى كى أصبح حُبلى. لا تنزلى. وتروح تدعو على نحو لم يسبق لها من قبل، كانت تتوب وتندم، وتقدم النذور، وتعطى الصدقات للفقراء، كانت تصوم إيمانًا منها بالله. وكان البلل يتزايد. ومع دخول الليل يزداد السائل اللزج كثافة. ثم يتغير لونه إلى اللون الرمادى، إلى البنى الغامق. وبعدها، آه! ليتها لا تعاودنى ثانية!

زارت هى وماكسويل كل أرجاء نيجيريا بحثًا عن العلاج بالسحر، طمعًا فى ثمرة الرحم. ذهبت إلى أبا Aba، وإلى كنو، وإلى ميناء هاركورت، وإلى ليجوس، ذهبت إلى كل الأماكن التى فيها عيادات للخصوبة، أو اختصاصى فى أمراض النساء. تفكرت كل الإجراءات والعمليات التى عانت منها، وفى الأقراص التى تناولتها، وفى الاستمناء التى كانت تقوم به لزوجها طلبًا لماء الرجل حتى يمكن تحليله. ولم يحدث شيء بعد ذلك كله. زارت الكنائس الروحية كلها، قدمت البترول والشموع، وأقبلت على طرد وتقييد الأرواح الشريرة التى تجعل المرأة عاقرًا. آه من الانتظار. الانتظار المضنى لتتبين ما إذا قلب الدم قد جرى قمعه، وإخضاعه، وإسكاته. الأسابيع، الشهور، السنين. واصل الزائر الدموى مجيئه مثل الحماة الكريهة، مثل الطفل الشرير، غير المرغوب فيه، ومع ذلك يتعين عليك تدليله، وتغذيته بالحفاضات. إلى أن ينصرف من تلقاء نفسه. لا تعاودنى أيها اللون الأحمر. قف هناك على شجرة الباعوباب baobab. وحتمًا، وبعد ثمانية وعشرين يومًا، لابد أن يعود.

يلى ذلك الإحساس الجارف بتناقص الصبر، عندما يبدأ الحب فى الانحسار، وتموت الصداقة، وتتفكك وحدة الزواج إلى الأجزاء الأصلية المكونة لها. وتبدأ الملاحظات الجانبية من أقارب الزوج تتوجه إليه، على مسمع ومرأى منها: "متى تتخلص من الرجل الذى تعيش معه وتتزوج لتصبح امرأة حقيقية؟ انظر إلى حجمها. هى عبارة عن مارد صغير، وضخمه ولها عضلات. هى لا تقوى على الحمل. إنها الصحراء الكبرى. إنها سارة زوجة إبراهيم عليه السلام. آه، كنت أبكى بكاءًا مرًا فى تلك الأيام.

وتظهر بعد ذلك نتيجة التحاليل. انخفاض عدد الحيوانات المنوية، هذا هو المرض الذى يسمونه نقص الحيوانات المنوية فى السائل المنوى oligospermia. ليس هذا فقط، وإنما هو مصاب أيضًا بضعف حركة الحيوانات المنوية motility. هذه مارسى لا تزال تتخيل غرفة الكشف، الطاولة الصغيرة الموجودة فى الركن، وهذه هى طاولة أو سرير الكشف الذى لا يتسع سوى لإطار الجسم الإنسانى. كانت هناك الشاشة الخضراء خضرة الليمون، وهذه هى الرسوم على الجدار لإجزاء مختلفة من الجسم. لا تزال تذكر رائحة الأدوية المخدرة والمطهرات، وكذلك كلمات الطبيب الدقيقة عندما حاولت تفسير التقرير. كانت طبيبة ولم تكن طبيبًا.

"الحيوانات المنوية لا تقوى على السباحة كيما تلتقى بالبويضة، لتخصبها. هو يشبه الجمال النائم فى برج من الأبراج. هذا هو الأمير شارمنج قادم يتهادى، ينظر إلى أعلى، يرى البويضة لكن لا حول له أو طول، ولا يستطيع التسلق إلى أعلى ثم يخترق البويضة".

رد ماكسويل على الطبيبة ردًا فيه جفاء: "أوقفى هذا الكلام!" كان ماكسويل يهز رجله، وكانت رجله موضوعة فوق الأخرى "ما الذى يمكن عمله؟" لقد أُبعد طب النساء عن الحكايات الخيالية.

"هناك عقاقير ومشروبات عادية لتحسين العدد المنوي؛ فول الصويا، المكسرات، نبيذ النخيل. السر يتمثل فى ابتعادك أنت وهو. مارسى، أنت الآن فى أكثر أيامك خصوبة، وبخاصة عندما تكونين فى اليوم الثانى عشر أو الثالث عشر من الدورة الشهرية. امتنعا قبل ذلك واسمحا للحيوانات المنوية بالتراكم. بعد أن ينتهى من القذف، دعيه بداخلك بعض الوقت. قللى من الحركة، وارفعى رجليك إلى الأعلى. حوّلى الجاذبية لصالحك، بحيث تكون فى اتجاه الرحم. وبذلك تسهلين على الحيوانات المنوية السباحة نحو الداخل. لكن يجب على أن أحذرك أن عدد الحيوانات المنوية لا يشكل المشكلة الأساسية. الشخص البالغ العادى يقذف ملايين الحيوانات المنوية. وفيما يخص ماكسويل فإن مئات الآلاف يعد عددًا قليلاً نسبيًا،

هذا صحيح، وهذه حالة طبية معروفة يطلقون عليها اسم oligospermia والذى يعنى نقص الحيوانات المنوية فى السائل المنوى، ومع ذلك فإن حيوانًا منويًا واحدًا يكفى لتخصيب البويضة. المشكلة، تتمثل كما قلت فى عجز الحيوان المنوى عن السباحة من المهبل إلى قنوات فالوب ومنها إلى الرحم؛ هذا يعنى ضعف حركة الحيوانات المنوية. ومع ذلك لدينا العقاقير التى تساعد على ذلك".

لم يعد الأمر ينطوى على أى شيء من الخصوصية. هذا يعنى أن السر الذى كان الاثنان يتقاسمانه قد انكشف. كل ما يمكن الإتيان على ذكره برز وأصبح فى المقدمة. لقد أحست مارسى بالإساءة وانتهاك خصوصيتها، وأصبحت مثل من ذهبت عارية إلى السوق المركزية.

عندما غادرا العيادة فى ذلك اليوم، كان ماكسويل يشبه دجاجة المداوى بالأعشاب التى بللها المطر. صرخت مارسى فى صمت أشكر الله لأنى لست المخطئة. كانا هما الاثنان اللذان يعرفان موضع المشكلة. لم يعرف أهل زوجها أن ابنهم هو السبب، ومن الذى سيقول لهم ذلك؟ وعليه، لم يتغير أى شيء، لا شيء سوى تزايد الشكوك وقسوة ماكسويل.

"إلى أين أنت ذاهبة بهذا اللبس الذى ترتدينه، وثدييك بارزين مثل كشافى السيارة المعطلين؟" "هذه التنورة ضيقة جدًا. هل أنت بغي؟ اذهبى وارتدى إزارًا". "كنت ترافقين صديقًا منذ حوالى ثلاثين دقيقة، ماذا كنتما تناقشان؟ أم أنكما وقفتما أمام منزل عشيقك؟"

ردت عليه مارسى بهدوء، تحاشيًا للعاصفة التى بدأت: "أنا ليس لى عشيق".

كانت تلك هى المرة الثانية التى ضربها فيها ماكسويل. أما المرة الأولى بحق وحقيقة، فكانت عندما عاد من المهمة الرسمية التى قام بها إلى كادونا. لم يسافر فى تلك المهمة بسيارته الخاصة، التى كان قد تركها فى المجمع السكنى. ولم يترك مفاتيح السيارة فى المنزل. وعلى غير علم من مارسى، قام سائق بخدش السيارة ٥٠٤ فى المكان الذى كانت تقف فيه. عاد ماكسويل، وقبل أن يدخل شقته، ذهب للتفتيش على سيارته. وصاح مناديًا زوجته يطلب منها النزول.

"من الذى خدش سيارتي؟"

"أنا لا أعرف".

"أين كنت إذن حتى لا تعرفين؟ من الذى خدش سيارتى التى تركتها فى رعايتك؟"

دخلا الشقة، وهو يمطرها باللعنات، وهى تعلن براءتها مما حدث. ويستمر الصياح داخل الشقة. كان ماكسويل يصرخ بأعلى صوته. ارتعدت مارسى. توالت الكلمات. كانت تلك أول مرة يفك ماكسويل فيها حزامه ويروح يجلد به زوجته كما لو كانت تلميذًا مشاكسًا. بكت وعوت. وحبسها فى الشقة وخرج لحال سبيله. وبعد أن عاد، راح يرجوها أن تسامحه، ووعد بأن لا يضربها مرة ثانية. هو يضرب بصورة مستمرة؛ ثم يروح بعد ذلك يطلب العفو والسماح، قائلاً إن ذلك كان من فعل الشيطان. لقد أسرّت لآيرين بذلك كله.

رجتها آيرين "اتركى هذا الرجل، يا مارسي؛ ليس هناك مبرر لجلد النساء. اتركى هذا الرجل، أرجوك".

"هذا هو التوتر نفسه الذى نمر به. سيصحو من هذه الغفوة. سوف يهدأ ويسترخى عندما يجيء الطفل. أنا أعرف ذلك".

"تقولين طفل! هل يمكن أن تنتجى طفلاً فى مثل هذه الظروف القاسية، يا مارسي؟" لم تكن آيرين تصدق ما يحدث".

"هو ليس عنيفًا فى كل الأحوال، يا آيرين. سوف يتغير، أقول لك: إنه سيتغير. إنه التوتر ليس إلا".

"اسمعينى يا مارسى، لا يستطيع الإنسان تغيير الطابع الأساسى لأى إنسان آخر. نساء كثيرات يقعن فى هذا الخطأ. لا تجعلى من نفسك جزءًا من تلك الإحصائية. من فضلك اتركى هذا (الهلك هوجن)(*).

(*) هلك هوجن: اسم مصارع أمريكى شهير لم يهزم مطلقًا على حلبة المصارعة. (المترجم)

وعلى الرغم من ذلك، بقيت مارسى مع ماكسويل. راحت تقنع نفسها أولاً وقبل كل شيء، كانت أمي وأمه متوفيتين، وكانتا قد مرتا بظروف أسوأ من هذه الظروف. ومع ذلك لم تهجر أى منهما منزل الزوجية. تَرْك منزل الزوجية إشارة إلى الفشل.

حدث ذات يوم، أن أعطت يوديم udeme هاتفها المحمول إلى مارسى لتحتفظ به معها إلى ان تنتهى من أمر طرأ على السجن. كانت مارسى قد وضعت التليفون المحمول ونسيته تمامًا. وبانتهاء يوم العمل عادت إلى المنزل ومعها الهاتف. وعندما فتش ماكسويل حقيبة يدها، لأن تلك كانت عادته، اكتشف وجود الهاتف داخل الحقيبة، وتحجر تفكيره. وراحت كل تفسيراتها بأن الهاتف ملك ليوديم أدراج الرياح ولم تلق آذانًا صاغية.

صاح ماكسويل فى نصفه السيء: "أيتها المومس! لقد عرفت كل شيء. أنت تودين الحمل بأية طريقة من الطرق، أنت الآن تمشين على حل شعرك. هل تودين إنجاب لقيط لي؟ مَنْ مِنْ رجالك الذى اشترى لك هذا التليفون؟"

ينشب العنف من جديد؛ وتتكرر اللطمات على الخدين، تليها لكمات فى الصدر وفى البطن، وتسود العين وتتورم على نحو لا تستطيع معه الرؤية، وتتورم الشفتان. وضربات على الرأس. وتروح مارسى تتكتم آلامها، وهى تحاول ألا تصرخ، حتى لا يسمع الجيران ما يدور. وتسقط مارسى على الأرض. وتنهال عليها الركلات. وتحمى مارسى جسدها، وتحاول تحاشى هجومه عليها. هذا هو الزوج الغاضب. ومن خلال الفتحتين اللتين فى عينيها المتورمتين أبصرت مارسى ماكسويل وهو يحاول فك الحزام المربوط حول وسطه. من حسن الحظ أن ماكسويل قد بدّل ملابسه بالفعل، وارتدى البنطال القصير الذى من طراز واى، ودرج على لبسه عندما يكون فى المنزل. وعندما اندفع إلى غرفة النوم لإحضار الحزام الجلدى، نهضت مارسى واقفة على قدميها قاصدة الباب. وسارت إلى فتح المزلاج واندفعت إلى خارج الشقة سوف أحصل على النجدة فى الخارج. ولن يضربنى على الملأ.

صاحت مارسى فى المستأجرين الآخرين فى المجمع السكنى "اطلبوا من أى أحد أنْ ينجدنى، آه!"(*) كان الرجل فى أعقابها، وممسكًا بالحزام الجلدى فى يده.

"هذا الهاتف، هو هاتف يوديم، إنه ليس هاتفى، آه".

نبح زوجها "اخرسى، أيتها الكاذبة!"

صاحت مارسى فى المُركّب السكنى كله: "هذا الرجل يود قتلى، آه! أمى إيميكا، عمتى مُليكات! تعالا لتنقذانى! النجدة، آه".

"ادخلى الشقة يا مارسي! إدخلى وإلا سترين". وكان قد أمسك بأطراف ملابسها الأمر الذى أدى إلى انخلاع الثياب عنها لتخرج عارية فى الشارع اللهم إلا من السروال الداخلى.

ياللعار من هذا العنف المنزلى. تجمع الجيران. كانوا يتوسلون، يرجون، يتوسطون، يُحجزون، سعداء لنسيانهم أوجاعهم والآمهم.

أعلن زوجها على الملأ: "هذه امراة مومس". كان الحزام وثوب مارسى فى يده، والهاتف المحمول الذى يدق جرسه فى اليد الأخرى. آه من الرجال! فى أى مرة يتشاجر الرجل مع امراة تكون أول لعنة يصبها عليها هى "أنت مومس".

صاح أحد الحاضرين: "اطلبوا الشرطة!" لماكسويل أشباه كثر فى المجمع السكنى بأى حال من الأحوال. "اطلبوا الشرطة. هذا الرجل المجنون سوف يقتل زوجته فى يوم من الأيام".

كانت مارسى قد وقعت خجلانة فى مكانها، وفيها بعض الكدمات لكنها كانت سليمة. كان يحميها جدار من النساء. أحست بالدم ينزل من فمها؛ تفلت وتقيأت وانخلع سن من أسنانها. وفى صمت أعطتها جارتها قطعة من القماش تستر بها نفسها.

(*) وردت هذه العبارة بإنجليزية أمريكية وبلفظ أمريكى make una help meo والأصل الإنجليزى لهذه العبارة !make someone help me o. (المترجم)

ثم تصل بوديم، وهى لا تزال بزيها الذى تلبسه السجانات، وتتوقف فجأة وتطلب تليفونها المحمول. وترى بوديم المشهد بكامله.

طلبت من ماكسويل: "أعطنى تليفونى المحمول. أعطنى إياه. أيها الرجل العاق الذى لا خير فيه وإلا دبرت لك مكيده".

يعطيها ماكسويل التليفون وهو يحس بالخجل والضعة. كانت بوديم قد هسهست طويلاً وقصيرًا استهجانًا لما يفعله ذلك الرجل، وكالت له اللعنات. كانت بوديم تعرف كثيرًا من مفردات اللعن والسب فى كثير من اللغات. كان ذلك هو مجال اختصاصها.

تفلت عليه "وحش! بعض الرجال لا يقوون إلا أمام النساء فقط. اذهب إلى حديقة السيارات واطلب من أمثالك أن يضربوك ضرب العدم. أنت تكشف هنا فقط عن قوتك أيها السخيف العبيط".

بدأ النُّظّاره والمتفرجون يستنكرون ما يفعله ماكسويل. ثم يستديرون إلى زميلتها وصديقتها الواقفة وهى ترتعد خوفًا، خلف الجيران، وتقول بوديم بصوت عال:

"وأنت يا مارسى، ما طول المدة التى تريدينها لهذه العلاقة العقيمة؟ قولى، ما طول هذه المدة؟ هل تعتقدين أن من له شيء عديم النفع يتدلى بين وركيه، يصلح أن يكون زوجًا؟ إذا كان ذلك يرضيك، ابقى هنا. وعندما تحذفينه سنُحَمِّلك download".

وبعد أن نظرت وهسهست استهجانًا لما يفعله ماكسويل، انصرفت فى سيارتها مغتاظة محدثة سحابة من الغبار وهى تقول: agboya, anu ofia, dan banza, oloshi, oloriburuku.

تتحول النساء ناحية ذلك الذكر الذى لا يعرف الحياء ويعطينه جرعة كبيرة من الهسهسة تعبيرًا عن استهجانهن لما أقدم ويقدم عليه.

"أنت أيها الرجل، يا من تعجز عن شراء تليفون محمول لزوجتك اسمح لغيرك بذلك، من الذى يرضى عن الفقر"(*)

تهكم جار آخر: "أنت رجل تافه" كان ذلك الجار فى منتصف العمر ويلبس بنطالاً قصيرا يصل إلى ما فوق ركبتيه، ليكشف عن رجلين رفيعتين مثل أرجل الدجاج وركبتين مشعرتين كبيرتين "هذا قدر كبير من المصارعة ولا يصلح للتليفزيون. اسمع أيها الرجل لا تمارس المصارعة الأمريكية مع زوجتك".

يستدير هذا الجار إلى مارسى ويسألها: "ما مقدار الألم الذى سببه لك؟" ثم ينصرف وهو يستر أسنانه المائلة إلى الاصفرار، فى محاولة منه لمنع ابتسامة كانت على وشك الظهور على شفتيه.

يا للعار من العنف المنزلى. فى مكان ما كانت مارجريت سنجانا تغنى فيما بينها وبين نفسها" أين الحب، أين الحب، الحب الذى وعدتنى به؟ أهذا هو الحب؟ فى السَّراء والضرَّاء، فى الصحة والمرض. إلى أن يفرق الموت بيننا. أهذا هو الحب"؟

حدث ذلك بعد فترة من مجيئ مودياجا إلى السجن بسبب قتلها زوجها العنيف. تضامنت معها مارسى فى تأكيدها. بلغ ماكسويل من الشر والحماقة مبلغًا يجعل الأخرس ينطق بالكلام. كانت مارسى قد نظرت حولها علَّها تجد شيئًا تحمى به نفسها. هذه هى المزهرية المصنوعة من الكريستال، وهذا هو الهون. قالت فيما بينها وبين نفسها، إذا ما رفع ذراعه على، فى المرة القادمة، سوف أرد الضربة بمثلها.

فى اليوم التالى، كانت مارسى قد حزمت حقيبتها وعفشها وتركت الرجل المصاب بضعف حركة الحيوانات المنوية. كانت حزينة، حزينة جدًا. هى التى

(*) أوردت المؤلفة هذا التعبير بإنجليزيــة عاميــة أمريكيــة: !This man wan kill meo ، والأصل الإنجليزى الصحيح لهذا التعبير هو !This man wants to kill meo. (المترجم)

ظننت أنها عثرت على رجل يمكن أن تستقر معه، وأن البحث عن شريك الحياة قد انتهى، ها هى تعود مضطرة الآن إلى سوق العزباوات، لتبدأ من جديد، فى المربع الأول. لقد هربت إلى منزل آيرين. وهى تشكر الله لأن لها أصدقاء طيبين. قبلتها آيرين دون أن توجه لها سؤالاً واحدًا.

كان تعليقها الأول: "لقد بقيت أكثر من اللازم". وأضافت قائلة: إن لابس الحذاء هو الذى يعرف موضع الألم. "ابقى معنا إلى أن نعثر لك على مكان مستقل".

كانت أيرين هى التى اصطحبت مارسى إلى العيادة، وضمدت جراحها، ومرَّضتها وواستها وعزتها. وذلك على العكس من أخواتها الشقيقات اللاتى غضبن من مارسى لتركها بيت الزوجية وجلب العار على العائلة.

كن يذكرنها: "إن أمنا نالت وأخذت ما هو أكثر من ذلك. كان من عادة أبونا أن يجلدها بالصوت ويخرجها من المنزل. وأنت تعرفين ذلك بصورة مؤكدة. لعلك تذكرين أننا كنا نُهَرِّب إليها الطعام. الأسرة سوف تسوى الأمر فيما بعد وتعود أمنا إلى المنزل فى نهاية المطاف. ينبغى عليك العودة إلى ماكسويل، وإلا لا تعتمدى على معاونتنا لك".

على كل حال، تثبت مارسى موقفها. أنا لن أعود إلى السيد/ تايسون، ولتحتفظ كل منكن بكلامها. وليس معنى أن أمنا تحملت هذه المعاملة القاسية، أناثًا أتحملها "أنا أيضًا. المسألة ليست إرثًا أو ميراثًا، على حد قول قسيس آيرين. وهذا لا يمكن أن يكون نصيبى من هذا العذاب. ونظرت إليها شقيقاتها المتزوجات نظرة استخفاف كما لو كن يرددن القول لها: "لقد فشلت. أنت لا تستطيعين المحافظة على الزواج". لا عليك من أن نجاحهن المزعوم فى الزواج كان مسألة شكلية ليس إلا، وذلك من واقع الحكايات المحزنة التى كانت تسمعها؛ كان زوجا أختيها من المتسكعين فى المدينة. لقد صادفت أحدهما فى إحدى الكافيتريات فى المدينة مع

امرأة فى خريف العمر. وأثناء خروجهما من الكافيتريا همس لها زوج أختها ألا تدفع الحساب للنادل. فقد قام هو يدفع ثمن الوجبة. ترى أكان ذلك على سبيل الرشوة، تساءلت المشرفة العامة على السجون متعجبة؟ أكان ذلك حتى لا أقوم بإبلاغ ذلك إلى استلا Stella؟ إن كان الأمر كذلك، فهذا ليس أمرًا ضروريًا. هما متزوجان وأتمنى لهما حظًا سعيدًا. أنا أسعد حالاً فى عدم وجود هذا الزواج الذى يشبه الجرّافة.

استطاعت المثابرة مستعينة فى ذلك بالكتب الإيحائية، والاعتماد على النفس. فى يوم من الأيام وفى وقت معلوم، أيها المسيح الحلو. هذا هو كل ما أطلبه منك. ساعدنى اليوم، أرشدنى إلى الطريق، فى يوم من الأيام وفى ساعة معلومة. كانت تلك هى أغنيتها المفضلة.

تعجب مارسى بعد ذلك من سير الأمور بهذا الشكل من السلاسة. تعجبت أن الأمر لم يكن يتطلب سوى الوقوف والانصراف ولا شيء غير ذلك. الابتعاد عن جلاد الزوجات، والابتعاد عن العنف، الابتعاد عن ظالمك، الابتعاد عن ذلك الرجل الذى أدمن شرب الكحول؛ الابتعاد عن ذلك الأحمق المصاب بضعف تحرك الحيوانات المنوية. هسهست. لم يكن هو وحده المسئول عن عدم إنجاب الأطفال، وإنما كان صعب المراس أيضًا. كانت آيرين محقة. لقد بقيت فترة طويلة داخل تلك الغلاية، على الرغم من أنى أعرف أسباب ذلك الآن. كنت أخشى أن أصبح وحيدة من جديد، كنت أخشى أن أكون لوحدى، بلا رجل؛ كنت أخشى قيل وقال المجتمع. لكنى كنت أحيا حياة مزيفة فى إطار زواج زائف وخال من الحب.

غاص اهتمامها بالرجال وموقفها منهم إلى مادون نقطة التجمد. لم تعد تثق بالرجال أو تطيقهم. بعد أربعة أشهر من التخييم مع آيرين، أعطتها مصلحة السجون سكنًا متواضعًا مقابلاً لفناء السجن. كانت مارسى تصف ذلك السكن لآيرين بأنه: "قذر ووسخ". كان السكن أفضل قليلاً من بيت الغائط. كان سطح المنزل يسمح بتسرب ماء المطر، كانت الثقوب تطل على ساكن المكان من

الجدران السوداء سواد الدخان. كانت الأرضية غير المغطاه بالأسمنت خشنة ومتشققة. لم يكن في المسكن أي نوع من أنواع السباكة، أو الصرف الصحي.

في اليوم الذي ذهبت مارسي فيه لمعاينة ذلك السكن، كان أطفال كثيرون يتبرزون في أماكن مختلفة مثل البط. كان الذباب كبير الحجم يطن من حولنا ويستقر على البشر مثل اللحم المتعفن. كان المكان عبارة عن مجموعة شبيهة بأكشاك اللاجئين. مجموعة من العشش بحق وحقيقة. كان المكان عامرًا دائمًا برائحة الغائط والبول، والفساء. كانت الفضلات والنفايات تشكل سحابة كثيفة كانت تحجب الأوكسجين كله، وتفسد الهواء. وهنا رفضت المشرفة العامة على السجون ذلك المسكن وعلى الفور.

كانت آيرين قد قالت لمارسي: "أنت لا يمكن لك أن تعيشي هنا. لو حدث ذلك فسوف تتعفنين". ثم قالت بعد ذلك وكأنها تحدث نفسها "إذا كان سكن هيئة العاملين على هذه الشاكلة، يا مارسي، فأنا أرتعد عندما أفكر في الحال التي ستكون عليها الزنازين".

تمكنت مارسي من الحصول لنفسها على غرفتين في المدينة. كانت مارسي وحيدة، ولم تكن تجرؤ مطلقًا على مغادرة سكنها بعد انتهاء عملها وكانت تكتفي بالتسامر مع رواياتها والمأكولات الخفيفة وهي في سريرها؛ كانت تستوعب موقفها، وتتعرف نفسها، وتخطط للمستقبل، وتدرس وحدتها، كما كانت تحس أنها بعيدة عن متناول الخطر. ونظرًا لكل هذا الاسترخاء وكل هذا التناول للوجبات الخفيفة، زادت مارسي وزنًا على وزنها. وعندما حذرتها آيرين من ذلك، عزت ما يحدث إلى سعادتها.

"أنا سعيدة. وخلايا جسمي سعيدة أيضًا وبالتالي فهي تتمدد".

ويحل موعد زفاف آيرين. كانت إيكايت Ekaette تعمل في الجمعية الوطنية. بارك كثيرون من رجال القانون مراسيم زواجها. كانت مارسي قد جلست خلف

يعقوب الشريف Honourable yacob. تثاءب ذلك الرجل بلا خجل فى وجه مارسى، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة فيها شيء من السذاجة والحزق، وراح يطاردها ويعاكسها بين الحين والآخر. وعندما حان موعد الرقص، لم يكن قد رش عليها النيرات والدولارات الورقية فقط، بـــل إنـــه كان قد أعطاها أيضًا بطاقة معلوماته أو بياناته الشخصية، رجاها أن تتصل به لقد تشمم الرجل رائحة الجنس خلف أردافها الكبيرة، وخلف وركيها الغليظين، ومن تحت تنورتها. وتشمم الجنس أيضًا فى ثدييها المتمردين اللذين يهددان بتمزيق البلوزه طلبًا للفكاك.

أقسم فيما بينه وبين نفسه "ستشفينى من ضعفى. سوف أحيا معها وهى إلى جانبى، ستنهى رجولتى الإجازة المفروضة عليها وتستأنف مهمة القتال من جديد".

دافعت الطبيعة عن حاله. فى ذلك الوقت، كانت المشرفة العامة على السجون قد مضى عليها عام بلا رجل. كانت فى وحدتها، كانت تداعب نفسها مرة أو مرتين فى جوف الليل فى صحبة عشاق خياليين. لقد استسلمت لسحر يعقوب الشريف. كانت قد قالت لنفسها، ولو لبرهة قصيرة. أنا لا استطيع الزواج من حاج من الحجاج لأننى لست واحدة من أتباع الشريعة. سوف أعطيه موعدًا غراميًا، بسبب إخفاقى فى حبى، ثم أتراجع بعد ذلك وأمضى قدمًا.

على كل حال، لم تعتمد مارسى على قوة الشهوة والمال. كان يعقوب الشريف قد خطط لإبقائها معه أطول فترة ممكنة. يا لها من صبية جميلة! تعجب فيما بينه وبين نفسه عما إذا كان النيجيريون قد أصيبوا بالعمى الذى جعلهم يتركون هذه الصبيه شرقانة طوال هذا الوقت. شكر طالعه الذى سمح له بتاقطع طريقيهما. كانت مستنيرة، وفارعة الطول وجميلة. وخرج عن أسلوبه المعتاد وراح يوليها كرمه واهتمامه. استأجر لها شقة فى مكان طيب من البلدة ودفع إيجار عامين مقدمًا. واستمر فى تغنيه "ستشفيني؛ ستمرضينى وتعيدينى إلى الحياة". كانت كلما طلبت تجد أمامها عشرات الآلاف من النقود من مختلف العملات. فى بعض الأحيان لم تكن بحاجة إلى الطلب أو السؤال. المجوهرات، الأثاث، الملابس

وحقائب السيدات، كل ذلك كان موجودًا. أثبت أيضًا أنه رومانسى، إذ كان يرسل لها البطاقات، والزهور الصناعية عن طريق مساعده، وعن طريق سائقه. كل ذلك كان يحدث على شكل مفاجآت. كان لطيفا ومحبًا، وحنونًا ودافئًا. وكان لديه حس عالٍ بالظرف وخفة الظل. كان يمطر مارسى عندما يكونا مع بعضهما بالحكايات عن الأحداث التى تدور فى المجلس وفى الفيلا، ويروح يقلد زملائه وقيادة البلد بطريقه هَزَلِيَّة. كانت مارسى تنخرط فى الضحك إلى حد أن جانبيها كانا يؤلمانها.

عندما يكونا بعيدين عن بعضهما لسبب أو آخر، فإن المسافة تباعد بينها كما هو الحال الآن، كان يهاتفها ويستمران فى الحديث إلى ساعة متأخرة من الليل. ولهذا السبب أعطاها تليفونًا محمولاً وكان يشترى لها كروت أو بطاقات الشحن بصورة مستمرة. كان يحكى لها عن أشياء سيفعلها فى المستقبل عندما يصبحا سويًا مـــن جديد. كانت مارسى تتعجب من الزوجة فى بعض الأحيان. هذا يعنى أنهما لا يمكن لهما تقاسم غرفة النوم فى مثل هذه الظروف. نساء كثيرات كن راضيات عن بقاء أزواجهن تحت سقف واحد معهن، وارتباطهم بالمنزل؛ وكن يتناسين عدم إخلاص رجالهن تليفونيًا. وعندما تخطر على بالها تلك السنوات العجاف التى ضيعتها مع ماكسويل، ضارب الزوجات، المريض بمرض ضعف حركة الحيوانات المنوية. "ماكس السيء. الله لا يوريه الخير"، كانت تلعنه وتسبه قائله:

. Anu ofa! Agbaya!

لم تكن الفترة التى أعقبت خروجها من بيت الزوجية وردية كلها. فى مطلع هذه الفترة، أرسل ماكسويل لها رسائل اعتذار، وكان يرجوها العودة. قال: إنه آسف. هذا من فعل الشيطان؛ ولن يكون عنيفًا بعد ذلك. وحشته (خطر ببال زوجته المستبعدة إنه يتوحش طاسة الشراب). وعندما لم تستسلم لرجائه الزائف، استأنف نصوصه البذيئة والمسيئة، واستأنف السباب واللعان: يا مومس، يا عديمة النفع، يا من لا تساوى شيئًا، يا منحلة، يا نهاية النقود. ثم تحول بعد ذلك وراح يصدر لها رسائل التهديد؛ "جازاك الله، ستدفعين ثمن ذلك (كانت تتعجب، ثمن ماذا؟)، سأمسك بك، وسوف ترين، (أرى ماذا؟ ما الذى سأراه غير ذلك؟ أنا أرى الجحيم وأنا تحت سقفك).

كانت قد تجاهلته. غضب جهنم أقل من غضب الزوج المرفوض. هي ويعقوب الشريف صديقان منذ عامين. تلك كانت واحدة من أسعد اللحظات في حياتها.

على كل حال، كان الرئيس يعقوب متزوجًا. لم يكن في متناولها بصورة مستمرة. لم يكن يستطيع المجيء، في بعض الأحيان عندما تكون بحاجة إليه. كانا في إحدى المرات، وقد حددا موعدًا للقائهما. وكانت تتطلع اشتياقًا لذلك اللقاء، وكانت مستعدة عاطفيًا لذلك اللقاء الغرامي، فقد أخذت دشا، ودهنت جسمها بمسحوق طيب، لكن الرجل ألغى الموعد في اللحظة الأخيرة، تاركًا إياها على نار وصفيح ساخن.

همس لها في التليفون المحمول: "نحن في اجتماع مع الشخصية المهمة" لجنة المجلس الفلانية، ولجنة المجلس العلّانية. اللجنة الحزبية التنظيمية العلّانية، واللجنة الحزبية التنظيمية التركانية. حدث ذات مرة أن غاب عنها شهرًا كاملاً، أو ما يزيد على الشهر. حدث ذلك أثناء جولة التّعرُّف التي قامت بها اللجنة لتعرف التشكيلات الواقعة تحت إشرافها. كانت تشاهده في التليفزيون، أو على حلبة أو منصة المجلس، أو عندما تُجْرى معه بعض المقابلات بخصوص العمل، في مقر الرئاسة، كانت تراه في الجولات، لكنها لم تكن تحظى به. كانت مارسي قد حضرت مؤتمرًا خارج البلدة التقت فيه "فرادي دي" Friday. المحامي "فراي دي" كان رجلاً بسيطًا يعمل في مجالا الاتهامات والضمانات المالية (الكفالة)، وهذه هي الصفة التي قدم بها نفسه إلى مارسي. كانت قد اصطحبته معها في سيارتها. هل من مصلحتك يا يعقوب الشريف، أن تجعلني أنتظر كل هذا الوقت.

يزاد على ذلك، أن "فراي دي" كان شمَّامًا في مسائل النساء. العجيب أن إحدى خليلاته السابقات لم تكلف نفسها مشقة وصوله، ولم تحاول انتهاز الفرصة والإفادة من الوقت في تدريبه. كل الذي كان يعرفه ذلك المحامي الصغير، هو أن هناك ثقب في مكان ما. وما عليه إلا أن يحفر في ذلك الثقب. في أحيان كثيرة بعد

أن يقبح ويرقد لاهثا إلى جوارها، استعدادا للنوم، تروح مارسى تشبع نفسها بيدها فى هدوء. الشيء الوحيد الطيب فى ذلك المحامى هو أنه فى المتناول دائمًا. فى الوقت الذى كان فيه يعقوب الشريف مشغولاً بتجارة الخيول السياسية، على حد قوله، كان "فراى دي" Friday جاهزًا دومًا. فيما عدا أنه الآن موجود فى دورة من الدورات التدريبية.

على امتداد الاثنى عشر شهرًا الماضية أو نحو ذلك، كان هذان الرجلان هما اللذان يجعلان المشرفة العامة على السجون تسهر الليل بطوله. وقد نجحت إلى الآن فى ألا يعرف أحدهما الآخر، كانت مارسى تعرف أن ذلك اليوم؛ يوم التعرف أصبح قريبًا وغير بعيد. تذكرت أن الرجلين اجتمعا فى منزلها فى يوم من الأيام. كانت مع "فرايداى" بعد موعد أخلفه الشريف يعقوب. بعد الانتهاء كانا مسترخيين، يشاهدان فيلمًا من أفلام نوليود Nollywood، وفجأة راح جرس الباب يثبت وجوده.

تعجبت مارسى قائله: "أيها الملائكه الأطهار!".

تساءل المحامى "من هذا فى هذا الوقت؟" فى كل مرة تكون فيها مع واحد من رجليها، تخشى أن تكون هناك أية إشارة من الإشارات التى يمكن أن تدل على الآخر.

كانت مارسى تعرف حتى بلا تفكير أن ذلك الطارق قد يكون يعقوب الشريف. يعقوب الشريف هو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يأتى فى هذه الساعة من الليل، مثل لص من اللصوص، ويضغط زر الباب كما لو كان هو صاحب الشقة. ربما كان عائدًا من حفلة من حفلات الكوكتيل فى سفارة من السفارت أو من عشاء رسمي. مرت على ذهنها خيارات كثيرة. هل تتظاهر بأنها ليست موجودة؟ وتندفع ناحية المصباح وتطفيء النور. صمت. لعله يظن أنى لست هنا. سأقول له إنى خرجت مع آيرين. ثم يغضب بعض الشيء، لكن الأمر سيمر.

تساءل المحامى "من الطارق؟".

"لابد أنك عمى أو ربما تكون رئيّسي".

تساءل "فراى دي" Friday وهو لا يصدق ما يحدث. فقد أوشك الوقت أن يكون منتصف الليل "وفى هذه الساعة بالذات؟".

ارتبكت. تزايدت ضربات قلبها. كاد أن يُشلَّ ذهنها "أنت تعرف أحوالهم".

"اذهبى، وتبينى طارق الباب".

مشت مارسى على أطراف أصابعها إلى أن وصلت إلى صالة الشقة. كانت عارية. وتعود لتلف قطعة من القماش حول صدرها. وصلت قطعة القماش إلى ركبتيها؛ وعندما تدبرت الأمر خلعت قطعة القماش وارتدت قميصًا من قمصان النوم.

كان الجميع مذعورين "من الطارق؟".

"إنه رئيّسى. وإذا ما سكتنا وهدأنا سيذهب لحال سبيله".

قال عشيق اللحظة وهو يرفع جسمه عن السرير "أظن أنك يجب أن تفتحى الباب يا مارسى، دعينى أواجهه. وإلا فأنا أشم أمرًا سيئًا". خطر ببال مارسى، هو يود أن يصدر لى أوامر فى بيتى. أزعج إلحاحه المستمر محاولات التركيز من جانبها كيما تجد مخرجًا من الموقف. كانت تريد أن تقول له: لعلمك الخاص، أن الرجل الواقف على الباب هو الذى اشترى السرير الذى أنت فيه الآن. لكنها تراجعت. وبدلاً من ذلك صرخت فيه وطلبت منه التزام الصمت.

"أفضل عدم فتح الباب. قد يحتاج إلى استعمال دورة المياه أو شيء من هذا القبيل".

"هل هناك شيء بينك وبين رئيّسك يا مارسي؟"

صفقة كبيرة. "لا شيء لكنى لا أريد له أن يرى رجلاً فى شقتي". يستمر دق الجرس، دون توقف. كانت تود أن تقول له: وهو أيضًا يدفع إيجار هذه الشقة.

يدق جرس تليفونها المحمول. يعقوب الشريف هو الذى اشترى لها هذا

التليفون المحمول. لم يكن لديها الآن أى عذر من الأعذار. ولولت قائلة: كان يجب أن أغلق التليفون. عندما تكون مع أى منهما فإنها تغلق التليفون حتى لا تخرج القطة من الكيس. لكنها نسيت هذه الليلة. وفى ذروة الانفعال كانت قد نسيت عمل الاحتياطات المعتادة.

"وهو كذلك. سأفتح الباب، لكن أدخل أنت فى دولاب الملابس، تحسبًا لاحتمال استعماله لدورة المياه".

يحمل العشيق "ب" سرواله مرتبكًا ويدخل إلى ضلفة الملابس فى الدولاب. كانت مارسى قد رفعت الحشية (المرتبة) ووضعت بقية ملابسه أسفلها. وأدخلت حذاءه الكبير تحت السرير. قالت بصوت عالٍ حتى يسمعه الزائر لكنه ضعيف على نحو يوحى بالمرض. ماذا لو كان يريد واحدًا سريعًا؟ أنا مبتلة تمامًا من أسفل. سيعرف بالقطع. تناولت سروالها الصغير من على الأرض، ووضعت داخله حفاضة، ومشت ناحية الباب. وتوجهت فى مشيها صوب الباب إلى بطرمان الفازلين، وغمست إصبعها فيه ودهنت وجهها. وبدا عليها الإرهاق والمرض، وكأنها كانت توشك على الوفاة.

."Sanu."

دوى صوت يعقوب الشريف عند الباب المفتوح "!yaywa" كانت ابتسامته تجعلها هى الأخرى تبتسم.

قال المشرِّع، وهو يدخل الشقة: "ظننت أنك لست فى الداخل".

"أخذت قرصًا منومًا. لقد جاءتنى الدورة. وانتابنى صداع مخيف، وعليه ابتلعت قرصين من الفاليوم ونمت نومًا عميقًا".

"ذهبت لحضور العيد الوطنى لزمبابوى، هل هى زامبيا؟ وقلت أمر على حبيبتى قبل الذهاب إلى المنزل كيما تراودنى أحلام حلوة هذه الليلة".

"أشكرك يا سيدى. لقد فعلت خيرًا. أنا آسفة لما أنا فيه، وأنت تعرف ما هى تلك الأقراص المنومة". وضعت إحدى يديها على صدغها، وراحت تهدهد رأسها. وأغمضت عينيها لفترة وجيزة وكأنها تشعر بالألم.

"سوف أبول، وأواصل حديثى بعد ذلك". حقًا، تذكرت مارسى أن مثانته ضعيفة. هو يبول بصورة مستمرة. تسمرت مارسى فى مكانها بينما اندفع يعقوب الشريف إلى غرفة النوم. كان يعرف طريقه جيدًا. دعت أن يظل المحامى ساكنًا بلا حراك تحت المشاجب (الشماعات). قال ذهنها: مشرِّع ومحام. هو يعانى من تقلص مجرى البول. يستغرق وقتًا طويلاً فى التبول. صبرا يا صديقى العليم، صبرًا، أرجوك. نقطة بعد نقطة بعد نقطة. وأخيرًا يندفع البول. كانت تلك أكبر اندفاعاته التى تسمعها فى حياتها كلها. صنبور مفتوح.

اخرج، اخرج، أرجوك. أسرع من فضلك. لا تتمدد على السرير مثلما تفعل كل مرة، لا تجـلس على السرير. قـررت، سوف أبقى فى غرفة الجـلوس حتى لا يطول بقاؤه فى غرفة النوم.

أشار إليها من غرفة النوم. "تعالى إلى، يا حبيبتى".

عفوك أيها الرب، عفوك. وراحت تجرجر قدميها وهى تتأوه.

سألها باهتمام "هل أنت متأكدة أنك ستكونين على ما يرام؟" ثم يجلس على السرير من جديد.

لاحظ المحامى كلام الغزل وظهره منحنٍ، ويتعرق داخل الدولاب.

"نعم. هذا شيء طبيعى معى. لكنى سوف أتحسن غدًا. الدورة فى بدايتها تكون على هذا النحو"

راح يعقوب الشريف يفتش جيوبه.

"وهو كذلك، كان يجب عليك الاتصال بى كى تعلمينى. خذى هذا المبلغ وديرى بالك على نفسك. إذا كنت بحاجة إلى الذهاب إلى العيادة، أبلغينى. لدينا

عيادة جيدة فى المجلس، مجهزة تجهيزًا حسنًا. ليست مثل المستشفيات المحلية التى ليس فيها كل شيء على ما يرام. سيكشف عليك الأطباء. وسوف أبلغك بذلك". أمسك بالرزمة البيضاء البارزة من جيب ملابسه الفضفاضة.

"أشكرك أيها الشريف. أنت حنون جدًا على، لكنى سوف أتحسن. هذا أمر أكيد. هذا أمر طبيعى مع النساء". وراحت تهدهد رأسها كما لو كانت بيضة مخافة أن تسقط منها.

"وهو كذلك، أتمنى ذلك".

تمشى ناحية الباب. إلى اللقاء، إلى اللقاء. يُفتح الباب، يغلق الباب. تنهيدة ارتياح. يخرج المحامى بكفالة، وهو يتعرق.

هددها قائلاً: "سوف أتهمك باحتجازى احتجازًا غير قانونى أيتها المشرفة العامة على السجون". كان سرواله يتدلى من يديه، أما رجولته التى كانت منتصبة منذ برهة قصيرة مثل الطاووس المتباهى فقد انكمشت إلى ما يشبه ذيل كلب، فيما بين وركيه. لم يكن أمامه متسع من الوقت حتى يرتدى لباسه قبل أن اضطر إلى الاختفاء تحت الأرض.

كان غاضبًا. كانت مارسى تعرف أنه لولا عُريه لواجه المشرِّع. كان المحامى من النوع سريع الغضب. الرجال عندما يتعرون يكونون منكشفين ومعرضين. يجب ألا يغيب ذلك عنى.

تنحنى مارسى أمام القاضى المُتخيل "سيدى، أنا مذنبة من واقع الاتهام؛ لكن صديقى العليم هنا، المحامى فرايداى سوف يدفع عنى الكفالة المطلوبة". مر الحادث عليهما مر الكرام، لكن اعتبارًا من ذلك اليوم بدأ "فرايدى" يتشكك فى المشرفة العامة على السجون. نعم، هما يضحكان، وعاد إلى الفراش.

"أيتها المشرفة العامة على السجون تخلصى من هؤلاء المسيوليين(*) Methus'elahs. المستقبل لنا نحن الشباب أصحاب الدم الحار".

تلك كانت النتيجة الوثيقة التى وصل إليها المتجادلان. وتتزايد ضربات قلب مارسى كلما تذكرت تلك المناسبة.

* * *

راحت تحك مكحلتها من جديد "أنا فى حياتى رجلين وأنا جافة مثل ريح الهرمتان (الهبوب)". وأخذت تتأمل مسألة التلاعب بنفسها. كانت تتساءل عن خلق الله لنا ذراعين طويلتين دون أن نستعملها فى الملذات. هل قرأت هذا الكلام فى مكان ما أم أنه من عندياتها هي؟ من تأليفى على حد قول أنتلّى.

"يراودنى إحساس بأن أيامى مع اثنين فى آن واحد، قد أوشكت على الانتهاء. كيف؟ أنا لا أعرف كيف سيحدث ذلك، لكنى أرى أن تصفية الحساب أصبحت قاب قوسين أو أدنى. من سأختار منهما؟ هل أختار مسيوسيله أم صاحب الدم الحار؟ أتخلص من مسيوسيله. المستقبل لأصحاب الدم الحار. لكن كيف يمكن التباهى بأصحاب الدم الحار؟ قررت أن تكون جاهزة عند اللزوم. سوف أتخلص من أول واحد منها يصل إلى. يا بنات الأمر يرجع لكن".

نهضت من سريرها، وخلعت عنها ملابسها الخارجية، وراحت تنظر إلى شكلها فى المرآة. أيتها المرآة، أيتها المرآه المعلقة على الجدار، وبدأت تقول: "أنا أعرف، أعرف جيدًا أنى لست أحسن الحسناوات، لكن شكلى مقبول وأنا امراة فى الأربعين من عمري". ونظرًا لأن ثدياها لم يُرْضعا، فقد كانا لا يزالان مستديرين وبارزين ومتماسكين. لقد علمتها شريكتها فى غرفة نوم الجامعة كيف تعرف أن ثدييها لا يزالان متماسكين، وإذا ما بقى القلم فى مكانه فإن كسب السباق سيكون

(*) مسيوسيلة: بطريرك من قبل أيام نوح عليه السلام ويقال أنه عاش ٩٦٩ عامًا والكلمة عبرية الأصل. (المترجم)

للجاذبية. أمسكت مارسى بقلم الرصاص ووضعته تحت ثديها الأيمن ودفعت صدرها إلى الأمام لتسهيل هذه العملية. ويسقط القلم على الأرض. يا له من فرح! كررت التجربة نفسها على الجانب الأيسر. بقى القلم فى مكانه، عدلت من وضع صدرها مما أدى إلى تحريك هذه الأداة من مكانها. السبب فى عدم سقوط القلم لابد وأن يكون العرق. أو الجاذبية. كل شيء يتجه يميناً، وإلى أقصى اليمين.

نظرت إلى بطنها. كانت المعدة سمينة ومتدلية فوق بطنها "هذا يام وفوفو مطحون، أشكرك على هذا كله". استدارت وراحت تلقى نظرة على المنظر الجانبي. أنزلت أو خلعت سروالها. نعم، لقد ترهلت المعدة بعض الشيء. كان ردفاها قد برزا من ظهرها مثل تحويلة من تحويلات الطريق ليلتقيا بوركيها. هذه التمرينات، والاستعراضات، والتدريبات العسكرية جعلت أطرافها الخلفية عامرة بالعضلات. قالت فيما بينها وبين نفسها:لا يزال فيكِ يا مرسلينا أوكو ــ أجلوجو شيء من البنية الجيدة، أيتها المشرفة العامة على السجون. قربت وجهها من المرآة وراحــت تفحص الحبوب والرؤوس الســوداء. لا يوجد شيء من هذا القبيل. هى لا تتعاطى الأشياء الزيتية. لم تكن المكسرات والأشياء المحمرة من بين ما تناولته. لا، شكرا لك. كانت تشرب كمية كبيرة من الماء. النتيجة: بشرة صافية. كانت صديقاتها وزميلاتها يسألنها عن الصابون والكريم الذى تستعمله. الواقع أنها كانت تستعمل الصابون المحلى، وبعض المرطبات المحلية ذات الرائحة الطيبة.

نظرت مارسى إلى نفسها. نظرت إلى عينيها، وابتسمت فى خجل وخاطبت صورتها فى المرآة: "أنت بنت طماعة. بعض النساء ليس لهن رجل فى حيواتهن، أما أنت فلديك رجُلان. أنت بنت طماعة".

الفصل الثانى عشر

عندما رفع محامى حقوق الإنسان حقيبته من فوق السير الناقل، خطر بباله أنه لن يكون هناك أحد فى انتظاره فى صالة الوصول. خارج مبنى المطار، تفاوض مع سيارة من سيارات الأجرة لنقله إلى منزله.

سأل السائق: "كيف حال البلد؟".

نظر السائق إلى الراكب من خلال المرآة. "متى سافرت؟".

"منذ حوالى ستة أسابيع".

رد عليه: "مثلما تركته". وينظر الاثنان إلى الساعة الموجودة على لوحة عدادات السيارات ويتساءل الراكب "هل هذا الوقت صحيح؟".

"نعم. هل تود الاستماع إلى أخبار شبكة العمل؟".

"أرجوك".

.... الأخبار يقرؤها آفى سامسون. دشن الرئيس أوبا سانجو اليوم افتتاح أعمال اللجنة الخماسية الخاصة بالعفو الحكومى، والتى يرأسها القاضـــى المتقاعد تور Tor اليوموكو. وسوف يكون السيد جيمس أوجورو سكرتيرًا لتلك اللجنة. أما الأعضاء فهم....

لم يستوعب "فراى دى" Friday الأسماء كلها:

تتمثل مهام اللجنة فى زيارة مختلف المؤسسات العقابية فى البلاد، ومقابلة النزلاء وتقديم التوصيات

للعفو عنهم وإخلاء سبيلهم. عند تكليف اللجنة، أورد السيد الرئيس المادة ١٧٥ من الدستور الخاص بالجمهورية الفيدرالية (١٩٩٩)، الذى يخول لرئيس الجمهورية سلطة العفو عن الأشخاص المحكوم عليهم فى الجرائم .... يزاد على ذلك، أن الرئيس قال: إن هؤلاء النزلاء هم إخواننا وأخواتنا ومن ثم، لابد من تطعيم العدالة بالرحمة حتى تعطيهم فرصة أخرى فى الحياة. وحث الرئيس أعضاء اللجنة أن يأخذوا عملهم مأخذ الجد وأن يتأكدوا أن المحسنين التأبيين بحق هم الذين استفادوا من هذا العفو. منح هذا العفو يعد جزءًا من النشاطات الخاصة بالاحتفال بالذكرى السنوية الثانية والأربعين للحصول على الاستقلال. ويتعين على اللجنة تقديم تقريرها فى غضون ستة أسابيع.

فى تطور آخر....

* * *

فى المساء

خلال فترة الترفيه، جاءت أنتلى إلى بردجت. "ماذا حدث؟ كيف جئت إلى هنا؟"

"هذه قصة طويلة".

"خبرينى. لأن الوقت كله لنا فى هذه الدنيا".

نظرت بيا (بردجت) إلى أنتلى ورأت فيها شريكة عمرها، رأت فيها روحًا حنونًا. كان لون شعر أنتلى بنيًا فاتحًا بسبب الإهمال. كان شعرها قصيرًا ومتموجًا فقد درجت وهى فى السجن على عدم تمشيط شعرها. كانت أنتلى طويلة ورفيعة.

كان صدرها له طبيعة صدور الرجال. كان صدرها يكشف عن حلمتين من مدببتين مثل حلمات زجاج الإرضاع. كانت عيناها حولاوين بسبب قصر النظر.

درجت على القول: "النظر الكثير في الكتب يتلف عينيي". وبسبب استمرار هذا الحول أدى ذلك إلى ظهور شوارب في أطراف عيناى.

بدأت بيا Bea (بردجت) كلامها، "الموضوع" يتعلق بالأرض. أنا الكبرى بين خمسة شقيقات. توفى والدى في العام الماضى. وعقب الوفاة مباشرة بدأت الأسرة الممددة تطبق علينا، بل وصل الأمر إلى حد اغتصاب أراضينا. هذا واحد يريد أن يُفلح هذه الأرض؛ وهذا آخر يود إقامة مجمع على الأرض الأخرى. وهذا ثالث يود أن يجنى ثمار نخيلنا في موقع آخر. وعندما اشتكينا من ذلك قالوا لنا: أنتن بنات ويتعين عليكن المسارعة إلى منازل أزواجكن. وأعادوا كلهم أمى المسكينة إلى منزل والدها لأنها لم تنجب ذكورًا. قدمت التماسا للشرطة لكنهم قالوا لى هذه مشكلة عائلية. وأننا يتعين علينا علاجها واستعادة السلام بيننا".

"اعتادوا على قول ذلك بصفة مستمرة. لكن خبرينى ألم تكن هناك وصية؟ هل توفى والدك بلا وصية؟".

"ترك والدى وصية. كان والدى مستنيرًا. لقد تقاعد قبل وفاته وهو مدير لمكتب البريد في بلدنا. ترك وصية، ترك كل ما عنده لأمى وبناته الخمسة. لكنك تعرفين أننا نحن النساء لاحق لنا في القرى. قبل أن يتوفى والدى رجته أمى أن يتزوج امراة ثانية. في محاولة منه لإنجاب الذكور أو أن يكون له أبناء ذكور من خارج نطاق الزواج. كانت أمى على استعداد لقبول هؤلاء الذكور. لكن رجلى العجوز رفض ذلك. وهذا راجع إلى ضميره، وراجع أيضًا إلى كونه مسيحيًا. ليته فعل مثلما قالت أمى. لو كان له ولد من أى مصدر من المصادر لما وقعت في هذه الورطة، لأن ذلك كان سيمنع أى إنسان من العبث بممتلكاته أو بحيواتنا".

تفلسفت أنتلى "يجب أن لا نضيع وقتنا سدى فى ترديد كلمة "لو". وحيثما نجد أنفسنا فى لحظة زمنية معينة، فهذا هو المكتوب لنا. هذا يعنى أن تبدأ الأمور من هنا".

قالت البنت: "جاء خُطَّابٌ كثيرون يطلبون يدى فى ذلك الوقت" وقد تبدت فى عينيها اللامعتين نظرة ترمى إلى بعيد. "تحاشيت كل هؤلاء الخطّاب؛ لأن الزواج قد يشتتنى، ويفسد خططى التى أضعها لتأمين ميراث أسرتى. وعليه شجعت شقيقاتى على المضى قدمًا وألا تنتظرننى. تزوجت بنتان صغيرتان وذهبتا لحال سبيلهما. نحمد الله.

"بلغ السيل الزبى فى يوم من الأيام، عندما قررتُ مواجهة أولئك المعتدين. نظمت شقيقتاى غير المتزوجتين، وسبقتا ذات صباح واحدًا من أولئك المعتدين، إلى مزرعتنا التى اعتاد أن يفلحها. لم يكن معنا سلاح، كل ما كان معنا كان عبارة عن عصى وهراوات. كان آتى Atte على الجانب الآخر لديه أدواته الزراعية؛ كان لديه فأس، ومنجل، وسيف قصير على ما اعتقد. وقفت فى طريقه عندما كان يتجه إلى الأرض. وحاولت أن أشرح له أنه ليس لـــه أى حـــق فى الأرض، ويجـــب ألا يحاول اغتصاب هذه الأرض. وقال شيئًا شبيهًا بالعبارة التى تقول: من ذا الذى سيوقفه. وعندما حاول شق طريقه عنوة خلال المتراس، نهضنا واقفات، واستخدمت العصا لإبعاده عن المكان. مجرد دفعة قوية عند وسطه". وراحت تفعل بيانًا عمليًا لتلك الدفعة الشبيهة بدفعة التجديف من قارب من القوارب. "الذى أعرفه بعد ذلك، أن الرجل سقط على الأرض، وهو يلهث وكأنه منقطع الأنفاس، بل إن فمه كان يُزْبد أيضًا. وبعد ذلك بدقيقة واحدة، فارق الرجل الحياة. وجاءوا بى إلى هنا". وسقطت عند هذا الحد، دمعة على خدها.

أطالت أنتلى النظر إلى بقعة فى قدم بيا Bea. أخطاء، غضب، اندفاع، وعمل غير محسوب. هذه هى أسباب وجودنا هنا.

"هناك أمر لا يفهمه كثير من الناس، وهو أنه بسبب مشكلة الأرض هناك فيما بيننا أناس موتى أحياء، ليسوا بحاجة إلى شيء سوى مجرد دفعة ليسقطوا ويصبحوا في عداد الموتى. هل حاكموك؟"

"لا، أنا أنتظر المحاكمة. لكن يجب أن أه .... هل تفهمين؟" وتنظر حولها. "أمي، شقيقاتي، كيف سيكون حالهم؟".

"تقولين حياتك. أنا أعرف إحساسك. كم عمرك؟".

"ثلاثة وعشرين عامًا".

"أنت صغيرة جدًا، ظننتك قاصرًا. تستطيعين الدفع بالدفاع عن النفس، أو القتل الخطأ في أفضل الأحوال. وينبغي ألا تكوني في الزنزانة رقم ١٠ وو. هذه الزنزانة للمحكوم عليهن بالإعدام".

"ينبغي أن أكون في المستشفى. لقد اغتُصبت في المحطة. وها أنذا وحيدة من جديد".

ثارت مشاعرها المكتومة وانفجر السد. وقفت أنتلي بلا حراك لحين انتهاء تلك النوبة. كلهن مررن بمرحلة البكاء هذه، مرحلة إدراك الإنسان لفقدان الحرية، وعجز الإنسان عن فعل أي شيء في هذا الأمر. حياتك السابقة، البعيدة جدًا، لم تكن سوى فكرة بعيدة. هل انتهت تلك الحياة البعيدة إلى الأبد؟ إذا كانت الإجابة بنعم، فذلك يعني الوفاة. هذا يعني أننا متنا عن كل ما حدث من قبل، مررنا خلال شرخ الزمان إلى عالم النسيان، إلى عالم اللا وجود.

ربتت أنتلي على ذراع بيا Bea "امسحي دموعك، يا بيا. تشجعي". ويبدأ التشمم، والارتعاد ينحسران تدريجيًا. "أتمنى أن أقول لك إن هذا الألم سيمر، سينتهي، لكني لا استطيع ذلك. عليك أن تتحملي هذا الألم مثل النزيلات الأخريات".

بقيتا صامتتين. تركزت عينا بيا على بقعة فى الأرض. وأمسكت فى ملاحظة المرأة الأخرى التى كانت تداعبها بعينيها. كانت الشهوة تتملك أنتلى. وهنا خطر ببالى أنتلى.

"ربما تكونين بحاجة إلى إجهاض، عملية تفريغ لا ...".

"أنا أفهم ما تقولين. لقد فكرت فى هذا الأمر. لكن لن يحدث ذلك. والحياة مليئة بالموت فعلاً. ولماذا أقضى على حياة بريئة".

"إنه مجرد جنين، يابيا. البعض يقولون: مجرد كتلة من الدم، لم تبث فيها الحياة بعد".

تساءلت بيا وعلى وجه السرعة "أهو دم بقرة إذن؟" وراحت تنظر إلى المتحدثة "أنا ضد عقوبة الإعدام. فلماذا نمارسها نحن بأنفسنا؟ سأحتفظ بهذا الطفل. إن كان هناك طفل. وهذا لم يتأكد بعد".

لم ترد أنتلى. كانت أنتلى تعرف أحكام الرب، كانت تعرف كيف يدبر الأمر. سيكون هناك طفل. كانت شبه متأكدة من ذلك.

"لو كنت متزوجة، وتبحثين أو تتطلعين إلى طفل فلن تكونى حاملاً. هؤلاء الذين لا يرغبون فى الأطفال هم الذين يحصلون عليهم".

أكدت بيا: "لو أن الرب يشاء الخلق من الاغتصاب، فلا مراد لمشيئته وعليه يجب أن أتحمل ذلك العبء الإضافى". أضعف الإيمان أن يتطلع الإنسان إلى شيء، إلى حياة فى هذه النهاية الميتة.

"على الرغم من ذلك، أظن أن هذا خطأ. أعنى فى هذه البيئة بالذات". أشارت بيدها إلى المُسوَّر "من هو الأب؟ ما هو أسمه، وما هى قبيلته؟".

"أنا لا أعرف. لقد اغتصبت من ثلاثة رجال جبناء، مرات عدة".

"على حد رؤيتك. هذا هو السبب وراء تخلصك من هذا الجنين".

قالت النزيلة المغتصبة: "كل واحد من الرجال الثلاثة سيكون والده. وستكون كل قبيلة قبيلة له. وبهذه الطريقة سوف يتعلم عدم التمييز، ويدعو كل إنسان أخا وقريبًا له".

قالت بردجت فيما بينها وبين نفسها قد يكون ذكرًا، الذكر الرائع. وبذلك يمكنه أخذ اسم والدى وأخذ ثروته أيضًا.

خطر ببال أنتلى أن ذلك نوع من السذاجة. كل رجل له أب؟ أو بالأحرى كل رجل عن نفسه فقط.

"خلاصة القول أنك هنا لأن أمك فشلت فى إنجاب الذكور؟".

"هذا صحيح إلى حد ما".

"نظرت أنتلى إلى البنت عن قرب مرة ثانية. خطر ببالها، نشكر الله لأنها رفضت خيار الإجهاض. من الذى يمكن أن يقوم بهذه العملية؟ هذا سجن لا يستطيع توفير أقراص الباراستامول paracetamol! هل يمكن أن يقوم بعملية جراحية، عملية إجهاض. سيكون ذلك يومًا مشهودًا. يوم انتهاز الفرص على حد قول هوراس Horace.

سألت بردجت: "هل أنت هنا منذ وقت طويل؟" كيما تغير موضوع الحديث. يبدو أن ذهنها كان مشغولاً بالجنين. اتركى هذا الأمر يا أنتلى: "هل تعرفين أى كسر من الكسور؟"

"أنا لا أعرف شيئًا عن أى كسر من الكسور".

"إذن، ما أفضل الطرق فى رأيك للخروج من هنا؟"

قالت أنتلى همسا: "لقد فكرت فى ذلك". ونظرت حولها. لم يكن أحد من لابسى الزى الرسمى حولها. لا تأخذى الأمر على محمل الجد، وإنما هى طريقة أسلّى بها نفسى وأوظف بها ذهنى وأحافظ بها على نشاط المادة الرمادية، لعلك

تعرفين ذلك. وسبب ذلك أنه لا فرق بيننا نحن النزيلات اللاتى ينتظرن الإعدام، وبين أولئك الذين فى خارج السجن، عندما نفكر فى مسألة الهرب. هل هناك فرق؟ نحن جميعًا ننتظر الشيء نفسه، النهاية نفسها. الموت أولاً وقبل كل شيء، رداء سنلبسه جميعًا. لكن عندما أرد على سؤالك، أفضل الطرق للخروج، هى عندما تكونين خارج السجن. وأنا أعنى بذلك عندما يكون النزيل أو النزيلة فى طريقها إلى المحكمة. سيارة الترحيلات السوداء التى يسمونها ماريا السوداء الواقفه خارج السجن؛ هى مخصصة لنقل النزلاء إلى الحكومة والعودة بهم. هذه هى أفضل الفرص المتيسرة، من وجهة نظرى.

"أنا أفهم ما تقولين".

"المشكلة تتمثل فى أن هذه السيارة معطلة منذ أشهر".

"لقد رأيتها، عجلاتها فارغة من الهوء، خيم عليها العنكبوت والتراب، تراكم عليها العفن، عبارة عن خردة مهجورة".

"هذا هو السبب وراء عدم ذهاب أى منا إلى المحكمة فى العام الماضى. لم يذهب أحد منا ولا واحدة منا. قضايانا متوقفة. سوف تتغير الأدوار فى جدول الدعاوى. ومن يدرى ربما يكون موظف الادعاء قد نقل، أو توفى. لا توجد سيارة لنقلنا. البعض منا ينتظرن المحاكمة منذ سنوات. لقد ضاعت آمالنا. البعض منا ينتظرن منذ فترة أطول من ذلك، مدة أطول من الحكم الذى يمكن أن ينزل بهن إذا ما اتضح أنهن مذنبات".

"ظننت أن بلاك ماريا كانت تحت إمرة الشرطة؟".

ردت المتكلمة الكريمة: "كان ذلك من قبل" واقتربت منها أكثر "كانت هناك مشكلة التنسيق والبيروقراطية. عندما يتحتم ذهاب النزيلات إلى المحكمة، لم يكن ذلك يعنى أن الشرطة جاهزة لتقديم المعلومات المطلوبة. وعليه قامت الحكومة بنقل السيارة بلاك ماريا إلى مصلحة السجون".

"كالمستجير من الرمضاء بالنار".

"هذا كلام دقيق. مصلحة السجون ضعيفة الموازنة. إما هذا أو أنه نوع من الفساد. وأيًا كان الأمر فإن سيارة الترحيلات بلاك ماريا لا تزال معطلة. وهذا هو السبب فى قولى للمشرفة العامة على السجون، إذا لم تكن الحكومة قادرة على الاحتفاظ بالمسجونات، فإنها ينبغى عليها إطلاق سراحنا".

"مع ذلك، يعرف الجميع أن العدالة معطَّلة...".

".... إن العدالة ممنوعة".

"انتبهى يا أنتلى. أنت تودين معرفة ما أود عمله؟ أنا أود محاكمة المنظومة القانونية فى هذا البلد، على أن تكون المحاكمة علنية ويجرى الحكم عليها بالإعدام!".

"أن يكون رئيس الدولة مذنبًا سابقًا، وأنه السبب فى ذلك كله، وأنه يعرف كل ما يدور، وعلى علم بكل ما يدور فى السجون، أن يرى ذلك كله ولا يفعل شيئًا، هذا أمر عجيب!".

"قادتنا وزعماءنا ذاكرتهم قاصرة. فى هذا البلد بكامله، لدينا ذاكرة جمعية قاصرة، ذاكرة لوائح، إن صح التعبير. هذا يعنى أن الناس ينسون بسهولة".

حملقتا فى الفضاء فترة قصيرة، وهما غارقتان فى تفكيرهما الشخصى. كن يراقبن الباقيات وهن شاردات الأذهان. جاءهما الصوت الخارجى غير مريح؛ هذه دراجة نارية، وهذا صوت محركها، وهذا بائع جائل يبيع الماء المثلج ويصيح قائلاً: "اشترى الماء النقي!"

سألت أنتلى بيا خروجًا من الحزن الذى كانتا فيه: "ما المدرسة التى التحقت بها؟"

"التحقت بمدرسة بنسو BENSU. لدراسة الاقتصاد".

"إذن فأنت تعرفين آدم سميث وكتابه: ثروة الأمم".

"نعم، ونظريته عن الأجور، والإيجار، والأرباح. وتقسيم العمل، عش ودع الآخرين يعيشون، وما إلى ذلك من هذا الكلام".

"يا لهذه العظمة! أنت روح جميلة. هذا يعنى أنك ستفهمين رسالتى. أطروحتى بعنوان طبيعة وأصل ثروة الأفارقة. خلاصة القول، كيف يجمع الأثرياء ثرواتهم، وعليه كيف يجمع الآخرون ثرواتهم".

"نعم، اشرحى لى ذلك. سأحاول فهم كلامك، على الرغم من أنى لا استطيع القول: إنى فى حالة نفسيه جيدة حاليًا. ما هى زبدة بحثك؟"

صمتت أنتلى بعض الشيء: "أنا اتفق مع بلزاك". فى قوله: "إن كل ثروة كبيرة وراءها جريمة كبيرة أيضًا".

"هذا صحيح تمامًا. النقود، ثم النقود، ثم النقود. ألا ترين أن المال هو سبب كثير من المتاعب؟".

"الجرى وراء المال هو المدان، وليس الجهد العادى الذى يبذل للمحافظة على التوازن بين الجسم والروح، يابيا".

قالت بيا: "أنا أفضل الاهتمام بما هو عكس أطروحتك" وهى تنظر إلى مستجوبتها "إنه الفقر. من المهم أن نعرف ذلك الذى يجعل الناس فقراء. لماذا الناس فقراء؟ لماذا هناك عدد كبير من الناس فقراء، فقراء فقرا مدقعًا، على الرغم من وجود ثروة جمعية ضخمة؟".

"ألا تقول الشيء نفسه؟".

"أليس كذلك؟ ربما نقوم أثناء انتظارنا الحكومة، بدراسة أسباب ذلك الفقر الجماعى الموجود فى بلادنا؛ لماذا يفتقر الناس إلى الضروريات، لماذا بعد حوالى

نصف قرن من الاستقلال تفتقر بيوتنا إلى الماء الجارى، ولماذا تستعمل الغابة مصابيح الغابة أثناء الليل. لماذا يعد المداوى بالأعشاب المصدر الأساسى للرعاية الصحية، على الرغم من الموارد البترولية الهائلة؟ أو أن أعرف أسباب ذلك كله". وتضيف أنتلى إلى هذه القائمة: "نسبة البطالة عالية. وماذا عن تقليل نسبة التوظف؟ هؤلاء هم الشباب أقوياء البنية يبيعون المناديل الورقية، والفوط الورقية فى العقد المرورية! وهؤلاء هم خريجى الجامعات يقودون الدراجات النارية التجارية طلبًا للقمة العيش، ويقومون بتشغيل كبائن الاتصالات التليفونية! لابد أن هناك خطأ ما".

"أنا أعرف أن البطالة على مستوى العالم كله. لكننا هنا فى هذا البلد ليس لدينا حواجز، ولا مزايا اجتماعية، ولا إسكان للفقراء، ولا رعاية طبية مدعومة. المدارس الحكومية قليلة ويصعب الالتحاق بها ..... فكيف نتوقع للفقير أن يعيش؟ كيف؟ كيف؟"

هذا جزء من أسباب وجودنا هنا، يابيا، صدقينى فيما أقول، ما هى الخيارات المتاحة للفقير الذى يدفعون به إلى جانب الجدار ويطلبون منه أن يحيا ويعيش؟"

كانت بيا تود أن تعرف فكرة، هل هناك تدريب لنا فى السجن، الحياكة، الحرف اليدوية، النسيج، الزراعة، تعليم الكبار؟"

"لا شيء من ذلك. كانت لدينا ماكينة خياطة فى يوم من الأيام لكنها ضاعت".

"ضاعت فى السجن؟ الأرجح أنها لدى زوجة المدير. والأرجح أنها حصلت على عقد توريد هذه الماكينة. وحصلت على الثمن مقدمًا دون أن تقوم بتوريد المطلوب".

"أنت تعرفين النظام".

"ما الذى تفعله النزيلات طول اليوم؟"

نظرت أنتلى إلى بيا وهى تقول فى خجل: "الانتظار ـــ الكلام ـــ الحب ـــ السعال ـــ الهرش ـــ النوم ـــ لعب الورق، لعب اللودو ـــ تصفيف الشعر".

كانت تود من البنت الجديدة أن تنظر إليها وتتبين الحب الظاهر فى عينيها، لكن بيا تغاضت عن هذه المعلومة بحركة من يدها.

"النزيلات غير منتجات، هن مبذرات هل تعرفين مقدار القوة البشرية المتيسرة فى السجون والمساجين، والتى يمكن السيطرة عليها والاستفادة منها؟ بدلاً من ذلك، النزلاء والنزيلات موجودون، وموجودات فى السجون، بلا عمل، والحكومة تغذيهم وتطعمهم مجانًا، اعتمادًا على ممولى الضرائب. ياله من تبذير!"

لاحظت أنتلى أن بيا كانت لا تزال فى مرحلة الرفض، وأنها كانت تستعمل الضمائر الدالة على المفرد الغائب.

- وتدخلان فى الصمت من جديد. وفجأة تبدأ بردجت كلامها من جديد.

"أنتلى، أنت لديك أفكارًا. كنت أفكر فى الموعد الذى أغادر فيه هذ المكان، سوف أقوم بنشر أطروحتك أو مقالك. على كل حال، هذه الأطروحة قد لا تكون مفيدة للغالبية العظمى من النزيلات الموجودات هنا. لماذا لا تفكرين فى أعداد بحث عن طلب العفو والرحمة، والرأفة لك ولنا؟ لماذا لا يكون ذلك أجدي؟ وعليه عندما يجيء الدور علينا، أو بالأحرى عندما يتم إصلاح المركبة، يصبح لدينا ما تقوله، أو أن يكون هناك من يقوله نيابة عنا".

أوضحت أنتلى "أنا لست محامية".

"لكن القانون أمر جد خطير....".

وتقومان بتكملة العبارة "ولا يمكن تركه للمحامين".

"لقد درستِ الفلسفة: درستِ سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وأكونياس، ومونتسكيو، وبوسعك القيام بذلك".

"أنا لم أدرس القانون. والإنسان لا يستطيع أن يعطى ما ليس لديه".(*)

"هل قرأت أورويل Orwell فى العام (١٩٨٤) يوم أن كانت وزارة السلام مسئولة عن الحرب ووزارة الإعلام مسئولة عن الدعاية؟ قانوننا مليء بالأشياء غير القانونية. هذا القانون لا يمكن أن ينقذنا ولا يمكن أن يحقق العدل. غير المحامى هو الذى يستطيع تحريرنا".

"يبدو أنك تظنين أنك بريئة".

"هذا أكيد. هذا إنسان يتعدى على أرضى لمجرد أنى لست من جنسه، وأنا أحذره. وهو مصر على ما يفعل. لقد حاولت إبعاد ذلك اللوطى، دفعته بعيدًا عنى، فى محاولة منى للحفاظ على وحماية ما هو ملك لى. ويسقط ميتًا. هو المعتدى. هو الذى طلب ذلك. على كل حال سيكون هناك تشريح للجثة لمعرفة سبب الوفاة. ربما كان قلبه ضعيفًا، أو كبده متضخمًا. هذه مجرد دفعة، دفعة صغيرة ليس إلا، وهذه الدفعة لا تكفى مطلقًا للقضاء على حياة رجل عادى صحيح البدن".

"شعبنا لا يأخذ بمسألة التشريح هذه".

"هذا التشريح لابد منه، وبخاصة فى حالات القتل.

"ألم تكونى تتحدثين عن الفقر منذ برهة قصيرة؟ هناك علاقة بين الجوع، والمرض، والوفاة المفاجئة.

"أنا لست موافقة على عقوبة الإعدام هذه. أنت تعرفين رأى الفلاسفة أمثال هوبز Hobbes ولوك، وجان جاك روسو. أنا لا يمكن أن أعطى الدولة الحق فى القضاء على حياتى تحت أى ظرف من الظروف. لا أوافق مطلقًا على ذلك. وإذا كنت أفعل ذلك، من خلال إنابة واضعى القانون هم وممثليهم عنى، فمن حقى سحب هذا التفويض".

(*) أوردت المؤلفة هذا التعبير باللغة اللاتينية Nemo dat quod non habet. (المترجم)

"هل تذكرين حامورابى عندما قال: العين بالعين".

"القانون حمار؛ ولا يمكن أن ينقذنا مطلقًا. أعدى موجزنا، يا أنتلى، قدمى التماسًا لطلب الرحمة، التماسًا للمحافظة على الحياة، قدمى أى شيء. خاطبى قلب القاضى. لابد أن تكون له زوجة، أسرة، أبناء وبنات. خاطبى قلبه. وسوف يخفف عنا".

"هل للقضاة قلوب؟ أرجوك يا بردجت. المسألة كلها مسألة نقووود، ما المبلغ الذى يمكن أن يدفعه المتهم. المسألة مسألة كاااش بدءا من ممثل الإدعاء إلى القاضى".

"أنت على حق. ألا تدرين أن ضابط التحقيق طلب منى مائة ألف نيرة كيما يُطبَّخ هذه القضية؟".

"كان يتحتم عليك دفع هذا المبلغ".

"هل كان لدى هذا المبلغ؟".

"كان بوسعك أن تبيعى أصولك".

"أنت ترين، أن قضيتى عجيبة. لقد اتهمونى بقتل أحد أقربائى. لقد طردوا عائلتى من القرية. ولم يعد لنا مكان نقيم فيه هناك. واقع الأمر، أنى لا أعرف مكان أمى ولا مكان شقيقاتى أيضًا. وهم أيضًا لا يعرفن مكانى". وهمست قائلة: "وأنا نفسى، لا أعرف أين أنا".

"العدالة فى هذا البلد لمن يدفع أكثر. ألا تعرفين أن
من هو أغنى منك فى هذا البلد يستطيع أن يرشى رجال
الأمن فيحبسوك لأنه أكثر منك مالاً؟ ألا تعرفين ذلك؟"

"لكن، دعينا نعودة مرة أخرى إلى موضوعنا، هل تقولين إن السهر... أمر مستحيل؟"

"البديل لذلك هو القفز من فوق الجدران. دعينا نسلم أنك تستطيعين تسلق الجدران من هذا الجانب من الفناء. فأين ستنزلين؟ فى المستنقعات، اللهم إلا إذا تسلقتِ الجدران الشمالية، حيث توجد قطعة من الأرض. كيف تصلين إلى هناك؟ عن طريق عبور الفناء كله. وإذا ما نجحتِ فى ذلك، فذلك يعنى أنك سوف تنزلين أمام الحراس. وستصبحين لحما ميتا لأنهم يحملون بنادق آلية من طراز (أك ٤٧). فى بعض الأحيان وعندما يتلاعبون، يقومون بإطلاق طلقة إنذار كيما نسمعها نحن طلقات حية. هذا يعنى أن فرصة أو احتمال هربك سليمة ضعيف جدًا.

أكدت بيا، وهى ترفض ذلك الإحباط "هناك مخرج. هناك مخرج دومًا، سأعيد التفكير فى الأمر".

اقتبست أنتلى كلام مانديلا: "الطريق ليس سهلاً إلى الحرية. سوف يتعين على الكثيرين منا السير خلال وادى الخيال والموت".

"سوف أتحرى هذا الأمر وأركز عليه. سوف أكون بحاجة إلى عون من الخارج. لكنك على حد قولك، تعرفين أن أسهل الطرق سيكون عن طريق سيارة الترحيلات بلاك ماريا. قولى لى بالرغم من ذلك، هل تودين الانضمام إلى فى السهر ....؟" خطر ببال بيا، أنت تعرفين الكثير. بوسعك أن تتهمينى عند مستشيف وعند قبيله السجانين كلها.

قولى يا بردجت، ما هو الفرق؟ أنا دائمًا أقول سواء أكنا فى الداخل أم الخارج، ألسنا كلنا تنتظر الشيء نفسه؟ ألسنا كلنا على وشك الموت؟"

لاحظت بيا وهى تنظر بعيدًا عن أنتلى "أنت فيك متناقضات كثيرة يا أنتلى".

"تناقضات مثل ماذا؟"

"أنت تقولين إننا كلنا على وشك الموت. إننا جميعًا ننتظر الموت. الفلاسفة فقط هم والنُسَّاك هم الذين ينطقون بهذا النوع من القدرية. هل تعرفين شيئًا عن فلسفة من التراب إلى التراب؛ غرور، كل شيء غرور. هل هذا صحيح؟"

"واصلى كلامك فأنا استمع إليك".

"الناس الذين من هذا القبيل لا يكونون معنيين بالنقود ولا بطريقة اكتسابها مثلنا".

"التحرى الذى قمت به فى مسألة طبيعة أو مصادر الثروة الشخصية كان مجرد عمل أكاديمى. كان مجرد تحرٍّ. هذا لا يعنى أنى أبحث عن ذلك أو أسعى إليه".

"لكن هل أنت تبحثين عن ذلك؟ ألم تبحثى عن ذلك؟"

لم ترد أنتلى على الفور. وراحت تقلب الأمر فى ذهنها بحثًا عن أفضل الطرق للتعبير عن رأيها فى هذا الأمر.

قالت بصورة نهائية: "دعينى أقول لك، من ذا الذى لا يسعى إلى الثروة؟"

"فهمت ما تقولين".

"ما أعنيه هو أن الشخص المتهم والمدان يكون فى عرف الميت بحق. حتى وإن أطلق سراحة فى نهاية المطاف، لأن المجتمع لن يقبله، لن يقبل إعادة تكامله مع المجتمع. فى كل مكان يذهب إليه، وفى كل استمارة يعبئوها، يتعين عليه إبراز ما يثبت براءته، وهنا قد يتغير الموقف. المتهم إما أن يجرى العفو عنه لمحو الوصمة ويبدأ حياة جديدة، وإما أن يُعدم".

"تعجبت بيا قائلة: "هذا كلام قوى جدًا. لديك مشاعر قوية جدًا".

"وجود الإنسان هنا، يعطيه متسعًا من الوقت كيما يطيل التفكير. لكنك اشعلتِ اهتمامى فى الدفاع والاسترحام نيابة عنا. سنعمل سويًا من أجل الهدف". ونهضت واقفة وهى تفكر فى كتابة رسالة الاسترحام وطلب العفو هذه. "بوسعنا الكتابة إلى رئيس الدولة، وإلى حكام الولايات، وإلى الوزراء، وإلى قاضى القضاة ... أتمنى لو كانت هنا مكتبة. كل ما لدينا هنا عبارة عن بعض الأناجيل، والقرآن الكريم، وهذه الكتب هى التى جلبها إليها الوعَّاظ".

كانت الفتاة البيضاء تحاول تنظيم النزيلات فى لعبة من اللعب فى أحد أركان الشكل الرباعى.

كانت تقول: "نحن نسمى هذه اللعبة فى إيطاليا باسم كالسيتو calceto ومعناها كرة القدم المصغرة. تعرفين أن مباراة كرة القدم المعتادة تضم أحَد عشر لاعبًا فى كل جانب من الجانبين. نحن لم نصل بعد إلى هذا العدد هنا كما أن ساحة اللعب هنا ليست مثل ساحة أو ملعب كرة القدم المعتاد. كم عددنا فى اعتقادك؟ نحن عشرة باستثناء أومو omo. هذا شيء طيب(*). نحن هنا أربعة فى كل جانب من الجانبين وسوف أقوم أنا بدور الحكم".

تجمعت النزيلات حولها ورحن ينصتن إليها. البعض منهن كن لا يزلن مبهورات من وجود سيدة بيضاء فى وسطهن. لم يحدث لهن أن كن قريبات من امراة قوقازية مثل اليوم، كن يتفحصن شعرها تفحصا دقيقًا، كيف كان يطول ويتموج وله لون أصفر لامع. بعضهن حاولت جدل ذلك الشـــعر على شكل جديلة أو ضفيرة لكنه كان يتفكك من جديد. هذا الشعر الكامل كان يجعل المرأة تبدو مثل الأسد. فى بعض الأحيان، كانت سوزانا تتوسل إلى السجانة التى تجيء إلى الزنزانة أن تأتى لها بمقص وتقص لها اطراف الخصلات الشعرية الصفراء. كن يحملقن فى شفتيها عندما تتكلم، وينظرن إلى أنفها المستقيم ويلاحظن فتحتى أذنيها. كن مأسورات بتلك القوقازية.

كانت سوزانا تشرح لهن "أنتن تعرفن أن الهدف فى كرة القدم هو إدخال هذه الكرة فى شبكة أومرمى الخصم. هذا هو كل ما فى الأمر. هؤلاء اللاتى على هذا الجانب، يحاولن ركل الكرة فى تلك الشبكة الأخرى، أما أنتن اللاتى فى الجانب الآخر فعليكن أن تتأكدن من عدم دخول الكرة فى شبكتكن، هل هذا مفهوم؟ وأنت يا آمن ومعك باتسى حارستا البوابتين".

(*) أوردت المؤلفة هذا التعبير بالإيطالية va bene. (المترجم)

قالت إحداهن مصححة الكلام "تقصدين حارستا المرميين".

"أنت على حق، حارستا المرميين. تمنيت لو أنهما كانتا حارستى البوابة حتى نتمكن من المرور خلالها خارجين من هذا المكان. يجب ألا يغيب عنكن أن هذه كرة قدم وليست كرة يد. لا تلمسن الكرة ــ حارستا المرميين هما اللتان لهما حق الإمساك بالكرة ــ لا تتدافعن ــ سأقوم بدور الحكم عندما تسمعن صوت صفارتى على هذا النحو .... توقفن عن اللعب ــ هذا الصغير يعنى أن هناك خطأ، أن ...".

أكملت وُنمى كلام الحكم: "هذا يعنى أن شخصًا ما قد لوث الهواء".

قالت أنتلى وهى تنضم إلى المجموعة: "لو يصفر الحكم فى كل مرة يقوم فيها لاعب بتلويث الجو أو تعكير الصفو، فلن تنتهى المباراة". يضحكن كلهن.

قالت سوازانا "الخطأ، يعنى أن شخصًا ما قد كسر قاعدة من القواعد. وهو كذلك، هل نبدأ اللعب؟ يا حارستى المرميين اختارا لاعبيكما".

قالت آمن وهى تشير إلى أولورى وستاف Staff ليتبعاها: "أنا أختار المدانات". ونادت آمن على أنتلى كى تنضم إليهن. انجذبت منتظرة المحاكمة إلى باتسى. احتجت أنتلى على ذلك لدى رئيسه الفريق.

"آمن، أنا أعرف أنى مدانة، ومحكوم على، لكنى استأنفت الحكم، وعليه.....".

تساءلت بردجت فى ضعف من مكانها عند العتبة "هل نسيتِ سارو ــ ويوا؟ هو الآخر كان محكومًا عليه. واستأنفت الحكم ولكنه أعدم قبل نظر الاستئناف. هل لديك أسباب تجعل قضيتك مختلفة عن هذه القضية أيتها المرأة؟".

"أنا أربط بين روحى الاتهام والحكم".

صلت باتسى ــ كانت الصلاة فى متناول يديها، وكانت على استعداد للدخول فى الصلاة كلما تطلب الأمر ذلك.

تجمعن ورحن يلعبن لعبة الكالسيتو الإيطالية. جرى استعمال أربعة شباشب مطاطية لتحديد أبعاد المرمى. ورحن يركلن ذلك الشيء المستدير هنا وهناك، ويصحن في أعضاء الفريق كي يمررن الكرة إليهن. كانت آمن وباتسي تقفان منتبهتان عند نهايتي الفناء (الملعب) الصغير، وأعينهما مركزة على الكرة، وعلى استعداد لمنع مرورها. جرين هنا وهناك، ونهودهن تتحرك إلى الأعلى وإلى الأسفل، ومعَيهن تصعدُ وتنخفض. كانت سوزانا تتابعهن بدقة. كان المكان ضيقًا، لكنهن كنا يناورن، ونسين أحزانهن بصورة مؤقتة. تعرقن تعرقًا شديدًا. وعندما صفر الحكم معلنًا انتهاء الشوط الأول بعد مرور عشر دقائق كانت النتيجة (١ : صفر) في غير صالح المدانات.

اشتكت أنتلي إلى الفتاة البيضاء قائلة: "سوزانا، أنا لا أحب الرياضة التنافسية". وهنا تطلق ماليس Malice الصفارة الحقيقية معلنة انتهاء وقت الترفيه "أنا أحاول تنظيم أنــفسنا على شكل فريق، وأنت تحاولين تقسيمنا إلى معسكرات أو بالأحرى إلى جوانب".

"هي مجرد لعبة، يا أنتلي".

"الحياة نفسها لعبة. نحن بحاجة إلى الوحدة وليس الانقسام. الواقع أن الطبيعة وضعت كلاً منا في مواجهة مع الآخر على هدى من الخطوط القبلية، وعلى هدى من اللون، واللغة وعلى هدى مما لدينا. ونحن يتعين علينا إسقاط خلافاتنا والتركيز على مشتركاتنا".

رحن، وهن يرفعن قبضات أيديهن في اتجاه المتحدثة "أنتلي".

"يا لها من متحدثة مبجلة!".

سألتها سوزانا، "وهو كذلك، ما الذي يدور في ذهنك؟" كانت متعبة وتتعرق تعرقًا شديدًا. لم تكن تقوى على تحمل فرضيات أو مسلمات أنتلي. "أي اللعب التي ليس فيها تنافس؟ أهي لعبة التصفيق؟ أم هي لعبة الكرة الطائرة؟ قولي".

"هى اللعبة التى نكون فيها جميعًا على جانب واحد من الانقسام، عندما يكون لدينا عدد واحد، خصم واحد مشترك، عندما نعمل سويًا لهزيمة العدو. هذا هو ما يدور فى ذهنى. بغير ذلك، وعندما نكون فى الزنزانة سنكون من الناحية النفسية فى مواجهة مع بعضنا البعض. سوف ننحاز إلى حراس مرامينا، وإلى رؤساء فرقنا، وإلى التخطيط لمواجهة الجانب الآخر".

"فهمت ما تقولين".

"نعم. فكرى فيما قلته. افترضى أن ذلك العدو المشترك هو الحكومة أو وزير من الوزراء، أو سجان، أو مقاول سجون، لم ينفذوا ولم يقم بالواجب المطلوب منه على خير وجه، أو أنه لم يقم بواجبه مطلقًا. قد يكون العدو المشترك هو منظومة السجن، أو المنظومة القانونية، أو أى شكل من أشكال العدو المشترك أيًا كان. هنا يمكننا عمل تمثال لذلك العدو المشترك ونحرقه فى المظاهرات. كلنا سنكون فى جانب واحد، متحدين فى مواجهة العدو الذى ترمز إليه تلك الدُمية.

"أنتلي!".

تدخلت بيا، "هذا تطهير catharsis. يسمونه فى الفلسفة "تطهير". حددت موقع دلو كان ممتلئًا حتى منتصفه. كانت النزيلات يستخدمنه فى الحمام.

أردفت باتسى قائلة: "أنا أكره العنف".

صاحت فيها أنتلى، فاقدة صبرها: "أنت تكرهين العنف! إذن، ما الذى تفضلينه عندئذ، قولى؛ المقاول أو الوزير الذى يكون من هذه النوعية والذى يحصل على لقب من ألقاب الرئاسة أو جائزة وطنية؟ أهذا ما تريدين؟ تذهبين لترقصين رقصة الأوامبى owambe وتأكلين طبقًا من السيام المهروس وتشربين زجاجة من مشروب الجن Guinness، أهذا هو ما تريدين؟

كررت أولورى الكلام: "تقولين آكل ياما مهروسًا، وأرقص رقصة الأوامبى" آه! كولنجتون إسنى آد! آه!.

"قلتِ شيئًا عن الرجم بالحجر حتى الموت، التعذيب حتى الموت ــ أليس هذا هو سبب وجودنا هنا؟ كفى ما قلناه وعرفناه عن الموت. أنا لا أود سماع المزيد عن الموت بعد الآن".

قالت بردجت مقتبسة كلام الغير: "الموت، سنموت فعلاً. سوف تركل الدلو".

قالت أنتلى: "حسن، لا يتعين أن يكون آدميًا".

كانت أنتلى تطير دومًا إلى بعيد على جناحى الفرح والسرور. أنا دومًا أنسى أن هؤلاء الناس وأن ليس بيننا خلفية مشتركة؛ كانت توبخ نفسها دومًا على هذا النحو. وتلف ذراعها حول عنق باتسى وتشدها إليها.

"اجعلى ذلك مجرد فكرة، سمة الظلم أو القهر، سمة حكـم الإعـدام. كـل ما أريده لنا أن نكون فى جانب واحد ضد ذلك العدو المشترك ونتعاون على هزيمته. أليس ذلك هو سبب تشكيلنا لجماعة تضامن النساء؟".

كانت مستشيف عند البوابة، وهى تطلب من النساء المجيء من أجل الاغتسال الدورى". هذه جماعة واوا شِتّى ــ شِتّى". أدت هذه الملاحظة إلى أن تنهـى النسـاء كـلامهن. وقالت مستشيف متوعدة "متى تتعبين من أفكارك هذه، يا أنتلي؟".

الفصل الثالث عشر

في عصر أحد الأيام

"إنتلى، أخوك موجود هنا لزيارتك".

راح السيد/ توم شجبو، أو بالأحرى شيرمان Chairman، يحملق فى الفتاة عبر القضبان الحديدية. ابتسم. لم يكن أخوها فى واقع الأمر، وإنما كانت تلك هى الطريقة الوحيدة التى يمكن أن يراها بها ــ أخبرت إنتلى زائرها بالعرض المقدم من السجانة.

همست له "العفو مطروح فى مزاد علنى. سيكون ذلك فى اليوم الأول من شهر أكتوبر. وأنا إذا ما استطعت الحصول على خمسين ألف لأعطيها للسجانة فسوف تقدم اسمى".

"من أين لى بهذه الآلاف الخمسين، يا آنسة؟"

ما هذا الذى تسمعه؟ هذا مبلغ تافه؟

"ماذا تعني؟ خمسين ألف مبلغ عادي؟ وماذا عن السبُوبة؟"

"مـــاذا عـــن السبُوبة؟ الحكـــومة تطبق علينا. وهو كذلك، أنت لا تعرفين ما يجرى. كان لابد من الهدوء والاختفاء بعض الشيء. لقد ألقت الشرطة القبض على أوتوتو owtutu، مايكودى Maikwudi وآخرين. هم حاليًا يودون إصدار تشريع بشأن الجرائم المالية".

"من فضلك، يا شيرمان. حياتى تعتمد على هذا التشريع. أرجوك. أنت تعرف أنى لم أقتل ذلك الرجل الأبيض. أنت تعرف....".

"لا تجعلينا نتطرق إلى ذلك كله يا آنسة. سوف أتبين ما يمكن عمله. لكن خمسين ألف مبلغ كبير جدًا. ماذا عن عشرين ألفًا؟ بل وحتى عشرة آلاف؟"

نظرت إنتلى خلفها "أنت تعرف أحوالهم هنا. لقد قالت إن صاحب أكبر العطاءات هو الذى سيفوز بالعفو".

"أفهم ما تقولين".

"ويتعين علينا التصرف على وجه السرعة. الوقت ليس فى صالحنا بحق".

"أنت هنا منذ سنين والآن....."

"طوال هذه السنين وأنا أنتظر المحاكمة، ولم يكن فى السجن جلاد. وقد استأجرت الحكومة الآن جلادًا. وبدأ عمله في الرجال. وبعد ذلك سيجيء الدور علينا. وهذا هو ما تقوله السجانة".

"لكنك تقدمتِ باستئناف".

"أرجوك، المطلوب منك هو إحضار النقود ليس إلا. لا تنسى سارو – ويوا saro – wiwa الاستئناف لا يعنى شيئًا عند هؤلاء البشر. الحكومة تود الاقتصاد فى التكاليف، والتخلص من القضايا وتفريغ السجون من نزلائها".

ينظر شجبو إلى عشيقته السابقة. وتخطر على باله الجلسات الشهوانية فى غرف الفنادق قصيرة الإقامة. كيف تغيرت. لقد أصبحت هزيلة. لقد برزت عندها عظام الترقوة، ولم تعد بشرتها بضة ومتماسكة. واقع الأمر أنَّه بدا عليها كبر السن، وأصبحت عجوزًا شمطاء. وامتنعت الابتسامة على شفتيها.

لقد استبدلها منذ زمن طويل. لقد انخفض سعر النساء وأصبحن كل اثنين بكوبو(*) kobo واحد. منذ أن بدأ التضييق على تجارتهم، ساءت أحواله وتحول إلى أشياء أخرى كيما يستطيع البقاء على قيد الحياة. لقد أصبح واحدًا من رجال "الأحداث" أو بالأحرى رجل من رجال المناسبات. كان له أصدقاء يعملون فى البروتوكول فى المنازل والدور الحكومية. كلما كانت النساء يجئن إلى المدينة

(*) الكوبو: عمله نيجيرية قريبة من الجنيه. (المترجم)

لحضور المؤتمرات ولمقابلة الرئيس أو زوجته، كان شجبو يدعى للقيام على تنفيذ مهامهن. النساء اللاتى يكن من هذا القبيل يبحثن عن المتعة. هذه الرحلة تصبح مناسبة طيبة للهرب من الزواج المُمِل، والأزواج الضعفاء، أى أن هذه فرصة للعب مباراة فى اللعب والتلاعب عن بعد.

كان يعد نفسه إعدادًا طيبًا إذا ما جرى إبلاغه بالمطلوب مقدمًا. يأخذ الأمور مأخذًا سلسًا، ويأكل جيدًا، ويتجنب الإفراط فى الكحول، ويتعاطى الفيتامينات والفياجرا بطبيعة الحال. قال له الكيميائى إنه يبلغ من الشباب حدًا يمنعه من تعاطى العقار العجيب. ما الذى يعرفه الكيميائي؟ هو لا يزال يتبع التعليمات والإرشادات حرفيًا. جعلت الأدوية المثيرة للرغبة الجنسية شيرمان (شجبو) يواصل الأداء لساعات، الأمر الذى كان يرضى الطرف الآخر. فى نهاية الزيارة، تعرب الثرية عن امتنانها. ثم تقوم بوضع مظروف أصفر منتفخ فى يده. رجته واحدة من النساء "أن يكون لها" بصفة دائمة. ولم يحدث أن استطعمت هذا الشيء بمثل هذه الجودة من قبل. هذا هو الزوج مشغول في مطاردة المال وبنات الجامعة. لكنه رفض هذا العرض. لم يكن يود ربط نفسه بشيء معين. لا، لم يحن موعد ذلك. هذا لا يمكن أن يحدث طالما أن اللهو كثير من حوله. كان يتجول عندما يركد الحال. وعندما كانت الحكومة تسترخى وترفع الأضواء الكاشفة عن عملهم، كان يعود من جديد إلى عمله السابق.

رجته قائلة: "أرجوك يا شيرمان، أتوسل إليك".

لقد نسى كل شيء عن المرأة الواقفة أمامه خلف القضبان. ومد يده عبر الحاجز وراح يداعبها.

قال مداعبًا: "أعطنا ابتسامة، يا آنسة". لم تكن إنتلى مبسوطة لكنها ضحكت ضحكة بلهاء، وحرصت على عدم فتح شفتيها، وتكشف عن اللثة العلوية التى ليس فيها السنان الأماميتان. أحد هذين السنين ضاع بسبب القتال الذى دار فى إثر

حديث بيا عن الهرب وعن الحرية. أما السن الثانى فالأرجح أنه سقط نتيجة الطعام الذى تناولته فى السجن، وسوء التغذية المصاحب لذلك.

قالت مرة ثانية: "من فضلك، يا شيرمان. أتوسل إليك". وترقرقت الدموع فى عينيها.

"بفرض أنى أحضرت النقود ولم تنفذ السجانة؟"

صاحت ضابطة السجن قائلة: "انتهى الوقت. انتهت الزيارة!" واقتيدت إنتلى إلى بعيد، وعيناها تتوسلان إلى عشيقها السابق، وشريكها فى العمل والتجارة. قالت: "أرجوك، ساعدنى. وفّرلى النقود. أرجوك. أعطنى فرصة إنقاذ حياتى. أنت تعرف أنى لم أقتل الرجل الأبيض. وبينما كانت تتصرف مبتعدة عنه قال لها هاتف أن شيرمان لن يساعدها، وأن شراكتهما قد انتهت. وأنها أصبحت لوحدها، على الطريق إلى حبل المشنقة.

بعد اقتياد سبيلا sybilla بعيدًا عن الحاجز، وقف شيرمان برهة يُذَكر نفسه. أمسك بعورته مكوما إياها فى راحة يده بطريقته التقليدية. كان يريد الهدوء لتلك العورة المنتصبة مثل خيمة داخل بنطاله. لقد تعرفت تلك العورة شريكة من شريكات الفراش. كان شيرمان قد لاحظ السِّنّين المفقودين فى فم أنتلا. وعندما وقف استعدادا للانصراف، وعد بأن يدبر النقود المطلوبة للعفو. قال فيما بينه وبين نفسه: "الإشباع فى غياب هذين السِّنّين سيكون عملاً عجيبًا". ويمسك الرجل بعورته مرة أخرى ويوقع بالانصراف من سجن فريمان فورت.

* * *

الصّباح

أحضرت الشرطة أويورا فى اليوم التالى. بعد إدخالها السجن عدلت المشرفة العامة الأرقام الموجودة على لوحة الإعلانات. هذا يعنى أن عدد الإناث غير المحكوم عليهن زاد بمقدار نزيلة واحدة. اقتادوا هذه النزيلة الجديدة إلى الزنزانة رقم ١٠ وو.

نبهت إنتلى السجانة "إنها قاصر".

"يا مدام تو ـــ نو Too-know، ليس فى هذه المدينة بورستال Borstal". قالت أولورى بدورها: "نحن نعانى من الزحام. نحن اثنتا عشرة نزيلة فى مكان لا يتسع إلا لاثنتين فقط"

ردت عليها الضابطة، منفعلة بفعل استخدامها للتورية "أيتها الحمقاء، أنت الآن أكثر امتلاء. ينبغى أن تزورى زنزانة الرجال. لكن لا عليك. سوف يجرى إفراغ الزنزانة رقم ١٠ وو. كبا، كبا، كبا، كبا". وأخرجت لسانها محدثه شكلاً من أشكال الحشرجه. ثم دفعت البوابات الحديد لتغلقها، واستدارت لتذهب إلى حال سبيلها.

تساءلت باتسى، وهى تستدير ناحية الفتاة الصغيرة "ماذا فعلت؟".

لم يكن سن هذه الفتاة يزيد على الستة عشر عامًا. وقفت الفتاة، وهى لا تعرف ماذا تفعل. تجمعت الدموع فى بياض عينيها وانهمرت على خديها. اتجهت إليها باتسى. وجففت عينيها دون أن تنطق بكلمة واحدة.

سألت المراهقة: "ماذا حدث؟".

"طلب منى والدى الزواج من رجل عجوز. حصل والدى على عشرين ألف نيرة من ذلك العجوز".

"وماذا حدث بعد ذلك؟".

"هربت. لم يعجبنى الرجل العجوز. طلب لى الشرطة. قال ضابط الشرطة: إما العودة إلى العجوز أو إعادة المهر المدفوع".

استدارت إينتلى ناحية نزيلاتها "افهمن! هذه الفتاة لم ترتكب جريمة. ماذا فعلت؟ أويورا، والدك هو الذى ارتكب الجريمة. أخذ النقود. ولابد من رد هذه النقود، يردها أبوك وليس أنت. أنت لست سلعته التى يتخلص منها أو يبيعها بطريقته الخاصة".

قالت أولورى: "لا، يا إينتلى الوالد له الحق".

"فى أضعف الأحوال يتعين على العروسة أن تحب عريسها. هذا فى أضعف الأحوال".

قالت بنتا: "الأمر ليس على هذه الشاكلة. وهذا ليس أمرًا ضروريًا".

قالت رحمة مؤيدة زميلتها "الأب هو الذى يقرر. والابنة عليها أن تطيع shikenan".

سألت إحداهن: "وماذا عن أمك؟ ألم تستطع مساعدتك؟".

"لقد حصلت على جزء من المهر".

صاح الشكل النائم فى السرير فجأة وهو يقول: "قتلت أمي! قتلت أمي!" وتجلس صاحبة ذلك الشكل وترفع ذراعها الأيمن وتغرس الخنجر المُتَخيّل فى المرأة المُتَخيّلة الملقاة على الأرض.

تعجبت المرأة البيضاء قائلة: "أمى حبيبتى".

* * *

جرى فى يوم من الأيام توريد خزان مياه كبير إلى جناح النساء. آثر المتبرع بذلك الخزان عدم ذكر اسمه. كان المتبرع نفسه يرسل بين الحين والآخر

سيارة صهاريج مياه لملىء ذلك الخزان. وكان يجرى مد خرطوم طويل إلى الخزان ثم يجرى بعد ذلك ملؤه بالماء.

قالت إيفلين؛ كونستابل السجن، بعد تركيب الخزان: "أيتها السيدات، بوسعكن الآن الاغتسال مثلما تردن. اغسلن مكاحلكن كريهة الرائحة ونظفن أجسادكن. ولم تعـدن بحاجة إلى الذهاب إلى الحمامات خارج الجناح. النزلاء يمكن أن يفترسكن أو يطبقون عليكن فى أى وقت من الأوقات، بما فى ذلك السجانون أيضًا. المطلوب منكن الوقوف تحت الميزاب فى الخارج وتغتسلن".

جرى فى ذلك اليوم نقل دلو الغائط إلى الخارج، وجرى وضعه فى جانب من جوانب الفناء. لا تزال رائحة ذلك الدلو تصل إلى داخل الزنزانة، لكن الحال أفضل كثيرًا عن ذى قبل. الآن، عندما تحس نزيلة من النزيلات بالرغبة فى التغوط أثناء الليل، فإن بوسعها فعل ذلك فى كيس من البلاستيك تضعه على جنب لإخلائه عند الفجر. والبوابات عندما يجرى قفلها عند غروب الشمس تظل موصدة إلى اليوم التالى.

فى الصَّباح

كان النساء يلعقن إفطارهن الهزيل بنهم شديد مثل القطط التى تنظف مخالبها. كان الجو رطبًا. ارسلت الشمس أشعتها المتجسسة إلى داخل الزنزانة. يبدو أن اليوم كان يصادف يوم السبت. كل يوم يمر هنا يكون مثل يوم السبت. لم يكن هناك اندفاع للقيام بالعمل اليومى. الناس كانوا يتجولون هنا وهناك متكاسلين، وعاطلين ينتظرون غروب الشمس ومجىء الليل. وعندما يدخل الليل ينتظرون مجئ الفجر. وفجأة من الجدران العالية المقابلة سمع الناس أجمل ضوضاء فى حياتهم. كان ذلك صوت سيارة يجرى تشغيلها، لإعادتها إلى الحياة من جديد.

كان هناك صوت ذكورى خفى يصدر تعليمات لزميل "دس بنزين، دس بنزين. بطَّل. دس. بطَّل".

كانت هناك سحب سوداء كثيفة تغطى الهواء فوق الجدران، وتدخل بعد ذلك إلى فناء السجن. خنقت رائحة الدخان النزيلات. كانت بلاك ماريا، سيارة الترحيلات، تكح، ثم تكح، وتهيع وتهيع(*) مثل المرأة الحامل. وتعود السيارة إلى الحياة. وتلقى إنتلى نظرة على بيا (بردجت) وكأنها تقول: "ما هذا الذى أسمعه؟" أصاخت باتسى السمع. وهذه أولورى تقفز إلى أعلى، وتتحرك ناحية القضبان. هذه بردجت بدأت تشعر بالغثيان بفعل دخان السيارة، وسارعت إلى ركن من الأركان وراحت تلقى بحساء الإفطار إلى الأعلى. وتتجه ستاف Staff إليها وتضع يدها على كتفها باهتمام. لقد اشتغل محرك سيارة الترحيلات بلاك ماريا، وهنا وقفت النساء الفرحات بطريقة تلقائية. ويتخلين عن طعام إفطارهن المائى ويرحن يهتفن. قالت كل من رحمة وبنتا بصورة متكررة: "الله أكبر!"، الله كبير"! قفزن ورقصن وصفقن، وصحن فى الغرفة المليئة بالدخان. هذه بلاك ماريا تهمهم بانتظام الآن. كان الميكانيكى "يكارك" لها فى بعض الأحيان فيرتفع صوتها، ثم يرفع قدمه عن مفتاح تزويد البنزين ليهدأ صوت السيارة وينخفض من جديد. راحت النساء يصافحن بعضهن البعض وينفخن الهواء، ثم دخلن فى الأغنية التالية:

تعال وشف، يا أنت،

تعال وشف

تعال وشف ذلك الذى صنعه الرب،

تعال وشف ذلك الذى صنعه الرب.

سمعت السجانة ماليس ذلك الغناء الجماعى واندفعت إلى الزنزانة.

تساءلت وهى تنظر من نزيلة إلى أخرى. وفتشت على القفل "ما هذا الذى يحدث؟"(**)

(*) هاع: بمعنى أحس بالغثيان أو مال إلى التقيؤ. (المترجم)

(**) أوردت المؤلفة هذا السؤال بإنجليزية ركيكة لتبين أن ماليس لا تجيد هذه اللغة wetin happen?. (المترجم)

كان إحساس بردجت فى ذلك الوقت أفضل من ذى قبل. ابتسمت للسجانة وقالت بصوت مدوٍ : "لقد تم إصلاح بلاك ماريا أخيرًا! سوف تستأنف المحاكمات الآن. سيجرى نقل النزيلات إلى ساحة المحكمة".

"من الذى يقول ذلك؟".

أكدت بيا، وهى تنظر إلى الأخريات بغية تأكيد كلامها "سمعنا ذلك".

وافقت ماليس على كلام بيا "نعم، لقد قامت إحدى الكنائس بإصلاح السيارة. لكن ليس هناك وقود "ديزل". ولا توجد نقود لشراء الوقود. وعليه يا لهذه الحيرة! ajuwaya"

فى الليل

قالت المتحدثة الرسمية: "ستاف معها الكلمة؛ دافعى عن قضيتك".

كانت النزيلة التى جرى النداء عليها، تعمل بالتمريض من قبل، وهى الآن جالسة فى الطابق الأرضى من السرير المزدوج. كان جسمها من عند وسطها مائلاً إلى الأمام، وكانت أصابعها تداعب بعضها بعضًا. نظرت إلى الأرض وهى تتنحنح بلطف. وراحت تهرش جسدها كله. وحضنت نفسها وهرشت ظهرها، وهرشت بين وركيها، ثم بعد ذلك فخذيها. كان المرض الجلدى منتشرًا بينهن. خطرت ببالها إمكانية الحصول على الصابون الطبى. ورفعت إحدى رجليها وهرشت الساق والركبة.

"عملت طيلة ثلاثين عامًا قابلة فى المستشفى العام، وتقاعدت وأنا رئيسة ممرضات. أنا ممرضة مُدَرَّبة. أستطيع التوليد لوحدى، وأستطيع متابعة الحمل من بدايته إلى ما بعد الولادة". كان ذراعاها مسنودتين على وركيها وهى تتكلم، فى حين كانت تستعمل يديها فى التأشير.

"استعملت مكافأة نهاية الخدمة فى فتح عيادة فى إيكوتون Ikotun. كانت العيادة واحدة من عيادات الأمومة. وسار كل شيء على ما يرام. لم يكن هناك مركز صحى حكومى على مقربة من هذا المكان. توافدت علينا مريضات كثيرات لرعاية ومتابعة ما قبل الولادة، والولاده وما بعد الولادة وأيضًا لتطعيم الأطفال. كنا نعالج أيضًا الأوجاع البسيطة مثل الملاريا والتيفود، والأورام الليفية. لكن أعدائى كادوا لى. حدث أن جاءت امرأة فى أحد الأيام. كانت على رأس العمل. وكانت الليلة تصادف ليلة السبت. أذكر ذلك لأنى، لأنى....".

تدخلت السجانة، التى كانت مسنودة على الباب وتتسمع على النزيلات، "لأنك ضمن ورديه الليل واستدعوك. كانت السجانة تضع يديها خلف ظهرها. وكانت توجه نظراتها إلى عنابرها.

"نعم. هذا صحيح، كنا فعلاً ضمن وردية الليل فى مكان مجاور أو قريب من العيادة. أذكر ذلك جيدًا الآن. لكن لم تكن هذه هى المشكلة. المشكلة هى أن المريضة لم تكن لديها بطاقة".

قاطعتها مستشيف: "قولى ما حدث يا ستاف. قولى الحق واخزى الشيطان. عندما استدعوك، استغرقتِ وقتًا طويلاً قبل أن توافقى على ترك الوردية على مضض". وراحت عينا ستاف تحملقان فى الباب.

"كان كولنجتون يغنى أغنية oriki، فى ذلك الوقت. لم أستطع ترك المكان. لازلت أذكر كلماته التى تقول: omowunmi omo oyeyipo ni Ikirun. Able proprietress wuns maternity Home. Iyawo Molade, baba alagbaro, bashorun alagbaro. Iyawo Molade, Shairman, lade Industries. Iya Olakunle ati oluyinka.... لم استطع مغادرة المكان على الفور" هكذا اعترفت المتهمة بلا خجل. كانت شبيهة بفأر تحاصرة قطاط عدة. انتظرت المستمعات. وعندما استأنفت الراوية كلامها كان صوتها يبدو قادمًا من بعيد:

"كانت المريضة غير مسجلة ولم يكن مع زوجها نقود. لم يكن معه نقود كي يشترى التذكرة، لم يكن معه نقود كي يودع رصيدًا للعلاج. وعندما وصلت من الحقل، كان الجنين في حال سيء. وهنا تغاضيت عن التذكرة والرصيد".

"أنت لم تفعلى ذلك، يا كاذبة! لقد أصررتَ على ذلك مدة طويلة إلى أن أعطاك الرجل ساعة يده لتكون رصيدا للعلاج".

قال وُنمى للمتحدثة الرسمية: "كنت أُدير عيادة، لا مركز من مراكز الإحسان. مطلوب لنا أن نأكل ونعيش، ونشترى توريدات، وندفع فواتير". تصمت قليلاً. "فَحَصْتُ المريضة. كان فيها شيء غير طبيعى تمامًا. الطفل أو بالأحرى الجنين لم يكن فى وضعه الطبيعى. واقع الأمر أنه كان يبدو جالسًا فى الرحم. كان واضحًا أنها بحاجة إلى عملية قيصيرية. لم أعرف كيف أتصرف. كان أوان إرسالها إلى المستشفى العام قد فات، والمستشفى العام فى وسط المدينة، أى على بعد مسافة ستين دقيقة. فتحت بطن السيدة مثلما شاهدت الأطباء يفعلون مرات عديدة. خبرة ثلاثين عامًا، شاهدت حالات قيصرية لا تحصى ولا تعد. أخرجت الطفل. وأخطت الجرح. لكن المريضة توفيت، لم تفق. لم يكن الخطأ خطئى. لقد بذلت قصارى جهدى".

دخلت السجانة إلى الراوية: "كاذبة! كنت فى عجلة من أمرك كيما تعودين إلى الحفل. كنت طوال الوقـــت تنظرين إلـــى الساعة، وتسألين ما إذا كان الحفل لا يزال مستمرًا أم لا. لقد أعطيت المريضة جرعة أكبر من اللازم من البنج. هذا ما قالته ممرضة العنبر. وماذا عن عملية الإجهاض التى عملتها وأودت بحياة الجنين وحياة الأم؟ كاذبة. قولى الحق، العار والخزى للشيطان".

كانت النزيلات الأخريات متعاطفات معها ومشفقات عليها. وكانت أعينهن مشفقة عليها أيضًا.

قالت ستاف فيما بينها وبين نفسها: "لقد نجحت عملية الإجهاض. لقد أنهينا الحمل، وأخرجنا الجنين بالطريقة الصحيحة".

كانت السجانة قاسية "لكن الأم توفت بعد ذلك. نزفت حتى الموت".

"حذرت عشيقها أن موعد الإجهاض قد فات. كانت حاملاً فى الأسبوع الخامس والعشرين، على ما أظن. حذرته. لكنه أصر على إجراء العملية. كان عشيقها جنديًا. قال لابد لى أن أعمل العملية. اقترحت عليه الانتظار إلى أن يولد الطفل وسوف تعرضه للتبنى. كان لدى زبونة كانت تدير دارا للأيتام، كانت تطلق عليها اسم دار الراعى الصالح. نساء كثيرات كن يبغين الحصول على أطفال، لكن الرجل أصر على إجراء عملية الإجهاض. كانت هذه المرأة هى ابنته البالغة من العمر أربعة عشر عامًا، وهو الذى جعلها تحمل منه، بعد أن توفيت المريضة، خرجت من غرفة العمليات. كان الجندى قد عاد ومعه ضباط آخرين. وضعوا الحديد فى يدى و ، و....."، كانت تبكى بكاءًا مرًا "أحرقوا عيادتى. اختفت مدخرات حياتى كلها؛ معاشى، عملى المالى والأعمالى، كل ذلك ضاع! بهذه البساطة" ووضعت راحتى يديها على وجهها ومسحت دموعها.

تعاطفت رفاقها معها "هونى عنك .pele. Oti to. Doh"

صغت إنتلى إلى الممرضة. وسرعان ما انصرف ذهنها كعادتها إلى حصة اللغة اللاتينية، وإلى مقطوعة كان الطلبة قد قاموا بترجمتها. كانت تلك المقطوعة قصيدة من قصائد مارتيالس Martialis:

Nuper erat medicus, nunc est vispillo Diaulus

Qod vispillo facit, fecerat et medicus

كان ديالوس إلى وقت قريب طبيبا، أما الآن فهو

تُربى.

ما يفعله وهو تُربى، كان يفعله أيضًا

عندما كان طبيبًا.

نظرت إلى النساء. بعضهن كن يهززن رؤسهن تعاطفًا. كيف لى بتذكر هذه المقطوعة ولا أقوى على رفض الكلمة اللاتينية mensa فى صيغة الجمع(*)؟ التصريف الأول لهذه الكلمة mensa شبيه بتصريف الكلمة pullea والكلمة agricola. ماذا يمكن أن يحدث لو انتقلت إلى التصريف الثاني؟ وإلى التصريف الثالث؟ أنا أعانى من خلل ما. وربتت على جمجمة رأسها ثلاث مرات وهزتها هزًا شديدًا.

سألت بردجت إنتلى "هل حُوكمت؟ هل صدر ضدها حكم؟".

أومأت إنتلى برأسها. وقد استقامت يدها كما لو كانت حدأة، وأحدثت بيدها إشارة شخطة على حلقها.

قالت آمن "أنت لم تكونى مؤهلة لإدارة عيادة". جاء هذا الكلام مفاجأة للجميع. لم تكن آمن من النوع المتكلم. "أنت تسلمين بالاتجار بالهبة التى لديك. واتركى القتل للقتلة المأجورين".

أصرت ستاف "كانت لدى الخبرة. أنا أراقب الأطباء منذ سنين. لم تكن هناك حالة واحدة لا أعرف طريقه علاجها. لقد رأيت كل شيء بعينى".

قالت السجانة "اسمعن كلامها. هل أنجبوا توائم سيامية عندما كُنتِ هناك؟" قالت ستاف: "لم تكن هناك حالة واحدة لم نعالجها".

تدخلت بردجت تدخلاً حنونًا "حتى وإن أمضيت خمسين عامًا فى التمريض، فهذه غير كافية لتأهيلك كى تكونى طبيبة" كانت بردجت فى داخلها تتمنى لو أن ستاف طال عمرها حتى تباشرها فى عملية الولادة.

سألت باتسى وهى مغلوبة على أمرها "لكن لماذا ينام الأب مع ابنته؟ أين يحدث ذلك؟ إلى أين يتجه هذا العالم العنيد؟"

(*) الكلمة اللاتينية mensa وجمعها mensae تدل على الدورة الشهرية، وهى هنا فى صيغة الجمع تشير إلى النساء. (المترجم)

قالت مودى محذرة: "أنت لم ترى أى شيء. فى ساحتنا، نام رجل مع أمه، أمه الحبيبة. قالت إن المرأة كانت تحثه على العثور على عمل، وأن يكون مفيدًا لنفسه وللمجتمع. وذات يوم غلبها على أمرها ثم اغتصبها. تخيلى، أمه الحبيبة! وقالت أيضًا إن ذلك سيعلمها كيف تمسك عن الكلام".

قالت أولورى منفجرة، وهى تربت جارتها على معصمها: "ما هذا الذى تقولينه؟ ألست من هذا العالم؟ عندما كنا مقيمين فى أورايل orile، قام رجل بمعاشرة أختيه فى الساحة متهمًا البنتين البريئتين بالانفلات وعدم الانضباط والمشى على حل شعريهما. قال أنهما يتعين عليهما أن يثبتا ذلك الذى جعلهما تسيران فى طريق الأسرة. قالت البنتان لأبناء الساحة وأهلها إن والدهما هو الذى فعل ذلك".

وماذا عن الرجل الذى بدأ يعاشر حماته التى كانت تزوره؟ كان كلما ذهبت زوجته إلى السوق، يعاشر أمها، وعندما ذاع الخبر أصبح غير قادر على الاختيار بين الاثنتين. وسكن الأم والابنة فى غرفتين مختلفين من منزله وبدأ يتناوب عليهما.

"جيل مصر على الانحراف، إلى متى أتحمله؟"

قالت أولورى قولاً ليِّنا للقابلة: "كان ينبغى عليك أن لا تفتحى عيادة. كان ينبغى عليك السفر إلى لندن أو أمريكا. أو الكويت أو حتى السعودية. هذه الدول بحاجة إلى الممرضات. كان ينبغى عليك أن لا تفتحى عيادة".

"أنا أعرف أيضًا قابلة متقاعدة سافرت إلى ألاسكا. وبَنَتْ مجمعًا سكنيًا من الشقق فى مرارابا Mararaba".

كررت مودى كلامها: "كان يتعين عليك أن لا تفتحى عيادة. كل شيء يمكن أن يحدث. حتى مع الأطباء المؤهلين، يموت المرضى مثلما يموت الذباب".

رفعت المتحدثة الرسمية صوتها: "أنا أؤيد مودى. أطباؤنا تُربيون أو حانوتيون فى واقع الأمر، محترفى موت. ما أن يتخرج الطبيب من المدارس الطبية وهو

شبه متعلم وشبه مدرب يكتفى بذلك، ويهمل التدريب، وحضور الندوات، ولا يُحدِّث معارفه، حتى يقف على الاتجاهات الجديدة فى مجال المحاولات. أضف ذلك قانون العوائد المتناقصة، وبذلك يكون هؤلاء الأطباء أحسن قليلاً من متطوعى الصليب الأحمر الذين يتظاهرون بأنهم أطباء. تُرابيون!".

قالت أولورى من جديد: "المجال الوحيد الخالى أمام الجميع هو السياسة. السياسة ليست بحاجة إلى مؤهلات. عندما يتقاعد الإنسان من عمله سواء أكان سطوًا مسلحًا، أو من الخدمة المدنية، أو الجيش، أو إذا رأيت أنك ليس لديك ما تفعله، فأنت تلتحق بالسياسة، وتدخل المجلس".

الفصل الرابع عشر

روث

وصل الموت إلى زنزانتنا هذا الصباح. سبق أن قلت لك إن الدور سيحل علينا، عندما ينتهون من الرجال، قلت انهم سيأتون إلى جناح النساء. فى ساعة مبكرة من صباح اليوم، أى قبل طلوع الفجر، سمعنا وقع أقدام حذاء يقترب منا، كالعادة. كان من عادة وقع الأقدام هذا الاستمرار إلى أن يصل إلى قسم الرجال. فى هذه المرة كان وقع الأقدام هذا يقترب أكثر وأكثر، وكأنه يدوس على قلوبنا إلى تنطحن. إلى أن توقف أمام زنزانتنا بالضبط. كانت نيبا NEPA قد أطفأت الأنوار. كنا فى ظلام دامس كنا لا نزال فى أسرّتنا البعض منا كُنَّ نائمات، والبعض الآخر كن يمضين وقتًا هادئًا. كنا ننتظر طلوع النهار لنروح ندق على بوابتنا ونحن نستمع إلى صوت المؤذن. كان لخبطتنا طنين على الأبواب الحديدية. كانت ماليس تقف عند البوابة، وتمسك فى يدها فانوسًا. كان بصحبتها سجانات. كانت تمسك بيدها الأخرى ورقة.

قالت بصورة مطلقة ونهائية: "أوفاى Ovie آمن Amen، حان موعدك وانتهى وقتك، استعدى للقاء خالقك".

اهتزت آمن عندما سمعت اسمها. جلست أرضًا مرة ثانية، مندهشة ومذهولة. تزايدت ضربات قلبها. اضطربت انفاسها وتسارعت محدثة شكلاً من أشكال الضوضاء. أوقظنا، ونحن خائفات خوف الموت، مصدومات إلى حد أننا لم نقو على نطق كلمة واحدة. وبفضل الفانون راحت السجانة تطيل النظر إلى وجوهنا إلى أن تعرف آمه Amen. وبصعوبة بالغة راحت تقرأ الحكم الصادر عن القاضى.

قالت لها السجانة فى نهاية المطاف: "اجمعى أشياءك. أنت ستقومين برحلة طويلة".

حاولت آمه الرد: "أنا لست بحاجة إلى هذه الرحلة"، حاولت الوقوف. وألقت نظرة على الجدار، الذى توجد فيه مسامير عديدة. نحن النزيلات البائسات نعلق ممتلكاتنا البائسة على هذه المسامير: حمالات صدور، ملابس، قطع من الإسفنج وأشياء شخصية أخرى.

وقد عرفنا السبب وراء إعطاء آمن Amen طبقًا خفيفًا فى الليلة السابقة؛ الثريد المعتاد، نعم، لكن نصيبها كان أكبر من نصيبنا وعليه كثير من الحليب. كان ذلك بمثابة عشائها الأخير.

تحولت رجلا آمن إلى ما يشبه الماء. وعندما حاولت الوقوف، سقطت فوق السرير. ذهب الرجلان إليها. قيدا رجليها ووضعا الكلبش حول رسغيها. ثم رفعاها إلى الأعلى. الذى لا يصدق أن باستور كانت لا تزال نائمة، وينبعث عنها شخير هادئ. هزتها جارتها هزًا عنيفًا.

همست "جاءوا لأخذ آمن. استيقظى، لقد جاءوا لأخذ آمن".

كانت آمن بمثابة الأم لنا. كانت أكبرنا سنًا مع أننا لم نكن نعرف أعمار بعضنا البعض. لكن ملامحها، وشعرها الأشيب، وتجاعيد بشرتها، وأساليبها اللطيفة كانت تذكر السواد الأعظم منا بأمهاتنا وجداتنا. وأنا لازلت حائرة إلى يومنا هذا فى ذلك الذى تقول الشائعات إنها انخرطت فيه فى حياتها العملية.

قالت مستشيف: إن نظراتها وملامحها خادعة، وإنها كانت واحدة من أبشع المجرمات فى هذه البلاد. وإنها كانت شريرة ولا تعرف الرحمة. وإنها ترأست ما لا يقل عن خمسة عشر حادثًا من حوادث السطو المسلح، وإنها تسببت فى قتل أشخاص لا يعدون أو يحصون. قالت أيضًا: إن آمن كانت وراء كثير من أحداث السطو المسلح الرهيب فى إقليم الغرب الأوسط السابق. كانت عصابتها تسطو على البنوك، وتقتل أفراد الأمن عن قصد. لم نكن نعرف ذلك بصورة يقينية. كل الذى

كنت أراه هو آن آمن يمكن أن تكون بسهولة كبيرة واحدة من رافعات الأثقال. كان ذراعاها مفتولتين، وكان فى وركيها عضلات، وكنا جميعًا نرى هذه الأشياء من هذه المرأة بحكم تواجدنا الجماعى فى هذا المكان.

وقفت آمه برهة قصيرة فى مكانها، وراحتا يديها تغطيان وجهها، كما لو كانت تصلى. كانت تتمتم قائلة: Iye me. هذه العبارة معناها "أمّى، فى لغتها المحلية.

ترى، لماذا نتذكر أمهاتنا فى أوقات الضيق الشديد والكرب العظيم؟ أهن ملائكتنا الحارسون؟ هل هن الأقرب إلى الله إبان حياتنا؟ هل هن ربُنا؟

راحت تنتحب وتولول مرات ومرات "أُمى، أمى".

ذهبت باستور إلى آمن بعد أن أوقظت.

"آمه، اسجدى، على وجه السرعة، هيا بنا نصلى من أجلك". وجثت التى على وشك الموت، على ركبتيها.

صاح أحد رجلى الأمن: "أمامك دقيقتان". كان يمسك فى يده سيجارة مشتعلة. وبإشارة من امرأة الدين، تجمعن كلهن حول تلك التى ستموت حالاً.

بدأت باتسى كلامها: "تحملى يا آمه. يسوع يحبك" ووضعت يدها المطمئنة على كتف آمه؛ فى حين كانت يدها الأخرى تربت على الكتف الأخرى.

"قال: "على الرغم من تخلى أمك وأبيك عنك، فأنا لن أتخلى عنكِ". وقال: "على الرغم من أن خطاياك ستكون حمراء حمرة الدم، فسوف تكون بيضاء بياض الثلج". قال: "على الرغم من أنها ستكون حمراء حمرة اللون القرمزى، فإنها ستكون مثل الصوف الأبيض". قال: إنه جاء حتى تُوهب لنا الحياة وفيرة. هل أنت مؤمنة يا آمن؟ هل تؤمنين بأن المسيح بن الله، وأنه مات من أجلنا، منذ سنين مصلوبًا.(*)

(*) استعملت المؤلفة الكلمة Calvary ودونتها بحروف كبيرة وهى فى علم اللاهوت تدل على المكان الذى صلب فيه المسيح، وتدل أيضًا على عملية الصلب نفسها. (المترجم).

أطبق الصمت على الزنزانة. الفجر الذى، استغرق مجيئه وقتًا طويلاً، بدأ يدخل علينا ماشيًا على أطراف أصابعه. انتظرنا أمه علها تتحدث. لم تكن هناك ضوضاء. كانت سوزانا ترتعد وترسم علامة الصليب على جسمها مرة بعد مرة. كانت تحاول ألا تقع عيناها على الحارسين، مراسلاً الموت، وكانت تتمتم بشيء من قبيل madredido كنا ننتظر آمه.

قالت باستور "لتقم واحدة منا بقراءة يوحنا ثلاثة، السورة رقم ١٦ وتهبها لنا". أحسسنا نحن الأخريات بشيء من الارتياح إلى حد ما، وأننا لم نكن فى خطر محدق. لكن إلى متى؟ كانت بردجت تمسك إنجيلها فى يدها. اقتربت من الفانوس. وحددت أصابعها المرتعشة مكان الصفحة.

"لأن الله أحب الدنيا التى أعطاها لوحيده وابنه الوحيد، إلى حد أن الذى يؤمن به لن يموت وإنما ستكون له حياة سرمدية. ولأن الله لم يرسل ابنه إلى هذه الدنيا ليدينها، ولكن لإنقاذ هذه الدنيا من خلاله".

وتروح آمه تهز رأسها. هزت رأسها مرات عدة. والتمعت عيناها فى تتابع سريع.

حثتها القسيسه": قوليها، اعترفى وانطقيها بشفتيك، يا آمه".

"أنا أومن بأن يسوع بن الله" قالت آمه بصعوبة. "أنا أومن أنه مات حتى يمكن لى أن أحيا، مات مصلوبًا، منذ سنوات مضت". وتنفسنا كلنا متنهدين تنهيدة الارتياح بصوت مسموع.

"الشكر لله!".

"سَبِّحَوا الرب!".

قالت القسيسة مرة ثانية لبردجت: "الساعة الخامسة وأربع وعشرين دقيقة. عَجِّلى".

"من يسمع كلمتى ويؤمن بالذى ارسلنى، ستكون له حياة سرمدية ولن يُدّان؛ لقد عبر من الموت إلى الحياة".

"إسمعى ذلك يا آمه، لقد عبر من الموت إلى الحياة. الساعة الحادية عشرة وخمسة وعشرون دقيقة!".

"أنا البعث وأنا الحياة" قرأت بيا. "كل من يؤمن بى، سيحيا حتى وإن مات؛ وكل من يعيش ويؤمن بى، لن يموت أبدًا".

أطالت باتسى النظر إلى عينى آمه المبيضتين العصبيتين "استمعى إلى يا آمه بانتباه شديد. "الإنجيل يحدثنا أننا جميعًا أخطأنا، وأصبحنا نفتقر إلى عظمة (رحمة) الله. لكنه أعطى لمن يمجدون اسمه، الحق فى أن يكونوا أبناء الله. فكرى فى الحب الذى غمرنا به الأب، إلى حد أننا يجب تسميتنا بأبناء الله!" أومأت المرأة المسكينة برأسها. كانت دموع العصبية تسيل من عينيها المغلقتين على خديها. كانت تتنفس بصوت مسموع. الواضح أنها كانت فى أزمة وكرب.

"أخيرًا يا آمه، وقبل أن تمشى من هنا، قولى للرب إنك نادمة على المرات العديدة التى خالفتِ فيها إرادة الرب واطلبى العفو. يقول القديس بولس: "هيا بنا نقترب من عرش الرحمة والفضل، حتى نجد خلاصًا لخطايانا".

تمتمت آمه ببعض الأشياء غير المسموعة.

أمرت باتسى بصوت مرتعش: "الصلاة!".

راحت النزيلات يصلين من أجل آمه ومن أجل أنفسهن. من الذى يعرف من سيكون عليها الدور؟ ألقيت نظرة على من هم حولى ــ إنتلى، سوزانا، بردجت؟ لن يُعدموا امرأة حامل، هل يفعلون ذلك؟ قد يفعلون ذلك. هؤلاء السجانون يشبهون المزمبيين.(*) إنهم يطيعون الأمر الأخير. وطالما كان الأمر صادرًا من فوق، فإنهم ينفذونه. من الذى عليه الدور؟ أنا، باتسى، ستاف، بنتا رحمة، بردجت أم أومو؟

(*) المزمبى: هو الشخص الأبله الذى لا إرادة له . (المترجم)

ختمت باتسى الصلاة: "لقد صلينا باسم يسوع".

ونحن أيضًا قلنا جميعًا "آمين!".

أصدر الحارس أمره: "هيا بنا!" فى مكان ما من العالم، صاح أحد الديكة. وقفت آمه. ظهر عليها أنها محصنة. لمعت عيناها فى الجو شبه المظلم. اغرورقت أعيننا نحن الأخريات بالدموع، وهى تصافح كل واحدة منا، ثم احتضنتنا بعد ذلك. ذهبت إلى المعتوهة على سريرها، وربتت عليها دون أن تنطق بكلمة واحدة.

قالت تلك المعتوهة: "أنا قتلت أمى، أنا قتلت أمى". كانت تلك الكلمات الوحيدة التى تذكرتها.

قالت باتسى: "اذهبى فى صحبة الله!"

لوّحت واحدة منهن: "رحلة موفقة!" كنا جميعًا نصيح وننتحب.

حاولت أتنهد: "اذهبى فى سلام، يا آمن".

قالت إنتلى: "إلى اللقاء، حالاً".

انكمشت خوفًا.

راحت تنشد، مقتبسة عن رائعة من الروائع الكلاسيكية:

"هرمس يقودك فى هدوء إلى نهر ستيكس،

شارون يجدف بك بسلام إلى هادس،

الرب المضياف للعالم السفلى".

انتحبت أولورى "آه يا آمن، آمن! آمن!" كانت يداها متصالبتين فوق قمة رأسها.

وقفت الذاهبة إلى الإعدام برهة قصيرة أمام صديقتها المنتحبة.

قالت مشفقة: "لا تبكى على، أنا على يقين أن المكان الذى أنا ذاهبة إليه أفضل من هذا المكان". وأشارت إلى الزنزانة الحقيرة.

قالت باتسى مقاطعة الكلام: "هذا صحيح، هذا صحيح! فى منزل والدى، توجد منازل كثيرة. نعم يا ألله!"

قالت آمن: "أفضل لكن أن تبكين على أنفسكن يا من تركتكن ورائى، وابكين أيضًا على أبنائكن".

اقتربت إنتلى من أحد السجانين وهمست له بشيء فى أذنه. أخذ السجان نفسًا طويلاً من سيجارته، وسلم السيجارة إلى زعيمة النساء. لم يكن يتبقى من السيجارة سوى العقب، ومع ذلك استنشقته النزيلة بنهم شديد.

تحولت آمه إلى السجان، وعلا صدرها، ثم استدارت ناحيتنا مرة ثانية.

قالت: "يا ناس، أتمنى لكن بقاء طيبًا. أرسلن تحياتى إلى مارسى نيابة عنى. اشكرنها نيابة عنى".

قالت ماليس: "تحركي! تحركي! وإلا حركتك أنا".

عبرت آمه البوابة فى وجود رجل على كل جانب من جنبيها. وبقيت ماليس كيما تغلق الباب.

قالت ماليس للعيون الخائفة التى أمامها: "لا مفر من الدفع، وإلا ستحصلن على المعاملة نفسها.هذا هو الإنذار الأخير!".

تجمعنا كلنا عند البوابة ورحنا نراقب ما يحدث. وتستدير آمن ناحيتنا لتلقى علينا نظرة أخيرة. وبعد ذلك بدأت تقطع المئة متر الأخيرة على طريق الأبدية.

xxx

لم نتكلم كثيرًا فى ذلك اليوم، ولم نتناول الطعام مطلقًا. جاء الموت وخيم على الغرف الأمامية من أذهاننا. كانت كل منا تبدو حزينة، ووحيدة ومعزولة وشبه ميتة. ترى، هل كانت النهاية على مقربة منا؟ هذا الذى يشبه الحياة، أو بالأحرى الحياة الميتة التى كنا نتعلق بها، هل كانت على وشك أن تُؤخذ منا غصبًا؟ هل سيأتون إلى غدًا؟ كنا نعرف أن بعضا منا كن ينتظرن المحاكمة؛ وكنا نعرف أن بعضًا آخرًا جرى اتهامهن لكنهن استأنفن الحكم. لا فرق بين هذا وذاك. قالت إنتلى إن المصلحة مفلسة، وإنها تجد وتواجه صعوبات متزايدة فى دفع رواتب السجانين وإعاشة النزيلات والنزلاء. وعليه كانوا يقلصون عدد العاملين ويزحمون السجون. وأنا لا أعرف كيف كانت تعثر بل تقرأ أجزاء من شريط الأخبار. أو ربما كان زوارها هم الذين يبلغونها بذلك.

عند الغسق كانت بنتا، على حد ظنى قد خرجت من ضجرها، وربما من باب إخراجنا من منطقة الرهو هذه، بدأت تترنم بأغنية شاركناها كلنا فيها. كانت تلك الأغنية عذبة اللحن، وشبيهة بأغانينا المحلية، وفيها إيقاع:

Yayi, yayi, Allah yayi,

Yayi o, yayi, yayi. Allah yayi.

Allah yayi baba,

Yayi, yayi, Allah yayi

Yayi o, yayi, yayi, Allah yayi.(*)

هذه الأغنية أو الأنشودة من أغانى الصلاة تطلب الرحمة من الله، وأن يوقف أحكام الإعدام، وأن يوقف يد الجلاد. وأنا عندما أفكر وأتدبر هذه الأغنية فى

(*) هذه الأغنية بلغة الهوسا وهى دعاء يطلب رحمة الله ودعوة له (ﷻ) بوضع حد للمعاناة. (المترجم)

بعض الأحيان، أنظر إليها باعتبارها أنشودة مبهجة، لشكر الله على اقتراب النهاية، وأن إطلاق السراح أصبح قاب قوسين أو أدنى. بعد خروج آمن أصبحنا عشر نزيلات فى الزنزانة رقم (١٠وو).

فى اليوم الذى أخذوا فيه آمن، أشارت المراهقة آويرا Awura إلى السجانة بأنها توافق على الزواج من الرجل العجوز. هل حكيت لكِ عنها؟ لقد جيء بهذه المراهقة إلى السجن هنا منذ بضعة أسابيع بتهمة الدين. أخذ والدها مبلغ عشرين ألف نيرة مهرًا لها من رجل عجوز يكاد يكون فى مقام جدها. هربت من منزل هذا العجوز وجيء بها إلى هنا إلى أن تتم إعادة المهر، أو إلى أن توافق على العودة إلى منزل الزوجية. مسكينة يا بنتاه! لا يزيد عمرها على ستة عشر عامًا. قالت: إن لها عشيقا تود أن تتزوجه. أظن أن منظر أخذ آمن من الزنزانة والخوف الذى اعتراها، هزاها وجعلاها تغير رأيها فى ذلك العجوز. لكن قولى لى، كيف يمكن لأمرئ أن يبقى على زواج بلا حب؟ أهى القوة؟ أليست هذه سبيلاً إلى ما فعلته أنا؟ أنا خائفة على آويرا. وأنا خائفة على الرجل العجوز، أيًا كان. أخشى فى يوم من الأيام، أن تقوم آويرا وحدها أو بمشاركة من عشيقها، بوضع حد للألم والتعاسة وتحل مشكلتها بالطريقة الوحيدة المتاحة لها. أيام الرجل العجوز معدودات.

الرجال والنقود. هذان فى رأى إنتلى هما سببا مشكلات النساء. الرجال والنقود. قالت: أبعدوا الرجال، وأبعدوا النقود وسيسود السلام العالم. وأنا عندما أنظر الينا جميعًا فى الزنزانة، أحس أنها ربما تكون قد أصابت المحز. البعض منا موجودات حيث نحن الآن بسبب الجرى وراء النقود. فكرن فى آمن، وفى ستاف، وفى إنتلى نفسها. بعض ثالث هنا بسبب الحب، حب غير متبادل أو حب مر. انظرن إلى بنتا ورحمة.

انظرى إلى باستور. بدافع الحب، تضامنت مع زوجها الذى كان متهما بعمل جنائى. اعتقد انهما ينتميان إلى كنيسة لا تؤمن بالطبابة ولا بنقل الدم. حدث ذات يوم أن أُخذ شقيق مريض غصبًا إلى المستشفى بواسطة أقاربه. استدعى أعضاء

كنيسته القسيس. أخرج القسيس المريض من المستشفى وحمله إلى كنيسته للصلاة. وأسلم الرجل الروح وألقى القبض على رجل الدين. دفعت له زوجته كفالة نظير إخراجه والإفراج عنه، وصمدت، الأمر الذى ترتب عليه هرب القسيس. الزوجة هنا. هل ترينها؟ خيانة للحب.

الوقت يمر سريعًا علينا جميعًا. ومع ذلك، سيجرى العفو عن اثنين منا اسائل نفسى فى بعض الأحيان لماذا اثنين فقط؟ إذا كان بالإمكان أن تفيد أكثر من اثنتين من إطلاق السراح هذا، فلماذا لا يجرى إطلاق سراح الجميع؟ لماذا يقتصر العدد على اثنتين فقط؟ السجانة الآنسة آليس Alice، التى نسميها نحن ماليس، قدمت لنا اقتراحًا. قالت: أن الحكومة ستعفو عن نزيلتين من جناحنا بمناسبة يوم الاستقلال، وأنها سوف تقدم اسمى هاتين اللتين تدفعان أعلى مبلغ وعليه قامت النزيلات بتمرير الرسالة إلى أقاربهن، أعنى بذلك، النزيلات اللاتى يستقبلن زوارًا.

لم تكن الفرصة مهيأة. لم يكن أحد يزورها طوال وجودها هنا فى السجن. لم يقم أحد بزيارة المرأة البيضاء منذ وقت طويل. وبردجت أيضًا على الحال نفسه. وهى فتاة صغيرة جرى إحضارها إلى السجن بسبب نزاع على قطعة من الأرض. مجرد نزاع صغير أفضى إلى وفاة أحد الطرفين. جرى اغتصابها عندما كانت فى حوزة الشرطة، ساعة أن كانت فى السجن الانفرادى وهى حامل الآن. هى تقول إنها نقلت مرات عديدة وهى لا تعرف أين هى. وأمها وشقيقاتها لا يعرفن أيضًا أين هى الآن. هى قلقلة وتود معرفة مكان أهلها حتى يأخذن الطفل عندما يولد. يا له من طفل! يا له من عالم! وكل شيء على ما يرام.

وهذه هى باتسى أيضًا. كان من عادة أهل كنيستها أن يزوروها. وعليه، قد يحضرون النقود المطلوبة. وأظن أن ستاف هى الأخرى تجرى بعض الاتصالات. وكذلك إنتلى، على الرغم من ترديدها بصورة مستمرة أن المال ليس هو مصدر السعادة، المال ليس هو مصدر السعادة(*). وهى تقول إن هذه العبارة تعنى أن ليس لديها المال أو النقود المطلوبة. وهى لا تزال تأمل فى أن يدفع أهلها الكفالة عنها

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة مكررة مرتين باللغة اللاتينية . Pecuniam non habeo (المترجم)

ويخرجونها. وليس هناك أحد سواى أنا والمعتوهتان، اللتان لا تشغلان نفسيهما بهذا العفو. اسمها أومو. أظن أنها قتلت أمها. حدث ذات يوم أن نومتها ستاف مغناطيسيًا، وعليه اتضحت لنا قصتها. لقد منعتها أمها من الخروج مع الصبى. ذات يوم وعندما لم يكن والدها موجودًا، تآمرت أومو مع الصبى على قتل أمها. وأثناء العملية، تحتم عليهما القضاء على أخيها الأصغر أيضًا. وقد أُحضرت إلى هنا بعد أن أصابها مس من الجنون. قالت آمن إنها تشك أن أومو كانت تعانى من دواء ارتد أثره عليها. هذا يعنى أن اللعنة لابد أن تكون قد أصابت القاتل الذى أودى بحياة والدة أومو، وأن أومو هى التى سقطت ضحية لتلك اللعنة. وإنتلى عندما تقول: إن أومو تنتمى إلى المستشفى النفساوى، وآمن تقول لا داعى ذلك. هذا يعنى أن الجنون ليس له علاج بعينه. وهذا هو ما سوف تعانيه أومو إلى أن تموت. قتل الأم! الشخص الذى جاء بالمرء إلى هذه الدنيا، ووهبه الحياة؟ كانت السجانة قد قالت لنا إن عشيق أومو ــ أى الذى تآمر معها لقتل أمها وأخيها، والموجود فى قسم الرجال من هذا السجن ــ هو الآخر مجنون. تحول جنونه إلى عُزْى. المحزن، أن النزلاء رفقاءه تقيأوا دمًا.

هناك امرأة معتوهة أخرى قريبة منا هنا ــ أظن أنهم يسمونها إليكبوروتو Elekpurutu أو شيئًا من هذا القبيل. وهى كثيرة الغمغمة. ونحن نسمعها من خلال الجدار النحيف. فى بعض الأحيان تعوى بصورة مستمرة وكأنها حيوان. هى ترتبط بالحاكم بقرابة (وهذا نقلاً عنها) ولها عدة ملايين فى البنك. والمؤسف أن الجنون أو العته هو جريمتها الوحيدة. أصابها الجنون، ومن باب إخفاء أهلها لذلك العار، حصلوا على أمر من المحكمة بحبسها واحتجازها.

الوقت يمضى سريعًا. فى كل يوم سيجرى أخذ واحدة منا. أحيانا أتعجب متسائلة لماذا يكون تنفيذ الإعدام بواقع حالة واحدة فى اليوم الواحد؟ هل تعجز منظومة الإعدام عن الإطاحة بنا عند تنفيذ الإعدام فينا دفعة واحدة، أو بالأحرى فى ملف واحد؟ لماذا لعبة الانتظار هذه؟ لماذا هذا القهر النفسى، الذى يترتب على عدم معرفة من التى سيكون عليها الدور، ومن الذى سيبقى؟

لعل ذلك كان السبب وراء إسراع إنتلى فى إنهاء أطروحتها (أصول ومصادر ثورة الأفارقة). قلت لن إنى سوف ألخصُ لكُنَّ هذه الأطروحة. وقد يكون فى ذلك فائدة لمن سيبقين منكن فى هذا العالم. أما بالنسبة لنا فقد فات الأوان. على كل حال، أنتن تعرفن بالفعل أنها قالت إن أسرع الطرق إلى الإثراء فى قارتنا تكون عن طريق الوظيفة الحكومية. وذلك يُمكّن المرء من تهليب الأرصدة العامة، وهى تقول إن كل إدارة، وكل وزارة، وكل وكالة لها ميزانية أو بالأحرى صوت. كل ما يتعين على المسئول التنفيذى عمله، هو أن يغمس يده ويسيء توزيع السلع العــامة ســواء أكــانت نقــودًا، أم أرضًا، أو ضخا للبترول، أو عقارات ومبان، أو مركبات، أو ممتلكات حكومية. وكيما يستر أثره، يقوم بترسية العقود على نفسه، وعلى خلاّنه وعلى الوجهاء. والعقود السخية، التى لا تنفذ فى بعض الأحيان، ولكن تُدفع قيمتها بالكامل، تكون فى الطليعة والمقدمة فى أغلب الأحيان. تجيء الرشوة بعد ذلك. وهى تقول إن كل عامل من العمال قادر، وعنده المهارة الفطرية التى تمكنه من طلب رشوة قبل القيام بأى عمل من الأعمال؛ وهو من أجل تحقيق مآربه يلوى القانون أو يكسره بطريقة مباشرة. هذا موجود فى القطاعات كلها. إصدار التأشيرات، استخراج جوازات السفر، الشهادات الأكاديمية، الحصول على درجات النجاح فى الامتحانات، والحصول على القروض من البنوك، الحصول على لقب رئيس، ما عليك سوى أن تحدد المطلوب. ويطال ذلك أيضًا مسألة الحصول على أحكام مناسبة من المحاكم. وأوردت مسألة العفو برهانا على ذلك، وقالت إن ذلك موجود فى المنظومة كلها. هذا يعنى أن المرء يتعين عليه دفع أجر مروره. حكت لنا قصة المرأة الحامل، الأم لأربع بنات التى كانت تشتاق إلى ولد (ابن)، كان عليها أن ترشى هيئة العاملين فى غرفة عمليات الولادة كيما تتأكد من عودتها إلى بيتها ومعها طفل ذكر.

هذا يعنى أن الرشوة، مصدر أساسى من مصادر الثروة الشخصية فى هذا الجزء من العالم. كلما كبرت المحاباة، أو بالأحرى العقد كبرت الرشوة أيضًا. قالت

أيضًا إن الرشوة لا تكون دومًا فى شكل نقود. إنما يمكن أن تكون على شكل هدايا، وعلى شكل جنس، قطعة من الأرض، منزل مركبات، أو منصب سياسى. على الرغم من موافقتها فى المحصلة النهائية على أن الرشوة تكون على شكل نقد فى الأغلب الأعم.

الشيء نفسه موجود فى القطاع الخاص. تقول إنتلى من ناحية أخرى إن الأفراد لهم هناك وسائل عجيبه. وهى تعنى بذلك أصحاب المهن الحرة. إنهم يعملون لوحدهم ولابد أن يكونوا دهاة وأذكياء حتى يتفوقوا على منافسيهم. فى القطاع الخاص تقع الجرائم على شكل سرقات مباشرة سواء من الرئيس أو الشركة، حوادث سرقة، مخدرات، اتجار بالبشر، دفعة مقدمة على سبيل الغش (٤١٩)، سرقة حقوق التأليف، التى نسميها سرقة الملكية الفكرية. الأفراد يمكنهم أيضًا إنتاج المخدرات المزيفة، والآلات المزيفة، والسلع الاستهلاكية المزيفه، السلع المغشوشه (مثل الكيروسين والبنزين، والمشروبات إلخ) تندرج أيضًا تحت هذا التصنيف. قالت أيضًا: إذا ما فشل ذلك كله يستطيع المرء افتتاح كنيسة ويعلن عن المعجزات. قالت أيضًا أن التحصيل من جمهور المصليين على شكل ضرائب العشور، والقربان، والنثريات التى من قبيل مناديل المعجزات وزيت المعجزات جعلت الكثيرين من الإنجيليين يذهبون إلى البنوك فى الداخل والخارج وعلى وجوههم ابتسامة عريضة. وهذا يفسر انتشار أماكن العبادة فى هذه الأيام، ولا يصاحب ذلك زيادة فى الاخلاقيات أو الخير.

أخيرًا، تقول إنتلى، بالنسبة للنساء اللاتى يردن الثراء، فإن ذلك يكون عن الجزء الخاص أو الممر الخاص. وهنا نجد إنتلى تقول: إنَّ كل امرأة تجلس على منجم من الذهب وينبغى عليها استغلال ذلك الشيء الذى يجعلها امرأة، فى جمع الثروة. وقالت إن المرأة الغبية أو التعيسة هى التى تتزوج أو تصادق رجلاً فقيرًا. يجب أن تستهدف النساء الزواج من أصحاب العروض الكبيرة، أعنى الرجال الذين يمكنهن جذبهم إلى المذبح. ثم يتعلمن بعد ذلك الحب، أو تحمل من هذا الثرى فى أفضل الأحوال.

لا تفضحي نفسك بكل هذه الأفكار يا روث. أنا أكرر ذلك الذى حكته لنا إنتلى. أنا شخصيًا اعتقد أن التعليم هو مفتاح المرأة. المرأة المتعلمة امرأة مستنيرة، بوسعها الوصول إلى السماوات دون الاعتماد على الرجل. وعليه تعلمى كيف تزيدين تعليمك أولاً، قبل أن ترتبطى مع أى رجل بعلاقة غرامية.

عزيزتى، فات الأوان. لابد أن أنال شيئًا من الراحة نظرًا لأن النوم يخادعنى. قبل أن انتهى من الكتابة إليك أسألك، كيف حال سيث؟ كيف حاله الصحى؟ كيف حال تقدمه فى المدرسة؟ كيف حالك أنت؟ كيف حال تقدمك التعليمى؟ هناك أسئلة كثيرة، لكن ليست هناك إجابات.

قبل أن أنسى يوجد دفتر أزرق اللون فى قاع صندوقى. هذا الدفتر يحتوى على أسماء المدينين لى، اذهبى إليهم وحصلى هذه الديون لك ولسيث seth. ماما جولومى لم تسدد بعد كامل قيمة الملابس التى قمت بإخاطتها لها. حصّلى المبلغ المتبقى. قد لا يكون كبيرًا، – أعتقد أنه فى حدود ٨٥٠ نيره أو ما يقرب من ذلك – لكن قومى بتحصيله. استخدمى هذا المبلغ فى شراء الزى المدرسى، أو فى شراء الكتب أو دفع المصروفات الدراسية. يجب أن تظلى فى المدرسة أطول وقت ممكن. أرجوك. أنا قلقة على هذا الأمر. لا تظنى أنى غير مهتمة بهذا الأمر. لا تقولى إنى لو كنت قد اهتممت لما فعلت ذلك الذى حدث. أنا قلقة عليك. ويتعين على أن أطلب منك السماح. نعم، عندما يجيء دورى فى الذهاب إلى الجلاد، سوف أجثو على ركبتى مثل آمن، وأطلب من الرب أن يسامحنى. لكن قبل أن يجى ذلك، أسألك، أتوسل إليك أن يعمر قلبك بالحب أكثر وأكثر، وأن تسامحى أمك. وما أن تغطى ذلك سأرحل فى سلام.أنا لا يساورنى خوف على سيث. هو يحبنى حبًا جمًا. هو يرى أن أمه لا يمكن أن ترتكب خطأ من الأخطاء. وإذا ما أُدنت، سَيَعْرَفُ ضمنًا أن المجتمع هو الذى دفعنى إلى ذلك، وأنى فعلت هذا الذى فعلته لأن يدى كانت مجبرة على ذلك.

طابت ليتلك يا حبيبتى. طابت ليلتك. لم يعد يتبقى من العمر قدر ما مضى. ربما عندما أرحل، تقومين أنت، أيتها الباقية على قيد الحياة، بالبدء فى عملية

العلاج والشفاء. بوسعك أن تبدئى عملية النسيان. طالما أنا حية، ومدانة، وجالسة فى السجن، سوف يستمر هذا العمل فى الحياة. الوقت يمر سريعًا. لم يعد أمامى فسحة طويلة من الوقت.

قد تكون هذه رسالتى الأخيرة التى أكتبها إليك. والأمر يعتمد على من سيكون الدور التالى. إذا جاء الدور على فهذا وداع منى إليك. وإذا ما بقيت بفعل الإرادة الإلهية، قد أكتب رسالة أخرى إلى أبنائى. هذا شيء حسن.

بكل الحب

ماما

* * *

طلوع النهار

اقتادوا آمه إلى غرفة الإعدام. خارج الزنزانة. كان نسيم الصباح البليل ينعشها، لكنه عجز عن التقليل من حدة المخاوف الباعثة على الشلل التى أحاقت بها. كانت تمشى بصعوبة. على كل جانب من جانبيها كان هناك سجان يمسكها من ذلك الجانب بطريقة محكمة. لم تكن تعرف ذلك العدد الكبير من السجانين الموجودين على جانبى الممر وعلى مسافات متساوية. مع اقترابها قام فصيل الإعدام بإصدار بعض الأوامر بصوت عال. أجرى رجاله بعض التمارين العسكرية. خطوا خطوتين إلى الأمام، ثم خطوتين إلى الخلف، ثم خطوتين على كل جانب من الجانبين.... "انظر إلى الأمام!" حيُّو تحية جافة أثناء مرور آمه مترفقة فى سيرها. كان ذلك بمثابة حرس شرف داخلى وغير رسمى قام به السجانون للآدمى الراحل عن هذه الدنيا. لكن آمه كانت متناسية لذلك.

مضت فى سيرها. كان ذهنها يغلى، لم تكن قادرة على التركيز على شيء بعينه. كانت ترفرف طائرة كما الفراشة من ذكرى إلى أخرى. "أمى، سأراها من

جديد. ولدى، لن أراه ثانية. زوجى سأراه من جديد. والجدة لكى kucky و.... الموت، كيف سيكون الموت؟ كل هذه السنين من التساؤل، ومن الانتظار، الانتظار فى طابور الموت. سوف أعرف ذلك كله حالاً".

كان رجل من رجال الدين فى انتظارها فى غرفة الإعدام. كان فى الغرفة نفسها رجل آخر يرتدى جلبابًا أبيض gelabya كان مديرًا ظهره إلى آمه. وبفطرتها عرفت أن ذلك الرجل هو مُحَصِّل الموت. خانتها مثانتها. ارتخت عضلاتها القابضة وتجاوبت الطبيعة مع ندائها.

سألها رجل الدين بطريقة حانية: "هل تريدين شيئًا ما؟"

كانت على الطاولة المجاورة علبة سجائر. أومأت آمه برأسها إلى علبة السجائر. تناول الرجل سيجارة ووضعها فى فم المرأة وأشعلها. خيم الصمت وهى ترفع يديها المكلبشتين إلى شفتيها استنشقت الدخان، وراحت تنفثه على شكل نفثات عصبيه. كانت هناك أيضًا قارورة من سائل رائق وصاف ومعها كأس. أشارت برأسها إلى القارورة. كان ريقها قد جف. صب الرجل لها شيئًا من ذلك السائل.

سألت: "هل لديكن شيء أقوى من هذا مثل ماء سابيل Sapele أو الجين gin(*)؟

فتح الرجل درجًا، وصب شيئًا من سائل عديم اللون وقدمه للمحكوم عليها بالإعدام عن طريق الطاولة. كانت الغرفة المجاورة مزودة بكل ما يمكن أن يلبى الرغبات الأخيرة لأولئك المحكوم عليهن بالإعدام.

سألها الرجل ثانية "هل تودين إرسال رسالة إلى شخص ما فى الخارج، عزيز عليك؟" نظر إلى بعضهما نظرات حادة وطويلة دون أن ينبسا ببنت شفة. كان الصمت مخيفًا. كان يطرق طبلات الأذن بلا رحمة أو هوادة نظرت المرأة إلى ظهر المسئول الحكومى المنتظر.

(*) الجن: مشروب مسكر. (المترجم)

كان سولى يقف على مقربة ينتظر انتهاء الطقوس الدينية. لقد اشتاق اشتياقًا شديدًا إلى حياة المجزر، مجزر الدم، وإلى رائحة الدم، وإلى الإحساس بالدم. دم، الدم فى كل مكان، ينساب على الأرض، يتساقط من الجدران، يعلق بملابسنا: دم متجمد، دم قليل الكثافة، دم مائى. أفسد الزائرون الجدد هذا العمل. هؤلاء الأميين الذين غزوا العاصمة قادمين إليها من منطقة الغابات المجاورة؛ لقد أفسدوا المجزر، سكبوا الرمل على دمه. لقد رخّصوا هذا العمل رخّصوا كل شيء. فى بداية الأمر كان ينظر إلى الغرباء نظرة احتقار وازدراء، ظنًا منه أنهم كانوا طيورًا انتقالية سوف تعود من حيث أتت. لكن هذه الطيور بقيت واستقرت. بنوا المزيد من الأكواخ خلف المجزر، الأمر الذى جذب أنظار الحكومة إلى ذلك المجزر. قامت الحكومة بإرسال الجرافات وسوت القرية بالأرض، وسلبت ودمرت كل ما كان فى ذلك المكان. كان ذلك عندما قال لنفسه إن موعد الانتقال قد حان، وإنه ينبغى عليه البحث عن مراعى أكثر اخضرارًا، البحث عن أرصد أعلى من هذه الأرض. قفز فرحا عندما رأى الإعلان، كان قد تكلم مع واحدة من زبائنه، زوجة الوزير التى كانت تحضر إليه كل شهر لشراء حيوان، كان يقوم بذبحه وتقطيعه وتوضيبه لها.

على كل حال، الأمر لم يكن على هذه الشاكلة فى هذا المكان. لم يكن فى هذا المكان سفك أو إسالة لدماء البشر، هناك، هناك، يا لهذا الهُناك! النشوة التى كان يحسها عندما يجرى اقتياد بقرة ضخمة إلى المجزر. كانت هناك حيوانات كثيرة تمشى متبخترة، وهى تمرجح مؤخراتها، جاهلة المصير المحتوم الذى ينتظرها. لكن بعض هذه الحيوانات كان يَحْذُنُ ويجن جنونه. كانت الجبال والسياط تجعل هذه الحيوانات تقف فى صف واحد. كان حيوان أو اثنان من الحيوانات الجبانة الخائفة ينهاران عندما يريان جثث إخوانهم تنهار أمامهما، وكان يتعين سحبهما إلى حيث يجرى ذبحها وتقطيعها. فى هذا المكان تبول تلك الحيوانات تبولاً عصبيًا وتتبرّز أيضًا تبرزًا عصبيًا، مثلما يحدث الآن لهذه الآدمية؛ تتبرز غائطًا ساخنا له رائحة كريهة.

كان سولى يراقب الحيوان الضخم عندما يقترب منه، وهو مستعد له وفى يده سيفه machete اللامع والمحاذى لكتفه فى شمس الصباح. كان يراوده إحساس وكأنه يرقص. لقد كان يرقص بالفعل، وهو يرفع الآلة إلى أعلى رأسه كى يراها الجميع. اضبط وضع الحيوان. اضبطه جيدًا، أقول: لعل سليمان sullyman يقطع حلقة، ويشرخه شرخ الموت.

يجرى تمرير الحبل حول رجلى الحيوان الخلفيتين، ويجرى شده فجأة. يفقد الحيوان توازنه، ويسقط أرضًا، غافلاً. كان ذيله يهتز منذ لحظات؛ ويجرى تمرير الحبل من بين طرفيه الخلفيين، ويُربط من ورك من وركيه، ثم تربط الأرجل الأربعة إلى بعضها. هو راقد الآن على الأرض. نعم. شلّوا حركته لأنه سوف يتحرك، ويرفس، ويقاوم. أمسكوا قرنيه، عدلوا مكان الرأس وجهزوا الحلق. وهذا هو سولى جاهز تمامًا.

تزداد حدة الرقص عندئذ. هذا هو الخنجر اللامع يتأرجح. اضبطوا الوضع، اضبطوه، اضبطوه. اكشفوا حبل الوريد هذا. هيا يا سولى، أسِل الدم! اقطع! اشلخ. ويستخدم الرجل يديه فى إخراج الزور. اترك الدم يسيل، يا سولى، دعه يسيل. آه! آه! دعه يسيل!

لكن القادمين الجدد أفسدوا المجزر. أولا وضعوا هذا العمل تحت شعار صغار التجار المهنيين، الذين راحوا يسوقون أجزاء الحيوانات ويصنّعون اللحم للزبائن، ويحرّقون الأظلاف وينظفون الأحشاء (الكرشة). وقد أدى ذلك بطريقة حتمية إلى الدخول فى عملية الذبح. كل ذلك ولم يتخذ الاتحاد أى إجراء أو يفعل أى شيء. قالوا هذه ديمقراطية. سياسة الباب المفتوح. يستطيع كل إنسان ممارسة عملية ذبح الحيوانات. كل واحد؟ وأى واحد؟ نعم، هذه ديمقراطية، أرض مفتوحة للعب متساوٍ، أرباح. وإن الرجل ترك عمله؛ ترك عمله إلى هذا العمل الجديد! آه! لكن يا له من عمل خالٍ من الدم. لماذا تقصر الحكومة عمل الجلاد على الشنق فقط؟ لماذا؟ المحكوم عليه مدان بالفعل. أما مسألة وجوده فإن الذى يحددها هو

سولى. قيود ومحددات. أنا الذى يجب أن يكتفها، وأنا الذى ينبغى أن أقيد يدها وقدميها، وأنا الذى ينبغى أن أشق زورها المجعد، وأنا الذى ينبغى أن أشاهد الدم وأراقبه، الدم كله الذى فى جسمها، وهو يسيل.

قال له جانب من جوانب ذهنه الخيِّر: "الإنسان ليس حيوانًا".

صـــاح صارخًا فى وجه ذلك الجانب طالبًا منه الخرس والكف عن الكلام. لا تبدأ. اسكت، اسكت! لكن ذلك الشيء أصر وألح. تلك كانت المشكلة. ما أن يبدأ ذلك الجزء حتى يدوم ويستمر ويدوم.

"البقرة يمكن تقطيعها وأكلها. أما البشر، فما الذى يمكن صنعه بجثتهم يا سولى؟".

اخرس! أمر ذلك الجزء مرة ثانية. بدأ حجم عينيه يتناقص. توتر صوته مثل صوت من يحاول الصياح دون أن يسمعه أحد. توترت اسنانه، تمدد فمه. ضرب الأرض بقدمه. اخرس! الجثة، ما الذى يمكن أن تفعله بالجثة؟ اخرس!

بدأت آمه كلامها همسًا "أنا لست مذنبه فى الجريمة التى سأشنق بسببها". كانت بين الحين والآخر، تتحول لتلقى نظرة سريعة على الشكل المقنع الذى يقف خلفهم. كانت تتراجع وتجفل. وكانت عيناها ترمش فى تَوَالٍ مستمر.

"هاجمت الشرطة وأغارت على صالة البيرة، التى افتتحها لى ولدى. رأوا بعض الأسلحة ومبالغ كبيرة من المال فى كيس. ولدى هو الذى أحضر لى ذلك الكيس، كى أحتفظ به عندى. كيف لى بمعرفة ذلك الذى كان داخل الكيس؟ قلت للشرطة: إن هذا الكيس ليس ملكًا لى. قالوا: هذا شيء طيب، دلينا على صاحب هذا الكيس. أنا لا يمكن أن أفعل ذلك مطلقًا، أُسلّم لهم ولدى، أخون ابنى وأبيعه، هذا مستحيل Ayuba مستحيل Ayuba.

"لم يكن من واجبى أن أدلهم على مالك الكيس. قلت ذلك لهم. وكان عليهم العثور على ذلك المالك. لن أساعدهم فى ذلك مطلقًا. غضبوا مما قلته وأخذونى بدلاً عن ولدى، وقالوا إنهم يجزمون أنى مالكة هذا الكيس وأن السلاح استخدم فى

حادث سطو مسلح جرى خلاله قتل صاحب المكان. قلت لهم: هذا شيء طيب، خذوني. وبعدها أغلقوا ملف القضية وكفُّوا البحث عن ولدى. هل يمكن شنق اثنين في جريمة واحدة؟ abi not so?

وعليه فإن رسالتى لولدى كالآتى: اترك خط العمل وأنا أدفع الآن ثمن حريتك، لكن لابد لك من ترك هذا العمل. أنا أعرف أنه الفقر، الفقر المدقع الذى جعلك تمشى فى هذا الطريق. كنا فى أحيان كثيرة لا نجد ما نأكله. كنا فى أحيان كثيرة لا نجد الإيجار المطلوب لغرفتنا التى أبعادها أربعة فى ستة أمتار وعامرة بالفئران. كان لابد من عمل شيء ما حتى نبقى على قيد الحياة. كان لابد من عمل شيء ما لأننا رأينا فى هذا البلد أناس لديهم ما هو أكثر بكثير عما يكفيهم، ولا يعرفون ما يفعلون بالنقود، فى الوقت الذى لا يستطيع فيه الكثيرون الحصول على ما يسد الرمق؛ فى الوقت الذى نعيش فيه عيش الحيوان غير المتيقن من الوجبة التالية. لماذا؟ وعليه عندما قال لى ذات ليلة أنه وأصدقائه ذاهبون للبحث عن شيء ما، راودتنى الشكوك حول ذلك الشيء، لكنى كنت موجوعة إلى الحد الذى عجزت معه عن منعه مما يود القيام به. أحسست بالخجل والعار. لقد أفشلته. وأنا كأم فشلت فى توفير المطلوب له. حاولت تحذيره لكن كانت محاولتى ضعيفة. لكن المرء لا يرسل ولده للسرقة ويتوقع له الاستمرار فى الاختفاء.اقتصرت على البقاء ورحت أدعو له بالنجاح، وألا تلقى الشرطة القبض عليه. كان يقوم بعملى نيابة عنى، إذ كان يوفر مطالب الأسرة. لكن لم يكن هناك بديل عن ذلك. لو كان بوسعى ممارسة البغاء لكى نعيش نحن الاثنين، لفعلت ذلك.

صمتت قليلاً. وأشارت إلى الدخان. أجبرها القسيس. أخذت آمه نفسًا عميقًا من السيجارة وحبسته داخل صدرها، ليدخل الدخان إلى منظومتها قبل أن تستدعيه وتنفثه ببطئ فى الخارج.

اختتمت كلامها من جانب فمها قائلة: "لكن العمر لم يكن فى صفى فى هذه المرة أيضًا". نظرت إلى أعلى "هذا هو كل ما أردت قوله. وأنا جاهزة الآن".

جرى رفع اليدين المقيدتين إلى أعلى، وتناولت عقب السيجارة وألقته على الأرض. وداست عليه برجلها.

تناولت اليدان المقيدتان الكأس، وشربت المشروب. وبشكل أو بآخر فقدت تماسكها وسقطت منها الكأس على الأرض. تجاهلوا الزجاج المكسور.

"أنا قسيسة. هل تودين منى أن أصلى من أجلك؟"

قالت آمه "لقد صلينا بالفعل فى الزنزانة". بدا عليها أنها أصبحت أقوى من ذى قبل. "هناك قسيسه، واحدة من النزيلات. أم أنك قسيس كاثوليكى؟ هل يمكن لك أن تعفو عن خطيئتى؟"

"لا. أنا لست قسيسًا كاثوليكيًا".

"يا أسفاه. لو أعلمونى لكنت قد جئت أو طلبت قسيسًا كاثوليكيًا. ربما يكون بوسعك عمل الترتيبات اللازمة لإحضار قسيس كاثوليكى لمقابلة النزيلات الأخريات فى الزنزانة رقم (١٠وو). كان من عادة آب يدعى الآب آنين Anene، التردد على السجن. أنا لست كاثوليكية لكن يكفينى التبرئة من الذنب أيًا كانت الآن. على كل حال، الرب يعلم كل شيء. لقد مات يسوع من أجلنا. وسوف يفهم ذلك الذى أنا على وشك أن أفعله".

أغمضت عينيها، الوقت يمر، توقف الزمن بالنسبة لها. وعندما فتحت عينيها هزت رأسها هزة عنيفة، كما لو كانت تخليها من شيء ما. لفت عنقها. وأمسكت فكها، وتحسست عضلاتها. ورفعت صوتها قليلاً واستدارات ناحية الشكل الداكن القريب منها.

قالت: "أيها الموت، سيدى، أظن أنى مستعدة".

وكما لو كان ينتظر الإشارة، استدار السيد/ سولى وبخطوات محسوبة، اقترب منها. أحست آمه أنه قريب منها، ولاحظت رائحة العرق الغزير. لم تستدر.

تمالكت نفسها وكظت على أسنانها. وركزت بصرها على رجل الدين الواقف مقابلاً لها، والذى كان يمسك صليبًا مصلوب" عليه المسيح، ويضعه على المرأة المحكوم عليها بالإعدام. تحاشت عينيه. أحست بالأيدى الباردة على كتفها. كان يمسك فى يده مقص. فى لحظة من اللحظات، ظنت أنه سوف يطعنها فى حلقها. وبدلاً من ذلك، راح يقص ياقة زى السجن. أوقفها منتصبة القامة. كان خلفهما باب لم تلاحظه هى. شهقت وزفرت وتمالكت نفسها. ظننت أنى قدمت عن هذه الحياة. كل هذه السنين فى السجن، أحسست أن حياتى كانت منتهية، وأنه لم يعد هناك موت حتى يمكن تنفيذه، لم يعد يتبقى أى شيء. الوجود داخل السجن يعنى عدم الحياة. ما هذا الإحساس إذن؟

كانت هادئة، بل متفائلة. حكم الإعدام هو القانون الإنسانى الوحيد للمحكوم عليه بالإعدام، على حد قول إنتلى، شريطة أن يكون ذلك مصحوبًا بسرعة التنفيذ. تأخير التنفيذ أمر قاتل. الوجود فى السجن يعنى عدم الحياة.

اقتادها الآن إلى باب الفخ أو إن شئت فقل: الشرك أو المصيدة. كان يوجد على الباب حبل يتدلى نحو الأسفل. خطر ببالها أن الإعدام سيكون بطريقة الشنق حتى الموت. الأخريات لا يعرفن ذلك. لم يبلغن أحد بذلك. ظنت أن الإعدام سيكون بطريقة فصيل الإعدام رميا بالرصاص. كانت مستشيف وماليس دائمًا تقلدان صوت المدفع الرشاش. ومع ذلك لم نسمع. مطلقًا صوت الطلقات طول ذلك الوقت الذى كان يجرى فيه إعدام الرجال. أدخل الجلاد رأسها فى عقدة من الصلب. وأشار لها بإصبعه أن تقف على اللوح المربع.

خطر ببال آمن، جثمانها. كان المفروض أن أسألهم عما سيحدث لجثمانى. استدارت على أمل العودة إلى القسيس لكن الجلاد وضع يده المسيطرة عليها.

"يا ألله، غير رأى أيّوبا Ayuba". دعت هذه الدعوى وهى تسقط بفعل ثقلها ووزنها على الأرضية الزائفة وقفزة أرسلتها وأدخلتها فى الأبدية.

كان السيد/ سولى يقف بالقرب منها. أحس بنشوة. تمامًا مثلما يحدث فى المجزر، هكذا قال فيما بينه وبين نفسه. البقرة إنسان فى هذه المرة فقط. كان يعرف أنها لم تكن ثقيلة تمامًا. كانت نحيفة، هزيلة مثل تلك الأبقار التى كانت تتجه جنوبًا مع مجيء ريح السموم.(*) كان المفروض أن يزنها حتى يمكن كسر العنق على الفور. تلك كانت القواعد المعمول بها. إذا كان وزن النزيل خفيفًا يجب تثبيت أثقال فى قدميه وساقيه لزيادة قوة الجاذبية فى مثل هذه الظروف.

لهثت آمه طلبًا للأكسوجين المراوغ. راقبها الجلاد وهى معلقة، وعيناها تصعدان إلى أعلى وإلى أسفل، مثل مصباح الفلورسنت (النيون) الذى يضيء وينطفيء، وحلقها محروم من الأوكسجين. كانت يداها المقيدتان تتحركان تحاولان إنقاذ الحلق (الزور) الذى يحتاج إلى الهواء. ولا جدوى من ذلك كله. وقف الجلاد ثابتًا يراقب الابتهاج الذى كان مصاحبًا لرجولته.

سأله الشيء المتمرد فى ذهنـــه من جديد عن الجثمان. ماذا سنفعل بالجثمان يا سولى؟ تجاهل ما يقوله ذلك الشيء.

يرفع ذراعيه ببطء تذللاً وطاعة. "لك يارب الموت. لك إنسان، وامرأة، وأم، أم القبائل، وأم الدول، وأم الإنسانية. آه! آه! يا سكينا sekina، لماذا هجرتنى، هجرتنى مثلما تتخلين عن فوطة صحية؟ لماذا يا سكينا، لماذا؟ لهث وراح يتنفس الأوكسجين.

(*) ريح السموم أو بالأحرى ريح الهرمتان، هى رياح برية تهب على ساحل غينيا طوال أشـــهر ديسمبر ويناير وفبراير. (المترجم)

الفصل الخامس عشر

أوقف الأب الموقر شارلز آنين Anene سيارته التويوتا كارينا حمراء اللون خارج أسوار سجن فريمان فورت؛ كان الرجل يصحب معه قندلفتين،(*) وقصدوا بوابة الدخول. كانت غُفارة(**) بيضاء اللون تهفهف بفعل النسيم. كان يمسك بصندوق قداسة فى إحدى يديه. كان سجن فريمان محطة بعيدة من محطات أبرشيته. صحيح أنه لم يكن يزور سجن فريمان بصورة دائمة، لكنه عندما يأتى له زميل له من خارج البلدة لتمضية عطلة نهاية الأسبوع، مثلما هو حادث الآن، يقوم بإيكال قُدّاسات الأبرشية لذلك الزميل، وبذلك يتوفر له الوقت الذى يقصد فيه سجن فريمان لكى يمد يد العون للنزلاء. لم يكن يود التعامل مع جناح النساء فى بداية الأمر. كان الرجل لا يثق بنفسه عندما يكون بصحبة النساء سواء أكن مسجونات أم غير مسجونات. لكن مدير السجن قال إنه يتعين عليه أن يتناوب زيارة جناح الرجال وجناح النساء، أو أنه لن تكون هناك زيارة على الإطلاق. فى الشهر الماضى، أرسل شخص يدعى الدكتور جونا Jonah رسالة تفيد أن نزيلة تود مقابلة قسيس كاثوليكى. كان الرجل قد انتوى الاستجابة لذلك النداء المكروب إن آجلاً أم عاجلاً. ثم جاء الأب دانيال بعد ذلك من ننوى وهو فى طريقه إلى روما. انتهز آنين هذه الفرصة. وعليه القى مهمة قداسات الأحد على كاهل الأب دانيال، وها هو فى سجن فريمان.

أدرك آنين اندهاش الأب دانيال من فرح قسيس الأبرشية لقيامه بزيارة ذلك الموقع البعيد. واقع الأمران قداسات القسيس آنين كان يجرى السطو عليها من

(*) القندلفت: بفتح القاف وكسر اللام، وهو خادم الكاهن فى القداس. (المترجم)
(**) الغفارة: بضم الغين وفتح الفاء هى رداء الكاهن فى الكنيسة. (المترجم)

مختلف الجماعات فى الكنيسة، وبخاصة الآن مع اقتراب دخول موسم الحصاد السنوى. كان المجلس الكنسى قد فرض أنواعًا كثيرة من الضرائب على جمهور المصلين الفقراء. فى كل يوم من أيام الأحد، كانت تجرى إطالة القداس المحدد له تسعين دقيقة، وتزداد فيه مواكب تقديم القربان. تعجب فيما بينه وبين نفسه عن الأسباب التى تمنع الناس من تقديم قرابينهم إلى الرب فى هدوء. وعندها سيقوم أبوك الذى يرى ما تفعله بمكافأتك. ولماذا الأب بالذات؟ كان يعرب عن ذلك أمام مجلس الأبرشية، لكنه جرى التغلب عليه. قال رئيس مجلس الأبرشية: الناس يقدمون أكثر عندما يتعين عليهم السير إلى المذبح. كان شخص ما قد ذكّره بما مفاده أن الأعضاء فى الكنائس الجديدة كان يتعين عليهم رفـــع قرابينهم فى أيديهم إلى الأعلى لكى يراها الجميع. هذا يؤكد أن طوائف دينية كبيرة كانت توضع على مذبح الله. قال الواعظ: هذا غرور. هذا كله غرور.

بعد موكب القربان، يبدأ منشور الحصاد، منشور صور رعاة الكنائس. جرت العادة أن يجرى استعراض ذلك المنشور ولاية بعد أخرى. والاتحاد الفيدرالى يضم ستة وثلاثين ولاية. كان من عادة آنين أن يجلس جاثمًا أمام المذبح، ينتظر القيام بالمباركة النهائية ليصرف جمهور المصلين بعد ذلك. وهذا عضو من هذه الجماعة أو تلك يعتلى المذبح ليعلن شيئًا أو آخرا. لقد أحصى فى القداس الأخير ثلاث عشرة شخصية مختلفةعلى مذبح أليلى، يلعبون فى المكان الذى تخشى الملائكة الاقتراب منه أو المشى عليه.

قد لا أكون مخصصًا للعمل الأبرشى. وربما يتعين على التفكير فى حياة الأديرة. أنا لا أجد إشباعًا فى حياة الكافة(*) التى أعيشها الآن. أنا بحاجة إلى المزيد من الصلاة، أنا بحاجة إلى مزيد من الخلوة والعزلة. نعم. لكن يتعين على التخلص من هذه الشياطين التى تهاجمنى بصورة مستمرة. أنا لا يمكن أن أدخل الدير وهذه الشلّة من الأرواح الشريرة ترافقنى.

(*) الكافة: جمهور المؤمنين باستثناء رجال الدين. (المترجم)

انتظر عند البوابة إلى أن ينهى السجان إجراءات الدخول. هو كاره للكسل، ويكره انتظار رأى شيء من الأشياء، يكره أن يكون معلقًا بين الإجراءات. لقد عرضه ذلك للخطر. وهو بعد هذه الشهور كلها لا يزال مكشوفًا ومعرضًا.

ظهرت له فجأة وكأنها مُشعِرة(*) تبدت له فجأه، واقفة ترتدى بدلة عمل زرقاء، وتقف على الجانب الآخر من البوابة، حيث كان يقف حارس الأمن منذ فترة قصيرة. كانت تضع يدها على مقبض البوابة، كما لو كانت تفتح له الباب. وابتسمت ابتسامة تدل على الشفقة والرثاء.

همس ثم استدار لمواجهة الطريق: "اغربى عني!"؛ لكن الشبح يعاود الظهور له من جديد وعلى شفتيها ابتسامة الحب نفسها.

رفع الأب شارلز يديه ليغطى بهما وجهه. تنهد تنهيدة عميقه، ناسيًا المكان الذى كان فيه، وغير منتبه إلى القندلفينين اللذين كانا يطيلان النظر إليه. كان القندلفان يحملقان فى الرجل ويتعجبان من ذلك الذى كان يستحوذ على قس أبرشيتهما.

ترى، هل هذه حالة من حالات التدين أم أنها شيء يقلق رجل الدين هذا؟ كان الصبيان جديدين، ولذلك لم يكونا يعرفان قصة هذا الأب. لابد أن له قصة. كانا متأكدين من ذلك.

خطر ببال القسيس أن الوقت الذى يستغرقه المشرف العام طويل فى هذه المدة. كان يقول فى داخله: افتح، افتح. افتح حتى أُشغِل نفسى.

حتى لا يزال يرى تلك المرأة الشبح حتى عندما يغمض عينيه. فى ذلك اللباس الأبيض الذى يخفى شكلها الشهوانى، وغطاء رأسها الذى يغطى خصلات شعرها زكية الرائحة. حملقا فى بعضهما. أحس بنفسه ينصهر، مستسلمًا لمفاتنها.

(*) المشعرة: بضم الميم وتسكين الشين وكسر العين: هى كلمة أو عبارة (فى مسرحية) تشعر الممثل بأن دوره فى الكلام أو فى الدخول إلى خشبة المسرح قد حان. (المترجم)

كان لها دومًا ذلك التأثير عليه. لا مفر. استسلم وسمح لنفسه بالغرق فى عينيها الصامتتين العميقتين، فى نظرتها سحيقه الأعماق، فى جمالها المحتشم. لم يحدث مطلقًا أنه كانت كثيرة الكلام. فى كثير من الأحيان التى كانا يختلسان لحظة تجمعهما سويًا، كان يسألها دومًا عما يدور فى ذهنها، وعن ذلك الذى تخفيه وراء نظراتها. وكانت تجيبه بابتسامة فى بداية الأمر، ثم تتحرك شفتاها بعد ذلك لتقول: "لاشيء".

كان يعرف بعد ذلك، ويدرك أيضًا تلك الظنون والشكوك الذى ينطوى عليها ذلك القناع وتلك النظره السحيقة. أم أن ذلك كان الخوف من المجهول أم أنه كان جبنًا، أو قسوة؟ وربما كانت تلك استيلاً Estella أخرى من استيلاّت شارلز ديكنز؟

قال لها: "ابعدى عنى، ابعدى عنى؛ لقد حطمت حياتي".

همهمت المرأة الشبح: "لا، لم أدمر، وإنما أنقذت. لقد أنقذت حياتك".

أشار لها آنين بالانصراف قائلاً: "ابعدى عني!" ولم يفلح فى ملاحظة المشرفة العامة التى جاءت إليه.

قالت الضابطة: "بوسعك الدخول الآن أيها الآب". تعجبت المشرفة العامة ما إذا كان هذا القس يتواصل مع الأرواح أم أنه مجنون. هذه المشرفة العامة لم تكن مسيحية ولم تكن تصطبر على أصحاب الملل الأخرى. وراح يفك سلاسل البوابة الأمر الذى أدى إلى اختفاء الشبح بنفس السرعة التى ظهر بها.

مر آنين بعمليات الأمن، ليدخل بعد ذلك إلى جوف السجن. كان هناك غناء بصوت عال ينبعث من جناح الرجال. كان يعلم أن الكنائس الجديدة تنافس بعضها البعض فى وزارة السجون. كانت معدلات الموت عالية جدًا فى ذلك الجناح بسبب أحوال التصحاح غير المواتية ونقص الرعاية الطبية. تناهت إلى حاسة شمّه رائحة الفضلات الإنسانية قادمة إليه من بعيد، تلك الرائحة النفاذة الخانقة. حاول الاحتفاظ بيده الحرة إلى جانبه، وألا يغطى فتحتى أنفه المستاءتين. كان يعرف الطريق

المؤدية إلى جناح النساء. وهناك أيضًا جرت بعض الإجراءات الأمنية. وبعدها بدأ ينشغل بعمله. راح يتسكع خلال أمعاء سجن فريمان الداكنة والمظلمة.

كان الأب آنين شابًا هزيلاً ضامرًا، أمضى اثنى عشر عامًا فى كَرْمَة الرب. كان أشقر البشرة وله أنف معقوف، وعينان واسعتان تتفحصك من وراء عدسات سميكة. أمضى الرجل سنوات إضافية فى المعهد اللاهوتى بسبب أفكاره الماركسية، التى وصفها مدير المعهد بأنها أفكار ثوريه، وتوشك أن تكون راديكالية. ومع ذلك، كان صادق العزم فى كل ما يريد القيام به إلى أن ينتهى منه، إيمانًا منه بأنه سيحقق ما يبتغيه فى نهاية المطاف، وبذلك أصبح على مذبح العلى العظيم.

استعد الأب آنين للاحتفال. كان عدد النزيلات قليل لكن اثنتين من الضابطات انضمتا إليهما.

جرت العادة قبل القداس، وأثناء قيام صبيه بالإشراف على المذبح، أن يروح الأب آنين يستمع إلى اعتراف النزيلات. جرت العادة أن يسبق الاعتراف حديث عامر بالقوة والحيوية. هذا الكلام يهدف إلى جعل النساء يختبرن ضمائرهن، ويقدمن اعترافًا طيبًا. هذا الكلام يكون على شكل عبارات نارية موجعة.

قال الأب آنين لجمهور المصلين الصغير، وهو يحملق فيهن من فوق حافة نظارته العليا: "أيتها الأخوات لدى بضع كلمات أود قولها لكن. وأخشى أن لا تكون هذه الكلمات للعزاء أو السلوان. وأنا أشك فى تعودكن على قساوسة يعزوكن ويعاملكن كما لو كنتن أطفالاً صغارًا. آنين لن يفعل ذلك. أنتن كلكن هنا فى هذا المكان بسبب أشياء ما ارتكبتموها. أشياء سيئة فعلتموها. البعض منكن قتلن، أزهقن أرواح أناس آخرين. وأنتن تعرفن أن الحياة مقدسة، وما أن تُزهق، لا يمكن استعادتها مرة ثانية. وقد يكون ذلك بالأجر أو الحذف، أو حتى بمجرد كلمة تخرج من أفواهكن". وراحت عينا آنين تنتقل من نزيلة إلى أخرى. صاح مرعدًا فيهن، "اندمن! غيرن ما فى قلوبكن! أوقفن عنادكن! وإلا ستحرقن جميعًا فى نار جهنم".

نظر إليهن نظرة تحدٍّ. قال فيما بينه وبين نفسه، هذه أرواح غير مؤمنة. قال فيما بينه وبين نفسه أيضًا: واحدة من جنسكن موجودة فى الدنيا، ويتعين أن تحتل لتكون هنا بينكن، وخطر بباله المرأة الشبح. واحدة منكن هى التى قتلتنى بحق، لكنها موجودة فى الخارج حية ترزق. ويواصل الرجل كلامه بصوت عال.

"البعض منكن يقلن إن جهنم لا وجود لها، كلكن تعشن فى جهنم بالفعل، وإلا، ما هو الاسم الذى تطلقنه على هذا المكان، على هذه الحظيرة؟ هل هناك جهنم أشد من هذه، إذا ما استطعتم تخيل جهنم. نعم، تخيلن مكانا أسوأ من هذا المكان. وأنكن تسقن إلى ذلك المكان بفعل ذلك الذى اقترفتموه". وهنا يرفع آنين إبهامه.

"وما لم تندمن، وما لم تندمن. حيواتكن الآن بين يدى الله، يا شقيقاتى فى المسيح. حقيقه بقاؤكن على قيد الحياة إلى الآن مرجعها إلى حب الله. كان يمكن أن تكن الآن فى عداد الأموات نظرًا لأن من يحيا بالسيف يموت بالسيف أيضًا. كان بوسع المرض أن يفتك بكن هنا، فى هذه القذارة". وراح ينظر إلى المكان الوسخ المتهاوى، ولم يقو على منع نفسه من ضغط فتحتى أنفه إلى بعضهما.

"يقول لنا القديس متّى إن البلطة (الفأس) موضوعة الآن على الجذع. وإن الشجرة التى لا تثمر ثمرًا طيبًا تستحق القطع، الطرح بها أرضًا. اشكرن الله لأكن لم تمتن بعد. الرب يدعوكن إلى التوبه والندم الآن. "آه، لو تستمعن إلى صوته اليوم، لا تُحجرِّن قلوبكن". اعترفن بأنكن ضللتن الطريق، اندمن على خطاياكن واطلبن العفو والرحمة. تخلين عن هذا القلب الذى لا يلين تخلّين عن هذا القلب العنيد تخلصن منه وتحولن إلى الله الآن، قبل فوات الأوان". ويصمت الرجل ثم ينظر إلى ساعته. كان الوقت متأخرًا. واختتم حديثه قائلاً: "لعل اللاتى لهن آذان منكن يصغين إلى هذا الكلام". ويطوى الرجل ورقته، ويقفل كتاب القُدَّاس. ترى، ما هذا الجديد الذى يمكن أن أقوله لهن ويكن لا يعرفنه بالفعل أو سمعن عنه؟

بدأت الاعترافات. كانت نساء كثيرات يبكين وهن يعترفن. بعض النساء اللاتى لم يكن كاثوليكيات انتهزن فرصة وجود القسيس واعترفن طلبًا للسلوى والراحة لأرواحهن المضطربة، والسلام الذى عادة ما يصاحب القربان المقدس. أخاف أخذان آمه البعض منهن وجعلهن ينشدن الراحة والعزاء فى الدين، الذى يعد المخدر الحقيقى للفقراء والمساكين.

كان دور أنتلى فى الاعتراف مثيرًا. تكلمت باستفاضة، وهى تنتحب وتصيح، وتومئ أثناء الكلام. ومسحت دمعة كانت قد سقطت على قنطرة أنفها. وعند مرحلة من المراحل قدم لها آنين منديلاً أبيضًا. واستأنفت كلامها بعد ذلك بطريقة هيستيرية، وكان رجل الدين يصغى إليها منتبهًا. تعجب الرجل بعد ذلك "يا مريم العذراء!"، وأمسك برأسه بين راحتى يديه وهب واقفًا. وراح يمشى فى الغرفة المجاورة، واضعًا يديه خلف ظهره، مطأطئًا رأسه، متعاميًا عن وجود النساء الأخريات اللاتى كن ينتظرن دورهن فى الاعتراف. كانت أنتلى تبكى طوال الوقت بكاءًا مرًا فى المنديل. ينشط الأب بعد ذلك ويستأنف جلوسه على مقعد الاعتراف، ويروح ينصت إلى بقية حكاية تلك التائبة.

منح النزيلات العفو. وعند هذه المرحلة يقف الرجل ويضع راحتى يديه على رأسهن.

"بحق السلطة المسبغة على، أغفرلكن خطاياكن باسم الأب، والأبن، والروح القدس". وهنا بدأ يتكلم الرجل كلامًا عامرًا ومعبرًا عن الارتياح والعزاء.

"أختاه، اعتبرى نفسك حظيظة. كفى بكاءًا. لقد غفر الله لك خطاياك. لا داعى للبكاء. أحرى بك أن تستشعرى القوة. اعتمدى على الله. تألقى، فقد أُنقذت. صحيح أن الله ﷻ يكره الخطيئة، لكن المخطئ عزيز على الله ﷻ. لقد كنت ابنة مسرفة، لكن عودى الآن إلى الله ﷻ. سوف تتدرجين ضمن الصفوة. امضى ما تبقى لك من وقت هنا فى الصلاة، وتولّى طلبًا لرحمة الله ﷻ".

وعندما وقفت المرأة لتنصرف، كان يرجوها قائلاً: "تذكرى من فضلك الأب آنين فى صلاتك، اذهبى فى حفظ الله وسلامته".

بدأ القداس. كان القندلفان قد تناوبا قراءة اليوم بينهما. لم تكن هناك عظة دينية. ولم يكن هناك أيضًا جمع للمال لأعمال الخير.

غنت النزيلات الترنيمات بلغات مختلفة. وظهرت الطبلة وآلة النيّو nyiyo. وجرى الترنم بالقداس بلغة الأجبو.

وعندما جاء موعد ترسيم الكاهن، راح المُحْتفى يغْنى أغنية الترسيم للنزيلات. لم يحدث أن فشلت هذه الترنيمة فى هز مشاعر الرجل. ومنذ ذلك الحين، كان الرجل قد تعلم هذه الترنيمة فى جامعة إيربان Urban. وتنحنح الرجل وبدأ يقول:

"جرت خيانته أثناء الليل، أخذ الخبز، وأعطاه لتلاميذه وقال: "خذوا هذا كلكم وكلوه: هذا هو جسمى، الذى سوف أضحى به من أجلكم".

يرفع خبز القربان المقدس، بينما راح واحد من خدام القداس يدق الجرس، وراح الآخر يطلق البخور فى الهواء الفاسد الملوث. كانت الرياح تصفر وتدق الأسطح فى السجن. وخلف الجدران كان الإمام يؤذن مناديًا المؤمنين لصلاة الظهر. رأى آنين شيئًا يهفهف بجواره. أبعده عنه، ثم رفع كأس القربان.

"بعد انتهاء العشاء، يأخذ كأسا. ويقوم ثانية بإعطائكم المجد والثناء، ويناول الكأس لتلاميذه. وقال: "خذوا هذا كلكم واشربوا منه: هذا هو كأس دمى، دم اللواء الجديد السرمدى. سيسفك هذا الدم من أجلكم ومن أجل الجميع حتى يمكن غفران الخطايا، افعلوا ذلك تخليدًا لذكراي".

أنشد الجميع ترنيمة الصلاة الربانية باللغة الإنجليزية، وجرى الترنم بالصلاة التى تتغنى بالمسيح كمُخلّصٍ Agnus Dei، بلغة الهوسا. وقبل أن يقوم القس بتوزيع

القربان المقدس، دعى النسوة إلى التوبة الصادقة ومن القلب حتى "لا تأكل وتشرب بغير حق وتجر اللعنة على نفسك".

ويقوم بتوزيع القربان عليهن. "اشربن وكُلْنَ، فقد غفرلكن كُلُّنَ وانعمن براحة أرواحكن".

* * *

بعد الانتهاء من القرابين المقدسة، تقدمت نساء عديدات كالعادة، صوب رجل الدين طلبًا للعون والمساعدة. وهنا تحول آنين من رجل سَـكِيت يعظ وعظا مؤلمًا، ومخيفًا إلى شخص مرح يُعنى بهموم الناس. حاول الرجل الابتسام. كانت بردجت أول لمراة تزرع نفسها أمام هذا الرجل. كان بطنها قد برز أمامها بشكل واضح.

"يا أبانا، لقد انقضت على فترة طويلة هنا. أهلى لم يزوروني. يراودني إحساس بأنهم لا يعرفون مكاني". أعطته ورقة. "هذا هو آخر عنوان لنا في فانديكيا. أرجوك الاتصال بهم وأخبرهم بأني في سجن فريمان فورت. أنا بحاجة إلى مجيء أمي بصفة خاصة". وأشارت إلى بطنها". يتعين عليها أخذ هذا الطفل". أخذ القسيس الورقة ووعدها بمساعدتها.

واصلت بردجت كلامها قبل أن تقاطع حديثها نزيلة أخرى "نحن أيضًا بحاجة إلى وقود الديزل لسيارة الترحيلات بلاك ماريا". كانت النزيلات الأخريات يدفعنها بالمناكب. "لكي تنقلنا إلى مبنى المحكمة. لقد قامت إحدى الكنائس بتوفير المال اللازم للإصلاح، لكن بلغنا أن وقود الديزل غير موجود".

قال أبونا (آنين) مرة ثانية: "سوف أرى ماذا نفعل". كان الرجل، قد تذكر أنه سيجرى تخصيص التبرع المالى الثانى لوزارة السجون فى "آركدا يوسيز" Archdiocese. لكنه لم يكن يستطع تحديد السجن الذى سنرسل إليه تلك التبرعات.

"أنتن تعرفن أنى قسيس على قدر حاله، لكنى سوف أبلّغ ذلك إلى مجلس أبرشيتى. جمع التبرعات الثانى يوم الأحد القادم سيكون مخصصًا لشراء وقود الديزل لسجن فريمان فورت".

"شكرًا لك، يا أبانا".

"الشكر لله، يا أختاه".

جاء دور سوزانا بعد ذلك، تبادلا التحية. "من فضلك، أنا محتاجة إلى مقابلة المسئول القنصلى لإيطاليا. لابد من خروجى من هنا بكفالة. لم يحضر إلى هذا المسئول منذ أشهر عدة".

سألها آنين: "هل هذا المسئول القنصلى هو دُتُّور Dottore كونتى Conti؟"

"لا، هو السيد استيفانو Stefano"(*)

رد القسيس باللغة الإيطالية "لقد غادر السيد/ استيفانو منذ شهرين".

صرخت سوزانا، وكلها حيوية: "عجبًا، أنت تتحدث الإيطالية!".

نعم. لقد درست فى إيطاليا،(**) فى جامعة إيربان Urban. حملقت سوزانا فى القسيس كما لو كان قادمًا من كوكب المريخ. وجرت بقية حوارهما باللغة الإيطالية فى حين كانت النزيلات الأخريات ينظرن إليهما وهن مرعوبات. لقد تغيرت سوزانا. كانت تطفح سعادة مثل كلب ضاع ثم جرى العثور عليه كانت سوزانا منفعلة جدًا. كانت ترفرف مثل طائر صغير.

قال لها القسيس: "لقد حجزوا لى للسفر إلى إيطاليا فى غضون وقت قصير جدًا".

(*) وردت هذه العبارة باللغة الإيطالية. (المترجم)

(**) أوردت المؤلفة هذه العبارة باللغة الإيطالية: Si .Ho studiato in Ilalia (المترجم)

"أنا عندى موعد مع ضابط التأشيرت يوم الأربعاء القادم. سوف آتى على ذكر قضيتك عند دوتور كونتى Conti. وسوف أصلى من أجلك يا سيدتى. أنا على يقين من أن شيئًا ما يمكن عمله من أجلك ولصالحك".

"شكرًا، أيها الأب"(*)

كانت باتسى تشعر بالقلق. كانت كنيستها العنصرانية(**) تدين بصورة دائمة الكنيسة الكاثوليكية لتشددها. وتقول أن الاعتراف لا لزوم له. لماذا يعبدون مريم العذراء؟ وها هنا الآن واحد من الكنيسة الكاثوليكية؟ طوال القداس كانت باتسى تجلس لوحدها، لقد عرفت عن جمهور المصلين، لكنها كانت تراقب الطقوس، وهى مقطبة الجبين، تضايقت. وعندما أصبحت غير قادرة على التحمل أكثر من ذلك اقتربت من أبينا آنين.

"عفوًا، أود أن اسألك عن بعض جوانب العقيدة الكاثوليكية".

"توقف آنين الذى بدت على شفتيه ابتسامة خفيفة. حدد حجم المرأة التى أمامه: هى فى منتصف العمر، جافة، هشة، ومضطربة.

سألها "هل أنت كاثوليكية؟"

"لا".

"هل أخطأت؟"

"لا، مطلقًا".

"هل تودين الارتداد عن ملّتك؟ وتصبحين كاثوليكية، إذن؟"

"لا، شيء من هذا القبيل" هكذا كان ردها.

(*) وردت هذه العبارة باللغة الإيطالية. Grazie , padre. (المترجم)

(**) العنصره: هى عيد الخمسين عند النصارى، وعيد الحصاد عند اليهود؛ وهذا العيد يحل فى اليوم الخمسين عدًا من اليوم الثانى من عيد الفصح. (المترجم)

"لقد فهمت. أنت لست كاثوليكية مطلقًا وتودين إشغالى بشيء لا تعرفينه. أنتم أتبـــاع الكنـــائس الجـــديدة، تعطـــون أنفسكـــم سلطـــة مناقشة أمور لم تدرسوها أو تمارسوها. أنا ليس لدى الوقت الذى يمكن أن أقضيه معك الآن.

"أختاه،" قالها بأكبر قدر من اللطف: "لماذا لا تزيلين الغشاوة التى على عينيك قبل أن تزيلى الشظية التى فى عينى؟"

تساءلت إحداهن من منتصف الجمع: "هل الآباء يضاجعون؟" كانت السائلة هى أولورى. استدار رجل الدين على الفور استدارة مفاجئة.

"من التى سألت هذا السؤال؟" لم يرد أحد منهن. وراح ينظر من امرأة إلى أخرى. كانت نظراتهن كلهن صارمة وجادة.

يرد آنين على السؤال بسؤال آخر: "هل تفهمين السؤال الذى تسألينه؟ هل تفهمين السؤال الذى تطرحينه على قسيس، قسيس كاثوليكى؟ أنت تريدين أن تسخرى منى ــ هل تودين الانتقاص من قدرى، وتحطين من شأن المؤسسة التى أمثلها؟" عمدت أنتلى إلى التدخل، وحاولت الاعتذار لكنه أسكتها.

قال: "دعينى أكمل كلامى؛ أنت تحرصين على الإساءة إلى القساوسة، ومضايقتهم. ألا تفهمين أن الرهبنة منحة من الله، منحة خاصة؟ تخيلى ولو للحظة واحدة قيام الرب بسحب هذه المنحة. من الذى سيقوم بتقديم القداس لكن، أيتها التعيسات؟ من الذى سيغفر لكن خطاياكن؟ من الذى سيمسحكن بالزيت وأنتن على فراش الموت، المسح بالزيت الذى يلغى كل نقائصكن، ويجعلكن جديدات تمامًا أمام الرب". ويصمت قليلاً: "هل نحن ...؟" لم يستطع أن ينطق بالكلمة المكونة من أربعة أحرف. "تخيلي".

تدخلت أنتلى قائلة: "كانت تلك مناظرة قائمة بيننا، يا أبانا. أنت تعرف مسألة العزوبة وعلاقتها بيمين أو قسم العفة. هل يلتزم القساوسة بتلك العفة؟ إنه مجرد سؤال علمى. العلم يطرح أسئلة كما تعلم"؛ وبذلك ينتهى كلام النزيلة.

قال القسيس وهو ينظر إلى المرأة بإمعان: "فى المرة القادمة، اسألى عن أشياء لها معنى عندك، وتتصل بموقفك هنا، كيف ستحصلين على حريتك، وما الذى ستفعلينه عندما يجيء ذلك اليوم، تناسى الأشياء التى لا تهمك".

كررت وُنمى الممرضة الكلام نفسه: "هل تتفضل بالإجابة على السؤال؟ هذا لمجرد إشباع فضولنا"

أردفت الممرضة قائلة: "هذا من أجل التطبيب التجريبي".

تركزت عينا آنين على المتحدثة. لم يعرف ماذا يقول. "حسن، كل ما أستطيع قوله هو إننا بشر أيضًا ولسنا معصومين من الخطأ، لكن الله وعد بوافر فضله علينا. آمين؟".

قلن: "آمين!" وهن غير موقنات إن كانت تلك صلاة أم لا.

"نعم، نحن القساوسة، أقسمنا قسم العفة، ويتعين علينا المحافظة على هذا القسم قدر الإمكان. ومن يفعل غير ذلك، يجيء على حسابه راحته الروحية".

فى الأسبوع التالى

وصل إجمالى التبرعات المجموعة لصالح سجن فريمان فورت إلى حوالى سبعة عشر ألف نيرة. قام قسيس الأبرشية ومعه رئيس مجلس إدارة الأبرشية، ورئيس مجلس الكافة بتسليم المبلغ إلى المشرف العام، الذى شكر كنيسة القديس باتريك شكرًا جزيلاً، نيابة عن نزلاء ونزيلات السجن. صلى الرجال الثلاثة، أن يُصرف هذا المبلغ أو جزء منه على الأقل، فى الغرض الذى جُمع من أجله. كان الفساد والتزوير منتشرين فى سائر أنحاء البلاد.

طلب الأب شارلز وهو فى طريقه إلى الخروج السماح له بالكلام مع النزيلات الإناث. وأخبرهن عن المنحة الخاصة بوفود الديزل وقال لبردجت أيضًا

أنه أرسل طالبًا من طلاب علم اللاهوت إلى عنوان أسرتها. وسوف يبلغها فى حينه بالمعلومات التى تصله.

قال لسوزان إنه ذهب إلى القنصلية الإيطالية؛ وتحدث مع القنصل عن قضيتها. ووعد دوتور بالنظر فى هذه المسألة على الفور: قال إنه حل محل استيفانو فى أبوجا منذ فترة قصيرة، وأنه بدأ يستقر ويطلع على الملفات. وقال إن الأمل كبير.

سألته بلغتها الوطنية: "متى ستسافر إلى روما؟"

"فى الأسبوع القادم"(*)

"هل يمكننى أن أرسل معك رسالة لعائلتى؟"(**)

"بالتأكيد".

ظلت بردجت مبتسمة طوال ذلك اليوم. "أعلنت للنزيلات كلهن: سوف يجرى شراء وقود الديزل على الفور، المال متوفر حاليًا لشراء ذلك الوقود. هذا يعنى أننا سيجرى ترحيلنا فى أى يوم اعتبارًا من الآن".

دخلت ماليس من الباب وهى تنوح: "من أين سيجرى شراء الوقود؟ ألا تعرفن أن بائعى الوقود مضربون؟ سائقو شاحنات الوقود. وعلى أى حال لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث. أقول لكن: إنه على امتداد الأيام العشر الماضية، لم يكن هناك وقود فى أى مكان. اذهبن لترين الطوابير التى تقف فى محطات إعادة التموين بالوقود. إذا وجدتم الوقود فى أى مكان فاشتروه. "سيجرى شراء الوقود على وجه السرعة وخلال وقت قصير" لا تجعلينى أضحك من فضلك.

(*) وردت هذه العبارة باللغة الإيطالية. La prossima settimana

(**) ورد هذا السؤال باللغة الإيطالية: posso inviare un messaggio alla mia famiglia?

الفصل السادس عشر

بعد ذلك

دخلت أومو، تلك البنت المخبولة، فى مخاض شاق لمدة ثلاثة أسابيع. واستمــر أنينها الحيــوانـــى وهــذيها فى ليلة من الليالى، ولم يتوقف ذلك الأنين أو الهذايان، ذهبت إليها ستاف Staff كيما تكون إلى جوارها وتهدئ من روعها. راحت الشابة الصغيرة تعوى وتصرخ ألمًا وهى تمسك ببطنها. حدث ذلك عندما عرفت النزيلات أنها طعمت الثمرة المحرمة مع عشيقها قبل أن تشرع فى قتل أمها بيدها، وقتل أخيها.

فى القضايا التى من هذا القبيل يبدأ العمل الشاق فى ساعة متأخرة من الليل. كان المركز الطبى فى السجن قد أغلق أبوابه عند دخول الليل وكانت الممرضة هى الأخرى غير موجودة. تجمعت النزيلات المندهشات حول الشابه الصغيرة. كن مضطربات، وحائرات، ولا يعرفن كيف يتعاملن مع هذا الظرف الطارئ. تقدمت زميلات الزنزانة بعروض مختلفة وكن يتأرجحن بين هذا وذاك. شد ذلك الاهتياج انتباه السجانة.

قالت لها إنتلى: "نحن بحاجة هنا إلى المواد شبه الطبية".

"البركين(*)؟ البنادول؟"

"طبيب أو ممرضة"

تدخلت الضابطة قائلة: "من التى بطنها تؤلمها؟"

وعندما لم يرد عليها أحد، واصلت كلامها.

(*) المقصود هنا هو "زيت البرافين" وهو من الملينات، وقد أوردت المؤلفة الكلمة parakini على لسان الشخصية للدلالة على جهلها بأبسط أشياء الطبابة. (المترجم)

"لقد انصرف الجميع لحال سبيلهم، لكن ستاف موجودة هنا، وتستطيع تقديم يد العون والمساعدة. أظن أن لديك خبرة ثلاثين عامًا؟"

ارتعدت وُنمى Wunmi. "نعم لكن....".

"لكن ماذا؟ أليس لديها بطاقة؟ ألا تستطيع شراء بطاقة؟"(*)

تلعثمت وُنمى "لكنهم قالوا: إنى لست مؤهلة". وراحت تعبر عن عصبيتها بيديها.

قالت إنتلى: "انتبهى، أنت الأكثر تأهيلاً فى هذا المكان، ابدئى عملك".

كانت البنت التى دخلت فى ذلك المخاض المؤلم تئن، وتتوجع، وتشيح برأسها يمينًا ويسارًا. وكانت حبات العرق تغطى جبينها.

تقترب ستاف من المريضة. كيف يمكن التحدث إلى معتوهة؟ كيف يمكن المضى قدمًا؟ لا توجد أعراض جنينية، ولا يوجد تاريخ طبى، ولا يوجد أى شيء. هل نفترض أنها ولادة مركبة؟ أم أن الجنين نزل فى وضعه غير الطبيعى؟

كان القسيس يتمتم ببعض الأشياء، فى حين كانت بردجت تجلس لوحدها، تراقب هذه المسرحية المشكوفة.

فى الوقت الذى راحت فيه أولورى تبتهل قائلة:

"omo wunmi. Omo oyeyipo ni Ikirun. Iyawo Molade, CEO wuns maternity Home....."

تنهض ونمى واقفة فجأة، ثم قالت: أنا موجود هنا. ولفّت إزارها حول وسطها لفا محكما. "سنحتاج بعض الأشياء"، قالت هذا الكلام للسجانة عبر القضبان

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة بإنجليزية ركيكه لأن الشخصية نيجيرية من الذين لا يتكلمون هذه اللغة. (المترجم)

الحديدية. "سنحتاج إلى ماء دافئ، وإلى مناشف، وإلى أقمشة. وأين سندفن المشيمة؟"

قالت ماليس وهى تضحك ضحكة نصف مكبوتة: **"الطلق لا يجيء، وتتكلمين عن المشيمة".**

اتجهت إنتلى صوب الشكل الهاذى الملقى على السرير وصفعتها على خدها.

"هلا! إذا كنت تحبين نفسك افعلى مثل ما تقوله ستاف، وإلا فسوف تُوَدِّعين. هل تسمعيننى؟".

لم يحدث أى رد فعل من جانب ذلك الشكل. وتصفعها مرة ثانية.

"هل تسمعينى؟" ويتوقف الأنين.

اتجهت ستاف صوب الأم المرتقبة، تحسست بدنها، وراجعت ارتفاع الجنين، ووضعه، وجلسته، ووضعه بالنسبة لفتحة الرحم. وفتحت رجلى البنت وراحت تنظر وتطيل النظر.

"إنه أكبر من الحجم الطبيعى". خطرت على بالها مراحل الولادة: من بداية الحمل إلى كبر الجنين، ومن كبر الجنين إلى ولادة الطفل، وتمدد المشيمة وساعة واحدة بعد الولادة لعمل الإجراءات الأخرى.

"من الذى معه ساعة؟ أهى ماليس؟"

صححت السجانة كلامها: "تقصدين الآنسة آليس Alice".

"من فضلك قولى لى كم الساعة الآن"

قالت الممرضة وهى تربت على المعتوهة بلطف: "أومو، اسمعينى".

صفعتها إنتلى على خدها مرة ثانية.

"عندما أقول اطلقى، فإنك يجب عليك أن تطلقى. افعلى كما لو كنت تودين التغوط؟

" أنت على وشك أن تصبحين إما..".

قالت إحداهن مؤنبة "إش، لا تقولى هذه الكلمة". لكن فات الأوان، فتحت أومو عينيها وحاولت التركيز.

قالت: "أنا قتلت أمى. أنا قتلت أمى".

حذرتها أولورى "ستقلتى نفسك أيضًا إذا لم تُطلّقين الآن".

"ماليس؟"

"أمك ماليس".

"أنا آسفة. آنسة أليس Alice؟"

"ليس قبل دقيقة واحدة".

"وهو كذلك، أومو، استعدى للطلق". رحن جميعًا ينتظرن التقلص التالى.

تُصفَع على وجهها "اطلقى، احزقى!"

صفعة أخرى "احزقى، اطلقى، استمرى فى الطلق!"

"كل شيء على ما يرام يا إنتلى. سيخرج الطفل إذا لم تحدث بعض المشكلات".

انتظرن ـــ أسلم القسيس أمر الفتاة إلى الله، ودعا الله أن يخرج الشياطين من غرفة المخاض، وأن يقيدهم ويلقى بهم فى هوة سحيقة.

راحت كل من بنتا ورحمة تتلوان على مسبحتيهما "بسم الله! بسم الله! بسم الله! بسم الله!"

شيء من الماء يا آنسة آليس، فى أضعف الأحوال، وشفرة أقطع بها الحبل السرى. شيء من الماء أنا بحاجة إلى غسل يَدَى وأغسل الطفل أيضًا".

وقفت السجانة من جلسة القرفصاء وهى مترددة بعض الشيء. كانت منهمكة فى ذلك الحادث المكشوف، الوركين المفتوحين، والخبرة الناجمة عن ملاحظة أم يجرى توليدها. وبذلك تعرف كيف يمكن لها تكرار هذه الخبرة لزميلاتها فيما بعد، بثقة شاهد العيان. ذهبت تبحث عن الأدوات.

حاول الشكل الملقى على السرير الوقوف. بدأ الألم يعاودها من جديد. نظرت ستاف فيما بين رجلى الفتاة. كان هناك شيء أسود. انحنت.

حملقت بردجت "إنه قادم يا أومو، أخرجيه، أنزليه". وضعت إنتلى يدها على كتف الأم الحامل وضغطت. لم يسبق لها أن حضرت جوًا من أجواء الولادة.

قالت: "هيه، هيه" ورأسها يضعف تدريجيًا.

عادت السجانة ومعها إناء فيه ماء وبعض الفوط الورقية القديمة. أطلقت أومو صرخة وهى تحس حملاً ينزلق خلال أصل فخذها (الأربية). بعد ذلك بلحظات بدأ صوت صياح وليد صغير يخترق الهواء. كانت ستاف جالسة على ركبتيها، ولباسها مرفوع بين وركيها، وكانت تمسك فى يدها تلك الحزمة الملطخة بالدم.

أعلنت على الجميع: "إنها أنثى، إنها أنثى!"

"الحمد لله!"

تقيأت بردجت، وبالت إنتلى.

"شكرًا ليسوع" كررت باتسى هذه العبارة مرات ومرات "الحمد لله".

امتلأت ستاف فخرًا، وكأنما كانت تقول: "قلت لكن إنى صاحبة خبرة وتجربة. قلت لكن أن بوسعى القيام بهذا الدور".

قالت أولورى مرحبة بالقابلة:" .Iyawo Molades Iya olakunle ati Oluyinka
."Ekuse, ekupalemo

قالت ستاف: "فى أضعف الأحوال لن نشغل أنفسنا بمسألة الختان".

يتعين على إجراء اختبار "الإبجار" APGAR لابد من إجراء هذا الاختبار .APGAR

الإبجار هذا عبارة عن اختبار يجرى فى الدقائق الخمس الأولى من ولادة الطفل

لتحديد حالته الصحية. هذا الاسم عبارة عن الأحرف الأولى من الكلمة الدالة على "المظهر" appearance، والكلمة الدالة على "امتقاع اللون" pallor، والكلمة الدالة على "كَشْره" grimacce، والكلمة الدالة على "النشاط" activity، ثم الكلمة الدالة على "الاستجابة" للحافز response .

قالت إحداهن: "اسمها يتوندى yetunde، أو إيابو Iyabo وبمعنى الأم التى عادت إلى الحياة".

قالت أومو بصوت واهن: "أنا قتلت أمى".

أكدت ستاف: "لقد عادت إلى الحياة" وانفرجت شفتاها عن ابتسامة كبيرة. والتمعت عيناها وهى تستعد لغسل الوليد الجديد. تمنت لو أفاقت أومو. أحضرت اللفّه إلى الأم الجديدة وأرتها إياها.

سألتها "ماذا كان اسم أمك؟" طرحت السؤال، وهى تهدهد الوليد الصغير.

ردت عليها أومو "أنا قتلت أمى". ولم تبد اهتمامًا باللّفّة.

"ذلك ماضى وهذا الماضى قد ولّى وراح. لقد عادت أمك إلى الحياة".

"ماذا كان اسم أمك؟"

"تسألين عن اسمها؟ أوزيومينا ozoemena".

"إذن، سنسمى طفلتك أوزو ozo"

كان ذلك هو السبب الذى أدى إلى ارتفاع عدد نزيلات الزنزانة (وو١٠) إلى إحدى عشر نزيله من جديد.

فى اليوم التالى، وعندما جرى إبلاغ الخبر الذى حدث عند منتصف الليل، إلى المشرف العام على السجن، قام بتغيير عدد النزيلات وزاد نزيلة على جناح النساء، ذلك الرقم الذى تحمله إنسانه غير متهمة ولا ذنب لها أو جريرة.

الفصل السابع عشر

فى عصر أحد الأيام

"موديا جا!"

أحست المرأة التى هذا هو اسمها بالرعب والخوف عندما سمعته.

تعجبت: "يا لهذا!".

هل حان موعد ذهابها إلى غرفة المشنقة؟ استدارت لتواجه السجانة دون أن تنطق بكلمة واحدة. استدارت نزيلات أخريات أيضًا، والرعب والخوف يسيطر عليهن جميعًا. فى أى لحظة، فى أى لحظة من اللحظات اعتبارًا من الآن، سيجيئون من اجلى. لكن تجيء أيام وتروح أيام، ولم يحدث شيئًا على الإطلاق. انتظرن، بلا حراك، إلى أن طلع الفجر وشقشق النهار. ولسبب غير معروف، كان يجرى تنفيذ أحكام الإعدام عند الفجر. وعليه عندما أحست النساء أن أشعة الشمس بدأت تظهر فى الأفق، تنفس بعضهن الصعداء إحساسًا منهن بالارتياح. وهذا يوم آخر من أيام إرجاء تنفيذ حكم الإعدام. لكن إلى متى؟

كن يتعجبن من الهدوء الذى ينطوى عليه الإعدام. عندما يجيء الدور على الرجال، كان من عادة النساء أن يسمعن الصراخ كل صباح. على امتداد أيام عدة كان وقت الفجر يشهد الصراخ الحاد الذى يحمله الهواء إليهن، لتعرف كل واحدة منهن أن القتل مستمر. بعد ذلك، أخذوا آمه، وتوقف الإعدام بعد ذلك. حدث ذلك فجأة. لم تستطع إحداهن الوقوف على سبب ذلك التوقف. لم يقل لهم أحد أى شيء. لم تكن هناك إذاعة، ولا تليفزيون، ولا صحف. لاشيء. ولم تكن مارسى موجودة حتى يسألونها.

عند وقت الظهيرة في أحد الأيام، وصلت ماليس وفكّت سلاسل المقابض الخارجية، وكان خلفها أربع من النساء؛ شابات، وفى متوسط العمر، وعجوزات. كانت اثنتان منهما تحملان طفلين لم يعتادا المشى بعد، وكانا يرفسان ويحاولان الهرب من الحمولة التى تضعها كل واحدة منهما على ظهرها، كانت واحدة من هؤلاء النساء مصابة فى رجلها، لأنها أثناء مشيها كانت تقسم نفسها إلى قسمين قبل أن تقف منتصبة القامة مرة ثانية. وعندما كانت تقف بلا حراك كانت الرجل المصابة تحوم فوق سطح الأرض. كانت المرأة الرابعة تحمل بعض الأشياء: أكياس من البلاستيك، حمالة أطفال عفّى عليها الزمن.كانت سلاسل الأرجل تربط النساء بعضهن إلى بعض.

وقفت ماليس إلى أن دخلت القادمات الجديدات إلى الزنزانة، ورحن يبحثن عن أماكن مناسبة لهن. كانت النزيلات القديمات يراقبنهن، دون أن ينطقن بكلمة واحدة. كانت باتسى وأولورى تلعبان لعبة الليدو. كان الدور على أولورى فى إلقاء الزهر. أمسكت أولورى الحبة فى قبضة يدها، وقد وضعتها على اللوح، وراحت تراقب النزيلات الجديدات. كانت الممرضة هى وبردجت تلعبان لعبة أخرى توقفتا عنها راحتا هما أيضًا تراقبان ما يجرى مع النزيلات الجديدات.

كانت السجانة تحرك فكها وهى تعد النزيلات. سبع عشرة نزيلة إضافة إلى ثلاثة أطفال. قلت السجانة أقفال الأقدام (الكلبش). وقفت النساء الجديدات غير واثقات أمام الأسرة، فى الوقت الذى غادرت ماليس فيه المكان. أنزلت النساء أحمالهن. وبدأ الطفلان الصغيران يجريان هنا وهناك، وهما فرحان بتحررهما. كان الطفلان يصرخان وهما يجريان من سرير إلى آخر، وكانا يذهبان إلى القضبان الحديدية، ويهزانها مرات عدة، منفعلين بالموسيقى الناجمة عن ذلك الهز. لم تكن هناك أسرّة خالية. كانت المراتب والحصير المتوفر كلها مشغولة. وهنا تعين على المحبات أن يتجمعن بغية توفير مرتبتين للقادمات الجديدات، اللاتى يتحتم عليهن تقاسم هاتين المرتبتين مع الطفلين.

سألتهن أنتلى وهى تتنقل ببصرها من الواحدة إلى الأخرى: "من أين أنتن؟" كانت نظراتهن تقول إنهن متمرسات.

قالت أطولهن: "نحن من لافيا Lafia. نحن من سجن لافيا. لقد شب حريق فى السجن".

صححت المرأة العرجاء الكلام قائلة: "مظاهرة".

"حريق ناجم عن المظاهرة. وانهار السجن بفعل هذا الحريق".

أردفت إحدى القادمات الجديدات "توفيت نزيلات كثيرات".

نهضت أولورى واقفة، وأبعدت أشياءها عن المرتبة، وأخذتهن إلى مكان الممرضة. وأشارت إلى النساء بالجلوس فى المكان الشاغر. أمسكت سوزانا بطفل من الطفلين الذى أطال النظر إليها ليصرخ بعد ذلك تعبيرًا عن خوفه.

"بوشمانى!" قالتها الإيطالية، وهى لا تزال تمسك بأصابع الطفل الذى يود الهرب. "يبدو أنه لم ير من قبل امرأة بيضاء. غبى".(*)

كانت أعين القادمات الجديدة مركزة على سُوزانا عجبًا، امرأة بيضاء فى السجن! تعجبن.

قالت أنتلى لهن: "قدمن أنفسكن أيتها السيدات. نحن نود أن تعرف أسمائكن".

قالت أقربهن من المتكلمة: "أنا ليد Laide" قالتها وهى تفقأ دُملا فى وجهها. كانت يدها تعبث بوجهها بصورة مستمرة بحثًا عن الدمامل، وتحديدًا لها، ثم تقوم بفقئها.

(*) وردت هذه الكلمة باللغة الإيطالية stupido. (المترجم)

هذا الوجه المراهق كانت فيه مناطق فيها بقع بنية اللون وأخرى سوداء اللون. كانت فى وجهها بقع حمراء، فيها جروح صغيرة، مغطاة بالبلاستر الطبى. لم تكن موهوبة بنعمة الجمال.

قالت أنتلى مصححة كلامها: "أمى Ma".

أردفت النزيله الجديدة: "أنا آسفة سيده Laide، أمى Ma". لابد أنها ريِّسة الزنزانة. هى تعرف أن كل زنزانة لها ريِّسة أو زعيمة.

"أنا أسمى بلسنج Blessing (نعمة)، يا أمى".

"وأنا أسمى أفيولينو يا أمى".

"وأنا إيا Iya إبيجى Ibeji".

"هل هذا الطفلان توأم؟".

"نعم، يا أمى".

"ما اسمها؟".

تاى Taiye وكيهند Kehinde يا أمى".

قالت سوزانا: "إنهما لطيفان!".

"كم عمرهما؟".

عند هذا السؤال راحت المرأة تفتش جوالاً، وأخرجت منه ورقة. وناولتها لأنتلى. كانت تلك الورقة تحمل بعض الأرقام. كان ذلك تاريخاً.

قالت أنتلى: "عامان ونصف العام. هل وضعتهما فى السجن؟".

"نعم، يا أمى".

"وأنت يا بلسنج (نعمة) كم عمرك؟"

"عمرى خمسة عشر عامًا يا أمى".

"ما الذى فَعَلْتِه؟".

"لا شيء، يا أمى".

"أهذا يعنى أنهم نقلوك ووضعوك فى السجن هكذا؟"

"نعم، يا أمى. المسألة تتعلق بامرأة كنت أنا صديقة لزوجها. قالت إنها ستُرينى. وفى يوم من الأيام، جاءت الشرطة إلى محطة الحافلة، ونقلونى ووضعونى فى الزنزانة".

"منذ متى؟".

"منذ اليوم الثالث عشر من شهر سبتمبر من العام ٢٠٠١. أى أكثر من عام وإلى الآن".

"هذا يعنى أنك كنت فى الرابعة عشر من عمرك. واستعملت ممتلكات امرأة أخرى لذلك الغرض".

قالت الممرضة: "هى تجرب. هن يبدأن فى هذه الأيام من سن الحادية عشرة، بل من العاشرة!".

احتجت البنت قائلة: "الرجل هو الذى يأتى ويبحث عنى، يا أمى".

قالت ستاف وهى تمصمص شفتيها: "نحوك وقواعدك مؤلمان؟ تقولين "الرجل هو الذى يأتى ويبحث عنى".

قالت البنت المراهقة وهى تمط شفتيها: "إنه يعطينى نقودًا كثيرة، وأنا اتبعه". تُجفِلُ موديانا، وتتبادل نظرات المعرفة مع القسيسة. أكياس كثيرة من النقود هى التى قادت شبابنا إلى الانفلات والضلال وذلك مقابل أشياء مادية لا قيمة لها. آه يا روث! هل تستطيعين المقاومة؟ جيو، ابنائى. احفظهم، أرشَدهم، احمِهمْ من كل هذه الأشياء المعسولة.

"وأنت يا سيدة".

"لقد تشاجرت فى المدرسة مع بنت من البنات، يا أمى. وماتت البنت".

"كم عمرك؟".

"ستة عشر، يا أمى".

"لماذا تشاجرتما؟ أكان ذلك بسبب عشيق؟" قالت هذا الكلام وقسمات وجهها تقول إنه غير محتمل.

"لا يا أمى. تشاجرنا على شريط فيديو".

خطر ببال أنتلّى، هذا جنون سينما وأفلام. أنت واحدة من المتيمات بأفلام الفيديو المنزلية. وبدلاً من أن تقرئى فى كتبك المدرسية تتابعين أحدث إصدارات أفلام الفيديو، ومتابعة مشاريع كل نجم من نجوم "نولى وود" Nollywood. طفلة شريرة. علاقة أو صلة إيطالية. الحب للبيع. أنت كازانوفا. أنت تُمضين حياتك من خلالهم، تتخيلين نفسك واحدة منهن، تعاشرين مشاهير الرجال من أمثال سيجون آرينز، بيت إدوشاى، واستلا دماسوس وآخرين.

انفجرت سيدة Laide قائلة: "لقد سرقت شريط الفيديو الخاص بى". وهنا حددت موقع نُمل صغير، ووضعته بين إصبعين من أصابعها، وأصبح جاهزًا للانفجار. "كل ما فعلته أنى ضربتها بالعصا. فسقطت وماتت بطريق الخطأ".

خطر ببال مودى، كلنا أخطأنا. وهذا هو سبب وجودنا هنا. كلنا من بيوت أسقفها تسمح بتسرب الماء، على حد قول أهلنا.

بدأت الأعين كلها تتركز على أفيولينو، اللثغاء. وجهت عينيها إلى الأرض وتمتمت بكلمات غير مسموعة. خطر ببال المتحدثة أن هذه مراهقه عِرّه. كانت سيدة Laide هى التى تتكلم نيابة عنها بصوت عال.

"سرقه مسلحة. عصابة قطاع طرق. أنا أسرق الحافلات الفاخرة".

كانت أفيولينو تجلس ورجليها مفتوحتين على المرتبة الإسفنجية الاصطناعية، وتحك ساق رجلها.

همست إلى سيدة Laide قائلة "يا صاحبة الوجه العامر بالدمامل. يا فتاة الآلام!" نظرت إلى اعلى لتعرف أنها بمثابة بؤرة الاهتمام.

أردفت قائلة، فى محاولة منها لتبرئة نفسها: "طلب منى رجل أن أحرس له حقيبته. لم أكن أعرف أن هناك بنادق داخل الحقيبه".

سألتها سيدة: "وماذا عن الطلقة التى أُخرجت من وركك؟"

ظلت أفولينو صامتة. هرشت تشققًا خياليًا كان على كوعها. حافلة فاخرة، عصابات قطاع طرق، خطر ذلك ببال المتكلمة. هذا الذى يستطيع الرجل عمله، تفعله المرأة أفضل منه.

تبقت بعد ذلك أم التوأم. فى هذه اللحظة عوى الطفل الجديد وتطرق الانتباه إليها.

"أعطه صدرك، يا أومو".

ردت عليها الأم الجديدة فى ضعف "هى لا تريد ثديى. كانت قد انتهت لتوها من إرضاع الطفلة".

"ماذا تريد هذه الطفلة الشقية؟ أعطها صدرك!".

قالت الممرضة، وهى تبتسم للطفلة ابتسامة رقيقة: "هذه الطفلة حظيظة". لقد سميت باسم جدتها من ناحية أمها، بعد سبعة أيام من مجيئها إلى هذه الدنيا. "سوف تحصل فقط على لبن الثدى. لبن الثدى هذا هو الحارس الصدوق للطفل". كانت تقول عندما يقول أحد أى شيء: "أنا قلقة لمسألة التحصينات ــ طعم الـ (BCG) الذى يؤخذ عند الولادة ثم بعد ذلك طعم DPT".

تساءلت إيا إيبيجى "هل بدءوا القتل هنا؟" حولت الحاضرات أنظارهن عن وُنمى وعن الوليد الصغير إلى النزيلة الجديدة، وهنا أدركن أن الكيس الذى كانت تحمله أيَا هو على ظهر إنما هو حَدَبة فى حقيقة الأمر.

قالت صاحبة الظهر الشبيه بالمقعدة: "هذا هو سبب الإضراب الذى قام فى لافيا. لقد قتلوا (أعدموا) شخصًا كانت قضيته لا تزال منظورة أمام المحكمة. اضرب النزلاء، وانقضوا على السجانين. وقتلوا اثنين منهم. قامت الشرطة بفتح النار، وحدثت فوضى. هجم النزلاء على المخازن والمستودعات، وعلى المطبخ. وأحرقوا المكان إلى أن انهار".

تساءلت أنتلى: "هل تقولين إنهم أعدموا شخصًا كانت قضيته لا تزال منظورة أمام المحكمة؟ هذا خطأ".

"قالوا إنه موجود فى السجن منذ أكثر من عشر سنوات، لا يفعل شيئًا سوى أكل طعام الحكومة. أضرب الرجال. علقت الحكومة أحكام الإعدام".

استطردت سيدة Laide "كان يعطى النقود للسجانين والمساجين الآخرين. نادوا عليه مرتين لتنفيذ حكم الإعدام، وعاد إلى الزنزانة حيًّا مرتين. كان ينفق النقود على السجانين، وعلى رفاقه النزلاء. وذات يوم أخذوه ولم يعد. وهنا أضرب النزلاء".

هنا خطر أطفال مودياجا على بالها، "هذا إذن هو سبب بقائنا على قيد الحياة".

"ربما أستطيع إرسال رسالة أخرى إلى روث". كانت مودياجا من النوع الهادئ، أهدأ من طلاب دراسة علم اللاهوت، لا يتكلمون إلا إذا تكلمت معهم. كانت تُسمَعُ دومًا وهى تتنهد ويصدر عنها هسهسه، كان سرها مدفونا داخلها. كانت من محبى الوحدة أيضًا. كانت تفعل كل شيء بنفسها بما فى ذلك ضفر شعرها. كانت تستخدم أصابعها فى قطع جزء من شعر العُرف الخفيف وتروح

تتسجه. كانت تحتاج إلى العون والمساعدة عندما تبحث عن القمل وتقصعه حتى الموت. عند هذا الحد كانت تطلب العون من جارتها. فى بعض الأحيان، وعندما كانت تزحف قملة على صدرها أو فوق مخدتها كانت تضعها على ظفر إبهامها وتسحقها بظفر الإبهام الآخر. الجميع عندهن قمل فى شعورهن.

فى بعض الأحيان، كانت مودى تتكب على إنجيلها، وتروح تقرأ قراءة صامتة وهى تحرك شفتيها كما لو كانت تحاول تعلم القراءة. كانت مودى قليلة التبصر والتمييز. لم تكن تعرف المكان الذى وضعت فيه نظارتها. كانت تطلب من البنات البحث عن النظارة وإحضارها لها، نظرًا لأنها تعجز عن رؤية النظارة فى مثل هذه الظروف. كانت تقترض نظارة القسيسة بين الحين والآخر. صحيح أن النظارات كانت قوية جدًا على عينيها، لكنها أحسن من لا شيء. كانت القسيسة عشيقتها ولذلك كن يتبادلن أشياءهما.

كانت مودى سوداء البشرة وطولها حوالى خمسة أقدام ونصف. كانت بشرتها جافة ومتقشرة. كانت هناك شامات كثيرة على جسمها. وكانت هناك شامة واضحة فى صدغها، وكان الناس يحسبون تلك الشامة شلخًا قبليًا. كانت تلك الشامة أول بصمة من بصمات قدم زوجها على جسمها. أراد ذات مرة أن يحدث فيها عاهة تظل معها مدى الحياة، حتى تقل جاذبيتها عند الرجال الآخرين على حد قوله. وكان هناك أيضًا قطع عند حافة أنفها فيما بين شفتيها وفتحتى أنفها، هذا القطع حدث نتيجة صفعة صفعها إياها ذلك الزوج وهما فى منتصف وجبة من الوجبات، عندما كانت تمضغ قطعة من العظم. هذه الصفعة لم تؤثر فقط على طبلتى الأذن، وإنما أثرت أيضًا على الشفة العليا، الأمر الذى كان يعطى انطباعًا بلثة مشروخة.

كررت السجّانة: "مودياجا، هناك شخص يدعى سيث Seth يود مقابلتك".

نظرت السجينة إلى أعلى، بعد أن أصابها الرعب بعد أن نُودى عليها. فكرت فى الحال أن عشماوى جاء إليها. وبعد أن أدركت حقيقة الاسم الذى قالته السجانة ارتاحت واسترخت. لكن تلك الراحة وذلك الاسترخاء لم يدم طويلاً، لأن نوعًا جديدًا من التردد أصبح يتملكها الآن".

"سيث؟ ابنى، سيث؟"

انتظرت الضابطة. هزت وركها، متباطئة فى الرد على النزيلة.

هبت مودى واقفة، ولفت ثيابها بإحكام حول وسطها وقفلت الإنجيل، كما لو كانت فى حالة تجلى.

"سيث. سيث هنا مرة ثانية؟".

قالت لها الأخريات: "اذهبى وقابليه. أليس هو ولدك؟".

ترددت مودى. لم تكن تود رؤية ولدها فى هذا المكان. لم تكن تود أن يراها ابنها خلف قضبان من هذا القبيل. سيطغى الانفعال على قلبها، وعلى ضغط دمها. سيث. سيث.

"اذهبى إليه يا مودى، إذهبى. فلربما تكون معه رسالة من المنزل". منزل؟ ساءلت مودى نفسها، أى منزل؟ لم يعد هناك منزل. المنزل أصبح هنا. هنا المنزل. منزلى؟ أى منزل؟

تبعت السجانة خارجة من الزنزانة بخطوات محسوبة. بقى اسم ولدها على لسانها طول الطريق، "سيث، سيث، سيث".

أداروا ظهر الرجل إلى القضبان الحديدية. شاهدت شكله الخارجى، طويل، ينظر هنا وهناك. كان سيث لطيفًا. كانت ملامحه هشة. كانت أساليبه لطيفة، كما لو كان شخصًا متعبًا دومًا يحاول استدعاء ما تبقى فيه من قوة.

قالت للشكل الذى يلبس رداء أبيض: "هل أنت سيث؟" هذا الزى الأبيض هو زيه المدرسى. لابد أنه كان عائدًا من المدرسة. الحمد لله، أنه لا يزال فى المدرسة.

استدار وابتسم ابتسامة حزينة "أُماه!" كان يمسك بملف كتبه فى إحدى يديه. سقط منه الملف. اندفع ناحية الشكل على الجانب الآخر، ومد يديه من خلال القضبان الحديدية.

"سيث!".

"أُماه!".

هربت رغمًا عنها ابتسامة من شفتيها: "رجوتك أن لا تجيء إلى هنا".

"كان لابد من مجيئى يا أماه. البيت ليس كما كنت أنت فيه. أنا افتقدك فى المنزل. أنا لا أقوى على تحمل ذلك بعد الآن". تحرر من تطويق الأيدى. وجفف دموعه فى كُميه". أود أن أموت معك".

"لا، لا تقل ذلك. تقوّى".

"حاولت، حاولت مرارًا، لكنى فشلت. ليتهم يطلقون سراحك ويأخذونى بدلاً عنك". وتحس المرأة غُصَّة فى حلقها.

"كيف حالك، يا سيث؟ كيف حال صحتك؟" أدارته وراحت تفحصه كيما تطمئن على صحته. كان هشًا، نحيفًا. كانت عيناه غائرتين. مدت يدها من خلال الحاجز ورفعت جفنه السفلى، بحثًا عن الدم. كان الدم ورديًا.

"ولدى. لا تنسى الحامض الذى تتناوله. داوم على تعاطيه".

"أقول لك أنى أود أن أموت، وأنت تقولين: لا تنس "الفوليك أسيد"(*) Folic acid

"سيث، من أجل خاطرى، أرجوك".

"المرة الأخيرة التى جئت فيها إلى هنا لم أرك".

ظلت صامتة، وكان قلبها يبكى فى داخلها.

(*) الفوليك أسيد Folic acid: مركب من الفيتامينات البلورية، ومن فيتامين ب المركب ويستخدم فى علاج الأنيميا الناتجة عن سوء التغذية. (المترجم)

"كنت مهمومًا ومشغولاً، ظننت أنك.... وأنت تعرفين..." لم يستطع النطق بتلك الكلمة المريعة.

"كنت متوعكًا".

"كـــنت أصيح على طول الطريق إلى المنزل. لم أستطع النوم. ظننت.... إذا كان شيء ما قد حدث لك فسوف أقتل نفسى".

"سيث، أرجوك. أرجوك لا تتكلم بهذه الطريقة. أرجوك أن تعدنى بأنك ستكون قويًا، وأنك لن تزهق حياتك".

"أى حياة، يا أمى؟ لقد ولدت مريضًا، شبه ميت من اليوم الذى دخلت فيه هذه الدنيا. أنا الآن محروم من الإنسانة الوحيدة التى يمكن أن تعتنى بى، تقولين أنى ينبغى ألا ..... أية حياة تقصدين؟

"هذا هو السبب الذى جعلنى لا أقابلك فى آخر مرة جئت فيها إلى هنا. هذا الذى تقوله يقلقنى".

"سأداوم على المجيء إلى هنا. وفى المرة التى أجيء فيها ولا أراك، سأعرف أنهم قتلوك. وأنا أيضًا سوف أشنق نفسى فى البحيرة". وتظهر فى حلق الأم غُصَّة بحجم كرة المضرب.

"سيث، أرجوك".

نبهتها السجانة الواقفه خلفها: "انتهى وقت الزيارة يا مودياجا".

سألته مودى على وجه السرعة والسجانة تقترب منها: "كيف حال روث؟".

"بخير".

"أنا آسفة، يا سيث. قل لها إنى آسفة".

"سأقول لها ذلك يا أماه". ويتحول سيث إلى السجانة ويسألها "من فضلك، هل يمكن أن تعطينا مزيدًا من الوقت؟ أرجوك يا أمي". نظرت السجانة إلى كل من الأم والابن، وغمغمت قائلة "دقيقتان".

كررت مودى كلامها "اطلب منها أن تسامحنى".

"وهو كذلك يا أُماه. الخطأ لم يكن خطؤك. طوال كل هذه السنين وهو يضربك. كنت أرى ذلك. رأيت ذلك كله. كل ما فى الأمر أنى كنت ضعيفًا إلى حد أعجزنى عن حمايتك، كنت صغيرًا على نحو لم أكن استطع معه فعل أى شيء. ليتنى كنت فعلت شيئًا حتى أحل محلك هنا".

صمتت قليلاً "سوف تتحسن الأمور بشكل أو بآخر". وخطر على بالها القميص الأبيض والبنطال. وتذكرت المرة الأخيرة التى كان يلبس فيها البنطال القصير.

أجاب على أسئلة آمه التى لم تفصح عنها. أجاب وكانت عيناه تفيضان انتصارًا: "أنا فى المرحلة الثانوية الآن يا أماه، فى آخر المرحلة الثانوية".

قالت أمه بصوت مدوٍ: "الحمد لله!" هذا يعد إنجازًا إذا ما قام به مريض. هذا بغض النظر عن كبر سنه، وأنا فى سن السادسة عشر يعد متأخرًا فى المرحلة SSI. آه! لقد تحقق ذلك على الرغم من هذه الأزمات، وكل هذا المرض، وكل هذه المستشفيات، والفصول الدراسية الضائعة، والامتحانات الضائعة أيضًا. فى واحد من الفصول الدراسية، تذكر الأم أنه لم يحضر سوى اليوم الأول فقط من ذلك الفصل، وبعدها تحتم نقله إلى المستشفى العام. لقد أنقذوه باستعمال النبريم. والعديد من جرعات الأملاح التى أعطيت له عن طريق الوريد. وكذلك نقل الدم. لقد فاتته حصص كثيرة، إلى حد أنه فى لحظات الصحة، كان يجرى مدرس المادة لكى يصل به إلى مستوى الفصل الذى هو مقيد فيه. وبغير ذلك، كان لابد له من إعادة

كل حصة أو مادة من المواد. وحتى في وجود مدرس المادة يتعين على المرء المضي قدمًا بحرص. كان يتعب بسهولة جدًا ولا يمكن إرهاقه بالدروس أو العمل.

حذره الأطباء مرارًا: "المرضى لا يحبون الضغوط أو التوتر. وعليه يجب عدم التعجل. افعل المطلوب بسهولة ويسر".

الآن هو في نهاية المرحلة الثانوية. قالت مودى ثانية: "الحمد لله!" هو ليس مستمرًا في المدرسة فقط لكنه يحقق تقدمًا أيضًا. قالت لولدها مرات، ومرات: "الحمد لله، يا حبيبي!"

كانت السجانة تقترب منها من جديد. هل انتهت الدقيقتان؟ تعجب شيث. وعندما افترقا طال الزمن. عندما يكون مع بعضهما يمر كل شيء بسرعة. لكنه كان ممنونًا لذلك الوقت القصير الذي أمضياه سويًا. كان أحسن من لا شيء وسوف يشغله إلى أن يجيء في موعد الزيارة القادمة. أحس بارتفاع روحة المعنوية. صحيح أن أمي لم يكن شكلها على ما يرام. الواقع أنها فقدت الكثير من وزنها. كانت عظام كتفها، التي وصفها المدرس في حصة الأحياء، بارزة جدًا وكأنها عقدة حول العنق. لكنها كانت حية ترزق في أضعف الأحوال، هزيلة لكنها على قيد الحياة. قال شيث وهو يخاطب السجانة في تواضع،

"من فضلك عاملي أمي معاملة حسنة. من فضلك لا تقتليها. أنا لست على ما يرام من الناحية الصحية. هي كل مالي في هذه الدنيا. أرجوك".

تجاهلت الضابطه ذلك التوسل، واقتادت النزيلة بعيدًا عن القضبان.

نادت النزيله على ولدها قائلة: "لاتنس الفوليك آسيد ــ تناول البيض، واللبن والخضروات، يا سيث أرجوك".

ولْولَ سيت قائلاً: "أرجوك، عامليها معاملة حسنة ــ عاملي أمي معاملة حسنة"

وأمسك بالقضبان الحديدية مخافة أن يسقط على الأرض ـ كان قلبه ينفطر. وينحنى ويضع يديه على عينيه.

"أماه! أماه! أمى! عاملوها معاملة حسنة، أرجوكم. عاملوها جيدًا، فهى كل ما لى فى هذه الدنيا".

* * *

كانت موديانجا تجرجر رجليها اللتين كانتا تبدوان مثل كيسين من الملح، وزن كل منهما عشرين كيلو جرام، وذلك عندما كانت ماليس تعيدها إلى الزنزانة. قاومت رغبتها الشديدة فى العودة لتلقى نظرة على ولدها الوحيد. لكنها كانت لها عينان من خلفها، إذ راحت تتخيل عينيه المغرورقتين بالدموع ووجهه الغارق فى الدموع أيضًا، ونظرته التى توحى بالأسف والحزن. وقالت فيما بينها وبين نفسها: ظننت أنى كنت ميتة عن كل هذه المشاعر. لم يخطر ببالى أن تلك المشاعر كانت لا تزال متقدة فى داخلى. كانت تعتمد على الذكريات، التى كانت تمر على مخيلتها كما لو كانت شريطًا من شرائط الفيديو، ووقفت تتأمل تلك اللحظات الماضية، بجوار الطفلين اللذين يكبران، قبل أن تتفتح نار جهنم عليها مثل الكلب المسعور. لقد أعاد شيث إليها تلك المشاعر حية، نفض الرماد عنها، وأعاد إشعال الجمار داخلها. لقد غرس الخنجر فى الجرح المفتوح. واستبدأ من جديد نزيف الشامات القديمة. حاولت التنهد، لكنها لم تستطع مواصلة التنهيدة إلى نهايتها. تزايدت ضربات قلبها. ربما كان ضغط دمها يرتفع من جديد. ما الذى يمكن أن يتحصل عليه الشخص؟ ما الذى يمكن أن يتحمله الشخص؟ كانت تتعجب وتسائل نفسها، وهى تحس بالضعف والهزال، وعجزها عن الاستمرار. وجدت نفسها على الأرض الباردة. لعلى أموت الآن. أنا لا أقدر، لا أستطيع المضى قدمًا فيما أنه فيه.

توقفت ماليس. انتظرت إلى أن تتمالك النزيله نفسها وتقف. لكن مودى بقيت فى مكانها، تحملق فى الفضاء. تحرك سجان بفعل الإشفاق عليها، وجاء إليها ورفعها من فوق الأرض.

قال: "هذا شيء طيب"؛ وأخذ يربت على ظهرها "هذا خير يا أختاه. وسيفعل الله لك الخير،" وأخذ يعاونها فى خطواتها الأولى، ثم تركها لحال سبيلها.

واصلت السجانة والمسجونة رحلتهما.

إنعطفتا عند الناصية. خطر ببال مودى أنها سعيدة. أنا سعيدة لأنى لم استسلم لأصبح مثل زوجة لوط. لو فعلت ذلك لتحولت إلى كيس من الملح. أى شيء ينهى هذا الألم الذى لا نهاية له.

عند الناصية، كان هناك سجان آخر. كان ذلك السجان يحرس الممر المؤدى إلى الركن أو الجانب المحظور. غمز للنزيلة بعينه، وحاول الابتسام، لكنه أنهى الموضوع بنظرة فكاهية على وجهه. قال فيما بينه وبين نفسه: هذه النساء بلا رجال منذ زمن طويل، وسمح لخياله بالشطط إلى بعيد ــ أثناء مرور مودى أخرج يده الغليظة. كانت فى يده قطعة من الورق ــ مرر الورقة إليها وسمح الوقت له بأن يربت على مؤخرتها المرتعشة.

واصلت موديا جا سيرها، والسجانة ممسكة بكوعها بإحكام شديد. خطر ببالها أن تتعثر فى هذا المكان وتنتحب إلى أن يستريح قلبها. هى بحق بحاجة إلى الولولة والنحيب كيما يرتاح قلبها، كانت تود إفراغ الأذى الذى تكدس فى داخلها، الأذى الذى كان يخنقها. لكنها كانت تعرف أن ماليس سوف تستخدم الصافرة لطلب التعزيزات، وأنها سيجرى تكويمها فى الركن بالقوة أو بما هو أسوأ من القوة، وقد تدخل السجن الانفرادى. استجمعت شجاعتها وواصلت سيرها إلى الزنزانة، قبل أن تنام فى سريرها؛ واستسلمت لانسياب دموعها بعد ذلك.

"آه، يا سيث! ولدى، سيث".

"هذا الشخص الذى يحمل هذا الاسم انصرف وهو يبكى تاركًا وراءه بوابات السجن. لم يكن يعرف إن كان سعيدًا أم لا. كان ممنونًا لأنه تمكن من رؤيتها، لكن، يا ألله، فى ظل ظروفها يا لها من ظروف! فى المرة الأخيرة التى جاء فيها إلى السجن، لم يرها، تخيل ذهنه ما هو أسوأ.

خطر بباله: "لقد قتلوها، قتلوها مثلما قتلوا سارو ويوا Wiwa وواروا جثمانها فى قبر مجهول. لن أراها مرة ثانية. أمى. أنا لن أراها مرة ثانية".

كان مكتئبًا، ولم يأكل كما ينبغى طوال أيام. فى ذلك الأسبوع، تخلف عن المدرسة، لأن المدرسة لا فائدة منها، لم يستطع التركيز على المحاضرة، لم يستطع تركيز ذهنه على السبورة. كان رفاقه فى الفصل معتادين على تغيبه، وذلك لم يشغل باله بأى أحد منهم. كانت أفكاره مركزة دائمًا على أمه. كان يتخيل جثمانها وهى ميتة، وعيناها المغلقتين، وهى راقدة فى قبر مظلم مفتوح. بقى فى سريره طول اليوم، ينام ويصحو ويتأوه بفعل ما ألم به. لم يكن أمام أخته من سبيل سوى تجاهله.

كانت روث تذكره: "أنت تعلم أنك مريض. لا تأكل. أنت لست بعد طفلاً ــ إذا أردت، فلا تأكل. وعندما ستموت سندفنك".

حاول أن يأكل لكنه تقيأ ذلك الذى أكله على الفور ــ أحس بالكارثة قادمة. ذهب وحده إلى العيادة الموجودة عند آخر الطريق، حيث يعرفون حالته جيدًا، أدخلته الممرضة وأعطته محلولاً ملحيًا من خلال الوريد. لم يحدث أن جاءت روث لزيارته فى يوم من الأيام ــ بدأ يستشعر غياب أمه أكثر وأكثر. وأقسم على زيارة سجن فريمان إلى أن يتمكن من رؤية أمه.

* * *

بعد أن انتهت مودياجا من روايتها عن لقاء ولدها، راحت النزيلات يناقشن هذا اللقاء مناقشة مستفيضة.

أقرت أولورى، وهى تواجه باقى النساء "هناك علاقة خاصة بين الأمهات والأبناء".

خطر ببال انتلّى، وهى تومئ برأسها "هذه عقدة أوديب".

"فى بعض الأحيان، يمكن لهذه العقدة أن تذهب مذاهب بعيدة جدًا ـــ بعض الأبناء يكونون مرتبطين بالحبل السُّرِّى، إلى حد أنهم لا يمكن أن يفعلوا شيئًا فى غياب أمهاتهم".

أردفت الممرضة قائلة: "حتى بعد الزواج. أنا أعرف رجلاً متزوجًا كان يذهب ويأكل فى منزل أمه، كل يوم، بعد الانتهاء من عمله، قبل العودة إلى زوجته وأبنائه. كل يوم".

قالت سوزانا عندما حدثت ثغرة فى الحوار "هذا الشيء نفسه موجود فى إيطاليا. كانت تحمل واحدًا من التوأم ـــ وتقول أشياء لا معنى لها فى أذنه. كان الطفل يقاوم. كثير من الرجال الذين يزيد سنهم على الثلاثين لا يزالون يعيشون فى المنزل. إنهم مرتبطون بأمهاتهم". وهم يرفضون الزواج. والأم هى التى تغسل وتطبخ لهم".

قالت مودياجا وكأنها فى حلم: "لا أستطيع البقاء بدونك. لا استطيع العيش بدونك. هذا هو ما قاله لى".

"هذا هو الحال".

قالت أم سيث: "هذا هو السبب الذى جعلنى لا أذهب إليه وأقابله، لكنكن أيتها الآدميات ضغطْنَّ على بالذهاب".

قالت الممرضة وهى تشير إلى موديا‌جا: "انظرن إلى هذه المرأة. هؤلاء اللاتى لهن أرداف لا يعرفن كيف يجلسن ــ الست سعيدة بزيارة عائلتك لك؟ هل تظنين أنك الوحيدة هنا التى لها أطفال؟ أو أسرة؟ وماذا عنا نحن؟ من الذى جاء لنا؟ من الذى يهتم بنا؟

أردفت إيا إيبيجى: "مودى، احمدى ربك على هذه النعم. أنا منذ دخلت غرفة الحراسة لم يحضر أحد من أهلى لزيارتى ــ ولا واحد منهم ــ، وأنا عندما أقول لك إن لى أربع شقيقات، وخمسة أشقاء فى هذا البلد، فهل ستصدقين ما أقول؟ أين هم؟ احمدى ربك على هذه النعم".

قالت أنتلى: "فى المرة القادمة عندما يجيء سيث سأذهب معك لرؤيته. أنا عندى مهمة له ستساعدنا على الهرب. بدلاً من كل هذا النحيب والعواء ومضيعة الوقت، هناك شيء مفيد سيفعله من أجلنا".

أومأت مودى برأسها وهى شاردة الذهن. كان ذهنها لا يزال مركزًا على ولدها. ومن باب الخرافات أخرجت الورقة التى أعطاها إياها السجان.

(تشجعى، أحبك ــ من إس بى سيمون دودو).

كانت سوزانا فى ركنها تهدهد الطفل إلى الأمام وإلى الخلف. وهى تبدو كما لو كانت تغنى بصوت مكتوم، وتترنم باغنية إيطالية:

Nessun dorma, nessun dorma,

Opure principessa nella tua fredda stanza

كان تاى Taiye هادئًا. كانت عيناه الكبيرتان تنغلقان تدريجيًا. كانت سوزانا تُدَلِّلــه، وهى تطيل النظر إلى جسمه سهل الحمل. انصرف بصرها إلى عظام عانته وإلى مروده؛ لم يكن الطفل مختنًا. لمست المرأة البيضاء الغلافة خلسة

وطوت الجلد الأمامى. ارتعد الطفل وصحا من نومه. راحت سوزانا تهدهده كى ينام من جديد. كانت تغنى له "يا صغير، باركك الله يا صغير" يا طفلى الجميل.

خيَّم الظلام على الزنزانة، وكان هناك ضوء وحيد فى الممر خارج الغرفة. كانت هناك خيالات تتحرك على الجدار المقابل للغرفة. كانت النزيلات جالسات بلا عمل، يلعبن بطريقة آلية ويتقاسمن آرائهن حول مختلف الموضوعات. وضعت سوزانا برفق الطفل النائم فى طرف من أطراف سريرها فى المكان الذى ستمتد إليه رجليها. ونامت بجواره فى هدوء. وضعت إحدى يديها فى بلوزتها وراحت تداعب نفسها. كانت عيناها مثبتتين على مثلث الطفل المكشوف. يا لها من مدة طويلة مضت وانقضت منذ آخر مرة شاهدت فيها شيئًا من الأشياء! لم يهمها إن كان ذلك مجرد شيء مُصَغَّر. هل هذا الطفل يساوى فعلاً وزنه دمًا ولحمًا، أم أنه كان مجرد لحم وعظم. لم تستطع تبين هذا من ذاك. وضعت يدها اليسرى على الطفل. وانتقلت يدها اليمنى من فوق صدرها إلى الأسفل قليلاً، وبعد دقائق معدودات ينفجر جبل إطنه Etna. رقدت فى سريرها وهى ترتعش. أماه! هذا الانفجار لابد أن يكون تسع درجات على درجات رختر!

الفصل الثامن عشر

رابطة مارى Mary عبارة عن جمعية كاثوليكية. وعلى الرغم من تأسيس فرانك دوف لهذه الجمعية فى آيرلنده فى اليوم السابع من شهر سبتمبر من العام ١٩٢١ الميلادى، فإن الجمعية أصبحت الآن مؤسسة عالمية تباشر عملها فى الأبرشيات الكاثوليكية كلها. وكل مجموعة من الأعضاء يطلق عليها أسم praesidium (برايسيديوم). يتكون البرايسيديوم من مجموعة من الأعضاء العاملين والأعضاء المعاونين. الأعضاء العاملون يتحتم عليهم الاجتماع مرة واحدة فى الأسبوع فى أضعف الإيمان. وهم فى هذا الاجتماع يرتلون صلاة المسبحة هى وصلوات أخرى، ويتجمعون مع بعضهم البعض كما يستعرضون أنشطتهم الأسبوعية. كان برايسيديوم مارى، راحة المكروبين والمهمومين يجتمع عادة عند الظهر، بعد قداس الأحد الذى يقام عند الساعة العاشرة صباحًا. كان ذلك البرايسيديوم يضم عشرين عضو عامل، لكن حضور الاجتماع كان يتناقص مرة بعد أخرى. واليوم وبعد مرور ثلاثين دقيقة على انتهاء القداس، لم يحضر سوى أربع سيدات.

كانت رئيسة البرايسيديوم، الأخت مارثا، تجلس مهمومة خلف طاولة صغيرة. كانت تمسك فكها بيدها. وكان كوعها متكئًا على الطاولة، التى كانت مزينة بقماش الدانتيل أبيض اللون. كانت المزهريات عند طرفى الطاولة، ومعها فى المنتصف البوتقة التى هى رمز الجمعية. كان المكان عبارة عن هيكل كنسى. وكانت يتحتم على أعضاء الجمعية التنفيذيين الجلوس خلف هذا الهيكل، بحيث يكونون موجهين للأعضاء. تنهدت مارثا.

تساءلت دون توجيه سؤالها إلى أحد بعينه: "ماذا حدث لأعضائنا؟ تأخير فى كل مرة، وتغيُّب كل أسبوع. هل يودون أن يكونوا أعضاء عاملين، أم أعضاء

منتسبين؟ وأنتم أيها الناس، يتعين عليكم البّت في هذا الأمر الذى أصبح لا يطاق. إذا كنتم لا تريدون الاستمرار لهذه الجمعية، خبِّرونا، وهنا سوف نرتاح في منازلنا. أقول بأمانة: هذا أمر محبط".

أعربت الأخت روزمارى أبارو قائلة: "دعونا نبدأ بصلاة المسبحة". كانت روزمارى أوبارو سكرتيرة الجمعية وكانت تدون محاضر الاجتماعات الأسبوعية. "ربما يأتون متأخرين" ويبدأ الأعضاء القليلون الحاضرون فى إنشاد الصلاة. وبعد الانتهاء من صلاة المسبحة، كان خمسة أعضاء آخرين قد دخلوا مكان الاجتماع. وأثناء دخولهم ولقائهم روزمارى أثناء الجلسة، أشاروا إشارة سريعة بعلامة الصليب وجثوا على ركبهم وراحوا يشاركون فى الصلاة.

فى حوالى منتصف الاجتماع، حان موعد تلاوة الأسماء من الكشف لمعرفة الحاضرين وتلاوة تقرير العمل. كانت الجمعية مشغولة بمختلف أعمال الخير. جرى تخصيص بعض الأعضاء لتنظيف الكنيسة. وقام بعض آخر من الأعضاء بزيارة المرضى، والسجون ودار الأطفال الذين بلا أمهات. وقام بعض ثالث بزيارة المنازل، ليهيبوا بالكاثوليك الفاترين إشعال جذوة إيمانهم وإخلاصهم للطقوس الكنسية الروحية. وجرى تقريع وذم المؤمنين الذين سبق أن ارتدوا عائدين إلى كنائس عيد الخمسين بحثًا عن المعجزات، وجرى حث أولئك الذين يعيشون فى الخطيئة، أن يسيروا فى طريق الزواج ليكون ذلك مقدمة لحصولهم على بركة التوحد ومن ثم استقبال وتلقى الطقس الخاص بالزواج المقدس.

نصحا للاثنين: "لعل الله يكون شاهدًا على توحدكما؛ وأنتما لا تستطيعان منعه من ذلك".

تلت الأخت ساندرا المهام التى سبق تحديدها للأسبوع الفائت:

"تنظيف الكنيسة، الأخت ماريا؟"

ردت الرئيسة: "لقد أُنجز العمل". "وقد لاحظت أن ما لدينا من أدوات التنظيف ومواده أوشكت على الانتهاء. لقد تآكلت المسَّاحات، وتآكل الخيش أيضًا.

لم يعد هناك مسحوق للغسيل. لم تعد هناك أدوات لإزالة الأتربة. يتعين على أمينة الصندوق اتخاذ الترتيبات اللازمة لشراء هذه الأشياء لفريق التنظيف.

"الزيارات المنزلية، الأخت ساندرا والأخ سولومون؟"

رد الأخ المذكور نيابة عن الاثنين. "أنجزنا المطلوب. زرنا ثلاثة منازل وبشرنا بالأنجيل. الأدواق لم يتعين عليهم بعد تعميد زواجهم، لكنهم بسبيلهم إلى ذلك. الأوكسيين هم كاثوليك مُتَردِّين فى الخطيئة. لم نلتق سوى بعض الأطفال. هم أسرة كاثوليكية ويحضرون حصص تعليم الديانة المسيحية".

زكتهما الأخت مارثا قائلة: "لقد أحسنتما صُنعًا أيها الأخ وأيتها الأخت".

"زيارة السجون؛ الأخت إديث Edith والأخت مورين؟"

صمت.

"الأخت إديث والأخت مورين، زيارة السجون؟"

تحولت الأعين ناحية السيدتين اللتين تجلسان جنبًا إلى جنب. وكزت أحداهما الأخرى فى جانبها كيما تنبهها.. ووخزتها الأخرى بدورها فى ظهرها. عنّفت زميلتها قائلة: "تكلمى، ألست أنت التى لم تحضرين؟".

أجابت مورين فى شيء من الخوف "لم ينجز العمل". وهنا تكلمت إديث بصوت عال قبل أن تصب كأس التوبيخ والتقريع على الاثنتين.

"انتظرتها حسبما اتفقنا عليه لكنها لم تجيء. ولم أتمكن من الذهاب وحدى". كانت إيديث على حق. قواعد الرابطة تنص على أن الزيارات يقوم بها اثنان فى أضعف الأحوال، مثل بول وسيلاس، ولا يمكن أن تكون على انفراد. لم يكن ذلك إجراءًا احترازيًا ــ لقد كان أيضًا مصدرًا من مصادر القوة والشجاعة.

سألت الرئّيسة الزميلة المخطئة: "لماذا لم تذهبى حسب المتفق عليه بينكما؟".

"لم يكن فى السيارة وقود. لقد وقفت فى الصف أكثر من ثلاث ساعات. وعندما وصلت إلى المنزل كانت الساعة قد تجاوزت السادسة.

"واصلى كلامك، يا أخت ساندرا".

"زيارة المستشفيات، الأخ ميخائيل والأخت فستوس".

"قصدنا عيادة إيستات Estate — لم يكن فيها مرضى محتجزين، وعليه عدنا إلى منازلنا".

"لقد حاولتما، أيها الإخوان، لكن فى المرة القادمة، بوسعكما التحدث مع هيئة العاملين هناك، ومع الممرضات والأطباء. كل هؤلاء أيضًا بحاجة إلى سماع الأخبار الطيبة".

قالت الأخت مارثا عندما جرى الانتهاء من تلاوة القائمة: "أيها الأخوة والأخوات، يؤسفنى أن أقول إنى خاب أملى فى مستوى التزامكم فى هذا البرايسيديوم. يجب أن نصحو. يجب أن نكون أكثر جدًا. يجب أن لا يغيب عنكم ما قاله ربنا فى سفر الرؤيا (العهد الجديد): "إذا لم تكن حارًا أو باردا فسوف أتفلك". لقد عهد إلينا قسيس الأبرشية بهذه الأعمال من أعمال الرحمة. الناس ينتظرونا، ومع ذلك فنحن نحبطهم ونخيب آمالهم. أرجوكم، هيا بنا نصحو". وراحت تنظر إلى الأعضاء الواحد بعد الآخر. "اعتبارًا من هذا الأسبوع سوف أرافق أنا شخصيًا هؤلاء الذين يقومون بالزيارات، حتى أتبين بنفسى المشكلات التى تواجهكم. إذا كانت المسألة مسألة وقود، فسوف أعطيكم أنا سيارتى". وتعالت صيحات "تحيا الريسة! أما إذا تخلف العضو لاى سبب آخر فما عليكم سوى الاتصال بى تليفونيًا وسوف أقوم أنا بمرافقتكم. يجب القيام بالزيارة. يجب أن نسهر على رعاية المرضى وإلا فأين السبب الجوهرى؟" وتململ الآخرون عجزًا عن مسايرة صدق مارثا وإخلاصها.

"نعم، يتعين على القيام بالزيارة، علاوة على قيامى بعملى الروتينى فى تنظيف الكنيسة. أنا إنسانة ويجب على الانشغال بعملى، فأنا أعمل من أجل حقوق المرأة، لكنى لا أريد لنا الفشل. فى كل ما أمد يدى فيه أنا لا أود سوى النجاح. ولذا أرجوكم أن نتعاون ونتضافر وأن لا نسمح لهذا البرايسيديوم بالوفاة".

"يا أخ فستوس، أرجوك أن تقودنا إلى صلاة الكاتينا"(*).

تنحنح الأخ وبدأ يقول: "من تكون هى؟ تلك التى تأتى مثل الصباح المشرق، جميلة مثل القمر، ـــ ساطعة مثل الشمس، مفزعة مثل الجيش عندما يكون متخذًا وضع المعركة".

فترة المساء

كانت تلك فترة الترفيه فى جناح النساء فى سجن فريمان فورت. هرولت النساء إلى الشكل رباعى الأضلاع الصغير، كما لو كن تلميذات المدارس فى فترة الفسحة. كان عددهن سبع عشرة نزيلة. أمرتهن ماليس بالوقوف صفًا واحدًا. كل ما سيفعلنه هذا اليوم هو السير حول حدود المربع بطريقة بسيطة ليس إلا. كانت النساء مجبرات على ذلك. كان الطفلان يحتلان مكانيهما على جانبى أمهما. راح الطفلان، فى تقليد منهما لتحريك المرجحة الكبير لأذرعهن وحركات أرجلهن، يقفزان وينطان هنا وهناك. أحسًا بعد فترة بالتعب وذهبا، وجلسا بجوار بيا Bea فى ركن من أركان ذلك المربع، وهما يلعبان فى الرمل. كان واضحًا الآن أن بيا كانت حاملاً. لم يكن أحد يعرف شيئًا عن هذا الحمل، ولا التاريخ المتوقع للوضع. كل الذى كانوا يعرفونه هو أنها تقترب من الزمن المحدد لولادتها.

حثت الممرضة السيدة العجوز قائلة: "بيا، تَعَالَىْ إلى هنا وتحدثى. وهذا أفضل لك"

ردت عليها بيا "أنا لا أقوى على ذلك ـــ رجلاى متورمتان. وأنا لا استطيع الضغط عليهما. لأنهما ستكبران".

خطر ببال الممرضة وهى تتجاوز الفتاة الحامل، أن هذه الفتاة بحاجة إلى الحليب، والفيتامينات، وغذاء أفضل".

(*) الكاتينا: سلسلة مقتطفات من كتابات آباء الكنيسة. (المترجم)

قالت الممرضة: "ارفعى رجليك إذن. قللى الضغط عليهما". فعلت بيا مثلما أُمرت. ونامت على الأرض ورفعت رجليها على الحائط.

أحضرت أومو طفلها إلى بيا.

قالت متوسلة وراجية: "أرجوك راعها نيابة عنى. أنا أود عمل بعض التدريبات". كانت بيا مجبرة على ذلك. وكانت الطفلة نائمة.

قالت للأم: "كان يتعين عليك ترك الطفلة فى الحجرة. إنها نائمة".

هسهست أومو قائلة: "ذلك المكان النَّتن، كريه الرائحة؛ الطفلة بحاجة إلى هواء طلق". "إنها بحاجة إلى هواء طلق"، هذا ما قالته الممرضة أيضًا.

انضمت أومو إلى السائرات. لقد بدأت بالتدريج تعود إلى حالها الطبيعى ــ لقد ازداد هدوئها بعد أن وضعت طفلها ــ كانت أومو قد أصرت على إطلاق أسم أوزيمينا ozoemena على المولودة الجديدة وذلك تيمنًا باسم والدتها. كان شيطاناها قد تراجعا؛ بعد أن تخلت غاضبة عن الوليد الصغير الذى كان يصيح.

كانت قد اشتكت للنزيلات "إنها مُتْعِبة جدًا".

قلن لها: "أنت لم ترين شيئًا بعد. لقد مرت أمك بذلك من أجلك أيضًا، بل إنها فعلت ما هو أكثر من ذلك ــ نحن جميعًا مررنا بهذا من أجل أبنائنا".

ردت عليهن إنتلى قائلة: "ما عدا إنتلى. لقد صُنِعت لكى أكون عشيقة، وليس زوجة أو أمًا".

قالت أومو بنظرة تشوبها اللهفة والحزن: :أنا قتلت أمى. ليتنى لم أفعل ذلك الذى فعلته".

لم يتكلم أحد منهن. كانت أومو بفطرتها قد نجحت فى تلخيص أفكارهن نيابة عنهن، لو أن واحدة منهن استطاعت إلغاء ما فعلته فى الماضى، وأُعطيت لها فرصة، إعادة ترتيب خُطاها من جديد، وتفعل ما فعلته بطريقة أخرى، لكن ذلك كان نوْعًا من التفكير المغرض. وعقارب الساعة لا يمكن إعادتها إلى الوراء.

راحت بيا تهدهد الطفل على ذراعها الأيسر، بينما كانت تمسك ورقة فى يدها اليمنى، كانت إنتلى قد ألقت بها إليها أثناء خروجهن على شكل صف واحد من الزنزانة.

كانت إنتلى قد همست قائلة: "هذا هو التماس الرحمة الذى كلفتنى بكتابته، تصفحيه، وصححيه. ولك حرية الحذف منه أو الإضافة إليه".

ألقت بيا نظرة خاطفة على الورقة بُنّية اللون. كان اهتمامها بالأمور الأكاديمية يقل كلما تقدمت بها السن. كانت كثيرة النوم بل إن ساعات استيقاظها كانت هى الأخرى حافلة بالنعاس.

رسالة ندم ورجاء حار للرحمة،

مع رسالة لإنقاذ أرواح النزيلات

من صف الموت فى فريمان فورت،

جناح النساء السيد الرئيس

القائد العام.

تصفحت بيا الكتابة. صفحتان. إنتلى لديها الموهبة لكن الالتماس طويل. صفحة واحدة تكفى، صفحة واحدة قصيرة وحادة. صفحتان؛ أنت تروين قصة، على حد قول أستاذ الاقتصاد. التماس بطلب الرحمة، إعطاء فرصة ثانية. توسل بطلب الرحمة، ثم تساءلى عما يمكن أن يخفيه المجتمع عندما يسفك المزيد من دماء أبنائه، ثم تقومين بعد ذلك بالدفاع عن مسألة إلغاء عقوبة الإعدام. تصفحت الالتماس مرة ثانية. نعم، صحيح أنه طويل جدًا، لكن يمكن أن يمر.

نفخت ماليس فى صفارتها، واصطفت النزيلات كُلّهن عائدات إلى المربع أمام الزنزانة استعدادًا للاغتسال. خلعن ملابسهن ووقفن عاريات. قامت النزيلتان اللتان كان عليهما الدور، بملء براميل المياه الموجودة وسط الفناء من الخزان.

لقد قدمت إحدى مؤسسات الإحسان أحواضًا، وأطباقًا بلاستيكية وكذلك مستلزمات الحمام، علاوة على الصابون الطبى والإسفنج. وأصبح بوسع النساء الآن الاستحمام فى كثير من الأحيان. بدأ يقل انتشار الأمراض الجلدية على الرغم من عدم انحسار قمل الشعر. هددتهن السجانة بأنها سوف تحلق شعورهن حالاً. كان القمل يُشاهد وهو يمشى على الجدران كلها وعلى الأرض. أما القمل الميت فكان يترك بقعا داكنة على الأرض، وعلى ألواح الإسفنج، وعلى الجدران والأسطح الأخرى.

كانت سوزان تصب الماء مرات ومرات على التوأم الذى كان يقفز فرحًا إلى الأعلى وإلى الأسفل، وهما يتدفقان فرحًا. أيقظت أومو أيضًا أوزيومينا ozoemena الصغيرة ونظفتها على الناشف. وكانت إنتلى تساعدها بصب الماء على رأس الطفلة.

كانت النساء كلهن عاريات. لم تكن أية واحدة منهن صحيحة البدن. هذه أولورى التى كانت متينة وممتلئة فى العالم الآخر، فقدت كل دهونها وأصبحت الآن رفيعة ونحيفة. ترهل ثدياها. هذه هى آثار الملابس المطاطة تبدو على صدرها وعلى بطنها، وكأنها خريطة من خرائط العالم التضاريسية. تناولت الصابونة وبللتها، وراحت تدلك بعناية أماكن البقع.

كانت ونمى، الممرضة السابقة نحيفة فى حياتها السابقة. وقد ازدادت الآن نحافة على نحافتها، كانت مستقيمة مثل العود. كان ردفاها فوق عظمتى فخذها مثل توأم من ثمر الكاكاو. كانت الشامات تتخلل جسمها مثل اللافتات. كانت حلمتا ثدييها تبرزان من صدرها دونما حاجة إلى الأنسجة الداعمة. بللت مكحلتها، وغسلت شعر عانتها بالصابون، ثم غسلت جسمها من أعلى ومن بعده انتقلت إلى المنطقة التى تحت إبطيها.

اتخذت كل من بنتا ورحمة ركنًا لهما. لقد ابتعدتا، ابتعدتا جدًا عن لبس الجلابية والشادور، اللتين كانتا تستراهما من الرأس إلى أصابع أقدامهما، كانا يُقنّعانهما. كان من الصعب عليهما خلع ملابسهن على الملأ، والاستحمام عاريات

وسط نساء غريبات. وتعودنا على هذه المسألة بصورة متدرجة. لم يكن لديهن خيار آخر، فإما هذا الحمام الدورى العام أولاً شيء على الإطلاق. صحيح أنهما كانتا مسموح لهما بغلاية براد بلاستيكى أزرق اللون يستعملنه فى الوضوء، وكانتا تملآن ذلك البراد، ويقتصدن فى استعمال مائه، لكن الوضوء ليس استحمامًا.

كانت بيا بصفة خاصة من النوع الذى يرثى له؛ إذ كانت تشبه عودًا من الخشب له خلفية بارزة. كان بطنها قد غاص فى ردفيها على نحو صار معه مسطح الشكل. كان ردفاها شبيهين بالتجاعيد التى فى جسم الرجل المسن. وقفت بيا لوحدها فى انتظار شلال ماء المتحدثة.

مدت كل نزيلة من النزيلات يدها فى الأوعية فى محاولة منهن أن تمسك كل واحدة منهن بآنية من الأوانى المتيسرة. كانت الثنائيات يصببن الصابون على ظهور بعضهن البعض. لم يستطعن التغلب على إغراء التركيز على أردافهن، ومداعبة الفصوص المتورمة. وراحت إيا إيبيجى تؤنبهما، "الأطفال حولكما الآن. لا تثيرا اشمئزازهم بأعمالكما الفاضحة".

ألقتا نظرة خاطفة على التوأم. كان واحد منهما يغسل ظهر الآخر. وعندما وصل إلى الردفين راح يربت عليهما مثلما كانت بنتا تفعل مع رحمة. وهنا ضحك فرد التوأم الآخر ووقف منتصبًا بصورة مثيرة.

قال راجيًا أخاه: "افعل ذلك مرة ثانية". ويتخذ وضع الاستعداد ويدفع مقعدته إلى الخارج ويقول لأخيه "افعلها ثانية". ويفعل الآخر ما أمر به. وهنا تقوم أفولينو Afulenu بوخز أم التوأم لتنبهها إلى ما يحدث.

استشاطت إيا إيبيجى غضبًا "ألا تريان، ما الذى قلته لكما؟".

فى نوبة من الغضب لطمت إيا إيبيجى بنتا على قفاها المبلل بالصابون ودفعتها دفعة عنيفة. ترنحت بنتا مندهشة ثم سقطت على الأرض فى دلو من الدلاء. سقطت الاثنتان. هاجت النساء وماجت، وهن يصفقن ويصرخن مرحًا.

حاولت بنتا النهوض مرة ثانية لكنها انزلقت على الأرض المبللة بالصابون وسقطت على ظهرها مرة ثانية، ورجلاها مرفوعتان إلى الأعلى. أدى ذلك إلى المزيد من الضحك. غضبت بنتا. أمسكت حبيبتها بيدها وساعدتها على الوقوف. وبعد أن استعادت بنتا توازنها انقضت على تلك التى اعتدت عليها. طوقت يداها عنق إيا إيبيجى، وراحت تخنقها. أبعدت إنتلى يدى بنتا، وسحبت بنتا بعيدًا عن إيا إيبيجى. انضمت رحمة إلى حبيبتها وراحتا تكيلان الضربات إلى أم التوأم. أخذت أومو طفلها وابتعدت عن المكان. تراجعت بيا إلى الوراء. وضعت إنتلى نفسها بين الطرفين المتقاتلين. كن كلهن عاريات، الأجسام براقة، والأثداء تتمرجح يمينًا وشمالاً، وإلى الأعلى وإلى الأسفل. كان جسم ليد Laide كله أبيض، وعليه بقع من الصابون. كانت أفولينو Afulenu قد انضمت إلى إيا إيبيجى Iya. هذا هو سجن لافيا فى مواجهة سجن فريمان فورت. أحست كل من تاى Taiye وكيهايند Kehinde بصدمة. راحتا تحملقان فى المتصارعات، وألقين بماعونيهما من أيديهما وراحتا تصرخان. صبت سوزانا آخر سطل من الماء على رأسيهما ثم اقتادتهما إلى مكان آمن.

صاحت إنتلى صارخة فى الأطراف المتقاتلة: "أوقفن هذا العراك!".

"أوقفن هذا العراك، قبل أن تسمعكم ماليس وتجيء إليكم. هل تردن السجن الانفرادى؟ وماذا بعد ذلك الذى حدث لبيا؟ نساء مجنونات، أوقفن هذا العراك!".

حدث وقف لإطلاق النار. وراحت أطراف العراك تفحص أجسادها بحثًا عن الجراح. كانت بنتا صاحبة بشرة رقيقة. كانت كتفها أحمر فى المنطقة التى صفعتها إيا إيبيجى. كانت عين إيا إيبجى اليمنى متورمة. كانت رحمة قد غرست أظافرها الحادة فى عين أيا إيبيجى.

راحت إنتلى تطيل النظر من واحدة إلى الأخرى، "أنا هنا، أعصر ذهنى على الطريقة التى يمكن أن تخرجنا من هذه الورطة. أنت، أنتن تتشاجرن. مشكلتكن مع العالم الخارجى، وليست مع هذا المكان. يا للعار!"

ردت عليها إيا إيبيجى، وقد علت وجهها سخرية قائلة: "هن يردن إفساد أولادى".

ردت عليها بنتا "من الذى يريد إفساد أولادك؟ أيتها العبيطة التى لا تعمل حسابًا للعواقب! يا تاجرة المخدرات!"

ردت عليها إيا: "يا قاتلة الأطفال!".

"يا متعاطية الكوكائين!"

"يا متسربة من التعليم! يا ثخينة الدماغ!"

"أيتها الناقة!".

ارتعدت النساء المراقبات عندما نعتت أيا بنتا قائلة: "أيتها الناقة". توقعن أن تحس بنتا بالخجل. لم تتراجع إيا. يمكن القول إنها كانت معتادة على ذلك السباب مرات عدة من قبل؛ ويمكن القول أيضًا إنها كانت معتادة على توجيه هذه الإهانة لها من قبل.

"موتى بغيظك".

قالت رحمة وهى تضحك ضحكة مكتومة: "هذا لأنك ليس لك حبيبه، هذا حقد. أيتها المرأة الكئيبة. من هذا الذى يمكن أن يصادق امرأة كئيبة مثلك؟ يا صاحبة الرائحة المتعفنة! يا من ليس لها أرداف!"

كانت تلك السُبَّة مناسبة. والسبب فى ذلك أن المرض الذى أصاب حدبة إيا جفف ردفيها كما لو كانت استعارت اللحم من ظهرها لتعطيه لكتفها. كانت تلك الحدبه قد أحدثت منخفضًا فى أسفل ظهرها الأمر الذى أدى إلى تقعره. ضمت بنتا رحمة، وراحتا تبديان استنكارهما لخصمتهما المشتركة.

استدارت ناحية ضرة عدوتها وقالت: "اعرفى من أكون أنا، اعرفى من الذى يتكلم إليك. أنت يا من تركها زوجها، وراح يتزوج من امرأة أخرى،(*) يا من تتزيِّن من رحمك!"

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة بإنجليزية ركيكة، لأن رحمه أصلا لا تجيد الإنجليزية؛ وهذا يحسب للمؤلفة فى اسمها لشخصيات هذه الرواية. (المترجم)

مسكينة يا زحمة. لقد أدت الولادة المبكرة إلى إتلاف نظام القنوات عندها. ولذلك لم تكن تستطيع السيطرة على الإفرازات. قال لها الطبيب إن هذا هو المرض الذى يسمونه فى الطب الناسور، وأنها كانت على وشك أن تبدأ العلاج من ذلك الناسور عندما......

قالت إيا إيبيجى بلا هوادة: "أنت التى تنبعث من مكحلتك رائحة كريهة. يا امرأة عديمة النفع! يا امرأة بلا نهدين. أنت يا ثخينة الدماغ، يا خريجة المدرسة الابتدائية. يا عاقر بلا طائل. أنت لا يمكن أن تلدى مرة ثانية".

راح الطرفان يقتربان من بعضهما مرة ثانية مثل ديكين صغيرين. وراحا يقيسان بعضهما ببعض. وكانت إنتلى تفرقهما عن بعضهما كما لو كانت حكمًا من حكام الملاكمة.

استهجنت الضرتان خصمهما قائلتان: "يا لطيف!".

قال الخصم: "توزو Tozo" توزو هذا الاسم الذى يطلق على اللحم الذى يقطع من حدبة البقرة.

تساءلت حبيبة: "من الذى يتقاتل هناك؟" قالت هذا الكلام وهى تفتح البوابات الخارجية. كانت الآنسة آليس هى القائمة بالنوبتجية، لكن لم يمكن العثور عليها فى أى مكان. استدارت النزيلات وهن مندهشات ومصدومات. لم تسمع إحداهن وصول الضابطة الشريرة. لم تجرؤ إحداهن على الرد على السؤال.

سألتهن السجانة: "هل أنتن أناس مصابون بالصمم؟ من الذى يتشاجر؟".

ردت عليها أنتليِّ: "لا أحد. مجرد جدال، يا عزيزتى".

جاءت ماليس وهى تركض، وراحت تنقل بصرها من واحدة إلى أخرى. كانت وجوه بعضهن لا تزال تحمل السخرية والاستهزاء.

"أنت يا بنتا، وأنت يا إيا إيجيبى، اخرجا!".

قالت بنتا: "إيا إيبيجى هى التى صفعتنى أولا بالقلم. اسألينهن".

قالت أم التوأم وهى تمصمص شفتيها: "إيا إيبيجى هى صفعتنى أولاً. اسأليهن. أنا التى يخافانها".

قالت حبيبة موجهة كلامها للمرأة غير النادمة: "أنت التى يخافاها"؟ اخرجى!" نفخت ماليس فى صفارتها. ونظرت إلى النزيلات الأخريات، وطلبت منهن العودة إلى الزنزانة. "انتهى وقت الاغتسال. ادخلن!"

"الصابون لا يزال على......"

"ادخلن!".

تناولت النساء ملابسهن المبعثرة، ودخلن إلى الزنزانة. وقفت إنتلى بلا حول أو طول، وهى لا تعرف ماذا تفعل، وكانت تخشى وتخاف مما هو أسوأ. وبنظرة تشوبها اللهفة والحزن، تنحنى لتتناول ملابسها. وتهمس أثناء مرورها على السجانة المتعصبة:

"أرجوك أن لا ترسليها إلى السجن الانفرادى. أى شيء آخر غير السجن الانفرادى. أرجوك".

صاحت الضابطة فيها "لا تعلمينى ماذا أفعل!".

بقيت إيا إيبيجى وحدها فى الخارج، وقد وضعت يديها حول خاصرتها إشارة إلى التحدى، فى حين كان رأسها ينظر فى اتجاه أو بزاوية تخفى التشوه الموجود فى وجهها. وعندما أدركت أنها كانت لا تزال عارية راحت تتناول ثوبها، ذلك الثوب الذى كان يشبه روث البقرة على الأرض، ولكن الضابطة منعتها من تناول الثوب.

"لا تتحركن! أنتن يا أهل لافيا. هذه هى الطريقة التى لجأتن إليها فى الإضراب، وهذه هى الطريقة التى أحرقتن بها السجن، وقتلتن بها السجانين الأبرياء". ثم هسهست بعد ذلك هسهسة قوية. "تردن إدخال عنفكن إلى هذا السجن!".

وصلت الآنسة إيز Eze هي والآنسة يوديم udeme. وصلتا سويًا؛ قام الأربعة بإخضاع إيا إيبيجى، وقاموا بربطها بالسلاسل فى الفناء. كانت هناك أربع حلقات حديدية ملحومة فى الأرض الخرسانية. كان نصف كل حلقة من هذه الحلقات مدفون فى الأرض. أما النصف الآخر فكان ظاهرًا فوق الأرض. قيدوا ساقى ومعصمى النزيلة فى الحدائد الأربعة بحيث تكون النزيلة فى وضع يكون فيها ظهرها مقوسًا. هذا يعنى أنها لن تكون قادرة على الوقوف أو الجلوس، وإنما ستظل متقوسة، وتظل فى وضع القرفصاء ساعات طويلة كما لو كانت قردًا من قردة الشمبانزى. وعندما يحين موعد فك أغلالها، طبقًا لما تراه حبيبة، أى بعد ذلك بحوالى نصف يوم، ستكون عظامها قد قفلت وتيبست، أى أنها لن تقوى على الوقوف منتصبة القامة بعد ذلك. كان توأمها يقف بالقرب من البوابة الحديدية يراقبان أمهما وقد أخضعتها الجنديات الأربعة، اللاتى رحن يضربنها بالعصا بعد ذلك مرات عدة.

قالت ماليس وهى تضرب إيا مرات عدة على العاهة التى فى جسمها "سوف أسطح لك هذه الحدبة أيتها العبيطة عديمة النفع!".

كان الولدان يولولان، ويصيحان وهما يشيران إلى أمهما: "ماما، ماما".

توسلت النزيلة هى ورفيقاتها بعد أن غادرت السجانات المكان: "أرجوكن أن لا تَدَعْنَ طفلَى يَرَيَانى فى هذا الوضع. سوزان، أرجوك ساعدينى".

جاءت سوزانا وأخرجت أصابع تاى Taiye من القضبان الحديدية. وجاءت الممرضة أيضًا وحملت كيهايند بعيدًا عن أمه، وهى تواسيه وتهدئه.

قـــالت بيا وهى تشيح بنظراتها بعيدًا وهى حزينة: "كل ذلك لأنها أرادت ألا تثير اشمئزاز أطفالها بعمل فاضح.

كـــررت إنتلى كلمة "عمل فاضح" دون توجيهها إلى أحد بعينه "هى لا تزال لا تعرف ذلك المخبأ لها".

كانت سوزان فى ركنها وقد سمعتها الأخريات وهى تعلم الطفل قائلة: "A هى الحرف الذى تبدأ به كلمة Apple (تفاحة) وB هى الحرف التى تبدأ به الكلمة boy (ولد).

كان الطفل الذى يتشمم يصغى إليها بانتباه كبير. والأرجح أن تلك كانت لعبة جديدة عنده.

قال الطفل مرددًا خلفها: Affle بدلاً من Apple، وهو يمسح مخاط أنفه بظهر يده. "ماهى Affle؟".

الفصل التاسع عشر

عقدت لجنة مجلس حقوق الإنسان اجتماعًا عامًا، بسبب المظاهرة التى قامت فى سجون لافيا والتى ضاع فيها كثير من الحيوات والممتلكات. وجرى فى تلك المظاهرة إحراق مبنى السجن الآيل للسقوط. كانت مؤسسات إنسانية كثيرة قد نبَّهت الناس إلى الحال المخيفة التى عليها مرافق ذلك السجن؛ وإلى تزايد عدد المتوفين وتزايد الأمراض، فضلاً عن ارتفاع عدد النزلاء الذين ينتظرون المحاكمة؛ كما نبهت تلك المؤسسات الإنسانية إلى مسألة تصنيف الأحداث ضمن المجرمين العتاة. طالبت تلك المؤسسات الإنسانية بإدخال بعض الإصلاحات فى السجون، وإلغاء عقوبة الإعدام ــ لكن لم يتحقق أى شيء من هذه المطالبات. ويستثنى من ذلك بعض المقالات مدفوعة الأجر فى بعض الصحف ووسائل الاتصال؛ وفيما عدا ذلك التزمت الحكومة الصمت. واتضح أن الحكومة مهمومة، ومشغولة بإطعام الأحرار؛ ولم تشغل الحكومة بالها بِرُفَات أولئك النزلاء المحبوسين.

هبت منظمات عدة غير حكومية تقاتل من أجل المقهورين والمغلوبين على أمرهم. وظهر أن رواق الحياة التى يتزعمه كمراد فرايداى Friday Comrade، هو الأقوى والأنشط بين هذه المؤسسات. فقد قام ذلك الرواق بتنظيم احتفالات ومؤتمرات شعبية من أجل الحياة، ونظمت مجموعات لمنع الموظفين العاملين بالمحاكم من الذهاب إلى أعمالهم، ونشرت إعلانات مدفوعة الأجر فى وسائل الاتصال المكتوبة. كانت هناك أيضًا مؤسسة أخرى تدعى: بديل حماية حقوق المرأة وتطويرها. هذه المؤسسة كان يتعين عليها حماية المرأة والدفاع عنها. فى اتجاه منتصف الغرفة كان يجلس ممثلو رابطة المحاميات. لم تكن لجنة تطوير العدالة والسلام غائبة عن ذلك الاجتماع.

كان فرايداى مستعدًا للحديث أمام لجنة المجلس عن ضرورة إلغاء الحكم بالإعدام ووقف تنفيذ أحكام الإعدام. لم يسمح بدخول الغرفة سوى لثلاثة أعضاء فقط من كل جمعية من الجمعيات. أما بقية الأعضاء فكانوا يحملون لافتات ويقفون يهتفون بالشعارات خارج غرفة الاستماع. جرى أيضًا تعبئة تلاميذ المدارس، والبائعات السوقيات، وكذلك العاطلين لحضور هذا الاجتماع، جاء البعض منهم نظير أتعاب دُفعت لهم، وذلك بغية زيادة أعداد الحاضرين. كان كمراد فرايداى يتمنى لو أن مصورى الصحافة صوروا هؤلاء البشر. كان جزء من استراتيجية هذا الرجل ينصب على التودد إلى صنَّاع القانون، وجعلهم يتبنون فكره.

جلس المحامى فرايداى فى غرفة المجلس، وراح يحملق فى كل عضو من أعضاء اللجنة الجالسين على المنصة. كان رئيس الجلسة الشريف يعقوب، رجلاً ضخمًا، صاحب كرش كبير، ولا يمكن تحديد عمره بدقة. كان شعره، الجزء المكشوف منه لا يستره غطاء رأسه، شديد السواد، وهذا يعنى أن الرجل صبغ شعره من باب التدين. كان يجلس مرتاحًا على كرسيه، ويتصفح ملاحظاته، ويلوك فى فمه بين الحين والآخر قطعة من ثمار الكولا. أوه نعم، تذكر الرجل أن صيامهم السنوى قد انتهى.

كان السكرتير يجلس بجوار الرئيس؛ هذا السكرتير يدعى الشريف جيوس Gaius. هناك شائعة تقول: إن يعقوب وجيوس لم يفوزا فى دائرتيهما، لكنهما بفضل وصفة سحرية قامت بها اللجنة الاقتصادية عادا منتصرين. استرجع فرايداى ذلك الجدل والنقاش الذى دار حول الانتخابات وهز رأسه ألما. أى شكل من أشكال الديمقراطية هذا الذى نسير نحن عليه؟ رغبة الشعب لا تحترم. هذه طغمة صغيرة تمسك بالسلطة وتحكمنا بالقوة.

كان الشريف المهدى يجلس بجوار السكرتير؛ والشريف المهدى هذا كاهن من الكهنة. كان الرجل يلبس عمامة كبيرة بيضاء اللون ملفوفة حول ذقنه؛ كان يمسك مسبحة بين أصابعه. ذكّر الشريف المهدى كمراد فرايادى بالرئيس يحى جامح Jammeh yaya الجامبى.(*)

(*) نسبة إلى جامبيا، إحدى البلدان الأفريقية. (المترجم)

كان الشريف شاجشوا Chagishwa، وهو رجل من الحزام الأوسط الشهير بتقلبه الذهني، يجلس عند أقصى طرف الطاولة الموضوعة على المنصة. أمكن التودد إلى هذا الرجل بسهولة ويسر، مما جعله يغير رأيه ويقف في الجانب المعارض فور انتهائه من سماع حجج المعارضة وأسانيدها. كان الرجل بشوشًا وخفيف الظل؛ كان شعره المصفف على طريقة الملح والفلفل، مقصوصًا قصة قصيرة وأنيقًا. خطر على بال فرايداي وهو ينظم أوراقه، ويعيد ترتيب نقاطه في ذهنه، أن ما سيحدث يمكن أن يكون طبقًا شهيًا من أطباق العصيدة أو الثريد.

نظر الشريف يعقوب من فوق المنصة إلى الحاضرين. وغمغم الرجل قائلاً: هذه هي المواظبة الإفريقية. جلسة الاستماع هذه كان مقررًا لها أن تبدأ قبل ساعة من الآن، لكن المشاركين المهمين لم يحضروا بعد. وينظر الرجل من جديد إلى ساعته الذهبية. سيتأخر الرجل عن مقابلته مع مارسي. كانت قائمة بإجازة، وهي جاهزة ومستعدة للقاء أثناء النهار. كان ذلك يحل كثيرًا من المشكلات. كان بوسع الشريف يعقوب التغيب باستمرار عن المجلس. ولم يكن يفعل ذلك مع منزله. كانت مامي قد بدأت تشكو مؤخرًا من خروج الشريف يعقوب أثناء الليل. كان الرجل يكره دومًا مسألة التأنيب المستمر. هذا التأنيب كان بمثابة هرشة بوسعه الاستغناء عنها تمامًا.

طوال الشهر الكريم، ظل الرجل مخلصًا ولم يحدث أن ضل هنا أو هناك. كان الرجل يعود عند غروب الشمس لتناول طعام الإفطار، ويظل معطلاً إلى اليوم التالي. كان الكتاب المقدس يركز على هذا الجانب من دينهم تركيزًا شديدًا. صحيح أنه يكون أثناء الليل، وحده في غرفته، وعندما يستبد به الشوق، كان يطلب السجانة تليفونيًا ويروح يدردش معها ساعات طوال. وهذا أمر مسموح به في دينهم. أو غير محرم في أضعف الأحوال.

الآن وبعد انتهاء الصوم فإنهم يعودون إلى حياتهم الروتينية ــ أحس الشريف يعقوب فى آخر أيام الصوم أن ما بين وركيه سينفجر شوقًا إليها. سبق أن أنذرها أن تكون مستعدة له. عندما ينتهى من أداء الصلاة والقيام بالزيارات الاجتماعية التى تصاحب هذه الاحتفالات، سيجيء إليها فى مكانها مثل ريتشارد لاندر. كانت تلك المرة التى أعقبت الصيام رائعة lyauwa!.

كان ممنونًا لمارسى، وممنونًا أكثر للفياجرا التى هيأت له حياة جديدة فى تلك الشقة. هو الذى حسب أن كل شيء ولّى وانتهى، وأن كل ما يمكن أن يعيش عليه هو الذكريات. لقد بثت الفياجرا الحياة فيه من جديد. وفى صمت راح الشريف يعقوب يرفع قبعته تحية لمخترع ذلك العقار الأزرق الحقيقى.

عندما كان فى الخامسة والستين من عمره لم يكن مسنًا تمامًا. كان أخوه الفلاح فى أقصى الشمال، قد تزوج من مراهقة، وكانت تلك الزوجة الرابعة. كان ذلك فى سن السبعين! لكن الطبيعة أملت عليه شيئًا آخرا، أو بالأحرى أرادت أن تملى عليه شيئًا آخرًا. أدرك أنه لا يستطيع المحافظة على انتصابه وقتًا طويلاً. وأدرك أيضًا أن الانتصاب لم يكن من النوع المشدود أو المتوتر. يئس الرجل لأنه قد يخسر كل شيء. من يمن الطالع أن مامى فهمت هذا الأمر. وهى لم تكن من النوع الجنسى على كل حال، وبعد أن ربت ثلاثة أبناء كبار، رضيت وقنعت برفقة زوجها وزيادة عدد الأحفاد.

على كل حال، كان الشريف يعقوب قلقًا لمسألة فقدانه لرجولته. وأحس بالقلق أكثر وهو يرى الأعضاء الأشراف الآخرين، يشربون نخب الشابات الصغيرات، وهم يقفزون وينطون على هيئة السكرتارية، وبنات الجامعات المثيرات للشهوة الجنسية. جرت العادة أن تؤدى الصلاة فى نادى الجاز بعد انتهاء وقت الدوام. كانوا قد حصلوا على أجور رسمية. هذا يعنى أن بوسعهم تحمل كافة الملذات.

انصرف ذهن الرجل لا إراديًا إلى ذلك اليوم المريع، ذلك المساء بعد حفل الاستقبال الرسمى الذى أقيم فى مكان ما. كان الشريف يعقوب قد عرض على شابة صغيرة توصيلها، إلى "مكان ما" كانت ذاهبة إليه. اصطحبها إلى مضيفة واحد من أصدقائه كانت الشابة جذابة؛ كانت ممتلئة وممشوقة القوام، وكان ثدياها شبيهين بقرصين رقيقين مخمورين. هى طالبة فى الجامعة طوال أيام الأسبوع، وامرأة ممتعة فى عطلة نهاية الأسبوع أم أن العكس هو الصحيح؟ خلعا ملابسهما. هذا هو مروده الذى كان واقفًا يتحدى فى البداية قد أصابته نوبة من البرود، انسحب عائدًا إلى ركنه منكمشًا. حاول بذل قصارى جهده لكنه لا يريد التعاون معه. خطر ببالى أنه ربما كان مرودى ضعيفًا. متى تدهور إلى حد عدم الانتصاب كلية، متى؟

حاولت الشابة بكل ما تمتلك. لكن لا شيء. ومن باب الحرج والخوف كان الشريف قد لجأ إلى إجراءات الطوارئ المتيسرة للرجال اليائسين. الإدخال عنوة. قال وهو يلهث. "أدخليه". فى بعض الأحيان كان يقوى لكنه كان يرتخى عند الاتصال. احشرى هذا الخائن إلى الداخل. هناك! لكن بوسعك اقتياد حصان إلى الماء؛ لكنك لا يمكن أن تجبره على الشرب منه. هذا هو الثعبان وحيد العين ينكمش منسحبًا داخل أيكته رمادية اللون.

كانت الشابة قد قالت له وهى ثائرة حزنًا على أجرها: "العيب ليس عيبى".

أعرف ذلك. أشكرك. أنت بنت طيبة. إنه التوتر. كنت مجهدًا تمامًا طوال تلك الأسابيع الماضية يجب أن أتباطأ بعض الشيء. ومد يده فى جيبه، كان يريد التخلص منها، كان يود أن يكون لوحده، حتى يلعق جراحه. خذى هذا المبلغ نظير انتقالاتك. لم يستطع أن يرفع عينيه فى عينيها. بنات هذه الأيام يعرفن أن هذا لا علاقة له بالإرهاق؛ هذا يرجع إلى التقدم فى السن وإلى قانون تناقص العوائد الحتمى الذى لا يمكن إنكاره.

بعد ذلك، كان الرجل قد قرأ عن الفياجرا فى إحدى الصحف اليومية، وكيف أنها فتحت النافذة على فرصة تسنح بست وثلاثين ساعة لأولئك الذين يعانون من ضعف الانتصاب. استشار طبيب الأسرة، وطلب منه أن يصف ويطلب له ذلك العقار العجيب.

رد عليه طبيب الأسرة قائلاً: "هناك عقاقير أخرى لها تأثير مماثل، وآثار جانبية أقل مثل الكياليس Ciallis بل هناك أيضًا أعشابنا المحلية". خطر ببال الطبيب عشب البرانتاشى barantashi، لكن الشريف يعقوب لم يتحلحل عما يريد.

أصر صانع القانون قائلاً: "أنا أريد الفياجرا". كانت الفياجرا هى الشهيرة والأصلية والمعروفة.

حاول الطبيب أن يوضح له أن: "الفياجرا مثل العقاقير الأخرى لها آثارها الجانبية. "القلب....".

قال العضو الشريف مؤكدًا: "أنا قلبى قوى". كان الرجل على استعداد لدحض كل الحجج التى أوردها الطبيب لمنع يعقوب من استعادة مروده إلى حالته الطبيعية. "كنت أعمل بالفلاحة. وكنت أركب الدراجة مسافات طويلة قبل أن أجيء إلى المجلس. كنت أعمل ساعات طوال فى حرارة الشمس فى موطنى. أقول: إن قلبى قوى".

بعد انهزام الطبيب، أصبح مضطرًا. لن تكون هذه هى المرة الأولى. إن لديه بالفعل كرتون من هذا العقار. واقع الأمر أن الفياجرا هى والكياليس Ciallis هما أكثر الأقراص وصفًا فى هذه الدائرة. صناع القانون من الشبان أيضًا متورطون فى الفياجرا أيضًا. لو استعمل الشريف هذا العقار مع زوجته المسنة، سيكون ذلك أفضل له. كان يعقوب يعرف أيضًا أن الإغراء يتمثل فى مطاردة البنات الصغيرات اللاتى يشبهن وهن فى الفراش لاعبات الأكروبات الحقيقيات. وصف الطبيب له الدواء وتمنى له أفضل المنى.

كان الشريف يعقوب يتعاطى فى العادة قرصًا من الأقراص الزرقاء عن طريق الفم قبل أن "يلتقى" مارسى. أعاد الرجل اكتشاف مباهج الجنس بين أحضان المشرفة العامة على السجون. لم تكن مكحلتها هى مكحلة زوجته الشبيهة بالجلد بعد أن مضى عليها عشرون عامًا أو ما يقرب من ذلك؛ هذا يعنى أن ممارسة الجنس مع مامى أصبح مسألة روتينية، شيئًا متوقعًا أو مملاً من باب الاختصار. صحيح أن زوجته لم تكن مختنة، لكن ذلك الجزء ذوى وتسطح منذ زمن طويل. قبل المشكلة التى ألمت به كانا يستعملان شيئًا من الجل لإحداث نوع من البلل. كان يعقوب يمارس هذا الشيء من باب الواجب. هذا يعنى أن التحضير والتمهيد لهذا الشيء قد غاب عنهما منذ زمن طويل. كانت تفتح، وهو يُدْخل، مع شيء من العنف، وتتأوه بعض الشيء وهذا هو كل ما فى الأمر. وينصرف ذهن الرجل، وتصبح رجولته هى شغله الشاغل.

على الجانب الآخر، وبمحض المصادفة البحتة أو إن شئت فقل:العيب البيولوجى، لم تمر مارس بعملية الحمل والولادة. هذا يعنى أنها كانت لا تزال بلا مساس من الأسفل؛ أى أن لديها شاسيه متين على حد قول الرجال فى النادى. وهذان المصباحان الرئيسيان! لقد أطلق الرجل العنان لنفسه.

يا له من بعث! يا لها من سعادة! لم يحدث قط أن مارس ذلك الشيء بمثل هذه الحلاوة. كان على استعداد للزواج منها. آه فقط من ذلك السُّعير الذى يمكن أن تثيره مامى، والذى يمنعه من الإقبال على هذا الزواج. لو أحضرها إلى منزله، فإنه يعرف أن هذا البيت الهادئ سوف يتحول إلى مجلس، ضربت فيه مخيمات يقف بعضها ضد البعض الآخر. سوف يتحول المنزل إلى نار جهنمية inferno (*) سوف يتحول المنزل إلى مكان لا يطاق بالنسبة إلى كل الأطراف الموجودة فيه. اختار يعقوب الاحتفاظ بخليلته خارج المنزل. كان يلبى احتياجاتها، وكان يمطرها

(*) هذه الكلمة مأخوذة عن دانتى فى ملحمته: "الكوميديا الإلهية، وقد استعملها دانتى ليدل بها على "جهنم" وربما كانت هذه إشارة من إشارات دقة المؤلفة فى استعمال اللغة. (المترجم)

بالهدايا، وفى المقابل كان يذهب إليها وقتما يشاء هو، طوال حياته. الأفضل لى هنا إنهاء جلسة الاستماع هذه حتى يمكن له الاندفاع ذاهبًا إليها. تمنى لو أن هناك إضاءة حتى يمكنها تشغيل مكيف الهواء. كانت شركة الكهرباء لا تؤدى عملها على ما يرام فى تلك الأيام، هذا يعنى أن الشركة كانت تفنن توزيع الطاقة. قال فيما بينه وبين نفسه: كان مفترضًا عند تركيب جهاز تكييف الهواء أن أشترى لها مولّدًا. المعاشرة تكون أحلى عندما تكون فى غرفة مبردة الهواء.

بدأ حديثه بصوت مدوٍّ "السيدات والسادة، أرحب بكم فى جلسة الاستماع العلنية هذه حول عقوبة الإعدام. وعلى حــد قــول شكسبير هل تكون هذه العقوبة أو لا تكون؟"

نظر إلى الجمهور ثم ابتسم. لقد تداعى هذا الاقتباس على ذهنه فى هذه اللحظة، أو بالأحرى فى الوقت المناسب. "ينبغى أن أريهم أنى لست جاهلاً أو أُميًّا". كانت الغرفة مليئة بالبشر لكنه كان يعرف أن الكثير من الحاضرين جرى استئجارهم. تَعَرَّف السيدة/ دومينجو Domingo عندما كانت تتحدث مع المرأة التى جاءت لتمثيل مؤسسة بديل حماية حقوق المرأة وتطويرها، وكانت تستخدم يديها للإشارة إلى أن النساء فقط هن اللاتى يعرفن كيف يتصرفن. وراح الرجل، يرثى لحال زوجيهما بطريقة عابرة. كيف يتزوج رجل من امرأة عاملة، لم تتواجد قط فى المنزل كى تطبخ، وتغسل وتقوم على تلبية احتياجات زوجها؟ هو لا يمكن مطلقًا أن يسمح لزوجته بالعمل. مكتبها هو المطبخ، وجدولها يتمثل فى الوفاء بما يطلبه زوجها. وقع بصر الشريف يعقوب على المحامى فرايداى، الذى سبق أن رآه مرات عدة فى المترو، وهو يلهب ظهر الحكومة وينتقدها بشأن مشكلة، أو أخرى من مشكلات حقوق الإنسان. أومأ إليه وراح يبتسم إلى المجتمعين كاشفًا عن أسنانه المصفرة بفعل وضع ثمار الكولا.

وقف شعر رأس المحامى فرايداى جراء الانتباه. تزايدت ضربات قلبه. أطال النظر إلى الرئيس كما لو كان ينظر إلى شبح من الأشباح. ذلك الصوت! تلك

الأغنية، ذلك الصوت الجهورى! لقد سمع ذلك الصوت من قبل، كان على يقين من ذلك، لكن أين سمع ذلك الصوت؟ وعلى النقيض من التصرف الحسن، تناسى جلسة الاستماع، وجعل ذهنه يعود إلى كل الأماكن التى ذهب إليها مؤخرًا، سرح ذهنه أيضًا فى كل المقابلات الشخصية، وكل الاحتفالات الشعبية. كانت الأماكن والمقابلات والاحتفالات كثيرة جدًا. ولذلك لم يستطع تحديد المكان. كان مرتبكًا وحائرًا فى داخله الأمر الذى أدى إلى ضيق صدره. ربما يكون قد نسى أن يلتقط أنفاسه وهو يحاول التركيز على معرفة المكان الذى سمع فيه ذلك الصوت. شعر بعدم الارتياح. ربط ذهنه ذلك الصوت بالكدر ــ أحس الشريف يعقوب بالمزيد من الارتباك لأنه لا يعرف أن المشرفة العامة على السجون لها علاقة بذلك الصوت.

كان رئيس الجلسة يقول متسائلاً: "هل أنت على ما يرام يا سيد فرايداى؟ يبدو أنك مريض؛ هل نرسل فى طلب الطبيب لك؟" كان الشريف يعقوب قد لاحظ نظرة الإجهاد على وجه فرايداى قال الصوت: "لدينا عيادة جيدة هنا، هل نرسل فى طلب الطبيب؟"

وجدتها! إنه الصوت نفسه الذى كان يتحدث مع المشرفة العامة على السجون، عندما طلبت منه الاختباء فى دولاب الملابس. الشريف يعقوب. سبق أن قالت المشرفة العامة على السجون، أنه كان ريسها أو عمها، وهو لا يستطيع القطع بأى منهما. انتبه، وانظر، كان عضوًا من أعضاء المجلس ولا تربطه أية علاقة بالمشرفة العامة على السجون.

"نتقاسم امرأة واحدة، ولا يعرف أحدنا الآخر. وهذا هو رئيس لجنة حقوق الإنسان فى مواجهة مع زعيم مراقبة حقوق الإنسان. إذن فأنت ذلك الرجل الآخر ذو المغزى فى حياة عشيقتى. وتنطلق من داخله ضحكة احتقار وازدراء لم تصل إلى حلقه.

"أنا مخدُوع: أنا مخدُوع بحق. أم أنه هو المخدوع؟ نحن مجتمع من الرجال

المخدوعين. نساؤنا غير مخلصات. هذا يعنى أن كل العلاقات التى أقمتها منذ أيام الجامعة، كان الطرف النسائى فيها غير مخلص، إذ كانت كل واحدة منهن تحتفظ برجل فى مكان ما كما لو كان إطارًا احتياطيًا من إطارات "السيارة". خطر بباله من جديد أنه داهم عشيقته وهى تعانق واحدًا من "أعمامها" عناقًا شديدًا، وهو تاجر شهير من التجار الإجباويين.

كان يتغنى فى داخله أيتها المشرفة العامة على السجون **كان يتعين على تعرف بنت جيدة مثلك**. تذكر يوم عودته من الدورة التدريبية فى لندن، التى كانت على كفالة منظمة العفو الدولية. تجددت آماله فى العشق واشتدت عندما تحاشته مارسى وراحت تتصنع الظُرف. قال يعقوب المرفوض، فيما بينه وبين نفسه. لابد أن أجعلك تشكرين هذه اللعبة. أحس برغبة القتل والغضب تعتمل فى داخله، ومن يمن الطالع أنه تعلم درسًا من كل الطالبات اللاتى سبق أن واعدهن. تعلم ألا يثق بأية واحدة منهن. تعلم أن يكون منافقًا. نعم. لم يكن الرجل فى لندن قديسًا بمعنى الكلمة. هذه هى فيكتوريا التنزانية أدفأت فراشه طوال وجودهما فى لندن ــ لم يحدث أن أحس بالشوق إلى السجانة إلا عندما كان فى منتصف رحلة الطيران وهو عائد إلى بلاده.

أخذت أفكار كثيرة تتدافع وتتراجع عن ذهن فرايداى ــ فقد الرجل اهتمامه بالأشياء المحيطة به فى الغرفة ــ انصرف ذهنه وذهب إلى بعيد.

"النساء! لا يؤتمن مطلقًا. خطر بباله أنها كانت قد انتهت من ذلك الآخر وأنها تواعدنى لوحدى الآن".

يا لها من خطَّاءة! كان مظهرها يوحى بالأمانة والإخلاص. إلى أن وصل الأمر به إلى حد أن يطلب يدها ويتزوجها! لقد اشترى بالفعل دبلة خطوبة يوم أن كان فى لندن، وراح ينتظر الوقت المناسب للكلام فى هذه المسألة وإنهائها. ستوافق. العمر يتقدم بها ولم تعد فرخًا من فراخ الربيع. كما أنها ستعد نفسها

محظوظة إذا ما ارتبطت بمحام، محام محترف. كانت معنية تمامًا بعضو البرلمان. الشريف يعقوب.

"شريف بحق! أنت لا تختلس أصوات الناس لمنفعتك الشخصية فحسب، وإنما تتسكع هنا وهناك لتسرق نساء الناس الآخرين. أنت لك زوجة فى المنزل، ومع ذلك تعسعس فى الشوارع بحثًا عن فرائس من النساء. المسوِّغ الوحيد الذى يمكن أن تتباهى به هو الانتداب أو التكليف، الانتداب الزائف المسروق. اخلع عنك ذلك التكليف الذى تلبسه كما لو كان توجا(*)، توقف عن أن تكون عضوًا فى المجلس، ولن تبقى لك شخصية بعد ذلك. لن يتبقى لك شيء. ستصبح عريانًا وليس لديك سوى اسمك، ستصبح مثل الليمون الحامض وستصبح منكمشًا خوفًا ورعبًا. أنت تخدع دائرتك؛ وتخدع زوجتك. خدَّاع، خدَّاع فى كل مكان. مارسى! مارسى! أنت دونا عن الناس كلهم!"

فهم عندئذ المصادر التى جاءت منها تلك الهدايا الغالية كلها؛ تليفون محمول طراز نوكيا، قماش الدانتيل، المجوهرات الذهبية، الحاسب المحمول، طقم الجلوس، ضمائم الملاحظات. لم يحدث أن أفلست مارس فى يوم من الأيام، جيبها دائمًا عامرًا بالنقود. الواقع أن صديقاتها كن يقترضن منها لحين استلام الرواتب. لقد أقرضته نقودًا فى كثير من الأحيان.

"كان ينبغى أن أفهم مُخَادعة مثلك على نحو أفضل، سجانة تبعثر النقود هنا وهناك؟ أنا ينبغى أن أشكر الشريف يعقوب على ذلك كله. أنا أعرف الآن، سبب قفلها التليفون المحمول عندما نكون سويًا، ورفضها استقبال مكالماتى، عندما أكون بعيدًا عنها. هذا يحدث عندما تنتحل لنفسها عذرًا من أعذار البشر؛ هذا الوغد صاحب الكرش الكبير، ذو الذقنين أو الثلاثة ذقون".

هذا الذى كان يجلس هناك، هو فرايداى المرتبك الذى ليس فيه أى شيء من

(*) التوجا: هى الثوب الرومانى الفضفاض. (المترجم)

الطاقة. لقد تبخرت كل الحجج التى جمعها وتساند إلغاء عقوبة الإعدام؛ تبخرت مثل دخان السجائر. وقف فجأة، ثم جلس مرتطمًا بكرسيه مرة أخرى. أحس بالارتباك والتخبط ــ لم يكن واثقًا من كلامه، كان عاجزًا عن الدفاع عن حق الإنسان فى الحياة، بل وعن أى خيار من الخيارات الأخرى، إلا بعد إنزال حكم الإعدام بكل من يعقوب والمشرفة العامة على السجون. كان بحاجة إلى شيء من الهواء. قال وهو يمسك ثنيه فى صدر جاكتته: "لا بد لى من الحصول على شيء من الأوكسجين".

سمع نفسه يغمغم: "أنا بخير يا سيادة الرئيس". قال: "لابد أن ذلك ناتج عن شيء أكلته". أمسك ببطنه. كان يود أن يقول: "أو ربما كان ذلك ناتجًا عن شخص أنت وأنا ن.....".

بذل جهدًا كيما يتخلص من هذه الأفكار حتى يمكنه التركيز على العمل الذى أمامه. كلما حاول التخلص من هذه الأفكار زادت أيضًا الخربطة واللخبطة فى ذهنه. قال فيما بينه وبين نفسه لا طائل من ذلك كله. أنا لا أستطيع إدارة جلسة الاستماع هذه. وهنا يستجمع شجاعته ويقول لرئيس الجلسة:

"سوف أدعو زميلى القدير، ورفيقى للتحدث أمام هذا الجمع الكريم".

ثم قام بإعطاء الأوراق لنائب الزعيم، الذى لم يكن مستعدًا استعدادًا طيبًا لهذا الدور المرتجل الذى سيكون فيه متحدثًا باسم أولئك الذين هم على وشك الإعدام.

تبدأ جلسة الاستماع. تكلمت جماعات كثيرة. حكم الإعدام هذا يعد حكمًا بربريًا وغير متحضر لقد ألغته الدول المتحضرة، فلماذا هو باقٍ هنا؟ ولماذا ننزل بالمجرمين العقاب الذى أدانه المجتمع؟ ما الذى يكسبه المجتمع من قتل رعاياه؟ لابد أن يحل خيار الحكم بالحياة محل الحكم بالإعدام. يضاف إلى ذلك أن الحكم بالأشغال الشاقة أرحم من حكم الإعدام. يمكن استخدام نزلاء السجون استخدامًا منتجًا فى الزراعة على سبيل المثال، وفى التدريب المهنى. لقد انتهى زمن العين

بالعين. وعلى حد قول المهاتما غاندى، إذا استمررنا فى هذا العمل، سنصاب كلنا بالعمى. تأخير العدالة إنكار للعدالة. يتعين على القائمين على تنفيذ القانون أن يهبوا ويجاهدوا للإسراع بعمليات التقاضى. كثير من النزلاء ينتظرون المحاكمة منذ عقود. ضاعت بعض الوثائق؛ بعض السجون ليس فيها سيارة بلاك ماريا لنقل المتهمين والنزلاء والنزيلات إلى المحاكم. يتعين على مكتب المدعى العام نقل القضايا كاملة بلا مضيعة للوقت. ويتعين على الشرطة أن تحتفظ بصورتين من كل ملف من الملفات، خلال الفترة الزمنية المحددة لذلك. السلطات التشريعية المعنية تعمل حاليًا على استصدار قانون يحدد المدة التى يتعين على المجرم بقاءها تحت المحاكمة. الخ.

كانت هناك مجموعة أخرى، تعمل من مرتكز دينى، تنادى وتساند مسألة تنفيذ أحكام الإعدام. هم يقولون إن ذلك وارد فى لوائحهم الدينية. بعض الأفعال المخلة بخرق القانون تستوجب عقوبة الإعدام، أو الرجم بالحجارة، أو بقطع الرأس، أو بالشنق. تجريم هذه العقوبة وإخراجها من القانون فيه مساس بالشعائر المقدسة. ولما كانت نيجيريا بلدًا علمانيًا، يكفل حرية الدين، فإن إخراج حكم الإعدام من نطاق القانون سيكون بمثابة أكبر مساس بحق الإنسان الأساسى فى أن يمارس دينه طبقًا لما تمليه عليه عقائده، ومعتقداته الدينية.

كانت الجماهير خارج القاعة، تغنى تأييدًا لإلغاء عقوبة الإعدام. وعندما وصل مراسلو التليفزيون ومعهم آلات التصوير، (المُصوِّرات) راح حملة البيارق والأعلام يرددون أنشودة أخرى لجذب الانتباه.

تسقط عقوبة الإعدام!

لا للقتل بالقضاء!

الغوا عقوبة الإعدام فى الحال!

لا تنفذوا المزيد من أحكام الإعدام!

فى زكن آخر، كانت هناك مجموعة أخرى تردد شيًا مختلفًا

تحيا عقوبة الإعدام!

تنتهى جلسة الاستماع العام. وراح كل واحد يصافح الآخر. تجمَّع الأعضاء الأشراف ولملموا ثيابهم الفضفاضة استعدادًا للانصراف. حاول المحامى فرايداى تحاشى الرئيس، لكن يعقوب سعى إليه من وسط الحاضرين وراح يربت على كتفه. استجمع فرايداى شجاعته كيما يصافح يعقوب قال: يد ناعمة. لم لا؟ ما الذى يفعله سوى تجميل نفسه أمام المرآه ثم يروح يطارد نساء الرجال الآخرين؟

قال مناجيًا نفسه: "يجب ألا يغيب عنى أنى لم أتزوج السجانة بعد. إنها حرة فى أن تفعل ما تشاء". كاد يُغمى عليه. حاول تحيه مؤيدى إلغاء عقوبة الإعدام الواقفين خارج المجلس فقال لهم: "خيرًا فعلتم! لقد أحسنتم صنعًا". سوف يصرف هؤلاء المؤيدين ويقصد بعد ذلك إلى منزل المشرفة العامة على السجون. قال فيما بينه وبين نفسه، هناك أمر أو اثنين ينبغى تسويتهما.

"انتظرى إلى أن تمسك بك يداى، أيتها المرأة اللعينة الكسول. ليس من العجب فى شيء أن يطردك زوجك. أيتها البغّى!"

فى أعمق أعماقه لم يكن يود لنفسه أن يرى مارسى وهو فى هذه الحال النفسية. فى تلك المرة كان الطبيب قد نصحه بالتزام فترة من البرود، أو بالأحرى أن يتمهل بعض الشيء. لو رآها وهو على هذه الحال النفسية فقد يقتلها.

حذره جزء من أجزاء عقله، "لا تنسى سجلك الماضى. يجب أن لا تغيب فيفين عن بالك".

كان يعشق البنات اللاتى أسمائهن من قبيل ساندرا، روز، جوءان، مريام، أولجا، هلدا. لقد سبق له أن أعطى مواعيد غرامية لامرأة تدعى ديانا وأخرى ناعومى. "أنا لا أعرف ذلك الذى جذبنى إلى امرأة تدعى مارسلينا. يا له من أسم كثيف! يا لها من امرأة غليظة الدماغ، ثخينة المخ.حذره عقله "اهدأ" تذكر فيفيان. "وأنت يا فيفيان، لقد أخذت جزاءك".

عاد إلى الماضى، غصبًا عنه. كان يعيش فى قسم الأولاد فى حرم أحد المحاضرين البعيد. لم يتمكن ذلك العام من الإقامة فى المدينة الجامعية. بعد المحاضرات، وعندما تتجه أغلبية الطلاب ناحية الجنوب، كان هو يتجه شمالاً صوب البوابة الرئيسية، ليستقل حافلة من طراز هياس إلى مسكنه المتواضع.

بينما كان ينتظر وصول وسيلة النقل الجماعى، مرت عليه سيارة مرسيدس من طراز بيست، وشاهد فيفيان وهى جالسة فى المقعد الأمامى. كانت نوافذ السيارة مرفوعة، لكن رسالة ذلك الثرى وصلته تمامًا، وكادت تُقَطِّع أحشاءه على الفور.

كان قد قصد إلى سكنها لا لشيء سوى التأكد. لم تكن موجودة، هذا ما قاله شريكها فى السكن. قال إنها ذهبت إلى منزل عمها. حقًا. راح يتردد على سكنها بين الحين والآخر إلى ما قبل منتصف الليل بقليل، وعندها جاءت وهى تترنح، وتمسك فى يدها كشكولين طويلين. الغشاشة، الخادعة.

"أين كنت؟".

"كنت فى المكتبة".

اقتادها دون أن تنطق بكلمة واحدة، إلى شقته المكونة من غرفة واحدة. وبرك عليها. "أين كنت أيتها المومس الرخيصة؟".

كان يُقرِّعها ويعنِّفها وهو يخزها، ويصفعها ويضربها، ويركلها، وهى متكومة على الأرض. كان يتعمد ترك أثر على ذلك الوجه الناعم، أثر يجعلها تتذكره به دومًا، أثر ينجم عن فقدانها لجمالها. كان قد جلس بجوارها وأمسك ما بين وركيها لتمزيقه وتشويهه. كان قد عقد العزم على تمزيق ملابسها، وخلع ملابسها الداخلية، ليقوم بفحصها.

"أين كنت أيتها البغى التى لا تساوى شيئًا؟ أين؟ كانت الطالبة قد تشبثت

بملابسها. ومن حسن حظها أنها كانت ترتدى بنطالها الجينز السميك أزرق اللون.

عندئذ كان جاره، رئيس طباخين صاحب المبنى، قد بدأ يطرق الباب. هدده بأنه سوف يستدعى الشرطة، أو إن شئت فقل الحراس المجاورين، أو أبناء باكاسى Bakassi Boys. توقف فرايداى عن الضرب والإهانة. كانت المرأة الوسخة الكسول ترقد على الأرض وهى تنزف، وتبكى وقد تورم وجهها. كان الدم ينزف من سن تلخلخ من أسنانها، ومن لثتها التى أصابها الضرر. وبدافع من الخوف فتح فرايداى الباب. وراح يبحث عن وسيلة نقل توصلهما إلى العيادة، أية عيادة من العيادات. مرت عليهما وسيلة النقل التى يسمونها "أوكادا" okada. دعى الله أن لا تموت منه. ها أنا أخدمك، أيتها الغشاشة الخادعة.

قام الطبيب بتضميد جراح الفتاة وأجلس فرايداى وراح ينصحه. هوّن عليك. النساء كلهن على هذه الشاكلة. اسمح لنفسك بفترة من البرود. وبغير هذه الطريقة يمكن أن تصبح وراء القضبان بسبب قتلك لواحد من البشر وتندم بعد ذلك على ما حدث. بعد ذلك الحادث راحت فيفيان تتحاشى فرايداى كما لو كان طاعونًا وأنهت صداقتها معه.

قرر: "ينبغى ألا أقابل مارسى وأنا على هذا الحال".

نظر حوله إلى ذلك التلميذ الذى كان قد اقترب منه قبل الاحتفال. كان ذلك التلميذ قد جاء مع رفاقه لمساندة وتأييد إلغاء عقوبة الإعدام، هذا على حد قوله لفريداى. صحيح أنه رأى جمعًا من الطلاب فى زيهم الرسمى. كان قد ضم هؤلاء الطلاب إلى الجمهور. حتى يمكن أن يكون التأثير أكبر.

كان الطالب قد قال له: "لدينا أيضًا رسالة نود توصيلها إلى الحكومة. معنا التماس. بالأحرى رجاء كتبه بعض النزلاء والنزيلات".

كان فريداى قد تناول الرسالة. كانت له صلة ببعض الصحفيين، ومن ثم سيتأكد من نشرها والإعلان عنها على أوسع نطاق.

كان قد قال للمراهق: "كل شيء مهم. كل شيء".

كان فرايداى قد أطال النظر إلى الطالب، ولاحظ بنيته الهزيلة ونظرته المُتْعبة. كان يبذل جهدًا كبيرًا فى عملية الوقوف. مسكين أيها الصبى، إنه يضحى بنفسه حبًا فى الإنسانية.

عندما هم فرايداى بركوب سيارته، قال له جزء من عقله إنه يتعين عليه البحث عن الطالب، ويقوم بتوصيله إلى منزله. بدا عليه غير راغب فى ذلك. نظر حوله وأبصر بعض الأشكال جالسين على الدَّرج (السلَّم)، كان أحد الأولاد يضع رأسه على. ركبتيه. وكانت تحيط به قلة قليلة من الطلاب. كان أحدهم يُمَرْوِح له. ليندفع فرايداى نحوهم.

أحس رفاق الدراسة بالارتياح عندما رأوا الزعيم.

ألمح أحدهم إليه "سيث متوعك".

نعم إنه سيث. كان ذلك هو اسم الصبى المتوعك.

سأل فريداى الصبى: "ماذا بك؟ هل أنت مرهق؟" كانت مفاصله متورمة. كان الصبى ضعيفًا وهزيلاً.

"جاء الجواب ضعيفًا: "انا أُحِس بالضعف". حاول الصبى رفع رأسه، لكنه أعاده ثانية إلى ما بين ذراعيه على ركبتيه.

قيل لى إن هنا عيادة. عيادة مجهزة تجهيزًا طبيًا. هيا بنا، سآخذك إلى هناك".

"أنا لا أتحمل ذلك، لا أستطيع المشى.أنا ضعيف جدًا. قد أكون بحاجة إلى من يحملنى".

تساءل المحامى: "إلى هذا الحد؟".

ألمح أحد الطلاب: "إنه "ضعيف وسقيم، إنه يعانى من أزمة".

يقف فرايداى على الفور أمام الصبى ويروح يسنده "اركب على ظهرى إذن. وهيا بنا إلى العيادة!" كان الصبى خفيف الوزن، فقد أحس فرايداى بذلك، لأن وزن الرجل لا يتفق مع عمره. سقيم! ويعانى من أزمة!

رفضت عيادة المجلس علاج الصبى.

قيل لهما: "أنتما بحاجة إلى رسالة من المجلس". قال المساعد الطبى: "إن علينا استعمال اسم صاحب ملف من الملفات وإلا سيوجه إلينا سين وجيم".

رجاه فرايداى: "لكن هذه حالة طارئة".

"هذا هو النظام المتبع هنا. أنت بحاجة إلى هذه الرسالة من أى عضو من الأعضاء الأشراف أ والبارزين، وإلا فسوف لن نعالجه".

ترك فرايداى سيث على الكرسى فى غرفة الانتظار. وفى الحال تمدد الصبى على الأرض. سأل الممرضة "هل يمكن أن تضعيه على السرير فى أضعف الأحوال، اسمحى لى بأن يسترخى ويستريح؟ أما أنا فسوف أذهب وأحضر رسالة من أحد الأعضاء".

"أرجوك يا سيدى، لا تتسبب فى فصلى من عملى. أرجوك، اجعله يحاول الاكتفاء بالكرسى إلى أن تحضر أنت تلك الرسالة".

خرج فرايداى مندفعًا، وهو يلقى نظرة أخيرة على سيث الذى أغمضت عيناه. وكانت ذراعه اليسرى تحمل رأسه على حجر واحد من زملائه الذى رافقه إلى العيادة. توقف فرايداى وعاد ووقف أمام زميل سيث.

سأله: "أبوه وأمه، كيف أصل إليهما؟" أجابه الزميل: "والده متوفى. أما أمه....." وراح ينظر إلى الأرض خجلاً وكسوفًا.

لم يعرف فرايداى كيف يتصرف مع هذا الجانب الأبوى. انتظر الرجل.

"أمه.... أنا لا أعرف".

"ما الذى تعنيه عندما تقول أنا لا أعرف. ألستما صديقين؟" أومأ برأسه.

"نحن فعلاً أصدقاء" ثم أمسك بثنيتى صدر جاكتته وراح يداعب خديه بهما. وأنهى الزميل كلامه: "أمه ليسه هنا" وهنا جرى المحامى مسرعًا.

قال له زميله "ستكون على ما يرام. لا تستسلم".

أومأ سيث برأسه. ولم يكن ذهنه معه بطبيعة الحال، لكنه كان فى سجن فريمان فورت، مع أمه. كان يتمنى لنفسه الشفاء أو التحسن فى أضعف الأحوال، حتى يتمكن من مواصلة المعركة التى بدأها، تلك المعركة التى عهد بها إليه. خطرت على باله آخر زيارة قام بها إلى سجن فريمان فورت. كان قد اشترى سلة مانجو لأمه، كانت أمه تحب المانجو الذى له لون الكرز، على حد علمه. كان بوسعها أن تأكل عشر حبات فى المرة الواحدة. عندما اقتادو مودى لتخرج إليه كان بصحبتها امرأة أخرى.

قالت له أمه: "هذه هى أنتلّى. وهى تسأل عما إذا كنت تستطيع مساعدتها فى مهمة من المهام". أومأ برأسه علامة الموافقة. وهنا بدأت تتكلم أنتلى بصوت عال.

"سيث، لقد أحسنت صنعًا، بارك الله فيك لحبك لأمك فى مثل هذه الظروف". ويومئ برأسه مرة أخرى. كانت لأمه صديقة فى الزنزانة ـ الحمد لله ـ كان يتخيلها وكأنها وحدها فى السجن، فى مساحة لا تزيد على مساحة المرحاض المنزلى.

قالت أنتلى: "هناك الكثير الذى تستطيع عمله أنت، أنت الذى فى خارج السجن. عبئ زملاءك فى المدرسة، حرر التماسًا للسلطات، وإلى السيد الرئيس، إلى الحكام، إلى المتحدث الرسمى، إلى رئيس مجلس الشيوخ. ارمهم وصِف لهم الطلبات التى تنادى بإلغاء عقوبة الإعدام. اكتب إلى الصحافة العالمية، إلى منظمة العفو الدولية، إلى الأمم المتحدة، وإلى الكمنولث. نظم الاحتفالات الشعبية. وهذا هو التماس

بطلب الرحمة قمنا نحن بصياغته. حاول أن تنشر هذا الالتماس فى الصحف. افعل أى شيء إلى أن يصدر عن الحكومة رد فعلها. أنقذ أرواحنا يا سيث".

بقيت مودى صامتة طوال الوقت، كانت يداها ممسكتين بالقضبان الحديدية. كانت تنتقل ببصرها من أنتلى إلى سيث، وهى تومئ برأسها مساندة ومؤيدة لرد فعل الصبى.

استمع سيث إلى السيدة متجاهلاً أمه. حاول أن يأخذ الأمر مأخذ الجد وأن يصيخ السمع إلى أبعد حد ممكن؛ منتظرًا من وراء ذلك كله أن تنهى هذه المرأة كلامها وتتركهما لوحدهما. كان يعرف أنه لن يستطيع القيام بذلك الذى تطلبه منه.

بدأ يقول: "أنا لست على ما يرام ــ ليتنى أستطيع القيام بذلك، لكن صحتى لن تسمح لى بذلك".

قالت أمه مُؤمِّنة على كلامه، وكعادتها فى حمايته بصورة مستمرة "نعم يا حبيبى. أنتلى انتبهى لأن سيث يجب أن لا يُجْهِد نفسه كثيرًا. صحته....".

قالت المرأة الأخرى على سبيل التذمر والتأنيب: "إذن سنموت هنا". أطالت النساء النظر إلى الصبى، وهن يتمنين لو أنه كان رجلاً. كانت صديقه أمه قد ابتسمت ابتسامة خشنة، كشف عن لثتها حمراء اللون وسنيها المفقودين.

"سيث، أنت الوحيد الذى يمكنه القيام بذلك لأنك الأكثر اهتمامًا، العضو الوحيد فى الأسرة الذى يقوم بالزيارة بدافع من الدين. ما عليك سوى أن تحاول".

قالت مودى راجيه: "لا تصرى عليه يا أنتلى أكثر من ذلك. يكفى أن تعطيه الرسالة". أطاعت انتلى ذلك الكلام.

"حاول يا سيث توصيل الرسالة إلى مكتب الصحيفة. إذا نشروه كان خيرًا، وإذا لم ينشروه فقد قمت بالمطلوب منك".

أخذ الرسالة. كانت مكتوبة على ورقة مأخوذة من شيكارة من شكائر

الإسمنت. لم يعرف هذه الورقة، لكنها كانت أيضًا من الأوراق التى كانت النزيلات يستعملنها فى المسح والتنظيف الداخلى.

قال لهما: "سأبذل قصارى جهدى. سأفعل أى شيء من أجلك يا أمي".

نصحته أمه قائلة: "اطلب من روث المساعدة". لكنه كان يعرف أن روث لن تُقبل على هذه المساعدة مطلقًا. قبل أن يغادر السجن، كانت أمه قد ذكرته بالبحث عن نظارة القراءة. وأن يقوم بإحضارها لها، وأن يحضر لها أيضًا علاج ارتفاع ضغط الدم.

قالت لسيث "بوسعك إحضار هذا العلاج من الصيدلية القريبة من منزلنا. العلاج المطلوب هو نيفيدبين Nifedpine أو ألدومت Aldomet. استسمح الصيدلى فى الحصول على بعض الأقراص لأمك، أرجوك". كان الصبى قد بدأ يحس بالسأم والملل لكن زعيمة النساء كانت لم تنته بعد من كلامها. ثم أعطته ورقة ثانية.

"لقد بدأت أنسى بعض الشيء التصريف الأول من اللغة اللاتينية، أنت تعرف الكلمتين Mensa و pulla. صيغة المفرد أنا أعرفها، لكنى لا أعرف صيغة الجمع. أنا أتذكر أن صيغة مفعول الأداة، وحالة المجرور هو mensis؛ لكنى لا أتذكر حالة النصب أو الرفع أو المضاف إليه؛ هذه الصيغ تخدعنى".

تراجع سيث إلى الخلف. ومن خلال القضبان الحديدية راح ينظر إلى الكلمات ثم ينظر بعد ذلك إلى المرأة، ثم ينظر بعد ذلك إلى أمه. كانت أمه قد تراجعت خطوة إلى الوراء وأصبحت خلف زميلتها بمسافة صغيرة. راحت تطيل النظر إلى المتحدث. لم تستطع تبين أى شيء مما كانت أنتلى تقوله. كان هناك خطأ معين. وراحت الأم تخبط على صدغيها فى إشارة منها إلى ولدها أن صديقتها ليست على ما يرام تمامًا. أخذ سيث الورقة. كانت أمه لا تزال تؤشر له بإهمال تلك المهمة وألا يأخذها على محمل الجد؛ كانت تشير إليه بأن عقل صديقتها ليس على ما يرام، لكن الأمر كان له مغزاه عند سيث.

كان من عادته طوال كل هذه اللحظات من العنف المنزلى، وعندما يضيق ذرعًا بصراخها، الهروب إلى غرفته، مصطحبًا معه بطريقة عشوائية كتابًا من فوق الرف. فى أحد الأيام تناول كتاب عنوانه: "لاتينية اليوم" الذى نشرته دار كلارندون، واهتدى إلى التصريف الأول للكلمات التى من قبيل amo, amare بمعنى "يحب". فى هذه الصورة من صور التصريف نقف على الطريقة الأبيانيه Apian(*). هذه الطريقة من طرق التصريف كانت تبدو له بسيطة، ثم يواصل اطلاعه على الكتاب. يعود ثانية إلى التصريف الأول.

كرر على أنتلى، "التصريف الأول".

أومأت النزيلة برأسها علامة الموافقة، "نعم، أنا أريد التصريف الأول".

" Mensa , agricola , puella "(**)

انغلبت أنتلى على أمرها "نعم، نعم، هذا صحيح. أريد أيضًا صيغة الرفع، والنصب وصيغة الإضافة فى صيغة الجمع".

تنحنح سيث.

هذه الصيغ هى: mensea, mensea, mensas, mensarum, mensis, mensis.

"لكننى زدت صيغة المنادى على ما قلته، لأنى لست متأكدة منها". ويسارع إلى القول: "سأحاول العثور على هذه الصيغة".

ردت عليه المرأة: "أظن ما قلته صحيح. يا مودى، ولدك عبقرى".

قالت الأم عندئذ: "لقد أحسنت صنعًا، يا سيث. لا تنسَ الرسالة....".

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة باللغة اللاتينية In hac picturam viam apiam spectamus. (المترجم)

(**) الكلمة الأولى معناها "فتاة"، والثانية "فلاح"، والثالثة "دم الدورة الشهرية". (المترجم)

"وهو كذلك يا أمي، سوف أرى ماذا أفعل".

لولا مدرسو الفصل لما عرف سيث كيف يمضي قدمًا. كان يثق بالعم جون. هذا العم جون هو الذى اقتاده إلى ناظرة المدرسة، تلك السيدة الممتلئة، التى تضع الإنجيل مفتوحًا على ركن من أركان طاولتها. هذه السيدة هذه التى وافقت وأعلنت فى الاجتماع عن الحاجة إلى متطوعين وإقامة لقاءات شعبية ويزاد على ذلك أن الناظرة هى التى أمدت التلاميذ بحافلة المدرسة وهى التى زودتها بالوقود من مالها الخاص.

كان بصر سيث قد وقع على المحامى فرايداى فى اللقاء الشعبى. قدم سيث نفسه لذلك المحامى وسلمه الرسالة التى جاء بها من النزيلات. ثم تدهور حاله بعد ذلك، وكان يعرف ذلك مسبقًا. أحس بدوار، أحس بنبض الحياة يخرج منه، أحس بدمه اللعين وهو ينضب ويجف، انصرف فكره إلى أمه، تساءل؛ عما يحدث لو وافته المنية. كان يعرف أن ذلك يمكن أن يجهز على أمه. استحضرها فى خياله، "أماه كونى قوية ولا تضعفى، كونى قوية من أجلى".

خطر بباله مرة ثانية "ما الذى فعلته حتى تكون وراء القضبان؟ لكنها لم تفعل ذلك إلا للتخلُّص من ظالم، رجل عديم النفع يسمى نفسه زوجًا وأبًا". استرجع سيث تلك المرات الكثيرة التى أثار فيها ذلك الرجل الرعب بين أفراد العائلة، واسترجع أيضًا المرات الكثيرة التى ضرب فيها أمه وحبسها فى الغرفة. كان الأب يجلده فى المرات كلها التى كان يتدخل فيها بينه وبين أمه، إلى أن كانت أمه تصرخ فيه وتطلب منه الابتعاد، وألا يعرض نفسه للخطر، وكانت تصرخ فى ذلك الرجل لتذكره أن ولده سقيم ومريض. كان سيث يعوى ويقول: آه يا أُماه. حتى وأنت تعانين كنت تهتمين بسلامتى، وتقلقين علىّ.

خطر بباله، أنه ذات مرة، وعند منتصف عنف ذلك الرجل، ذلك الرجل الذى يسمى نفسه أبًا، أسرع قاصدًا مركز الشرطة ليبلِّغ عن رجل كان يجلد أمه. وعندما وصل إلى منتصف شكواه، وعندما اتضح أن ذلك الرجل هو والده وهو

أيضًا زوج للضحية، رفض ضابط الشرطة البلاغ بحجة أن تلك كانت مسألة داخلية. كان أهل المنطقة كلهم يعرفون أن أسرته شهيرة بالعنف".

كان ضابط شرطة الحى قد قال بصورة قاطعة: "لا يمكن لنا التدخل فى هذا الأمر".

ينصرف سيث من مركز الشرطة مهمومًا ومقهورًا، وهو يبحث عن عصى أو حجر، أى شيء يمكن أن يستعمله فى الإجهاز على ذلك الرجل الذى يدعو نفسه أبًا. وعندما اقترب من المنزل وجد، رأى جمعًا من الناس أمام الشقة. كان لا يزال يسمع الصراخ، صراخ أمه، وهى تتوسل إلى الرجل وتطلب منه الرحمة، وترجوه السماح والعفو. السماح على ماذا؟ كان يود الصياح فى أمه، أنت لم تفعلى شيئًا ـــ توقفى عن طلب العفو ـــ أنت لم تفعلى شيئًا، إنه هو المخطئ، هو الوغد، هو المعتدى. وبدلاً من التدخل، استدار سيث، بحكم عجزه عن تحمل الألم والعار، وقصد الكشك الموجود عند الناصية، وجلس هناك إلى أن ينصرف عنه الألم. وبعد برهة أبصر الرجل وهو يمر من أمامه، وكان يعرف أنه سيمر من هذا المكان، وكان ينفث دخان سيجارته. التقت أعينهما لحظات قصيرة، كانت عينا الرجل مملوءتين بالكراهية الشديدة.

صاح فيه ذلك الرجل الذى يسمى نفسه أبًا من الجانب الآخر من الطريق "اذهب إلى المنزل، أيها السقيم عديم النفع".

نهض سيث واقفًا ومشى عائدًا إلى المنزل وهو يتلفظ فيما بينه وبين نفسه بتلك الإهانات الشديدة.

كان قد صرخ قائلاً: "أنت الذى هو عديم النفع يا أبله، حثالة القوم، شرير. وحش" لا يفكر فى النتائج. كان ينبغى عليك أن لا تتزوج أمى، أنت وأمثالك الملعونون، وأسرع غاضبًا ليعود إلى المنزل كيما يواسى أمه ويطيب خاطرها.

تفرق الجمع، ولم يبق سوى صاحب المِلْك الذى كان واقفًا خارج الشقة. تحاشى شيث النظر إلى المالك.

قال المالك للسيدة/ التى تخنفر وهو واقف على الباب: "هونى عليك، يا مدام. اهدئى وكفاك صياحًا. جففى دموعك. أنا آسف لما حدث لك. لقد ذهب الآن إلى حال سبيله. قال للابن، افعل أى شيء تواسيها به". حتى فى هذه اللحظة كان يراها فى خياله وهى تئن وتتوجع. كان قلبه مليئًا بالألم والأسف والعار.

راحت الأم تولول من الغرفة المغلقة: "ولدى سيث، ما الذى فعلته أنا؟ لقد كنت موجودًا معنا هنا ــ لقد رأيت كل شيء بنفسك ــ ما الذى فعلته أنا؟ ما الذى فعلته حتى أستحق هذه الحياة، هذه المعاناة، وهذا الجلد؟"

كانت روث قد حبست نفسها فى غرفتها، مشمئزة من ذلك العمل الفاضح. وبعد أن خرج الرجل من الشقة، وعندما أحست أن الضوضاء قد انحسرت، خرجت من غرفتها، وأحضرت شيئًا من الماء، وفتحت الباب على أمها لكى تمسح دموعها وتخفف من ألمها. كان ألم روث عميقًا ودفينًا، ويحتاج غسله إلى ما هو أكثر من الماء العادى.

فى هذه اللحظة اقترح سيث على أمه: "هيا بنا نحزم أشياءنا ونرحل يا أماه. هيا بنا نهرب ونتركه هنا. وعندما يعود إلى المنزل، لن يجدنا فيه".

لكن أمه بقيت خاضعة. مسحت عينيها، وواصلت حديثها السابق. إلى أين سيهربون؟ وهى ليس لديها مدخرات ــ لا شيء لديها. مسألة الخياطة ليست على ما يرام. كانت المنافسة كبيرة جدًا. كانت تعتمد على الرجل فى كل (مليم) kobo. هذا أيضًا كان سببًا من أسباب الاحتكاك، كان يدعو أيضًا إلى العنف، مجرد شيء صغير يكفى لإثارة هذا العنف؛ مجرد الطلب العادل للمصاريف المنزلية، كفيل بإثارة هذا العنف؛ هذا الطلب كفيل بفتح باب الشبكة ليسمح بمرور البعوض، والملاريا وتأخير تقديم الوجبات. أتفه الأمور كانت تثير هذا الرجل وتنشط عنده فيروس الغضب.

فى ذلك اليوم المشئوم الذى عاد فيه ذلك الرجل إلى المنزل، مخمورًا ومتحفزًا للقتال والشجار. ليت ذلك اليوم لم تطلع له شمس يا أماه. ليته لـــم يجيء يا أماه. لقد حُبسوا فى ذلك اليوم طوال الليل. كان اللصوص المسلحون يهددون المنطقة. الواضح أن أمه تأخرت فى فتح الباب. وهجم عليها ذلك الوغد مرة أخرى. كان هناك سوط من سياط الخيل، كان يحتفظ به معلقًا على مسمار خلف الباب، حتى يكون فى متناوله ــ أمسك بالسوط وراح يجلد المرأة المسكينة.

قال وهو يمد كلامه فى الحديث: "كم مرة سأقول لك بألا تتأخرى فى فتح الباب عندما أطرقه؟ إيه ــ كم مرة؟ كم مرة؟

كانت أمى المسكينة تقوم بطحن اليام حتى تجهز له الغداء. كانت قد هربت إلى المطبخ كيما لا يتحول السيام إلى كتل، وهذا سبب آخر من أسباب عدم تكون قشرة على سطح السيام. هذا الرجل الفظيع، طارد المرأة التى تولول إلى داخل المطبخ، ليواصل شناعته وفظاعته. وهى من باب الدفاع عن النفس رفعت يد الهون كيما تخيفه، ويبتعد عنها مثلما كان يحدث فى المرات السابقة.

كان سيث وروث يرجوانه من بعيد "بابا، نرجوك، كفاية، وهى لن تفعل ذلك مرة ثانية".

صرخت أمى: "اتركنى لوحدى! اتركنى الآن! اتركنى!" كانت قد رفعت يد الهون كما لو كان وتدًا. جرت العادة أن يتراجع فى معظم الأحيان، إلا هذه المرة. آه، إلا هذه المرة. هيأ له ذهنه المرتبك: "لن تجرؤ على ضربى". وواصل استعماله للسوط، متجاسرًا على المرأة التى تولول، أمام أبنائه. وفجأة خبطت مودى رأس الوغد الغاضب بيد الهون، وتسببت فى شج رأس الرجل. يسقط الرجل على الأرض مثل جوال من الحبوب. ويندفع الدم. وأثناء غضبها راحت مودى تتذكر كل تلك السنين من المعاناة، وواصلت أمى سحق معدة وكرش الرجل، وهو يتلوى على الأرض، متأوهًا وممسكًا بقفصه الصدرى وضلوعه. واصلت الأم سحقها وضربها. يا لها من مجزرة! وفى نهاية الأمر، بدا الرجل وكأنه فريسة للبؤة عاتية،

هائجة، مقهورة، فى حين كان المطبخ بمثابة مجزر أو مَسْلَخ.

ضابط شرطة الحى نفسه هو الذى اقتاد أمى إلى مركز الشرطة. صاح سيث فى رجل الشرطة": أنت الذى ينبغى أن تكون خلف القضبان.. أنت وقفت تتفرج طوال هذه السنين التى كان يضربها فيها. والآن وهى تدافع عن نفسها تقوم بإلقاء القبض عليها! أنت مذنب، أنت يا ضابط شرطة الحى. كلكم مذنبون. وأنت يا صاحب المِلْك، وأنتم أيها الجيران وقفتم تتفرجون ولم تفعلوا شيئًا".

وخرج من داخل الصبى عويل وولولة داخل عيادة المجلس.

"لماذا أنا يا رب، لماذا أنا؟ لماذا تحدث لى كل هذه الأشياء السيئة؟".

كن يسأل الله منذ أن شرح له الطبيب المسألة الوراثية فى المرض الذى أصابه، عن سبب مرضه بهذا المرض الوراثى "لماذا أنا؟ لماذا أنا دونًا عن سائر أندادى؟ هذه هى روث صحيفة ومتعافية، وكذلك إخوانى غير الأشقاء". كانوا كلهم ينضمون إلى الأطفال الآخرين ليلعبوا كرة القدم فى الشارع.

كان دومًا فى موقف المتفرج وليس فى موقف اللاعب، لم يَخْتَرْه أحد، وعندما كان يكشف عن رغبته فى اللعب كانوا يذكرونه.

"لـن تستطيـع اللعـب يـا سيث، والـدتك تقول إنك يجب أن لا تلعب. وإلا ستمرض".

"لماذا أنا يا الله، لماذا أنا؟ كل هذه الأشياء السيئة تحدث لى. أنْ أُولد مريضًا، وأن يكون لى أب عنيف، ومنزل تعيس. وأمًا قاتلة فى السجن. يا لها من حياة مليئة بالأزمات!".

عاد المحامى. لم يذهب إلى الممرضة. لم يكن هناك داع لذلك. لم يكن معه ورقة. لم يعطه أى عضو رسالة. يعطى ورقة للمضربين والمتظاهرين! لا، حتى لو كلفنى ذلك حياتى".

ذهب فرايداى إلى الصبى المريض ورفعه. لم يكن وزنه ثقيلاً بأى حال من الأحوال.

"هيا بنا نذهب إلى عيادة أخرى. عجّل. أنا لى صديق طبيب فى المستشفى الوطنى".

حمل سيث واتجه إلى سيارته، وهو يدعو الله أن لا يكون الأوان قد فات. كان الصبى يهذى. وظل يتمتم، ويغمغم عن ضابط شرطة الحى، وعن يد الهاون والهاون، أم هل كان ذلك عن أمه؟ أجلسه المحامى فى المقعد الخلفى، فى حين جلس هو خلف عجلة القيادة. وعندما ما دارت السيارة، لم تكن أفكاره مركزة على المشرفة العامة على السجون وتعاملها المزدوج، وإنما كانت مركزة على تلك الحياة التى كانت متعلقة بعود من القش يشبه الخيط الرفيع.

المساء

سمعت النزيلات صوت حذاء يقترب من العنبر ـــ لم يلقين بالا لذلك الصوت. هذا الصوت مجرد جزء من الضوضاء اليومية ـــ هؤلاء هم السجانون يروحون، ويجيئون، وهم يقومون بواجبهم الشرطى. قد يقومون بالاستعراض فى بعض الأحيان. كان هناك تدريب صباحى وتدريب فى فترة العصر ـــ وهذا صوت ضخم يصدر الأوامر. وفى النهاية نسمع السجانين يهبهبون بسرعة ثم ينصرفون بعد ذلك. فى هذه المرة كانت الأقدام تقف أمام الزنزانة. لم تهتم إحداهن بصاحبة ذلك الصوت. وجرى استئناف لعبة الورق من جديد. يجلسن على سريرين متجاورين، يواجهن بعضهن بعضًا. وعلى مقربة منهن كان عمود سرير أولورى مغطى بغلافين قديمين متنافرين. كانت أولورى هى وحبيبتها داخل هذا الغلاف "مسترخيتين". كانت تنطلق من داخل هذا المسوَّر، بين الحين والآخر ضحكة بلهاء من ضحكات البنات. كانت تلك الضحكة تغازل الهواء قبل أن تتحول إلى سعال

شبيه بالكحة. فى بعض الأحيان كان النسيم يندفع داخلاً إلى ذلك المسوَّر مهددًا بإزالة الغلاف والكشف عن الحبيبين. كان الحبيبان يلعبان مع بعضهما طوال النهار. ما الذى كان أمامهما حتى يفعلاه؟

نادت مستشيف قائلة: "سوزان!" نظرت الفتاة البيضاء إلى أعلى وهى خائفة. كانت تحمل أوراقها فى اليد اليسرى، مرتبة على شكل مروحة شرقية. ترى، هل جاء الدور عليها؟ لا يمكن أن يكون ذلك. لقد طلعت الشمس. هذا يعنى أن الوقت تجاوز الموعد المحدد للتنفيذ.

أردفت السجانة قائلة: "لك زيارة" قفزت المرأة البيضاء إلى أعلى.

سألت متحمسة "هل هذه الزيارة من السفارة؟

"كيف لى بمعرفة ذلك؟"

أعادت السؤال بصيغة أخرى "هل الزائر شخص أبيض؟"

قالت إحداهن "لابد أن يكون كذلك، أظن أنك أرسلت رسالة".

صرخت سوزان صرخة عالية. وخرجت من شفتيها كلمات أجنبية. قفزت واقفة فى مكانها، وكانت أوراق اللعب لا تزال فى يدها. وبعد أن أدركت حقيقة الموقف، بعثرت الورق على رأس شريكتها فى اللعب، وداست على الورق وهى فى طريقها إلى القضبان الحديدية.

انحنت وراحت تلم أشياءها وهى تقول: "أشكرك، يا أم الرب(*) أشكرك"(**)

سألتها السجانة متهكمة منها، وقد ارتسمت على وجهها سخرية مؤكدة "ما هذا فى اعتقادك الذى تفعلينه؟"

(*) المقصود هنا هى "مريم العذراء". (المترجم)

(**) وردت هذه العبارة باللغة الإيطالية Madre di Dio. Grazie! Grazie, Madre, qrazie. (المترجم).

ردت عليها سوازن ردًا مباشرًا "أنا أحزم أشيائى". وهنا يبدأ الشك فى الظهور عليها.

"صديقتى، تعالى وردى على الطلب ولا تضيعى وقتى".

راقبت السجانة المرأة البيضاء وهى تقترب منها. كانت المرأة البيضاء نشوانة. قالت الضابطة: "إلى أين أنت ذاهبة بالشكل الذى أنت عليه؟ هيا، ارتدى شيئًا ما".

الواقع أن سوزان كانت ترتدى مجرد حمالة صدر مهلهلة. شبه كلسون. كانت الحرارة شديدة، وكانت هناك رائحة غريبة فى الهواء. الحمد لله على الريح التى هبت من بين الجدران. كانت النزيلات قد خلعن ثيابهن. وسرعان ما تلافت سوزان ثياب السجن الباهتة وأخذت فى رجلها حذاء كان ملقى عند الباب. وبذلك تكون قد أصبحت مستعدة للزيارة.

سارت خلف مستشيف إلى منطقة الزائرين.

"آه، يسوع! لقد جاء القنصل أخيرًا، جاء أخيرًا ليدفع عنى الكفالة، ويأخذنى إلى الوطن. آه، يا نابولى، سأراك مرة ثانية Monte versuvio! Isola di capri! oh piazza volturno. Piazza Republica (*)

كان هناك ثنائيان جالسَيْن على مقعد من المقاعد. أشارت مستشيف إليهما ثم قالت: "الوقت المسموح به هو خمس دقائق".

فوجئت سوزان. كانت تتوقع رجلاً أبيضًا من سفارتها. لكن هذا رجل أسود بدلاً من الأبيض وبصحبته امرأة سوداء. ترى هل هناك خطأ؟ أم أنهما من بين العاملين النيجيريين فى السفارة، وأنهما موفدان من قبل القنصل.

قالت "نعم؟" لتلفت انتباههما. وسرعان ماندمت.

(*) هذا هو عنوان محل إقامتها فى كابرى. (المترجم)

استدار الرجل، وجاء تعرفها إياه كما لو كان صفعة شديدة على الوجه. إنه أوزموند شقيق زوجها. شقيق إيدى وشقيقته. لم تكن تود رؤيتهما، لم تكن تود أن يكون بينهم وبينها أية صلة من الصلات. لكن ربما يكونان يحملان إليها أخبارًا عن أبنائها. كانت تعلم أن واحدًا من أسرتهم يرعى أبناءها. وكانت تعتزم العودة إليهم بعد إطلاق سراحها.

وقف الرجل ووقفت المرأة على الفور.

قالت وهى تشير إلى المرأة البيضاء متوعدة: "أيتها الحيزبونة! أيتها الحيزبونة الشريرة! لقد قتلت أخانا. ستموتين هنا وتتعفنين فى جهنم. ستدفعين ثمن ذلك، اللهم إلا إذا كان لى اسما غير دابو Dayo. حيزبونة. حيزبونة كئيبة!".

تقوقعت سوزان، اهتزت، وشعرت بالامتنان لذلك الحاجز الوقائى الذى كان يفصلهما عنها. وراحت تحتضن نفسها لتصرف تلك المذمّات عنها.

سمعت نفسها تقول: "هو الذى ضربنى فى البداية. ضربنى بعد أن نام مع الشغالة".

"وماذا بعد؟ يا صاحبة الفم كريه الرائحة! لماذا لم تحزمى أشياءك وتعودى إلى بلدك؟ أيتها الكلبة الأنانية! أيتها المجنونة! سترين".

"ضربنى وشوه طفلى".

"أزن Azen!" هذه هى الكلمة التى كان إيدو يستعملها للدلالة على "حيزبونة"

"جوّ عتينًا".

"قاتلة! امرأة مجنونة!".

أدركت سوزان ببطئ مثل طلوع النهار، أنها ليست مضطرة إلى هذه الزيارة، وراحت تتراجع إلى الخلف، تتراجع مبتعدة عنهما، لتخلف مسافة بينها وبينهما.

عندما قيل لها إن شخصًا ما يود لقاءها، قفز قلبها فرحًا! أما الآن فهو يتمزق إربًا إربًا. هذان الشخصان كانا هما آخر البشر الذين تريد سوزان لبصرها أن يقع عليهما. كانا من أهل إيدو ومن ناسه أيضًا، أعداءها. لم يحدث قط أن قبلاها من قبل. كل ما كان يهمهما أنهما كانا مبهورين بصفتها الأجنبية، وبياضها، وبعلاقتهم الجديدة بامرأة قوقازية. كانا يتمنيان سرقة أشيائها كلها ويطلبان منها السفر إلى إيطاليا بمساعدة منهما. كانا يودان استغلالها دون أن يهتما بها حتى ولو قيد أنملة. وبفضل مساعدتها تمكن ثلاثة من أهل إيدى من السفر فعلاً إلى إيطاليا. واستوطنوا تورينو.

أكثر من ذلك، أنهما لم يريدا إدخال النسب الأجنبى إلى أسرتهما. كان من عادتهما أن يقولا: "هذا لا يصح". كانا يقولان: هناك أشياء كثيرة تمنع هذا النسب. يزاد على ذلك أن من تدخلوا فى الأمر سمموا عقلية الرجل، تزيّدُوا، وأدخلوا فى ذهن الرجل نصائح غير مطلوبة، لعبوا دور السماسرة، وجاءوا بمختلف النساء السوداوات إلى أخيهم. كانت دايو قد قالت بالفعل، عندما أُحضرت فيلو philo لتقوم بدور الدادة لكل من إيريك Eric، وماريا Maria: "هذه واحدة من أقربائنا، إنها ابنة العم الثانية" ابنة العم الثانية هذه اتضح فيما بعد أنها عشيقة لإيدى.

كانت الإهانات شديدة. حيزبونة. قاتلة. بغى بيضاء Ashawo. ستموتين فى السجن. الدور القادم هو دورك. سترين. أيتها العبيطة. أيتها القاتلة. إهانات كثيرة أخرى باللهجة العامية التى لم تفهم معناها. الطريقة التى كانا يوجهان بها كلامهما كانت توحى بأن تلك كانت سبابًا بلا أدنى شك.

استدرات سوزان من تلقاء نفسها، وشقت طريقها إلى الزنزانة (وو١٠). كانت فى كرب كبير. لم يكن الزائر قنصلها. متى سيأتى؟ هل نسيت البعثة كل شيء عنى؟ إلى متى، إلى متى أظل فى هذا السَّعِير؟ وهنا يتحول ذهنها المتألم إلى محاضرة الأدب فى الكلية، مدرسة القديس توماسينو الأكوينى، وإلى جهنم دانتى inferno، وإلى النقش الموجود عند المدخل المؤدى إلى بوابات هاديس hades

والذى يقول: "تخلٍّ عن كل الآمال يا من أوشكت على الدخول.(*) تخلٍّ عن كل الآمال. يا من على وشك الموت. تخلٍّ، تخلٍّ. يائس يا من أنت على وشك الدخول.. يائس.. يائس.. يائس. مرحبًا قيصر! هؤلاء الذين على وشك الموت يُحيُّونك.(**)

عندما وصلت سوزان إلى المنعطف فقط اقتادتها مستشيف أو ماليس، أم أنها كانت إيفلين، السجانة الجديدة (لا تستطيع سوزان القطع بمن منهن التى قامت بذلك) إلى الزنزانة، وهنا تظهر ضابطة أخرى، قامت بتوبيخ الزوار وتأنيبهما وأخرجتهما من منطقة الزيارة إلى خارج السجن.

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة باللغة الإيطالية: Lasciate ogni speranza voi ch'entrat. (المترجم)

(**) وهذه العبارة أيضًا أوردتها المؤلفة باللغة الإيطالية: Salve Cesare, I moritori te salutante. (المترجم)

الفصل العشرون

كان صوت ليندا رونستادت يتهادى قادمًا من بعيد وهى تشدو بواحدة من أغنياتها المسجلة على قرص مكتنز. كانت مارسى تحب الغناء، وكانت تتغنى فى بعض الأحيان بشيء شبيه بأغانى هذه النجمة. ففى هذه المرة كانت مارسى تصغى منتبهة إلى الكلمات. هذه الكلمات لم تفشل قط فى العزف على أوتار قلبها.

ذات يوم، ذهبت أم إلى السجن

لزيارة ابن مخطئ لكنه ثمين.

عبرت للسجان عن مدى حبها له

لم يعنيها ذلك الذى فعله.

أفاقت مارسى من حلم يقظتها على دق جرس الباب بطريقة مفاجئة. كان أول ماجال بخاطرها أنه هنا، لم تكن هى نفسها متأكدة من طارق الباب، لكن المؤكد أنه واحد من الرجال الذين فى حياتها. عندما ذهبت لاستطلاع الطارق، دق جرس هاتف المنزل. وقبل أن تحدد من منهما سترد عليه أولاً، كانت آداما Adama خادمتها المنزلية، قد سارعت للرد على تليفون المنزل. قصدت مارسى إلى الباب. كانت الطارقة هى صديقتها جوى Joy. ابتسمت من خلال قضبان الحديد المركبة لتحاشى السرقة، وراحت تفتح القفل.

أوضحت جوى، وهى تطيل النظر إلى وجه مارسى "أنت تبدين مُحبطة. يبدو أنك تنتظرين رجلاً".

"إنها صفقة كبيرة. آداما، من الذى معك على الهاتف؟".

قالت الزائرة: "إذن، لن أبقى معك كثيرًا". ثم تدخل برقة.

صاحت البنت قائلة لسيدتها: "هذه مكالمة خاصة بى يا مدام".

تبادلت مارسى وجوى النظرات.

"هذا أمر لا يهم يا جوى. جميل أن أراك مرة ثانية".

لم تحضر له عفو أو وعد شرف،

لم تحضر له فضة، أو عظمة أو أسلوبًا

كان ترحيبًا نزل من السماء إلى الأرض

أحلى هدية، ابتسامة أم.

مشت جويس بانرمان Bannerman Joyce على غير هدى وجلست جلسة رشيقة على الكنبة. وراحت تربت على الإسفنج.

تعجبت "هذا جديد! وجميل. واو!"

اكتفت مارسى بالابتسامة. لم يكن لديها ما تقوله. كانت تعلم أن جوى تداعبها.

واصلت جوى كلامها: "لا تقلقى لأنى لن أبقى معك وقتًا طويلاً. حبيبى ينتظرنى أنا أيضًا".

سألتها مارسى بينما كانت فى المطبخ: "أى واحد منهم؟".

"أنت لن تريدين معرفة ذلك. أنا لست أرثودوكسيه، انتبهى".

جاءت مارسى ووضعت إناء فيه ماء ودورق على الطاولة. جوى "غانية الجنسية. كانت تقول للزائر دومًا، إن غسل يديه وإرواء ظمئه هما أول الأعمال المتوقعة من المضيف عندما يرحب بضيفه.

كانت مارسى وجوى قد التقتا فى سجن فريمان فورت. كانت جوى نزيلة فى ذلك السجن. وقد أمضت مدتها التى قدرت بحوالى أربعة أشهر، لأنها كانت تبيع المسكرات فى منطقة من مناطق الشريعة الإسلامية. هذه الأشهر الأربعة بدت وكأنها حياة كاملة أو مدى الحياة.

"بلغنى أنك فى إجازة".

"نعم. لمدة ثلاثين يوم عمل. هذا يعنى أن الإجازة ستكون حوالى خمسة أسابيع أو ما يقرب من ذلك. من الذى أبلغك بهذا؟

"زرت السجن فى عطلة نهاية الأسبوع".

كان ذلك جانبًا من جوانب حياة جوى. لأنها منذ إطلاق سراحها من السجن أحست أن من الواجب عليها زيارة أولئك اللاتى خلفتهن وراءها. كانت تذهب بين الحين والآخر إلى السجن ومعها أنواع من الطعام، والتموينات وأشياء الزينة.

قالت: "أعدمت آمن الأسبوع الماضى. طُلِبَ منى إبلاغك بذلك. وأنها أرسلت لك تحياتها بصفة خاصة قبل اقتيادها لتنفيذ حكم الإعدام فيها. قالت "اشكرن مارسى نيابة عنى".

"يا ملائكة! آمن! هل أنت متأكدة؟"

"هذا هو ما قُلْنه لى. وعلى فكرة، أنا لم ألتقها. وعليه، إلى أين ذهبت؟ هل ذهبت إلى السوق؟"

"أهذا حدث فعلاً؟ لكن..."

"لكن ماذا؟"

انفجرت مارسى فى البكاء وسالت دموعها. المقابلة الشخصية. الجلاد. القائمة. كانت آمن على رأس القائمة. لقد ولّت آمن! وماذا عن العفو؟ قالت: اشكرن مارسى. هل يشكرننى لأنى وضعتها فى أول الطابور؟ لكن ذلك كان هو خيارها. لم يكن ذلك من صنعى. ولولت المشرفة العامة على السجون.

"هل أطلق سراح إحداهن بمناسبة اليوم الأول من شهر أكتوبر؟"

كانت مارسى تعرف أن حدوث أى شيء يعد أمرًا غير محتمل. عفو الأول من أكتوبر يمكن أن يكون فى شهر نوفمبر، أو حتى قبل عيد الميلاد. من المعروف أنه يصادف احتفالات العام الجديد إلى حد أن النزيلات نسين أنه يحدث بمناسبة الاحتفال بالعيد الوطنى، وقالت إنه يجيء على شكل هبة من هبات عيد الميلاد.

"أنا لا أعتقد ذلك. كلهن كن هناك. بل إن نزيلتين جديدتين جاءتا إلى السجن"."قولى، خبرينى".

"إحداهما تدعى كاجارا. وقد جاءت بسبب عملية إجهاض. عملية قتل متعمد على حد قول الشرطة. ومع ذلك فهى تؤكد أن الطفل ولد وهو لا يتحرك. أكد الطبيب كلامها، لكن أحدًا لم يصدقها. لم يستدع الطبيب ليدلى بشهادته. لم يتمكن ضابط الادعاء من الوصول إليه".

"هل حاول ذلك بحق؟ الشرطة يندر أن تستدعى شهودًا. ليس لدى الشرطة الوسائل المطلوبة لاستدعاء الشهود. الشرطة لا تهتم بما سبق أن قلناه".

"متى تعودين إلى العمل؟"

"بضعة اسابيع أو نحو ذلك".

"أليس ذلك وقتًا طويلاً؟".

"ياه! لقد بدأت إجازتى منذ فترة قصيرة جدًا. عطلات نهاية الأسبوع ليست داخلة ضمن الثلاثين يومًا التى هى بالفعل أيام عمل رسمية. على أى حال، أنت لن تعرفى، لأنك لست موظفة مدنية".

"أنا لا أعرف كيف تؤدين عملك هناك، يا مارسى. لابد أن لك قلبًا شُجَاعًا وقويًا".

"إنه عمل أيتها الغبية".

"يجب أن تستقيلي. افتحي البوابات للنساء كي يهربن. ثم اذهبي بعد ذلك واشتغلي في عمل آخر، أعملي بنفسك شيئًا مثمرًا ومفيدًا. بأمانة. الخريجة التي مثلك".

"أأفتح البوابات لهن كي يهربن، وتظنين أني سأبقى حرة طليقة؟ وتقولين أعمل بشيء آخر، ما هو ذلك الشيء الآخر؟

"المال والأعمال، البيع والشراء. تذهبين إلى دبي، أو إلى داكار. وعندها ستجدين عملاً. كل شيء ماعدا. ألست خريجة جامعية؟

صمتت مارسي. هزت رأسها مرات عدة. انتهت آداما من مكالمتها التليفونية الهامسة، وسارت مبتعدة على أطراف أصابعها. استوقفها كلام مارسي.

آداما، كل هؤلاء الناس يتصلون بك. تأكدي من عدم استعمال تليفوني في الرد على مكالماتهم. وعندما تجئ الفاتورة. فسوف تقومين بسدادها. وقد أبلغتك بذلك".

"هم الذين يطلبونني يا مدام. أنا لا أطلبهم".

"تأكدي مما قلته لك، وإلا سوف أستعمل راتبك في سداد الفاتورة".

اندفعت جوي قائلة: "لم تسمحين لخادمتك باستعمال التليفون؟ إنها لم تصل بعد إلى المرحلة التي تظنينها. مجرد خادمة عادية. بأمانة يا مارسي أنت مُرْضية جدًا".

نظرت آداما إلى الزائرة. ومطت شفتيها، ولفت عينيها بطريقة لا يتقنها سوى شغالات البيوت.

ردت عليها الزائرة: "أنظري إلى قدر ما تشائين، يا أداما أم إن اسمك أدامانت Adamant؟"

وقفت البنت تراقب المرأتين. بعد أن أهملتاها بضع دقائق، استدارات أداما واستأنفت مكانها فى المطبخ، حيث كانت تجلس على كرسى مستدير وكانت رجلاها مفرشختين ورأسها مائل إلى الأمام.

كان الناس يقولون دومًا إن مارسى وجوى تشبهان بعضهما. وهذا صحيح. طولهما واحد، وبشرتهما السمراء واحدة، وهما ليستا شقراوتين أو سوداوتين. وجهاهما شبيهان برسمة القلب. وزنهما يكاد يكون واحدًا اللهم باستثناء أن مارسى كان لها عضلات فى حين كانت جوى ممتلئة بعض الشيء.

كانت أداما قد قات لسيدتها عندما زارت جوى المشرفة العامة على السجون بعد إطلاق سراحها من سجن فريمان "هذا مثل ذاك".

"هى صديقتى يا أداما واذهبى وأنجزى العمل المطلوب منك، وتوقفى عن المشاركة فى كلام الكبار".

قالت جوى: "كما ترين! نحن أختان. أعطنى الشيء الذى أريده".

"أنا لم أعرف أيضًا أنك ممن يشاركون فى غشيان المحارم".

"جرامر".

"بوسع الإنسان أن يكون صديقًا ـــ دون أن يكون ـــ ألم تسمعى عن أفلاطون؟"

"طبعًا. أنا كنت فى ليجون Legon، وأنت تعرفين ذلك. الحب الأفلاطونى وكل ذلك هذه المضاربات. كان ذلك الحب فى زمن الإغريق (اليونانيين) القدامى. نحن الآن، أيتها الفتاة، فى العصور الحديثة. كونى واقعية".

"النقاش معك لا طائل من ورائه. وعلى حد قولنا، نعم أنا خريجة جامعية، بحق وحقيقة".

"أنت حدأة كبيرة!".

"هذا كلام طيب! لكنى أقول لك بحق يا جوى أنت لا تدركين معنى أن يكون الإنسان بلا عمل، هل تدركين ذلك؟ هل تعرفين المدة التى انتظرتها حتى أحصل على وظيفة السجانة هذه؟ ثمانى سنوات كاملة، أمضيتها بعد التخرج! ثمانٍ!" كررت مارسى كلامها فاردة أصابعها ما عدا الإبهامين اللذين طوتهما إلى الأمام". يوم يجيء، ويوم يروح، وأنا أتنقل من مكتب إلى آخر، وأنتظر ساعات طوال هذا الموظف أو ذاك، وأنا أرجو، وأتوسل، وأدعو أن أحصل على عمل. كنت أريد أى شيء".

"أنا لا أعرف كيف تنامين وأنت تؤدين هذا العمل. لو كنت فى مكانك لداهمتنى الكوابيس".

هزت رأسها "ثمانى سنوات لأحصل على وظيفة سجانة".

لم تسلم جوى أوتلن قناتها. "خذينى على سبيل المثال. أنا منذ إطلاق سراحى من السجن، بدأت أمارس الشراء والبيع. أنا أذهب إلى كوتونو، وأشترى أشياء من هناك وأجيء بها وأبيعها للناس. نساء كثيرات يمارسن هذا العمل. بعضهن يذهبن إلى دُبى. بوسعك فعل شيء من هذا القبيل. نحن لا يتعين علينا أن نعمل جميعًا فى مكتب واحد. فكرى. جيدًا فيما أقول".

أطالت مارسى النظر فى الفضاء. لقد كانت جزءًا من تلك المقابلة الشخصية المشئومة الخاصة بتعيين جلاد ــ هذا الجلاد المدعو سولى *Sully*، الذى كان يعمل فى مجزر هو الذى وقع عليه الاختيار. خطر ببالها أن الوظيفة عبارة عن جهنم مبنية على تنفيذ أحكام الإعدام. لم تدر أنها كانت تتكلم بصوت مرتفع.

ردت عليها جوى "يقولون إن إطعام النزلاء والنزيلات يكلف الكثير.

"آه يا آمن. آمن. مسكينة يا آمن". ثم تساءلت بعد ذلك بفترة قصيرة "هل هى الوحيدة التى أعدمت؟"

"نعم، هي الوحيدة إلى الآن. جاءت بعض النزيلات من سجن لافيا. يقولون أنه حدث إضراب في السجن وتوقف تنفيذ أحكام الإعدام بصورة مؤقتة. وما أشك فيه هو أنهم عندما يستأنفون تنفيذ الأحكام، هو أن الحكومة ستقوم بتنفيذ أحكام الإعدام كلها دفعة واحدة. الموتى لا يسددون فواتيرهم. لأنهم يولون إلى الأبد".

تركت ابتسامة يمكن أن تتذكرها

لقد ذهبت إلى السماء متحررة من أوجاع القلب

هذه الجدران التي حولك

لا يمكن أن تغيرها،

لأنك كنت طفلها

وستظل طفلها إلى الأبد.

ولولوت مارسي ودموعها تسيل على خديها تعمدًا منها "آه يا آمن".

"لقد أعطتني موديا‌جا رسالة إلى ولدها. ولابد لي من تسليم هذه الرسالة".

قالت مارسي مرة ثانية: "آمن. آمن!"

قالت جوي وهي تواس مارسي: "أنت مندهشة. لكنك تعرفين أنهم في طابور الموت. وهذا الموت يمكن أن يأتي في أي يوم. وعلى حد قول الناس، مئة عام لا تعني العمر كله".

أردفت مارسي: "لجنة مراقبة حقوق الإنسان تعترض على عقوبة الإعدام، على حد ظني... والواقع أن اللجنة سوف تقدم مشروع قرارٍ هذا الأسبوع أو تعقد جلسة استماع عامة".

كان ذلك الاحتجاج في البداية غير ملحوظ، لكنه على الرغم من ذلك كان موجودًا. كان موجودًا بشكل واضح لا تخطئه العين. أحست مارسي براحة يد

جوى فوق ثديها، وأحست بحلمة صدرها تُقرض كما لو كانت وترًا من أوتار الجيتار. ابتعدت عن متناول جوى.

"أرجوك يا جوى".

"لقد فات الأوان. لن يأتى إليك رجلك. لقد حبسته زوجته. دعينى أهيئ لك وقتًا جميلاً".

بدأت مارسى قائلة: "لقد مارسنا ذلك من قبل، يا جوى".

جذبت جوى مارسى فى محاولة منها لإغرائها بدخول غرفة النوم "مارسى أنا امرأة وأنت امرأة. وأنا أعرف عمل ذلك الذى يجعلك تعوين وتتأوهين. تعالى، وأعطينى هذه الفرصة.

"لا، يا جوى، من فضلك. أنا ممن يمارسون العلاقة الجنسية الطبيعية، من فضلك".

"تخيلى ذلك الذى يمكن أن أفعله بنهديك وأنا أداعب ما بين وركيك. ثم أنزل بلسانى إلى الأسفل. وعندها سيتعين على رفع صوت جهاز التليفزيون حتى يطغى على صرخاتك وتأوهاتك. مارسى، ليس هناك رجل يتفوق على فى ذلك".

هزت مارسى رأسها ببطء وهى مصرة على ما تقول: "لا، يا جوى. لا، أشكرك".

"أنا إذا ما داعبت رمانتيك يا مارسى، أعدك بأنك لن تواعدى أحدًا غيرى....".

ضرب جرس الباب. نظرت المرأتان إلى بعضهما وهما مصدومتان. متأخر جدًا! اعتدلت جوى وابتعدت عن مضيفتها.

"لقد جاء رجلك أخيرًا. لا أحد يعرف الكذبة التى كذبها على زوجته".

تنهض جوى استعدادًا للرحيل. اتجهت مارسى إلى الباب ــ نظرت خلسة من خلال الباب ــ ترى، من الطارق؟

انضمت أداما إلى سيدتها عند الباب. ونظرت مارسى خلسة من خلال الباب لتتبين الطارق. لم يكن هناك أحد أمام الباب. وهنا فتحت أداما الباب لتفتش المنطقة التى أمام الباب.

لم تعجل أداما بفتح الباب ــ كانت الأقدام الهاربة تحدث صوتًا فى الظلام ــ كانت على عتبة الباب ورقة مطوية. قبل أن تتلافى المشرفة العامة على السجون، الورقة التى كانت أدها الخادمة، قد عرفت مرسلها بالفعل.

أيتها المومس الرخيصة. ستدفعين ثمن فعلتك!

سألت جوى من المكان الذى تجلس عليه من الكنبة "من هذا؟".

قالت المشرفة العامة على السجون وهى تعطى الرسالة لجوى: "إنه عشيقى السابق.
أنا لا أعرف لماذا لا يتركنى لحالى. لقد بقيت معه سنوات طوال. كانت العملية ضرب، ثم ضرب وقرص كل يوم. "هو يريدك من الخلف".

تعمد مارسى إلى تمزيق الورقة: "لا، شكرًا. يحتمل أن يكون قد أخطأ القصد.

صرخت جوى قائلة "لا تمزقى الورقة، فهى شاهد ودليل".

قالت مارسى وهى تضغط الورقة وتلقى بها على الأرض "إنها زبالة".

"لو أنا فى مكانك لأبلغت الشرطة. وهذا من باب التحسب للمستقبل".

"شرطة؟ جوى! من فضلك".

"هل تخططين لتغيير هذا الأسلوب الحياتى؟ هل تحاولين من جديد إنجاح زولجك؟"

"لا، شكرًا. أنا لا أريد مزيدًا من الزواج، وبخاصة لذلك الهلك هوجن"(*)

"إذن، لِمَ لا تحصلين على الطلاق؟"

"الكنيسة الكاثوليكية لا تعرف الطلاق. يا بنت، هل تعيشين على هذا الكوكب؟" أطالت جوى النظر إلى مارسى. وتعمدت عدم مناقشة المسائل الخاصة بالدين والإيمان مع أناس هى تحرص منهم، نظرًا لأن هذه المسألة من المسائل القابلة للانفجار.

قالت متهمة إياها: "أنت كاثوليكية! إذا كنت تحاولين أن تكونى كاثوليكية، فسوف يقولون لك إنك تفتقرين إلى الأدلة".

"حسن، أنا لا آخذ سر القربان المقدس مأخذ الجد الآن بسبب الذى أنا فيه. لقد تقدمت بطلب الفسخ. الكنيسة فيها محكمة زواج لكل أبرشية من الأبرشيات. قال لى رئيس المحكمة إن الأمر سوف يستغرق سنوات طوالاً لتحرى الأمر، وليس مرجحًا حصولك على الفسخ.

"هل قال لك ذلك؟"

أومأت مارسى برأسها علامة الموافقة. "قضيتنا لا ينطبق عليها مبدأ الفسخ، إنه شيء من قبيل العرقلة. كنا بالغين، واتفقنا، وانعقد الزواج. قال إن عدم إنجاب الأطفال لا يعد سببًا لفسخ الزواج".

"عدم إنجاب الأطفال، سبب من أسباب فسخ الزواج فى إفريقيا".

قال "الزواج صليب يتعين علينا حمله".

"وماذا عن الضرب؟ أهو جزء من الصليب أيضًا؟"

(*) هلك هوجن: بطل من أبطال المصارعة الحرة، وهو أمريكى ولم يحـدث أن هُـزم مطلقًـا. (المترجم)

هزت المشرفة العامة على السجون رأسها "قالت: إنها ليست أول امرأة تضرب ولن تكون آخر امرأة".

"يجب أن تشتكيه إلى الله".

"هذه صفقة كبيرة، قلت له مرارًا أرنى الموضع الذى يضرب فيه جو Joe ماريا فى الإنجيل".

"واقع الأمر يا أختى، أننا طردنا من جنات عدن إلى الجشمانية(*). الجنة لم تعد موجودة بعد فى أى مكان". وأردفت مارسى قائلة: "قلت للقسيس إن كنيستنا يتعين عليها إعادة النظر فى موقفها من الزواج، والطلاق، وفى الأمور كلها".

"أيتها البنت، اذهبى وأعيدى قراءة تاريخك. الكنيسة لم تفعل ذلك حتى لملك من الملوك. هل ستظنين أنها ستفعل ذلك من أجل سجانة فى السجن؟".

"لا يزال الأمر هشا وركيكًا. وهذا هو السبب وراء إفلات المؤمنين كما لو كان الشيطان يطاردهم. يجب أن نتغير مع الزمن".

"قد تحتاجين إلى مجلس فاتيكانى ثالث لإنهاء هذا الأمر".

"أنا أقصد أن تنظرى إلى موقفه من الإجهاض. من الذى يطيع؟ الواقع أن الجميع متورطون فى التخطيط الأسرى بصورة أو أخرى. باستثنائنا نحن الذين لا ننظر فى هذه المسألة. بلا أطفال لكن ليست عزباء".

"ربما كان جون بولس الأول هو الذى كان يمكن أن يُحَدِّث الكنيسة، لكن المنية لم تمهله حتى يفعل ذلك. نحن الآن فى ورطة. كان هناك قيصر! متى يأتى قيصر آخر؟"

" أنا أقصد أنه جلدنى. هل كان مفروضًا على البقاء إلى أن أُقتل؟"

(*) الجشمانية عند النصارى هى الحديقة التى اعتقل فيها المسيح خارج القدس، والمعنى المجازى هنا هو "منطقة العذاب". (المترجم)

"امرأة أخرى بقيت وقُتِلتْ. أظن على ما أذكر أنها قتلت على الصليب؟ وهو لم يهرب. تخيلى لقد هرب، لم يصمد إلى النهاية؟"

"أيتها القديسة جوى، اذهبى وعيشى مع ماكسويل. أنا أعطيك مهلة أسبوعًا واحدًا على أكثر تقدير، وبعده سوف تندفعين صارخة، وعاجزة عن الحركة وعمياء أيضًا".

"هذا كلام جاد، على الرغم من اتفاقى معك على أن الكنيسة يتعين عليها إعادة النظر فى قوانين الزواج. هناك الكثير من الزيجات التعيسة والأسر المحطمة. والكاثوليكى معرض للخطأ مثل أى إنسان آخر. وينبغى أن يسمح له بالمضى قدمًا بدلاً من أثقال كاهلة بهذا الخطأ".

"الكنيسة لا تخطئ. إنها معصومة من الخطأ. وإن المسيح نفسه هو الذى قال إن الزواج لا يُفْسَخُ مطلقًا. انتبهى". أردفت المشرفة العامة على السجون قائلة:

"الناس يتزوجون لأسباب كثيرة، السواد الأعظم منها أسباب خاطئة".

سألتها جوى: "هل احببتِ ماكسويل؟ وهل واعدته غراميًا؟"

"لمدة ثلاث سنوات. يوم أن كنا طلبة لم نتخرج بعد.."

"ألم يكن عنيفًا طوال هذه الفترة؟".

"التقانى ذات مرة وأنا أتحدث إلى زميل لنا فى دراسة المقرر. وأعقب ذلك نقاش بيننا. صفعنى صفعة شديدة، أفضت إلى تمزيق طبلتى أُذَنىَّ. وتعين على الذهاب إلى الطبيب".

"تلك كانت إشارة واضحة إلى أنه سيكون جلادًا من جلادى الزوجات. كان يجب عليك التخلى عنه عند هذا الحد، وأن تريه ظهرك على الفور".

"فى ذلك الوقت كان قد مضى علينا عامان. هذا يعنى أن الوقت كان يمضى سريعًا.

لم يكن أمامى سوى عام واحد، التحقق بعده بالجامعة. كنت يائسة.

"هل حدث إجهاض خلال فترة الحب؟".

ردت مارسى، وهى لا تعرف مقصد جوى: "لم يحدث شيئًا من هذا القبيل". ثم نظرت إلى ضيفتها. ثم فهمت بعد ذلك قصدها.

تعجبت جوى: "آه من النساء! يجب أن نتكلم كيف نقرأ ما هو مكتوب على الجدران. ضربه لك يعنى أنه سيكون من الأزواج الذين يجلدون زوجاتهم. كونك لم تحملى منه فذلك يعنى أنه عقيم. على أى حال، تعالى إلى بمناسبة عيد الخمسين، وسوف نناقش موقفك".

ابتسمت مارسى: "فهمت. لقد ولدت كاثوليكية، يا جوى". وأردفت بصورة قاطعة: "أكثر من ذلك أنى أصلى وأدعو أن أموت كاثوليكية".

ردت عليها جوى "أنا أعرف ملِّتك. أنت متحفظة وصلبية الرأى. أنت تظنين أن مجرد كونك كاثوليكية سيدخلك الجنة. أنت مخطئة فى ذلك. ستندهشين فى ذلك اليوم".

ردت عليها مارسى قائلة: "وأنا أعرف ملتك. أنت من الباحثين عن المعجزات. إلهى ليس إلهًا فقيرًا؛ الإله الذى ولد فى معلَف الأبقار من أب نجار وربة منزل لا يعد إلهًا فقيرًا. أنتم تجرون من عمود إلى عمود، وأنا لا أعرف ذلك الذى تبحثون عنه".

بدأت جوى من جديد: "أنا أبحث عن الرب وأبتغيه. انتبهى، لقد كنت كاثوليكية فى يوم من الأيام...".

قاطعتها مارسى: "إذا ما أصبح الإنسان كاثوليكيًا، فلابد أن يظل كذلك. وبغير ذلك لن تكونى كاثوليكية فى المقام الأول".

"الكنيسة الكاثوليكية كانت ولا تزال شديدة التعصب، وشديدة البلى، وشديدة المحافظة، وفقدت الاتصال بالواقع".

"أنا هذا الذى تقولينه". لم تكن مارسى هى التى قالت ذلك. إذا لم تجدى الإله، أخبريه وجربيه فى كنيسة بطرس، وأنا أشك فى أنك ستجدينه فى كنيسة الأخ فيمى أو فى أى مكان آخر".

"ماذا تعنين بما تقولينه الآن؟ أنكم وحدكم الذين لديكم الإجابات؟".

"أعنى إنك إما أن تكون عمياء، أو أنك لا تعرفين ذلك الذى تبحثين عنه".

"أنتم ترتكبون الفظائع وتسارعون إلى الاعتراف. الأمر لا يمكن أن يكون بهذه السهولة يا حبيبتى".

"الخطايا التى تصفحون عنها، تصبح فى عرف الخطايا المغفورة؛ والخطايا التى تحتفظون بها، تظل فى عرف الخطايا الباقية". لم تكن مارسى أيضًا هى التى قالت هذا الكلام أيضًا. أيتها الفتاة اذهبى لحال سبيلك وأعيدى قراءة الإنجيل".

لانت قناة جوى: "وهو كذلك، دعينا ننهى هذا النقاش. أنا لا أعرف السبب الذى دفعنى إلى الدخول فى هذا النقاش فى المقام الأول. أنا من عادتى أن لا أناقش مسألة الدين مطلقًا. لا أحد يرتد عن دينه بعد أية محاورة من المحاورات الدينية، لكن يكفى ما قلناه!" ربتت مارسى على يد صديقتها التى كانت موضوعة على الكرسى. هذا إشارة إلى الهدنة. وراحتا تستمعان فى صمت إلى الموسيقى، وهما تسمحان لمزاجيهما أن يعودا إلى حالتهما الطبيعية.

لم تحضر له عفوًا أو وعد شرف،

لم تحضر له فضة، أو عظمة، أو أسلوبًا

تساءلت جوى وهى مأسورة "من الذى يغنى؟".

أجابتها مارسى: "إنها لندا رونستادت. أنا أحبها". لوّحت بيدها، وكأنها تقود المغنية بعصاها السحرية. "تينا تيرند هى ولندا رونستادت ــ ليس هناك من يتفوق عليهما".

قالت جوى: "أضيفى إليهما جوآن Joan، جوآن آرماتريدنج Armatrading، وأنا أعيدها".

بقيتا صامتتين لحظة، إذ راحت كل منهما تستعيد أفكارها الشخصية. قطعت مارسى حلم اليقظة هذا.

"تقولين إن هناك نزيلة جديدة؟"

"نعم. يوفيوما أو شيء من هذا القبيل".

"ما جريمتها؟".

"تخريب خط الأنابيب".

قالت مارسى: "هذا جرم لا تنطبق عليه مسألة الكفالة المالية".

سألتها جوى وهى تكشر عن أنيابها "هل تعرفين سبب تفجيرهم للأنابيب؟".

لم تنتظر إلى أن ترد عليها مارسى "لأن الحكومة تقول لهم بصورة مستمرة إن كل فائدة من الفوائد موجودة فى خط الأنابيب: التعليم المجانى؟ التى تشغل الحكومة نفسها به، موجود فى خط الأنابيب، الصحة للجميع، الإسكان المجانى. كل ذلك فى خط الأنابيب. وعليه فجَّر الناس خط الأنابيب لكى يحصلوا على هذه الأشياء".

"هذا تخريب، هذا الجرم لا يخضع لمبدأ الضمان المالى. سيجرى توقيفها، وستنضم إلى من ينتظرون المحاكمة. ستنتظر إلى الأبد".

"أنا لا أعتقد أن هؤلاء الناس مذنبون بتهمة الحرق العمد أو التخريب، يا مارسى. لم يكن لديهم قصد سيء فيما قاموا به. كل ما كانوا يفعلونه هو البحث عن خبزهم اليومى".

كررت المشرفة العامة الاسم قائلة: "يوفيوما. لابد أنها من دلتا نهر النيجر ــ السواد الأعظم من الناس فى هذه المنطقة مستاءون من الحكومة ومن شركات البترول. هذا يعنى أن التخريب لن ينتهى أبدًا".

"أقول لك إن الناس يبحثون عن خبزهم اليومى. إنهم جوعانون ومرضى على النحو الذى يتعذر معه عليهم فهم سياسة البترول والبيئة".

"أفهم ما تقولين".

"أنا أقصد بكلامى أن المياه ملوثة، والمزارع مدمرة، هذا يعنى أن مصادر عيش هؤلاء الناس خربة ومدمرة، ناهيك عن الحرارة المنبعثة بصورة مستمرة من عملية حرق الغاز. أنا أعنى....".

"قولى هذا الكلام للشرطة يا جوى. مارسى ليست سوى سجانة فى سجن من السجون. هذا يعنى أنى أُسكّن المذنبين. أنا لا ألقى القبض أو أقيم ادعاء، أو أصدر أحكاما. مارسى ليست سوى راعية لوكاندة من اللوكاندات".

ناقشت جويس ومارسى كثيرًا من المسائل، بدءا من السياسة ومرورا بالموضة وانتهاء بالأسرة. وفى كل الأحوال كانتا تنتهيان إلى المنظومة القانونية، إلى عمل مارسى، إلى الموضوع المشتعل فى هذه الأيام، أمينة لاوال، فتاة مسلمة مطلقة وضعت حملها. كانت المحكمة تحاكمها بتهمة الزنا. وجزاء هذه التهمة هو الموت رميًا بالحجارة، أو إن شئت فقل الرجم بالحجارة التى توضع على رأسها مثل سيف ديموقليس.

تساءلت جوى يائسة: "إلى أين يتجه البلد؟ يدين الجنس الذى يحدث بموافقة الطرفين البالغين".

سألتها مارسى: "هل كانا اثنين؟" وهى تتظاهر بالجهل.

"آخر ما وصلنى أن أمينة فقط هى التى تجرى مقاضاتها وإقامة الادعاء عليها. هل كان الرجل طرفًا فى هذه القضية؟".

"هذه القضية تدخل الاثنان فيها يشبه رقصة التانجو".

بقيت مارسى صامتة، تفكر تفكيرًا عميقًا، ولذلك واصلت جوى كلامها: "هذا يبين لك مدى ظلم المجتمع، الذى يقاضى المرأة فقط فيما يسمى جريمة جرى ارتكابها مع ذكر. هذه هى حياة النساء عندك؛ مغلوبات على أمرهن، ذليلات، هن اللائى يعانين بسبب خطيئة الجنس البشرى. خلاصة القول، إنها الشهادة".

"الشيء الذى يؤلمنى أشد الإيلام، هى قضية المعتوهات المدنيات فى سجوننا. جوى، هل تعرفين أن العائلات تتقدم إلى المحاكم بطلب تصريح لحبس أقاربهم من أصحاب الأمراض العقلية؟".

"نعم. مثل اليكبروتو Elekprutu".

"بالضبط. اليكبروتو لم تفعل شيئًا ــ لا شيء على الإطلاق ــ ذات يوم وأثناء تناولها الغذاء مع زوجها، نهضت واستأذنت لقيامها من على الطعام. وبعد ذلك بساعات وجدوها عند مفترق الطرق، كاشفة عن صدرها ويحيط بها جمع من الناس، وهى تقول لهم "أحضروا الغائط، واتركونى آكله".

قالت جوى "لابد أن لذلك امتداد فى الأسرة. هذا أمر غير عادى".

"أيا كان الأمر، إنها لم ترتكب جريمة، وينبغى أن لا تكون فى سجن فريمان فورت. المفروض أن تكون فى مستشفى الأمراض النفسية، وليس السجن".

"السجن مجانى، والعلاج النفسى مكلف. يزاد على ذلك، الإنسان لا يمكن أن يقطع بنجاح العلاج. يزاد على ذلك أن الأسرة يطالها شيء من العار والخزى".

قالت مارسى: "هذا ظلم كبير. ظلم كبير، بكل أمانة".

هزتا رأسيهما حزنًا "واليكبروتو واحدة من بين كثيرات. نحن لدينا فى جناح النساء ثمانية من هذا القبيل، نساء يعانين من اضطراب نفسى، موضوعات فى السجن بإيعاز من أسرهن. لم يرتكبن أية جريمة من الجرائم. مجموعة من الناس فقدت توازنها و، و... هذا الذى يجرى فى المجتمع لا يصدقه عقل".

بقيتا تتكلمان إلى منتصف الليل. وبعد تناول تصبيرة متأخرة غادرت جوى منزل مارسى قاصدةِ مسكنها فى الجانب الآخر من البلدة. كانت تود أن تقضى الليلة مع صديقتها، لكن مارُسى لم تعرض عليها ذلك.

* * *

ذات مساء

"يا سوزان، لك زيارة".

زادت ضربات قلبها. نظرت إلى السجانة. ثم صمتت "لا، لن يحدث ذلك مرة ثانية".

"هل الزائر من السفارة؟".

نظرت ماليس شذرًا إلى النزيلة وقالت: "أنا لا أعرف".

"أرجوك أعلمينى، هل الزائر من السفارة أم هو واحد من أقارب، أو أنسباء زوجى؟".

"هل أنت شرطية؟ لماذا كل هذه الاستجوابات؟ إذا كنت تودين، هيا، تعالى، وإذا كنت لا تريدين فأنا أقول لك، إلى اللقاء". استدارت السجانة وهى متجهمة الوجه.

قالت أنتلى للسجانة: "أنت تشبهين امرأة أنا أعرفها، اسمها سيربرس Cerberus". ورلحت تضحك لوحدها، ثم راحت تنظر إلى كيس الأسمنت كاكى اللون.

وقفت سوزان فى مكانها، وهى لا تعرف ماذا تفعل. لفت يديها على صدرها ووقفت بـــلا حراك. كانت تخشى لسان دايو الذى يشبه لسان العقرب. كانت دايو

قد توعدت بالعودة والتعامل مع المرأة البيضاء. "ماذا لو قامت بإلقاء حامض علي؟ هذا ليس مستكثرًا على دايو. لكن ماذا لو كان الزائر هو القنصل الإيصالي الذى جاء ليأخذنى إلى الوطن؟ ما الذى منعه طوال هذه المدة؟ لم يجئ طوال هذه الشهور والسنوات. هل يعنى ذلك أنه جاء الآن؟ هل ليس أمرًا محتملاً. ربما كانت السفارة لا تعرف كيف تتصرف فى مثل هذا الأمر، ولا كيف تساعدنى. وعليه بدلاً من أن يقولوا ذلك لى بطريقة مباشرة، فهم يبتعدون عن الموضوع. لكن القسيس قال إن هناك تغيير للحرس فى البعثة، وأن السيد/ كونتى حل محل السيد/ استفانو ــ ربما يكون الرجل الجديد قد استقر الآن ويود فتح قضيتى. لكن هل يمكن أن لا يخطرنى قبل المجيء أليس؟ ألى من المفروض أن يخطر سلطات السجن بذلك؟ وهل يمكن أن يأتى إلى بهذه الصورة الماجئة؟" دارت كل هذه الأفكار فى رأسها وهى واقفة، غير متأكدة ومترددة فى ذات الوقت.

لا يمكن أن يكون هو القنصل. فى كل الأحوال، كان ذلك الزائر واحدًا من أهل أو أنسباء زوجها، جاء بغية الانتقال لقتل أخيهم. قررت سوزان، وهى تدخل إلى سريرها "لن أذهب للقاء ذلك الزائر". سترشنى دايو بالحامض بغية تشويهى. لن أذهب.

كان القنصل السيد/ كونتى الجالس فى غرفة الانتظار، يقطعها جيئة وذهابًا ــ كان ينظر إلى ساعته بين الحين والآخر، ثم يستأنف المسير من جديد، لقد استغرقت السيدة/ سوزانا وقتًا طويلاً ولم تحضر بعد لحضور تلك المقابلة الشخصية. كان يتمنى لو أنها لم تنقل من السجن الذى كانت فيه. ولو حدث ذلك فسوف تبلغ سلطات السجون البعثة الدبلوماسية بذلك عن طريق وزارة الخارجية. هذا هو ما يحدث من الناحية النظرية. أما الحاصل فعلاً فهو، أن كل شيء يمكن أن يحدث فى هذه البلدان غير المتحضرة من دول العالم الثالث. أم أنها جرى إعدامها بالفعل؟ لتذهب هذه الفكرة إلى الجحيم! فقد سبق له أن سمع عن استئناف عملية الإعدام، ثم توقف التنفيذ بعد ذلك.

وقفت سوزان عند البوابات الحديدية تطيل النظر إلى الفضاء. "أذهب أو لا أذهب، هذا هو السؤال". قالت بيا Bea وهى جالسة فى سريرها؛ بينما كانت ماليس واقفة بالقرب منها. وكانت تغمغم بأغنية لا لحن لها. رجتها سوزان وتوسلت إليها أن تكشف لها عن شخصية الزائر، لكن السجانة تجاهلت هذا التوسل والرجاء.

نصحتها بعض النزيلات "اذهبى!"؛ اذهبى لترى بنفسك. وإذا ما وجدت أنها دايو استديرى وعودى مرة ثانية".

"سترشنى بالحامض. قالت هذا الكلام فى المرة الماضية".

قالت لها نزيلة أخرى "قد يكون الزائر هو رجل السفارة. قد يكون تسلم رسالتك. اذهبى لترى بنفسك".

قالت سوزان وهى على وشك أن تصرخ: "لا. القنصل لا يمكن أن يجيء بدون سابق إنذار". كانت عيناها ترجوان السجانة، التى أشاحت بنظرها بعيدًا غير مكترثة بتلك النظرات.

رجت إيا السجانة: "قولى لها من الزائر يا ماليس. استدارت السجانة فجأة ناحية صاحبة الأرداف الكبيرة انفجرت قائلة:

"أمك هى التى اسمها ماليس! يا جمل!"

تراجعت النزيلة. يا لهذه الوحشية"!

تقدمت انتلى إلى الأمام وهى تمسك فى يدها نوتة الملاحظات "عفوًا يا آنسة آليس، عفوًا".

"غضب الله على كل من تتلفظ باسمى هناك".

كانت النزيلات يصحن فى ذلك الوقت. كل واحدة منهن كانت تتكلم فى الوقت نفسه.

قال البعض منهن "اذهبى!".

حذرها بعض آخر "لا تذهبى!".

مشت البنت البيضاء سالكة طريقها إلى حيث يوجد سريرها. كانت تشبه البالون المفرغ من الهواء. وكان إصبعها يداعب الميدالية التى كانت تطوق عنقها.

قررت "لن أذهب!" لأنها سوف تشوهنى".

مرت عشرون دقيقة وهو جالس على الكرسى، يطيل النظر إلى فناء السجن. لقد ذكَّره ذلك السجن بأنقاض بومباى. صحيح أنه لم ير السجن بالكامل، لكن ذلك القليل الذى رآه أماته حزنًا، كان الرجل يقرأ دومًا عن حال البنية الأساسية المؤسف فى هذا البلد المضيف. لم يخطر بباله مطلقًا أنه شاهد هذا العفن فى أى مكان من قبل. لو كانت هذه الخرائب فى إيطاليا لكانت قد أغفلت منذ عقود، وأصبحت فى ذمة التاريخ. هذا السجن لم يكن يصلح حتى لإقامة كلبة برونو فيه. سوف يبذل قصارى جهده من أجل إخراج مواطنته التعيسة من هذا المكان الشبيه بعرين الحيوانات. ومن يمن الطالع أن الاتفاقية الثنائية جرى التوقيع عليها بالفعل. كل ما يتبقى لها هو إقرار الجانبين لها. لقد أرسل مذكرة إلى وزارة الخارجية يذكرها بالحاجة الماسة إلى إقرار هذه الاتفاقية. المسألة أصبحت تعتمد على الجمعية الوطنية، وإعادة الصورة التى جرى التوقيع عليها. لكن هل سيجلس الأعضاء الأشراف ويشرِّعون؟ لا! بدلاً من ذلك، كانوا مشغولين بتحديد أجورهم ومرتباتهم وهامش أرباحهم، وكيف يسافرون إلى خارج البلاد فى جولات دراسية عاجلة. نظر القنصل إلى ساعته. مضت أربعون دقيقة. ورأى السجانة مقبلة عليه.

"ماذا يحدث؟ أربعون دقيقة. هل السيدة/ نابوليتانو قادمة أم لا؟".

أجابته الضابطة "هى لن تأتى. تعال إليها مرة ثانية".

راح السيد/ كونتى يجمع أوراقه ببطيء. هل حدث شيء ما لمواطنته؟ المرء لا يستطيع استيضاح أمر من هذا القبيل مع هذا النوع من البشر. سوف يبلغ ذلك للسفير، وربمـــا يطلـــب التدخل عن طريق وزارة الخارجية. واقع الأمر، أنه كان لا ينبغى له المجيء قبل الحصول على إذن وتصريح بذلك من الوزارة المضيفة. لكن زميله السابق كان قد أبلغه أنه مسألة تخطى الدبلوماسية لوزارة الخارجية فى الدولة المضيفة، فيما يتعلق بتعامل البعثات. مع الحكومة، تعد أمرًا شائعًا، وعليه حذا السيد/ كونتى حذو زميله السابق. لكنه سيراعى ذلك فى المرة القادمة.

نظرت السجانة حولها نظرة توحى بالتآمر. راقبت الرجل الأبيض وهو يلملم أوراقه التى كان قد فردها على المقعد.

همست السجانة قائلة: "هناك عفو عن السجينات فى أول أكتوبر. إذا أعطيتنى دولارات فسوف ادرج أسم سوزانا ضمن المعفو عنهن".

كانت تنظر إلى الأمام مباشرة ــ لم تتحرك شفتاها ــ نهض القنصل واقفًا.

قال للضابطة وهو يمط شفتيه المبقعتين بفعل الدخان ــ راح يفتش الجيب الداخلى فى الجاكت ــ وعندما أخرج يده، على العكس مما كانت تتوقعه السجانة، كانت تحمل بطاقة معلومات: "أرجو ألا يكون لديك ما يمنعك من إعطاء بطاقة معلوماتى للسيدة/ سوزان". وغمغم بصوت خافت قائلاً: "فى المرة القادمة سوف أحضر معى دولارات".

الفصل الحادى والعشرون

وقف الشريف يعقوب أمام مدخل منزله وراح يتحسس جيوبه بحثًا عن هاتفه المحمول. غريب أن لا يدق جرس التليفون طوال الساعات الأخيرة القليلة. كان من عادة هذا الهاتف عدم التوقف عن دق الجرس اللهم إلا إذا أقفله الشريف يعقوب أو حوّله على الوضع الصامت الذى لا يصدر عند دق الجرس. وهو لا ينكر أنه فعل ذلك اليوم. بعد أن فُتح الباب ووقفت زوجته أمامه وقد عقّدت جبينها، خطر بباله أن المحظور قد وقع ـــ لقد نَسِيت هاتفى فى المنزل وقامت بتقليبه ومعرفة ما فيه. لابد أنها تصفحت سجل العناوين، أو أنها ردت على المكالمات نيابة عنى فى أسوأ الأحوال.

أخشى ما كان يخشاه الشريف فى حياته هما أمران. الأمر الأول هو الفراشة، أما الأمر الثانى فهو زوجته وبخاصة وهى فى وضع الاستعداد للقتال كما هو حالها الآن. لقد صادف واحدة من أسماك البرعان المتوحشة، ولذلك وقف بلا حراك وكأنه سيارة أزيلت عنها عجلاتها الأربعة. تزايدت ضربات قلب الرجل وركز هو الآخر مصابيحه على الحشرة. سمك البرعان المتوحش يخيفه حتى ولو كان ذلك السمك ميتا ـــ كان، فى بعض الأحيان، يتعثر فى واحدة من تلك الأسماك عندما تكون منقلبة على ظهرها، وأرجلها ترتعد من فوق جسمها. وعندها كان ينادى على الخادمة ويطلب منها قتل ذلك البرعان والتخلص منه. آخر عهد له بذلك البرعان كان فى حوض الاستحمام، وكان قد صاح مناديًا الشغالة تينو Tinu. من يمن الطالع، أن زوجته كانت قد تدخلت فى الأمر، وهى تنظر إليه شذرًا وغيظًا. إذ كان عاريًا تمامًا أولاً وقبل كل شيء.

كان الرجل يخاف زوجته ويخشاها أيضًا. فقد كان البيت يهتز ويرتبك كلما تملكتها نوبة من نوبات الغضب. كان صوتها يدوى فى أركان المنزل كلها، وعندها

يتحول هو إلى تلميذ مطيع أمام ناظر مدرسته، ويرتعد كما لو كان ورقة شجر فى مهب ريح السموم (الهرمتان). كان يرجوها أن تخفض من صوتها، حفاظًا على كرامته أمام جيرانه. لم يخطر بباله أن الجيران أصبحوا معتادين على هذا الوضع ولم يعودوا يعيرونه اهتمامًا.

وبحذر بالغ، تقدم وهو يقيس ويقدر اقصر مسافة بينه وبين غرف النوم. كان الرجل يحس منذ بداية علاقته الغرامية مع مارسى، أنه يلعب بالنار. لو علمت زوجته بما يجرى فسوف يكون هو غائطًا يغلي(*). ومع ذلك كانت المتعة والإثارة التى يحس بها ما مارسى تتملكه وتسيطر عليه. كان يحرص دومًا على محو آثار أقدامه حتى لا يكون لدى زوجته أى دليل على ما يفعله. لقد نجح إلى الآن فيما يفعله على الرغم من أنه يعرف أنها لديها بعض الشكوك فى أن له علاقة ما. كل زوجة تشك فى زوجها، على حد قول البعض فى النادى. وطالما أنه ليس هناك دليل، فالسقف لم ينهر بعد. الآن، وعندما كان فى عجلة من أمره، كى يترك المنزل وبيئته، نسى هاتفه المحمول، تلك الآلة الصغيرة التى تحتوى على أشد المعلومات ضررًا، والتى يمكن أن تؤدى إلى تعليق الرجل فى حبل المشنقة.

زأرت زوجته قائلة: "أين كنت؟" كان وزنها الثقيل يقفل الممر "أين كنت؟" وراحت تحملق فى عينيه، لكنه كان يتحاشى نظراتها، مما يعنى أنه كان يحس بالذنب. كانت تعلم أنه عاجز جنسيًا. لم تكن راضية عن ذلك لكنه يعنى أن الرجل لم يمش على حل شعره. ولما كان (الله) قد أنعم عليها بثلاثة أطفال، فقد بدأت تحس أن الجنس يمكن الاستغناء عنه وأن تعيش حياة مستقرة تحت سقف واحد مع زوجها. وعليه أعطت الرجل الحرية والأمن ظنًا منها أن حياتها الزوجية فى مأمن. كان عجزه الجنسي يحميها من مجسات سيدات المجتمع المشرعة للقتل. تلكم السيدات، العزباوات، والمتزوجات مرات عدة، اللاتى لا يهمهن إن كان الرجل متزوجًا أو غير متزوج. هن يردن قطعة من هذا الرجل.

(*) هذا تعبير أمريكى نابٍ معناه "فى وضع لا يحسد عليه". (المترجم)

لكنها أخيرًا، أخيرًا لم تعد تضمنه أو تطمئن إليه. كان لديها مبرر يدعوها للتساؤل عما إذا كان الحال قد تغير. ترى هل شفى من مشكلته؟ هل عرض نفسه على الطبيب؟ هل تلقى دواء لعلاج حالته؟ لو صح ذلك، ألا يحتم ذلك على أن أكون يقظة؟ ألا يحتم على ذلك الاستفادة منه؟ هو لم يضاجعها منذ سنوات. وبفرض أن شُفى مما كان فيه وأصبح يمتع نفسه خارج منزله؟ طوال تلك الليالى الطويلة التى يتأخر فيها أثناء الليل، تلك الاجتماعات الكثيرة التى يعقدها الحزب، هذه اللجنة الحزبية، وتلك اللجنة الحزبية، بفرض أن ذلك كان من قبيل التلفيق.

كانت تتحرق شوقًا إلى تلامس جسميهما، تعرى لحمهما، وحميمية الزواج. كانت تود مرات لا تحصى ولا تعد أن تسأله عن حاله الصحى، لكنها لم تكن تعرف الطريقة التى تصوغ بها السؤال دون أن تسبب له شيئًا من الألم. ماذا لو كان لم يشف مما كان فيه؟ سيحس بالأذى والألم عندما يتذكر سره، ذلك السر الذى لا يعرفه أحد سواهما. كان الناس شديدى الحساسية عن نقائصهم وعيوبهم فى هذا الجزء من البلد.

كانا ينامان فى غرفتى نوم مستقلتين. كانا دائمًا يناما فى غرفتين مستقلتين. لم يكن الرجل يطيق، على حد قوله، الأشياء النسائية؛ العطور، والدهانات المختلفة، أو الملابس الداخلية المرسوم عليها مكحلة مفتوحة تحملق فى الناظر إليها، أو الملابس والأحذية و... وحتى أنواع الطعام. كان من عادتها إخفاء كراتين الكوكاكولا فى دولاب ملابسها عندما بدأ الأبناء يكبرون. كان فى الدولاب أيضًا سكر مجروش وبعض الأشياء الأخرى التى تثيره رائحتها. هذه الروائح تجذب أيضًا الفراش، على حد قوله. وعلى الرغم من وجود باب يصل بين الغرفتين، فإنه لم يفِ بالغرض الذى صنع من أجله. كان الباب مجرد نافذة يطلب من خلالها ملابسه المنشّاة وجواربه المرتوقة. هذا هو كل ما فى الأمر. كان يستلقى على السرير وبعدها بلحظات تتردد أصداء شخيره فى كل أنحاء المنزل، فى الوقت الذى تكون هى فيه مستيقظة فى غرفتها جوعانة، ومحتاجة ومشتاقة إليه. لم يعرض حتى استعمال أصابعه، فى حين بلغت هى من الخجل والكسوف حدًا يجعلها عاجزة عن طلب ذلك.

ذات مرة، وعندما كانا يستعدان للنوم، استجمعت شجاعتها وسألته عن الشيء. وأفلتت منها العبارة "لقد أخبرتني كاري إن هناك علاجًا، الفياجرا". كادي هذه كانت أفضل صديقاتها ومتزوجة من رجل أعمال في مدينتهم. قالت: "إن الفياجرا يمكن استعمالها في الموقف الذي نحن عليه".

اندهش الرجل. تقوقع. وتعقد جبينه في تكشيرة تنم عن الغضب. كان الرجل على وشك إخراج إحدى رجليه من البنطال. وقف في منتصف الطريق.

"كيف كادي....؟".

"كنا نتحدث بشكل عام. ولم آت على ذكر حالنا".

نظر إليها نظرة تفحص وإمعان، تهدد بالشر، ومليئة بالكراهية. هل أفشت زوجته سره إلى صديقتها؟ لو حدث ذلك، فلن يصبح الأمر سرًا. سوف تفشي كادي ذلك السر إلى صديقة أخرى تقوم هي الأخرى بتبليغه إلى غيرها. وربما كان ذلك في تلك اللحظة موضوع الحوار في كثير من بيوت أصدقائها.

غمغم قائلاً: "أظن أننا اعتدنا على مشكلتي الصحية. لكن يبدو أنك تشتاقين إليه. إذا كنت راغبة في ذلك، بوسعك...".

"لا، لا شيء من هذا القبيل. أنا لا أود أن أفارقك. (خطر ببال الشريف، ليتك كذلك). كل ما أريده هو أن نحاول علاج الحال الذي نحن عليه، أقصد أن يكون ذلك عن طريق الطب".

كانت تشتهي ذلك الشيء! لم تكن مخبولة، لكنهما منذ ما يزيد على عامين الآن، لم يَحْيَيَا حياة زوج وزوجة بالمعنى الحقيقي لهذا المصطلح. كانت حياتها مثل الفندق، وهي راعية اللوكاندة، في حين كان هو يمثل دور النزيل، أو الضيف. تقديم وجبات في أوقات محددة، تدبير شئون المنزل، الحصول على النقود. لم تكن بينهما حميمية من أي نوع كان. لقد أمسكت بنفسها متلبسة وهي تنظر إلى الذكور

العاملين فى المنزل باشتياق شديد. كان السائق قوى البنية وصاحب عضلات، وكانت تقول فيما بينها وبين نفسها "حاشا لله" Allah ki yaye!

اليوم وفى هذه اللحظة، كان الشريف يعقوب قد نسى هاتفه المحمول فى المنزل. عندما دق جرس التليفون أول مرة، حاورت نفسها هل ترد، أو تعطى الطالب فرصة ترك رسالة فى نهاية المطاف، طبقًا لبرمجة الهاتف. وتغلب عليها فضولها وردت على الهاتف. صحيح أن كثيرًا من الطالبين كانوا من المسئولين، لكن كانت هناك مكالمة نسائية واحدة. ودون انتظار للرد سمعت صوتًا أنثويًا يقول فى أذنها: "حبيبى".

قالت الطالبة: "لا تجعلنى انتظرك طويلاً يا حبيبى".

ردت الزوجة صارخة صراخًا عدائيًا فى الهاتف "من أنت؟"

صمت.

"مرحبًا!".

لكن الطرف الآخر كان قد أرخى السماعة.

لا تجعلنى أُطيل الانتظار يا حبيبى. تساءلت الزوجة انتظار ماذا. انتظار المضاجعة بلا شك. انتظار الجنس. قالت الزوجة فيما بينها وبين نفسها: لابد أنه عثر على علاج وراح يستعمله خارج المنزل، قالت هذا الكلام وهى واقفة فى مكان ما والهاتف المحمول فى يدها، لقد عثر على علاج وراح يستعمله مع نساء أخريات. وراحت تقلب الهاتف المحمول بحثًا عن الأرقام المسجلة. وضغطت على مفتاح المكالمات الواردة. وأتضح لها أن هناك اسمًا لشخص اسمه مارك. مارك هذا اسم رجل! لكن التى تكلمت امرأة. ما هذا الذى يتلاعب به هذا الرجل، بحق الفضيلة. وهنا قررت مفاتحته فى الأمر فى التو واللحظة. وسوف يقول لى اليوم من هو ذلك المارك، وإلا سنضع نحن الاثنان أرجلنا الأربعة فى فتحة بنطال واحدة.

سألته مرة ثانية، والحقد والكراهية مرتسمان على وجهها، "أين كنت؟"

أدرك الشريف يعقوب أنها تعرف ــ تعرف أنى لى امرأة خارج المنزل. كيف نسيت تليفونى المحمول؟ لابد أن مارسى طلبتنى. أشار إليها بأن تخفض من صوتها.

رد عليها "ما الذى تعنيه عندما تسأليني أين كنت؟ كنت فى المجلس".

"أى مجلس؟ أى مجلس؟ مجلس الجمعية أم مجلس امرأه من النساء؟ هل تظن أنى لا أعرف ماذا كنت تفعل".

كان الشريف يعقوب متعبًا ــ لقد حَصَّلت مارسى اليوم رسومًا عليه. وماذا عن اجتماع اللجنة الحزبية الخاصة بحقوق الإنسان. لم يكن الرجل على استعداد للدخول فى نقاش مطول. قال فيما بينه وبين نفسه سوف أستأنف طلبًا للتفاهم، إلى أن تخور قواها. وسوف تهدأ بعد ذلك.

"انتبهى يا مارسى، الوقت متأخر".

"تقول. مارسى، من هى مارسى هذه؟" صرخت زوجته، وهى تشوّح بذراعيها. لا إيلا لاى، تلعثم وهو يبحث عن الكلمة المناسبة.

"إذن، مارسى هى المسجلة هنا تحت اسم مارك". ووضعت الهاتف المحمول أمام ناظريه.

"أنا آسف. سكرتيرتى الجديدة اسمها مارسى ــ أنا متعب ــ لقد أمضيت نهارًا شاقًا ومتعبًا. يا مدام اتقِ الله واهدئى".

"أهدأ وأنت سائر على حل شعرك تطارد النساء فى الخارج، تطالبنى بالهدوء. أنت، أيها الرجل الداعر".

"تقولينها ثانية ــ أنت تعرفين مشكلتى ــ فكيف لى بمطاردة النساء؟ أنت تريدين إحراجى. وقتما يخرج الرجل ووقتما يعود متأخر، يصبح سبب ذلك هو النساء. هذا على الرغم من أنك تعرفين مشكلتى".

قصد إلى أحد الكراسى وجلس عليه. ووضع يديه على عينيه، وتنهَّد ــ لم تفشل تلك التنهيده مطلقًا فى تفريج غضبها ــ كان يرتعد فى داخله. وماذا بعد، قالها وهو متألم. أنا فى ورطة.

بدا عليها الهدوء وقالت "أنا آسفة". ووقفت إلى جواره كما لو كانت مثل برج لندن، محرجة غير عارفة ما تفعل. "أنا لم أقصد.... لكن امرأة طلبت وكانت تستظرف. وحسبتها واحدة من أولئك البنات الرخيصات اللاتى يتَعَسَّسْن".

قال: "ربما كان ذلك رقمًا خاطئًا. وأنت تعرفين الحال الذى عليه منظومتنا التليفونية".

تشمم بعض الشيء ثم أخرج منديلاً أبيضًا قذرًا، وجفف به دمعة خيالية. واحنى رأسه وراح يفكر فى جسم مارسى المتماسك والوقت الرائع الذى أمضياه سويًا، وميلها إلى اعتصار دواخلها والمص كما لو كان المرء يمصمص نخاع عظمة من العظام. ويروح يتشمم وهو واضع يديه على وجهه. كل ما يريده الآن أن يستلقى أرضًا ويروح يستعيد ذلك الوقت الممتع الذى قضاه مع عشقيته.

قالت الزوجة من جديد وهى تعرب عن أسفها: "أنا آسفة". وناولته الهاتف. لقد كسب هذه الجولة. لقد جردها من سلاحها. لعلها تستمر فى ظنها أنى غير قادر على الانتصاب. بهذه الطريقة أكون فى مأمن. وإذا ما عرفت أن الفياجرا قد شفتنى، فلن يكون أمامى متسع للمناورة. وراح يتشمم مرة أخرى. أحس بالإشفاق عليها. لقد تقدمت فى السن! يا لقسوة الزمن على النساء. هذه المرأة بالذات. لقد تزوجا عندما كانا فى شبابهما. والآن ها هى أصبحت متينة ومنتفخة، وقد تكرمش جلدها وأصبحت متجهة صوب أقصى الجنوب. آخر مرة نظر فيها إلى بطنها كانت مترهلة ومتدليه نازلة إلى حجرها. أما ثدياها فقد ذكراه بالشباشب البالية التى يلبسها الحارس الأمنى، فى حين كانت الحلمتان متدليتين وتسارعان إلى لقاء بطنى قدميها. أطال النظر إلى وجهها وراح يفكر فى تلك الذقن المزدوجة، والخدين اللذين تعلوهما البثرات الصغيرة. لو كان الهوى هواه لأعاد هذه الزوجة العجوز

التى يزيد عمرها على خمسين عامًا إلى منزل والدها ليستبدلها باثنتين يبلغ عمر الواحدة منهما عشرين عامًا أو ما يزيد قليلاً على ذلك. لكن قد أمضينا سويًا ردحًا طويلاً من الزمن. يزاد على ذلك أن سبعة وعشرين عامًا لم تكن مجرد نكتة أو طرفة. ومن الذى يمكن أن يأخذها؟ إن أقبل على فعل ذلك فلن يكون عملاً مشرفًا.

كررت كلامها: "أنا آسفة". يأخذ هاتفه. "أنا أقسم بالله، أنى لن أفعل ذلك ثانية. هل أقدم لك الطعام الآن؟"

قال وهو يقطب جبينه: "أنا لا أرغب فى الطعام الآن". لقد أكل حتى الشبع عند مارسى.

جثت على الأرض وهى تقول: "أرجوك يا زوجى، أرجوك. أستحلفك بالله". لقد كسب الجولة.

"وهو كذلك، دعينى أبدل ملابسى، وسوف آكل بعد ذلك".

قصد إلى غرفته، وهو يحاول كتم ابتسامة كانت على وشك الخروج من فمه، وبذلك تحطّم كل شيء.

* * *

عصر يوم الأحد

استدعيت كل من الأخت مارثا، والأخت روزمارى إلى المدخل الرئيسى لسجن فريمان فورت فى عصر يوم من أيام الأحد. كانت الأخت مارثا بارة بما قطعته على نفسها. فقد انضمت إلى فريق الزيارات. وسمحت للفريق باستعمال سيارتها. كانت حافلة صغيرة بيضاء اللون.

كان الرئيس قد قال لروزماري: "آمل ألا تمانعى فى استعمال السيارة. صحيح أنها قديمة لكنها مريحة، وموفرة فى الوقود. ملء خزانها مرة واحدة يكفى

لاستعمالها في نقل أسرتي بكاملها من أبوجا إلى ليجوس بدون توقف. وزوجي يسميها فناء سيارة مارثا".

ضحكا.

كانا قد زارا في الأسبوع الماضي ملجأ الأطفال يتيمي الأمهات. لعبا مع هؤلاء الأطفال المطرودين والمرفوضين، وساعدا هيئة العاملين في استحمام وتغذية هؤلاء الأطفال، وساعدا أيضًا في تعقيم الرّضاعات وتنظيفها، كما ساعدا أيضًا في تنظيف العنابر التي تفوح منها الروائح غير الطيبة.

قالت مارثا لهيئة العاملين المراهقين: "لستن بحاجة إلى أقراص من أقراص التعقيم" هذه الأقراص غالية الثمن. والمطلوب منكن غلي الرضاعات والحلمات. وهذه عملية غير مكلفة وتحقق الغرض المطلوب".

كان الأخصائيون الاجتماعيون مرهقين من كثرة العمل. كانوا يشكون من زيادة عدد الأطفال اليتامى في الملجأ. كان يجرى في المتوسط العثور على طفل لقيط في أماكن الفضلات والمخلفات كل أسبوع. في بعض عطلات نهاية الأسبوع كان أهل الخير، الذين يصادفون أطفالاً لا تصرخ ملقون على جانب الطريق يقومون بإحضار اثنين أو ثلاثة منهم إلى الملجأ. كان واحد من هؤلاء اللقطاء ملقى داخل كرتونة، وموضوعًا في منتصف الطريق السريع كيما يسحقه السائقون. عدد كبير من هؤلاء الأطفال كانوا مرضى. واحد من هؤلاء اللقطاء الذين أسموه بيس (سلام) جرى العثور عليه في حفرة كانت تستعمل مرحاضًا. هذا الطفل كان أنثى، وكان جسمه الصغير مغطىً بالغائط والحشرات الضخمة، وكان الكثير من تلك الحشرات قد شق طريقه إلى داخل منظومة هذه الرضيعة. وقد ظلت تلك الرضيعة طوال أيام عدة بعد المجيء بها إلى الملجأ، محطًا للذباب.

كان العضو التناسلي عند واحد من هؤلاء اللقطاء مشوهًا. قال روزماري إن هو أو هي خنثى. كان يوجد داخل مهبل هذه الطفلة شيء ممدد مثل القضيب

الذكرى. قامت الأم المرعوبة بالتخلص من هذا الطفل. طفل آخر له شق فى سقف حلقه. كان هناك مجرى عميق يفصل الأنف عن الشفة العليا. كان هناك لقيط قزم. ولما كان الوالدان غير قابلين له فقد تخلصا منه.

تساءلت روزمارى، ترى، ما الذى يجعل الأم تتخلص من وليدها؟ الطفل الذى حملته داخلك مدة ثمانية أشهر؟ ماذا؟ لم يكن ذلك أمرا مفهومًا، لكنه كان يحدث يوميًا.

ردت عليها مارثا، "هذا جزء من الحضارة. التحضر. لم يكن ذلك يحدث قط فى الأيام الخوالى. كان الناس يعرفون بعضهم بعضًا. أما الآن، وفى هذه المدن مجهولة الأسم، فنجد الناس يعيش كل واحد منهم لنفسه فقط. هذا يعنى أن جارتك قد تكون حاملاً دون أن تدرى أنت شيئًا عن هذا الحمل. ويجرى التخلص من الطفل دون أن يعلم أحد شيئًا عن أم هذا الطفل.

تنحنحت رئيسه الملجأ وشاركت فى الحوار: "لقد كثر ذلك فى أيامنا هذه. البنات يفتحن أرجلهن فى هذه الأيام كلما تهيأت لهن الفرصة لفعل ذلك. الكثيرات منهن لسن على استعداد لتربية الأطفال، الكثيرات منهن لا يستطعن إنشاء أسرة، ومع ذلك فهن يعشن حياة الكلاب".

أردفت مارثا قائلة: "فى زماننا كانت الواحدة منا تذهب إلى بيت زوجها عذراء. أما الآن..." ثم تركت الجملة دون أن تكملها، لكن رئيسه الملجأ أكملتها لها.

فى أيامنا هذه، زوجك يعرف أن أربعة أو خمسة رجال ضاجعوك قبل أن يرتبط بك". بعض الأطفال هم ممَّن يسمون بالأطفال المنغوليين الذين فيهم تشوهات خطيرة بسبب الولادة. هذا واحد منهم يطيل النظر إليك دون أن يحدث أى صوت. ليس لديه كلمات، لا يستطيع الكلام. عمره حوالى ست سنوات. لا أحد لديه تاريخ دقيق لمولد هؤلاء الأطفال. وهذا طفل آخر ملقى على الحصيرة، ووجهه إلى أعلا. عيناه تراقبان مروحة السقف وهى تدور. رجلاه ضعيفتان ولا تقويان على حمله.

أمضت الأخت مارثا والأخت روزماری وقتًا أيضًا فی غرفة الأورام. كانت الغرفة مظلمة ولها ستائر غامقة اللون. كان فيها مصباح أزرق اللون يلقی ضوءًا فضيًا علی الجدران. كان فيها موسيقی بطيئة. كان فی الغرفة خمسة أطفال. ثلاثة منهم كانوا ينامون علی مرتبة موضوعة علی الأرض. كانت هناك عاملة تجلس علی ركن من أركان المرتبة الأسفنجية، وتحمل بين يديها طفلاً أشقر مشوه الأطراف يتألم. وكانت العاملة تدلك جسم الطفل بصورة مستمرة. وتنحنی رئيسة الملجأ لتناول الطفل.

قالت رئيسة الملجأ: "ألفونسو، حبيبی. لقد ولد بتشوه فی العظام. هو بحاجة إلی العلاج وإلی الحب". وهذا طفل آخر عمره حوالی أربع سنوات، يرقد بلا حراك محملقًا فی الضوء. قالت رئيسة الملجأ علی سبيل التوضيح "هذه غرفة تهدئة. للأرواح المتعبة والأطفال شديدی الحساسية. وهذا هو السبب وراء وضعنا لهذه الموسيقی الهادئة هنا هی والإضاءة الهادئة". توقفت العاملة لتحية الزائرين. كان الطفل بين ذراعيها، وراح يصيح بعد انتهاء المداعبات والتدليل.

سألت الأخت مارثا: "هل يستطيعون القراءة؟ هل يلتحقون بالمدارس؟" كن فی ذلك الوقت أمام فصل من فصول الدراسة.

"نحن نعلمهم هنا. هم لا يستطيعون مسايرة المدرسة المعتادة. البعض منهم يستطيع العد إلی الرقم عشرة. هذه مسألة ليست سهلة علينا أو عليهم. نادت علی طفل من الأطفال المنغوليين. "شدراك، عد من أجل عمتو Aunty". راح الطفل ينظر من امرأة إلی الأخری، وهو غير واثق بنفسه. كانت هناك سبورة معلقة علی أحد الجدران. كانت الأعداد مكتوبة بالحجم الكبيرة. يقف شدراك علی قدميه، ويده اليمنی متكئة علی مقعدة كرسيه. وقبل أن يفتح فمه، راح طفل آخر يتغنی بالأعداد من واحد إلی عشرة. وهنا ينفجر شدراك باكيًا. وتتجه نحوه رئيسة الملجأ.

راحت تحك جمجمته الكبيرة "لقد استغرقت وقتًا طويلاً يا شيدی Sheddy، وهذا هو الذی جعل حنا يساعدك". كان الطفل لا يزال يحتج وهو يهز رأسه. "لا يهمك،

سيكون الدور القادم عليك". تكرمش وجه الطفل. وكيما تهدئه مارثا طلبت منه أن يعد من واحد إلى عشرة. "ابدأ يا شيدى، هيا ابدأ فى العد لنا". لكن شيدى لم يكن مسرورًا. وجلس على كرسيه دافنًا رأسه بين ذراعيه على الدرج.

فى نهاية الزيارة تعلق الأطفال الذين لا يستطيعون المشى بالأخت مارثا، ولم يريدوا لها مغادرة المكان. هؤلاء الأطفال محرومون تمامًا من حب الأم ورعايتها. غادرت الزائرات المكان والدموع فى مآقيهن. ووعدن بتكرار الزيارة مرة ثانية.

قالت الرئيسة لزميلتها فى العمل وهما تتجهان إلى المكان الذى تقف فيه سيارتهما: "هذا هو السبب وراء عدم فهمى لتلك التقارير السلبية التى يقدمها الأعضاء كل أسبوع ــ لم يتم العمل، لم يتم العمل، فى الوقت الذى فيه هذا القدر الكبير من العمل الذى يتعين القيام به. سيدنا يعتمد علينا فى الوصول إلى هؤلاء الأبناء التعساء والشقيقات التعيسات، ونقدم لهم ولهن كل ما يمكننا أن نجود به قل أم كثر. يقول القديس جيمس: "**الإيمان فى غياب الأعمال يصبح بلا حياة**".(*)

حدث ذلك فى الأسبوع الماضى. أما فى هذا الأسبوع فقد نصبت الأخت مارثا خيمتها مع خيمة الفريق فى القيام بزيارة إلى السجن. كان هناك سجنان فى المدينة. واحد منهما يقع على حدود المدينة الخارجية وهو مخصص للذكور فقط. أما السجن الآخر الذى تصادف وجوده على الحواف الخارجية للمدينة القديمة فكان هو الأقرب. هذا السجن هو سجن فريمان فورت. أغلبية النزلاء فيه من الذكور، هذا حقيقى، لكن فيه أيضًا جناح للنساء.

تعين على الزائرات عبور فناء حتى يتمكنّ من الوصول إلى جناح النساء. كان المجمع السكنى الخاص بالذكور مواجهًا لجناح النساء. كانت النساء شبه العاريات يقفن إلى جوار بعضهن مثل النظارة الذين يشاهدون مباراة من المباريات. كن يمسكن بالقضبان الحديدية، ويحملقن انتظارا لمرور الوقت. سألت

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة باللغة اللاتينية Fidessine operibus mortua est.(المترجم)

مارسى مرافقتهما عن أسباب وقوف النزيلات على هذه الشاكلة. ردت عليها قائلة: الهواء. هن يبحثن عن الهواء. وعندما اقتربت الأخوات الزائرات رأين ذلك الذى كان محور اهتمامهن. حدث بعد ذلك مواء ونداء عندما وصلت المرأة إلى الناصية وتجاوزت المسجونات ـــ قالت مارثا وهى خائفة هذا عدد كبير من النزيلات.

قال المرافق للنساء: "اشحذن عزمكن، وتحركن بخفة، وانظرن أمامكن. هذه هى ساحة العقاب".

عقب ذلك الذى قاله المرافق، شاهدت النساء رجلاً شبه عارٍ فى منتصف العمر مربوطًا إلى عمود من الأعمدة على مرأى ومسمع من الجميع. كان معصماه مربوطين فى الجزء العلوى من العمود فى حين كان ساقاه مربوطين مع بعضهما فى قاعدة العمود، كما لو كان دجاجة يجرى شويها وهى فى وضع رأسى. كان شعره أطول من اللازم وغير مقصوص. كانت لحيته كثة مثل لحية كاسترو، وكان شاربه شبيهًا بالغابة. كان يكيل اللعنات إلى خصم غير مرئى كائنا من كان.

صاح فى المتفرجين قائلاً: "هل تعرفون عدد رجال الشرطة الذين قتلتهم؟ إذا ما هاجمتنى. سوف أقتلك، وأقتل أمك!"(*) هز السجان رأسه إشفاقًا على هذا المخلوق. وأشار الرجل إلى صدغه وراح يربت عليه مرات كثيرة. ارتعدت الأخت مارثا. "ألا يمكن الحلاقة للنزلاء أو تهذيب شعورهم وشعورهن؟"

تساءل السجان "بهذا؟ بالموسى؟ هذا ينشر الأمراض".

ردت عليه مارثا: "كل واحد منهم يستطيع استعمال موساه الخاصة به".

"هل تحول هذا المكان إلى مجزر؟ سيقطعون بعضهم بعضًا".

راح السجين يتباهى أمام الجمهور: "أقول لكم: أنى سطوت على مركز من مراكز الشرطة".

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة بلغة الإجبو! Ashawo pikin (المترجم)

نظرت الأخت مارثا إليه نظرة سريعة. كان يرتدى بنطالاً قصيرًا أكثر من اللازم. أما الجزء العلوى من جسمه فكان عليه ملابس أطفال ممزقة من أماكن الخياطة.

على بعد أمتار قليلة من ذلك المجنون كان هناك نزيل أخر، قابعا مثل شخص يقضى الحاجة وسط الإحراج. كان صدره مكشوفًا. كان ساقاه مربوطين أيضًا إلى قضبان من الحديد مثبتة فى الأرض. كان ينظر فى الفضاء محملقًا وهو شارد الذهن. مرت النساء وألقين عليه نظرة جانبية.

وهنا بدأت النساء يعين البكاء والعويل. كان ذلك البكاء والعويل صادرًا عن نزيل مطروح على ظهره على الأرض. وكانت الشمس تضربه بلا هوادة. كان جسمه ملطخًا بالعرق والرمل. كانت رجلاه فقط مربوطتين إلى وتد حديدى مثبت فى كتلة من الخرسانة. رفع يديه الحرتين ووضعهما على وجهه وراح يبكى.

كان يتوسل، لمن، هذا مالا يعرفه أحد "اقتلونى. أنا أريد أن أموت. أريد أن أموت. قلت إنى آسف. أنا آسف على ما فعلته. أنا آسف ونادم. اقتلونى. أنا أقول: اقتلونى. قولوا للرئيس إنى أريد أن أموت اليوم، الآن". راح ينتحب بين يديه، وكتفاه يهتزان. أحست الأخت مارثا بالإشفاق على ذلك النزيل.

كانت تخاطب المرافق: "لقد اعتذر، فلماذا لا تعفون عنه؟"

"هذا هو ما يقولونه جميعًا، لكنهم عنيدون". كانوا على وشك السير والمضى قدمًا، لكن مارثا توقفت تشجع النزيل وتشد من أزره.

"يا أخى، تشجع. سيعطيك الله القوة..."كان فمها مفتوحًا، وحاجباها مقطبين بفعل الصدمة. تراجعت إلى الخلف، ووضعت يدها اليمنى على شفتيها.

نظرت حولها مندهشة "أهذا هو شيكا! أم أنك لست هو، شيكا ولد نججو الأوبوسى obosi Ngegwu؟" صحيح أنه قد تغير. لقد أصبح هزيلاً وسقيمًا. ضلوعه ظاهرة ولا يكسوها اللحم، بطنه غائر. مظهره غير مهندم. وهذا هو وجهه

النحيف تنبت من كل قسم فيه شعيرات لونها بلون الملح والفلفل. كان يبدو كما لو كان رجلاً معتوهًا، أشقر الشعر، عينان حمراوان، شفتان متشققتان؛ لكنه هو شيكا بدمه ولحمه.

كان شيكا بدوره مندهشًا. راح يحملق في الزائرة بدقة. "أهي مارثا أم أنها مارتينا؟"

"أنت على حق. أنا مارثا".

"مارثا، زوجة نويهم Nwihim".

استدارت مارثا إلى رفيقها في العمل وإلى المرافق "ألم نقم منذ شهرين بالطقوس الجنائزية النهاية لذلك الرجل هنا؟ لقد اختفى الرجل منذ ما يزيد على خمس سنوات. لقد فتشنا عنه في كل مكان فتشنا عنه في المشارح كلها، ظنًا منا أنه كان فريسة من فرائس حركة المرور. وفي وقت متأخر من العام الماضي، توقفت أمه كسيرة الفؤاد عن البحث عنه كيما تدفنه". راحت مارثا تصفق بيديها مرات عدة.

انحنت مارثا ناحية الرجل وهي تقول وهي تلمسه: "عزيزي شيكا! ما الذي تفعله هنا يا شيكا؟ ما هي الجريمة التي ارتكبتها؟"

"لا شيء".

تدخل السَّجَّان قائلاً: "كلهم يقولون هذا الكلام. هذا هو ما يقوله هو لنا دومًا. كما لو كانت الحكومة قد جُنَّت عندما وضعته هنا".

"يا أخت مارثا، أرجوك أن تخرجيني من هنا. أرجوك. أنا هنا منذ سنوات أنتظر المحاكمة".

"ماذا حدث يا شيكا؟ قل لي ماذا حدث؟"(*) صفقت الأخت مارثا بيديها مرة أخرى. "انتظر إلى أن أُبلغ ذلك لنيني Nne". نيني هذه كانت والدة شيكا المسنة.

(*) أوردت المؤلفة هذا السؤال بلغة الإجبو Biko kwanu. (المترجم)

هز النزيل رأسه مرات عدة. حاول الاعتدال لكن قيوده منعته من ذلك.

قال فيما بينه وبين نفسه "لقد دفنني أهلي. في الوقت الذي لا أزال فيه على قيد الحياة؟ لقد دُفنت حيًا". وراح يهز رأسه مرة بعد أخرى.

سألته مارثا مرة ثانية "ماذا حدث؟".

"سيدى هو الذى فعل ذلك كله".

"تقصد أوكوتا okuta".

"نعم. أوكوتا".

"آخر ما بلغنى، أنك كنت له صبيًا فى بيع قطع الغيار".

قال شيكا والحزن يعتصره "تحررت وفتحت دكانى، الخاص. وبارك لى الله. وكانت أحوالى طيبة. حضر أوكوتا ذات يوم إلى دكانى واتهمنى بالسرقة. وبعد ذلك جاءت الشرطة وكومتنى هنا فى هذا المكان. وأنا موجود هنا منذ ذلك اليوم. هل تقولين إن ذلك كان منذ حوالى خمس سنوات؟

"خمس سنوات، بدءا من العام ١٩٩٧".

"هذا يعنى أننا فى العام ٢٠٠٠ الآن و.....".

"نحن الآن فى العام ٢٠٠٢. لماذا لم ترسل رسالة طوال ذلك الوقت؟"

"من الذى نراه نحن هنا؟ أرسلت أناسًا مره أو مرتين. لكن أحدًا لم يحضر من أجلى، وعليه فقدت الأمل".

"هل تنتظر المحاكمة؟ منذ ما يزيد على خمس سنوات! هذا أمر عجيب!"

أردف السجان من جديد "عندنا الكثيرون من أمثالك. كثيرون. أنت لم ترد شيئًا. بعضهم بقى هنا عشر سنوات انتظارًا للمحاكمة".

تعجبت الأخت ماريا ثانية، وهى تنظر حولها "هذا أمر عجيب!" حك السجان المسن رأسه. وخفض صوته. قد تجد له هذه الزائرة "شيئًا" إذا ما كان لطيفًا بما فيه الكفاية. "الأغلبية لا تتوافر لهم سيارة لنقلهم إلى المحكمة. الأقلية لا توجد ضدها أحكام. فى بعض القضايا نجد أن ضابط التحقيق إما نقل أو توفاه الله. ومع ذلك، يظلون باقين فى هذا المكان. السجن ليس مخولاً سلطة إطلاق سراحهم أو إخلاء سبيلهم".

توسل الرجل المطروح أرضًا إليها "يا أختاه، أرجوك ساعدينى. ساعدينى فى إطلاق سراحى. الله يعلم أنى برئ من أى اتهام". هز رأسه أسفا.

"تقولين دفنونى؟ هل صحيح أنك قلت أن أهلى دفنونى؟" ورح يهز رأسه مرات ومرات.

كان السجان لا يزال يستثنى عقله. "يصلنا كل يوم نزلاء جدد، ونحن نعانى فعلاً من الزحام. الشرطة تقوم بإلقاء القبض، وخمسة أجهزة أخرى غير مخابرات الجيش تقوم أيضًا بإلقاء القبض على البشر. ومع ذلك أين المكان الذى يتسع لذلك؟" وراح يطبق شفتيه الغليظتين تعبيرًا عن استيائه.

"شيكا، سوف أنظر فى قضيتك بكل تأكيد. لكن نحن هنا اليوم فى مهمة أخرى".

"كيف حال أمى؟ تقولين إنها لا تزال على قيد الحياة؟"

"نعم، لكن وفاتك، أقصد اختفاءك، أثر عليها تأثيرًا سيئًا".

"أنا عندى أمل. رؤيتى لك، زادت هذا الأمل. لقد أوشكت أسفارى على الانتهاء".

مضت الزائرات إلى حال سبيلهن وهى يضربن كفًا بكف عجبًا واندهاشًا.

قال الرجل: "دفنونى. أهلى دفنونى! أوكوتا، أوكوتا الذى خدمته خدمة مخلصة". وراح يهز رأسه.

وصلت مارثا هى وروزمارى إلى جناح النساء. كان فى الجناح حوالى تسع عشرة نزيلة، بما فيهم الأطفال. كان الوقت قد تجاوز الظهيرة. وكانت الشمس لا تزال فى السماء فى طريقها إلى الغرب.

كانت إيفلين، قائمة بنوبة الخدمة (النوبتجية). كانت إيفلين قد جاءت لتحل محل مارسى أثناء قيامها بإجازتها. قدمت الزائرات الجديدات إلى النساء. كانت النزيلات المسلمات تؤدين الصلاة، ووجوههن ليست شطر القضبان الحديدية. أمهلتهن الزائرات إلى أن ينتهين من صلاتهن.

"أيتها الأخوات"، بدأت مارثا كلامها، وهى تنظر من نزيلة إلى أخرى. كل ما كانت تتمناه كان عبارة عن ابتسامة ودية، مرسومة على شفتيها. خطر ببالها، تلكم الشابات الصغيرات. ماذا عن عائلاتهن؟ ماذا عن أطفالهن؟ وها هم أولئك الأطفال الصغار محبوسين مع الكبار. اغرورقت عيناها بالدموع. ابتسمت إلى الصغار محاولة الانتباه إلى نفسها.

"أيتها الأخوات، لقد جئنا لقضاء بعض الوقت معكن وربما نتشارك معكن فى كلام الرب إن كنتن ترغبن فى ذلك. وإذا كان هناك أى عون نستطيع القيام به سنقوم به بكل سرور". كانت النزيلات سعيدات برؤية هذه الوجوه الجديدة. وبدأن ينظرن إلى الزائرات.

قال البعض منهن، وهن يتخلين عن لعبة الورق "مرحبًا بكن".

"نحن نود أن نشاركم ترنيمة أو ترنيمتين معكن. هاتان الترنيمتان مأخوذتان من إصحاح يوحنا، السورة الثامنة، الآيات من ٣ إلى ١١. من فضلك يا أختاه اقرئى لنا". نظرت مارثا إلى النزيلات. "بعضكن لسن مسيحيات، وأنا أعرف ذلك، لكن بوسعهن الإصغاء إلينا. ستكسبن شيئًا من القراءات.

تعود روزمارى إلى المقطوعة الإنجيلية وتبدأ القراءة.

"أحضر الكتبة والفارسيون امرأة كان قد أُمسك بها وهى تمارس الزنا، وبعد

أن جعلوها تقف في المنتصف، قالوا ليسوع: "سيدنا، هذه المرأة أُمسك بها أثناء ممارسة الزنا، وطبقًا للشريعة، فإن موسى (عليه السلام) أمرنا برجم النساء اللاتى يكن من هذا القبيل. فما رأيك؟" سألوه هذا السؤال على سبيل الاختيار، بحثًا عن اتهام يستعملونه ضده. لكن يسوع انحنى إلى الأسفل وبدأ يكتب على الأرض بإصبعه. وعندما أصروا على سؤالهم اعتدل وقال: "اجعلوا من هو بينكم بدون خطيئة يكون أول الراجمين لهذه المرأة". ثم انحنى يسوع ثانية وراح يكتب على الأرض. عندما سمعوا ذلك انصرفوا لحال سبيلهم الواحد بعد الآخر، بدءا بكبيرهم سنًا، إلى أن انصرف آخر واحد منهم، وأصبح يسوع وحده مع المرأة، التى بقيت فى المنتصف. اعتدل يسوع من جديد وقال: يا امرأة، من هؤلاء؟ ألم يدينك أحد منهم؟" ردت عليه قائلة: "لا أحد منهم يا سيدى". قال يسوع وأنا أيضًا لا أدينك". اذهبى لحال سبيلك، وبدءا من هذه اللحظة لا تخطئى بعد اليوم".

تلتقط مارثا الخيط من روزمارى. "من منكن بلا خطيئة يتعين أن يكون أول راجم لهذه المرأة". ثم تردف قائلة: "ثم ينصرفون لحال سبيلهم الواحد بعد الآخر". أيتها الأخوات، هذه المقطوعة تقول لنا إننا جميعًا مذنبون بصورة أو بأخرى. لا أحد كامل. الإنسان يمكن أن يدين. الواقع أن الرجال يدينون دومًا لكن الرب يعفو ويغفر. الرب يكره الخطيئة لكنه لا يكره المخطئ. هو ﷺ يدعونا إلى التوبة والندم. هو يقول: اذهبى ولا تخطئى بعد ذلك. هذا يعنى أن الماضى لا يهم، ما فعلته من قبل لا يهم، لأنه أصبح فى عرف الماضى وولّى. اذهبى ولا تخطئى بعد الآن. المستقبل هو المهم". وتصمت قليلاً.

قالت: "أختاه" وهى تلمس ركبة روزمارى "اقرئى علينا ما قاله حزقيال فى السورة رقم ١٨، الآيتين ٢١ و ٢٢".

"ومع ذلك، إذا ما استنكر الشرير كل الخطايا التى ارتكبها، واحترم شرعى وتمسك به واستقام، فالمؤكد تمامًا أنه سيحيا. لن تذكر ضده واحدة من الجرائم التى ارتكبها، منذ بدء توبته".

"الآية رقم ٣١".

"انفوا عنكم كل الجرائم التى ارتكبتموها، وأصغوا لأنفسكم قلبًا جديدًا، وروحًا جديدة!".

تكلمت مارثا مرة ثانية، وهى تمشى على أطراف أصابعها فى الظلام: "أيتها الأخوات، آمل أن تكون كل واحدة منكن قد فهمت الرسالة؟ وعليه، أطلب أن نندم ونتوب من ذنوبنا الماضية وأن نتصالح مع الله ﷻ. قد يعاقبنا المجتمع على الأخطاء التى ارتكبناها فى الماضى. والله ﷻ يدعونا إلى بداية جديدة. الله صديقنا. ولن يديننا. هو يكره ذلك الذى أقدمنا عليه لكنه يحبنا ويفهم ظروف تورطنا. وعليه، تأملن هذه السطور، وحاولن أن تجدن فيها القوة التى ستحتاجون إليها فى هذه الأزمان الصعبة". وتبتسم من جديد، أملاً فى أنها كانت تقول شيئًا له معنى.

اقتربت باتسى من النساء: "بارك الله فيك، يا أختاه"، قالتها لكل زائرة من الزائرات، وهى تصافحهن الواحدة بعد الأخرى "بارك الله فيكن".

مدت مودياجا يدها تحت مرتبة الإسفنج وأحضرت إنجيلها القديم. وقدمت ذلك الإنجيل القديم إلى مارثا. كانت عيناها الصفراوان مغرورقتين بالدموع. كانت أفكارها مركزة على ولدها سيث. لم يجئ سيث لزيارتها منذ فترة طويلة. كانت تسائل نفسها عما إذا كان قد أصابته أزمة شديدة. كانت تصلى وتصلى، بل وكانت تصوم أيضًا فى تلك الظروف القاسية وكانت تستجير بربها. كانت مصابة بالضعف والهزال، وكانت ملابس السجن تبدو عليها كما لو كانت معلقة على شمَّاعة. استمرت معاناتها وأوجاعها بدون فتور. كان قلبها على وشك الانفجار. لم يكن هناك رب محب. كل ما يدور هو كلام قصص وحواديت. كانت على يقين من ارتفاع ضغط دمها، على الرغم من عدم وجود طريقة تستطيع بها الوقوف على ذلك.

قالت لمارثا من خلال شفتين متعبتين: "خذى الإنجيل يا أختاه. خذيه. أنا لم أعد بحاجة إليه فقد تخلى الرب عنى". جففت عينيها. ولما كانت عاجزة عن تحمل آلامها، انفجرت على شكل نوبة هيستيرية، ورمت الإنجيل على الزائرة. وسقط الإنجيل على حجز مارثا.

"طوال هذه السنوات وهو يضربنى، ويقرصنى، ويجلدنى، ولم تفعل الشرطة شيئًا. لم يجئ أحد لمساعدتى، لم يجيء أحد سوى أبنائى المساكين. أنظرى فى وجهى". راحت تشير إلى الشامات التى على وجهها. رفعت ثوبها إلى الأعلى "انظرى إلى هذه الجراح كلها. هو الذى أحدثها فى جسمى". كانت هناك بحق علامات متباينة على فخذيها، وعلى صدرها، وعلى ركبتيها. "انظرى إلى هذه الشامة". وهنا راحت تشير إلى فخذها "هذا هو المكان الذى قذفنى فيه بالمصباح. وما سبب ذلك؟ لأنى رددت عليه الكلام". أدارت ظهرها. كان هناك أثرا سوط يصنعان خطا مثل طريق السيارات. "لقد جلدنى فى هذا المكان ....بــ...." تحشرج صوتها. "وعندما دافعت عن نفسى لا مونى، وحبسونى". راحت تولول، وتقطع الزنزانة جيئة وذهابًا. كانت على وجهها نظرة ارتباك". كان لابد أن أحمى نفسى، وأبنائى. لقد كان مخططًا".

حذت بيا حذوها. هبت واقفة وهى محرجة فى مكانها وأحضرت إنجيلها، الذى جاءها على سبيل الهدية من واحد من المبشرين بالإنجيل. كان الإنجيل يبدو جديدًا. وضعته بهدوء على حجر مارثا، وفوقَ نسخة مودى.

قالت مارثا راجية: "لست أنت التى تفعلين ذلك يا أختاه. أنت الأحوج إلى الله عن الآخرين، فى ظروفك التى أنت فيها".

كررت بيا الكلام "تقولين: فى ظروفى. ما الذى وضعنى فى هذا الظرف؟ لقد تعدى على أرض أسرتنا. وقمت أنا بصده وإيقافه، فسقط ميتًا. لم أستعمل سلاحًا، ولا أى شيء. وأنا هنا، وضاعت حياتى، وضاع تعليمى، وضاع كل شيء. وهربت أمى وتبعثرت شقيقاتى. آه، يا يسوع!" أحست بأنها سيغمى عليها.

ترنح السقف وسقط عليها. سقطت على الأرض، تتشمم وتحاول التقاط أنفاسها. ذهبت إليها كل من أنتلى، وروزمارى.

قالت شريكتها فى السكن "بيا، هذا صحيح، وهذا أيضًا سيمر وينقضى، تشجعى. تمالكى نفسك".

وضعت روزمارى يدا مطمئنة على كتفى البنت الحامل، اللذين كانا يهتزان. كانت مصدومة على نحو يمنعها من الكلام؛ نساء فى السجن، فى مثل هذه الظروف، وفى مثل هذا اليأس والقنوط. هذا شيء لا يطاق. هذا السجن يتحتم إغلاقه. هذا السجن لا يصلح لإقامة البشر؛ مبنى عتيق، بنائيات متداعية، خال من الصرف الصحى، وجدرانه قذرة.

كانت أومو ترضع طفلها القلق. وراحت تناجى نفسها دون أن يلاحظها أحد من الحاضرين. "أنا مذنبة. لقد قتلت أمى. أنا نادمة على ما فعلت. تمنيت لو أنى لم أفعل ذلك. مع هذا الولد الذى بين ذراعى، أتخيل ذلك الذى كابدته أمى من أجلى. ومع ذلك قتلتها، قتلتها بدم بارد. وما سبب قتلى لها؟ لأنها حذرتنى من أوليفر، ذلك الصبى الذى لا يصلح لأى شيء والذى كان يسكن بجوارنا وكان يتلاعب بى. قالت لى إننى صغيرة على أن يكون لى عشيق، وإنى يتعين على الالتفات إلى كتبى. أما أنا فكنت أفكر على العكس من ذلك. كل رفيقاتى كان لهن عشاق، بعضهن كان لكل واحدة منهن عشيقين، وبعض آخر كان لكل واحدة منهن ثلاثة عشاق. بعضهن كن يمشين مع رجال أكبر من آبائهن سنا، وكانوا يعطوهن نقودًا كثيرة. حدث ذات مرة أن كان هناك حفل. وبدأت قبل الحفل بأسبوع كامل أطلب السماح لى بحضور ذلك الحفل. ورفضت أمى، قائلة إنى صغيرة على ذلك، إننى ينبغى على الانتباه إلى دروسى وكتبى، وأن أنسى الأولاد والحفلات. وأن الوقت المناسب لما أريده سيكون فى الوقت المناسب أيضًا. تآمرت أنا وأوليفر عليها. ذات مساء كانت فى المطبخ، وحضر أوليفر ومعه خنجر وفأس. وطعناها حتى الموت. كان جينيور معها فى المطبخ. كان دائمًا مرًا فقا لها، وقد حذرت أوليفر من ذلك.

كان أوليفر قد قال لى "تجهز عليه أيضًا. وبعدها سنكون أحرارًا فى التمتع".

"أنا قتلت أمى وشقيقى البرئ".

راحت الدموع تتساقط من على وجه الراوية أو المتحدثة على جسم الطفل الرضيع. وكان الجميع صامتين.

"أرجوك يا أماه أن تسامحينى حيثما كنت. أخى، جينيور سامحانى. لقد فعلت ما فعلت بسبب الجهل". هزت رأسها مرات متكررة. أشارت إلى الطفل وأضافت على شكل فكرة طارئة: "هل ترى ثمرة ذلك الذى فعلته أنا. أن تولد أنت فى السجن. وأبوك فى السجن، والأم فى جناح النساء فى ذلك السجن". واستطردت فى كلامها بعد ذلك.

نظرت مارثا إلى النساء. وكانت تنتقل بينهن وهى تربت على كتف الواحدة بعد الأخرى.

"أرجوكن أيتها الأخوات ــ لا تستلسمن ــ أرجوكن ــ الأمر يبدو وكأننا فى نهاية العالم، لكن الله سيرعاكن ــ كيف، هذا مالا أعرفه. يجب أن لا نشغل أنفسنا بمسألة الرعاية هذه، لأنه ﷻ سيصفح ــ صدّقن ما أقول ــ من ذا الذى يستطيع تحديد قدرة مالك الوجود؟ أرجوك يا مودى، أرجوك. أرجوك يا بردجت". أعادت إليهما طفليهما. ثم صمتت بعد ذلك. كانت الدموع فى مقلتيها". سنصلى من أجلكن بصورة خاصة. لا تقنطن من رحمة الله أيتها الأخوات. أنا معى بعض المسابح. من منكن يريد هذه المسابح بوسعه أن يأخذها إذا كنتن لا تستطعن التلاوة على هذه المسابح. يمكنكن أن تعلقن هذه المسابح حول رقابكن أو تحت أسرتكن، أو فى مكان بالقرب من مكان نومكن. هذا يفيدكن". توقفت لالتقاط أنفاسها. لم تكن مارثا معتادة على هذا النوع من الزيارات. كانت تلك هى المرة الأولى التى تقوم فيها بزيارة من هذا القبيل، وقد أثقلتها هذه الزيارة كثيرًا من الناحية العاطفية. "قد تكون لديكن بعض الأسئلة ونحن على استعداد للإجابة عنها قبل أن نغادر هذا المكان".

اقتربت سوزان منهن دون أن يلاحظها أحد منهن. كانت تمسك بقطعة من الورق الأبيض فى يدها، وقدمتها لزعيمة الزائرات، كانت تلك الورقة عبارة عن بطاقة شكر وتحية.

"أرجوك، يا أماه، تعطفى على واطلبى السيد/ كونتى وحدثيه عن أمرى. السيد كونتى قنصل فى السفارة الإيطالية — هذه هى بطاقة معلوماته — خبريه واطلبى إليه أن يتفضل بالحضور لزيارة سوزان مرة ثانية".

سألتها مارثا وهى تأخذ منها بطاقة المعلومات: "هل جاء هنا من قبل لزيارتك؟".

"نعم. لكنى ظننت أنسبائى هم الذين جاءوا لزيارتى، لكى يسبونى ويلعنونى وعليه لم أخرج لمقابلته. أرجوك أن تطلبى إليه المجيء غداً".

"وهو كذلك يا سوزان. سنفعل ذلك".

رفعت أومو يدها. "طفلى بحاجة إلى التطعيم".

اتجهت الزائرات صوب أومو. سألنها عن المولود، وسعدن لأنها أنثى ولن تكون بحاجة إلى الختان.

قالت الأخت مارثا فى نهاية المطاف "سنتحدث مع السلطات بشأن هذا الموضوع. ويمكن أن نعود ومعنا الطعم المطلوب. ومن يمن الطالع أن الأخت روزمارى تعمل بالتمريض". تحولت عيونهن إلى الأطفال الذين يغطون فى النوم فوق المرتبة الاسفنجية التى تنام عليها أمهما.

ماذا عن الأبناء؟ هل جرى تحصينهما؟"

ردت الأم: "ليس بعد".

"لم يأخذا أى شيء على الإطلاق؟ حتى طعم شلل الأطفال؟ وطعم الدفتيريا؟

هزت إيا إيبجى رأسها. فى ظل هذه الظروف المحيطة!

"هذا يعنى أننا سندرج هذين الطفلين أيضًا ضمن القائمة. وكلما أبكرنا كان ذلك أفضل".

تحركت بردجت. ومشت فى خضوع لتجلس على سريرها. تزايدت ضربات قلب مارثا. كان رجيم السجن غير متكامل من حيث النوع والكم. خمسون نيرة فقط، كانت محددة لوجبة كل نزيلة من النزيلات فى اليوم الواحد، هذه النيرات الخمسون تعادل ثلاثين سنتًا أمريكيًا لكل وجبة، أى بما يعادل دولارا أمريكيا واحدا لكل نزيلة. كانت آثار سوء التغذية بادية على البنت.

"هل تأخذين مجموعة فيتامينات لعلاج حالك".

"هزت البنت رأسها".

"سنحضر لك بعضًا من هذه الفيتامينات أيضًا" وخطر ببال مارثا أيضًا إحضار بعض التموينات مثل الحليب، والمشروبات الغازية، والفواكه.

ردت عليها بيا Bea: "أشكرك يا أماه، لكنى أود أن أطلب منك معروفًا آخرًا". أومأت مارثا برأسها "نحن نطلب بلاك ماريا، لنقلنا إلى المحكمة. سيارة الترحيلات (بلاك ماريا) بحاجة إلى وقود الديزل. منذ مجيئى إلى هنا لم أذهب مطلقًا للإدلاء بأقوالى، وعليه فأنا لا أعرف الحال التى عليها قضيتى. أنا أنتظر المحاكمة. وليس لى مُحَامٍ".

قالت أنتلى وهى جالسة فى ركنها: "وأنا أيضًا، استئنافى معلق".

قالت كثيرات منهن "ونحن أيضًا! نحن ننتظر المحاكمة. ومع ذلك، نحن هنا، وليست هناك سيارة ترحيلات لتنقلنا إلى المحكمة".

واصلت بيا كلامها "قامت إحدى المؤسسات بإصلاح السيارة. وهناك هبة تقدير من الكنيسة لشراء وقود الديزل، لكننا نسمع أنه شحيح".

"نعم، وقود الديزل شحيح فعلاً الآن. لكننا سنتصرف. جركن أو جركنان، فى أضعف الأحوال، سيكونان كافيين إلى حد ما، إلى أن نتمكن من عمل الترتيبات اللازمة للحصول على وقود الديزل بصورة دورية".

رفعت بنت أخرى يدها. أومأت إليها مارثا. "قولى لنا إسمك، ولماذا جئتِ إلى هنا".

"اسمى يوفيوما. لم أحصل على محامٍ قط".

"ماذا فعلتِ؟".

"كسر بعض الناس الأنبوب من أجل مزارعهم. حذوت حذوهم لآخذ شيئًا من الوقود. جاءت الشرطة وألقت القبض علىّ".

جلست الأخت مارثا معهن على الأرض وراحت تدون بعض الملاحظات. "أنا أمتهن المحاماة. أنا عضو فى رابطة من رابطات المحاميات، وأنا عضو أيضًا فى مؤسسة حماية حقوق المرأة وتطويرها، وهى هيئة غير حكومية، أسستها الحاجة فاتى Fati عبد السلام أبوبكر، التى كانت سيدة البلاد الأولى فى يوم من الأيام. نحن نحمى المرأة، أولئك العاجزات عن حماية أنفسهن. نحن نساعد المرأة كلما وكيفما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. بوسعكن جميعًا أن تلخصن قضاياكن، شريطة أن يكون ذلك الواحدة بعد الأخرى. وسوف أدرس وأعرف ذلك الذى يمكن أن نفعله. أنا لا أعدكن بشيء. أنا لا أريد أن أزيد من آمالكن بلا عائد أو مقابل لكن، ومع ذلك سوف أتشاور مع رفاقى وزملائى فى رابطة المحاميات وفى مؤسسة حماية حقوق المرأة، وسوف نتبين ذلك الذى يمكن أن نساعدكن به".

اقتربت النزيلة بلسنج Blessing، من الأخت روزمارى. ابتسمت الأخيرة فى وجهها. "عفوًا يا أماه، السبب فى ذلك هو رجل البحرية الذى كنت أصادقه". قدمت قطعة من الورق للزائرة. كان هناك اسم ورقم هاتف مدونين على هذه الورقة. "هل تتفضلين بإبلاغه أن بلسنج موجودة فى سجن فريمان فورت، جناح النساء؟ إذا

ما استطاع أن يحضر خمسين ألفًا فإن السجانة ستدرج اسمى ضمن قائمة العفو. أرجوك، هل تستطيعين فعل ذلك؟"

قالت روزمارى وهى تتناول الورقة: "بالتأكيد، سوف أتصل به؟"

تقدمت إيا إيبيجى Ibeji. "أنا أم هذين الطفلين. ألقى القبض على فى تايلاند. مخدرات. حُكم على بثلاثين عامًا".

شهقت الحاضرات كلهن: "ثلاثين عامًا!".

أوضحت مارثا قائلة: "الأحكام صارمة هناك".

أقرت إيبيجى كلامها: "أنت على حق. بعض أبناء الإجبو حُكم عليهم بأربعين عامًا، وأحيانًا خمسين عامًا".

خطر ببال روزمارى، هذه هى حقيقة الحياة.

واصلت النزيلة كلامها "استأنفت طلبًا للرحمة وتخفيف الحكم. أمضيت عشرة أعوام ونصف العام. بعد ذلك، رحّلوا المساجين، وأعادونا إلى نيجيريا. قدمت طلبًا بالعفو عنى إلى ملك تايلاند. خفض عشر سنوات من حكمى، لكن السياسة المتبعة تحتم على قضاء الأعوام الثلاثين ويتعين على أن أبدأ من جديد، هذا هو القانون المعمول به هنا".

سألتها مارثا، وهى تدون الملاحظات: "أين ولدت هذا التوأم؟".

"قال لى مدعى الشرطة، إنه سيساعدنى إذا ما وافقت. بعد ذلك لم أره ثانية. هرب".(*)

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة بإنجليزية ركيكة على لسان الشخصية، وهذا جانب مميز فى هذه الشخصية الجاهلة التى لا تعرف سوى نتف صغيرة من الإنجليزية (المترجم).

Na the police prosecutor. E say e fit help me if I gree for am – After, I no see am again. He run.

استدارت مارثا إلى نزيلة كانت تحاول التوارى عن الأنظار؛ كانت تجلس على الأرض الباردة ورأسها بين كوعيها، وهى تُصغى إلى ما يُقال دون أن تشارك فى الحديث.

"ماذا عنك يا كاجارا؟ هل أنت أيضًا ممن ينتظرن المحاكمة؟"

"لقد حُوكمت. قالوا: أنى حُكم على بسبع سنوات. لكنى لم أفعل شيئًا. لقد ولَدت مليصًا.(**) الشرطة الدينية تقول إنى مارست عملية من عمليات الإجهاض".

"هل كانت تلك الولادة فى مستشفى؟ وهل حالة الولادة مدونة فى السجلات؟ اعتدلت المرأة فى جلستها. قالت: "نعم، كانت الولادة فى مستشفى كوجى. وكان اسم الطبيب بالا Bala".

عندما غادرت الزائرات السجن بعد ذلك بحوالى ساعتين، أدركن أن الزيارة لم تكن زيارة عادية. ترى، هل أكلن أكثر مما يستطعن مضغه؟ سيثبت الزمن ذلك.

* * *

فى ساعة متأخرة من المساء

استاءت أنتلى. كان ذهنها يعاود الرجوع إلى كلمات إيا إيبيجى. حكم مقداره أربعين أو خمسين عامًا! ذهبت إلى أم التوأم وجلست بجوارها. قالت: "أولا وقبل كل شيء، دعينا نتوقف عن الكلام فيما قالته إيا إيبيجى".

"إيا إيبيجى تعنى أم التوأم".

"أنا أعرف ذلك، لكن ما هو اسمك الحقيقى؟"

"تاوا. أنا تاو كليتو أنمشاون Animashaun، على الرغم من أن هذا ليس هو الاسم الذى أسافر به".

(**) المليص: هو المولود الميت. (المترجم)

"ما الاسم الذى استعملته؟

"بلندا جونز، من ليبيريا ــ لكن تاوا هو اسمى الحقيقى".

"حسن ــ يا تاوا، أنت تقولين إنهم فى تايلاند، يصدرون أحكاما تقدر بأربعين أو خمسين عامًا؟"

"هذا صحيح، الحياة والموت عندهم مثل الماء".

"زيدينى مما عندك حول هذا الموضوع".

"يا عمتى، أنا لا أود أن أتذكر حياتى هناك. هو أسوأ قسم من حياتى". تصمت وقد سرحت عيناها إلى بعيد. "فى أسوأ الأحوال. لقد أحسسنا بالسعادة عندما تبادلت الدولتان المسجونين".

"تستعملين ضمير المتكلم الجمع؟ هل كنتم كثيرين؟"

"أنت لم ترى شيئًا ــ مئات ومئات منا ــ لقد قامت الطائرة بثلاثة رحلات ــ كان عدد السجينات مائة وثمانى عشرة سجينة، أما الرجال فكان عددهم يزيد على ستمائة رجل. ربما كان عدد الرجال أكبر من ذلك، لكنهم نفذوا حكم الإعدام فى المدانين قبل أن تبدأ رحلات الترحيل، هؤلاء الناس كانوا عنصريين جدًا، وأشرارا جدًا. هناك صبى إجباوى، يسمونه الرئيس الصغير، قال إن السود فى سجون تايلاند كانوا موضوعين فى معسكرات الإعدام. قال آخر ركب على متن الطائرة من كراتشي: إن هتلر يعد قديسًا بالمقارنة بسجانه".

"ماذا كانت جريمتك؟"

"مخدرات يا أماه. السواد الأعظم منا كانوا من المسجونين بسبب المخدرات. كان عشرة منا متهمين بالنصب والاحتيال، وتزييف التأشيرات. أما الباقون فكانوا من العاملين فى مجال الاتجار بالمخدرات".

"لماذا اشتغلت بتجارة المخدرات يا تاوا؟"

قالت النزيلة: "تسألينى لماذا؟" لم تكن تنتظر سؤالاً من هذا القبيل.

"نعم، أسألك عن السبب؟ مع أبناء الإجبو، يمكننى أن أفهم السبب. أبناء الإجبو لهم حدود معينة. أهليهم ليسوا من أصحاب السلطة، سواء أكانت سياسية أم مالية، وعليه يمكن أن ألتمس الأعذار للشرقى الذى يجرب حظه فى تجارة المخدرات أو العمل التجارى والمالى رقم (٤١٩)، أو فى تهريب الأسلحة. هذه هى الطريقة التى يدخلون بها أنفسهم إلى مجال العمل المالى والأعمالى للمشروع. أما أهليكم أصحاب سلطة ــ أهليكم يشغلون السواد الأعظم من المراكز المرموقة فى الحكم. أهليكم يسيطرون على السواد الأعظم أيضًا فى المراكز المالية الكبيرة، وكذلك المراكز الأعمالية والمالية الكبيرة، وأيضًا المصانع الكبيرة ــ لم يتعين عليكم أن تلهون أنفسكم فى هذه الأمور...."

"الظروف هى التى تجبر السَّلطعون(*) إلى الانحناء مثل حرف الواو، لا لأنه هو الذى يريد ذلك. الفقر، والجوع، واليأس والإحباط هى التى تدخلنا فى الطريق. فيما يتعلق بى كنت مجرد تاجرة صغيرة فى إيزال ــ إكو. ومن باب. الجشع والطمع دخل واحد أو اثنان فى هذا المجال، لكن فيما يخصنى، لم يكن هناك ما يشين سمعتى واسمى؛ لم يكن لدى ما يمكننى من أن أبدأ عملاً أفضل مما كنت فيه. لم أكن انتوى البقاء فى هذه التجارة أو الاستمرار فيها. كنت مخططة للذهاب مرة واحدة، أحصل بعدها على أجرى، ثم أترك هذا العمل. وأبدأ تجارة خاصة فى الدانتيل. لكنى لم أكن حظيظة. فقد ألقى القبض على".

"أين ألقى القبض عليك؟"

"قبضوا على فى الفندق. طلب إلى شخص ما ابتلاع ما معى. كان من عادتهم ربط المخدرات فى لفافة من المطاط ويطلبون منى ابتلاعها. وهناك فندق قريب من المطار نقوم بالالتقاء فيه قبل دخول المطار. يحدث ذلك بعد لحظات قبل المغادرة، أى أننا نبتلع اللفافة المطاطية فى ذلك الوقت، ثم نتجه بعد ذلك لركوب

(*) السلطعون: نوع من السمك شبيه بجراد البحر. (المترجم)

الطائرة. وهم يعطونا أقراصًا نبتلعها تسد المعدة مثل الجوار. هذه الأقراص تمنعك من التغوط. لكن عندما نصل إلى محطة الوصول، يعطونا أقراصًا أخرى تجعلنا نتغوط ونخرج ما فى معدتنا. هناك قرص نأخذه خارج المطار أو فى الفندق. وعندما تأخذين هذا القرص يا أماه، تصبح البطن مثل الصنبور. لكنى كنت خائفة. كثير من الناس كانوا يموتون، عندما ينفجر الغلاف المطاطى فى معدتهم بسبب تأخير مواعيد إقلاع الطائرات. بعض آخر منا كانوا يعانون من الإمساك الشديد. إذا ما انفجر الغشاء المطاطى، فإنه يؤدى إلى انصهار الأمعاء، كما لو كان الإنسان قد ابتلع أو شرب شيئًا من الحامض. هذا يعنى الوفاة فى الحال. البعض قد يحتجزون عند نقطة الدخول؛ والنتيجة واحدة. يتمزق الغشاء المطاطى. كنت خائفة. وفضلت إخفاء المخدرات فى..... بابى الخلفى".

"هل انفجر؟"

"الحمد له. لم ينفجر. كنت حاملاً فى ذلك الوقت. لم أكن حاملاً فى التوأم".

"ماذا حدث بعد ذلك؟ كيف قبضوا عليك؟"

"فى الفندق. كنت أنتظر الوسيط ليأخذ منى المخدرات. هاجمت الشرطة الفندق. من عادة الشرطة هنا مهاجمة الفنادق التى يوجد بها عدد كثير من السود. ويعثرون على المخدرات. وألقوا القبض على كل الأفارقة الموجودين فى الفندق".

"هل يعنى هذا أن هناك أفارقة آخرين فى هذه التجارة؟"

"كنا جميعًا نيجيريين لكن البعض منا كانوا يحملون جوازات سفر أخرى. بوسعك شراء هذه الجوازات من سوق ألوول Oluwole. جوازات سفرنا أصبحت شائنة السمعة. وأنت عندما تسافر بذلك الجواز أخضر اللون تكون دومًا محل شك. وعليه فنحن نستخدم جوازات أخرى كاميرونية، وغانية، وليبيرية فضلاً عن جوازات أخرى. لكن كنا جميعًا....".

"هل أعطوك ثلاثين عامًا؟"

"نعم، يا أماه."

"أين الطفل الذى كنت تحملينه؟".

"لقد مات فى السجن، حالة إجهاض، أحمد الله. كانوا يكلفوننا بأعمال شاقة، نحن الأفارقة. أما النزيلات الأخريات مثل الفلبينيات، والروسيات، والرومانيات فكان يجرى إرسالهن إلى التدريب المهنى مثل إعداد الوجبات، والحياكة، وعمل السجاد ـــ أما نحن الأفارقة فكانوا يرسلوننا إلى العمل اليدوى، إلى مزارع الأرز، وقطع الأخشاب وأعمال النظافة".

"تقولين التدريب المهنى؟ ما الذى تحتاجون إليه من هذا التعليم المهنى؟".

"حتى يمكن لنا التكامل مع المجتمع بعد أن نخرج من السجن". كانت تسمع ذلك التعبير يتردد مرات كثيرة.

تساءلت أنتلى فى شيء من الفضول "فى أى عمر صدر عليك ذلك الحكم؟ أنت تقولين إنه حُكم عليك بثلاثين، أربعين، أو خمسين عامًا. كم كان عمركم عندما دخلتم تايلاند؟ ثلاثين عامًا، خمسة وثلاثين عامًا؟ هذا يعنى أنك بعد قضاء مدة تتراوح بين ثلاثين وأربعين عامًا، وبفرض أنك خرجت من هذه المصيبة، فذلك يعنى أن عمرك كان فى حدود خمسة وستين، أو سبعين أو ثمانين عامًا، ما الذى يمكن أن تفعليه؟ أى مجتمع هذا الذى ستتكاملين معه؟ لقد انتهيت".

أومأت تاوا برأسها مرارًا "أنا أفهم ما تقولين". أصبح الأمر واضحًا لها الآن. "البيض يحُكم عليهم عادة بخمس سنوات، أو عشر سنوات. وهذا هو السبب وراء دخولهم التدريب المهنى. أما نحن السود، نحن... أنا أعرف ذلك جيدًا".

واصلت تاوا كلامها "مات كثيرون فى السجن. المكان هنا يشبه عطلة نهاية الأسبوع. فى السجن فى تايلاند كنا دومًا مُسلسلين بالسلاسل؛ حتى عندما نكون فى

المزارع، وحفاة فى وقت البرد. تعالى وناظرى بنفسك الأمراض، الأمراض المزمنة: الدرن، التهاب الرئتين، تورم الأطراف، الغرغرينا، ناهيك عن قسوة الحراس. لقد ركل واحد منهم رجلاً، ركلة قوية أفضت إلى انفجار خصيتيه. لا يمكن أن يكون أبا بعد ذلك. الجنوب. أُصيب الكثيرون بالجنون، كانوا يكلمون أنفسهم، الهلوسة....".

"الهلوسة والهذيان".

"نعم، الهلوسة والهذيان. الرجل الأبيض شرير. ليست هناك قبيلة أشرُّ من قبيلة الرجل الأبيض. كان اليوم الذى سمعنا فيه عن عودتنا إلى بلدنا بمثابة عيد الميلاد عندنا".

"ما الذى حدث؟"

"كتبنا رسالة لرئيس دولتنا من هناك نطلب منه الرحمة".

"لكن من نحن حتى نفعل ذلك؟".

"نحن النزلاء الأفارقة، شكلنا رابطة لنا".

"تقولين إنكم شكلتم رابطة؟".

"نعم، رابطة المسجونين السود فى تايلاند. كان ذلك اسمها".

"وهل تسلم باسانجو الرسالة؟".

"جاء "السفير" النيجيرى لزيارتنا وأعطيناه الرسالة لتوصيلها ــ ووعدنا بإرسالها ــ وبعد فترة قصيرة، تقدر بحوالى عامين، لست متأكدة من ذلك، من كتابة الرسالة، جرى إخلاء سبيلنا. لكن تحتم علينا دفع أثمان تذاكر العودة. قال "السفير" إن الحكومة ليس لديها نقود. وعليه إن أردتم العودة فعليكم دفع ثمن تذكرة العودة؛ ألف ومائتى دولار للتذكرة الواحدة".

"كيف حصلتم على النقود؟".

"قام واحد من بارونات المخدرات بدفع أثمان تذاكر البعض منا. كان يملك مطعمًا إفريقيًا، على سبيل التغطية، على حد قوله. وقيل إن هذا البارون متزوج من امرأة تايلاندية. كان واحدًا من كبار البارونات، واحدًا من المعلمين المحليين. دفع ثمن تذاكر البعض منا ـ وقال أن مُعلمنا سوف يسدد له ذلك فيما بعد".

كانت أنتلى غارقة فى أفكارها. إذن هناك أمل. لم يضع كل شيء".

"تقولين أنكم كتبتم رسالة لأوباسانجو وأفلحت تلك الرسالة؟" كانت أنتلى على نار وهى تسأل هذا السؤال.

أومأت إيا إيبجى برأسها. "هذا هو سبب وجودى هنا. رحّلونا إلى هنا. بعض النـــزلاء الـــذين لـــم يستطيعوا دفـــع ثمن التذكرة لم يجر إطلاق سراحهم. لا يزالون هناك...".

أكملت بيا كلام أبيجي: "فاترين، وخاترى القوى".

قالت أنتلى موجهة كلامها للزنزانة: "هل تفهمن!" كن جميعًا يستمعن إلى قصة تاوا، على الرغم من أن المتحدثة كانت هى الشخصية الوحيدة التى تستجوبها. "شكلوا رابطة وكتبوا رسالة. قلت لكن إننا ينبغى علينا أن نكتب. سوف تنجح هذه الكتابة. إذا ما تسلمها هو".

واصلت تاوا كلامها: "عندما عدنا أرسلونى إلى سجن لافيه Lafia". تحرك شيء فى داخلها. التمعت عيناها بفعل ضوء منسى أو بعيد. "كان كفلائى يرتبون لإخراجى من السجن. هم يخرجوننا دومًا من السجون، لكن المظاهرات قامت وجرى إحضارنا إلى هنا. المسألة مسألة وقت ليس إلا. سوف يعرفون مكانى هنا ويخرجونى. لديهم طرقهم وأساليبهم الخاصة بهم.

قالت المتحدثة: "لقد كتبوا رسالة ونجحت تلك الرسالة!" قلَّبت الفكرة. "تسلم أوباسانجو الرسالة! وأعادهم إلى الوطن! ابنى سيث! أرجوك أرسل الرسالة — سيث".

"سيخرجوننى من هذا السجن. سيعرفون مكانى ويخرجوننى".

الفصل الثانى والعشرون

دخل الشريف يعقوب مطبخ مارسى طلبًا لكأس من الماء. وبسرعة ابتلع الكبسولة الزرقاء. كان يعرف أن الكبسولة تبدأ عملها بعد دقائق قليلة، وتفتح نافذة الفرص. لقد شرح له الطبيب العمل الرائع الذى صنعت من أجله هذه الكبسولة. هذه الكبسولة تحول الدم عن أجزاء المنظومة الدموية إلى تلك المنطقة الحساسة التى يتحتم وجوده فيها. وهنا تبدأ رجولته فى التهام الدم كله، إلى أن تبدأ عملية الاحتقان. وعادة ما تستغرق هذه العملية دقائق معدودة. خلع الرجل ثيابه وانضم إلى ذلك الشيء الحلو فى السرير العملاق الذى اشتراه لمتعتهما. كانت الموسيقى الحالمة ترافقهما. كانت امرأته من محبى تينا تيرنر، وليندا.... لابد إن إحداهما تغنى. لم تكن الحياة أحلى من ذلك من قبل. الوقت مع هذه المرأة الناضجة صاحبة الشفتين الساحرتين هو غاية المنتهى، وليست البيرة ماركة الجلدر Gulder. كانت مارسى مستعدة لذلك. مرتفعات صدرها التى كانت شبيهة بصخرة آسو Aso. وكان يعزف على أوتار الجيتار على بروزات جسمها. وسرعان ما اتجهت شفتاه إلى ناحية الجنوب. وعندها تذكر أوامر الطبيب.

"ينبغى عليك أن تقدم لنفسك. وبهذه الطريقة تصبح المرأة فى منتصف الطريق. وإلا تحتم عليك القيام بالدور كله. وهذا له تأثير خطير على القلب. تذكر أنه ينبغى عليك أن تقدم لنفسك. جهزها واحتفظ لنفسك بالميل الأخير فقط".

كان ذلك هو السبب الرئيسى وراء اتجاهه صوب الجنوب دومًا. وسرعان ما سمع التأوه والأنين، ومصمصة الشفاة، وعينيه الحائرتين اللتين ترجوانه أن لا يقتلها. عدل وضعها لمزيد من المناورة. وكان كرشة الكبير يسد الطريق ويثير الضيق، كان يعرف ذلك حق المعرفة. عندما بدأت هذه العلاقة بينهما، كانت تضع يدها

على كتفه للسيطرة عليه. كان يفهم عندئذ أن كرشه يضغط عليها. كان الرجل قد سمع، فى مكان ما من النادى أن هناك ثلاثة أوضاع فقط فى معركة الجنس. لم يكن كرشه الكبير سوى بالوضع الثانى من هذه الأوضاع الثلاثة. ولذلك غيرا من وضعهما. وكانت مارسى سائقة من الطراز الأول أيضًا. وفى منتهى السرعة يصلان إلى الذروة.

كانا يجلسان جنبًا إلى جنب، متماسكى الأيدى، متلامسى الجسمين. كان الطبيب قد قال له أن يرقد فى هدوء كامل بعد العملية، كيما يسترد طاقته مرة ثانية. قال له: إن ذلك الهدوء يسمح للدم باستئناف دورته المعتادة. أحس بأن مثانته ستنفجر. ومع ذلك يتحتم عليه الانتظار إلى أن يعود قلبه إلى وضعه الطبيعى قبل الذهاب إلى الحمام. مثانته، وغدة البروستاتا. الأرجح هو أن يعمل فحصًا طبيًا آخر. كان مقررًا له السفر إلى لندن على الفور، بتذكرة على حساب المجلس. وسوف ينتهز هذه الفرصة ويعرض نفسه على الطبيب هناك.

قالت الأنثى بتودد وحب: "يا شريف، أنت الأعظم".

رد عليها وهو يحس بالرضا: "عجيب!" استدار إلى الضابطة "مارسى، أنت أعظم من العظمة".

كان يعنى ما يقول. نسى أنهما كانا مختلفين من نواحٍ كثيرة؛ مختلفين فى الدين، فى القبيلة، فى اللغة، مختلفين فى مركزيهما فى الحياة. ومع ذلك، عندما يصل الأمر إلى ما هما فيه يصبحان اثنين فى واحد". أنت تفهمين المضاجعة بحق، يا مارسى. أقول ذلك بأمانة".

"وأنت أيضًا، يا يعقوب ـــ أنت السائق ـــ وأنا مجرد مسافرة".

"والله، أنت أكثر من مسافرة يا مارسى. أنت رفيقة السائق، وأنت المحصِّل. أنت التى تخبريننى متى أمضى قدمًا، ومتى استعمل "الفرامل". ضحكا بعد ذلك.

لم يكن الأمر بحاجة إلى الكلام وهى تربت بيدها على العضو الشريف.

قالت بتودد وحب: "غرفة الماكينة". كم كانت سعيدة بذلك الرجل. كم هى مسترخية. قالت: "بيت القوة". وطبعت قبلة على ذلك البيت. كانت هناك رائحة خاصة، خطر ببالها، أنا أحب هذا الرجل، أنا أحب هذا الرجل وحسب،

مد الشريف يده وتناول ثوبه الخارجى. تحسس جيوب الثوب، وأخرج منها رزمتين من أوراق البنكنوت. مائة ألف نيرة.

"سأترك لك المائة ألف نيرة هذه. لكن ينبغى أن تنشئى شركة خاصة بك. اذهبى إلى لجنة الشئون المشتركة. وسجلى فيها اسم الشركة. وبعدها سوف أرتب مع أصدقائى كيما يسندون إليك بعض العقود. وبذلك يصبح بوسعك أن تكسبى بسهولة مليونين أو ثلاثة ملايين مرتين فى العام الواحد".

"أشكرك، يا يعقوب" تلمضت فى الخفاء وهى تتناول الرزمتين. تلك كانت واحدة من الأشياء التى تشدها إلى هذا الرجل، كان يعطيها دومًا نقودًا بعد العملية كما لو كان يدفع لها الأجر.

"ينبغى على أن أشكرك. أنت لا تعرفين معزتك عندى. أنا عاجز عن تقديرها،
يا مارسى، أنا أقول ذلك بأمانة".

"أشكرك".

"هذا غباء من زوجك الذى جعلك تذهبين إلى حال سبيلك". خطر ببال مارسى، هذا هو مربط الفرس. هو يتحدث دومًا عن زوجى السابق "ماذا كان اسمه؟".

"ماكسويل".

"إنه ماكباد". ضحكا سويًا.

واصل الحاج كلامه "أنا ممنون له، لأنه أساء معاملتك وسرّحك. لا تعودى إليه".

"لا تشغل بالك. لقد انتهى كل شيء بينى وبينه. أنت تعاملنى أفضل من أى رجل التقيته فى حياتى".

"لا تُمتّعى رجلاً آخر. اعتبرى أنك زوجتى. انسى مسألة برتوكول الزواج هذه".

"لكنك لك زوجة فى المنزل، يا يعقوب".

كانت مارسى، فى بعض الأحيان تنادى الرجل باسم عائلته. لم يكن يهتم بهذه المسألة. كل شيء يهون من أجل الحب. كل ما تريده هذه الجميلة nyarinya سينفذه. يندر أن يناديه الناس باسمه الأول عبد الجليل. هم ينادونه دومًا بكلمة "بابا" Baba، وأحيانا يقولون له "الحاج" Alhaji. وبعد أن دخل البرلمان، أصبحوا ينادونه بكلمة "الشريف" فقط. هذه المرأة وحدها، خليلته الوحيدة هى التى تناديه باسم العائلة، دون أن يضيره ذلك أو يضايقه.

"عملى يا مارسى هو والرأى العام يحتمان أن تكون لى زوجة. صدقينى، أنا لن يشرح صدرى أى شيء سوى أن تكونى لى زوجة، رسمية. لكن تلك المرأة ستجعل الحياة جحيمًا لنا. أنت امرأة. أنت تعرفين كيف تتصرف النساء". نظر إليها فترة وجيزة "وعليه، فلنترك الأمر على ما هو عليه. أستحلفك بالله".

داعبته المرأة قائلة: "إذن أنت لا تحبنى بما فيه الكفاية". كانت فى حال نفسى طيب. هذا الرجل يضعها دومًا فى حال نفسى طيب. "لكن، كل شيء على ما يرام. أنا لست فى عجلة حتى أتزوج من جديد. لم يئن أوان ذلك بأى حال من الأحوال".

أحس أنه مغلوب على أمره. وراح يفتش فى جيوبه مرة ثانية. "هذه هى مائة ألف نيرة أخرى. أنا أحبك أكثر من أى شيء. أنت لا تعرفين ماذا تعنين عندى. لقد أنقذتِ حياتى، أعدت إلى جَنَانى، أعدت إلى كل شيء. وأنا أقسم بالله على ذلك!".

لم يعد يقوى على تحمل ذلك الذى هو فيه أكثر من ذلك. كانت مثانته على وشك الانفجار. أيقن أن البول قد بدأ يتسرب فعلاً نازلاً على وركيه. استخدم إصبعه لسد فتحه خروج البول. ونهض واقفًا واتجه صوب دورة المياه.

أفرغ مثانته التى أوشكت على الانفجار. بعد ذلك، وكما هى عادته عند خليلته، أخذ الشريف دشًا، وطوال فترة الاستحمام كان يتمتم ببعض الترانيم غير المفهومة، ويردد آيات الصفح والغفران. وينتهز الفرصة كيما يتوضأ استعدادًا للصلاة. ويعود الشريف إلى غرفة النوم. كان قد ترك عمدًا سجادة صلاة فى منزل مارسى. ويفرد سجادة الصلاة، ويستقبل القبلة فى ركن من أركان الغرفة؛ ويصلى العشاء. وكيما توفر له الخصوصية والتركيز اللذين هو بحاجة إليهما، ومن باب الرضوخ للقوة الأعلى، أدارات مارسى وجهها إلى الجدار.

ينهى الشريف صلاة العشاء ويجلس يتأمل فى صمت. لم تكن مارسى تعرف ذلك الذى كان يفعله، لكن الرجل كان يشكر الله على هذه العطية المتمثلة فى هذه المرأة الجميلة، وكان يرجو الله أن لا يفتح عينيها ويجعلها تتركه وتتخلى عنه. أنا رجل مسن وقد علت التجاعيد جسمى؛ أنا فى خريف حياتى. أما هى فشابة، متماسكه الجسد، وفى ريعان شبابها. أرجوك يا ألله، أن تجعلها تحبنى حبًا طويلاً على امتداد الأيام القادمة. بسم الله الرحمن الرحيم...."

ينهض واقفًا. ويلقى بالفوطة المنشفة فوق الكرسى المُحَمّل بالملابس غير المطلوبة. ويطوى السجادة بحرص ويعيدها إلى مكانها السابق.

قال للمشرفة العامة على السجون "سأوفر لك كل ما تحتاجين إليه أو تريدينه. أضمن لك ذلك".

"أشكرك، يا سيدى. كل ما أريده هو أن تحسن معاملتى. هذا هو كل ما فى الأمر.

تكلما عن الحياة، عن علاقتهما، عن أسرتيهما، وعن عمليهما.

قالت مارسى: "سأعود إلى عملى فى الأسبوع القادم. كانت تعرف أن لقاءات الظهيرة ستتوقف. هذا يعنى أنهما سيعودان إلى وردية الليل. هذه الوردية أشق وأصعب والسبب فى ذلك هى حرم الشريف يعقوب.

"أنا مسافر إلى لندن لمدة أسبوع. هل تودين المجيء معى؟"

أمسكت على نفسها أنفاسها: "أنا لا قبل لى بتحمل ذلك، وأنت تعرف ذلك تمامًا".

"سأتحمل نفقاتك كلها. وأنت تعرفين ذلك". كان على استعداد لإعطاء كل ما يملك لتلك المرأة. كان متيمًا بها تمامًا.

صرخت مارسى: "واو! هل تعلم أنى لم أر لندن مطلقًا؟ تخيل. وأنا فى هذه السن. الواقع، إن قَدَمَىَّ لم يغادرا أرض نيجيريا".

"حتى ولو هنا فى قطونو Cotonou؟".

رددت مارسى الكلام نفسه "حتى هنا فى قطونو".

"حسن. سأفرجك على لندن ــ وتقومين بالتسوق. ستعجبك لندن".

انزرع الشك فى ذهن المشرفة العامة على السجون. الحصول حاليًا على تأشيرات السفر إلى الخارج، من السفارات يشبه طلب الماء من الحجر. أعربت عن مخاوفها ليعقوب. طمأنها "لا تقلقى. سيقوم مساعدى الخاص بتدبير هذه الأمور كلها. سيقول للسفارة إنك موظفة البرتوكول التى تعمل معى".

"لكن أين سننزل؟".

"اتركى هذا الأمر لى". فكر لحظة وأردف قائلاً: "بطبيعة الحال أنا عندى منزل فى لندن. عملنا هذا، يحتم على أن أكون حريصًا ، وإلا لن يلوم الإنسان إلا نفسه".

راحت تتفث الهواء. وفعل صدرها العارى الشيء نفسه "لندن! واو! يا يعقوب العظيم!"

رد عليها مبتسمًا: "يا آكوكايت Akokite الرائعة! أنت أخلص المؤيدين والمساندين لى، يا مارسى. معك لن أكون بحاجة إلى أية حملة من الحملات".

ردت عليه مارسى: "وتعود منها بلا معارضة".

سألها "كم عدد هذه المرات؟ اثنتان، ثلاثة؟"

"مدى الحياة!".

تعانقا. كانت رجلا مارسى الطويلتان ملتفتين حول رجليها. لاحظ شعر إبطها الحريرى الشبيه بالغابة. شيء جميل. لقد توقفت عن حلق ذلك الشعر، لأنه يحب شعر جسم النساء. هذا الشعر يثيره ويحركه. يستثنى من ذلك شعر الوجه الذى كان يكرهه. خطر بباله أن يبتلع كبسولة أخرى من ذلك العقار العجيب ويعود إلى ما فعله من قبل. مرتين فى يوم واحد! كان الطبيب قد حذره أن الحد الأقصى هو مرتان فى الأسبوع. كبسولة واحدة تتيح فرصة على امتداد ستة وثلاثين ساعة. لقد بدأت الطبيعة تجور عليه من جديد، فلماذا لا يغتنم هذه الفرصة؟ حاول إرضاءها بطريقة أخرى. دق جرس تليفونها المحمول.

أمرها: "اقفلى التليفون. أنا لا أحب أى شكل من أشكال الإزعاج". تناولت مارسى ذلك الاختراع الجديد بطريقة حالمة، من فوق "الكوميدينو" نظرت إلى الشاشة المضيئة نظرة سريعة، إنها صديقتى العليمة. يا له من وقت حرج تطلبنى فيه. قفلت الهاتف واستدارت لتواجه رجل اللحظة.

بعد ذلك بثلاث ساعات استعد يعقوب للرحيل عن منزل خليلته. كان يتحتم عليه العودة إلى المجلس. ستشهد جلسة المساء مناقصة حامية لصندوق الإيرادات أو شيئًا من هذا القبيل. ستكون المناقشة حامية. جلس فى غرفة الجلوس وإلى جواره كوب من العصير. وتنادى مارسى على أداما Adama.

صاحت أداما فى المشّرع قائلة :عبيط!"

صاحت فيه مارسى "أبله!".

"أحمق! Oloriburuku".

"بليد! Dan banza".

"٤١٩!"

"فنى انتخابات!"

"لص! Barawo! Ole"

"دجّال!"

"ابن غير شرعى!"

"غبى جاهل!"

"تاجر مخدرات!"

"نبى زائف!"

يضحك الشريف ضحكة بلهاء. وأومأ برأسه مرات عدة مثل السحلية. وراح يكرر عبارة: "نبى زائف" وهو يلوك الكلمات فى فمه، محاولاً تذوق مضمونها. "تعجبنى عبارة "النبى الزائف" ضحك فى سره "نبى باعال".(*)

"oloshi ! Oni ranu"

" Dan wofi !"

" Ashawo !"

(*) باعال: إله من آلهة الفينيقيين القدماء. (المترجم)

(*)" Ashawo! Makakwu! Agbaya! "

تهلل وجه يعقوب فرحًا وسرورًا. يضحك ضحكة بلهاء وهو راض عن نفسه. ويشرب المشروب وينهض واقفًا.

ابتسم لخليلته هى وخادمتها: "أشكركما. أشكركما شكرًا جزيلاً على مساعدتكما، والمشاركة فى اللجان الوطنية. سوف أتذكر ذلك كله فى المجلس".

كانت لا تزال هناك ابتسامة على وجهه وهو يتناول لباسه الوطنى، ويخرج من شقة السجّانة. وعليه فشل الرجل فى ملاحظة، أو رؤية ذلك الشكل الذى كان يتسكع على جانب الطريق. وعندما سرّع السائق السيارة فى اتجاه منطقة الأذرع الثلاثة، هز ماكسويل رأسه مرات عدة فرحًا وابتهاجًا.

وفّى تجسسه بالمطلوب. يقول رقم السيارة، إنها واحدة من سيارات مجلس المندوبين (الممثلين). دوّن الرقم. "إذن، المسألة أنه عضو من أعضاء المجلس يقوم.... الآن أيتها البغى الشهوانية. أيتها الفاجرة! الآن، ما يتعين على عمله الآن هو العثور على أو معرفة صاحب هذا الرقم. وبعدها يأمر سلينا، أيتها المشرفة العامة على السجون، ستتلقين أبشع صدمة فى حياتك، أنت وهذا الكرش الكبير الذى تتخذين منه خليلاً. عبيطة لا وجه للمقارنة على الإطلاق!"

* * *

كانت مفتش عام الشرطة من الرجال المستعدين للقتال. كانت وسائل الاتصال تطالب برأسه. كانت الجريمة فى تزايد مستمر، وبخاصة على ضفاف الأنهار والطرق السريعة. عصابات جريئة كثيرة كانت تضلل الناس عن طريقهم

(*) هذه العبارة هى والعبارات الثلاث السابقة لها مأخوذة من لغة الإجبو، وهى من كلمات السباب واللعان. (المترجم)

وتسرقهم وتجردهم من ملابسهم. هذا هو رئيس الشرطة يتكلم على الهواء من الإذاعة ويحذر الجمهور من السفر أثناء الليل ومعهم مبالغ كبيرة. لكن اللصوص كانوا يضربون ضربتهم فى وضح النهار. حدث مؤخرًا أن قامت واحدة من العصابات ببعثرة موكب أحد حكام الولايات، وكانت تلك واحدة من العصابات التى تعمل على الطريق الشمالى السريع. وتوفى أحد الأفراد العسكريين فى ذلك الحادث. وكأن ذلك لم يكن كافيًا، فقد زاد أيضًا معدل الاغتيالات السياسية. لقد لقى أحد شجعان الحزب الحاكم حتفه بأيدى السفاحين، ولم يجر القبض على المجرمين إلا بعد شهر من وقوع الحادث.

من حيث البنية، كان المفتش العام شبيهًا بالتمثال الضخم. كان يشبه البرج من فوق رجاله. تقول الشائعات أن الرجل لديه أيضًا قوة خرافية. عُرف عنه أنه يجرى عشرة أميال فى اليوم الواحد قبل تناول الإفطار ويلعب ثلاثة أشواط من التنس فى الميس.(*) قبل أن ينام فى المساء. كانت له زوجتان، يُقال إنهما لم يكن لهما جدول زمنى محدد. كانت علاقاتهما الزوجية مطلوبة كل ليلة، فى آن واحد فى بعض الأحيان. ربما كان ذلك فى أيام الشباب لأنه الآن أصبح له كرش كبير، ورقبته آخذه فى الاختفاء بين منكبيه الضخمين. راجت نكتة بين أصحاب الكروش من رجال الشرطة. كانوا يقولون: إن الكروش علامة على أن أصحابها سيصبحون رؤساء للشرطة فى المستقبل. ضحك رئيس الشرطة عندما قيلت له هذه النكتة.

على كل حال، لم يكن رئيس الشرطة بحال نفسى طيب هذا الصباح. لقد تلقى بالفعل ثلاث مكالمات تليفونية، ولم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة بعد. المكالمة الأولى كانت من رئيس الولاية. وعلى الرغم من أن رئيس الشرطة، كان من المقربين إلى الريس، فإنه لم يفشل فى ملاحظة القلق والضيق اللذين كانا يظهران فى صوت الريس.

(*) الميس: المكان الذى يتناول فيه الضباط طعامهم فى الوحدة. (المترجم)

"افعل شيئًا فى مسألة موجة الجرائم المتفشية. بدأت الجرائم تخرج عن سيطرتنا. لقد ناقش المجلس هذه المسألة". هذا المجلس هو المجلس التنفيذى الفيدرالى، أعلى سلطة حاكمة فى هذا المكان.

وما أن وضع سماعة التليفون حتى دق مرة ثانية. هذه مكالمة من المجلس الأدنى. كان الشريف رئيس لجنة الأمن، يدعو رئيس الشرطة للرد على بعض الأسئلة مباشرة فى المجلس، بخصوص الأسباب التى أدت إلى تزايد الأخطاء فى أمن البلاد. صحيح أنهما واصلا حديثهما بعد ذلك لمدة قصيرة، لكن قلبه تزايدت ضرباته. كان هناك عدد كبير من أعضاء المعارضة فى المجلس ينظرون إلى عمل رئيس الشرطة ويفحصونه فحصًا جيدًا، وكانوا على استعداد لإحراجه فى المجلس. لقد حدث ذلك من قبل. وهذا هو الآن رئيس مجلس الشيوخ هو الذى يطالب بتوجيه الاستجوابات. هل بوسعهما الاجتماع، مساء هذا اليوم، بعد العمل لمناقشة بعض الموضوعات العاجلة والملحة ذات الصلة بالأمن؟ قال: على أن يكون ذلك بعد العمل. هل يعنى ذلك أن الاجتماع سيكون اجتماعًا غير رسمى؟ كان ذهن الرجل الاستقرائى يستشرف كارثة مفاجئة.

طلب رئيس الشرطة مساعده على التليفون. "اجمع الضباط العظام فى قاعة المؤتمرات عند الساعة العاشرة. أنا أود التحدث إليهم". جمع الضباط العظام؛ يعنى أن يبدأ بالمفتش وينتهى بنائب المفتش.

حيَّاه المساعد قائلاً: "حاضر يا فندم!" لم يكن يعرف ما يدور، لكنه على يقين من أن هناك أمرًا يجرى تدبيره. كان للرئيس نمل، نمل الجنود،(*) الذى كان يسرح فى بزته السوداء هذا الصباح.

عندما اجتمع الضباط والضابطات بدأ رئيس الشرطة يوبخهم على الفور.

"الجريمة آخذة فى التزايد فى الوقت الذى تجلسون فيه مسترخين فى مكاتبكم. اتصل به السيد الرئيس، أقصد رئيس مجلس الشيوخ، المتحدث الرسمى

(*) المقصود هنا أن مساعد الشرطة كان يستشعر شيئًا من القلق (المترجم).

باسم المجلس. اقرءوا الصحف. الجريمة، الجريمة، كل يوم، وفى كل الأماكن. السطو المسلح، الاغتيالات، القتل، كما يسمونها. خلاصة القول، انعدام الأمن. إذا كانت وظائفكم لا تروق لكم، اسمحوا لى أن أقول لكم أنى أحب عملى وأود الاحتفاظ به. لقد دخلت هذا المكتب، وسط وهج العظمة، وأود أن أتركه فى نهاية خدمتى وليس قبل ذلك، ووسط وهج العظمة أيضًا. من منكم لديه جدول أعمال مختلف عن جدولى يتعين عليه تقديم رسالة استقالته قبل انتهاء عمل اليوم" تحرك الضباط فى أماكنهم فى إشارة منهم إلى قلقهم وتململهم. راح مفتش الشرطة العام ينظر إليهم نظرة توبيخ.

"أنا أدفع رواتبكم وبدلاتكم بالقدر المناسب وفى الوقت المناسب بنيت لكم ثكنات، ومدارس لأطفالكم، ومستشفيات وأماكن لتناول الطعام. أنشأت لكم مشروعًا تأمينيًا لكم ولأسركم. أنا أرقيكم بالطريقة المناسبة وفى الوقت المحدد، وفرت لكم المواد التى تستعملونها فى عملكم مركبات، معدات اتصال وأسلحة. إذن، ما هى المشكلة؟ لماذا لا تعطون العطاء المطلوب؟" كانت عيناه الفاحصتان تتنقلان فى الغرفة، وتلتقى بأعين رجاله الذين يطيلون النظر إليه.

"أود منكم الخروج إلى تلك الأماكن ومحاربة الجريمة. أنتم تعرفون أماكن المجرمين. كثيرون منكم إخوانهم. البعض منكم يتآمرون معهم أيضًا. أنا أعرف ذلك. كفاية كفاية! علقوا هذه المؤاخاة! حركوا أردافكم الثقيلة وأغيروا على المجرمين فى أماكن اختبائهم، اصطادوهم الواحد بعد الآخر. قللوا ضباطكم المكتبيين بنسبة خمسة بالمئة على الفور! أريد أن يخرج الضباط والأفراد ويتواجدوا هناك فى أماكن المجرمين، ولا يجلسوا فى مكاتبهم يتعاملون مع الورقيات، ويشربون الشاى ويطاردون البنات. أرسلوا الدوريات إلى الشوارع! تسلقوا سدادات الطرق! ابحثوا عن السلاح! ألقوا القبض على المجرمين. هل كلامى واضح، أم أنى أتكلم وفى فمى شيء يجعل كلامى غير مفهوم لكم؟".

تجول ببصره بين رجاله. "في غضون عشرة أيام اعتبارًا من اليوم ستصدر حركة تنقلات وتغيير المهام. هؤلاء منكم غير القادرين على الإمساك بالمجرمين في الأماكن الواقعة في نطاق قياداتهم سيخسرون الكثير. نحن بحاجة، بادئ ذي بدء، إلى كثير من الأفراد في كليات التدريب". كان يعلم أن التدريب هو الذي سيمكن من القبض على المجرمين. كل ما في الأمر أن إدارة التدريب ليست جاذبة بما فيه الكفاية.

وقف الضباط والضابطات وأدوا التحية بينما سار مفتش الشرطة العام وسطهم متجهًا إلى باب الخروج. كان المفتش يقوم بالتفتيش على ضباطه كلما سمحت له الظروف بذلك. راح يؤنبهم. لأن الوقت لم يكن مناسبًا للضحك أو التنكيت. عندما وصل الرئيس إلى أحد مفتشي المنطقة (٨١١)، الواقعة على مشارف المدينة، تردد بعض الشيء. قال "يا هوجان، تعال إلي في مكتبي على الفور!" ارتعدت فرائص هوجان. حاول إحكام عضلاته وشدها حتى لا تخور قواه.

عندما عاد رئيس الشرطة إلى مكتبه نظر إلى مرؤسه نظرة تهديد. صحيح أن مفتش الشرطة العام كان متزوجًا من ابنة هوجان الكبيرة. لكن الكيل قد طفح.

كان الضابط الأحدث لا يزال في وضع الانتباه: "أنا لا تعجبني التقارير التي وصلتني عنك مؤخرًا".

عرف هوجان ذلك الذي يمكن أن يحدث له. لم يكن هوجان واحدًا من الضباط الأذكياء. حاول، بل حاول مرارًا بذل قصارى جهده لكن اتضح أنه لم يفلح مطلقًا في أن يكون على المستوى المطلوب. ترى، هل كان ذلك كسلاً أم سوء حظ؟ أم أن أعداءه كانوا يتآمرون عليه؟ كان رجاله كسالى غير منتجين، وغير منتظمين وفاسدين أيضًا، وهذا بحد ذاته يمكن أن يكون سببًا من أسباب التوبيخ، وبذلك تكون هذه المرة هي الخامسة التي يجري توبيخه فيها خلال هذا العام. هدده قدماه اللذان كادا ينهارا من تحته. عمد إلى الجلوس في أحد الكراسي. هذا هو زوج تلاتو Talatu أولاً وقبل كل شيء، إنه صهري.

صاح المفتش العام، وهو غير راضٍ عن الوضع "يا أجوايا! Ajuwaya". قفز الضابط واقفًا فى وضع الانتباه. ونظر إليه رئيسه نظرة تهديد.

"أنا أساندك لحد الآن. لقد جندتك قبل أن تكمل تأهلك، رقيتك مرات ومرات قبل زملائك، وأسندت إليك مراكز مهمة. ومع ذلك لا تزال عاجزًا عن العطاء والأداء الجيد. هناك حد لما أستطيع عمله. وأظن أنى وصلت إلى هذا الحد. شد نفسك!"

فرد الضابط كتفيه المقوسين: "قيادتك عاجزة ومتراخية لا تمكنك من الوصول إلى رجال العالم السفلى. وعليه أود منك مرافقه رجالك فى الشارع، وفى الدوريات، حتى يمكنكم اصطياد اللصوص قطاع الطرق الذين يجوسون بالمنطقة الواقعة تحت قيادتك. هذا عمل، حاول أن تثبت وجودك. وإلا قد تقبل وظيفتك قبلة الوداع. وأنا أعنى ما أقول".

حيًا المفتش رئيسه. سبق أن هدده المفتش العام من قبل، لكن أخته تدخلت. لم يكن هناك شيء يرقق قلب الرجل غير المرأة. "لابد أن أطلب تليفونيًا تلاتو هذه الليلة. ولعلها تدافع عنى أمام زوجها". استدار لينصرف لكن رئيسه لم يكن قد أنهى كلامه بعد.

"لا تظن أن أختك قادرة على إنقاذك هذه المرة. إذا فشلت فى العطاء والإنجاز هذه المرة سوف أقبلكما قبلة الوداع. ثم نظر إليه من رأسه إلى قدميه، ثم هسهس وأشاح ببصره بعيدًا عنه. كانت تلك إشارة له بالانصراف.

اعتدل مفتش الشرطة فى كرسيه، وقد سرح فكره إلى بعيد. لم يلق بالا للتليفونات التى كانت أجراسها تدق. غياب الأمن. لم تكن المسألة مسألة إنكار وجود الأمن على حد كلام رئيسه، وإنما هى مسألة من مسائل زيادة العنف. صحيح أن رجاله يعملون، لكن المجرمين يعملون هم أيضًا. الجريمة فى كل مكان، فى لندن، فى أمريكا، فى فرنسا، لكن النيجيريين يودون أن تصبح الجريمة صفرًا

فى بلادهم، وهذا أمر مستحيل. طالما كانت هناك بطالة، وطالما كان هناك جشعون وكسالى سيكون هناك مجرمون وأعمال إجرامية.

ترى، هل هو مهدد فى منصبه ووظيفته؟ كان له أعداء كثيرون ومرؤوسون كثيرون يودون الوصول إلى هذا المنصب، يتحركون يمينًا ويسارًا وعلى المستوى المركزى، ويتقدمون بالتماسات مجهولة المصدر ومعمَّاة ليحلوا محل هذه الرجل. كان يقول لهم فيما بينه وبين نفسه، ليست هناك شواغر. من يمن طالعه أنه كان من عادته إسكان أبرز أعضاء المجلس عن طريق العقود التى تسند إليهم من قبل الشرطة. البعض منهم كانوا يرسلون إليه عشيقاتهم، وهو أيضًا كان يتفضل عليهم بإسناد أعمال التموين إليهم.

خطر بباله: "سيحمينى المجلس. لا يزال يتعين علينا اللجوء إلى التخويف والترويع. الأرجح، أنى ينبغى علَىَّ الانضمام إلى الدوريات. وسيكون ذلك إشارة واضحة إلى المرعوسين".

صاح موجهًا كلامه إلى جدران المكتب "لا! لن أنزل بنفسى مع الدوريات فى الشارع. لقد أمضيت فترة فى ذلك العمل. المفروض أن الأحدث منى هم الذين يتعين عليهم القيام بذلك. هذا العمل يقوم على تسلسل القيادة. لا!" ثم راح يضرب الطاولة المصنوعة من خشب الأرو بقبضة يده.

فكر لحظة. ثم خطر شيء على باله. الإعلان! الإعلان! لابد من تخويف الإعلان فى وسائل الاتصال. طلب مساعد الشرطة على الهاتف: "استدع القوة PRO". نعم، يتحتم علينا تخويف الإعلام؛ سنحكى للشعب عن ذلك الذى نقوم به ـــ ونطلب منهم المساعدة والتأييد، الشرطة للجميع، ساعدونا على وقف الجريمة والإجرام. نعم، نعم، نعم.

الفصل الثالث والعشرون

اندفع هوجان مسرعًا ليعود إلى مقر قيادته، كان قلقًا للغاية. وقام على الفور بإعادة توزيع ضباط المكتب حسب التعليمات الصادرة إليه.

قال لضابطه بصوت عال ووحشية: "توقفوا عن النوم فى الخدمة. حركوا أردافكم المتصلبة هنا وهناك. سنقوم بإغارة كل يوم وكل ليلة. سوف نقابل المجرمين إلى أن يتوقفوا عن إجرامهم. إذا كنتم عاجزين عن الإنجاز والعطاء، استقيلوا وإلا أقلتكم أنا".

كان نائب القائد غير موجود. إذ كان يحضر استلام مهمة معينة. لقد خرج لإلقاء القبض على مستأجرتين كانتا تتشاجران وتقلقان الناس. بعد اجتماع المفتش إلى ضابطه جرى اقتياد المستأجرتين إلى قسم الشرطة. وهنا بدأ لعاب هوجان يسيل على الفور. أطال النظر إلى المرأتين وخلص إلى أنه لابد أن يأخذ منهما واحدة، وبخاصة تلك الممتلئة التى يشبه لونها لون "الأكار" akara.

سبق له أن أوصلها إلى فندق قريب، سبق له ترتيب الأمور والاتفاق مع مالكه. نعم، غرفته المعتادة متيسرة وفى المتناول. سبق له أن مشى هو والفتاة إلى الفندق. وعلى الفور جاءته قارورتان من بيرة النجمة المعتّقة، وقارورة كبيرة من شراب الجين للفتاة، إضافة إلى لفافة من الفوط الورقية، كل ذلك على حساب الفندق، نظير الحماية الشرطية. كان الرجل شبه مرتعد فى ذلك الوقت. آه! من بنات حواء، آه من هذه البنات. كان بنطاله متورمًا ومنتفخًا. أخرج مسدسه، ليقلل الضغط الواقع على بزته الكاكية، ووضعه على الطاولة الموجودة فى منتصف الغرفة.

على الرغم من محاولاته الكثيرة، رفضت السيدة أن تعاشره جنسيًا. فقد كانت على وشك الزواج، ولم تكن مستعدة لقبول الحلول الوسط. توسل إليها، لاطفها، حاول تقبيلها، حاول أن يتلمس طريقه؛ ثم لجأ إلى تهديدها فى نهاية المطاف، مذكرًا إياها بالشجار الذى دار بينها وبين غريمتها. وتمثل كل ما استطاع الحصول عليه فى وعد بموعد غرامى فى وقت آخر. يا أسفاه. كانت ناضجة ولطيفة للغاية. كان اسمها ريفا. قد يكون هذا الأسم زائعًا. كانت النساء متيمات بالأسماء الذائعة والعناوين الذائعة لمن لا يروقون لها ريفًا. أنزلها من السيارة على بعد أمتار قليلة من قسم الشرطة لتدلى بأقوالها إلى نائب القائد.

قال فيما بينه وبين نفسه: "يتعين على السيطرة على نفسى. لو وصل الرئيس أى تقرير من التقارير السيئة عنى، قد أصبح فى خبر كان. الأفضل لى أن التفت إلى عملى وأنجز إن أردت لنفسى تحسنًا هذا العام".

مصداقًا لكلام المفتش العام إلى هوجان، كان مرءوسوه يعرفون أوكار اللصوص. فقد أسفرت إغارة واحدة عن القبض على كثير من المجرمين وتحريز عدد كبير من السلاح.

قال المفتش العام لمساعده: "اعرضوا هذا السلاح وهؤلاء المجرمين على الناس من خلال التليفزيون، حتى يعرف الناس أننا نعمل".

"حاضر، يا فندم".

بدأ رجاله تسيير الدوريات على الطرق سيئة السمعة. كانوا ينصبون الأكمنة لعصابات قطاع الطرق. وإذا ما نجحوا فيما يفعلون سيقوم هو بإبلاغ ذلك شخصيًا إلى الرئيس بنفسه وبذلك يؤمن عمله. قد يعطيه رئيسه مظروفًا بمناسبة عطلة نهاية الأسبوع. كان هوجان مفلسًا. كان يجد، فى كثير من الأحيان أن راتبه الرسمى لا يكفى لتلبية احتياجاته، وأن الراتب لم يكن يغطى ما بين يوم تقاضى الراتب ويوم القبض التالى. كان يقول فيما بينه وبين نفسه، ينبغى الابتعاد عن تلك النساء اللاتى يجهزن على نقودى. هن سبب إفلاسى. يكفى أن أبقى على خدمات اثنتين أو ثلاثة منهن:

دوشيما Doshima، وفاتيموه Fatimoh. أما الأخريات فيجب إحالتهن إلى التقاعد قسرًا على أن يبدأ التنفيذ فورًا. خلال مناصبه السابقة حملت منه ثلاثة سيدات أخريات. أما زوجته فقد أنجبت له خمسة أطفال. وبدأ يلاحظ مؤخرًا أن بطنها بدأ يكبر من جديد. صلى ودعا ألا يكون ذلك فمًا جديدًا فى الطريق. "إما أن أعيش فى حدود مواردى، أو سيتعين على الوقوف على سدَّادة من سدادات الطرق، وأقوم بتحصيل الرسوم. هذا هو ما ينبغى عمله. وليس هناك من خيار آخر".

دبت الحياة فى جهازه اللاسلكى. قال المبلغ: إن هناك عصابة من اللصوص تعمل فى منطقة الكيلو ٧٥. كانت منطقة الكيلو ٧٥، من الطريق الغربى السريع شهيرة بسوء السمعة بسبب العصابات المسلحة الموجودة فيها. الكيلو ٧٥. لابد أن هذه العصابة هى عصابة ميوكا. سوف أعطيهم عشرين دقيقة للرحيل عن المنطقة.... وهنا يخطر على باله الإنذار الذى وجهه إليه رئيسه. قام بتعبئة رجاله. واندفعت الدورية قاصدة ذلك المكان. كانت آلة التنبيه قد حذرت اللصوص وجعلتهم يبتعدون عن المكان. عندما وصلت الدورية إلى المكان كان اللصوص قد ولُّوا الأدبار ــ ساعد رجاله ضحايا الحادث ومشطوا المناطق المجاورة لمكان الحادث. راح الرجال ينتظرون داخل سيارتهم فى الظلام. قد يعود اللصوص. فى بعض الأحيان يهرب بعضهم إلى داخل الغابة، ثم يظهرون بعد ذلك.

كان على وشك الدخول فى مبارة عندما رأى شبحًا يخرج من الغابة. مد ذراعه وأضاء نور السيارة الجيب الكبير. كان الشبح عبارة عن أنثى. وكانت تعلق سلاحًا طويلاً فى كتفها. كانت تحمل بندقية طراز AK47. لابد أنها واحدة من أفراد العصابة. لقد عادت عليه يقظته بالنفع.

فى الأسبوع الماضى فقط، قادت امرأة عصابتها للسطو على البنك من بنوك العاصمة فى وضح النهار. مات فى ذلك الحادث ثلاثة أفراد، من بينهم أحد رجال الشرطة، كان قائمًا بالحراسة. أكد شهود العيان أن زعيمة العصابة كانت عرجاء فى مشيتها.

راقب هوجان ذلك الشكل وهو يلقى السلاح بين الأعشاب. تحرك الرجل جسديًا إذ لم يسبق له معاشرة لمرأة معوقة. كانت سيارة الدورية الأخرى على مقربة منه فى مكان آخر. كان زميله يقضى الحاجة فى الغابة. هل يمكن أن يكون هو.....؟

راح هوجان يراقب أفولينو Afulenu مثلما يراقب القط فأرًا محاصرًا. اقتربت أفولينو وهى ترتعد مثل ورقة شجر فى مهب الريح، ثم وقفت بلا حراك على جانب الطريق واضطرت بعد ذلك إلى مواصلة المسير.

"قف!" توقفت المرأة عن السير. وكانت إحدى رجليها على وشك الوصول إلى سطح الأرض.

صاح الضابط قائلاً: عَرِّفى نفسك!".

نظرت المرأة إلى أعلى. وابتسمت ابتسامة خجل.

قالت وهى تؤدى التحية: "أنا ضابطة، يا فندم. كنت مشتبكة فى حادث. بعض اللصوص كانوا كامنين لنا هنا، انتظرت تبينا للأمر على.....".

تجرين فى الغابة بقدم من هذا القبيل؟ كاذبة.

"من الذى حصل على البندقية التى تخلصت منها الآن؟".

خطر ببال أفولينو، إذن لقد رآنى. غيرت خطتها. وضعت يدها داخل بلوزتها. كانت تمسك فى يدها لفيفة من أوراق البنكنوت، جزء من الغنيمة التى جرى الحصول عليها من المركبة المنهوبة. ابتسمت مـرة ثـانية وهـى تقدم رزمة البنكنوت للضابط، "عشرة آلا ....." أدت النقود إلى تبادل الأيدى.

عشرة آلاف! هذا المبلغ يمكن أن يحل مشكلات المفتش العاجلة. دس رزمة البنكنوت فى جيبه ووقف بلا حراك، إلى أن استدارات البنت وراحت تجرى مبتعدة

عن المكان. ساءل نفسه ما إذا كان لديه متسع من الوقت لواحد على السريع. كان الطرف الآخر لا يزال فى الغابة، يقضى الحاجة داخلها. لو دخل مع هذا الفروج، قد.... زميله خارجًا من الغابة ويرى المشهد فى الحال. وبسرعة تناول بندقية من فوق كتفه الأيسر، ووجهها ناحية السماء وأطلق طلقة فى الهواء. وتنفجر الطلقة فى هواء ما قبل الفجر.

"قِـفْ!"

* * *

الفسق

رقدت أفولينو على الوسادة ومعها كل من ليد Laide، وبلسنج Blessing، وكن جميعًا يطلن النظر إلى السقف. انضمت إليهن يوفيوما. ونظرًا لضيق المكان اضطررن إلى النوم فى وضع عمودى على المرتبة الأسفنجية. كان الجزء العلوى من أجسادهن هو المغطى فقط. أما النصف السفلى فكان ممددًا على الأرض الباردة الخشنة غير المريحة. لم يكن هذا الوضع مناسبًا لكن أفولينو كانت معتادة على أسوأ الظروف. عادت بذاكرتها إلى آخر عملية قمن بها. كانت الذكرى واضحة تمامًا إلى حد أنها كانت تتخيل نفسها وهى تمد يدها وتلمس مُكَيله Mukaila.

"الكلمة معك يا أفولينو".

اتجهت الأعين كلها إلى المرأة الراقدة على المرتبة على الأرض. تجاهلتهن جميعًا. كانت تود أن تكون على انفراد مع حلم يقظتها. كانت غارقة فى استعادة ذكريات عمليات الهروب التى كانت العصابة تلوذ بها، أو بمعنى آخر العمليات على حد قول زعيم العصابة.

كررت إنتلى دعوتها إلى أفولينو.

ردت عليها أفولينو: "أنا لا أريد الكلمة". وأغلقت عينيها وأدارت وجهها إلى الجدار. توقفت لاعبات الورق عن اللعب. وسرعان ما خطرت على بالها فكرة جيدة. استدارت مرة ثانية وقالت للمتحدثة:

"إنتلى، أنت نفسك، معك الكلمة الآن".

كانت تلك العبارة مُكلفة تمامًا. تعلق الوقت عندما أضحت الزنزانة كلها هادئة وبلا حراك. توقفت لاعبات الورق. قذف النرد (الزهر) وأُلقى به على اللوح، ولم يسمع له صوت بعد ذلك. تحولن جميعًا إلى النظر إلى تلك البنت البذيئة.

تجارأت نيرس قائلة: "هل لك أن تعيدى ذلك الذى قلته منذ لحظة؟"

"عرفت أفولينو بفطرتها، أنها تجاوزت حدودها. كان ميوكا قد قال لهم ذات يوم: إن الزنازين لها قانونها ونظامها، ولا يمكن لكن تكسير هذا القانون أو تلك القواعد. لزمت أفولينو الصمت. وهنا نظرت بقية النزيلات إلى إنتلى طلبًا للتوجيه. كانت إنتلى جالسة فى سريرها. يبدو أنها كانت تتأمل أمرًا ما. وقبل أن تصدر إنتلى أى أمر من أوامرها، كانت أومو قد وضعت رضيعها جانبًا ومشت قاصدة أفولينو، ولكمتها لكمة قوية على ظهرها. كانت تلك هى الإشارة التى كانت بقية النزيلات تنتظرها. اندفعن ناحية تلك البنت الوقحة وهجمن عليها من كل ناحية.

حذروها: "إياك والتحدث إلى المتكلمة الرسمية بهذه الطريقة مرة ثانية؟"

قالت أومو وهى تمطر أفولينو لكما وضربًا: "لولا العمة، لكنت الآن فى القبر". غطت أفولينو المسكينة رأسها بذراعيها وحاولت ركل مهاجماتها مستخدمة فى ذلك رجلها استخدامًا جيدًا، لكنها لم تستطع مقاومة النساء ــ سحبنها على الأرض الصلبة وضربنها ضربًا شديدًا.

قالوا: "أهل سجن لافيا لا يعرفون الاحترام. ولا يرضخون للقانون".

كانت إنتلى وبيا هما اللتان لم تتحركا. أما إيا إيبيجى فكانت تقف وتتوسل إلى زميلاتها أن يتمالكن أنفسهن. كانت تقول دون أن توجه كلامها لأحد بعينه: 'Oto , Oto'. بمعنى "كفي". حاولت اتقاء بعض الضربات، بأن أوقفت يد أومو فى الهوء. كانت

أفولينو رفيقة دفعتها فى السجن. اتجهت صوب الفتاة التعيسة المنكوبة وقالت لها: "أفولينو، اعتذرى عما بدر منك، اعتذرى، اعتذري".

نادت إنتلى من مكانها "كفى!".

اقترحت أولوري: "اطلبى منها أن تقوم بعمل المروحة توشيبا".

ذكرتهن إنتلى "الكلمة معها؛ وعندما تنتهى من سرد قصتها، تقوم بعمل التوشيبا".

"وافقت النساء قائلات "نعم، نعم".

خطرت على بال الزعيمة فكرة، قالت وهى تبتسم "الأوقع أن تقوم بدور التوشيبا وهى تروى قصتها".

وافقن جميعهن على هذه الفكرة "نعم، نعم. ومن الآن فصاعدًا سوف تنام على الأرض".

أعطت أولورى مروحة مصنوعة من الرافيه إلى أفولينو، التى تناولتها وهى غاضبة.

لم تصح أفولينو. لن تعطيهن بهجة الاستماع إليها وهى تصيح أو حتى عندما يرين دموعها. قالت فيما بينها وبين نفسها ما تلك التوشيبا إلى جانب ما كنت أفعله، وما رأيته. لقد شاركت فى إغارات، وهذا لعلمكن. اشتبكت مع الشرطة واشتبكت مع قوات الشرطة خفيفة الحركة فى تبادل إطلاق النار. سطوت أيضًا على ثكنات الهجرة وهربت. تعاملت مع أسلحة كبيرة ومسدسات بما فى ذلك المسدسات ذاتية التعمير الذاتى، ومدافع الماكينة، وبندقية الاقتحام طراز AK47، الطراز الروسى، وتعاملت مع الرشاش متعدد الأغراض. ما هى المروحة المصنوعة من الرافيه إلى جانب ذلك كله؟ توشيبا. ما هى التوشيبا؟ لكن إحساسًا ثقيلاً كان يجثم على صدرها، مهددًا بانفجاره. تحاشت اتصال عينيها بأعين رفيقاتها

فى الزنزانة ــ وبوجه صارم وشفتين ممطوطتين، ربطت ثيابها حول وسطها. اعتدت إحداهن عليها جنسيًا بإصبعها ففقدت توازنها، لكنها سرعان ما استعادت توازنها من جديد. لم تنظر إلى أحد منهن، وتجهمت وراحت تمروح عليهن، وهن جالسات فى أسرّتهن ينتظرن دورهن.

قالت إنتلى مذكرة إياها: "الكلمة معك".

"نعم، يا أماه".

"بنت لطيفة".

حدث ذلك على الطريق السريع الغربى، فى ساعة متأخرة من مساء يوم الأحد. كانوا خمسة. كانت مكيلة زعيمتهم فى تلك المرة. كانت الزعامة تسير بالدور بين الرجال. قال دامي: كنا ديمقراطيين فى ذلك. كان هناك دامى، ودون Don جو Jo وساليف Salif. كانوا قد طلبوا منها قيادة واحدة من الدراجات النارية التى يستعملونها فى الهرب، والموضوعة على جانب الطريق. كانت تلك الدراجة من طراز جنشنج Jincheng طراز Ax100، وفضية اللون. أحيانًا، وبعد القيام بعملية من العمليات، يكونون بحاجة إلى التفرق بسرعة ثم يعودون إلى التجمع بعد ذلك. كانت موجودة معهم وممسكة ببندقيتها، وتجلس فى هدوء، فى انتظار الأوامر والإشارة المتفق عليها فتقوم بتشغيل الماكينة ثم الفرار بها. لا يزال صوت الزعيم يتردد فى ذهنها كما لو كانوا فى البار الذى كانوا فيه فى الليلة الماضية، وهم يوزعون المهام. كانوا فى ديموكرسى بار Bar Democracy، وهو البار الذى يحلو لهم اللقاء فيه. كان صاحب البار يقدم لهم الخمر ومختلف الأطباق المحلية، فضلاً عن العشب(*) weed. كانوا متورطين. وكانوا يخفون أسلحتهم ويخزّنونها هى والذخائر فى منزل خارج المدينة: مسدسات، بنادق، باريتات، بنادق آلية. كانت تفضل البندقية AK47. صحيح أنها كبيرة الحجم لكنها قوية، لأن لها قوة نيران

(*) هذه هى الكلمة العامية التى تطلق على عشب الماريجوانا المخدر، ومعروف أن هذا العشب المخدر يسمونه القنب الأسيوى. (المترجم)

تصبح ضرورية فى حال الرد على نيران القناصة الذين يفتحون نيرانهم على اللصوص المسلحين منذ الوهلة الأولى لقتلهم. قالت ميوكا: المسألة فى مثل هذه الحالة تصبح قاتلاً أو مقتولاً".

اجتمعوا فى المكان المحدد فى اليوم التالى. وصلت مكيلة بسيارة مسروقة لتوصيلهم إلى مكان ما على الطريق السريع. كان المكان عند منحنى شديد. لقد اختاروا ذلك المكان كيما يفاجئوا منه سائقى السيارات. فى ذلك اليوم، لم يكونوا قد وصلوا إلى المكان المحدد. عثروا وهم فى طريقهم إلى ذلك المكان، على مركبة معطلة. كان ركاب هذه السيارة جالسين على العشب على جانبى الطريق. كان كبُود السيارة مفتوحًا، وكان هناك شخص ما يحاول إصلاحها. كان ميوكا قد صوّب بندقيته ناحية ذلك الشخص. كانت العصابة قد بدأت تسلب المسافرين الممددين كل ما معهم من نقود فى هدوء. هؤلاء المسافرون أغبياء! إلا أنهم وقفوا فى منطقة عمل العصابة. وهنا خطرت على بال ميوكا فكرة استغلال هؤلاء المسافرين فى توقيف السيارة القادمة. وكان ذلك سبب حبها لميوكا. كانت لديه أفكار. سريع مثل البرق فى الإتيان بأفكار رائعة كانت تدفعهم إلى المضى قدمًا فيما هم فيه. كان ميوكا قد أصدر أوامره لأولئك المسافرين الخائفين بالوقوف على قارعة الطريق، مثل مانيكانات عرض أُشيومول Oshiomole، وهم رافعين أيديهم فوق رؤوسهم. كان من بين المسافرين امرأة مسنة لم تتوقف مطلقًا عن البكاء وطلب الرحمة. وهنا رفسها ميوكا ملقيًا إياها فى بقعة من الزفت الحار. كانوا ينتظرون السيارات التى يمكن أن تمر عليهم. كان الموعد، مع الحافلات الفاخرة القادمة من الشرق. كانت مسألة سرقة هذه الحافلات عملية مغرية لأنها تكون عامرة بالسلع الوفيرة ومبالغ نقدية كبيرة. إحدى الحافلات الفاخرة القادمة من أونيتشا يمكن أن يعطيك عشرة ملايين نيرة من النقد، بلا كلام أو سؤال.

دوى صوت إحدى المركبات. سيارة مرسيدس من طراز V-boot، أخذت تقترب منهم على الطريق. قال ميوكا: ينبغى توقيف هذه السيارة. سوف تهدئ هذه

السيارة من سرعتها عندما يشاهد من فيها سدَّادة الطرق البشرية. أنت يا دامى، مطلوب منك ضرب الإطارات، وبعدها سنقوم نحن بالهجوم ونضرب ضربتنا. أنت حاد، حاد، آه منك يا ميوكا.

من سوء الطالع أن السيارة لم تهدئ من سرعتها. يبدو أن سائق السيارة فهم الخطة. هذا الطريق سيء السمعة أولاً وقبل كل شيء. كانت عصابتها تعمل على هذا الطريق مرات لا تحصى ولا تعد. كانت السيارة قد زادت من سرعتها ــ خافت سدادة الطريق البشرية، وتداخلت فى بعضها البعض طلبًا للسلامة، وعاجزة عن البقاء فى مكانها حتى لا تستسلم للموت. لم يكن هناك سوى المرأة العجوز، وقد وضعت رأسها بين ذراعيها، اللذين وضعتهما على صدرها، حتى لا ترى شيئًا. كانت هذه المرأة العجوز لا تزال موجودة على الطريق عندما جاءت السيارة مسرعة وسوتها بالزفت الأسود، وتناثرت أشلاء مُخّها على الزفت السائل. كانت أفولينو تراقب ما يحدث من مكان جانبى، وكانت على وشك أن تتقيأ وتفرغ ما فى بطنها، إلى أن سمعت ميوكا يضحك وراحت هى الأخرى تشاركه الضحك. كان المنظر فكاهيًا بحق وحقيقة. هذه المرأة العجوز سُوِّيت بالأرض فى ثانية واحدة، فى حين هرب الآخرون مثل الفئران.

من يمن الطالع أن سيارة أخرى كانت تقترب من المكان. رأى السائق المسرع ذلك الشخص الغارق فى دمه على الطريق، وفاجأ البلطجى الذى كان يمسك مدفعًا واستعد للدوران إلى الخلف. مع هذه السرعة! حكت الإطارات فى الأرض وغاصت الحافلة من طراز هياس فى الغابة، وانقلبت مرات عدة قبل أن تستقر على بعد أمتار قليلة من أفولينو التى كانت متأهبة لسرقة الدراجة النارية من طراز جنشنج والهرب بها.

كان ذهن أفولينو منشغلاً بمالك الدراجة النارية جنشنج، عندما تحولت إلى المتحدثة الرسمية لكى تمروح لها. صاحب أو مالك هذه الدراجة كان سمسارًا فى البورصة. فى يوم من الأيام ركبت أفولينو هذه الدراجة. وفى مكان مهجور طلبت

من السائق التوقف حتى تتمكن من النزول. وإن هى إلا طلقة واحدة فى أذنه ومن مكان قريب. وأمسكت بمقود الدراجة النارية وسحبت جثة مالك الدراجة إلى داخل الغابة وفرت هاربة بالدراجة. فعلت ذلك كله لوحدها. كان ذلك هو اختبار ترقيتها. اذهبى وأحضرى لوحدك مركبة من مركبات الهروب، وأحضريها إلى العصابة.

جاءت الحافلة مندفعة. اندفعوا جميعًا إلى مكان الحادث. كان الركاب المحصورون داخل الحافلة. يحاولون التخلص والفكاك من الحافلة المقلوبة. طار جسم أو جسمان قادمان من النافذة، وراحا يتأوهان وسط الغطاء النباتى الغارق فى الدم. انحشر كثير من الركاب مع بعضهم البعض. انفتحت شنطة الحافلة بفعل الصدمات الناجمة عن الحادث. وعلى وجه السرعة، وبمهارة شديدة. راح ميوكا يفتش الحقائب والجوالات، وجمع الأشياء الثمينة. أما هى نفسها فقد قامت بدخول الحافلة المقلوبة عن طريق النافذة المكسورة، وجعلت الركاب المقلوبين رأسًا على عقب يسلمون حقائبهم الملطخة بالدم ومعها مجوهراتهم. تعين عليها نزع الساعات وحقائب اليد من الركاب المغمى عليهم. كانت هناك يد مقطوعة فيها ساعة يد وخاتمان. قامت بفك الساعة وأخذ الخاتمين أيضًا.

قالت لمالك هذه الأشياء المجهول: "لن تكون بحاجة إليها الآن"، وهنا خطرت على بالها رواية جيمس هارلى شيز التى تحمل هذا العنوان. فضل ميوكا الإمساك بأحد الخاتمين فى يده وراح يتصرف تصرف المغاوير.

جرى إخراج امرأة هاذية من الحافة. كانت تلك المرأة شبه عارية، وكانت تئن وسط التشنجات غير الإرادية وهى ملقاة على العشب والحشائش. أبصرت أفولينو سنها اللامع. قالت: "هى، هى، هى. سن من الذهب. الحمد لله!" اقتربت من الراكبة المنكوبة التى راحت تحملق فيها وترجوها وتتوسل إليها من خلال عينيها. صفعتها صفعة ساخنة على وجهها انفتح على أثرها ذلك الفم الذى ينزف دمًا. وخلعت السن الذهبى. خطر ببالها، إنه ليس هناك وسيلة أفضل من الصفع على الوجه حتى يفتح الفم. وتحولت أفولينو بعد ذلك إلى ضحية أخرى كانت تلبس حلقًا ذهبيًا فى أنفها.

لم تستغرق هذه العملية كلها سوى عشر دقائق فقط. كان الآخرون قد اختفوا في سيارة ميوكا. أما هي فقد اتجهت إلى الدراجة النارية حسب المتفق عليه. شغلت الماكينة، وداست على ناقل السرعة ولكن الماكينة لم تشتغل. هناك خطأ ما. راحت تشغل الماكينة من جديد. شرقت الماكينة وأخرجت دخانًا. لا طائل من ذلك. راحت، تشغل، وتعيد التشغيل لكن دون طائل، غطاها الدخان الذى تفوح منه رائحة البرافين.

لم تتخل عن الماكينة الصينية إلا بعد أن سمعت صوت آلة التنبيه المميزة لقوة عمليات تبادل إطلاق النار، وقبعت داخلة إلى الغابة، وتسلقت شجرة من الأشجار. وأمضت الليل كله فوق الشجرة، لحين انجلاء المشهد، وبذلك يمكنها اللحاق بأفراد العصابة فى بار ديموكرسى Democracy.

كان صوت آلة التنبيه لا يزال يدوى، مع وميص ضوئى. اختبأت أفولينو من ذلك الضوء، لكنها لا تزال تسمع صوت آله التنبيه فى جوف الليل الساكن. تخيلت أن الشرطة كانت تجمع الأقوال، وتلتقط الصور فى مكان الحادث. سمعت أصوات كسر السيارة لتمكين المحبوسين من الخروج منها. كان هناك أنين وبكاء وفوضى. أخيرًا، وفى ساعة متأخرة من الليل عاد الهدوء إلى المكان وإلى الغابة.

كانت قد أخفت غنيمتها فى مكان ما من الغطاء النباتى، ووضعت فى جيبها بضع نيرات قليلة. ستعود فى وقت لاحق لأخذ هذه الغنيمة. شقت طريقها بحرص إلى الطريق العام كيما تصل إلى المدينة عن طريق التوصيلات. كان سائقوا المسافات الطويلة يعطونها بعض التوصيلات على الرغم من أنها كانت عرجاء. كل ما يبتغيه هؤلاء السائقون هو ما بين فخذيها.

كان الضباب يحجب الرؤية عنها. وعندما شاهدت سيارة الدورية، كان ضابط الدورية قد رآها بالفعل. سارعت بإلقاء سلاحها فى الغابة. لكن الأوان قد فات. لقد رأوها بالفعل، وسارعوا بإلقاء القبض عليها. كان ادعاؤها بأنها واحدة من

الراكبين المنهوبين، قد ذهب أدراج الرياح ولم يلق أذنًا صاغية. أين إصابتك؟ كان مفتش الشرطة يود معرفة مكان الإصابة. قال: أولاً وقبل كل شيء لقد انقلبت الحافلة. كانت البندقية هي التي كشفتها. كان رفاقها قد ولوا الأدبار وتركوا المكان، ولم يحاولوا مطلقًا الاتصال بها. لكن كان ذلك كله طبقًا لما جرى الاتفاق عليه. "إذا مـــا ألقـــت الشرطة القبض عليك، فأنت تعملين لوحدك، لا تأت على ذكر أسمائنا أو المكان الذى نختبئ فيه".

تنهدت تنهيدة أسف على نفسها. راحت توبخ نفسها فيما بينها وبين نفسها، كان يتحتم على الانتظار إلى طلوع النهار قبل أن أغادر الغابة. كان لابد من الانتظار. لماذا كنت أنا فى عجلة للذهاب إلى اقتسام الغنيمة؟ أنا معى مبلغ كبير.

عرفت السبب. كان السبب هو أوزاريم Osareme. كانت أفولينو تعرف أن أوزاريم تثير ميوكا بصورة دائمة، والعكس صحيح. كان ميوكا، بعد كل عملية ناجحة، يشعر بالنشوة ويطمح إلى "التسلق"، وما لم تكن أفولينو موجودة، يقوم بمضاجعة أوزاريم، كان ذلك سبب تخليها عن الحذر، وتركها لمخبئها على وجه السرعة.

خطر ببالها، بقائى على قيد الحياة يعد معجزة من المعجزات. كانت تعلم أن الشرطة فى هذه الأيام لا تبقى على حيوات اللصوص؛ تفتح النار عليهم لترديهم قتلى وتقول بعد ذلك إنهم كانوا يحاولون الهرب. هذا هو ما حدث فى مرة أخرى عندما تورطوا مع عناصر الأمن فى آجبو. لمست وركها. الشامة الخشنة الناتجة عن الطلقة كانت لا تزال موجودة فى وركها. لو لم يحضر الشرطى الآخر هذه المرة، لكانت قد حققت ما تريد، كانت متأكدة مما تفعل. سمح المفتش لها بالانصراف بعد أن حصل منها على عشرة آلاف...نيره. بدأت تتحرك، محاولة السير بالطريقة المعتادة، ولم تحاول الإسراع، وانفجرت طلقة فى الجو، وبعدها سُمع صوت آخر، كان صوت الضابط الآخر يرعد قائلاً: "قف!".

سألت إنتلى النزيلات بعد أن انتهت أفولينو من كلامها: "هل لديكن أسئلة؟" كان عدد كبير من النساء قد رحن فى النوم. ارتفعت يد من الأيدى. أومأت المتحدثة الرسمية برأسها علامة الموافقة. "ليد" Laide.

استدارت ليد إلى المروحة البشرية الرائدة، "كان يتعين عليها فتح النار على ضابط الشرطة. قلت إنك كان معك بندقية وألقيتها أرضًا للتخلص منها. لو أنى فى مكانك لكنت قتلت ذلك الرجل وهربت بسيارته الجيب".

ردت عليها إنتلى قائلة: "يبدو أنك تشاهدين أفلامًا إجباوية كثيرة. غربيون من الشرق. أفولينو ليست جون وين Wayne، أو ستيف ماك كوين؛ وليست بيت pete إيدو شاى أو سيجون ادينز".

أبدت المتحدثة الرسمية ملاحظة: "أفولينو كانت لا تزال مبتدئة". رفعت سوزانا يدها. أعطتها إنتلى الكلمة.

"أنت تفتقرين إلى الصبر. كان مفروضًا أن تبقين فوق الشجرة إلى أن تسمعى صوت سيارة الشرطة وهى تغادر المكان. بعض المهن تتطلب من المرء جالونات من الصبر. التسرع يفسد النجاح".

لم تقر أفولينو هذه النصيحة. أنا، أفولينو، لازلت مبتدئة! وكانت على وشك أن تنفجر ضاحكة. تقولين إن أفولينو مبتدئة! كم عدد الحافلات التى لم ينهبوها، الحافلات التى بها أكثر من خمسين راكب من الرجال أصحاب البنى القوية. كم عدد السيارات التى لم يهاجموها! كم عدد المسافرين الذين لم يغتصبهم الأولاد؛ صغارًا، ومتوسطى العمر، وكبارًا؟ فى بعض الأحيان وعندما كانت تصلهم معلومات تفيد أن الحافلة تحمل سلعًا غالية، كان ميوكا يصدر تعليماته للناس بأن يخرجوا محافظ نقودهم وهواتفهم المحمولة ثم ينزلون من الحافلة. ويقوم هو بنفسه بقيادة الحافلة الفاخرة إلى مركز رئاستهم، ليقوم بإفراغ الغنيمة فى وقت الفراغ. كل ذلك وتقولين: "أفولينو مبتدئة"! من فضلك، لا تجعلينى أضحك. إذا لم يكن لديك ما تقولينه، فلماذا لا تغلقين فمك.

أحست بألم فى ذراعيها، فى رجلها المصابة بسبب وقوفها الطويل عليها، وبسبب سيرها وتنقلها وهى تعرج هنا وهناك مثل طائر لا يعرف الراحة. كانت تتبادل استعمال يديها. لم يكن الانتظار أو التوقف فى صالحها. غير مسموح لها بالراحة حتى ولو للحظات قصار. كانت تنتقل من نزيلة إلى أخرى، كانت تمروح خمس مرات من أعلى إلى أسفل على كل نزيلة من النزيلات، ثم تنتقل إلى النزيلة التالية وفى يدها المروحة. حتى الأطفال الصغار كانت تمروح لهم أيضًا. تخيل هذه الإهانة.

بدأت المتحدثة الرسمية كلامها من جديد، ذلك الفم الشبيه بالسلة، والذى يوعوع باستمرار. لا تغلق فمها مطلقًا. ربما يكون رأسها مقلوبًا. قالت أفولينو بصوت غير مسموع "بولدُج بلا أسنان"(*).

كانت إنتلى تقول: "أنت إذن مجرمة من المجرمين الذين يسطون على الحافلات".

أردفت القسيسة: "وتغتصب أيضًا الركاب الإناث. هذا حقد وغل!"

نظرت أفولينو إليها نظرة حقد وغضب.

لم ترد محاربة الطرق السريعة. قالت أفولينو فيما بينها وبين نفسها وهى تعدل وضع المروحة التى فى يدها: "كيف لامرأة باغتصاب امرأة أخرى؟ أمخاخ مثل هؤلاء البشر تدور حول نفسها". جهَّمت وجهها بحيث يحمل نظرة التحدث وتحولت إلى عملية المروحة على المتحدثة الرسمية. لكن هذه المرأة عندها بعض الحق فيما تقول. عصابتها الأولى، عصابة جايد Jide، كانت متخصصة فى اغتصاب النساء المسافرات. كانوا يقولون: التشكيلة كبيرة، ولا يمكن لهم أن يتركوا الفرصة تمر. كان من عادة جايد أن يأمر النساء المسافرات بخلع ملابسهن بحيث يصبحن عاريات تمامًا، ويدرن حول أنفسهن حتى يمكنهن تفتيشهن. كان

(*) البولدُج : كلب ذو رأس كبير وأنف أفطس. (المترجم).

الرجال يفضلون النساء الصفراوات اللاتى لهن أثداء مثل كرة القدم، وإليات مثل البطيخ. وكانوا ينتقون منهن. فى بعض الأحيان كن ينتقين منهن ثلاثة أو أربعة ويتناوبون عليهن بينما تقف هى حارسة لهم ببندقيتها، وتستطلع الطريق من بعيد. فى أحيان أخرى كان كل واحد من الرجال يختار اثنتين من النساء ويأخذهما على جنب. كان جايد هو أول من يختار. فى بعض الأحيان، كان يختار عددًا صغيرًا من النساء ويطرد الباقيات. وتقوم العصابة بمضاجعة الحظيظات القليلات بالدور. كانت الأمهات والبنات، فى كثير من الأحيان يلقين هذه المعاملة. فى أحيان أُخر كان الأزواج يراقبون ما يجرى وهم لا يملكون حولاً أو طولاً، وزوجاتهم تجرى مضاجعتهن فى الغابة. حدث ذات مرة أن راح أحد الحكام التقليديين يتلوى ألمًا عندما اقتاد رجال العصابة زوجته الوقورة إلى داخل الغابة. كانت تعرج لأنها ربما كانت مصابة بروماتيزم المفاصل، مثل أمى. النساء المسنات يُصبن دومًا بالروماتيزم المفصلى.

غمغم الرئيس Chief وهو غير قادر على تحمل ما يجرى "هذا شيء بغيض" ويتفل بعد ذلك.

قالت الزوجة راجية زوجها: "لا تتهور وتفعل أى شيء، حتى يتلطفوا معى ولا يؤذوني".

كانت أفولينو تكره مضيعة الوقت. وكانت تحسد الرجال على هذه المتعة. كانت تود الاحتفاظ بجايد لنفسها فقط لكن الرجل كان يتخيل نساء أخريات: كان يمارس المضاجعة فى كل عملية من عمليات السطو التى كانوا يقومون بها. كان يقول: إن تلك كانت علامته المميزة. حدث ذات مرة أن قبل البنت فى فمها وحذرها من أن تتفل. تخيل. تقبيل الفتاة. وبعد أن أحست بالغثيان تركت عصابة جايد وانضمت إلى عصابة ميوكا. ذلك الحريص، ذلك الواعى. كانت المتحدثة الرسمية لا تزال تتكلم.

"تودين أن تعرفى ذلك الذى فعلته إنتلى؟ صبرًا. ستعرفين ذلك حالاً. أعظم الرقصات التنكرية هى التى تدوم طويلاً. أيتها الفتاة الحمقاء".

زارت أخوات فالور باتسى فى السجن مرة أخرى فى عصر يوم من أيام الأحد، بعد انتهاء عملهن الكنسى. صاحبهن فى هذه الزيارة أخ يعمل بالمحاماة. تعاطفن مع باتسى فى مسألة سوء حظها وشجعوها على أن تزداد ثقتها بالله ﷻ.

قال قائد الجماعة: "جمعنا لك تبرعات فى الأسبوع الماضى. استعدادًا للتكلفة القانونية. كان أعضاؤنا أسخياء وكرماء تمامًا. جمعنا ما يزيد على مائة ألف نيرة. أنا أعرف أنه ليس من مصلحتك الاحتفاظ بهذا المبلغ هنا، وعليه....".

قالت باتسي: " أشكركن أيتها الأخوات، وأشكرك أيضًا أيها الأخ". راحت عيناها تتفحص الزائرين. "أرجوكم أن تبلغوا شكرى للإخوان. اشكروهم نيابة عنى. أنا أطلب منهم أن يصلوا من أجلى. سيفعل الله ﷻ الخير. أنا لم أقترف ذنبًا أو جريرة. مسألة أن تصبح المرأة كفالة أو ضمانًا لزوجها لا تعد جريمة".

رد الزائرون، "آمين!".

واصلت باتسى كلامها: "لكن يا أختاه، إذا لم يكن لديك ما يمنع، احضرى النقود معك فى الزيارة القادمة، نحن هنا بحاجة إلى النقود لقضاء بعض الأمور الصغيرة. ستكون فى مأمن، ولذلك فأنا أطلب منك إحضارها". كانت باتسى تفكر فى الإحسان. ينبغى أن أكون قادرة على دفع ثمن حريتى.

راحوا يصلون بصوت خفيض ويرددون أغنيات الشكر والثناء. أحست باتسى بالقوة لأنها حركت أسرتها. وفى مرحلة معينة سألت باتسى عن زوجها الأخ عمانويل.

قيل لها: "ليس لدينا عنه أخبار بعد. نحن لا نعرف شيئًا عنه منذ أن تخطى مسألة الكفالة المالية. يبدو وكأنه قد اختفى فى الهواء".

قالت: "وسيفعل الله الخير".

"آمين!".

الفصل الرابع والعشرون

جلس الأب آنين فى هدوء مكتبته وهو يحاول مصارعة ضيقته غير المرئية. كان الرجل يحاول تدوين بعض نقاط موعظة الغد. كان عيد الميلاد قد أصبح قاب قوسين أو أدنى. كان قداس عيد الميلاد غاية فى السهولة، لكن يتحتم تجهيز شيء ما، الأمر يستلزم حقن فكرة جديدة فى القياس. كانت هناك مجلدات كثيرة مفتوحة على طاولة الرجل. كان هناك مجلد عن علم اللاهوت، وآخر عن الفلسفة ومجلد ثالث عن المادية. كان ذلك كله بخلاف إنجيل القدس الذى كان مفتوحًا على جزء جرى اختياره لمناسبة الغد. لكن دولورس(*) Dolores كانت تمنعه من التركيز. واصل الأب آنين مقاومته؛ كانت الكلمات تتراقص على الصفحات وتتساقط مثلما يتساقط الأطفال على أرض الملعب. حاول جاهدًا فهم ما يقرأ، لكن لا طائل من ذلك كله. أنزل قلمه، وأغلق عليه الكتاب الكبير. فرد رجليه المتينتين المتقاطعتين مع بعضهما عند الكاحل. دعك عينيه الحمراوين، منعًا للدموع. كان بنجو Bingo ينبح نباحًا شديدًا فى الخارج. ومن الذى قال إن الكلاب تستطيع رؤية الأشباح؟

كان الأب آنين مهمومًا. لم يكن لديه مكان يذهب إليه، ولم يشغل أحد نفسه بالمجيء لزيارته. حياة الرهبنة هى حياة وحدة، قال هذا الكلام لنفسه عشرات المرات. لو سارت الأمور حسب المخطط لها، فربما أصبح الآن أبًا بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة، ودولورس بالقرب منه؛ وليس جالسًا هنا لوحده، على الحال الذى كان عليه طوال الساعات الثلاث الماضية تقريبًا، حيث كان يحملق فى الفضاء. آه يا دولورس! أنا لا زلت أتسبب فى الأذى بعد هذه الشهور الطويلة. أنا لازلت أتذكر بعد هذه الفترة الطويلة. كانت تلك هى مرته الأولى والوحيدة التى يطعم فيها مذاق الصداقة مع الجنس الآخر. لقد آلمه ذلك كثيرًا. وكان قد أسلم كل شيء: الجسد، والعقل، والروح.

(*) معنى هذا الاسم هو: "المحزن" بضم الميم وتسكين الحاء وكسر الزاى (المترجم).

قال بطريقة فظة: "لقد، كسبت يا دولورس. ما هذا؟" وشبّك أصابعه بين ركبتيه وراح ينتظر.

هبط الشبح الذى كان يحوّم حول مروحة السقف وركع عند قدمى القسيس.

قالت: "أنا آسفة. سامحنى".

بكى وهو واضع عينيه على يديه "قتلتنى. أنهيتنى يا دولورس. كنت خوريا عامًا للشمامسة، هل تذكرين ذلك؟ كنت قريبًا جدا من فضله ﷺ. لكنك أجهزت علىّ".

هفهف الشبح قائلاً: "الذى يُعْطى الكثير يُنْتَظر منه الكثير. أنا لا أستطيع التمادى فيما نحن عليه".

"كان لابد أن تُخبْرينى، كان بوسعك أن تحذرينى فى شيء من الأدب والتوقير. لقد جعلتين أحمقًا".

"كاهن اعترافى منعنى من رؤيتك مرة ثانية".

بكى بكاء حارًا بين يديه، وأنفه الشبيه بالمنجل تتساقط منه بعض القطرات". لولا فضله ﷺ، ولولا كبير الأساقفة، لكنت....." ويهتز كتفاه. "آه، يا دولورس. دولورس.... قلت إنك تحبينى. قلت ذلك مرات كثيرة. صدقتك. لقد كنت مغفلاً، لقد صدّقت كل ما قيل لى".

هز رأسه بحيوية "أنا لازلت أحبك، صدقينى". والدموع تترقرق فى عينيه، واقتبس عن شكسبير:

الحب لا يكون حبًا
يتغير عندما يعثر على التغير،
أو ينحنى مع المزيل كيما يُزال.
آه، لا! إنه علامة ثابتة إلى الأبد،
تنظر إلى العواصف ولا تهتز مطلقًا؛

أنهى كلامه بطريقة غير مقنعة "لقد اهتززت، يا دولورس. أنت لا تستطيعين الحب. أنت لم تحبى. لقد اهتززت مثل بوصة فى مهب الريح، أيتها المرأة الوقحة".

"لقد كان عشقًا أيها الأب، لكنه لم يكن إيدوس(*)*. الفارق كبير". راحا يحملقان فى بعضهما البعض.

قالت له متفلسفة: "الحب هو حب يتغير، عندما يعثر على الهيكل". وينصرف مهمومًا بعد ذلك.

تجاهل الشيخ على الأرض لأن ذهنه رجع إلى الوراء ستة أشهر.

* * *

أنهى حزم حقائبه وكان ينتظر بزوغ فجر الحرية، وشمله قداسته بلطفه وناداه.

حار بينه وبين نفسه فى مسألة الاستجابة وعدم الاستجابة. اعتبارًا من باكر لن يكون فى هذه الجمعية Archydiocese، لن يصبح مسئولاً أمام قداسته بعد الآن. لكنه فى كل الأحوال ذهب إلى الكارتدرائية. قال فيما بينه وبين نفسه: "لا أستطيع البقاء معك سوى ساعة واحدة. وبعدها سوف يتعين على المحافظة على موعدى مع الأخت دلوروس وحياتنا الجديدة مع بعضنا". لقد قررا الهرب إلى إيطاليا، إلى واحدة من القرى الجبلية. هما لديهما بالفعل تأشيرات الدخول. وهو أيضًا استفاد من موقعه فى الكنيسة فى الحصول على تذاكر السفر. كل ما يتبقى هو شيء قليل من المال، يستعملانه إلى أن يستقرا ويجدا عملا لهما. كانت الأخت ممرضة مؤهلة. بوسعها العمل فى بيوت كبار السن. أى عمل يكفى طالما أنهما سيكونا مع بعضهما فى نهاية اليوم. لبس رداءه الأسود وركّب عليه الياقة الرومانية. خطر بباله أن هذه ربما تكون المرة الأخيرة.

(*) إيدوس: إله الحب عند الإغريق (المترجم).

قبّل الخاتم وهو يقول: "قداستك".

أجَابَه صاحب القداسة "أبتّ". كان بطريركا حقيقيًا، وكان يبدو عليه وقار واحترام كبار الكنيسة. كان يرتدى الغفّارة(*)، كان يرتدى أيضًا طاقيته وردية اللون التى تلمع فى ضوء النهار. فتش جيبه وأخرج الورقة وردية اللون.

حدث ذلك عندما توقفت ضربات قلب الأب آنين. تعرف ورقة الكتابة التى كان قد أحضرها خصيصًا لتدوين خلجات حبه لدولوروس. انكمش بينه وبين نفسه وراح يحملق ويطيل النظر مندهشًا. فشلت قدماه فى التحرك إلى الأمام، كيما تواكب خطو قداسته. تناول آنين الرسالة وفضها. كل الذى كان يود رؤيته هو التاريخ. وعندها سيعرف المرحلة التى جرت خيانته عندها. حملق فى الورقة التى تهتز، ووجد أنها واحدة من الأوراق التى أرسلت منذ وقت قريب، وقد لخص فيها خطط سفرهما. انكمش أمام كلمات الحب التى خطها بيده أثناء مرضه بالحمى، هذه الكلمات أصبحت عامة حتى يراها الجميع. تعثر وكان على وشك السقوط على السجادة العشبية لولا يدا رفيقه القويتان اللتان امتدتا إليه. لم يكن للكلام ضرورة أو مجال. وعليه بقيا فى مكانهما، متشابكَى الأذرع وهما ينظران إلى الخضرة وهما شاردا الذهن.

أخيرًا، استأنف قداسته خطوة. تنحنح وتكلم كما لو كان يناجى نفسه.

"لقد نقلتها إلى دير بعيد".

"سوف أقدم استقالتى...." خطر بباله أنه لم يكن مدربا على أى عمل من الأعمال سوى العمل فى بستان الرب. ماذا يفعل؟ إلى أين يذهب؟ ربما لن يكون أمامه سوى التدريس وأعمال الأكليروس وفى المناطق النائية. سوف يتعين عليه تحاشى أهل الأبرشية.

(*) الغفارة بفتح الغين وتشديد الفاء وفتحها هى رداء الكاهن (الكاهن)

"هذا هراء. ستكون بحاجة إلى التغلب على ما أنت فيه. هذا هو كل ما الأمر".

خطر بباله، سأكون محتاجًا إلى الأبد. وقال بصوت عال: "أنا لا أعرف إذا ما....".

"لا، يا صاحب القداسة. لا، أرجوك".

هو الآن بحاجة إلى العمل أكثر من ذى قبل ومن أى شيء آخر. القيام بإجازة، دون أن يكون لديه ما يفعله، قد يصيبه بالجنون والخرق. "أنا لست بحاجة إلى إجازة". خطر بباله، أن ذلك سيكون بمثابة الحكم بالسجن؛ حياة أشغال شاقة. صمت قليلاً.

"سأترك الانخراط فى سلك الكهنوت. لقد أسأت إلى مهنتى. أنا لا أستطيع الاستمرار".

"إذا كنت قلقًا من الإعلان، لا تقلق لا أحد يعرف من الأمر شيئًا سوى ثلاثتنا. ورئيسة الراهبات بطبيعة الحال. هذه الأشياء تحدث فى حياتنا. الإغراءات تهاجمنا. يتعين أن نكون حذرين ونصلى". صمت القسيس قليلاً. ووضع يديه خلفه فى حالة تأمل وقال مقتبسًا "يا سايمون، يا سايمون، الشيطان يود أن ينخلكم مثل دقيق القمح. لكنى صليت من أجلكم حتى لا يفشل إيمانكم. وعندما تشفون، سيتعين عليكم بدوركم تقوية إخوانكم".

كان آنين قد جثا على ركبتيه ثم انحنى مرتين. أحس بفراغ داخله. لقد تركه رجل الدين الكبير. أخرج مسبحته وواصل سيره.

بكى آنين بكاء مرًا، صرخ تلك الصرخة التى لم يصرخها منذ ولادته. أحس أنه مرفوض، باعه أحد المقربين إليه. أحس بالألم فى أطراف عظامه. وأدرك بعد ذلك مدى حرج الموقف، نهض واقفًا وانضم إلى قداسته. راح الكردينال يتلو

بصوت عال: "مرحبًا بك يا مريم العذراء المليئة بالفضل. الله معك. مباركة أنت بين النساء، ومباركة ثمرة فرجك، يسوع". ويجيب آنين: "يا مريم الطاهرة، يا أم الرب God، صلي من أجلنا نحن الخطائين، صلي الآن، وصلي أيضًا عند موتنا. آمين". أقل ما يقال، أنه كانت هناك امرأة مخلصة، لم تخدعك مطلقًا. يا مريم، يا أم الرب God.

قال جلالته فى نهاية الابتهال: "هناك قسيس زائر من خارج البلده. ربما جئت طلبًا للاعتراف. ثم تعود بعد ذلك إلى مهامك". أبرز إصبعه الذى فيه الدِّبلة. جثا الأب شارلز إلى الأسفل وراح يقبل العُصَابة الذهبية اعترافًا بالشكر والامتنان. كان قلبه، روحه كلها، مضطربًا، لكنه يود أن يعيش. تخلى عن ألمه. خطر بباله، سوف الحسه فيما بعد. مع كبير أساقفة من هذا القبيل، سوف يحيا. قد لا يلتئم الجرح مطلقًا، لكنى سأحاول الاستمرار. باركة قداسته ووضع يده فى خشوع على الرأس المضطرب، وعندما عاد إلى المنزل، كان قداسته يفكر فعلاً فى أمر آخر.

قال: "ريح السموم شديدة هذا العام".

رد عليه قداسته: "نعم، هى شديدة فعلاً، شديدة جدًا".

عند هذه النقطة، يفيق آنين دومًا من حلم يقظته. جفف عينيه ونهض واقفًا. كان يعرف ذلك الذى سيعمله.

رحب بالشبح قائلاً: "دولورس سوف أطردك من ذهنى بالأدعية. أنت تحتلّين أفكارى طوال ثلاث سنوات، سكنت فى عقلى، عذبتنى، رَفَضْتِ إطلاق سراحى. وأنا بنفسى سوف أطردك الآن من منظومتى عن طريق الأدعية، سوف أطردك إلى الآبدين. آمين".

انتظر الشبح. راح يبحث عن مجلداته الموجودة على الرف، لاهوت، فلسفة، كتب مواعظ، عصر العقل، الأناجيل، الجدليات، إلخ. ويعثر بعد ذلك على ما يريد. كان كتيبًا صغيرًا، ألّفه الدُّن Don جبرائيل؛ طارد الأرواح الشريرة بالأدعية. كان

عنوان الكتيب طرد الأرواح بالأدعية فى الكنيسة الكونية. قلّب صفحات الكتيب، ثم عاد إلى فهرس الكتيب. قرأ بصوت منخفض ـ متطلبات ـ الصِّلب، المنْضَحة،(*) الماء المقدس، طريق الخروج. كان لديه ذلك كله. ذهب إلى النافذة وفتح مقبضها ليفتحها.

أحدث إشارة الصليب فوق مخاوفه. حاول جاهدًا تذكير نفسه. ما هذا الذى أفعله الآن؟ وجه هذا السؤال إلى الصورة التى فى زجاج النافذة. لابد من طردها. لابد أن أطردها. لابد. أنا لا أقوى على ذلك.

استدار إلى الشبح. حدث الارتباك. من الذى يتعين طرده، أنت أما أنا؟ إذا كنت أنا، هل طرد الذات ممكن؟ تعجب. وإذا كانت دولورس، هل يمكن طرد شبح الإنسان عن طريق الأدعيه؟ ألا ينبغى على أولا البحث عن مكانها ثم أطردها بدلاً من ذلك؟ كاهن اعترافى منعنى من الاتصال بك.

أحس بالضعف، خارت قواه، شعر بالوحدة. صاح، يالها من حياة! حياة الرهبنة حياة وحدة. المرء فيها يعتمد على نفسه وذاته.

ولول من جديد وهو يهز رأسه مرارًا "آه يا دولورس، لقد انهيتنى، لقد قتلتنى" وإلى أين ذهب الشيطان عندما يُطْرد؟ يقول الكتاب المقدس إنه دخل فى البجع ودفع به إلى قاع البحر. سأل الروح الشريرة إلى أين ستذهبين عندما تُخلعين من مكانك؟

انتظر، غير قادر على إبعاد جسمه عن النافذة. كان لا يزال هناك يتأمل مستقبله، عندما طرق بابه شخص ما، ليعيده إلى الحاضر.

* * *

(*) المنضحة: بكسر الميم وتسكين النون وفتح الضاد، هى مُرشّة الماء المقدس عند النصاري(المترجم).

جاءت أم بيا لزيارتها. لقد اتصل بها القسيس الكاثوليكى. كانت أسرتها قد فقدت الاتصال بها منذ شهور. كانت أسرتها مكروبة، وحائرة لأنها لا تعرف المكان الذى نقلتها الشرطة إليه؛ أصبحوا لا يعرفون الطريق إلى زيارتها. قام حماها بالبحث فى بعض السجون. لم تكن موجودة فى أى من تلك السجون. اليد قصيرة. لم يكن بوسع الأسرة زيارة مائتين وسبع وعشرين مؤسسة من المؤسسات العقابية، المنتشرة فى أنحاء البلاد، وما يحتمه ذلك من إعطاء الحوافز للسجانين قبل أن يحصل المرء على تعاونهم. من يمن الطالع، أن جاءهم ذات يوم قسيس كاثوليكى وقال لهم: إن ابنتهم وأختهم كانت فى سجن فريمان فى منطقة العاصمة الفيدرالية.

عندما رأت الأم ابنتها وهى حامل، لم تقوَ رجلاها على حملها وسقطت على الأرض مغشيًا عليها. كان على بيا أن تنزل على ركبتيها على الجانب الآخر من الحاجز، لكى ترحب بأمها المسنّة. راحت الأم تغمغم قائلة: "بيا، إنه أنا، أنا أمك".

أومأت الأم برأسها. "بيا، أهذا الشىء الذى أراه أنت، أم أنك بيا فعلاً؟" كانت بيا نحيفة ويبدو عليها المرض. تبخر فرح واهتياج رؤيتها لأبنتها، وضاع منها أيضًا الحديث عن طريقة العثور على ابنتها.

غمغمت الأم قائلة: "بيا".

تماسكت الأيدى من خلال القضبان "أمى، مسوغ Msugh" لم تقو المرأة المسنّة على الكلام. جثم على صدرها حمل ثقيل.

كررت الابنة من جديد: "مسوغ، أمى حبيبتي(*)؟".

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة بلغة الأيفى ?upa de nena (المترجم).

لمست بطن ابنتها: "بيا، ماذا حدث؟ من؟ ومتى؟" لم تستطع إنهاء كلامها "أم أن هذا مرض؟"

"لقد اغتصبت عندما ألقوا القبض على وعندما أحضرونى إلى هنا". تدلّى رأس الأم على صدرها.

"تشجعى وتمالكى نفسك يا أمى، فليست هذه هى نهاية العالم".

انفجرت الأم فاقدة سيطرتها على نفسها. "لا تقولى لى تشجعى وتمالكى نفسك. الكل يقولون لى تشجعى وتمالكى نفسك. كيف لى بهذا التشجع والتمالك؟ كم عدد الأمهات اللاتى لهن بنات فى السجون؟ لماذا أتمالك نفسي؟ فى البداية، مات زوجى. وما أن دفنته حتى بدأت أسرته تبحث عن ممتلكاته، والاستيلاء على أراضيه. وبعد ذلك، هذه هى ابنتى التى تخرجت لتوها من الجامعة، لتساعد الأسرة، توضع فى السجن بدلاً من ذلك. وتقولون لى تشجعى وتمالكى نفسك. زرنا أكثر من عشرة سجون، بحثًا عن ابنتى. وعندما أعثر عليها، وعندما أعثر عليها، أجدها مُغتَصبة. ويقولون لى تشجعى وتمالكى نفسك"، مسحت دموعها بطرف ردائها. حملقت بردجت فى أمها. مغلوبة على أمرها. واستأنفت دورها المعهود فى تطييب الخاطر.

"أمى، إذا كان هذا هو إحساسك، فما الذى تودين أن أفعله؟ ينبغى على قتل نفسى إذن".

ضربت صدرها بأصابعها: "حاشا لله!".

"أنا أيضًا فكرت فى حياتى. فى البداية لم أطق تحمل الحال الذى كنت عليه. لكنى الآن، الآن فقط، أقبل ما حدث على أنه من إرادة الله. وما علينا سوى التحمل".

"وماذا عن قضيتك؟"

"بلاك ماريا مجرّشة. لقد رأيتموها فى الخارج. كل ما يفعلونه هو تدفئتها. لكن وقود الديزل غير موجود أو متيسر هنا. فور تسيير هذه السيارة على الطريق، سيصبح بوسعنا سماع الاتهام. لكن ردًا على سؤالك لم يحدث شيئًا إلى الآن".

"اتصلت بأحد المحامين. وهو يطلب أتعابًا مقدارها خمسون ألف نيرة. وهو يقول إن بوسعه إطلاق سراحك، لكن الأمر يتطلب مقابلة أناس كثيرين. ونحن الآن نحاول تدبير هذا المبلغ. لقد أخذت وعدًا من بعض الناس".

"أمى، إذا حصلت على هذه النقود أحضريها لى هنا". خفضت صوتها ونظرت حولها. كانت السجانة مشغولة فى حوار مع حارس آخر". قالت سجانتنا إنها ستقدم اسمنا فى طلب العفو، إذا ما رأيناها وراعيناها".

سألتها أمها: "هل أنت متأكدة من ذلك؟ أنت تعرفين حال هؤلاء الناس".

"ليس هناك بديل الآن عن ذلك. إما هذا وإما....".

حركت ذراعيها لتشير إلى جدران السجن "وإما ذاك".

تكلمتا عن شقيقات بيا. أوضحت الأم "كن يردن الحضور معى. لكنى رفضت. دعونى أذهب بنفسى وأعرف المكان أولاً، وأتأكد ما إذا كنت فى المكان أم لا. أين كنّا؟"

"قولى لميرى Mary تستعد. عندما يولد هذا الطفل، ستجيء هنا لتأخذه". كانت مارى أختها الكبيرة المتزوجة. لم تقل المرأة شيئًا. كانت أفكارها سارحة فى مكان آخر.

"أنت لا تقولين شيئًا يا أمى".

أشارت إلى بطن ابنتها "من أبوه؟".

"أنا لا أعرف الرجل".

"هل التقيته هنا أم.... كيف حدث ذلك؟"

" من فضلك يا أمى".

"من أين هو؟ هل هو من التيف مثلنا، أم من اليوروبا، أو الإجبو، من أين؟".

"صدقينى، أنا لا أعرف". أنزلت المرأة المسنة يدها استسلامًا. واصلت ابنتها الكلام. "أنا لا أعرف. كل ما نعرفه أن هذا الطفل هو طفلى، ومن ثم فهو طفلك أيضًا. سيكون طفلاً لكل إنسان وأخا لكل الإخوان.

"فهمت".

"أو قد تكون اختًا للأخوات. لكن لدى إحساس أنه سيكون ذكرًا. الولد الذى خدعك".

"بغض النظر عما تقولينه يا بيا. لقد كابدت الكثير. أتعجب فى بعض الأحيان من مدى تحملك لكل ذلك. ليتنى كنت فى مكانك أو بدلاً منك. سأبذل كل ما فى وسعى لإخراجك من هنا. دعيهم يأخذون الأرض كلها. ما هى الأرض؟ ليست أى شيء سوى أنها أرض. إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء، لكى تعودى إلى يوم أن كان أبوك على قيد الحياة". تنهدت. "تلك الأيام السعيدة. لم يكن أحد يعرف أن المعاناة فى انتظارنا".

"دوام الحال من المحال، يا أمى، وعلى ذلك سيمضى ما نحن فيه فى يوم من الأيام". ابتسمتا إلى بعضهما. الوقت يمر. كانت تلك الزيارات قصيرة وتعتمد على هوى الضابطات لمست بيا الأم المُسِنَّة: "احضرى النقود يا أمى. وسوف أرى ما ستفعله السجانة. وإلا، ما أن "ألِد" هذا الطفل وأسلمه لكما، فسوف أهرب من هنا. وإذا ما راق لهم فليفتحوا على النار. الموت أهون من أى يوم من أيام هذا السجن. نحن ميتون هنا بالفعل".

وعدتها أمها: "سأبذل قصارى جهدى فى مسألة النقود. أناس كثيرون قالوا إنهم سيساعدون، لكنك تعرفين أحوال البشر".

"ابذلى قصارى جهدك. وإذا لم تفلحى فى ذلك، داومى على زيارتى. قال أحد الأطباء الذى جاء هنا للوعظ والإرشاد قال إنى سوف أضع حملى خلال شهر. ويتعين عليك المجيء إلى هنا لتأخذى الطفل".

غمغمت المرأة المسنة رغمًا عنها "لا أب، ولا مدينة".

"سيكون الله والده، وكل الناس إخوانه. والبلاد كلها ستكون له موطنًا".

تكلمنا عن أشياء أخرى. كانت الأم قد أحضرت معها مقبّلات وطنية. أحضرت معها بعض الجنادب المدخنة، وبعض البذور الغذائية، وبعض الفطائر. "لو كنت أعرف لأحضرت معى شيئًا من حليب الماعز. هذا الحليب مفيد للحال الذى أنت عليه".

"فى المرة القادمة يا أمى". نظرت حولها. ستأتى السجانة حالاً وتنهى الزيارة. كانت بيا تود أن تعرف شيئًا ما فسألت أمها. "كيف الحال؟".

"هذا من فضل الله. أنت تعرفين أنهم بعد أن ألقوا القبض عليك، قامت القرية بطردنا لأننا أزهقنا روح واحد من أقاربنا. وعدت أنا إلى منزل والدى. وهذا هو الحال الذى نحن عليه الآن".

"تصرفى فى النقود المطلوبة يا أمى. سوف يطلق سراحى. بعد ذلك سنبحث عن طريقة لمهادنتهم. كل المخالفات لها عقابها، إلا قضيتى فليس لها علاج حتى الآن". أومأت الأم برأسها: "سيعقد قداس فى الأسبوع القادم وأنا أود حضور ذلك القداس وإلا تعين على تكرار الحضور فى الأحد الذى يليه. هذه اللقاءات المسيحية تولد لدى الأمل.

خطر ببال الأم: "أحضر القداس ثم أجيء بعده".

"وماذا عما قبل الولادة؟".

"يحضر إلى هنا قسيس ليصلى معنا. وهو أيضًا طبيب، هو يفحصنا ويساعدنا. كل شيء على ما يرام. كثيرون من أحباء العذراء يأتون إلى هنا بأشياء كثيرة. جماعات كثيرة مثل لجنة تطوير العدالة والسلام، والمؤسسات غير الحكومة"؛ خطر ببال بيا أنه فى ظل عدم مجيء هذه الجماعات يمكن أن يصبح السجن مجرد معسكر من معسكرات الإبادة.

"بارك الله فى هؤلاء الناس".

"آمين."

"مسوغ".

"إلى اللقاء".

بعد أن ودعت الأم مسوغ ابنتها بعد ذلك بساعة، أحست بالسعادة، أحست بالسعادة لأن ابنتها لا تزال على قيد الحياة. حية وتحمل أيضًا حياة أخرى. الأب مجهول. قالت إن المولود سوف يطلق عليه اسم Humanity (إنسانية). وما هو اختصار هذا الاسم؟ هل سيكون مختصر هذا الاسم هو Hu؟ أم Man؟ أم Nity؟ ليس لهذا الاسم مختصر. الاسم Humanity ليس له مختصر. إمـا الاسـم كله أو لا شيء.

لكن ما أن تخطت الأم مسوغ بوابة السجن حتى خارت قواها. خانتها شجاعتها. حاولت الأتكاء أو الاستناد إلى شجرة من الأشجار، تبعد حوالى مائة ياردة عن بوابة السجن. ونتيجة عجزها عن مواصلة السير، انهارت جالسة فى ظل تلك الشجرة. وضعت ذراعيها على صدرها وتركت الدموع تنهمر على خديها. تكالبت المشاعر المختلفة على إغراقها. هى سعيدة من ناحية؛ بيا لا تزال على قيد الحياة. بيا هى أول أطفالها، الطفلة التى علمتها معنى الأمومة. لكن، يا لها من ظروف مختلفة! حاولت الأم مما (مسوغ) استجماع كل شجاعتها لكى تحافظ على بشاشتها، حتى لا تجعل شجاعة بيا تخونها، كانت تتقطع حسرات من داخلها.

تبخرت من ذهنها كل الشئون المنزلية التى كانت تود الحديث عنها مع بيا. هل تجرؤ أن تقول لبيا إن أهل أتّى Atte تملكهم الغضب فراحوا ينبشون قبر أبيها؟ نبشوا القبر، وأخرجو الجثمان وأشعلوا النار فيه. كيف تجرؤ على أن تقول لها ذلك؟

بكت الأم بكاءً مرًا وهى جالسة تحت شجرة المانجو. كانت تفتقر إلى شجاعة الوقوف والمشى إلى محطة الحافلة. بقيت فى مكانها، غير عابئة بالطريق الذى بدأ الظلام يخيم عليه. اقتربت منها امرأة كانت عائدة من اجتماع فى البلدة. كانت تلك المرأة زوجة لواحد من السجانين وكانت تعيش مع زوجها بالقرب من السجن. فهمت أن شخص هذه المرأة المسنة، موجود خلف هذه الجدران، وأن هذا الشخص قد يكون ابنا أو زوجًا. كانوا معتادين على المشاهد التى من هذا القبيل. توقفت وواست المرأة المسكينة. ساعدتها على الوقوف وأخذتها إلى المنزل وأطعمتها. بعد ذلك، وبعد أن هدأت هذه المرأة كسيرة القلب، إلى حد ما، صحبتها السيدة إلى موقف الحافلة ودفعت لها أجرة الحافلة إلى فانديكا، وكانت تشجعها طول الوقت على التحمل، وأن الله سيعينها، وسيحمى حبيبتها، وسيجمعهما.

الفصل الخامس والعشرون

في التحليل النهائي، لم يكن لدى فرايداى Friday الوسيلة التي تمكنــه مــن مواجهة مارسى أوكولوجو، المشرف العام على السجون. تعين عليه التعجيل بأخــذ سيث إلى المستشفى. كان سيث قد رفض بطريقة فظة محاولة الطبيب عمل تــاريخ طبي لمرض سيث.

أعلن سيث: "أنا سقيم. أنا واحد ممن يعانون من الأزمات. أنا بحاجــة إلــى نقل دم وأكسجين. دم وأكسجين". ثم أغمى عليه بعد ذلك.

أعقب ذلك بعض النشاطات العاجلة وجرى إحضار أكسجين وجرى وضعه على وجه الصبي. لم يكن في المستشفى بنكًا للدم. أوضح الطبيب إذا تطلب الأمــر نقل دم، كما هو الحال الآن، فإنه يرسل مساعدًا طبيًــا إلــى مواقــف الــسيارات والأسواق، ويقوم بسحب الدم من السائقين والمساعدين نظير مبلــغ صــغير مــن المال. وهذا هو ما فعله الطبيب الآن. وفي غضون ساعتين، عاد المساعد الطبــي ومعه أكياس عدة من الدم. كانت الممرضة قد جهزت أجهزة نقــل دم ووضــعتها على جسم سيث. رفض فرايداى التفكير في موضوع مشكلات بنك الدم العــشوائي هذا. مسألة ضخ الدم غير المفحوص في هذا الوقت الحرج، أليست هــذه عمليــة انتحارية، عملية قاتلة؟

ساءت حالة سيث في البداية. يبدو أنه كان في نوبة هذيان، لرؤيتــه قريبًــا متوفيًا كان يحاوره حوارًا كسيحا.

كان قد قال لمحاوره غير المرئي، وهو يبعد رأسه بعيدًا عن الحائط: "سوف أعبر، لكن ليس معك أيها الرجل الشرير".

لقد كافح، كافح كثيرًا. ثم استدار إلى فرايداى، متوسلاً إليه أن يتركه يرحل. كان سيث مغلوبًا على أمره بسبب سجن أمه، ولم تكن لديه الرغبة فى البقاء على قيد الحياة. حدث ذلك عندما فهم فرايداى الأمر، وعندما قفز من كرسى الزائر الذى كان يركز عليه طول الوقت. وراح يدعو باسم يسوع أن لا يضيع الوقت سدى.

صاح أثناء الصلاة "أوقف هذه الأعمال الصبيانية؛ انزل وسيطر على الأمور! أيها الرب، هل ستترك هذا الولد البريء يموت؟".

وبعد أن امتلأ حقدًا وضغينة، تحول ناحية الأب واتهم الأبن بإضاعة الوقت، وبالتلاعب بحيوات الناس. كان محبطًا تمامًا. "هذا هو السبب فى أن لك عدد قليل جدًا من الأتباع الحقيقيين. هذا العدد القليل الذى يحاول عبادتك، أنت تواصل الأغواء بطريقة سيئة، إلى أن يفقدوا إيمانهم ويتخلون عنك. انظر إلى هذا الولد المسكين، الذى يخوض قضية عادلة. الآن، بدلاً من أن تدعمه، أنت تجعل هذا الأزمة تزوره. أوقفها وسيطر على الأمر". أصبح رزينا إلى حد ما ومستاءً، وغطى الصبى المريض بالدم الثمين. ولأنه لم يكتف، فقد راح يطلب مساعدة أم الرب.

قال للعذراء: "ليس له أم الآن، يا أم الرب، كونى أمه. توسَّطى له".

وبصوت ينم عن الخوف أكثر منه عن القهر والاضطرار، كان قد استطاع جمع شياطين الموت على حد كلام راعى كنيسته، وقيدهم جميعًا وألقى بهم فى غيابة الجب. الموت المفاجئ، وفيات المراهقين ليست من شأننا. صلينا باسم يسوع.

عند هذا الحد كان الدم، الذى جمعوه من البشر الذين يبيعون دمهم فى الأسواق ومواقف الحافلات، قد سرى فى أوردة الصبى. كان الفريق الطبى ينتظرون ويراقبون. واصل الساهر على حال الصبى كلامه. فى مكان ما من قسم الممرضات، كان ينبعث من المذياع صوت رجل يناجى نفسه.

قال الطبيب فى نهاية المطاف: "لقد استقرت حالته" وراح يرفع أنابيب نقل الدم. تنهد فرايداى تنهيدة تنم عن الارتياح. سوف يبقى مع الصبى نصف ساعة أخرى قبل أن يتركه ويذهب لقضاء بعض الأعمال الأخرى. صحيح أن فرايداى كان بجسمه فى هذا المكان لكن ذهنه كان فى مكان آخر. بذل قصارى جهده كيما يسترد ذهنه، لكنه كان هناك مع فتاته، تلك الأميبا عديمة الدين التى تواعد اثنين فى آن واحد.

"أيتها المشرفة العامة على السجون، إذن هو الشريف عبد الجليل يعقوب رئيس لجنة حقوق الإنسان، حقوق الإنسان، طفل أحلامى، مشروعى المدلل، حياتى. كان ينبغى عليك أن تصارحينى. وعندما كان يمكن أن ألجأ إليه طلبًا لمساعدته فى هذا الصراع الاجتماعى من أجل إصلاح السجون، وإلغاء عقوبة الإعدام. عبد الجليل يعقوب. أنت الوغد الذى زارنا فى إحدى الليالى. لماذا لم أخرج من الدولاب، وأُكَسِّر جمجمة رأسك الجوفاء، بالشكل الذى أتوق إليه؟ لو لم أكن عاريًا ساعتها، لندمت أنت على اعتراضك طريقى، أيها اللص المفضوح. دجَّال عديم النفع. النساء وخياناتهن! وصل إلى قرار مفاده أن النساء سيكن دومًا مخاتلات. لقد وثقت بهن معرضًا نفسك للأخطار.

"سأبذل كل ما بوسعى للتركيز على المؤتمر القادم الخاص بإصلاح العقوبات. لدى بحث سوف ألقيه فى هذا المؤتمر. لن أتنازل مثلما فعلت عند الافتتاح. قد أطلب من المشرفة العامة على السجون المساعدة، وأستخدمها وسيلة أدخل منها إلى رواق يعقوب. وما إن يقتنع يعقوب ونكسبه إلى جانبنا سيقوم هو بإقناع رفاقه ويعمل على خروج القانون إلى حيز الوجود".

لكن هل ستستطيع التركيز؟ تحرك الغليان الذى فى رأسه وراح يتلوى مثل ثعبان الماء، متناسيًا ومتجاهلاً احتمالات العمل المفيدة كلها. هاتف المشرفة العامة على السجون. دق جرس التليفون مرات ومرات ثم سكت بعد ذلك.

خطر ببال فرايداى، وهو يقفل سماعة تليفونه، أنه ربما يكون قد أزعجهما. لقد عكرت عليهما حميميتهما. من يدرى ربما كانا عاريين الآن، ومفرشخين علـى بعضهما. انتحب وحزن فى داخله. كل الأشياء الجميلة التى فعلتها معهـا..... لـم يطق التفكير فى أن الشريف كان يفعل معها ذلك الذى كان يفعله هو معها.

أدرك وهو جالس إلى جوار سرير سيث، أنه أحب المشرفة العامـة علـى السجون. أدرك أنها كانت له وحده. لم يكن لديه خلال الحملة التى كان يقوم بهـا، وقت للاجتماعيات، أو التقاء النساء، أو المشاركة فى الحفلات. كانت مارسى هـى كل ما له فى هذه الدنيا. كان يود الزواج منها. على الرغم من ازدواجية مواعيدها الغرامية، كان يحبها وعلى استعداد للتقدم لها، وبَعْثِ الاستقرار فى هذا الجانب من حياته إلى الأبد والتركيز على مستقبله العملى.

كان يسائل نفسه عن مدى تساوى فرصته مع فرصة ذلـك البرلمـان. أنـا مجرد محامٍ على قدر حاله، أما هو فكيس نقود. الأشراف يتشاجرون يوميًـا فـى المجلس حول مسألة تقاسم الكعكة الوطنية، ملايين مُمَلينة من الليرات تشق طريقها إلى جيوب هؤلاء الأشراف غير الأمناء. ما الذى أستطيع أنا تقديمه؟ أهـو الحـب والزواج؟ البنات يقلن لنا فى هذه الأيام، أنتم لا تستطيعون طهى الحب. النقود هـى التى لها وزن أكبر من وزن ضربات القلب. النقود هى كل شيء.

أعلن المذياع "..... إريك دونالدسُن يشدو لامتاع المستمعين، هل تفكرين فيه وأنت تحبينى؟"

تنهد فرايدى، إنه كلام مناسب.

عندما تغلقين عينيك
قولى لى، من تَرين؟
أرجوك، أرينى الصورة
التى تكون فى ذهنك.

تحرك سيث. نهض ليقف. تحول فرايداى ناحية المريض.

قال سيث فى وهن وضعف: "أنا أود أن أبول".

قـــال له فرايداى بعد أن أفاق من حلم اليقظة: "سوف أحضر لك قصرية ــ أو شيئًا من هذا القبيل. جسمك مثبت له أنابيب ولا تستطيع الذهاب إلى الحمام".

حاول الصبى مرجحة رجليه النحيفتين على السرير وهـــو يقـــول "لابـــد أن أبول". منعه فرايداى من الحركة "لابد أن أبول".

"لا، انتظر، دعنى استدعى الممرضة".

فات الأوان، وبال المريض على نفسه.

قال وهو يشعر بالخجل: "أنا آسف. قلت لك أنى لابد أننى أبول. لم أتمالـــك نفسى". واعتدل المريض مرة ثانية على السرير.

"حصل خير، كيف حالك؟"

"ضعيف. منحوس. أنا كنت فى أزمة".

أومأ فرايداى برأسه: "ستمر هذه الأزمة. لقد نقلوا لك دمًا. ســـوف يتحـــسن حالك خلال فترة وجيزة".

"أشكرك، يا سيدى. لولاك لكنت الآن فى عداد الموتى".

"نحن إخوان".

"أنا لا أعرف كيف أشكرك، يا سيدى".

"تحسَّن أولاً".

"أنا كنت قلقًا على أمى. لم أرها منذ فترة طويلة".

"تحسن أولاً وسوف نعرف كيف نتصرف فيما بعد".

"هى فى سجن فريمان فورت، كما تعلم". لم يكن فرايدى يعرف ذلك. "لقـــد قتلت.... بى زوجها. كان هو ذلك الإنسان الذى جاء إلى هنا الآن لينقلنـــى بعيـــدًا. لكنى قاومته".

"نعم، لقد رأيت ذلك".

"أمي تحتاجنى هنا. إذا ما ذهبت لحال سبيلى سوف تموت. لقد رأيت المرح فى عينى الرجل الميت. هذا هو السبب وراء عدم ذهابى معه".

"أنت الآن بحاجة إلى الراحة يا سيث. لقد قاسيت الكثير. ارقد واسترح".

واصل الضعيف السقيم كلامه: "هى تنتظرنى، وتنتظر منى أيضًا نظارة القراءة وعلاج ارتفاع ضغط الدم". حملق فى السقف لحظة. ثم استدار بحرص إلى المحامى وقال: "لعلك تزور أمى، أبلغها أن صحتى توعكت بعض الشيء، لكنى سأذهب لزيارتها عندما تتحسن صحتى على نحو أتمكن معه من القيام بهذه الزيارة".

"إذا كانت هذه هى رغبتك سأفعل ذلك، لكنى أرى أنك ستشغلها وتقلقها. وإذا لم تركْ ستزداد قلقًا على قلقها وتفكر فيما هو أسوأ. عندما تتحسن سنذهب سويًا. ما عليك إلا أن ترتاح الآن".

"هل هذا وعد منك؟".

"هذا وعد. لكن استرح الآن".

"أشكرك، يا سيدى".

"نحن رعاة لإخواننا".

"هل لازلت تحتفظ بالرسالة التى أعطيتك إياها؟ الرسالة المكتوبة بواسطة السجينات؟" تحسس فرايدى جيبه: "إنها معى بالفعل". عند هذا الحد تفهم فرايداى حماس ذلك الصبى. كان يعمل من أجل أمه، حياة أمه.

"لا تنس إرسال هذه الرسالة إلى الرئيس، وإلى الصحافة، وإلى الوزراء ....".

"وإلى شئون المرأة، وإلى العدالة، وإلى الداخلية. لن أنس ذلك. لكن، استرح الآن".

"أشكرك، يا سيدى".

"الشكر لله".

"والتصريف الأول. شيء ما عن الكلمة اللاتينية mensa".

"لن أنسى ذلك".

"أنت حنون جدًا".

"استرح الآن".

هل تفكرين فيه
عندما تحبينى؟
يا حبيبتى المكان مزدحم
فى هذه الغرفة ولا يتسع لثلاثتنا
أرجوك، احكى لى عن الصورة
التى فى ذهنك
أرجوك، أرينى الصورة
التى فى ذهنك

اغرورقت عينا المحامى بالدموع.

* * *

إلي:
الرئيس والقائد العام
جمهورية نيجيريا الاتحادية
ڤيلا الرئاسة
أبوجا.

من:

المحكومات ومن ينتظرن المحاكمة

جناح النساء

سجن فريمان فورت

سيدي: رسالة توبة، التماس حار. وتوسل لطلب الرحمة وإنقاذ الأرواح

نحن نزيلاتت جناح النساء، بسجن فريمان فورت نتقدم بهذه الرسالة على سبيل الالتماس، وبرقية لإنقاذ أرواحنا، لنعبر بها عن أسفنا وندمنا الشديد على خرقنا وخروجنا على القانون الذى يحكم هذه الأرض.

سيدنا، وسط معاناتنا الشديدة المؤرقة؛ نتقدم بهذه الرسالة ونحن فى حالنا الوضيع، المؤسف، الذى يستثير الأسف والحزن، نحن نعترف ونقر بأخطائنا وعليه فنحن نادمات على ما ارتكبناه. ونحن لن ننسى هنا أن السواد الأعظم منا نساء صغيرات السن، وكريمات، وزوجات، وأمهات وتتراوح أعمارنا بين ١٤ـ١٨ـ٢٥ـ٣٠ـ٤٥. آباؤنا كبار فى السن، وأبناؤنا مرضى، ونعول الكثيرين، الذين تعتمد حيواتهم علينا وتتهددهم الأخطار الآن.

يزاد على ذلك أن البعض منا يحملن درجات علمية، من مؤسسات التعليم العالى المعترف بها، ولم نكن نود توريط أنفسنا فى الأعمال التى يقوم بها الجهلة والأميون. لكن الذى يدعو إلى السخرية، أن الطبيعة، من خلال الظروف الخارجة عن إرادتنا — الصراع من أجل تلبية الغايات، والبحث دون طائل عن الأعمال بسبب الموقف الاقتصادى، وبسب الإضرابات، والفقر المدقع، والإساءات البدنية، وبسب الغيرة دفعنا طمعنا الشخصى إلى الموقف الذى نجد فيه أنفسنا فى الوقت الحالى.

سيدنا، من أعماق الكارثة التى نحن الآن فيها، نحن نادمات، ونتوسل راجيات ونادمات والدموع فى مآقينا، ونقول لكم نحن بحاجة ماسة إلى العفو والرحمة، ونناشدكم التدخل لدى النظام لإنقاذنا من الجلاّد (عشماوى).

الكلمات وحدها غير كافية للتعبير عن التجربة المرعبة التى نمر بها، لكن يكفى أن نقول إن موقفنا يتدهور يومًا بعد يوم. يضاف إلى هذا الحقيقة التى مفادها أننا لا نحصل على الطعام الكافى، نحن نأكل فى بعض الأحيان مرة واحدة فى اليوم الواحد، البعض منا جرى إعدامهن بالفعل. المزيد منا سيجرى استدعائهن للإعدام. السواد الأعظم منا مريضات بأمراض حرجة مثل مرض السكر، والأورام، وارتفاع ضغط الدم، وأمراض القلب، الجرب، فى الوقت الذى تعانى فيه بعض النزيلات من أمراض عقلية. الباقيات منا، إذا لم يكن مجنونات جزئيًا فهن لسن أفضل حالاً من مجرد هياكل بشرية عظمية. لقد عانينا كل صنوف الإذلال والمهانة التى تعرفها النساء بما فى ذلك الاغتصاب. البعض منا ولدن فى هذه الظروف المؤسفة، دونما أدنى قدر من الرعاية. يزاد على ذلك، أن الكثيرات منا خلف القضبان منذ ما يزيد على ست سنوات، وبعض آخر منذ ما يزيد على ثلاثة عشر عامًا فى ظل ظروف غير إنسانية من الزحام المخيف.

لقد أدركنا وفهمنا أن البؤس هو السبب الرئيسى للجريمة. لقد تعلمنا دروسنا بطريقة صعبة وفى ظل أسف وندم كبيرين. وبعد أن ندمنا على ما اقترفناه، فنحن نرجو العفو من قبلكم، ومن قبل البشر المتعاطفين معنا، ومن خلالكم، أن تنظروا فى التماسنا، وأن تتيحوا لنا فرصة ثانية فى الحياة باسم الإنسانية. نحن نعول على الكرامة والنخوة والشهامة.

ونحن عندما ندعو لكم بسعادة أكبر من سعادتنا، نتمنى لكم أن يوفقكم العلى القدير ويحميكم ويمنحكم أنتم ومجلس الوزراء بكامله الحِميَّة، والطاقة، والقوة، والمعرفة، والحكمة وأنتم تقودون سفينة الدولة.

الآسفات النادمات،

سبيلاً آدامز، إلياس أنتلى،

بردجت أجبر

موديا جومز

أولورى آبِ

سوزانا نابو كيتانو اسيوغين

يفيوما جاك

بلسنج يوش

تواكاليتو أنيما شون ألياس، بلندا جونز

وُنمى مولاد

بنتا سول، رما تولاى سول

أوزو (رضيع)

آمه

تاى وكيهند (أطفال)

قسيسة بيشنس جودزبور أوكوي

أومو يود

ليد أوشو

أفولينو آنيا

الفصل السادس والعشرون

قلّبت السيدة/ إيز فى سجلاتها وعرفت أنها لابد أن تتصرف على وجه السرعة. ستعود المشرفة العامة على السجون، فى خلال أسبوع من إجازتها وسوف تتولى مهام عملها بصفتها رئيسة لجناح النساء. كانت المشرفة العامة على السجون قد مَدّدت إجازتها لتشمل رصيدها من الإجازات السابقة. نجم عن ذلك أن بقيت المشرفة طوال شهرين بعيدة عن عملها. كانت مستشيف Mischief قد سجلت اسم رئيستها فى دورة كبار العاملين فى السجون، والتى ستقام فى مركز تدريب العاملين فى السجون. هذه الدورة سوف تبعد المشرفة العامة ثلاثة أشهر أخرى. هذا بدوره أعطى النزيلات فرصة كى يقمن بتدبير النقود المطلوبة للعفو. كانت الرئاسة العامة قد طلبت ترشيح اسمين. وعليه تخلّت عن القائمة التى أعدتها المشرفة العامة. قالت مستشيف: لابد من الخروج بشيء من قائمة العفو. لا يمكن حصولهن على العفو بمثل هذه السهولة. يوم الأحد القادم سيكون يومًا من أيام الزيارة. تمنت لو أن بعض الأقارب قاموا بإحضار النقود. السواد الأعظم من النزيلات فقيرات. الأغنياء لا يبقون فى السجون، الذين يبقون فى السجن هم الفقراء الذين ليس لهم "علاقات أو قرابات". هذا هو السبب وراء استغراقهن وقتًا طويلا فى الإتيان بمبالغ العفو. مسألة توكيل محامين لهن كانت أمرًا صعبًا أيضًا عليهن. كانت مستشيف تعلم، إن بعضهن يقبعن خلف القضبان لمجرد أنهن ليس معهن ألفا نيرة لدفع الغرامة.

قالت السيدة/ إيز فيما بينها وبين نفسها، لابد من التصرف على وجه السرعة، والآن، لأن تلك السيدة أحضرت بالفعل صفيحتين من وقود الديزل لتشغيل سيارة الترحيلات (بلاك ماريا). ما الذى يمكن أن يحدث لو أنهن ذهبن إلى المحكمة وحكم عليهن قاضى التحقيق بكفالة مالية؟ هذا ليس ممكنا. موظفوا الادعاء

لن يكونوا هناك. أدارت الأمر فى ذهنها، ولن يكون محاموا الدفاع هناك أيضًا. لن يعرفوا تاريخ جلسة المرافعة، وسماع أطراف الدعوى. وفى أسوأ الأحوال قد يطلبون التأجيل. لكن يتعين على التصرف بسرعة. إذا ما بدأت سيارة الترحيلات، بلاك ماريا، رحلاتها على الطريق، سوف تصبح الأمور مفعمة بالأمل. وإذا ما عادت المشرفة العامة لن يكون لى حل أو ربط فى هذا الأمر.

لقد أخافت النزيلات فى آخر مرة، بأن قالت لهن إن الجلاد (عشماوى) الذى كان فى إجازة مرضية عاد إلى العمل. تسبب ذلك فى ارتعادهن. كن مسترخيات، يلعبن الورق ويحكين القصص، ويغازلن بعضهن البعض. لقد هزتهن. واقع الأمر أن الإدارة كانت قد أوقفت تنفيذ أحكام الإعدام، إلى ما بعد إنشاء لجنة تراجع هذه الأحكام وتتقدم بمرئياتها، لكن النزيلات لم يحطن علمًا بذلك. اعتبارًا من الغد ستبدأ النقود فى الانسياب ــ الرجل الأبيض نفسه سيحضر مظروفًا ــ هذا سوف يسهل إطلاق سراح مواطنته. إذا ما أراد اتباع الطرق الرسمية دون "ابتزاز" ستصعب عليه الأمور لدى الأطراف الأخرى المعنية بالأمر.

قالت الرئاسة العامة: مطلوب ترشيح اسمين للعفو. ماذا يحدث لو دفعت أكثر من امرأتين؟ هنا نأخذ صاحبة المبلغ الأكبر. وهذا هو نظام المزايدة الأمريكى، وتجرى مصادرة النقود التى دفعتها النساء الآخريات أيضًا. ها! ها! ها! أنا نجوزى إيز Eze Ngozi، التى قالت عنها مدرستها: إنها ثخينة الدماغ، أنت لست ثخينة الدماغ على الإطلاق، يا عزيزتى. أنت ذكية. كل ما فى الأمر أنك كنت بطيئة. أنت ذكية. ربما كنت بطيئة مثل محرك الأوشودى، الذى يستغرق وقتًا فى تجميع البخار. أما الآن وبعد أن استيقظت، فإن حدودك هى السماء يا عزيزتى. ها، ها، ها.

أخرجت قطعة من الورق وراحت تحسب المبلغ الذى ستحصل عليه إذا ما أحضرت خمس سجينات نقودًا بواقع خمسين ألف نيرة من كل واحدة منهن. كانت قد أبلغتهن إن ذلك هو الحد الأدنى. خمسون ألف نيرة. العفو، الإفراج، نظير خمسين، الإفراج!

الظهيرة

كان الوقت يصادف الظهيرة فى الزنزانة (وو١٠). كان التوأم قد ناما بعد الصبح بسبب الجوع. كانت النساء تعطيهما ماءًا من الغلاية الزرقاء، التى كانت تحتفظ بمائها للوضوء كل من بنتا ورحمة.

كان طفل أومو يمص الماء محدثًا صوتًا، يائسًا. راحت ترضعه من ثديها الذى لا يخرج منه شيئًا، كل ما فى الأمر أنها كانت تشبع فضوله إلى المص.

كانت إنتلى جالسة على الأرض وفى يدها ورقة. كانت الأخريات يلعبن الورق والألعاب الآخرى. ألقت بلسنج بالزهر وقالت: "سيكى" siki. ثم ألقت الزهر مرة ثانية وقالت: "سيكين".

كانت فى الخلفية جهاز راديو ترانزستور. كان ذلك الجهاز مع أحد السجانين على الجانب الآخر؛ لم يكن مسموحًا للنزلاء بأجهزة الراديو. قام أحد المحسنين بإحضار ذلك الجهاز عمدا لواحد من السجانين. بذلك يمكن للنزلاء التمتع به من بعد. تنحنحت المتحدثة الرسمية.

"الآن، أيتها السيدات"؛ توقفت وتناولت التوأم وقالت: "والسادة. قد تتعجبون من الأسباب التى أبقت على قارة غنية مثل قارتنا، بلا تنمية، ولماذا رفضت هذه القارة التقدم. انظروا إلى مواردنا المعدنية. نحن سادس منتج للبترول على مستوى العالم. ومغ ذلك فنحن لا نزال فى المؤخرة نحن نعد من أفقر البلدان فى نصف الكرة الجنوبى. قد تندهشون من ذلك". صمتت قليلاً: "سيكيان وسيك واحد".

"انظروا إلى ما يسمى النمور الآسيوية. خذو جزيرة سنغافورة على سبيل المثال، هى دولة مدنيَّة؟"

خيم الصمت. ألقت إنتلى نظرة على جمهورها. لم يلق أحد منهم لها بالا.

قالت بلسنج محذّرة "هذا هو الكاااارت الأخير".

قررت المتحدثة الرسمية "ربما أكون أضيِّع وقتى سدى. قد يكون من الأفضل لى أن آخذ التوأم وأعلمهما الحروف الأبجدية مثلما تفعل سوزان. قد يكون ذلك أجدى وأنفع. الكبار كُسَالى، أذهان متبلدة، مدمنات لعب الورق، مدمنات سخونه".

نظرت إلى ورقتها وأطالت النظر إليها. لم تستطع المقاومة. لابد من إنهاء المحاضرة. حكت كوعيها بشدة. بدأ الطفح الجلدى والإكزيما يعاودنها من جديد. أقراص الصابون الطبى التى جلبتها جويس انتهت منذ فترة. كانت النزيلات يقمن بدعك مكان الإصابة بذلك النوع من الصابون بدلاً من الاستحمام، أى أنهن كن يستعملنه مثل الكريم. كن يستخدمنه أيضًا فى غسل ملابسهن. الكمية التى جاءت لم تدم طويلاً.

صاحت إنتلى قائلة: "أعطونى كلمة تبدأ بالحرف ايه A".

قالت سوزان: "Amore، هذه كلمة إيطالية معناها [يحب]".

أجابت أفولينو: "Amu ومعناها [مردود] فى لغة الأجبو"

قالت إيا متهكمة: "Ashawo".

صاحت أومو قائلة: "akara ومعناها [الجوع]".

قالت ليد Laide: "outside ومعناها [الحرية]".

عنفتها إنتلى قائلة:"غبية، أنت خريجة الصف الثالث ولا تعرفين هجاء الكلمة outside".

استحوذت المتحدثة الرسمية على انتباههن بهذه المداخلة. وانخرطت ثانية فى محاضرتها.

"الاستعمار هو أحدث وأعلى شكل من أشكال الرأسمالية. صحيح أن الاستعمار قد انتهى، وصحيح أن الرجل الأبيض قد ولّى، وصحيح أنه غادر شواطئكم، وصحيح أيضًا أنه أعطاكم الاستقلال. الاستقلال السياسي. لكن هل تظنون أن إفريقيا مستقلة بحق؟ أنتم تحتاجون إلى الرجل الأبيض في شقِّ طرقكم. ولن يستكشف بترولكم، ومواردكم المعدنية الرئيسية، التي تأخذون منها ٩٠% من دخولكم، هذا يعني أنكم يجب أن تستدعوا كلا من شركة شل، وشيفرون، وتكساكو ــ كم معمل تكرير لدينا هنا في هذه القارة؟ كم عدد المعامل العاملة بالفعل؟ وهذا بعد أربعين عامًا من الحصول على الاستقلال! صحيح أن الرجل الأبيض أعطاكم الاستقلال لكنه لا يزال يسيطر على اقتصادكم. الامبريالية هي أحدث أشكال الاستعمار!".

هلَّلن قائلات: "إنتلي!".

قالت بيا للبنت البيضاء: "أتسمعين هذا يا سوزان؟ وأُناسك لا يزالون يسيطرون على اقتصادنا".

"أهذا هو السبب وراء ارتكابك يا إنتلي جريمة (٤١٩)؟ وهل ارتكبت هذا الجرم لتستردي الاستقلال من الرجل الأبيض؟".

قالت المحاضرة القديرة للمرأة الإيطالية: "سأعود come إلى هذه النقطة، يا عزيزتي. التعبير الصحيح هو أعود إلى get back at، وليس get it back from(*). لكني سأجيء come to إلى هذا الموضوع فيما بعد". قالت إنتلي هذا الكلام مخاطبة الغرفة كلها ومصرة على استخدام التعبير :come to "الرجل الأبيض يستكشف موادكم الخام. هذه المواد الخام قد تكون بترولاً أو كاكاوً أو حبوب البن، ثم ينقلها إلى بلده لتكريرها أو تنقيتها. ثم يبيعها لكم ثانية، أنتم المنتجون الأصليون، وبأسعار غالية ومرتفعة. هذا هو السبب في وجودنا هنا، ولا يوجد وقود ديزل لسيارة الترحيلات (بلاك ماريا)، كيما تنقلنا إلى المحكمة. ومع ذلك نحن ننتج البترول. وقد اكتُشِفَ البترول في هذا البلد في العام ١٩٤٨!".

(*) التعبير get back at يعني "العودة إلى موضوع ما" أما التعبير get it back from فيعني "المضاجعة من الخلف" (المترجم).

سألت ســوزانــا مــن جديد، وعيناها على لعبة الورق "ما سبب ذلك؟" كن لا يزلن يستمعن. اندهشن أشد الاندهاش.

ردت إنتلى وهى منشرحة الصدر "أشكرك. هذا سؤال طيب. الإفريقى فى المتوسط مستهلك وليس منتج. هو يستهلك ذلك الذى لا ينتجه هو، هو يستهلك ذلك الذى لا يستطيع إنتاجه. هذا ذوق أجنبى. الإفريقى الأصيل لديه براعم الذوق الأجنبى. هو يتجنب البضائع المصنوعة فى بلده، ويرتاد تلك البضائع والسلع المصنوعة فى الخارج، وبذلك يساهم فى اقتصاد الدول الأجنبية، وبذلك يُفقِر بلده: هو يرتدى الحُلل الإيطالية، والقمصان الفرنسية، والدانتيل النمساوى، والبروكار(*) السعودى، والحُلل الأرمينية، والحقائب التى يصنعها لويس فويتون، ومستحضرات تجميل كريستيان ديور، ماذا عن الأحذية المصنوعة فى أبا Aba؟ لا، هى دون المستوى. وهذا هو السبب وراء التزييف والتقليد فى كثير من الأحيان. الناس ينتجون الأشياء فى أونيتشا ويختمونها بخاتم صنع فى إيطاليا. لأن ذلك هو الطريق الوحيد إلى البيع. انزلن إلى الشوارع. سترون السيارات الفاخرة؛ سيارات من طراز مرسيدس، وبى أم دبليو، وليكزس، وسيارات الجيب وسيارات من طراز هوندا. الناس سيقولون لكن الشماليين يفضلون السيارات من طراز هوندا، أما السكان من الأيبو فهم يفضلون السيارات من طراز مرسيدس. سوف تشاهدون دراجات نارية مصنوعة فى الصين من طراز جنشنج وزوبخشن، السيارات اليابانية طراز سوزوكى، وهوندا، وفسبا. لكن أخبرونى ما هى الدراجة التى أنتجها الرجل الأسود؟ ما عمر أقدم الجامعات عندنا؟ كم عمرها؟ أنا أطرح هذه الأسئلة عليكن. كم عدد مهندسى الميكانيكا، ومهندسى الكهرباء الذين تخرجوا من جامعاتنا؟ الحاسب الآلى الذى يقود التقانة العالمية حاليًا، والذى يقف حاليًا وراء أية منظومة من المنظومات، وما هى الجامعة الإفريقية أو المعهد التقنى الذى فكك هذا الحاسب وأعاد إنتاجه؟ أنا لا أعرف ولا أسمع عن شيء من هذا القبيل، وأنا فى انتظار من يصحح لى هذه المعلومة.

(*) البروكار: هو القماش الموشّى بالقصب (المترجم).

"أساتذة الجامعات عندنا عندما لا يكونون مضربين، فإنهم يتصارعون على المنصب السياسي. مستشار خاص في الشيء الفُلاني، مساعد خاص في الأمر التركاني. وزير لهذا، أستاذ للاشيء. مستشار الحملة، رئيس مجلس إدارة حزب المنطقة "باء". اسألوه عن تاريخ آخر بحث قام به في أي موضوع. هو نفسه يسأل ما هو البحث؟ لقد نسي ما هو البحث. وصل السوء إلى هذا الحد. الكل يدرسون القانون والطب، إدارة الأعمال، والاتصالات. لا أحد يدرس الهندسة الوراثية. لا أحد يريد دراسة التقانة. العملية مجهدة. كل واحد يود أن يكون مقاولاً، أن يغتني بأسرع الطرق، أن يسرق المال العام. القلة التي تدرس العلوم يفشلون في العودة إلى البلاد، ويشغلون وظائف التدريس في الخارج لأن الحياة هناك أفضل من هنا. عميد من درسوا العلوم موجود في شيكاغو، وهناك أيضًا الأستاذ الدكتور أميرتيوس Emeritus موجود في تورنتو. كل ذلك وأنتن تتعجبن من عدم وجود وقود ديزل حتى يمكن لهم أن ينقلونا إلى المحكمة".

جففت إنتلي وجهها: "هل تعلمون أن أعظم علماء الحاسب الآن نيجيري الأصل؟" صمت.

"ثم، هل هو موجود في نيجيريا كي يسهم بحق في تطور بلده؟ لا! هو في أمريكا يكدّس الدولارات. وأنتن تتعجبن لماذا سيارة الترحيلات (بلاك ماريا)، لا تتحرك".

تعجبت المتحدثة الرسمية "مفكرونا أنانيون!".

صفقن لها وهن يرددن اسمها: "إنتلي!".

قالت إحداهن: "نقطة من فضلك!".

"زعماؤنا يحبون أنفسهم!".

صفقن لها مرة أخرى "إنتلي!". وجهن ترحيبهن بها في اتجاهها.

"همهم الوحيد هو المناصب السياسية، ومناصب منح العقود، حتى يملأوا جيوبهم. هم يتكالبون على الأعمال المربحة. وعليه فهم يحصلون على مناصب فى وزارة العاصمة الاتحادية. هم يخصصون لأنفسهم عشرات القطع من الأراضى لهم ولزوجاتهم، وعشيقاتهم، وأعضاء أسرهم الآخرين. الشخص الواحد يحصل على عشرين قطعة، ثلاثين قطعة من الأراضى! يستغلون هذه الأراضى فى الجمارك. هذا هو كل ما فى الأمر. لقد زود الله خبزهم بالزبد. شيدوا المنازل المنيفة فى المنطقة الراقية وقصورًا أخرى يشتمل الواحد منها على عشر غرف للنوم فى بلدة ليكى Lekki. يشترون المنقولات من لندن، ويشترون منقولات أخرى من جنوب أفريقيا. هذا هو سبب وجود بلدكم فيما هو عليه الآن، على الرغم من كثرة موارده الطبيعية. مقترحات لا تحصى ولا تعد، لكن بدون تحرك، وبدون تقدم.

"إنتلى!".

"أنانية متجسدة!".

"إنتلى!".

"اختلاس".

"إنتلى".

"إساءة التصرف فى المال العام. لا أحد يهتم بأخيه، الإنسان الفقير. الفقير ليس له أخ بأى حال من الأحوال. لقد سمعتن ذلك من قبل. انظرن إلى والدى الفقير، متقاعد من متقاعدى الجيش. آه! لقد نام أربعة أشهر فى مكتب المعاشات. طوال ستة عشر شهرًا وهو ينام هناك على لوح من ورق الكرتون كان يفرشه على العشب. فى كل يوم كانوا يطلعون عليهم بقصة ويتعللون بشيء أو آخر. مرّ علينا الأسبوع القادم، نحن نُمَكن سجلاتنا. وعندما يجيء إليهم فى الوقت المحدد يقولون له إن الحواسب الإلكترونية معطلة. تعال فى الشهر القادم. إلى أن قرر أن يعسكروا بخيم هناك هو وزملاؤه أصحاب المعاشات، خارج مكتب المعاشات فى

ووسى Wuse. لعلهم إذا ما رأونا كل يوم يتعاطفون معنا، على حد ظن أصحاب المعاشات، ظنا منهم أنهم يتعاملون مع آدميين. كانوا يعيشون خارج مكتب المعاشات؛ كانوا يأكلون هناك، وينامون هناك، ويقضون الحاجة الطبيعية هناك، فى ذات الوقت، كان أحد الكتبة قد وضع رصيد المعاشات فى حساب إيداع شخصى ثابت، وكان ينتظر إلى أن يحل موعد الوديعة ويقوم هو بالحصول على الفائدة. فى حين كان الناس خارج مكتبه الكبير، وهم من المتقاعدين كبار السن يعانون ويموتون كما يموت الذباب. وعندما دخل فصل الأمطار، ودون أن يستلم والدى مليمًا واحدًا من معاشه المستحق، وافته المنية بسبب الالتهاب الرئوى، توفى هناك أمام ضابط المعاشات. ذلك الرجل الذى حارب فى الصومال، وفى الكنغو، وفى بورما. هذا الرجل كُتِبَ عليه العودة إلى الوطن ليموت فى زمن السأم من الفُروج. آه، يا أبتاه. آه، يا أبتاه!". كانت الدموع تنهمر من عينها.

قالت بيا: مقتبسة عن الكتاب المقدس: "تحمل معى. قلبها هو التابوت الذى ينبغى عليها وعلى أبيها الانتظار إلى أن يعود إليها".

"جيل منحرف!".

تشممت إنتلى. جففت عينيها الحمراوين.

أكملت المتحدثة الرسمية كلامها وهى فى غاية الضيق: "وتسمون أنفسكم مستقلين. مستقلون منذ أكثرِ من أربعين عاما وأنتم عاجزون عن التعامل مع مسألة المعاشات باستخدام الحاسب الآلى، لإنهاء مصالح عمالكم السابقين".

تكلمت بيا: "لقد جربت هذا النظام بالفعل واكتشفت أنه مذنب، مذنب لأنه عديم الإحساس بالدمار الذى ينزل بشعبه، الدمار الذى يحل بالجماهير".

انضمت إليها أولوري: "ومذنب أيضًا فى الجشع والفساد".

قالت القسيسة: "سريع الغضب، قليل الرحمة".

قالت بيا: "هيا بنا نهرب ــ أخرجونا ــ ليس هناك مبرر أخلاقى لبقائنا هنا".

وبّختها إنتلى قائلة: "صهٍ" ثم أطلقت هسهسة طويلة وجففت بإصبعها المعقوف، ومسحت حبات العرق لتسقطها على ملابسها.

سألت بيا "ما الذى يتحتم عمله، أيتها المتحدثة الرسمية؟" تذكرت إنتلى، كارل ماركس ثم ابتسمت إلى بيا. أيتها الأرواح الحنونة.

"السيدات المحترمات، سوف أواصل كلامى لأقول لكن ما يمكن عمله".

دوّى وقع أقدام فى الطرقة، هذه خطوة ثقيلة وتلك خطوة خفيفة.

"الواقع أن ذلك سيكون موضوع محاضرتنا القادمة". قالت هذا الكلام عندما اقتادت مستشيف الأخت مارثا، وظهور نزيلة جديدة.

* * *

"مرحبا! يا جوى؟ أنا مارسى".

"مرحبًا! كيف حالك اليوم؟".

"أنا بخير. أنا مسافرة إلى لندن الأسبوع القادم".

"أهذا صحيح؟".

"أنا بحاجة إلى أن تديرى بالك على شقتى. هل بوسعك المجيء والإقامة فيها؟ لمدة أسبوع واحد، إلى أن أعود؟".

"وهو كذلك. أفعل أى شيء من أجلك، يا مارسى. وأنت تعرفين ذلك جيدًا. لكن انتبهى أنا لدى فتاة فرنسية زائرة من لندن".

صمت

"هى ليست كما تظنين".

"وهو كذلك. مثلما تريدين. سوف نسافر فى المساء، إذن تعالى فى الصباح. دعينى أوجز لك".

"تقولين نحن؟".

"نعم. المخلص وأنت تعرفين من هو".

"سأفعل. إلى اللقاء".

"شاو (إلى اللقاء)" هذا التعبير الأخير، تعلمته مارسى من المرأة البيضاء فى سجن فريمان فورت.

الفصل السابع والعشرون

استغرقت مسألة استعادة الأب شارلز تذكيره لنفسه برهة قصيرة عاد بعدها ليسأل عمن يقف على بابه فى هذه الساعة المتأخرة من تلك الليلة. ترى أهى زيارة مريض؟ ان كان الأمر كذلك فسوف يقبل هذه الزيارة. منذ خديعته فى ذلك اليوم المخيف، راح ينكب على عمله ويستغرق فيه متناسيًا ومهملاً صحته، ومقبلاً على المخاطر. حتى عندما كانت تلك الزيارة المرضية عند الساعة الثانية أو الثالثة صباحًا ومن الجانب المتوعك صحيًا من البلده، كان يسارع إلى تلبيتها. كان الجميع يعرفون أن تلك الساعات المتأخرة غير مقدسة وأن رجال العالم السفلى يفضلونها. كان الأمر يعنى وكأن حياة الرجل لم تكن تشغله تمامًا، كان الرجل على استعداد للجود بحياته، كما لو كان يحب الموت ويتمناه.

خطرت على باله تلك الرحلة التى قام بها منذ مدة. كان فى تلك المرة مسافرًا من آجبُر Agbor إلى ليجوس فى حافلة فاخرة. تعطلت الحافلة على الطريق، وهاجمتهم العصابات المسلحة عندما كانوا على وشك استئناف الرحلة. هددت العصابات بإطلاق النار على أحد رجال الأمن تعرفوا عليه بين الركاب. رجاهم رجل الأمن قائلاً: إنه كان فى فترة الراحة ولا يحمل أى نوع من أنواع السلاح. وقال إنه مسافر إلى العاصمة ليرى مولوده الجديد.

صاح رئيس العصابة فى الضابط "امش وادخل الغابة من هذا المكان!" كان رئيس العصابة قد جذب أجزاء البندقية، موجهًا فوهة ماسورتها إلى الضابط "تحرك!".

عند هذه المرحلة وقف آنين وقفة شجاعة، وفى هدوء قدم حياته عوضًا عن حياة ذلك الضابط.

قال لرئيس العصابة بشجاعة "أنا قسيس كاثوليكى. لقد رسّمونى من أجل النـــاس. واسمح لـــى أن أحل محله. أنا ليس عندى أسرة تنتظرنى، ولا زوجة، ولا مولود جديد".

قال رئيس العصابة: "وهو كذلك، أيها الأب. انزل من الحافلة. وادخل إلى الغابة".

ظن آنين أن أفرد العصابة كانوا متعطشين للدماء. كانوا متعطشين لسفك الدماء، متعطشين لرؤية الدم. وعلى الفور أحدث الأب علامة الصليب على نفسه. ونزل خطوة واحدة، ومن خلفه أحد أفراد العصابة. استدار رجل الله مرة أخرى إلى رئيس العصابة.

"أجهز على حياتى، لكنى أرجوك أن تدع الآخرين يمضون لحال سبيلهم. اترك الحافلة تذهب".

وفى صمت راح يردد دعاء التوبة والندم استعدادًا للموت. أحمد الله أنى لم أرتكب خطيئة من الخطايا المميتة. فى كل لحظة كان يتوقع انفجارًا ودويًا ثم.....النسيان. وربما بإشارة سرية من اللصوص، قفز الرجال من الحافلة وتخلوا عنها.

ساءل نفسه: "من أين لى بكل هذه القوة لكل ذلك الاستئساد؟ متى أصبحت مثل ماكسيمليان كولب kolbe؟ أهى خطيئة عندما يكون الإنسان مستعدًا للموت؟ أهى خطيئة عندما يريد الإنسان الخروج من آلام هذه الدنيا.

اتجه نحو الباب. نظر الأب فانيلى إلى الأعلى عندما فُتح الباب له. حيَّاه زميل عمله فى بستان الرب. تذكر الآن أن قداسته (كبير الأساقفة) طلب منه أن يراقب الأب شارلز. لم يقل قداسته أكثر من ذلك. "ترى، هل الأمر متعلق بالقلب؟" تساءل القسيس الأيرلندى.

تعجب شارلز "أيها الأب!" لم يستطع مقاومة الرغبة فى النظر إلى ساعته.

رد عليه فانيلى مازحًا: "أيها الأم!" كان من طبيعة هذا الرجل جعل الآخرين يضحكون، على الرغم من أن شارلز لم يكن فى حالة نفسية تسمح له بالضحك. اعتبارًا من ذلك اليوم الفظيع، أصبح بوسعه إحصاء عدد المرات التى ضحك خلالها ضحكة إفريقية حقيقية، تلك الضحكة التى تكون ملء شدقى الرجل، وكم مرة تخليت عن حُراسك، غير عابئ بالضوضاء والجلبة التى يمكن أن تنتج عن ذلك. بوسعه أيضًا أن يعد هذه المرات على أصابع اليد الواحدة. "بدأت أظن أنك لم تكن فى البيت".

سأل شارلز وهو ينظر خلف الرجل الأبيض: "هل جئت وحدك؟"

أجابه فانيلى، وهو يحافظ على تجهم وجهه: "لا، أنا لم أجيء وحدى. يسوع يصحبنى". وبدا عليه الجد: "انتبه، لن أعطلك. الوقت متأخر. أنا محتاج لمساعدتك. مطلوب منى غدا الذهاب إلى المطار لإحضار زميل فى الصباح. هذا الزميل قادم لقضاء عيد الميلاد معنا هنا فى المنطقة الاستوائية. هل يمكن أن تترأس صلاة الساعة السابعة صباحًا بدلاً مني؟"

راح شارلز يقلب فى مفكرته: "حسن. كنت أعرف أنى يمكننى الاعتماد عليك".

كان يود أن يعرف، ولذلك راح يكتب "أين سيكون ذلك القداس؟".

"فى الدير. عند الساعة السابعة. وعندى قدَّاس آخر فى الساعة الحادية عشرة لكنه فى ....." أغلق شارلز مفكرته.

قال شارلز: "آنا أسف، لن أستطيع القيام به".

نهض واقفًا. تقول الدير؟ لا مفر. هو لا يستطيع مواجهة هؤلاء الناس. دولورس لم تكن هناك، نعم، لكن ذلك الرداء الأبيض الطويل، والبشنيقة(*) الزرقاء اللون وكذلك القناع سيذكره بذلك الذى يحاول نسيانه. لن يقوى على التركيز. ستثور الذكريات التى كان يحاول دفنها. لا، لن يقوى على ذلك. ليس هذا فحسب، وإنما هو لا يثق بنفسه فى وجودهن.

دُهش الأب فانيلي: "أيها الأخ، لقد وافقت منذ لحظات".

"ثم رفضت بعد ذلك".

"هل الأمر بهذه السهولة؟ هل لديك أسباب؟"

"ليس لدى أى سبب، سوى أنى أعرف أنى أنفذ إرادته ﷺ" حاول شارلز أن يمزح.

حملق الرجلان فى بعضهما البعض.

سأله الزائر، وهو يدخل المنزل وقصد إلى كرسى بجوار المكتب: "هل تأذن لى بالجلوس، وهو أضعف الإيمان"؟ أحس فجأة بالضعف والهزال.

"أرجوك".

أنهى كلامه بأن الأمر يتعلق بالقلب. هل هذا الأمر يتعلق براهبة من الراهبات إذن؟ ثم وضع فانيلى يديه على ركبتيه وراح يطيل النظر إلى الأرض.

"كنت شبه متأكد من أنك ستساعدنى، ولذلك لم أتخذ ترتيبات أخرى".

"آسف".

"هل لديك سبب محدد؟".

(*) البشنيقه: غطاء للرأس والذقن (المترجم).

"قلت لك إنى أُنفذ إرادته ﷺ".

تنهد فانيلى فى نهاية المطاف. وقف هو الآخر بدوره وعانق نفسه. ونظر إلى ما حوله، وتناول الصور المؤطرة على الجدار والتى تحمل صورة المدينة المقدسة الخالدة. انصرفت عيناه إلى الطاولة. كان شارلز يراقبه فى صمت، ويعرف ما ستئول إليه الأشياء لكنه كان عاجزًا عن إيقافها.

قال لفانيلى، وهو يحاول بلا جدوى استرعاء عينيه الزائغتين "ضيفك يتعين عليه الانتظار فى المكان المخصص للانتظار".

قال فانيلى، وهو يتناول الكتيب: "لم أعرف أنك مشغول بنظرية طرد الأرواح الشريرة".

غمغم قائلاً: "أنا راعى كنيسة".

حذره فاينلي: "احترس. هل تعرف الكثير عن هذا الأمر؟".

هز آنين كتفيه: "أنا أقرأ عن الموضوع".

"إذا أردت المساعدة، فبوسعى أن أقدم لك يد العون. كنت فى روما عندما نشر الدون جبرائيل هذا الكتاب. تعاونت معه كثيرًا فى هذا الكتاب. لابد أن الدون جبرائيل فى الثمانين من عمره الآن. هذا الرجل كان ولا يزال الشخصية الرئيسية فى مسالة طرد الأرواح الشريرة فى الكنيسة الكاثوليكية".

"لقد فهمت، لعلك تنورنى بخصوص هذا الموضوع. أنا لم أفعل ذلك من قبل".

"مطلوب منك أن تخبرنى عندما تود فعل ذلك. سأكون فى مساعدتك، وشريكًا لك". وراح يضحك فى سره.

قال شارلز: "بفرض أن ذلك سيجرى الآن؟" نظر الأب فانيلى إلى مضيفه نظرة حادة.

"الآن؟" نظر القسيسان إلى بعضهما. فهم المقصود بعد ذلك.

"هل لك أن تُسِرَّ لى بما عندك؟"

"لقد فات أوان الثّقة أيها الأب".

"حسن، من هو ذلك الذى تود طرده بالأدعية؟".

قصد الأب شارلز إلى سريره، وجلس عليه متثاقلاً. شفقة هذا الرجل هى التى هددت بعودة كل ما فات، الألم، كسر القلوب، الدموع، الخداع. منذ هذا الموعد من ستة شهور مضت، لم يكشف أحد له عن شفقه أو حنان من نوع معين، كما لو أن أحدًا لا يهتم به، كما لو أن أحدًا لا يعرفه. قال لنفسه: لابد أن يعرفوا. سرت الأخبار بين الأكليروس مثل حريق كبير شب فى فصل الجفاف. كان إخوانه القساوسة يعرفون ذلك، لكنهم لم يهتموا بالأمر. تركوه وحده يحمل الحمل كله، وأن يبحر فى مياه عودته إلى حالته المعتادة، إلى التعقل، إلى العزوبة. أنت الآن أعزب لأن البنت رفضتك، يبدو أنهم كانوا يقولون ذلك من وراء ظهره. لو لم ترفضك لكنت قد خنتنا.

هذا قسيس أيرلندى، غريب، أجنبى كان يكشف عن اهتمامه، وحبه وإحسانه. أحس بالقلق. قاوم الأب آنين وضع وجهه بين يديه وبكى بكاء مرًا. اتجه إليه فانيلى، ووضع يديه الممسوحتين بالزيت على الرجل الأسود. ربت عليه برقة، كما لو كان طفلاً. عندئذ فقط بدأ يلاحظ الصّلْب الكبير، الإنجيل المفتوح، ورشاشة الماء المقدس. نظر فى أركان الغرفة. كانا لوحدهما، هما الاثنان فقط. ترى من الذى ينبغى طرده بالأدعية؟

رد شارلز على عينى فاينلى الحائرتين. وسؤاله الذى لم يعبر عنه. اعتدل فى جلسته وقال: "شبحها، شَبَحَ الأخت دولورس". صمت قليلاً: "هل تعرفها أيها الأب؟" هذا الاسم تحمله بنات كثيرات هو يعرفهن.

انهمرت الدموع من عينيه "لقد وقعنا في الحب. حاربنا المشاعر، بسبب ندائنا، مهنتنا. لكن الحب كان أقوى منا، أو هكذا ظننت. حاولت أنا من جانبي. صدقني، لقد بذلت كل ما في وسعي، لكن ما أنا فيه لن يتركني لحال سبيلي. حاولت صرف هذا الشبح مرات عديدة. هي بدورها حاولت طرده مرات قلائل. لكننا انتهينا إلى إشعاله من جديد أكثر وأكثر. هو الحب. صدقني، هو الحب. المشاعر، السعادة، الحنين إلى أن نكون مع بعضنا". جفف دموعه. ثم خيم الصمت بعد ذلك.

"قررنا الهرب. نعم، التخلي عن كل شيء ثم الهرب. وصل الأمر إلى هذا الحد. نبقى مع بعضنا إلى الأبد، وأن نحب على النحو الذي أمرنا ﷺ به. خططت لكل شيء؛ تأشيرات السفر، التذاكر، الحجز، الذهاب إلى مرتفعات أورفايتو". جففت دموعه مرة ثانية. "لكنها، لكنها تراجعت، خانتني عند الساعة الحادية عشر. اتهمتني أمام السلطات، ثم ذهبت لحال سبيلها دون كلمة تفسير أو وداع". اهتز الراوي، وسمح لدموعه بالانهمار، الألم وضياع السنوات الماضية، خطر ببال فانيلي، أن ذلك ربما كان قويًا، الأمر الذي يجعل تذكره قاسيًا في هذا الوقت.

"أهذا هوا السبب في عدم إمامة القداس في الدير؟" كانت همسة مشوبة بالحب والعاطفة والشفقة والتفاهم.

أومأ القسيس الأصغر سنًا برأسه: "أنا لا أقوى على تحملهن. على الرغم من هذا كله".

"وهل هذه هي الروح التي تمنيت طردها عن طريق الأدعية؟".

إيماءة أخرى. مسألة قلب؟ ظن القس فانيلي أن المسألة أكبر من ذلك هي مسألة روح.

كان فاينلي قسيسًا لقسيس. كانت مهنته تتمثل مرافقة القساوسة الزملاء، وأن يرعى زملاءه العاملين معه في بستان الرب. صادف الرجل كثيرًا من الحكايات،

ومر عليه أيضًا كثير من الأرواح المكروبة، ومر عليه أيضًا الكثير من الشئون العائلية، والمشكلات النسائية، والكثير من العراك على الزعامة والقيادة، والمشكلات المالية، وكل أنواع الأزمات. لكن أيًا منها لم يكن مقلقًا مثل هذه المشكلة. عاد قلبه من جديد إلى أخيه، زميله فى العمل، فى بستان الرب.

"منذ متى حدث ذلك أيها الأخ؟".

"منذ حوالى ستة أشهر! كان لا يزال مذعورًا. وهنا عرف من هى دولورس التى يدور عنها الحديث. كانت فتاة أنيسة "صفراء"، ممتلئه الجسم، تحمل ابتسامتها علامة الحسن. وقع قساوسة كثيرون فى حبها. ووقع فى حبها أيضًا كثيرون من عامة الناس. قال لها مرة أو مرتين إنها تنتمى إلى دير. كانت إغواء لسلالة آدم. والواقع، أنه بلغه مؤخرًا أنها وضعت فى دير فى عزلة.

"ولم يحدث بينكما اتصال منذ ذلك الحين؟".

أومأ برأسه. وحاول أن يقول: "منعها كاهن اعترافها من الاتصال بى. وأنا لا أعرف أين هى".

نعم، هذا هو ما خطر على بال الرجل الأيرلندى. هذا هو العلاج فى الحالات التى تكون من هذا القبيل. تقطع الاتصالات كلها. ثم تترك للزمن أن يشفيك بعد ذلك. آمل أن يكون ذلك هو حال الإبعاد عن مجال الرؤية الخارجية، والإبعاد عن الذهن، وألا يكون قطع الاتصالات هذا من النوع الذى يزيد القلب شوقًا على شوقه.

لم يكن فاينلى يعرف كيف يتصرف. لم يكن هذا هو الذى جاء من أجله. فتش فى داخله وغمغم بصلاة يطلب لها الحكمة والقوة التى تمكنه من قول الكلام الصحيح، وأن يسير على الطريق المستقيم، وأن يرتاح ويُشفى.

اختار كلماته بعناية "أنا لا أظن أن طرد الأرواح الشريرة عن طريق الأدعية أمر مهم فى هذه الحالة، أيها الأب، إن روح الله هى التى تعمل هنا".

"هناك شيطان، أيها الأب، روح,شيطانية تملكتنى، ورفضت إطلاق سراحى. وهى مستمرة فى إيذائي وإيلامى. وأنا أحس بوجودها، ألا ترى شبحها، طول الوقت. حتى فوق الهيكل".

"وهو كذلك، سنعود إلى هذا الأمر. هل تريد منى أن أساعدك؟".

"إن أمكن أيها الأب".

كرر كلامه قائلاً: "سأحاول. وكما قلت لك أنا تعاونت فقط مع الدون جبرائيل. سأحاول. الراحة من عند الله". فكر لحظة. "هل تعرف صلاة القديس فرانسيس؟ الصلاة من أجل السلام؟

أومأ شارلز برأسه.

"هيا بنـــى نصلـــى ســـويًا، أيها الأخ، ودعنا نطلب وساطة الأم العظيمة، أم الكنيسة، وآمنًا".

بدأ فاينلي: "يا ألله".

أكمل شارلز "اجعلنى أداة للسلام".

قال فاينلي: "حيث توجد الكراهية".

رد عليه آنين "اجعلنى أزرع الحب".

"حيث توجد الإصابة".

"السماح والعفو".

"حيث يوجد الشك".

"الإيمان".

"حيث يوجد اليأس".

"الأمل".

"حيث يوجد الظلام".

"النور"

"وحيثما يوجد الحزن".

"والمرح".

"أيها الرب المقدس، اجعلنى لا أحتاج إلي

"المواساة........"

"بقدر ما أواسى".

"والتَّفهُّم.......".

"بقدر ما أفهم....".

"أن أُحَب.....".

"لأنه فى العطاء....".

"نحن نتلقى....".

"وفى الصفح.....".

"ويتم الصفح عنا".

"وفى الموت......".

"فإننا نولد فى الحياة السرمدية".

"آمين".

"بقى الأبوان فاينلى وشارلز صامتين بعد الصلاة. كان هناك قدر كبير من التشمم من جانب الرجل المكلوم. فى الخارج كان صوت بنجو وهو ينبح قد بدأ فى التزايد بصورة تنذر بالخطر. كان الوقت مصادفاً لمنتصف الليل. كان صوت السيارات المارة ينبعث من بعد. خُبَاة الليل. كانت الليلة قبل كل شيء مصادفة لليلة السبت.

تناول فاينلى كتيب طرد الأرواح الشريرة عن طريق الأدعية. لم يكن الرجل مستبعدًا لذلك. لم يكن ذلك الشيطان من النوع الذى يتعين طرده بأى حال من الأحوال. معروف أن هذا الشيطان من النوع العنيف الذى له قوة تفوق قوة البشر. هذا الشيطان كان بحاجة إلى تحصين نفسه تحصينًا شديدًا، وتقديم تاسوعية(*)* من جماهير المصلين.

قال وهو يلوّح بالكتاب إلى شارلز: "أقول لك ماذا. هيا بنا نحدد موعدًا لذلك. هل يناسبك يوم الجمعة القادم؟ هل سيكون ذلك موعدًا جيدًا؟".

"سيكون ذلك موعدًا مناسبًا. إذا أبقانا الله أحياءًا".

"سيحدث ذلك إن شاء الله. اسمعنى أيها الأب. الجانب الآخر من ذلك هو إعادة التكامل التدريجى والاختلاط بالأخوات". لم يسمح له شارلز بالانتهاء من كلامه.

"لا، أيها الأب. أرجوك".

"وهو كذلك. سنأتى إلى هذه النقطة، لكنك لا يمكنك المضى فى الحياة متجنبًا الراهبات والأديرة و....".

"أنا أستطيع ذلك".

"اسمعنى. لقد ارتكبت خطأ عندما طلبت منك الذهاب لتؤمّ القداس بدلاً منى فى الدير. لكن يجب أن تفهم، أنى لم أعرف ما حكيت لى عنه". انتظر شارلز.

"سنقوم بهذا العمل بصورة متدرجة، بمعدل واحدة بعد الأخرى. هناك أخت فى مكتب استقبال السكرتارية الكاثوليكية، أيها الأب".

"سنجيء إلى هذا الأمر فيما بعد. أنا أتعجل الأمور". نظر إلى ساعته. قال متعجبًا: " يا مريم! لقد جاوز الوقت منتصف الليل!".

(*) مصطلح كاثوليكى يعنى "عادة تستمر تسعة أيام"(المترجم).

تحسس جيوب غُفَّارته (رداءه). كانت المفاتيح داخلها. كان دائمًا ما ينسى مفاتيحه. وعليه كان يتحسس جيوبه قبل أن يغادر أى مكان من الأماكن ليتأكد من وجود المفاتيح حتى يمكنه الدخول إلى مسكنه. اقترب من القسيس النيجيرى ووضع يده على رأس الرجل الجالس مرة ثانية. نهض الأب شارلز واقفًا، وصحب ضيفه إلى الباب.

قال: "أشكرك، أيها الأب. أنا أحس بالتحسن بعض الشيء".

"حسن. قد لا نكون بحاجة إلى المضى قدمًا فى ......".

"سنفعل ذلك، أيها الأب. فى الأسبوع القادم؟".

"حسن جدًا. تعانقا وهما يباركان بعضهما فى آن واحد".

"طابت ليلتك، أيها الأب".

"مع السلامة".(*)

(*) ورد هذا المصطلح باللغة العبرية shalom (المترجم).

الفصل الثامن والعشرون

في صباح يوم الجمعة، ذهبت جويس بانرمان وبصحبتها صديقة فرنسية، إلى شقة مارسى. فتحت مارسى الباب لزائرتيها. لم تضع جوى وقتًا طويلاً فى مسألة التقديم.

"مارسى، هذه هى إديث Edith". تصافحت المرأتان. لاحظت مارسى أن البنت البيضاء تريد العناق.

شرحت جوى الأمر لمارسى "هذه هى الطريقة الفرنسية فى التحية. انحناءة خفيفة على كل خد من الخدين. هذا لا يعنى أى شيء أكثر من ذلك، قبل أن يشرد ذهنك الوسخ إلى بعيد".

"أنا آسفة، أنا واحدة من أهل الغابة. لم أعبر نهر النيجر".

"ستعبرينه الليلة".

"هذه صفقة كبيرة!"

دخلا وجلسا. ابتسمت مارسى للفتاة الفرنسية، كيما تجعلها تحس أنها فى بيتها.

"إديث كلين Klein".

"أنت يهودية". أومأت اديث برأسها.

"يهودية غربية؟"

"أنا يهودية شرقية. يهودية فرنسية، نعم".

"طاب صباحك!" (*).

(*) أوردت المؤلفة هذه التحية بالفرنسية: Bonjour. هذا هو صوت المؤلفة لأن مارسى لا تعرف الفرنسية (المترجم).

قالت جوى: "اقطعى هذا الكلام. أنت تبدين ظريفة وتنطقيها بطريقة ظريفة أيضًا".

تجاهلت مارسى جوى. "أنت تعرفين مكان المطبخ". قالت هذا الكلام للفتاة الغانية دون أن ترفع عينيها عن الفتاه الفرنسية. "قدمى تحية". صمتت وراحت تقيم حجم الأجنبية. دخلت جوى المطبخ. وصاحت مارسى فى أثرها "وألا تكون التحية هى الماء، من فضلك. نحن لم نصل إلى هذا الحد من الفقر". لم تسمع مارسى الرد الذى خرج من فم المرأة الغانية موجهًا إليها. استدارات ناحية الفتاة البيضاء.

"هل تزورين نيجيريا؟".

"نعم. أنا فى أجازة". كانت تتكلم الإنجليزية بطريقة ظريفة، فيها شيء من الجنس.

"تقولين إنك فى إجازة؟" هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها شخصًا أبيض قادمًا لزيارة نيجيريا". قالت مارسى هذا الكلام بصوت عال كيما تسمعها جوى. خرجت جوى من المطبخ تحمل صينية عليها أشياء. قالت مارسى: "ينبغى أن تكون مدرجة على قوائم وكالة السياحة النيجيرية وعلى محطة CNN. أنت تُعدين إعلانًا لصناعة السياحة عندنا".

قالت جوى وهى تضع الصينية أرضًا: "أنت فرنسية وتعملين فى لندن، أنت من الاتحاد الأوروبى".

راحت أديث تنظر فى سائر أنحاء الشقة: "نعم، الأمور كلها ليبرالية". كانت هناك قناعات وزينات مصنوعة من قماش الرافيه معلقة على الجدار. فى حين كانت هناك مطبوعة محلية تزين مائدة الطعام. هذه المطبوعة نفسها كانت مستخدمة فى الستائر والمخدات.

قالت لمارسى: "مثل شقتك، سوف أشترى بعض الزينات قبل أن أعود إلى لندن".

قالت مارسى: "شكرًا. الشقة لكما لمدة أسبوع، تحت أى ظرف من الظروف". ووجهت كلامها إلى جوى، وأردفت قائلة: "لا تفعلى ذلك الذى لن أفعله أنا".

انفجرت جوى قائلة: "ديرى بالك على من يتكلم. أنت مسافرة إلى لندن مع عشيقك وتقولين لى لا تفعلى ذلك الذى لن أفعله أنا. هل أنت ذاهبة إذن لزيارة البابا؟".

فهمت مارسى أن جوى كانت فى حالتها العدوانية. لم تكن تود العراك، ولذلك ألانت عريكتها: "أنا آسفة. من فضلك افعلى ما سأفعله يا جوى". ثم تحولت ناحية أديث وسألتها: "ما العمل الذى تمارسينه؟".

قالت جوى، لكن إديث كانت تفكر بالفعل فى "رد على السـؤال "هذه مسألة لا تهمك!"

"أنا....كيف تقولونها؟ أتعيش من التسرية عن الرجال".

"أنت تفعلين ماذا؟".

"أنا واحدة من بنات تحت الطلب".

قالت جوى: "لا تسألى أسئلة، وبالتالى لن تحصلى على حقائق".

"تقولين أنت ماذا؟".

"أظن أنك سمعت ما قالته يا مارسى".

كررت أديث كلامها "أنا واحدة من بنات تحت الطلب". طرحت شعرها الأسود الطويل إلى الخلف. كان شعرها يصل إلى وسطها. وبعد فترة لفت شعرها حول نفسه على شكل كعكة كبيرة. وراحت تمروح على نفسها مستخدمه يدها. كان الجور حارًا.

"أهذا هو العمل؟".

قالت إديث "إنه عمل". وابتسمت لتكشف عن أسنان بيضاء متناسقه "أنا أحب هذا العمل".أطالت مارسى النظر إلى البنت البيضاء لأن واحدة من بنات تحت الطلب، تعنى أنها مومس.

"ألم تلتحقى بالمدرسة أو شيء من هذا القبيل؟".

تدخلت جوى وهى محرجة "انتبهى يا مارسى. سنغادر المنزل إذا ما واصلت التصرف على هذا النحو".

قالت إديث لجوى: "لا عليك. المسألة عادية جدًا. أنا لا أقلق من ذلك مطلقًا". وتحولت إلى السجانة وقالت: "أنا لدى من يسندنى".

قالت مارسى فى عناد. لأنها أحست أن شيئًا ما يغيظ جوى "أنا أود أن أعرف لا أكثر ولا أقل. وما الخطأ فى أسئلتى هذه؟".

سألت جوى مضيفتها "هل تردن تبادل الأعمال؟".

ردت عليها مارسى "أعتقد أنك اقترحت أو نوهت إلى ذلك". ثم التفتت إلى الزائرة الجديدة، "هل جئت إلى هنا لوحدك؟".

"نعم، جئت لوحدى".

"تخيلى تجيئين إلى نيجيريا فى إجازة. هل زرت الولايات المتحدة، وأمريكا اللاتينية، واليونان؟ أقصد....".

كررت أديث كلامها "أنا أقوم بإجازة". وخطر ببالها أن تُكبّر الأمر فقالت : "التكاليف كلها مدفوعة". وراحت تحرك عينيها.

"لقد بدأتِ تتكلمين".

"زبون نيجيرى من زبائنى وجه إلى الدعوى. وهو يدفع كل شيء".

"من هو ذلك النيجيرى؟ أهو شخص نعرفه؟" ونظرت إلى جوى التى نظرت إليها نظرة احتقار من قبل أن ترفع بصرها عنها.

قـــالت البنت البيضـــاء: "إنه شخصية عامة وعليه فأنت قد تعرفينه، لكنى لا أستطيع التصريح باسمه. أنا لا أفشى أسماء زبائنى. أنا آسفة".

"أديث، ألست حظيظة!".

قالت جوى لمارسى "أنت التحقت بالمدرسة. أنت لديك عمل. ومع ذلك هناك رجل يرعاك. ما هو الفارق؟" تحولت مارسى إلى الفتاة الغانية.

"اسمعى يا بنت، ما الذى يغيظك؟ اتركينى أتكلم مع هذه الفرُّوجة الجديدة! شغِّلى لنا شيئًا من الموسيقى".

نهضت جوى وذهبت إلى المسجل. كانت من عشاق تينا نيرنر. وعلى الفور بدأ يتناهى إلى الحاضرات صوت تينا يترنر وهى تغنى "ما علاقة الحب بذلك؟".

نهضت أديث واقفة فجأة. كانت خفيفة ورشيقة الحركة، ولها رجلان طويلتان وبنية عظيمة، لكنها كانت كبيرة الصدر والنهدين. رقصت رقصة خجل، وهى تبتسم إلى مارسى وتداعب شعرها السائب ناشرة إياه هنا وهناك. افتتنت مارسى بأديث. وراحت تكرر فيما بينها وبين نفسها "بنت تحت الطلب. وهى يهودية وتفعل هذا الشيء".

لاحظت مارسى وهى تقول: "هذه هى المرة الأولى التى التقى فيها يهودية، أنفك رائع".

قالت: إديث وهى فى مكان الرقص: "عملية أنف ــ لقد أجريت عملية تجميل فى أنفى". رقصن بضع دقائق وهن يغنين بصوت أعلى من صوت تينا.

سألت أديث "هل أنت متزوجة؟" اكتشفت أن مارسى مثيرة وسهلة الانقياد؛ الأمر الذى جعلها لا تحس الغربة.

ردت عليها مارسى "كنت متزوجة. لكن الزواج لم ينجح".

"هل لديك أبناء؟".

"لا، أحدنا أو كلانا كنا لا ننجب، أنا عاقر وهو عقيم".

"هل كنت تريدين أطفالاً؟".

"إلى حد ما. وأنت، متزوجة؟".

"لا".

"هل لك عشيق؟".

"أكيد ــ نحن نعيش سويًا ــ لدينا مكان فى مونت بارناس Mont parnasse".

"مع العمل الذى تمارسينه؟".

"هو مجرد عمل ليس إلا".

"هذا هو الجنون الجديد فى الخارج. التواجد فى بيت واحد. العيش سويًا دون ربط العقدة".

قالتا: "الزواج مُقيِّد تمامًا". ضحكتا.

كررت مارسى الكلام نفسه "إحكام ربط العقدة. أنا أحب ذلك".

قامت جوى بتقديم مشروب الزوبو zobo. قالت مارسى: "عندى أيضًا نبيذ نخيل، إذا ما رغبت فى ذلك". أعربت عن أسفها لأنها ستسافر فى هذه الليلة. كانت تود (الصِّياعة) مع هاتين البنتين وتقضى معهما ليلة إجازة. كانت أصواتهن تصرخ فى جو الصياح مع تينا؛

آه! آه! آه! ما علاقة الحب، ما علاقته

بذلك؟

أليس الحب شيئًا سوى عاطفة ثانوية؟

ما علاقة الحب، ما علاقته بذلك؟

من الذى يحتاج قلبنا، فى الوقت الذى يمكن

أن ينكسر فيه هذا القلب؟

"جوى، هذه هى مفاتيح الشقة. أنت لست غريبة على هذا المكان. هل لديك أية أسئلة؟"

"ليست لدى أية أسئلة، لكن لدى قائمة، يا عزيزتى، قائمة التسوق اللندنية. هذه القائمة مكونة من خمسة أشياء فقط".

"هذا شيء مرهق".

قالت مارسى وهى تقرع كأسها بكأس أديث: "فى صحتك"(*).

قالت البنت الفرنسية لمارسى وهى تعنى ما تقول: "أُحبِّك"(**)، تقدمت أديث وطبعت قبلةِ على جبهة المشرفة العامة على السجون. "أنا أستلطفك. أنت بسيطة. وغير معقدة".

قالت مارسى: "واو! أنا أحبك كثيرًا أيضًا!"(***) قالت مارسى هذه العبارة من منطلق مستواها المتواضع فى اللغة الفرنسية. كانت منفعلة. نظرت إليها جوى وسألتها "لماذا تتصرفين كما لو كنت لم ترى فتاه بيضاء من قبل؟ اكبرى".

كـــانت مـــارسى شـــاردة الفكر فى جيلين سابقين، وهى أن جدتها يحتمل ألا تكون قد التقت امرأة بيضاء قط. وبفرض أن ذلك حدث، فمن المستحيل أن يكونا قد تسامرا بهذه الطريقة. الآن، حفيدة هذه الجدة تستضيف الآن فتاة بيضاء،

(*) أوردت المؤلفة هذه التحية باللغة العبرية لأنها تعرف أن أديث يهوديه فرنسية. (المترجم).

(**) وردت هذه العبارة بالفرنسية: Je t'aime (المترجم).

(***) أوردت المؤلفة هذه العبارة بالفرنسية: Te t'aime beaucoup. (المترجم)

تتبادل معها الأفكار باللغة الفرنسية التي يفهماها هما الاثنتان. كانت على صواب. هذه هي العولمة. لقد تعولمنا بالفعل.

كانتا تستمتعان ببعضهما. سألتها "هل ستبقين معنا لتناول الغداء؟" كانت مارسي تحملق في هذه الفتاة القوقازية.

صرخت جوى "هل أنت مجنونة يا مارسي؟ نحن جالسون. إلى يوم الجمعة القادم. يجب أن تعرفى ذلك؟".

ذكرتهما المومس الفرنسية: "يجب أن أكون رهن إشارة زبونى".

"أين السكن الذى أسكنك فيه؟".

"فى فندق المريديان. أثناء النهار، سأذهب للفرجة بصحبة جوى. لقد اشترى تليفونًا محمولاً. ولديه رقم تليفونى".

"تعالى وشاهدى شقتى فى البداية".

"مطّت جوى شفتيها وأشارت إلى صدغها. كانت مارسى تمثل بحق فى ذلك اليوم. ترى هل كانت ولهانة بتلك المرأة الأجنبية؟ وكزت المضيفة أديث بمرفقها لتشد انتباهها. أشارت إلى جويس. "على فكرة أين التقيتن هذه المهرجة؟".

ردت عليها أديث "فى فرنسا. من سنوات مضت".

"أثناء برنامجى الخارجى، تعلمت الفرنسية، أرجو ألا تنسى ذلك".

نهضت البنت، ورافقت مارسى لكى تريها الشقة. "المطبخ هنا، وهو لا يعجبنى. وأنا أكره الطبخ. وأكره أعمال المنزل، لأنها تتلف أظافرى".

قالت إديث "أنا أيضًا. أكره الطبخ، لكنى أحب الأكل". ضحكتا ثانية. تحركتا إلى الغرف، وأيديهما متشابكة. "الشقة فيها ثلاثة غرف، كلها مشغولة. هاتان الغرفتان تخلوان فى بعض الأحيان. الشغالة تنام فى واحدة منهما عندما تكون

موجودة هنا. الغرفة الأخرى للزوار، وأفراد الأسرة، والأصدقاء".

قالت أديث، وهى تلاحظ إطارات الصور، والمقتنيات الإفريقية المعلقة على الجدران. النباتات الطبيعية تضفى حيوية على المكان والأركان "ذوقك عالٍ".

قالت جوى من باب التعليق، والانضمام إليهما: "الحساء الجيد يا إديث، يتكلف نقودًا".

عند باب الغرفة الثانية، عبس وجه مارسى: "هذه الغرفة كان يمكن أن تكون غرفة للأطفال، الأشياء كلها يجب أن تكون متساوية، لكن المؤسف أن الأشياء كلها يستحيل أن تكون متساوية".

ردت إديث "هذه ليست صفقة كبيرة". ووضعت يدها على كتف مارسى "أنا لا أعرف السبب فى أن كل زواج إفريقى يتعين أن تنتج عنه أطفال. هل السبب فى ذلك أنه ﷺ قال "ازدادوا وتناسلوا؟" فى أوروبا، المهاجرون هم الذين ينجبون لنا السكان حاليًا".

أومأت جوى برأسها. اتكأت على الباب وانضمت إلى الدردشة الدائرة.

"هنا، بعض الذكور (العرسان) الذين يصرون على أن تكون لهم عرائس حوامل قبل أن يدخلوا هذا الممر. إلى اللقاء!؟

استدارات إديث لتواجه الأفريقيتين. "فى فرنسا، الحكومة ترشى الأسر لكى تنجب أطفالاً ــ تحت اسم المخصصات الأسرية. هنا،..... الأمر هنا لا يحتاج إلى حوافز. الرجل هنا يلتقى المرأة وقبل طلوع النهار يكون هناك طفل فى الطريق إلى للحياة".

فتحت مارسى باب غرفة النوم الرئيسية. كانت أكبر الغرف. كانت الرسوم الزيتية تزين الجدران. كانت هناك سجادتان فارسيتان شرقى وغربى السرير، الذى كان يشغل مساحة كبيرة من الغرفة.

تعجبت إديث "واو! هذا السرير! أهو للنوم فقط؟".

أعلنت جوى: "إنه للأكروبات". نظرت إليها مارسى نظرة محرجة، مشفوعة بوكزة من كوعها فى بطنها. "الواقع، أنا اسمى هذه الغرفة المدينة الفاضلة. واحدة من البنات اللاتى فى المكان الذى أعمل فيه تقول إن المدينة الفاضلة موجودة فقط فى غرفة النوم هذه. إذن فهذه هى مدينتى الفاضلة".

قالت للفتاة البيضاء: "على فكرة، يا آنسة، لدى بعض الأسئلة التى أود أن أطرحها عليك بخصوص هذه الشقة". وراحت تحرك عينيها بطريقة مفهومة. كانت جوى على وشك التقيؤ.

ردت عليها إديث: "تحت أمرك، يا سيدتى" ضحكتا بعد ذلك ثانية وهما مبتهجتان.

"أنا فى حياتى رجلان...".

أكملت جوى كلام مارسى "أظنك ألفّت أغنية حول هذا الموقف. من فضلك، وقّرى علينا هذه الأغنية يا مارسى. إديث من فرنسا. عندهم كثير من الأغانى هناك". تجاهلت مارسى هذه الملاحظة. "هذه أغنية جديدة يا جوى. لم تسمعيها من قبل. لقد خطرت ببالى هذه الليلة استمعى، لقد أسميتها، [فى رأيك]".

قالت إديث متحمسة: "أود الاستماع إليها". إديث تحب الفنانين. وعندما قالت لها جوى إنهما تزوران سجانة، كانت تتوقع شيئًا من الرتابة والملل، امرأة جافة، تحاول موازنة ميزانيتها الشخصية، ومتعبة من عيشة لا يمكن تجاوز حدودها. ومع ذلك، بدأت المشرفة العامة على السجون تبدو شخصية خارجة لتوها من سجن البلزاك. " لم يخطر ببالى أنك مبدعة على هذا النحو".

كانت مارسى تحاول فرد الإنثناءات التى فى ثوبها. وبدأت تلم شعرها ليعطى شكلاً معينًا. تنحنحت وقالت: "أنا أفعل، فى وقت فراغى كل ما يخطر لك على بال، أيتها الفتاة".

"انتبهى، يا أنت، أنا لم أُنه اللحن بعد، لكن الكلام موجود. يقول هذا الكلام".

قالت جوى راجية مرة أخرى "وفّرى علينا هذا الكلام". كانت أديث قد جلست فى وضع مريح، والمشروب فى يدها.

قالت مارسى بصوت عالٍ، بعد الإزعاج الذى أصاب تركيزها "اخرسى. هل بوسعك أن تنقنقى مثل الضفادع؟ ألم تسمعى عن بيونس Beyonce، أوجيلو، أو ماريا كارى Carey، وهن نساء مثلك؟ كل ما تعرفينه هو البيع والشراء، وتحقيق الربح. من فضلك يا ايدى، علميها شيئًا من الحضارة. علميها التمتع بالحياة". ثم تصمت بعد ذلك. "هيا بنا نبدأ". وعلى نغمات المعبد الشرقى. وفى أدب. مع ابتسامة. تنحنحت مارسى وراحت تقول:

أنا لى رجلان

فى حياتي

أود أن أعرف

من منهما أختار

وأنا سائرة على الطريق

وعليه خبرّوني

فى رأيكم

ماذا ترون؟

السيد سين أم السيد ص

أنا أُبلى الأحذية

أنا أعرِف ذلك

لكن خبِّروني

ماذا أفعل؟

أنا لى رجلان فى حياتي

وعليه خبِّرونى، أرجوكم خبرِّوني

ما رأيكم

من أختار منهما.

من منهما أقول له "أنا موافقة".

انحناءة وتأدب أمام صالة خيالية عامرة بالناس، ربما كانت تلك الصالة هى المسرح القومى. تضع إديث كأسها على الأرض وتروح تصفق تشجيعًا.

قالت إديث من باب اللهو: "هل فى حياتك رجلان فقط؟ ولم تتعقدى".

ضحكت بصوت عال، وهن يصفقن بأيديهن ويهززن رؤوسهن "رجلان، نعم، فى الوقت الحالى".

تساءلت المضيفة بعد أن استعدن وضعهن: "كيف أعرف من اختار منهما؟".

غنت جوى "فى رأيى أغناهما بطبيعة الحال. أو صاحب الخيارة الأكبر".

"أنا لم أوجه: سؤالى إليك يا جوى. أنت لا تعرفين شيئًا فى هذه الأمور".

فكرت إديث بعض الشيء. قطعت مارسى عليها أفكارها. "إسمحى لى أن أسألك السؤال نفسه بطريقة أخرى. عندى ما يسمى استبيان مارسي. هل أطرحه عليك؟ هل ستتعاونين معى؟".

"نعم، ولم لا؟".

كانت مارسى قد ابتدعت لعبة كانت تلعبها مع ضيوفها. كانت تلك اللعبة مكونة من مجموعة من الكروت. وجه من وجهى الكارت (البطاقة) كان مكتوب عليه الهواية. وعلى الوجه الآخر كانت هناك بعض الأسئلة حول هذه الهواية. ويطلب من الضيوف سحب بطاقة (كارت)، وتقوم مارسى بقراءة الأسئلة المتعلقة بتلك البطاقة. كانت الخيارات الموجودة على البطاقة تتدرج من الرجال، إلى الزواج، والموضة، والعمل وتنتهى بالطعام، والهوايات، ومزجيات الوقت.

"وهو كذلك".

عُدن إلى غرفة الجلوس. نظرت مارسى إلى الساعة. الساعة الثانية عشر. مفروض أن تكون فى المطار عند الساعة السادسة مساء. قال إن مساعده سوف يكون هناك لإنهاء الإجراءات. وأنهما سوف يلتقيان داخل الطائرة. أمامها متسع من الوقت، لكنها لم تحزم حقيبتها بعد. كان قد أوصاها بألا تأخذ معها أشياء كثيرة؛ وأنها سوف تتسوق فى لندن. ذكر لها محلات ماركس وسبنسر، وديتهامز، وجون لويس، وسيرك أكسفورد، وطريق محكمة توتنهام، وطريق بورتبللو، وأشياء أخرى نسيتها. يتعين عليها مع ذلك كله أن تأخذ معها بعض الأشياء. الرجال قد يعدونك بالسماء والأرض. وعندما يحين موعد الوفاء ينسحبون.

كانت آيرين قد قالت لها، قبل أن تتزوج، إنها سافرت مع أحد الآباء الحلوين إلى لندن. وعندما وصلا إلى هناك أعطاها الرفيق خمسين جنيهًا إنجليزيًا لتنفقها خلال الأسبوع الذى مكثاه هناك.

كانت آيرين قد صرخت "تخيلى! خمسون جنيهًا عاديًا! وعندما اشتريت تفاحًا ووجبات سريعة انتهى هذا المبلغ. رجالنا قد يكونون أثرياء من حيث النيرات". حذرت آيرين مارسى: "لكن رجالنا يفتقرون إلى الجنيهات. وهم يصيرون بخلاء عندما يتطرق الأمر إلى النقد الأجنبى".

نحّت مارسى هذه الفكرة جانبًا. سوف تطلب من أنتلّى تفسير هذا الموضوع. أنتلّى تعرف هذه المسائل. أعتقد أنها ستعرف السبب. المبالغ التى اختلسوها من محفظتنا الوطنية هى بالنيرات. هذا هو ما ستقوله أنتلى. أصحاب ملايين النيرات، فقراء فى الجنيهات، الشريف يعقوب قد يكون من هذه الفئة. أولاً وقبل كل شيء، هذه هى الفترة الأولى لهذا الرجل فى هذا المنصب.

نصحت جوى قائلة: "أضيفى إلى ذلك شيبرد Shepherd بوش Bush وليفربول ستريت؛ هذان المكانان هما مكانا التسوق الشعبى".

قالت مارسى لأديث: "اختارى بطاقة" وهى تمسك بمجموعة البطاقات. جاء اختيار أديث يقول الرجال. قالت مارسى وهى تضحك ضحكة بلهاء: "مضبوط"، ثم راحت تقرأ الجانب الآخر من البطاقة.

"لقد واعدت رجالاً كثيرين من الناحية الغرامية؟ هل يمكن أن تقولى لنا كم عددهم؟"

"لا".

"أنا أود منك رقمًا".

"ثمانون، مائة"

سألتها المشرقة العامة على السجون "وهو كذلك. هذا رقم ليس سيئًا لواحدة من المومسات. هل هم من جنسيات مختلفة؟".

وافقت الفتاة الفرنسية "من جنسيات مختلفة". وبدت على شفتيها ابتسامة باهتة.

"ما هى جنسية أكثرهم وسامة؟".

"هندى".

تعجبت جوى "هل هذا صحيح؟".

"من كان أكثرهم عطفًا وحنانًا؟".

"تقصدين من هو أكرمهم؟". أومأت المضيفة برأسها.

"عربى".

"أنا أريد جنسية من فضلك".

"سعودى".

"من كان أكثرهم سوءًا؟".

"مالى".

"من كان أكثرهم بخلا؟".

"فرنسى".

"من كان أطولهم؟".

"سنغالى".

"من كان أقصرهم؟".

"فلبينى، اعتقد".

"من كان أغناهم؟".

"سعودى أيضا".

"من أقواهم فى.....؟".

"نعم".

"النيجيرى أو التونسى".

"جنسية من فضلك".

"إذن، نيجيرى".

قالت جوى "الفضل يرجع إلى الفياجرا".

"أخيرًا، لو قدر لك الزواج، فما هى الجنسية التى ستختارينها؟".

"أنا لا يمكن أن أتزوج بالجنسية وحدها".

"أنا أريد كلمة واحدة من فضلك".

"فرنسى".

"أشكرك".

"السؤال الأخير. ما هو الوضع الجنسى الخيالى عندك؟".

"عندى أوضاع كثيرة".

"أفضل هذه الأوضاع عندك؟".

"رجلان، مختلفا الجنسية، وفى وقت واحد".

"الوضع الثلاثى إذن؟".

"نعم. رائع!".

قالت جوى للمضيفة: "أود أن أطرح عليك هذا الاستبيان نفسه".

قالت مارسى: "لن ينجح معى. أنا لم أواعد غراميًا أيًا من الأجانب، يا عزيزتى ـــ لم يحدث ذلك إلى الآن بأى حال من الأحوال".

"إذن، هم من القبليين النيجيريين. أنا أعرف أربعة منهم فى أضعف الأحوال. أقول فى أضعف الأحوال".

أجابتهما المشرفة العامة على السجون، وهى محافظة على تجهمها." هذه صفقة كبيرة! ولعلكما، يا بنات، أنا لازلت عذراء".

صاحت جوى: "أنا أقسم على أنك عذراء، أمى لا تزال عذراء!".

ضحكن بصوت عال.

نظرت مارسى إلى صديقتها التى تعرفها منذ أشهر عدة. التقت أعينهما. شاهدت بنتا لطيفة، جذابة، طويلة، مليئة حيوية، كانت جوى تساوى نظرة مختلفة. الرجال كانوا يرون أنها جنسية، "وذاقوها" مرارًا. لكن جوى لم تكن تعطهم وقتًا أثناء النهار. كانت مارسى تتساءل عن سبب ذلك. كيف تحولت هذه الفروجة الناصعة إلى كارهة للرجال، وعاشقة للجنس اللطيف؟ ما الذى ولد هذا الشيء غير الطبيعى فيها؟ استطاعت مارسى الوقوف على بصيص من الحزن فى تشبه جوى بالصبيان، وشغفها إلى الهجوم طلبًا للمداعبة، وأن تكون هى صاحبة اليد العليا فى الأمور، حتى وإن كانت أمورا تافهة. حملقتا فى بعضهما ثم ابتسمتا. أشارت مارسى إلى مكان على الكنبة.

"اجلس يا جوى". جلست جوى متثاقلة وانتظرت. شغلت مارسى المكان الذى بين جوى وإديث. ووضعت يدها على ركبة جوى.

"ما الذى يأكلك يا بنت يا جوى؟ لماذا لا تحببين الرجال؟ ما سبب ذلك؟ أم أن الحال معك دومًا على هذا المنوال؟".

هزت الفتاة الغانية رأسها مرات. ورسمت صورة من صور الاستياء. كانت تجلس ورجلاها مفرشختان. كان جذعها منحنيًا إلى الأمام، وكانت عيناها مركزتين على الأرض. كان كوعاها يرتكزان على وركيها وأصابعها متشابكة بين ركبتيها.

ألحت مارسى: "هل حدث لها أمر ما؟". نظرت جوى إلى أعلا. كانت الدموع تتجمع فى مقلتيها. وبحركة من يدها أبعدت تلك الدموع. تلا ذلك صمت فى حين راحت البنتان الأُخريان تنتظران كلام جوى. استغرقت هذه العملية وقتًا طويلاً. خطر ببال مارسى أن ذلك لابد أن يكون أمرًا خطيرًا.

بدأت المذنبة السابقة تقول: "كنت متزوجة ذات مرة".

خطر ببال مارسى، أن هذا أمر طبيعى، زواج سيئ مثل زواجى، أو ربما كان أسوأ. تساءلت مارسى عما إذا كان هناك شيء أسوأ من الجلد. هل هى خيانة؟ النساء متعودات على ذلك، ألسن كذلك؟

انتظرت ــ تضايقت جوى واختنقت ــ وبدأ أنفها تتساقط منه قطرات. قامت أديث بإعطائها منديلاً من الورق.

واصلت كلامها: "كان لى ابن، أقصد لى ابن. لا أدرى إن كان حيًا أو ميتًا، إن كان حيًا فأنا لم أره منذ أحد عشر عامًا إلى يومنا هذا".

تعجبت المستمعات فى آن واحد "أيها الملائكة المقدسون"! يا إلهى".

* * *

قبل اثنى عشر عامًا

بعد الأسابيع التى أمضتها فى المنزل استعدادًا لمجيء وليدها، ثم الاهتمام به ورعايته بعد ذلك، هذه الأسابيع حالت بين جوى وبين حرارة الشمس الغانية الحارقة. شهدت الأسابيع الأخيرة جوى وهى فى المنزل، بلا عمل، وتأخذ الأمور مأخذًا سهلاً وهينًا. اليوم وبينما كانت تقف على جانب الطريق، وهى تفكر فى مسألة تنقلاتها. خطر ببالها: "إما أن يشاركنى كويسى Kwesi فى سيارته التويوتا الكارينا مشاركة فعلية أو تعين علينا العثور على الوسيلة التى تمكننا من التحصل على سيارة لى".

بلغت أشعة الشمس من الحرارة الاستوائية حدًا أقسمت معه الأم الجديدة فى الحال ألا تخرج من منزلها من ذلك الوقت فصاعدًا، إلا إذا دعت الضرورة القصوى. وحتى فى مثل هذه الضرورة الملحة فإن كويسى هو الذى ينقلها.

كويسى. بارك الله فيك يا كويسى. كانت دائمًا تتمتم أثناء الصلاة بالدعاء له في كل مرة من المرات التى كان يخطر فيها على ذهنها مؤخرًا، وما أكثر ما كان يخطر على بالها. لقد أثمر حرمهما الرومانسى شجرة أصبحت تؤتى ثمارها الآن. كانت روحها المعنوية مرتفعة لأنها أنجبت ذكرًا. مسألة الذكور هذه تجعل الأزواج سعداء دومًا، على حد قول أمها لها عندما كانتا تغسلان الوليد الجديد وهو يصرخ. حلَّق كويسى إلى سطح القمر.

بينما كانت جوى تنتظر، كانت مبتهجة لأن أمها استطاعت فى نهاية المطاف زيارتها بمناسبة الوضع. أدركت أنه لولا مجيء أمها لاضطرت إلى الخروج بوليدها فى هذه الحرارة الشديدة. ساعدتها أمها فيما يحتاجه الوليد الذى لم تجر تسميته إلى الآن — ستجرى تسمية الطفل فى اليوم الثامن — أى خلال ثلاثة أيام. هذا سيحتم استضافة الأسرة كلها والأصدقاء المقربين. الواقع أن الاستعداد لهذا الحفل يحتم على جوى المخاطرة بالخروج بالطفل من الظل الظليل داخل المنزل لتقف فى الطابور فى بنك غانا التجارى لكى تتسلم راتبها عن الشهر. يا له من أجر لا يكفى المعيشة! تفلت بعد ذلك على الأرض. بعد ثمانى سنوات من التخرج أتقاضى الآن ما يعادل ١٠٠ دولار أمريكى. يا للعار! لم يكن معلومًا ذلك الذى وجهت إليه هذه العبارة الأخيرة. هل كانت موجهة إلى الحكومة عديمة الإحساس التى أصرت على إعطاء رواتب وأجور تجويع للموظفين المدنيين، أما أنها كانت موجهة إليها شخصيًا، بحكم أنها مترددة وجبانة فى البحث عن عمل أفضل فى القطاع الخاص؟ سوف أجنى الفول السودانى وأعبر مباشرة داخلة إلى سوق ماكولا. وما هى إلا عشرون دقيقة، وأكون قد أنهيت كل شيء. سوف تقاوم إغراء الكلام مع هاريت برمبه Prempeh Harriet فى مكتب علاقات العملاء. لقد كانا صديقين جيدين. الواقع أن لها أصدقاء عديدين فى البنك. "كل واحد يود أن يعرف جنس المولود، وكيف حاله، ومتى ستجرى تسمية الطفل. لكن ينبغى أن أقاوم الحديث مع ذلك الشخص. ولابد من العودة لتغذية الطفل من ثديى. على كل حال سيرون انسياب الحليب من حلمتى ثديى ويفهمون كل شيء".

حددت فى ذهنها الأشياء المطلوبة لذلك الحفل: الأرز، الطماطم، اللحم، بعض المشروبات، البيرة، وكذلك...... الختان! لم يخطر ببالهم الختان! يفضل إجراء الختان فى ساعة مبكرة، من الأسابيع الأولى من حياة المولود، على حد قول الممرضات، لأن الوليد فى مثل هذه السن لا يحس ألمًا. كان هناك رجل محلى هو الذى يقوم عادة بعملية الختان. سوف تسأل جفتى Gifty تاماكلو Tamakloe. جفتى أنجبت ولدا منذ حوالى شهرين.

عندما ركبت جوى اللورى وبدأت تصادف الروائح الكريهة المنبعثة من الركاب، كتمت أنفاسها وأقسمت ثانية على أن تكون لها سيارتها الخاصة، حتى ولو كانت من طراز سكارلت Scarlet. السيارة ليست ترفًا مع مثل هذه الظروف، وإنما هى ضرورة. كان يمكن أن توكل مسألة التسوق هذه لأمها، لكن أمى ليست معتادة على مثل هذا الزحام وتلك الأجواء فى العاصمة. يمكن أن تقوم بهذا العمل لو أن كويسى أخذها معه فى السيارة وانتظرها إلى أن تنتهى من التسوق. أمهاتنا يساومن أحسن منا ويفهمن التجارة أفضل منا. هى تعرف أنه مهما اشترت، فإن أمها ستقول لها إنهم غشوها أو خدعوها.

ستقوم أمها بالصراخ فيها، وهى تحاول تحسس وزن قطعة اللحم بتحريكها إلى الأعلى وإلى الأسفل: "لقد اشتريت هذه القطعة من اللحم بثلاثين ألف نيرة؟" لو أن معى ثلاثين ألف نيرة، يا جويس، سوف أعد ثلاث أوانٍ من الحساء، بالإضافة إلى يخنة". جويس، مصطلح من مصطلحات المعزَّة التى تكنها لى أمى. منذ أن كانت طفلة وأمها تسميها جويس. جويس تعالى وخذى قطعة من اللحم؛ تعالى وخذى هذا الكنكي(*). جويس تعالى لأمشط لك شعرك.

تشرح الابنة لأمها: "الأشياء أرخص فى الداخل يا أمى، لكن الحياه غالية فى المدن".

تصر العجوز على رأيها قائلة: "سرقة فى وضح النهار. هذه القطعة من اللحم تكلف ثلاثين ألف نيرة...." تتوقف عن استعمال مبالغة التفضيل فى وصف هذه الصفقة السيئة. ثم تنتقل بعد ذلك إلى بند آخر من بنود المشتريات.

(*) نوع من الطعام النيجيرى.(المترجم).

. أمى هى التى ستقوم بالتسوق. ثم أردفت قائلة: وعندها أستطيع أنا البقاء فى المنزل، وأخذ الأمر على علاته، وكويسى هو الذى سيتعين عليه أخذها إلى السوق. اليوم عملتها السيارة التويوتا مرة ثانية. لقد تلفت البطارية. لم تعمل الماكينة حتى بعد دفعها إلى مسافة مائة متر فى الشارع. تعين على كويسى البحث عن ميكانيكى فى المنطقة التى توقفت فيها السيارة، ووصل إلى موقف الحافلات على الطريق الرئيسى. هؤلاء الميكانيكيون كانوا يعيشون فى بلدة تيشاى Teshie، بالقرب من المدرسة العسكرية على الحدود الخارجية للعاصمة. عندما كان الميكانيكى يكارك للسيارة، سمعت جوى بعض الطلقات وظننت أن الجنود كانوا يتدربون فى ميدان الرماية القريب. لكن الواقع أن ذلك الصوت كان عبارة اشتعال خلفى لمحرك السيارة. رجته جوى فى صمت "حاول الوصول بها إلى وسط المدينة. أنا لا يمكن أن أتوقف وأنتظر مجيء سيارة أخرى فى هذه الشمس المحرقة". عدلت فخذيها بين اثنتين من نساء السوق. كانتا تتجاوزان طريق لبادى الساحلى، متجهتين ناحية أوزو Osu دى.

عندما عاد إلى المنزل كانت آدوجا قد انتهت من كنس منزل ابنتها. لم تكن هناك أوساخ كثيرة فى مسكن يضمن ثلاثة من الكبار وطفلاً رضيعًا. كانت أدوجا قد أحست فعلاً بالضيق. لم يكن عندها أشياء كثيرة أو أعمال كثيرة تقوم بها. حساء الأمس سيجرى تسخينه لغداء اليوم.

وكيما تتأكد من ذلك، مشت إلى المطبخ وراجعت ما فيه. كانت هناك حزمة من أوراق الكسافا فى الثلاجة. كان المرحوم زوجها لا يتناول حساءًا من اليوم السابق أو مضى عليه الليل. كان يتحتم عليها يوميًا إعداد إناء حساء جديد. لكنها هنا فى منزل ابنتها ليست متأكدة بعد من هذه المسألة. قد أقوم بعمل شيء من الصلصة. مسألة الجلوس بلا عمل كانت تضايقها.

فى المزرعة، ينشغل المرء بالعمل الزراعى، وبصيد السمك واللقاءات وبجولات لا تنتهى من الزيارات الاجتماعية، ودفن الموتى، وحفلات الزواج، وحفلات السبوع. كان ذلك واحدا من الأسباب التى منعت الأم من المجيء فى

موعد أبكر من الموعد الذى وصلت فيه. أما الآن وبعد أن وصلت إلى هنا، فهى لم تتوقف عن الانشغال عن شئونها المنزلية الخاصة. العنزة كانت على وشك الولادة. كانت تتطلع إلى مراعاة جارتها لتلك العنزة. نخيل جوز الهند بدأت تنضج وبحاجة إلى التقليم. لقد عهدت بذلك كله إلى كوجو لكن ذلك السكير معرض للنسيان. وعندما كان ذهنها يتنقل من مشهد إلى آخر من مشاهد القرية، كانت تتنقل من غرفة إلى غرفة، وهى تطيل النظر إلى الأثاث، مبدية إعجابها به ومحاولة لمس بريق حياة المدينة.

أطالت النظر إلى الصور الموجودة داخل إطارات معلقة على الجدار. وكان أعين الصور هى الأخرى تحملق فيها. رفعت أطقم الأدوات المصنوعة من الخزف الموجودة على الرفوف، وراحت تقلبها. كم هذه الأوانى ناعمة الملمس، وكم هى الزينات النباتية جميلة أيضًا! راحت تتفحص الأشياء الفنية الموضوعة على الطاولات وعلى الرفوف، والتى لم يكن لها فى رأيها أية فائدة أو نفع. هسهست قائلة: هذه مضيعة للنقود.

كان المنزل هادئًا. كان أصحاب المنزل قد ذهبوا إلى أعمالهم. وها هى الآن، بلا عمل. كل ما أفعله طوال اليوم هو المزاح مع جوس، إلى أن يصحى الطفل فى نومه. أما اليوم فقد خرجت جوس هى الأخرى، إذن أنا والطفل وحدنا فى البيت، وهذا الطفل لا يفعل شيئًا سوى النوم طول اليوم. كانت آدوجا تراقبه بين الحين والآخر. أحست بالارتياح لأن زوج ابنتها ذهب إلى العمل. ظنت أن وجوده فى العمل يخلى لها الطريق. كانت تحس بالحرج من وجوده فى بعض الأحيان، كانت تحس وكأنها تتعدى على ما ليس لها.

قررت آدوجا انتهاز فرصة نوم حفيدها وراحت تغسل الغسيل وتستحم أيضًا. لقد أحضرت معها غيارين من الملابس. هذان الغياران اتسخا، ناهيك عن تبول الطفل بين الحين والآخر. فى نهاية زيارتها، عرفت أن ملاك المنزل،

سيعطونها بعض الهدايا من قبيل التقدير والامتنان. هذه الهدايا سوف تشتمل أيضًا على قطعة أو قطعتين من القماش، وهذا راجع إلى مسألة رواج أحوالهم. لكن هذه الهدايا ستأتي في نهاية الزيارة. في عطلة هذا الأسبوع ستتم تسمية الولد، ثم ختانه بعد ذلك.

قالت فيما بينها وبين نفسها وهي تحمل دلو الغسيل إلى فناء المنزل الخلفي "عندما يلتئم الختن، أعتقد أني سوف أرحل. سوف أبحث عن خادمة صغيرة لجويس. ستكون بحاجة إلى خادمة، عندما تعود إلى عملها". كانت هناك مضخة بجوار الجدار. خلعت آدوجا ملابسها. كانت الرطوبة قد بدأت تتملكها، وهذه هي البثور الناتجة عن الحرارة تغطي رقبتها وجبهتها. تركت صدرها عاريًا، ولم يتبق عليها سوى سروال صغير أسود اللون مصنوع من النايلون يغطي بالكاد إيليتها الشبيهه بالبصلة.

أثناء انحنائها لتصبين الملابس بالصابون. كان ثدياها الكبيران يتدليان بطريقة فوضوية. لم يكن الثديان أكبر من اللازم، لكن الحلمتين كانتا واضحتي المعالم وسوداوين. كانتا بارزتين كما لو كانتا حبتين من حبات السيام عندما تكون باردات صغيرة. أطلقت بعض الضّراط في الهواء، ثم استرخت بعد ذلك، وراحت تصيخ السمع كيما تسمع صوت الوليد. قالت فيما بينها وبين نفسها: "لقد نام طويلاً هذا الصباح. لابد أن يكون سبب ذلك هو رضعة الصباح الباكر، وتغيير فوطه الصحية. الطفل إذا ما كان جافًا، وجرى إرضاعه سينام نومًا عميقًا. لا يقلقه شيء في هذا العالم. هذا على العكس منا نحن الكبار؛ نحن نشغل بالنا بهذا وذاك وبكل شيء؛ نشغل أنفسنا بدجاجنا، وماعزنا، وبمزارعنا، وبمحاصيلنا، وبأطفالنا، وبجيراننا. ناهيك عن النقود، أو نقصها، ودائنينا ومدينينا".

نشرت الغسيل على الحبل. وقفت لحظة بجوار الحبل، وهي تتفكر الأمر. فكرت في منزلها في القرية، المنزل خال الآن منذ وفاة زوجها قبل ستة أشهر. إذا

ما عكسنا الوضع، فهى تعرف أنه كان سيبحث عن بديلة لها فى مثل هذه الظرف. الأمر يختلف عند النساء. المجتمع يفترض أن النساء يمكن أن يتحملن. خطر ببالها أن هذا الافتراض ليس صحيحًا. النساء أيضًا بحاجة إلى الرفقة. نعم. تنهدت. وقايتها لنفسها ليست مشكلة. أراضى العائلة سوف تغرقها فى العمل. لكن الحث الذى يستعر فى داخلها، كيف لها بالتغلب عليه، وماذا تفعل معه؟ وعلى حد قول المجتمع، لا يزال الوقت مبكرًا على نحو لا يسمح بتدفئة الفراش بعد وفاة زوجك وسيدك.

ربطت آدوجا الملابس المبتلة بالمشابك. ثم رفعت الدلو، وغسلته حتى يزول مابه من رمال واتجهت داخلة إلى المنزل. وقفت للحظة بلا حراك والدلو فى يدها، وهى تلقى نظرة على صوبة وحشائش تيشاى ننجوا Nungua الخضراء، التى يتخللها بعض الأسقف المصنوعة من الألمونيوم العاكس. على مسافة بعيدة نحو الأسفل استطاعت أن تتبين شاطئ لابادى Labadi المتعرج كما شاهدت أيضًا سطح المحيط الأطلسى وهو يستحم فى ضوء الشمس. أصاخت السمع. هل سمعت صوتًا؟ هل استيقظ الرضيع؟ قررت الذهاب لمراقبته، وذلك من باب التأكد ليس إلا. تيقنت من تحركٍ بالقرب من الباب. وفى الحال رفعت يدها الحرة لتغطى صدرها العارى.

"أهذا أنت!".

ردت عليه بطريقة آلية "نعم أنا".

ابتسم كويسى لحماته: "يا امرأة، لا يزال لك شاسيه". كان قد انتهى من إصلاح شاحن بطارية السيارة وفاجأ المرأة كبيرة السن وهى تقوم بأعمالها المنزلية. كان متكئًا على حلق الباب، وقد ارتسمت ابتسامة شريرة على وجهه.

قالت فى خجل "آه! حسبت أنك ذهبت إلى عملك؟".

"لم تشتغل السيارة، لكنى أصلحتها. سوف أذهب الآن لحال سبيلى".

عجّلت المرأة مسرعة إلى الغرفة المخصصة لها لتحضر لنفسها غطاء من القماش، أى غطاء. وبينما كانت تتصرف، كانت مدركة تمامًا أن عينى الرجل كانتا تتعقبان فناءها الجامح الخلفى الوسيع، كما لو كان سيبتلعها. راقب كويسى الردفين المهتزين، وهو عاجز عن سحب ناظريه عنهما. راقبت آدوجا الطفل للتأكد من أن أذنه كانت مستقيمة ومنبسطة على المرتبة، وأنها لم تكن مقلوبة حتى لا يصاب بما يسميه الناس آذان الأرانب. تحرك الرضيع. ربتت عليه برفق إلى أن عاد للنوم مرة ثانية. رجته قائلة، لا تستيقظ الآن. ليس عندى حليب كى أعطيك إياه. الأفضل أن تعجل فى الانتهاء من أعمالها، فقد أوشك الرضيع على الاستيقاظ. فى مكان ما من المجمع سمعت صوت محرك سيارة يبدأ فى العمل ثم يستمر بدون تشغيل. ملأ الدخان الغرفة مشت السيارة واختفى صوتها. خطر ببالها أن كويس غادر المكان. خلعت سروالها واتجهت صوب الحمام الرئيسى وفتحت صنبور الماء، وضعت الدلو تحت الحنفية حتى يمتلئ. شيء جميل أن يكون فى المدن ماء جار. فى القرية تعد مسألة جلب الماء عملاً مضنيًا. وضعت الدلو فى مكانه. كانت قد تركت الباب مفتوحًا لتسمع صوت الرضيع.

وما هى إلا برهة قصيرة عندما كانت تغلق الصنبور، حتى أحست بيدين ساخنتين تباعدان بين ردفيها، لتحس بعد ذلك بشيء يدخل كبسا. خطر ببالها للوهلة الأولى أن ذلك ربما كان مرود واحد من المغتصبين. فقدت توازنها، وتقدمت إلى الأمام لتمسك بالدلو حتى تستعيد توازنها. أمسكت الدلو بإحكام. خطر ببالها، هل ينبغى أن أحتج، لكن ماذا يمكن أن يحدث إذا ما لجأ إلى العنف؟ رجعت إلى الخلف فى محاولة منها لأن تقف منتصبة القامة وتفصل ذلك الغريب عنها. رجع ذلك المعتدى إلى الخلف أيضًا وعدّل من وضعه.

"أرجوك، أرجوك" راح يرجوها وهو يكاد يكون منقطع الأنفاس "انحنى إلى أسفل. لحظة واحدة أرجوك. لقد أوشكت على الانتهاء". وقفت منتصبة، وهى تبلغ من الخجل حدًا لم تستطع معه النظر إلى ذلك الآدمى. خجلانة جدًا من تركه يفعل

ما يريد، خجلانه جدًا من اشتياقها إليه، وأنها لم تقاومه مطلقًا، ولم تحاول منعه. هل أنا جوعانة إلى هذا الحد؟ تساءلت: هل أنا راغبة إلى هذا الحد؟

أمسك يدها وبلا كلام، أقتادها إلى غرفتهم، كانت عارية تمامًا. لاحظت ظهره المشعر، وأعصاب ردفيه.

غمغمت قائلة "Pepaucho" هذه الكلمة من لغة التّوى Twi ومعناها "أرجوك". قالت الكلمة نفسها، وهو يدفعها بلطف على الإسفنج عبر السرير وقد طرحها أرضًا. رقد بجوارها وسحب ركبتيه إلى الأعلى ــ هنا لاحظت أن بنطاله ارتفع إلى أن وصل إلى ساقيه ــ خلع البنطال. أما هى فقد بلغت من الإثارة حدًا عجزت معه عن المقاومة. لكنها استجمعت شجاعتها ونهضت، وهى تتعجب من وصول الأمور إلى هذه المرحلة بهذه السرعة. جذبها إلى الخلف ثانية، وكأنه يتمتم بعبارة "منذ زمن طويل". تفكر طويلاً بالنسبة لك أم بالنسبة لى. سحبها عليه ووضعها بين ساقيه القويين. وهنا أدركت أن "الزمن طويل" عليهما، الزمن طويل عليها منذ مرض زوجها، وعليه منذ الشهر السادس من حمل ابنتها.

جلست عليه عندئذ كما لو كانت تجلس على مقعد مستدير وأمسكت بعظم الترقوة ووازنت نفسها فوق إربتيه، ولم تتعجل، وسيطرت على طوله كله. وقالت فيما بينها وبين نفسها، زوج ابنتى ليس موهوبًا، وتنطلق آدوجا من عقالها، وتتحكم فى إربيتها، وتلقى بالرجل بكل قوة تركله بعيدًا عنها. ويرقد أمامها باسطًا ذراعيه وساقيه ومغلوبًا على أمره من امرأة خبيرة فى الدوران. نفخته ودوّرته بالطريقة التى عجزت زوجته عن استعمالها معه.

تنهد اعترافًا بالجميل. كان لسانه يلحس شفتيه الجافتين، وكانت عيناه تتفتحان وتنغلقان وهو يوشك على الإحساس بالسعادة المطلقة التى تتولد عن قمع الشهوات والاندماج بالذات الإلهية.(*) "أشكرك، أشكرك Meda wase". دوت أصوات الطلقات من ميدان الرماية القريب التابع للمدرسة العسكرية. ظن كل منهما: "أنا على وشك الموت".

(*)هذا المفهوم مأخوذ عن الديانة البونية. (المترجم).

من بعد ذلك سمعت الزائرة صوت طفل متذمر. خطر ببالها لابد أن أذهب للطفل، لابد أن أعود لأعمالى، وقد أعود إلى بيتى، حتى لا يتسبب هذا الجنون...... ترى هل كان الصراخ يقترب منها أم أن ذلك كان خيالها؟ ألم يكن من الأفضل أخذ النقود، والقيام بالتسوق والعودة....؟

الفصل التاسع والعشرون

ذات ليلة

بدأت آلام المخاض عند بيا Bea فى ساعة متأخرة فى ليلة من الليالى. أحست بسائل ينزل على رجليها وأبلغت ذلك إلى ممرضة السجن. جثت باتسى على الفور على ركبتيها وبدأت ابتهالاتها ودعواتها. انضمت النزيلات الأخريات إليها. راحت الممرضة ستاف Staff تراقب بيا، محاولة تقدير الزمن فى غياب أية أداة من أدوات قياس الزمن. كانت آلام المخاض طويلة، فقد استمرت ساعات عدة. أحست بيا بالضعف؛ لكن الطفل كان لا يزال لا يُرى بعد. كانت ستاف على وشك أن يصيبها الرعب، لكن إنتلى راحت تشجعها.

"بوسعك القيام بعملية التوليد. ليس هناك ما يشتتك الآن، ليست هناك حفلة ليلية، ولا تَغَنٍّ بالمناقب. لقد كنت قابلة فى دار من دور الأمومة. بوسعك القيام بهذه العملية".

"أيها الأب، نحن نقوم بولادة طفل ليس فى الوضع الطبيعى، ونستعين باسم يسوع!".

"آمين".

"تذكرى الفرقة وهى تغنى ترنيمة: "أوريكى Oriki".

"تلك الحالة كانت قبل ستة أشهر. كانت البنت فى سن الرابعة عشرة".

"خبرة تزيد على ثلاثين عامًا يا ونمى".

أومأت الممرضة برأسها: "وفى مستشفى عام، نعم، نعم، نعم".

أصرت المتحدثة الرسمية "بوسعك القيام بعملية التوليد هذه. أنت قابلة العنبر".

"نعم. لقد ولَّدنا توائم، وثلاثيات. بل وحتى رباعى".(*)

أكدت أولورى قائلة: "بوسعك القيام بذلك ــ هيا ابدئى العمل".

أردفت إنتلى قائلة "افعلى كل ما فى وسعك. وسوف أساعدك أنا شخصيًا. كل ما عليك أن تقولى لى ما هو المطلوب منى. أما أنت يا سوزان ومعك إيا إيبجى تقدما. أنتما لديكما خبرة فى هذا القسم".

كانت أولورى تنشد ترنيمتها الشهيرة أوريكى oriki.

أدارت ستاف رأسها من الشرق إلى الغرب، وشهقت وراحت تضرب على صدرها.

خلعت القابلة ملابسها وبدأت العمل.

كانت بيا راقدة مثل نسر مفرود الجناحين على مرتبتين جرى وضعهما بجوار بعضهما. أحاطت النزيلات ببيا. كانت تتأوه بصوت لطيف وهى فرحة إلى حد ما أن هذه الشدة أشرفت على الانتهاء. أحست بألم حاد فيما بين وركيها. وهنا خطر ببالها ذلك الذى حدث لأومو. عملية توليد أومو لم تستغرق وقتًا طويلاً مثلما يحدث الآن. هذه الولادة طالت واستطالت.

ولــولت بيا: "أمــى! أمــى. تعالى إلى! ساعدينى يا أمى! أنا أريد الموت يا أمى!"

وبختها إنتلى "اخرسى! لن تموتى".

تحسست الممرضة ستاف البطن البيضاوي: "أظن أن الطفل مقلوب وفى غير وضعه الطبيعى. كان البطن ممتدًا فى الجانبين. كان الجنين يتحرك داخل كيسه، مما يعطى البطن أشكالاً غريبة ويهدأ الجنين بعد ذلك.

(*) المقصود بالرباعى هنا هو أربعة أطفال من بطن أم واحدة. (المترجم).

"نحن نرفض الأطفال المقلوبة. يارب، إلغ هذا الوضع بحق يسوع!".

قالت بيا بصوت خافت: "أنا أحس بالضعف".

قالت أنتلي: "لا تستسلمى، يا بيا". ثم وضعت يدها على كتف بيا: "ياربة الولادة، خذى بيدها، وكونى معها"

كررت ستاف كلامها: "الجنين مقلوب بكل تأكيد. نحن بحاجة إلى طبيب".

تساءلت إنتلى وهى مضطربة "فى هذا الوقت؟ وفى هذا المكان؟" ثم راحت تتدبر الأمر من جديد. وضعت إحدى يديها على كتف الممرضة ستاف ورجتها "حاولى محاولة جادة، يا ستاف. وسوف نساعدك كلنا".

ذهبت أولورى إلى بوابة الزنزانة وراحت تهزها. وعندما عادت اقتربت ووضعت يدها على رفيقتها وضغطت عليها قائلة: "محبوبتى".

جاءت مستشيف تجرى. كان على وجهها مسحة من التجهم. وكانت هناك شبكة على شعرها المستعار.

قالت إنتلى "بيا فى حالة ولادة".

دخلت السجانة وألقت نظرة على ما يجرى. هن بحاجة إلى بعض الماء الساخن، وإلى ملابس، ويحتجن أيضًا إلى موس لقطع الحبل السرى. اتجهت مستشيف لإحضار هذه الأشياء. كانت بيا امرأة هادئة. بعد هياجها المبدئى، بدأت تهدأ بعد السجن الانفرادى، وراحت تتعاون مع السلطات.

نظرت القابلة بين رجلى بيا. ليس هناك اتساع بعد هذه الساعات الطويلة، لم يحدث اتساع.

قالت: "هى بحاجة إلى ولادة قيصرية. حوضها ضيق. لن يستطيع الجنين المرور". انحنت إنتلى تنظر بين رجلى المرأة المفرشختين. كان المكان مشعرًا وعاديًا. أثناء ولادة أومو كان ذلك المكان واسعًا على غير العادة.

صـــرخت إنتلى فى الممرضة "إذن، اقطعيها! مـــاذا تنتظرين؟ اقطعيها! لا تتركيها تموت!"

عادت مستشيف ومعها الأشياء المطلوبة. وضعت هذه الأشياء على الأرض وراحت تتحسس مفاتيحها. ذهبت إليها إنتلى.

"مستشيف.....".

"أمك هى التى اسمها مستشيف".

قالت بيا وهى مجهدة: "آنسة إيز".

"آنسة إيز، نحن بحاجة إلى عمل شاق. أليس لديك شفرة أو شيئًا حادًا نستعملة فى هذا الغرض؟".

ارتبكت السجانة. وراحت تنتقل ببصرها من امرأة إلى أخرى.

رجتها بيا قائلة: "أرجوك، أرجوك يا أمى. أنا ضعيفة. أنا لا أقوى على تحمل الألم....." وانتابتها نوبة مغص حادة خرج منها على إثرها زغردة باردة. رق قلب السجانة بعد تلك الزغرودة.

قالت للممرضة الجديرة بالثناء: "ستاف ـــ تعالى معى إلى العيادة ـــ صحيح أنها خاوية، لكن خذى كل ما ترين أنه يمكن أن يساعد فى مثل هذه الحالة".

على كل حال، وفى زحمة عجلتها للرد على ذلك النداء الليلى، نسيت مستشيف سلسلة مفاتيحها، راحت تبحث عن تلك المفاتيح. وعندما أدركت أن المفاتيح ليست معها، عادت إلى مكان نومها. ولولت بيا مرة أخرى. كانت تحرك رأسها من أذن إلى أخرى وهى تعض شفتيها. اتجهت إنتلى إلى البوابة. وقفت بجوار البوابة، وهى تنظر بالتناوب إلى المريضة ثم إلى الاتجاه الذى ستأتى منه السجانة.

عندما عادت مستشيف، فتحت البوابة الصغيرة لتخرج منها الممرضة.

بعد ذلك بفترة قصيرة، عادت ونمى بمجموعة من الأشياء، كانت تتصبب عرقًا. كان هناك صوف قطنى وبعض الأدوات والزجاجات. ربما كان تاريخ صلاحية بعض هذه المواد قد انتهى لكن ليس هناك من يشغل باله بهذه المسألة.

"يارب، تول الأمر. أيتها الروح المقدسة، إنزلى وتولى الأمر".

راحت سوزان تدعو وتصلى "يا ألله! يا ألله!"

قالت ستاف وهى تشرح: "هذا بنج". ثم عضت سبابتها وراحت تمسح العرق عن جبينها. ومسحت سبابتها فى ردائها.

طمأنت إنتلى الممرضة "اهدئى، يا ستاف ــ اهدئى ــ بوسعك القيام بهذا العمل".

"لقد أحرقوا عيادتى. وضاعت كل مدخراتى، ومكافأة نهاية الخدمة، كل ذلك ضاع".

ربتت إنتلى على كتفها: "هونّى عليك، أيتها القابلة. بوسعك توليد هذه المرأة. أثبتى لهم أن الخطأ لم يكن خطؤك". أومأت المرأة برأسها. وكانت النزيلات الأخريات يراقبن ما يحدث.

وضعت ستاف الصوف القطنى على فوهة الزجاجة، وقلبت الحاوية البلاستيكية رأسًا على عقب. ثم وضعتها على أنف بيا "بيا، ابدئى العد من واحد إلى عشرة". استدارات المريضة فى ضعف ناحية الممرضة وقالت: "واحد، اثنان" ثم غمغمت بعد ذلك. زاغت عيناها وراحت فى سبات عميق. خافت النزيلات. "أسرعى! إنتلى عقّمى المشرط الجراحى! اغمسيه فى الماء المغلى!" فعلت إنتلى كما أُمرت ثم سلمت المشرط للممرضة. انحنت ستاف نحو الأسفل وأحدثت إشارة الصليب. ترددت: "المفروض أن نحلق لها هذه المنطقة".

قالت مودياجا: "ليس لدينا متسع من الوقت لذلك. واصلى عملك". كانت النزيلات متعصبات.

وضعت ستاف يدها فوق منطقة العانة وأحدثت فتحة أفقية تحت السرة. ابتعدت باتسى عن المكان، وصرخت بلسنج Blessing. جلست ليد هى وأفولينو على مبعدة وهما مفتونتان ومبهورتان. أيقظ الصراخ تاى Taiye. ذهبت إليه أمه، وضعته على ظهره وهدهدته لينام من جديد. كانت كاجارا مستلقية فى ركنها على الأرض بلا فراش، وهى تهز وركيها. ولم تقل شيئًا أثناء عملية الولادة.

عند هذه اللحظة انقطع التيار الكهربى عن السجن وأطبق الظلام الدامس على الزنزانة.

صرخت النساء: "آه ، لا!" كانت بيا هى الوحيدة بينهن التى بقيت هادئة على الأرض متناسية انقطاع التيار الكهربى ـ تعجبت إنتلى متسائلة: "ماذا لو كانت بيا قد ماتت".

"بحق دم يسوع! بحق دم يسوع! قال: "فليطلع النور" ـ يارب، أعطنا النور!".

اندفعت مستشيف مبتعدة عن المكان لتعود خلال ثوان ومعها كشافها الكهربى. أشارت إنتلى إلى البطن المنتفخة ـ لم تنتظر ستاف مجيء النور ـ وبأصابعها الماهرة، ضغطت وجعلت الكتلة البشرية ترتعد ـ سال الدم فى كل مكان. أدخلت ستاف يدها داخل البطن وأخرجت شيئًا مغطى بالدم، وأعطته لأولورى، ثم قطعت بعد ذلك الحبل السرى الشبيه بالمصران الغليظ.

قالت ستاف من وراء ظهرها: "اصفعى المولود على خده". ثم حوَّلت انتباهها إلى الأم الجديدة.

صاحت أولوري: "إنه ولد!" ثم صفعت الوليد المتجعد، ليصرخ احتجاجًا على ما حدث له.

قالت ونمى فيما بينها وبين نفسها وهى تنظم الخيط فى الإبرة، وتقطع قطعة كبيرة من الصوف القطني: "إبرة وخيط". نقعت الخيط والإبرة فى الكحول وأخاطت

الجرح. تحركت بيا. رجتها ستاف فى هدوء "لا تتحركى". إذا تحركت ثانية، يا إنتلى، اغمسى الصوف القطنى فى البنج وشميمها إياه مرة ثانية؛ سوف يجعلها تنام مرة أخرى. انتبهى يا أنت، قليل من البنج، لأنه خطير جدًا. دقيقة أخرى وسوف انتهى من كل شيء".

أخاطت الأم الجديدة، وغسلت الغرز الخشنة بالكحول. لم يكن هناك أتروبين. المفروض أن أراجع علامات الحياة، لكن أين الأدوات اللازمة لذلك؟

ذكّرتها مستشيف: "ما بعد الولادة! لقد نسيت ما بعد الولادة" تقطب وجه ستاف من الصدمة "هل تفتح المرأة من جديد! أم أن ذلك سينزل طبيعيًا؟".

قالت أولورى "إنه موجود هنا. لقد خرج الطفل بالمشيمة". تنهدن كلهن إيذانا بالارتياح.

"الحمد لله!".

ذكرتهن أنتلّي: "اسمه هيومانتى (إنسانية)، على حد طلب بيا".

ذكرتهن مودى "ليس بهذه السرعة ــ التسمية تكون فى اليوم السابع".

راحت القابلة تعمل فى صمت، ذلك الذى ينبغى عمله للوليد الجديد.. غسلته، وضمدت مكان قطع الحبل السرى. استعارت إنتلى قميصًا من تاى. كان كبير الحجم لكنه وفى بالمطلوب. كان الوليد فاتح البشرة، وجسمه كله تجاعيد، وله بقع سوداء على ردفيه. كانت منطقة عانته شديدة السواد، وكان رأسه مليئًا بالشعر المتموج برتقالى اللون. عادت النساء إلى أسرتهن منفعلات على نحو لا يقوين معه على النوم. بقيت ستاف وإنتلى ساهرتين بجوار بيا، فى انتظار انتهاء مفعول البنج، وبداية الألم الناتج عن العملية.

مارست السجانة عملية الإشراف أثناء قيام كل من أومو، وبلسنج، وليد برفع المخلفات الناتجة عن عملية الولادة. عاد التيار الكهربى عندما كانت البنات يقمن

بجمع الأدوات وينظفن الأرض. كن يعملن من منطلق خبرة عملية التوليد هذه، ولم ينطقن بكلمة واحدة. وفى تلك الأثناء لم يلاحظ أحد من الحاضرات أومو، وهى تتناول المشرط الجراحى الذى جرى التخلى عنه. وخبأت المشرط تحت إبطها قبل العودة إلى سريرها.

* * *

جرى إحضار إنديورانس Endurance فى اليوم التالى. كان ساقاها مقيدين بسلاسل غليظة. كانت تجرجر رجليها. كانت بشرتها بنية اللون، وكان وجهها أكثر شقرة من بقية جسمها. كان هناك شلخان أفقيان قبليان على كل خد من خديها. وكان شعرها على شكل جدائل. وراحت عيناها الصغيرتان مثل عينى الثعبان تتفحصان نزلاء الزنزانة، وراحت تتشمم رائحة الأقذار، ورائحة الدورة الشهرية بين النساء، ورائحة الغائط، ورائحة الأعضاء الخاصة غير المغسولة، ورائحة البول. وقفت فى منتصف الزنزانة، وهى لا تعرف إلى أين تذهب، أو ماذا تفعل.

أمرت مستشيف: "ليد، عليك أنت وبلسنج أن تتناوبا الخدمة. أفسحا لها المكان!".

قامت البنتان بتناوب الخدمة على المرتبة الاسفنجية، وأفسحتا فيما بينهما مكانًا لتلك القادمة الجديدة. هذا يعنى أن إنديورنس ستكون الخامسة التى ستنام بالعرض على المرتبة الاسفنجية. كانت أفولينو بعد أن أمضت عقوبتها ونومها على الأرض قد سمح لها بالعودة إلى النوم على المرتبة الاسفنجية. عند هذا الحد أصبحت الزنزانة أكثر ازدحامًا على ازدحامها. هذا يعنى أن ما تبقى من فراغ جرى شغله بالكامل.

رقدت أنديورانس فى المكان الذى فُسح لها. وضعت رأسها بين راحتى يديها وراحت تهز رأسها، وهى تصدر أصواتًا تعبر عن النحيب. راقبتها الأخريات، بما فى ذلك السجانة. كانت أنديورانس صورة من صور اليأس.

قالت مستشيف للنزيلات: "لا تلقين لها بالا!" هذه هي دموع التماسيح! هي قاتلة جماهيرية، هذه المرأة التي ترينها". قالت هذا الكلام بعد أن تحولت ناحية النزيلة الجديدة.

"كم عدد الناس الذي قتلتهم؟" تجاهلت إنديورانس كلام الضابطة. وراحت تتهنه في راحة يدها.

قالت إنتلى، وهى تعرف ذلك الذى سيحدث "أجيبى على سؤالها". جرى تجاهلها هى الأخرى. تقدمت مستشيف ورفست إنديورانس، على غير المتوقع منها، رفسة من رفسات الحصان، وفى عمودها الفقرى. انحنت إنديورانس إلى الخلف بسبب الألم. وراحت تضغط على المنطقة التى جرى الاعتداء عليها.

صاحت السجانة فى النزيلة: "ردى على عندما أتكلم إليك! هل تفكرين أنى رفيقتك أو زميلتك؟". راح الطرفان يحملقان فى بعضهما البعض، بعيون غاضبة "ألا ترين هذا الحبل الموجود هنا؟" قالت الضابطة: هذه الكلام وهى تشير إلى الأسبليطه(*) الموجودة على كتفها. "كم عدد هذه الأسبليطات؟ قولى كم عددها؟".

"لا أعرف".

"أنت لا تعرفين. كم من رجال الشرطة يتكلمون؟" وركلتها ركلة أخرى فى ظهرها سقطت فى إثرها على الأرض. تمالكت نفسها ووقفت وهى تحاول تحمل آلامها.

"قولى، كم عددها؟".

"خمسة".

"وكم عدد الذين فى خطر فى المستشفيات؟ قولى كم عددهم؟" كانت مستشيف فى قمة غضبها، وتكاد تكون مجنونة. حدث ذلك مرة واحدة لمستشيف. إذا ما استثارها

(*) الاسبليطة : نوع من الشرائط توضع على الكتف لتبين رتبة حاملها العسكرية(المترجم).

شيء ما، أو شيء من الشئون المنزلية، أو التوتر فى العمل، فإنها تتحول إلى العنف والرذالة مع النزيلات.

"سبعة"

تهجمت على النزيلة: وقالت "أيتها السفّاحة! تفعلين ذلك كله بسبب رجل!!".

راحت النزيلات جميعهن يراقبن السجانة. لم تجرؤ أية واحدة منهن على التدخل وإلا نقلت مستشيف العدوان إليها. كان التوأم جالسًا على سرير سوزان، متخوفًا. كان التوأم فى حالة استرخاء. حاول التوأم اللعب بالورق، لكن أوجاع الجوع كانت تنغصهما من الداخل. جعلتهما سوزان ينامان ووجهيهما ناحية الأرض على المرتبة الأسفنجية حتى لا يشاهدا موجة العنف الدائرة. راحت بيا تهدهد وليدها فى ضعف وهى لا تزال تتألم من عملية الولادة. وقفت إنتلى على السرير، عاجزة عن التصرف. تساءلت مستشيف: "أين كانت مارسى؟ متى ستجيء عائدة إلى هنا؟" كانت النزيلات تفتقدن مارسى افتقادهن للحرية.

قالت مستشيف مرة ثانية: "سفّاحة!" وتتجه بعد ذلك إلى بقية النزيلات وقالت لهن: "هذه المرأة ذهبت إلى منزل الغريمة عند منتصف الليل، وحبست المرأة. ورشت الوقود على المبنى وأضرمت فيه النار. ثم ابتعدت بعد ذلك عن المبنى. ومعها المفاتيح. وحرقت المرأة التى تصرخ حتى الموت، حرقتها هى وأمها التى كانت تزورها وأختها. إضافة أيضًا إلى مستأجرين أبرياء كانوا نائمين فى الغرف المجاورة".

انفجرت إنديورانس متذكرة ما مضى: "لقد حذرتها من الاقتراب من رجلى! ذهبت إلى رجلى. رأيتها فى دكانه. حذرتهما".

نظرت مستشيف إلى إنديورانس مرة ثانية وهسهست بصوت عال: "أعتقد أنك هنا الآن، اذهبى ونامى مع الرجل الآن، ودعينى أرى ما يجرى ـــ عبيطة قليلة التمييز" ـــ استدارت وخرجت وهى تصفع الباب خلفها، وتغلقه بالقفل.

تعجبت إحداهن "خمسة!".

غمغمت النزيلة الجديدة "ما هذه الخمسة؟".

سألت إنتلى ليد Laide التى كانت تتحسس وجهها بحثًا عن البثور "ماذا قالت؟".

"قالت: ما هذه الخمسة؟".

"هل تقصد المعنى؟".

صمت

"إنديورانس، أنا أتحدث إليك ــ ما الذى تعنينه بسؤالك "ما هذه الخمسة؟؟" هل تعنين أن ذلك الرقم صغير جدًا أم ماذا؟".

أدارت إنديورنس الكلام فى ذهنها، وهل تجيب عن هذا التساؤل الآن أم لا. لقد أفاقت من الركلات القاسية التى وجهتها إليها السجانة. لكن هذه التى تتكلم ليست سجانة، وإنما هى نزيلة مثلها تمامًا. قرصتها بلسنج وأعطتها إشارة بالعين كيما تجيب على السؤال، لأن ذلك من مصلحتها. كانت تعرف أن السجون من داخلها فيها قانون ونظام، أكثر مما هو موجود فى عالم خارج السجون.

"أقصد أن العدد خمسة صغير، نظرًا لأن بعض المتطرفين يقتلون أثناء المظاهرات، الإضرابات آلاف المستوطنين، ومع ذلك لم يحدث لهم أى شيء. الشرطة لم تلق القبض عليهم".

"أية إضرابات تقصدين؟".

"المظاهرات التى جرت فى النيجر، وفى شاجامو، وفى ترابا. كان شقيقى الأكبر تاجر قطع غيار فى صابون جارى Gari Sabon. حدثت مظاهرة ذات مرة فى هذه المدينة. أخذ أخى احتياطاته. بقى فى منزله مع أسرته. لكن حارسه الخاص حبسهم داخل المنزل، وأضرم النار فى المنزل، ووقف عليه حارسًا حتى لا يهرب منه أحد منه. مات أخى، هو وزوجته الحامل، وطفلين، والشغال وثلاثة من الصبية الذين كانوا يتعلمون مهنته. ماتوا كلهم محترقين فى النار. لم نعثر على شيء منهم حتى ندفنه".

"ألم يحدث شيء لذلك الحارس الخاص؟".

"لم تكلف الشرطة نفسها بإلقاء القبض عليه. عاد الناس إلى بيوتهم بحكايات عن اغتيال وقتل عائلات بأيدى الدهماء والغوغاء. وجرى قطع رؤوس رجالنا فى وضح النهار، وهم ذاهبون إلى أعمالهم. كثيرون منهم ماتوا حرقًا، أضرمت النار فيهم. بعض منهم جرى الإلقاء بهم فى أبيار ضيقة. عائلة بأكملها "ألقى بها فى بئر خالية لتلقى حتفها وهى مقلوبة رأسًا على عقب. كم عدد المجرمين الذين ألقى القبض عليهم، وحوكموا وأرسلوا إلى السجن؟ لا أحد".

أبدت بنتا ملاحظة مفادها "ذلك كان مظاهرة وإضرابًا. وبالتالى يتوقع حدوث أى شيء. ولا يعد أحد مسئولاً عن ذلك".

أضافت أنتلىّ: "هذا هو وراء حدوث المظاهرات بصورة متكررة. طالما أن أحدًا لا يعد مسئولاً أو يعاقب، فإن ذلك يشجع الآخرين أن يبدءوا إجرامهم".

قالت رحمة "ماذا عن الحال فى نومان Numan؟ المسلمون تجرى محاصرتهم بواسطة المسيحيين، ويذبحون مثل الحيوانات.

"جيل منحرف!".

"حتى فى آبا وأونيتشا، جمع الناس بعضًا من باعة البصل والطماطم، وقيدوهم وضربوهم ضرب الموت، وألقوا بهم مقيدين فى نهر النيجر".

قالت كاجارا متسائلة: "أما أنتم أيها المسيحيون، فقط ظننت أنكم تريدون الخد الآخر. ماذا حدث؟ لماذا تثأرون؟".

أجابت سوزان من فوق سريرها ساخرة، "لقد نضبت خدودهم". وراحت تربت على خديها. ثم اتجهت ناحية التوأم النائم على الأرض، بجوار سريرها ولمست خدودهما وقالت: "خد" وكرر الطفلين بعدها "خد". ثم قالت "تشى" Ch تشير إلى كلمة "خد" cheek". كرر الطفلان الكلام نفسه.

أردفت بلسنج: "سمعنا أن أبرياء كثيرين فقدوا أرواحهم، وسُرقت أموالهم وممتلكاتهم"

"الفتوات، والأشرار غالبًا ما يثيرون الاضطرابات، والمتاعب، وينشرون العنف بما يفيدهم"

"سمعت أن المتطفلين، وبائعى الأخبار المسروقة، أصبحوا فى عشية أو ضحاها مُلاَّكًا لسيارات من طراز مرسيدس، وأجهزة تليفزيون، وأجهزة اليكترونية. مثل هذه الأشياء لا يمكن لهم اقتناؤها فى الظروف العادية. هذا الصنف من البشر قتلوا جيرانهم الأثرياء. وورثوا ممتلكاتهم. ومع ذلك كله، لم تفعل الشرطة شيئًا. لم تجر محاكمة أيًا منهم. أما إذا أقدمت إنديورنس على عمل من هذا القبيل، فإنهم يقومون بإلقاء القبض عليها".

أطلن النظر إليها بضع دقائق. أماتت غريمتها حرقًا. هل كان ذلك من قبيل الثأر ليس إلا؟ أم أنه كان غضبًا متراكمًا ومختزنًا طوال هذه السنوات؟.

أبدت أولو ملاحظة: "أنت لست نادمة على ما فعلت".

ردت عليها إنديورنس: "آسفة على ماذا؟ هم يستحقون ما وقع لهم! لقد قتل أهلها أخى منذ أربع سنوات ـــ لعلهم يتجرعون الآن هذه الحلاوة".

تكلمت رحمة ـــ قالت للبنت: "أنا أعرف ما تقصدين ـــ أنا كنت فى موقف مثل هذا الموقف الذى تصفينه ـــ صدقينى، هذا شيء مرعب ـــ جيرانك، الناس يعيشون معهم، والذين لعبت أطفالهم مع أطفالك، وأكلتم سويًا، وشربتم أيضًا سويًا. وتحدث انتفاضة مفاجئة، تنسين خلالها صداقتك، وتنسين أنكم أكلتم مع بعضكم البعض، وشربتم مع بعضكم البعض. وتنقلبين عليهم وتذبحيهم ـــ أنا لا أفهم ذلك مطلقًا، ولا يمكن أن أكون جزءًا منه. يستحيل أن أكون جزءًا من ذلك!".

أخذت بنتا الخيط من زميلتها: "أنا أتذكر الإضرابات الأخيرة. حبَسنا زوجنا ومنعنا من الخروج. لكننا سمعنا جيراننا يصيحون، ويطلبون إلى أبنائهم الدخول إلى المنزل والاختباء. كنا نسمع طلقات البنادق والانفجارات، والصراخ، والعواء

والعويل، كنا نسمع أيضًا صوت آلة التنبيه الشرطية فى كل مكان. كان الجو عامرًا بكل أنواع الإثارة. كنا ملتصقين بالنوافذ، ننظر منها إلى الخارج، ونستمع إلى عواء وولولة أولئك الذين ليسوا من أهل البلد. نادى رجل على جاره ــ تعرّف أوكنكو صوت جاره وفتح له باب بيته.

حيَّاه قائلاً: "تحياتى!".

رد عليه الآخر "لا تحيات"(*). ثم سمعنا بعد ذلك صوت ارتطام كبير بالأرض. كانت تلك رأس أوكنكو. دخل هذا الرجل وأجهز على أفراد الأسرة الواحد بعد الآخر، أسرة أوكنكو. جمَّد الصراخ دمى. ومن بعده الصمت المطبق".

"كل ذلك باسم الدين".

قالت المتحدثة الرسمية "اسمحن لى أن أقول لكن شيئًا. من منكن سمعت عن صمويل بى هنتنجتون؟". نظرت إنتلى حولها. كانت بيا تكاد تنوس، وطفلها على صدرها.

"لا أحد. حسن، لقد ألف هذا الرجل كتاب بعنوان: "صدام الحضارات" "قال هنتنجتون إن الصراعات أو الحروب لن تنشب، أو تدور بعد بين الطبقات الاجتماعية، أو بين الأغنياء والفقراء، أو الطبقات الأخرى المصنَّفة تصنيفًا اقتصاديًا، وإنما بين شعوب تنتمى إلى كيانات ثقافية مختلفة".

قالت إنديورانس: "هذا صحيح. لكنى أعتقد أن المتطفلين touts والعاطلين هم الذين تسببوا فى المتاعب فى قضيتنا. هذا الكلام لا علاقة له بالدين. لأنى لم أر بعد إلهًا يقول اقتل جارك ودمره. أنا لم أر بعد إلهًا، من هذا القبيل، أرنى ذلك".

واصلت بنتا كلامها "أنا سعيدة لأن زوجنا لم يشارك فى تلك المظاهرات. اكتفى بالجلوس على الحصير وراح يسبح على مسبحته".

(*) أوردت المؤلفة هاتين العبارتين بلغة الأجبو: sanu , pa sanu (المترجم).

سألتها: إنتلى "هل حاول التحدث بالمنطق مع جيرانه؟ كيما يهدئ الأعصاب، ويوقف التوتر، ويتوسط من أجل السلام؟ هل فعل ذلك؟

هزت الزوجتان رأسيهما.

واصلت إنتلى كلامها "فى أيامنا هذه لا يكفى أن يكون الإنسان سلبيًا، أى يجلس ويراقب ما يجرى. الصمت يعنى الموافقة.(*) هذا يعنى أن من لا يفعل شيئًا فى مواجهة الاستبداد، إنما يرتكب خطأً. والإنسان إذا ما رأى خطأً وسكت عليه، فذلك يعنى أنك موافق على هذا الخطأ. يجب أن نكون إيجابيين. هذا يعنى أننا يتعين علينا، أن نفعل شيئًا لمواجهة القوى السلبية".

اختتمت باتسى الكلام: "يجب أن نحافظ على إخواننا".

تدخلت تاوا قائلة "ما يخيفنى هو رؤية أبنائنا لهذه الأشياء. هم يتابعون هذه الأشياء مثل الكبار، الأدوار النموذج إن صح التعبير، ويرتكبون الجرائم. ما الذى نعلمهم إياه؟ إن القتل من الصواب، وكذلك تشويه الآخرين المختلفين عنك، الذين لاتحبهم؟".

قالت بنتا: "الناس يَقْتلون اليوم لأتفه الأسباب. انتبهى، أختى بلقيس كانت مخطوبة لرجل يدعى إلياس. فى أحد الأيام، رآها رجل آخر فى الشارع، تتكلم مع إلياس فقام بالنداء عليها. رفضت الذهاب إليه. واجه خطيبها ذلك الرجل المدعو عليه وسأله عن سبب ندائه على زوجته المستقبلية. أخرج على خنجرًا وطعن به إلياس. ومات إلياس فى الحال.

"ألا ترون؟ لقد أصبح الموت بلا معنى".

أوضحت أنتلّي: "ليس الموت، وإنما القتل".

قالت باتسى "أذكر عندما كنا فى صبانا، كان التلاميذ ينشدون الوصايا العشر كل صباح. ثم يقوم مدرسنا بعد ذلك بشرح كل وصية من هذه الوصايا ودلالاتها

(*) أوردت المؤلفة هذا التعبير من اللغة اللاتينية: Qui tacit , consentit (المترجم)

المختلفة. لا تقتل. لا تسرق. لا تزنى. لم نكن نجرؤ مطلقًا على الكذب. الآن أصبح الآن سهلاً سهولة الحروف الأبجدية.

"هل ألقوا القبض على على؟".

"متى، وأين؟".

كان مفروضًا إلقاء القبض عليه، لكن والده من الأثرياء. بعد أيام قليلة أمضاها فى الحجز أفرجوا عنه بكفالة مالية، وسفّره أبوه إلى الخارج. وهو موجود فى لندن الآن".

صاحت أفولينو: "لعل الحكومة تفتح السجون كلها وتطلق سراحنا جميعًا! إذا بقى هؤلاء السفاحون، النهابون، ومن يرتكبون جرائم الحرق عمدًا أحرارًا، فلسنا بحاجة إلى البقاء هنا. نحن لم نفعل شيئًا مغايرًا إلى الآن".

وافقت ستاف على هذا الكلام: "هم يتحدثون عن العدالة، لكننا نعيش فى ظلم، ظلم بين وبسيط. صحيح، أن الناس ماتوا فى عيادتى، لكن تلك الوفاة كانت بطريق الخطأ. لكننا عالجنا أناسًا كثيرين، وأنقذنا أرواحًا كثيرة. هناك من ماتوا عمدًا عن طريق طعنهم بالآلات الحادة. أين أولئك الطاعنون وهؤلاء المضربون؟ هم فى الخارج يتمشون ويتحركون فى حرية".

بعد أن انتظرت إنتلى بعض الوقت واصلت كلامها.

قالت أولوري: "ألم تسمعن عن أنواع كثيرة من القوانين. قانون للفقير وقانون للغنى؟ وقانون لكبار الناس، وقانون آخر للجماهير؟ ألم تسمعن عن ذلك؟".

اختتمت المرأة البيضاء الكلام قائلة: "الحياة كريهة، وبريطانية وطويلة".

الفصل الثلاثون

التمعت فى عينى جويس نظرة تنم عن الفراغ. تزحزحت فى شيء من القلق وهى فى مكانها. كان ذهنها يغلى شوقًا إلى زيارة الجراح القديمة، وإلى الإهانات الفظيعة التى تحدث شفاء أيدى الزمن لها.

توقفت عن الكلام. كما لو كانت تستلهم القوة التى تعينها على المضى قدمًا، وأخذت رشفة من مشروبها. وتناولت الكأس بعد ذلك، وأطالت النظر إلى داخلها وهى تعب محتوياتها بطريقة لطيفة.

"تأخرت المرتبات فى ذلك الشهر. هذا يعنى أن حسابى لم يكن دائنًا. لم يكن لدى من النقد ما يكفى للتسوق". ثم وضعت الكأس على الطاولة وهو يحدث صوتًا مكتومًا.

صرخت مارسي: "لا!" راحت تبحث عن جوى، وهى تعرف ما سيؤول إليه الأمر بعد ذلك. كانت إيدث تهز رأسها على نحو يهدد بالشر.

ردت عليها جوى مؤمنة برأسها: "نعم، نعم. لقد عدت فى موعد مبكر، أبكر مما كنت انتظر أو أتوقع".

قالت مارسى مرة ثانية: "لا!" قالتها وهى تمسك جوى من ذراعها، وتضغط كوعها.

"حزمت ملابسى وغادرت. ولم تقع عيناى على أى منهما حتى الآن".

"منذ أحد عشر عامًا؟".

"كان ذلك فعلاً منذ أحد عشر عامًا".

"ألم تناقشى هذا الأمر معها؟".

"بينما كنت أحزم ملابسى، كانت تتابعنى فى تحركاتى وعلى مقربة منى وتطلب منى الصفح والعفو. تجاهلتها، تجاهلتهما. لم أقل لها كلمة واحدة. مارسى، إديث، لو كانت لدى بندقية، مثلما يفعلون فى أمريكا، لكنت قد اتُّهمت بجريمة قتل الأم Omatricide ما هى الكلمة التى تدل على قتل الزوج؟

قالت إديث من باب المزاح: "الأرجح أن هذه الكلمة هى kunsbandicide".

"أعوذ بالله!"

تناولت الكأس مرة ثانية ونهضت واقفة. "تلك هى قصتى. منذ ذلك الحين وأنا لا أطيق الرجال".

ردت عليها مارسى وهى سارحة الفكر: "فهمت. عرفت أن خطأً ما قد وقع. لم يخطر ببالى أن الخطأ كان بهذا العمق، وأنه كان شخصيًا إلى هذا الحد".

أعادت الكأس إلى الطاولة مرة أخرى "أنت: تعرفين ما جرى". خيم الصمت إلى أن خطر ببال جوى شيء أحست معه أنها بحاجة إلى المزيد من التوضيح. مضت إلى القول: "أنا لست من النوع أو على النحو الذى تتحدثين عنه. منذ أكثر من عشر سنوات وأنا عزباء بمحض إرادتى. انتبهى، لأن هذا أمر ممكن".

"أين، ومتى.....؟".

ردت عليها جوى: "كان ذلك فى سجن فريمان فورت". ثم تناولت نظارتها بعد ذلك. يبدو أنها كانت بحاجة إلى شيء تتكئ عليه لانهيار عالمها من حولها. كانت تدير المشروب فى الكأس وهى تتكلم: "كانت النزيلات، يمارسن هذا الشيء كل ليلة مع بعضهن البعض ويجنون شوقًا إلى الجماع. ربما لم يكن ذلك مع بعضهن البعض وإنما فى الخيال مع العشاق الذين تركنهن. هذا ينطوى على قدر كبير من التهكم، لكن هذه الفترة ربما كانت أسعد الفترات فى حياتى. عاودتنى رغباتى. لم تكن هناك قيود تمنعنى، ولا أخلاق اجتماعية أقيس عليها وأحكم بها.

كان محكوم علينا بالإعدام فعلاً". ثم رشفت رشفة من الكأس. وعندما أعادت الكأس، انتقلت إلى النافذة.

"فى بداية الأمر، كنت أنا التى تقوم بدور المغنّاج وكنت أرفض التودد والمغازلة. لقد كلفنى هذا الخطأ كثيرًا. كنت مثل الفراشة وسط الطير. بعد ذلك بليالٍ قلائل، وبعد إطفاء الأنوار كان يجرى الاعتداء على أنا. وبذلك أصبحت امرأة لزميلاتى النزيلات. فى الصباح كنت أحس بالآلام وبعض الخدوش. كانت أنتلى تقتادنى إلى منطقة الاستحمام، وتجعلنى أجلس ورجلى فى الميزاب؛ وتمسح دموعى، وتغسل صدغى بالصابون، وتضمد جراحى عن طريق التدليك، وتهدئ من روعى طوال وجودى فى منطقة الاستحمام".

سألتها مارسى مندهشة: "هل تعنين بذلك أنك قبل سجن فريمان فورت لم يكن فى حياتك رجل أو امرأة؟" هزت المرأة الغانية رأسها: "لا أحد".

استدارات مارسى إلى البنت البيضاء. "ما رأيك يا إديث؟".

"اعتقد أن كويسى كان مهملاً ومقصرًا مع من يحبها، مع أسرته. لو كانت عائلته مهمة عنده، لكان قد نظم نفسه. لكنك تعرفين الجنس. الجنس عاطفة. هذه العاطفة تحرق". صمتت لكى تلقى نظرة على جوى. سألت إديث جوى الحزينة "أنت لم ترى أمك منذ ذلك الحين؟".

هزت هى الأخرى رأسها "أنا لا أعرف إن كانت حية أم ميتة. أنا لا أهتم بذلك. فـــى اليوم نفسه الذى حدث فيه ذلك، حزمت حقيبتى وسافرت إلى ليجوس. لم أعد إلى ذلك المكان منذ ذلك الحين".

سألتها مارسى فى شيء من الإلحاح: "ألم تصلك أخبار من أى مكان؟".

"لا أخبار منهم، ولا أخبار عنهم. كنت طفلة فى ذلك الوقت".

بدأت الدموع تنزل على خدى جوى. تركت الدموع تنزل، ولم ينقطع سيلها.

"الطفل. أنا لا أعرف حتى مجرد اسمه. صياحه، إلحاحه، صراخه اليائس، لا يمكن أن أنسى ذلك كله إلى أن أموت. هذا الكلام يؤرقنى إلى يومنا هذا". وضعت يديها على بطنها: "بينما كنت أضع أشيائى فى الحقيبة، كان الطفل يصيح، أو ربما كان حزينًا. وربما كان جائعًا. كان اللبن ينساب من صدرى لكنى كنت أتجاهل كل شيء وكل إنسان. أنهيت حزم أشيائى وخرجت بلا كلمة واحدة".

أنا أعرف أن أوان هذا السؤال قد فات يا جوى. لكن لِمَ لم تذهبى إلى بيت أحد الجيران ؟ أو بيت صديقة من أصدقائك حتى تهدأ الأمور؟ لماذا ذهبت إلى هذا المدى وأغلقت باب المصالحة؟".

نظرت جوى إلى مارسى. وانحنت إلى أسفل، ووضعت إحدى يديها على ركبة مارسى. قالت والحزن يعتصرها: "مارسى، الاثنان اللذان أحببتهما إلى أقصى درجة، ووثقت بهما إلى أبعد الحدود".

قالت المشرفة العامة على السجون مقتبسة كلام الغير "الثقة عبء ثقيل. تساءلت أين قرأت هذه العبارة؟ قرأتها فى صحيفة "الديلى ترست" Daily Trust. هذه العبارة كانت شعار الجريدة.

نظرت جوى إلى إديث؛ هذه النظرة كانت توحى بانتهاء كل شيء "اقتربت أكثر من أمى بعد وفاة زوجها. أما فيما يتعلق بكويسى، كنت لا أزال أحبه. لم نكمل بعد عامًا كاملاً من الزواج. كان من عادتى القول: إنى عندما أتشاجر مع أمى، فإنه سيكون هناك ليواسينى؛ وعلى العكس من ذلك، إذا ما تعقدت الأمور بينى وبين كويسى، فإن أمى سوف تقوم بإصلاح الحال بيننا. لقد خانانى هما الاثنان. إلى أين كنت أذهب؟".

أحست مارسى بالاندهاش. وهبط عليها إحساس بالبرودة. أصبح ذهنها خاملاً، وعاجزة عن تصور سيناريو أمها وزوجها مع بعضهما "تفلت استهزاء وغضبًا، حتى ماكسباد، وهو فى كل هذا الحرمان لم يصل إلى هذا المستوى الحيوانى. أكيد، الحيوانات فقط هى التى لا تهتم بصلة الرحم.

راحت جوى تقول: "قولا لى يا مارسى أنت وإديث ماذا أفعل" وراحت تنتقل ببصرها من هذه إلى تلك: "ادرسا الأمر، وأنتما لا مصلحة لكما فى الأمر. قولا لى أين أخطأت. ما الذى فعلته حتى أستحق هذه الخيانة؟ هل أخطأت عندما دعوت أمي الأرملة إلى بيتي؟ لزيارة ابنة بعد أن وضعت مولودها، هذا أمر تفعله أمهاتنا منذ عصور طويلة؟".

طوت المنديل بطريقة عصبية، وجعلت منه حبلاً طويلاً ملتويًا. تَفلَت ثم قالت: "الجسمان العاريان. مؤخرة أمي التى ترتعش وتهتز".

"كان يتعين عليك البقاء من أجل خاطر ولدك".

دارت جوى حول نفسها.

"كرهت منظر ذلك الجاهل العَيِّل. كان صورة مصغرة من والده الوحش. أحسست بالغثيان، وأنا أفكر فى حملى منه فى طفل طوال هذه المدة. لو كنت حاملاً فى تلك الفترة لأجهضت نفسى".

"كان يجب عليك الانتظار لتعرفى أعذارهما فى أضعف الأحوال. من الذى بدأ؟ ومن الذى جهّز؟ لشئ من هذا القبيل".

"هل هذا يهم؟ الاثنان متورطان فيما فعلاً".

"أنا أعتقد ذلك. تقولين إن أمك هى التى كانت فوق".

"نعم، لكن ربما كانت تلك هى المرة الثانية. قد لا تكون هذه هى المرة الأولى بينهما. لا تنسى أنى تركتهما وحدهما عندما ذهبت إلى دار رعاية الأمومة" لاحظت مارسى الدموع تترقرق فى مقلتى صديقتها. سيبدأ الشفاء حالاً، هذا يعنى أن الشحنة الانفعالية قد بدأت تنفذ. سيجيء الشفاء عقب ذلك. سوف نناقش كل جانب من جوانب هذه العملية إلى أن "يتم إتخام الشهية إلى أن تمرض وتموت".

"وكان ذلك على سرير زواجك؟".

أومأت برأسها، "هل يعنيك ذلك؟ في أي مكان يفعلونها الخيانة هي الخيانة".

قالت مارسي "أنا لازلت مصممة على معرفة الطريقة التي بدأ بها هذا الشيء الكريه".

"كانت مؤامرة. كان الاثنان كبيرين. كانا يعرفان ما يفعلان. كان ينبغي على كويسي أن لا يكون في المنزل في المقام الأول. المفروض أن يكون في عمل. لقد بقي في المنزل وهو يعلم يقيناً أني لن أكون في المنزل. وهذه القصة الطويلة التي نسجها حول البطارية المتعطلة".

كررت إديث الكلام نفسه، وأومأت برأسها "الاثنان مشتركان في الجريمة". لقد أُخضعت. دار بخلدها عندئذ: "إذن الأشياء التي تحدث في أوروبا تحدث هنا أيضًا". أردفت قائلة: "إنها أوبرا من أوبرات موتسارت. النساء كلهن متشابهات ويفعلن الأشياء نفسها. والرجال أيضًا".

واصلت الراوية كلامها: "أنا على يقين من أنه حتى ولو كانت أمي هي التي بدأت، وإن كانت أمي هي حتى التي مهدت لهذا الشيء، فإن زوجي كان يتعين عليه الابتعاد عن ذلك، والعكس صحيح. لا، بدلاً من ذلك تآمرا هما الاثنان على خيانتي".

أبدت المرأة ملاحظة: "الدنيا مليئة بالخيانات".

قالت المشرفة العامة على السجون: "لكي أكون أمينة معك، لقد سمعت أن بعض الأزواج يضاجعن الشغالات. آلاف من العشيقات، والزوجات الثانيات كن شغالات للزوجات. نحن نعرف ذلك. أحيانًا يكون ذلك مع عشيقة، بل وأخت أحيانًا، أنا أفهم ذلك جيدًا. لكن أن يحدث ذلك مع الحماة، هذا ما لا يمكن تخيله بأمانة. هذا يؤلمني جدًا".

"هذا عناد، على حد قول القسيّسة".

تساءلت إديث "ماذا ستفعلين الآن؟". لم يكن السؤال موجهًا لإحداهن بصورة محددة.

جففت جوى جبهتها اللامعة: "ما الذى كنت أفعله منذ ذلك الحين... أنا أعيش حياتى".

قالت مارسي: "سوف أرتب للقيام برحلة إلى غانا عندما أعود من لندن. اسمعينى يا جوى، لا يمكنك المضى فى هذه الحياة، وأنت مثقلة بكل هذا الحقد والغضب من أمك، وعلى الناس أجمعين".

"تلك العرّافة، لصة الأزواج"

انفجرت مارسى قائلة: "تقولين لِصة. أنت مركّزة على قطعة كئيبة من اللحم. ما ذنب الطفل البرىء الذى تخليت عنه؟ هل أوليتِ هذا الطفل شيئًا من الانتباه فى كل ما حدث؟".

"الجاهلة.....".

"الجاهلة. هذا هو ما ستقولينه، لأنك لم تعانى من أجل الحصول عليه. هل تعرفين ذلك الذى أكابده بسبب عدم الإنجاب، هل تعرفين الأماكن التى ذهبت إليها بحثًا عن الخلف والإنجاب؟ أنا مستعدة للتضحية بأشياء كثيرة من أجل أن أحمل لفّة بين ذراعى. ومع ذلك تهجرين طفلاً عمره أسبوع، وتجيئين إلى هنا لتشتكى من عضلة كئيبة المنظر".

كانت جوى مندهشة. راحت تطيل النظر إلى مارسى، وهى عاجزة عن النطق بكلمة واحدة. بدأت مارسى فى البكاء. ذهبت إليها إديث، وراحت تربت على كتفيها إلى أن انحسر البكاء. تعجبت من سبب استحواذ أطفال الأفارقة على أذهان أهليهم. انظرى إلى العالم. هل العالم جميل إلى الحد الذى يبرر أن يكون للمرأة طفل؟ انظرى إلى المعاناة، الفقر، المرض، الحرب. ليس فى العالم ما يجعلنا نحافظ عليه.

قالت إديث بهدوء لجوي: "أظن أنك تبالغين". تحولت الأنظار كلها إليها. واصلت كلامها "أعنى أنى حضرت ذات مرة حفلاً من حفلات المرجحة مع عشيقى فى رايف جوش Gauche Rive. كان أمى وأبى حاضرين فى ذلك الحفل. كان يمكن أن يحدث أى شيء". وتُنهى كلامها الناقص غير الكامل.

تساءلت المضيفة: "تعنين أن كل شيء كان مباحًا".

"شيء من هذا القبيل. أظن أن أمك كانت جوعانة، هذا كل ما فى الأمر، وعلى حد كلامك، يا جوى، لقد وضعت اثنين جوعانين مع بعضهما، وهيأت لهما الفرصة، لم يخطر ببالك أى نوع من الضرر. الناس يمكن أن يفعلوا كل شيء عندما يشتاقون على هذه الشاكلة. أنا أعرف أخوات وأشقاء قاموا بمعاشرة بعضهم بعضًا، وأعرف أناسًا يسافحون الحيوانات، والكلاب، والخيول وحتى الدجاج. ناهيك عن أصابع الموز، واللعب، وكذلك الأطفال. أليس ذلك هو ما تسمونه...... أنا لا أعرف الكلمة بالضبط؟ هذا هو اليأس"(*)

تساءلت مارسي: "وهو كذلك، بم تنصحينها؟ تصر على ما هى عليه؟ تعود إلى بيتها؟ أم تتناسى الموضوع؟".

"تمضى قدمًا فى حياتها".

سألت جوى المرأة البيضاء: "لو كنت فى مكانى، ماذا كنت فاعلة؟".

سألتها إديث فى شيء من القلق: "ما الذى يمكن عمله؟ كنت قد أغلقت الباب عليهما، وخرجت، وأعطيتهما الفرصة كى يلبسا ملابسهما، ويعودا إلى الوضع الطبيعى. وبعدها أقوم بتقييم الزواج، وأرسل لأمى حزمتها. أما إذا كنت لا أقيم الزواج، فسوف أترك الرجل. وهذا كل ما فى الأمر".(**)

(*) أوردت المؤلفة هذا المثل بلغة الأجبو kosi iya arugbo ni Ghana (المترجم).

(**) أوردت المؤلفة هذه العبارة باللغة الفرنسية (المترجم).

صاحت مارسى قائلة: "أنا ألوم تقاليدنا. الرجل يخسر زوجته، خلال أسابيع، ثم يجرى العثور له على بديل. المرأة تترمل بعد ذلك، ويتعين عليها البقاء فى الحداد عامًا كاملاً بعد وفاة الزوج. وأنا لا أود الدخول فى الممارسات الشريرة لفترة الترمل هذه، وما إليها من أعمال أخرى. طوال هذه الفترة لم تعد الرغبات الطبيعية غير موجودة. هذا ليس عدلاً".

قالت جوي: "على كل حال مضيت قدمًا فى حياتى. وأنا لا أود أن تكون لى علاقة بالرجال، لا أريد زواجًا، ولا أمومة".

قالت إيديث: "سينتهى هذا الألم ويمر. هذا الأمر فى أوروبا أمر طبيعى. النساء فى أوروبا يواعدن غراميًا أزواج بناتهن، والرجال يواعدون زوجات أبنائهم. هذه الأمور ليست محرمة هناك".

صرخت جوى "أبهذه الطريقة؟ أهذا صحيح؟ هل يتعين عليك غفران ذلك؟ من دون العالم كله، تختارين حبيب ابنتك؟".

تنقلت مارسى بنظرها من واحدة إلى الأخرى: "ما هو الصح؟ الإنجليكانيون يبيحون الشذوذ الجنسى ويساندونه. أنت يا من تضاجعين الإناث، أهذا هو الوضع أو الشيء الصحيح؟ ألم يكن ذلك سببًا فى القضاء على قوم لوط؟".

قالت جوى فى وهن: "لقد دُفِعتُ إلى ذلك. أنا لم أكن على هذه الشاكلة من قبل".

"قلت لك، إن الناس يفعلون كل شيء وأى شيء عندما يصابون باليأس".

اختتمت مارسى كلامها: "هذا من عمل الشيطان". كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة. وكان لابد من قيامها بحزم أشيائها. نهضت مارسى واقفة. واتجهت صوب جوى واحتضنتها أثناء بكائها "سيمر كل شيء، لا تحزنى يا جوى".

كانت تقول فيما بينها وبين نفسها، هذه هى نهاية الزمن. رجل وحماته! الشيطان يعمل عمله عبر الزمن. خطر ببالها مثل من أمثال أهل أمها، ليس هناك

عجوز فى غانا.(*) يقال إن النساء كبيرات السن فى بلد نيكروما رفضن التخلى عن مشهد المواعيد الغرامية؛ هذا يعنى أنهن لا يزلن يُمَسحقن أنوفهن، ويطلن أظافرهن، وينافسن بناتهن. ذلك كان دليلاً واضحًا على ذلك المثل.

تشككت مارسى فى مسألة احتمال أن يكون زوج جوى هو وأمها قد أكلا الثمرة المحرمة مرات عديدة. عندما تُكسر قاعدة المحرَّم، تختفى الضوابط، ولا يكون هناك تراجع إلى الوراء. يضاف إلى ذلك أن آدجوا Adjoa، فى ضوء ثراء خبرتها وتجاربها، كانت تعرف من الألاعيب أكثر مما تعرفه جوى. لو أن هناك وسيلة لذلك، لكانت أمهاتنا علمتنا كل ما يدور حول هذا الموضوع. ولا يقتصرن على تعليمنا تدبير شئون المنزل وعمل الوجبات اللذيذة. لكن الأهم من ذلك كله. طريقة التعامل مع الرجل، وكيف يمكن أن نغوص إلى أعماق الأشياء.

بدأت جوى تتكلم من جديد. "دأبت أنتلى على القول إن السبب فى مشكلات النساء هم الرجال والنقود. وأنا أرى أن لعنة الإنسانية تتمثل فيما بين الفخذين. كل من يستطيع السيطرة على ما بين فخذيه يستطيع الحصول على راحة البال. أعقاب أخيليوس موجودة بين أفخاذنا".

قالت مارسى "قد تكونين على حق يا جوى. لكن دعينى أقول لك أنه ليس هناك بديل صادق للجنس. إذا كنت تعرفين بديلا من ذلك خبرينا عنه. الطبيعة تكره الفراغ وتمقته. لابد من وجود شيء ما. وهذا ما يقف وراء اتجاه النزيلات إلى بعضهن البعض فى الزنزانة". ثم نهضت واقفة "عندما أعود من رحلتى، سنناقش هذا الأمر باستفاضة، ونفتش عن ولدك. سرِّى عن نفسك الآن".

لكن البنات كن مُطرقات أسفًا، وغارقات فى التفكير.

بدأت السجانة كلامها: "وهو كذلك، انصتن أيتها البنات. فى أحد الأيام كانت هناك امرأة داخل الحمام وتزحلقت وسقطت على الأرض. وكان رب المنزل قد

(*) أوردت المؤلفة المثل بلغة الأجيو Kosiiya arugboni Gahana (المترجم)

خرج إلى عمله، وعليه دخل الخادم جون، وعاون السيدة وأرسلها إلى المستشفى. وعندما جاء جون بعد ذلك ومعه الطعام لزيارة ربة المنزل فى المستشفى والتى كانت تتأوه من رجلها المكسورة".

تقول: "جون ألا ترى الورطة التى أنا فيها؟".

يرد جون: "آه، نعم، أراها يا سيدتى. لقد رأيته تمامًا بالأمس. يشبه الغابة تمامًا".

بعد هذه الملاحظة، مشت السجانة على غير هدى لتحزم أشياءها، فى حين انفجرت البنات فى الضحك.

كانت إديث تتفكر الأمر. آه، منك يا مارسي! تظنين أنها سجانة عادية. هناك شيء يدور فى داخلها طول الوقت!.

* * *

استسلم فرايداى Friday الذى كان يجلس بجوار سرير المريض، للتعب فى نهاية المطاف. وضع يديه على حافة السرير، ودخل على وجه السرعة فى نوم عميق. لم يكن الوضع مريحًا، لكن النوم كان عميقًا ودام فترة طويلة. لم يكن فرايداى على معرفة بهيئة التمريض، الذين كانوا يحضرون من وقت لآخر للاطمئنان على حال المريض. لم يعرف متى حضر ذلك الغريب الذى أحضر معه واحدًا من رفاق سيث فى المدرسة، ووقفا بجوار سريره. وفى اللحظة التى بدءا يتحدثان فيها تنبَّه ذهن فرايداى، وراح يلتقط بعض الكلمات.

كان الصبى يقول: "هذا هو الرجل الذى أحضره إلى هنا، من الاحتفال".

رد عليه صوت نسائي: "أعرف ذلك".

"تركتهما هنا وجئت لأبلغك".

"لقد فعلت خيرًا. وأنا شاكرة لك. هو يقسو على نفسه. وقد حذرته من ذلك".

راح فرايداى يطيل النظر إلى الأقدام الأربعة. اثنتان منها كانتا مغبرتين بالتراب. كان هناك جوربان بنيان يغطيان القدمين، داخل صندل بال. لابد أن يكون ذلك صديق سيث. كان القدمان الآخران لسيدة. كانا ينتعلان حذاءً له رقبة طولها حوالى بوصتين. لم تكن أصابع القدم مطلية بأى نوع من الطلاء. خطر بباله، إن هاتين القدمين جميلتان. أصابع الأرجل جميلة ومغرية. تملكه الفضول. تحرك ونهض واقفًا. خنق التثاؤب الذى كان سينطلق منه. كان مُتْعبًا.

"مرحبًا".

رفعت يديها قائلة: "مرحبًا. أنا روث جوميز، أنا أخت سيث". أمسك يدها. "أشكرك على مساعدتك لأخى. لقد أخبرنى جو Jo بما دار. أنا لا أعرف ما الذى كان يمكن أن يحدث لو أنك لم تكن موجودًا".

تصافحا "أنا المحامى فرايداى، ناشط من ناشطى حقوق الإنسان. وأنا معروف أيضًا بأنى من المحامين العاملين فى مجال الكفالات والضمانات المالية". روث، اسم انجيلى، وليس اسمًا جنسيًا، لكنه ليس كثيفًا أيضًا. إنه اسم ذو شخصية.

"أم كذاب؟".

ضحكا. ذاب الجليد. وراحا ينظران إلى سيث. كان يتنفس محدثًا صوتًا. لاحظا قطرات الدم وهى تمشى فى الأنبوب ثم تختفى فى وريد سيث. انجرفت عينا فرايداى ناحية السيدة الشابة.

قالت روث: "قالت لى الممرضة إن حالته مستقرة" لم يكن عندها ما تقوله غير ذلك. لم تكن تشعر بالارتياح فى وجود مثل هذا الرجل. يا لهذه النظرة الطويلة!

قال فرايداى موضحًا: "كل ما فى الأمر أنى تخوفت عند هذه المرحلة. كان يقاوم بشدة".

"يتعين عليه الحصول على المزيد من الراحة. وهو دائمًا لا يلقى بالا لكلامي، ودائمًا ما يقحم نفسه في أمور تضر به. خذ الحفل الذى أشرت إليه أنت على سبيل المثال. أنا كنت معترضة على حضوره ذلك الاحتفال".

قال سيث وهو على سريره: "لقد حضرت من أجل أمى". كان صوته. يُسمع بصعوبة بالغة. لم يعرف أحد أنه استيقظ وأفاق.

"أنا أعرف أن أمك محبوسة".

"شيء من هذا القبيل". كانت هذه عبارة متحفظة.

"أكان ذلك عنفًا منزليًا؟".

"نعم. على الرغم من أنى لم أعرف الأسباب التى منعتها من حزم أشيائها ثم الرحيل. لكنى أرى أنه فات أوان انشغالنا بهذا الأمر".

"سوف أتبين ذلك الذى يمكن أن نفعله. أنا شخصيًا أخطط لتولى القضية وأبذل فيها قصارى جهدى. لابد أنها فعلت ذلك من باب دفاعها عن نفسها".

"أشكرك. المسألة صعبة فى ظل غيابها، وبخاصة فيما يتعلق بسيث، المصاب بهذا المرض العجيب".

"إذن، كيف تدبرين الأمور؟ الأتعاب المدرسية والأشياء الأخرى؟".

"أنا أبيع ملابس أمي وحلّيها. والناس يساعدوننا أيضًا، من حين لآخر. المسألة ليست سهلة. رواد الكنيسة......".

نظر فرايداى إلى روث، إنها شجاعة بحق، وهى تحاول التغلب على مضاعفات هذه الجريمة المشينة وهى لا تزال فى عمر الزهور.

قالت على استحياء: "لن نقدر على دفع الكثير. أنتم يا معشر المحامين لستم رخيصين".

"أنا لا أُكلف أتعابًا لكن بشرط واحد".

"ما هذا الشرط؟".

"إذا ما أصبحنا أصدقاء وتماشيت معى".

"هذا شيء حسن".

ألقت نظرة على أخيها سيث، وهى تشعر بالخجل حتى لا تلتقى عيناها بعينى المحامى اللتين تحملان نظرة شهوة وتحرّق. تعجب فرايداى فيما بينه وبين نفسه أن هذا الجزء من البلاد لا يزال فيه بنات خجولات. لم يضع كل شيء إذن. لا يزال أماك متسع من الأمل يا نيجيريا. أمسك بيد الفتاة. يد ناعمة. هذه هى الأصابع الرشيقة الطويلة. أصابع جميلة، مطلية بطلاء الأظافر. سحبت يدها فى الوقت الذى تحول نظره إلى رجليها.

انتبهى يا روث، أنا أحبك. قد يبدو الأمر لك اندفاعًا وغير مدروس. قبل أن يغالبنى النعاس الآن، كنت أفكر فى مسألة صعوبة اجتماعى مع الناس ولقائى لهم.من عادتى أن أعمل عشرين ساعة كل يوم. وهذا هو السبب وراء إمساكك بى نعساناً هنا. وربما كانت هذه هى الراحة الوحيدة التى سأحصل عليها اليوم. وعليه إن كنت تحبينى، أنا لست من عشاق مصطلحى العشيق والعشيقة. أنا ليس عندى متسع من الوقت لذلك. أنا أريد علاقة حقيقية جادة. أنا أود الاستقرار".

"واو! يا له من بيان!".

"اللهم، إلا إذا كان لديك أنت مانعٌ من ذلك".

"لقد جئت إلى هنا، على وجه السرعة لرؤية أخى. هل أنا خارجة للتمشى مع خطيب؟". وابتسامة واعية ومدركة. مرتسمة على وجهه ـــ أمسك يدها مرة ثانية ـــ حاولت جذب يدها من يده، لكنه تشبث بها ـــ سبق لها أن قرأت عن الارتباطات، والزيجات المثيرة بين أولاد يلتقون بنات فى ظروف غريبة، ويقعون

فى حبال بعضهم البعض؛ قرأت عن أناس تزوجوا على متن الطائرات، وعلى الشواطئ، وكل أنواع الحيل المترتبة على لقاء الأولاد بالبنات. لم يخطر ببالها أن ذلك يمكن أن يحدث لها فى يوم من الأيام. واقع الأمر أنها تخلت عن هذا الشكل من أشكال العلاقات. من ذا الذى يمكن أن يهتم بفتاة قتلت أمها أبيها وتواجه الحكم عليها بالإعدام؟ الرجال سيتجنبونها كما لو كانت هى مرض نقص المناعة المكتسب (الإيدز). يقولون: من شابهت أمها فما ظلمت. قالت فيما بينها وبين نفسها، إنها عندما تكبر سترحل إلى مدينة بعيدة، وقد تسافر إلى الخارج، وقد تستقر، حتى تهرب من هذا الماضى وتبدأ حياة جديدة.

الآن، سأطرح هذه الأحزان جانبًا، فقد تقدم هذا الرجل لطلب يدها. ولم يقف عند هذا الحد فقط، إذ إنه يعرف موقفها العائلى، وهو على استعداد للإقامة معهم فى خيمة واحدة، والدفاع عن أمها، والعناية بذلك الأخ المريض الذى أصبح من ضمن مسئولياتها. لم يتبق سوى شيء واحد. وإن هذا الجانب لن يقبل الحلول الوسط، ولكن يكون موضوعًا لتلك الحلول.

سألت فرايداى بطريقة لطيفة قدر المستطاع"ما هى فصيلة دمك؟" بدت الدهشة على الرجل، تسألين عن فصيلة دمي؟ لماذا تسألين عن فصيلة دمي؟

"أنا لا أعرف، هل هذا شيء مهم؟".

"نعم".

"لماذا؟".

"لماذا؟". لأن فصيلة دمى هي: AS".

"ما الذى تعنينه بذلك؟".

"أعنى أنى حاملة لخلة المرض المصاب به أخى".

"وماذا بعد؟"

سألته روث "هل تود القول إنك لا تعرف مغزى ما أقوله لك؟".

هز رأسه.

خطر ببال روث، ناس يموتون بسبب الجهل.

تركز انتباه المحامي على المراهقة: "علميني. لقد سمعت فعلاً عن فصيلة الدم لكني لست متأكدًا من معناها".

أوضحت روث: "هذا يعني أنك إذا كانت فصيلة دمك (AS) فلن تستطيع الزواج من إنسانة تحمل الفصيلة نفسها".

"من الذي يقول ذلك؟".

واصلت روث كلامها: "أنا التي تقول ذلك. هذا يعني أننا سننجب طفلاً (SS) وبذلك نزيد عدد المرضى بهذا المرض. هذا يعني أننا يجب أن نكافح زيادة هذا المرض، الذي لم يتوفر له العلاج بعد، والذي ينطوي على قدر كبير من الأسف والمعاناة. والمخرج الوحيد هو عدم المساعدة على نشر هذا المرض".

"لم أكن أعرف ذلك".

"هذا هو الواقع. أناس كثيرون يجهلون هذا الأمر. أنا نفسي لا أعرف ذلك. معاشي مع سيث هو الذي فتح عيناي على وجود هذا المرض وعلى تركيبه".

"هل تودين القول أن كل اثنين مقدمين على الزواج، يتعين عليهما تحديد فصيلة الدم عند كل منهما؟".

"بالضبط. السود بصفة خاصة. لأن هذا المرض من أمراض السود".

قال المحامي: "أنت تعرفين الكثير عن المرض".

"المرض موجود في الأسرة. وكما قلت، فإن معاشي مع سيث جعلنا نفتح عيوننا ونتنبه تمامًا. الجهــل هو السبب الوحيد في بقاء هذا المرض. نقص العلاج

أو بالأحرى عدم وجود علاج لهذا المرض". راحت روث تشرح وتقول المزيد عن الخلية التى يمكن أن تسبب هذا المرض. وأومأ فرايداى برأسه عندما بدأ يستوعب ويفهم ما تقوله روث. قال مرات عدة: "هل هذا حقيقي؟". وعندما انتهت روث من كلامها قال: "لقد فهمت".

أنهت روث كلامها "إذن! هذه هى المسألة المهمة فى الوقت الحالى". ازداد استيعاب فرايداى للأمر "وبفرض أننا قررنا أن لا يكون لنا أولاد؟".

تعجبت روث: "أنت الرجل الإفريقي!" راحا ينظران إلى بعضهما نظرة سخرية وتهكم.

صرخ المحامى "أيتها الممرضة!" جاءت الممرضة تجرى. كانت تقصد المريض، عندما مدَّ لها فرايداى ذراعه. "اسحبى منى دما. وافحصى فصيلتى. إذا كانت الفصيلة (AA) فذلك يعنى أننى سأكسب عروسًا؛ وإن كانت غير ذلك، فقد يطير صوابى".

الفصل الحادى والثلاثون

أمسية لطيفة

كان الوقت مصادفًا لفترة الترفيه فى جناح النساء. كان لدى سوزان أعضاء كافون للعبة الكالسيتو Calecetto الإيطالية. كانت هناك أربع عشرة نزيلة وأربعة أطفال صغار. ستقوم سوزانا بدور الحكم. عينت سوزانا بيا Bea لتقوم على رعاية الأطفال. تبقى لها بعد ذلك اثنتى عشرة نزيلة؛ ستة لكل جانب من الجانبين قالت: "هذا تمام ـــ وأنت يا أنتلى، ومعك تاوا Tawa ستكونان رئيستين للفريقين. هيا، اختارا بناتكما".

جلست بيا على جنب، وراحت تهدهد وليدها هيومانتى (إنسانية). وإلى جانبها كان أوزو يرقد نائمًا على كومة من الملابس والخرق. كان التوأم يسكبان الرمل على نفسيهما على بعد خطوة من بيا. خطر ببال بيا أن والدتها كان مقدرا لها المجيء فى هذا الوقت. المفروض أنها يجب أن تكون هنا فى هذه اللحظة. لقد اتفقنا على مجيئها إلى هنا لتأخذ هيومانتى. قلت لها أن تجيء فى هذا الأسبوع. أتمنى ألا يكون مكروهًا قد حدث لها. كانت النزيلة تنظر بين الحين والآخر، بعينيها فى اتجاه البوابة، التى ستجيء منها السجانة. انتظرت اليوم كله على أمل أن يناديها أحد، وأن يقولوا لها إن والدتها هناك ـــ لم يحدث شيء من هذا القبيل ـــ ولم يجيء إليها أحد من الناس. وفى الصباح عاونتها نيرس فى تنظيف الطفل.

قالت وهى تتودد إلى الطفل الغاضب: "جدتك ستأتى إليك".

أردفت سوزانا قائلة: "سيخلى سبيلك اليوم ـــ ينبغى أن نتبادل الأماكن".

لم يحدث شيء. قالت بيا فيما بينها وبين نفسها أن الطريق طويلة، والرحلة طويلة ويجب أن لا أنتظر وصول أمى قبل دخول وقت الظهر.

بعد تناول وجبة العصر المائية، راحت بيا تستعد من جديد، وتنتظر من سيجيء للنداء عليها ـــ لكن لم يحدث شيء ـــ حان الآن موعد إخراج النزيلات إلى الفناء الصغير لتمضية فترة الترفيه بعد أن دخل وقت المساء.

كانت بيا سعيدة لأنه قد "طُلب منها رعاية الأطفال. كانت بحاجة إلى الراحة. كان موضع الولادة القيصرية لم يلتئم بعد ـــ صحيح أنها أُخذت فى اليوم التالى إلى مستشفى قريب، نقلوها إلى هناك فى سيارة بيجو خاصة، كانت سيارة الترحيلات لا تزال متوقفة عن العمل. فحصها الطبيب، اتضح أن كل شيء كان على ما يرام. أعطاها الطبيب بعض المضادات الحيوية، كما فحص الطبيب أيضًا الوليد الجديد.

أبدى الطبيب ملاحظة: "إنه مصاب بصفراء الولادة، ضعيه فى المكان الذى تصل إليه أشعة الشمس فى الصباح الباكر، وسوف تزول هذه الإصابة خلال يومين".

كانت بيا قد رجت الطبيب أن يعطيها تركيبة لطفلها وطفل أومو.

قال الطبيب الحنون: "لن يكون ذلك من الحكمة. إذا ما أعطيتك تركيبة فذلك يحتم أن أعطيك زجاجات، وحلمات اصطناعية، ومعقمات وماءًا نظيفًا. وفى ظل ظروفك الحالية لن تتمكنى من المحافظة على هذه الأشياء. وعليه من الأفضل لك أن تكون الرضاعة طبيعية، وهذا هو الأنسب للطفل". واشترى الطبيب لها طبقًا من الأرز ودجاجة وزجاجة كوكاكولا. لم تذق طعم الكولا على امتداد السنة الأخيرة بطولها.

عندما علم السجان بخبر إجراء العملية أرسل إلى بيا برطمانا من العسل الطبيعى مما عجل بالتئام الجرح.

نظرت بيا فى اتجاه البوابات، لكن لم يحدث أى شيء ـــ لم يستدعها أحد. أرضعت طفلها، وراحت تلعب مع الأولاد وعيناها على النساء اللاتى كن يطاردن الكرة المطاطية. لاحظت أن بلسنج هى وليد laide كانتا تقومان بحراسة المرميين.

خطر ببال بيا، ربما كان ذلك بفعل السن، كانت أكثر حركة ونشاطًا. كانت النتيجة صفر ــ صفر. كانت أفولينو آخر من وقع عليهن الاختيار. كانت بيا تعرف أن ذلك راجع إلى الإعاقة ــ كانت بيا سعيدة، عندما وجدت أفولينو، التى يصعب عليها إقفال قفل فهما، تقول لرئيستى الفريقين متأففة.

"الناس يمارسون دومًا التمييز ضد المعاقين كما لو كنا عديمى الجدوى أو أشباه بشر. ومع ذلك، لعللك تفكرين فى ذلك الذى استطعت إنجازه والقيام به. كثير من الأسوياء لا يستطيعون القيام بذلك".

صحيح، على الرغم من رجلها المصابة، استطاعت الدخول فى كثير من عمليات السرقة التى أفلحت فى الهروب منها كما لو كانت شيطانًا. تاو هى الأخرى، استطاعت نقل المخدرات لبارونات‍ها. هؤلاء الناس معرضون ومكشوفون، على حد تفكير بيا. وهم بسبب تشوهاتهم، يحسون أن الناس غير راغبين فيهم وليسوا بحاجة إليهم، والنتيجة: أنهم يندفعون إلى كل من يبتسم لهم أو يود تجنيدهم للقيام بالأعمال الشريرة، وها نحن الآن نرى إلى أين أوصلتهم تلك الأعمال. أطالت بيا النظر إلى ليد Laide، وهى تقف بين خشبات المرمى. هذه هى ليد، وهى تقف بين خشبات المرمى لا تستطيع رفع يديها عن وجهها المشوه.

كان هناك قدر كبير من الدفع، والجذب، والإمساك بالخصم وجذبه إلى الخلف. كانت سوزانا تطلق صافرتها مرات عدة وتحذر المخطيء.

"انتبهن، ممنوع الدفع، أو الخطأ، أنتن لستن فى السوق، القواعد هى التى تحكمنا هنا. وأنت يا تاوا وأنت يا بنتا هذا هو الإنذار الأخير لكما، مفروض أن أعطى كلا منكما بطاقة صفراء. هذا يعنى أن ذلك سيكون الإنذار الأخير، وإذا ما ارتكبتما أية أخطاء بعد ذلك، فسوف أعطيكما بطاقة حمراء، مما يعنى طردكما، هل هذا مفهوم؟

أجابتها تاو: "هى التى دفعتنى أولاً. ولذلك دفعتها ردًا على ما فعلته".

ردت بنتا "لماذا أعفيتني؟".

كانت الحاكمة مُحَمَّرَة الوجه ومتعرقه "انتبها، إذا ما رأيتما راحة يدى، فذلك يعنى بطاقة صفراء. هل هذا مفهوم؟ وإذا رأيتما ظهر يدى، يا أعزائى، فذلك يعنى الطرد. هذا هو الإنذار الأخير". ثم أطلقت صافرتها. كان رأس أولورى يهتز لكنها تماسكت وثابرت.

عدن إلى اللعب. هذه ضربة مرمى. مررت بلسنج الكرة إلى أنتلّى التى ناورت بها ومررتها إلى رحمه بالقرب من مرمى الخصم. كان مضرب رحمة منطلقًا فى الهواء يهدد بالانفلات من يدها. أمسكت رحمة المضرب فى يدها وهى تراقب الكرة المطاطية وهى تقترب منها. لكن قبل أن تتمكن رحمة من إدخال الكرة فى المرمى، قامت إنديورانس Endurance بركل الكرة من خلف رحمة. أمسكت رحمة زميلتها فى الفريق.

"غبية! نحن فى فريق واحد. كنت على وشك التهديف".

"من هى الغبية؟ أمك هى الغبية".

اقتربتا من بعضهما كما لو كانتا ديكين "أمك أنت هى الغبية".

"يا نتنة الفم!".

"يا نزّازه من الأسفل!".

"يا جاهلة، يا متسربة".

نشبت على أثر ذلك معركة بين الاثنين، دون أن تدرى الباقيات، اللاتى رحن يواصلن اللعب. شاهدت بنتا المشاجرة عندما كانت إيا إيبيجى تمرر الكرة إلى أولورى، كيما تقوم بتسديدها فى المرمى. قالت سوزانا إنها مدافعة. وكان عليها أن تصد الكرة من..... وتخلت عن المباراة واندفعت لتقف إلى جانب رحمة. شاركت بنتا فى الشجار وضربت إنديورانس على ظهرها. صفَّرت سوزانا بشفتيها، وجرت

إلى الثلاثى وأرتهن ظهر يدها. اندفعت أنتلى هى الأخرى إلى مكان المشاجرة وراحت تحَجز بين النساء المتشاحنات. انخفضت عتبة السب واللعب عندهن. خلصت أنتلى إلى أن ذلك كان استمرارًا للمظاهرات الدينية التى كن يعشنها. قالت أنتلى فيما بينها وبين نفسها، كنت أعرف أن ذلك سيحدث، فى هذه اللعبة الانقسامية التى نمارسها. من هنا اختارت أنتلى أن تكون رحمة، وبنتا وإنديورانس فى فريق واحد، ومع ذلك...

قالت أنتلى للنساء: "انتبهن، أنتن كلكن فى جانب واحد. ومطلوب منا التهديف فى الجانب الآخر".

قالت رحمة: "هى لم تُرد لى التهديف. وكنت على وشك تصويب الكرة فى المرمى".

ردت إنديورانس ساخرة: "أنت التى تُهدِّفين وحدك!".

أوضحت انتلى لهن فى شيء من الصبر والتروي: "انتبهن، المسألة مسألة فريق. مسألة من الذى يسجل ليست مهمة، لأن النقطة ستحسب للفريق".

خلصت سوزانا إلى "هذه بطاقة حمراء لكن أنتن الثلاث!" وأشارت بظهر يدها ثلاث مرات" اخرجن من الملعب، من فضلكن". أشارت لهن بالخروج من الملعب. واصلت النساء المتشاجرات التشويح بإصابعهن إلى بعضهن البعض، وهن يتحركن فى اتجاه بيا.

استؤنفت المباراة. وطوال الدقائق الثلاث المتبقية من الوقت لعب فريق أنتلى بثلاث لاعبات فى مواجهة فريق تاو المكون من ست لاعبات. النتيجة: خسر فريق أنتلى ٥ ــ صفر.

كانت أومو منفعلة بعد المباراة، لقد كسب فريقها. صفقت وانشرح صدرها وراحت تقفز إلى الأعلى والأسفل وعلى شفتيها ابتسامة سانجة، نسيت وليدها فى المعلب ودخلت إلى الحمام. حملت بيا الطفلين إلى داخل الزنزانة ــ لم تجيء أمى

إلى الآن، وفى طريقها إلى الزنزانة مررت الطفل إلى أومو التى تجاهلتها. وضعت بيا أوزو الصغيرة على مرتبة أمها. كانت أومو تغمغم فيما بينها وبين نفسها، وتصفق بيديها بطريقة انفعالية. خطر ببال بيا أن هناك خطأ ما. هل عاودها هياجها وعدم استقرارها؟ قصدت إلى ستاف Staff، التى تحدثت إلى أومو، بعد عودتها من الحمام، عن إرضاع الطفلة التى تصيح.

قالت أومو: "هى تصيح كثيرًا. صياح، صياح طول الوقت". وراحت تقلد ضوضاء ابنتها.

لم يكن حليب صدر الأم كافيًا للطفلة النامية؛ وهذا أمر تعرفه الممرضة. هذه الطفلة مفروض أنها تعيش الآن على الحبوب، والمفروض أيضًا أنها تستطيع الجلوس، استعدادًا للحبو. بدلاً من ذلك كله، كانت صغيرة الحجم ويبدو عليها سوء التغذية. هى فى الشهر الخامس الآن من عمرها ولا تستطيع بعد رفع رأسها. كان رأسها يسقط على صدرها مثل اللعبة المصنوعة من الخرق. الشعر الخفيف الذى ولدت به اختفى تمامًا، مخلفًا وراءه طبقًا لامعًا هو الرأس. كان ذراعاها صغيرين وضعيفين إلى حد أن نرس Nurse كانت تظن أنهما يمكن أن ينكسرا. قالت فيما بينها وبين نفسها، ربما كان من الأوفق ترك هؤلاء الأطفال يذهبون لحال سبيلهم ــ فى المرة القادمة عندما يجيء الوعَّاظ إلينا سوف أثير هذا الموضوع معهم. يجب أن نتنازل عن هؤلاء الأطفال كيما يتبناهم أحد من الناس، أو تأخذهن أمهات لا ينجبن. هذا المكان لا يصلح ولا يناسب هؤلاء الأطفال. كانت الطفلة أوزو ترضع بنهم عندما عادت الممرضة إلى سريرها. خطر ببال الممرضة أن كل شيء تحت السيطرة.

نامت النزيلات فى تلك الليلة نومًا عميقًا، باستثناء تاو وإنديورانس اللتان أصبحتا حبيبتين. أدت مشاجراتهما الفردية مع كل من رحمة وبنتا إلى تقاربهما أكثر من ذى قبل. كانت تأوهات تاو المفضوحة تكسر صمت الليل وهدوئه. كان الليل ساكنًا اللهم باستثناء الصوت الناتج عن تحركات الفئران، وطنين البعوض،

ونقيق الضفادع، الذى كان يتناهى إلى المسامع قادمًا عبر الجدران. لم ينطق الأطفال أو يحدثوا أى صوت من الأصوات. كان نسيم الليل قد هدهدهم إلى حتى النوم. وفى كل مرة كانوا يشاركون فيها فى الترفيه، كانوا ينامون نومًا عميقًا.

عندما طلع النهار، هتف هاتف إلى نيرس كيما تذهب لرؤية أومو. كانت مستلقية على ظهرها وتحملق فى السقف. أين كانت طفلتها؟ لم تكن أوزو موجودة فى أى مكان. نظرت نيرس حولها. ربما يكون أحد قد أخذها. كان طبيعيًا للنزيلات أن يساعدن الطفلة فى الوقت الذى لا ترضع فيه. لكن لا أحد، لا أحد أخذ هذه الطفلة.

سألت بصوت عالٍ: "أين أوزو؟".

تساءلت أنتلى من مكانها وهى ترفع رأسها عَمَّ تكتب "ماذا تقولين؟".

ردت سوزانا "هل هربت؟ ربما تكون قد حبت إلى الحرية. أم أنها تلعب الاستغماية؟".

كررت ستاف الكلام: "هذا ليس مزاحًا". انقلبت الزنزانة كلها رأسًا على عقب،

ورحن جميعًا يبحثن عن الطفلة. لم يكن هناك سوى أمها الوحيدة التى بقيت فى سريرها غير واعية بما حولها، ومركزة بصرها على السقف، وواضعة يدها اليمنى على جبهتها. بحثت النساء عن الطفلة تحت الأسرَّة، وخلف الجوالات، ورحن يرمين الملابس هنا وهناك بحثًا عن أوزو.

أخيرًا، قصدت أولورى إلى أومو وحاولت جعلها تقف. لم تستطع أومو الوقوف. وعلى الرغم من أن أومو لم تكن ثقيلة، فإن أولورى نفسها كانت قد ضعفت وهزلت بشكل سيء. عندما كانت تستحم كانت ترى ضلوعها من خلال لحمها الهزيل، كان عظم الترقوة ظاهرًا أيضًا. ذهبت نرس لمساعدتها. واستطاعتا رفع الأم الشابة إلى أن وقفت. ومن تحتها كان يوجد جثمان الطفلة مفارقًا الحياة.

كان الدم فى كل مكان، كثيف وشبيه بالجيلاتين. وكان هناك قطع فى العنق فى المكان الذى استعمل فيه مشرط أومو فى شق الحلق. ثم قطعتها أيضًا فى أماكن أخرى من جسمها حتى بين وركيها.

ساد الزنزانة الهرج والمرج.

تطوعت المرأة المريضة بالقول "لقد ختنتها". وزاغ بصرها كما زاغ عقلها أيضًا. وفتحت رجليها من وضع الوقوف وأشارت إلى الشلوخ "لقد ختّنتها وهذا لمصلحتها".

سألت رحمة الأم الشابة: "ما معنى هذا الذى تقولينه؟".

غمغمت أومو: "صياح، صياح طول الوقت". ثم راحت تقلد صياح الطفلة "هن، هن، هن، هن".

اندفعت كل من نيرس وأنتلى نحو أوزو الصغيرة ـ فحصتاها ـ فلربما كانت لا تزال على قيد الحياة. لا أحد يعرف منذ متى كانت الطفلة مسجونة تحت أمها. حاولت نيرس النفخ فى فم الطفلة. لكن هذا عمل عديم الجدوى. وقفتا وراحتا تحملقان فى أومو.

تساءلت بنتا: "أى أم أنت؟ تقتلين طفلك".

ردتْ أومو "لقد قتلت أمى، لقد قتلت". التمعت عيناها مثل كشاف مستشيف الكهربى. تحولت إلى الجسم الصغير الموضوع على المرتبة. انحنت عليه، دللته فترة قصيرة، وراحت تهدهده طلبًا للنوم وهى تقول: "إش، إش". ثم رفعت ذراعها التى تحمل السلاح، وراحت تطعن الجثمان مرات عدة.

كان واضحًا أن نوبة الجنون عاودتها ثانية.

تعجبت سوزانا: "يا عذراء!" قالتها وهى تحدث علامة الصليب على نفسها بحركة سريعة.

همست أنتلى إلى جارتها: "بيا، احترسى، وديرى بالك على هيومنتى. أبعدى الطفلة عن...." وبحركة من عينيها أشارت إلى أومو.

تساءلت بيا، بعد أن نفذ صبرها؛ أين أمي؟ أين، أين، أين هي؟ متى تجيء لتأخذ حفيدها بعيدًا عن هذا المكان العامر بالأشباح؟ متى يستأنفون المحاكمات؟ لقد أحضر الجنود وقود الديزل، ما الذى يمنعنا إذن من سماع أقوالنا؟ فى كل صباح يجيء واحد ويقوم بتسخين سيارة الترحيلات، بلاك ماريا، ثم يوقفها بعد ذلك. متى ينقلونا إلى المحكمة ويفتحون قضايانا؟ أى نوع من الظلم هذا الذى نكابده؟

لفّت النساء الجثمان فى قطعة قديمة من القماش ووضعنه بالقرب من البوابات انتظارًا للسلطات.

دعت لها بنتا: "لعل الله ينزل روحها جنات الفردوس" وحمزة أيضًا، وزينب وعثمان، جعلت النساء أومو تتمدد على السرير وربطن رسغيها وساقيها إلى أعمدة السرير مرة أخرى.

قالت البنت المجنونة: "إش، إش، إش، إش".

أصبحت رائحة الزنزانة عند هذه المرحلة لا تطاق. دم متعفن، قذارة، غائط وظراط طول الليل، وأطفال لم يتعودون المشى بعد ينتظرون طلوع الصباح، التبول اللاإرادى. كانت الغرفة تفوح منها الروائح الكريهة كما لو كانت أسوأ من ثقب الفاجرة.

ذهب التوأم إلى اللفافة الموضوعة بجوار القضبان الحديدية ووقفا هناك، غير عارفين ماهيتها. انحنى أحدهما وراح يتحسس تلك اللفة. انضم إليه الآخر وراح يتحسس تلك اللفة من الرأس إلى إصبع القدم. نادى اللفة قائلاً: "طفل ــ طفل" ثم نظر إلى أمه، والشكوك على وجهه.

أبعدتهما تاوا عن الجثمان الصغير.

قالت سوزانا "يتعين علينا إقامة الطقوس الجنائزية للميت. حتى يمكن لروحها أن تصعد إلى السماء".

قالت أنتلى وهى تمسك يدها "من فضلك".

تعجبت أولورى بصوت عال "هى ليست بحاجة إلى الصلاة. ما الذى فعلته؟".

تدخلت أفولينو: "إذا كان لابد من ذلك، فإن الله ﷻ هو الذى يستحق الدعاء، لأنه هو الذى سمح بمولد برئ فى مكان من هذا القبيل". ثم أحدثت إشارة كاسحة بذراعيها. "الأم فى السجن، والأب فى قسم الرجال؛ هذا جحيم بالفعل. ومع ذلك، ما الذى ارتكبته هذه الطفلة البريئة؟".

قالت نيرس: "أنا أُحسد أوزو. وهى فى أمن وسلام فى أضعف الأحوال".

قالت أنتلى وهى تكتب على الورقة بنية اللون: "نعم، إنها فى الفردوس" Elysium.

اقتربت تاو من حبيبتها: "الآن وبعد أن قتلت آدميا آخرا" ثم غمزت بعينها فى اتجاه أومو "ما الذى يمكن أن يحدث بعد ذلك؟ هل ستُقتَاد إلى المحكمة مرة ثانية، وهل سيصدر عليها حكم من جديد؟".

همست إنديورانس قائلة: "أهلى يعبرون عن هذا الأمر بقولهم: إن أومو كانت بالفعل جالسة إلى جانب المصطلى، عندما كانت رياح السموم الباردة تدوّى".

الفصل الثانى والثلاثون

وصلت آيرين فى سيارتها المرسيدس القديمة، لتقوم بتوصيل مارسى إلى المطار. كانت حقيبة المسافرة الوحيدة موضوعة فوق مقعد السيارة الخلفى. كانت الرحلة طويلة. كان المطار يبعد سبعين كيلاً متريًا عن المدينة، هذا يعنى أن المسافة سوف تستغرق منهما قرابة الساعة. كان من عادة آيرين أن لا تسير بسرعة تزيد على سبعين كيلاً متريًا فى الساعة، سواءً أكان ذلك فى المطر أم أثناء صفاء الجو. كان شعارها وهى خلف عجلة القيادة السرعة تقتل. منذ أن ماتت زميلة لها فى حادث طريق داخل المدينة، أقسمت على أن لا تتجاوز سرعة قيادتها للسيارة سبعين كيلو مترًا. كان كثيرون من مستعملى الطريق يتضايقون من انتظام سرعتها على الرغم من خلو الطريق أمامها. تلك كانت فلسفة آيرين أيضًا فى الحياة، التمهل والانتظام هما اللذان يكسبان السباق. لم تكن آيرين متعجلة فى حياتها المعتادة، أو فى سلوكياتها، أو فى أعمالها. كانت تجلس فترات طويلة تمضغ أفكارها كما لو كانت حيوانًا عاشبًا يجتر ما ابتلعه.

ركبتا السيارة فى صمت إلى أن وصلتا إلى أطراف المدينة. تنحنحت آيرين. كانت عيناها مركزتين على الزفت الأسود ويداها على شكل الساعة الثالثة إلا الربع فوق عجلة القيادة.

قالت آيرين للسجانة: "أود مناقشة أمر ما معك إذا لم يكن لديك مانعًا من ذلك".

تحولت نظرات مارسى نحو أعز صديقاتها. هى لا يمكن أن تنسى مطلقًا أن آيرين هى التى آوتها عندما ارتطم زواجها بالصخور. كانت تضع آيرين فى مقام عالٍ عندها. كان لمارسى فى ذلك البلد ثلاثة أقارب، ومجموعة من أعضاء الأسرة مبعثرين هنا وهناك داخل هذا البلد أيضًا، لكن آيرين هى التى رحبت بها، وهيأت

لها مكانًا. وهى الآن تقوم بتوصيلها إلى المطار، فى هذه الفترة من فترات شح الوقود الحادة. تزايدت ضربات قلب مارسى. صلت وتمنت ألا تكون آيرين فى ضيق. تمنت لها زواجًا مستقرًا مع زوجها جودى Goddy.

"تكلمى، فأنا كلى آذان صاغية".

"الموضوع يتعلق بالشريف".

استدارت مارسى بحدة لتواجه السائقة: "ماذا عنه؟" كانت مارسى قد التقت الشريف بطريقة غير مباشرة من خلال آيرين. حدث ذلك أثناء حفل زفاف ابن عم آيرين. كانت آيرين قد شجعت مارسى على مواعدة واضع القانون غراميًا. كانت ترمى من وراء ذلك إلى مساعدة البنت كسيرة القلب على تمالك نفسها من جديد. لكن الذى حدث أن ذلك الموعد الغرامى خرج عن الحدود واستمر.

"أظن أنك بعد هذه الرحلة سوف يتعين عليك الانتقال إلى مكان آخر".

"مثل ماذا يا آيرين؟".

"يجب أن تتركيه يا مارسى. لا مستقبل لأحد مع هذا الرجل. وأنت تعرفين ذلك حق المعرفة". ألقت السائقة نظرة سريعة على المسافرة قبل أن تعود مرة أخرى إلى النظر إلى الزفت اللامع. وجدت مارسى نفسها عاجزة عن الرد الفورى. لم يخطر ببالها أن آيرين يمكن أن تتحدث عن يعقوب وتنصحها بتركه. تلت ذلك فترة صمت، راحت كل منهما تفكر فيما يمكن أن تقوله.

"كم عمرك؟ أربعون؟ اثنان وأربعون؟".

قالت المشرفة العامة على السجون وهى مكتئبة: "أربعون هذا العام". كانت سعيدة بارتباطها بيعقوب. كانا قد تجاوزا المراحل الحرجة فى صداقتهما، عندما كان من الصعب عليهما أن يخلع أحدهما ملابسه أمام الآخر. كان من عادة مارسى أن تطفئ الأنوار، أو تذهب إلى الحمام كيما تخلع ملابسها ثم تأتى من الحمام

ملفوفة بقطعة من القماش. ولم تكن تجرؤ على رفع قطعة القماش إلا بعد إطفاء النور. أما الآن فقد وصلا إلى مستوى الحب الروتيني. وبوسعهما الآن أن يبقيا عاريين على امتداد ساعات، مثل آدم وحواء، على حد قول الشريف. كان الشريف يهتم بها، ويهتم باحتياجاتها المادية. وعن طريقه، وبواسطته، "حصلت على" عقود متعددة قيمتها ملايين النيرات من أصدقائه الذين كانوا يترأسون إدارات المناقصات. لماذا تطلب منها آيرين ترك ذلك الرجل؟ لماذا تطلب منها البداية بشيء جديد؟ أن تنزل إلى السوق مرة ثانية، والوحدة المترتبة على ذلك.

"منذ متى وأنت سابحة فى المواعيد الغرامية؟".

"ما يزيد على عامين الآن. يجب أن لا يغيب عن بالك أننا تلاقينا فى عرس إيكايت Ekaette".

"هل تطرق فى حديثه معك إلى الالتزام؟".

"هو متزوج كما تعلمين يا آيرين".

"هل أتى على ذكر الزواج معك، يا مارسي؟" قالت آيرين هذا الكلام، بطريقة تفيد أنها كانت تقول كل كلمة على حده. آيرين هى الوحيدة التى يمكن أن تتكلم مع مارسى بهذه الطريقة.

"لا".

"هو لا يستجيب للدعاء الأول".

"يا آيرين كلوفر، أنا لست فروجًا من فصل الربيع".

"فى سن الأربعين، يبدأ الزمن فى المضى سريعًا يا مارسى، لكن يمكن الزواج إذا ما تعاونتما سويًا. أنا أفكر فى أمرك منذ زمن طويل. وطالما لم تستقرى بعد، فأنا أحس أنى مسئولة عنك. أولاً وقبل كل شيء، لقد شجعتك على ترك ماكسويل، لكنى لا أريد لك أن تعيشى حياة المرأة العزباء. هذه حياة غير

سهلة. ولا أريد لك هذه الحياة. هل فكرت فيما يمكن أن يحدث بعد عامين الآن؟ ماذا يحدث عندما يختف الشريف، وعندما لا يجدد انتدابه فى المجلس؛ وعندما يعود ثانية إلى قريته؟ ستكونين فى منتصف الأربعينيات وتجدين نفسك مضطرة إلى البداية من جديد".

"أنا سعيدة مع الشريف. ولا أشكو من أى شيء".

نظرت آيرين نظرة حادة إلى أعز صديقاتها: "أنت سعيدة لأنكما تلتقيان بين الحين والآخر. هذا شيء غير واقعي. هو لديه حياة أخرى فى مكان آخر، واقع آخر. الوقت الذى يمضيه معك وقت مختطف، هذا الوقت عبارة عن ملتقيات مؤقتة، خالية من مشكلات الحياة. وهذا هو السبب وراء عدم شكواك".

"أنا أحب هذا الوضع يا آيرين. ما الخطأ فى ذلك؟ ما الخطأ فى أن يكون الإنسان سعيدًا مع شخص ما؟".

قالت السائقة: "انتبهى لا تجعلينى أقف هنا بالسيارة". وراحت تطيل النظر إلى صديقتها من جديد، "اسمعينى يا مارسى، زوج المرأة الأخرى حلو لأنه يكون على أفضل نحو من مظاهره السلوكية. هو يبحث عن الهرب. ليس عنده أطفال يفكر فيهم، وليس أمامه عائلة يشغل نفسه بها، وليس عنده ضغوط. العملية لا تعدو أن تكون مجرد إرضاء لذلك القلق الذى بين وركيه". راحت المشرفة العامة على السجون تعبث بحقيبتها.

قالت آيرين من باب تذكير صديقتها: "هناك محامى كفالات مالية". وهنا راح شعور بالخواء يملأ ذهن مارسى بالخوف. لم تصلها أخبار من الصديق المتعلم منذ أيام كثيرة. هل غير سكنه؟ هل فقد اهتمامه بها؟ كانت مركزة على العضو الشريف، ولم تتح نفسها لفرايداى Friday. راحت تنقل رجليها الطويلتين وتضعهما فوق بعضهما مرة بعد أخرى. كانت مارسى تود أن تصرخ فى آيرين، موضحة لها جانبها من تلك القصة، ولتقول لها إنها لم تسرع قط فى جعل نفسها

عشيقه لأى إنسان مثلما تفعل سيدات المجتمع المتخصصات فى فعل ذلك. لقد تزوجت فى إطار التوقعات الاجتماعية؛ وإن وضعية العشيقة هذه فرضت عليها بحكم الظروف. لكنها كانت تعلم أن ذلك سيكون بلا طائل. وهى لا يمكن أن تنتصر على آيرين، التى لابد وأنها درست هذا الأمر، بحيث تستطيع الرد على أعذار مارسى بسهولة ويسر.

"اصطاديه الآن، يا مارسى. اجعليه يربط العقدة الآن قبل أن يضيع منك".

حركت هذه الجملة شيئًا ما فى ذهن مارسى، كما لو كان إناءً من أوانى الحساء. سبق أن قالت إديث: ربط العقدة ربطًا محكمًا.

"ما طول المدة التى يمكن أن ينتظرها فى رأيك؟ أنت تعلمين أننا لا نصغر".

هذا، كان أمرًا ضروريًا يا آيرين. لم تكن آيرين من النوع كثير الكلام. لقد مضت فى حياتها وهى تفكر فى الأمور بهدوء ثم تتصرف على أفضل نحو تراه هى. آيرين هى التى استطاعت أن تطعم حساءك وتقول لك على الفور ذلك الذى يفتقر إليه هذا الحساء. كانت تقول لها: "أضيفى المزيد من الفلفل؛ أو زيدى عليه مكعبًا من مكعبات الحساء ماجى". أسرعي! وهذا هو كل ما فى الأمر؛ وعندها يجيء الحساء إلى الحياة. كانت آيرين قد درست علاقة مارسى، ودرست أيضًا اتجاه حياتها ثم قالت: "اتركى الشريف، واصطادى فرايداى".

لكن هذا الأمر ليس بهذا القدر من البساطة. نحن لا نتكلم هنا عن الحساء واليخنات. المسألة هنا تتعلق بالمشاعر، والعواطف، وبالناس، وباللحم والدم.

قالت وهى تقرأ ما يدور بخلد مارسي: "سيكون ذلك أمرًا صعبًا، لكن يتعين عليك الإقدام عليه، اللهم إلا إذا كان الشريف على استعداد للزواج منك، ويجعلك زوجة ثانية له. أنت بحاجة إلى الاستقرار. فى سن الأربعين يتعين عليك التوجه إلى مكان محسوس. السواد الأعظم من أندادك فعلن هذا الشيء".

"آيرين، أنت تعلمين أنى حاولت ذلك".

"حاولت، لكنك لم تنجحى، ماذا بعد؟ هذا لا يعنى أنك ينبغى أن تتوقفى عن المحاولة. نحن اللاتى أبقين على الزواج، هل تظنين أن تلك سعادة، سعادة غامرة طول الوقت؟ أباؤنا لم يكونوا أول من طردوا من جنات عدن يا مارسى. لقد طردنا كلنا. جنات عدن لم تعد موجودة بعد فى أى مكان لأية واحدة منا. هل تعرفين ذلك الذى مررت به فى زواجي؟ أم أن ذلك لأنى ألزم الصمت ولا أذيع أوجاعى وآلامي؟" أنت؟ أنتِ يا آيرين؟ كانت مارسى تريد أن تصرخ. أهذه هى آيرين التى تتمتع بحياة زوجة مثالية مستقرة؟

"هل تلعمين أنه على امتداد السنوات الأربع الماضية، كانت لجودى Goddy عشيقه فى البلده، وكان ينفق عليها؟ هل أصابنى مكروه يا مارسي؟ أنا لازلت كما أنا هنا، لأن هذا هو الواقع، هذا هو مجتمعنا. سنسمع عن قريب جدًا أن زوجك السابق قد تزوج. فلماذا لا تتزوجين أنت؟ أثبتى له أنه كان مخطئًا، عن طريق استقرارك من جديد. أرجوك يا عزيزتى، أرجوك".

"سوف أفكر فى هذا الأمر يا آيرين. أنا أعرف أنك على حق. لقد فكرت فى الزواج أيضًا، لكنك خير من يعرف هذه الأمور". على كل حال، وفيما يتعلق بزواج ماكسباد Maxbad مرة ثانية، فذلك هو اليوم الذى تتمناه مارسى. قد لا يرغب فى إذاعة عجزه فى هذه المنطقة. الروح ترغب لكن الجسم ضعيف. "اتركينى أذهب إلى لندن هذه، وأعود منها".

"إذا ما نحينا لندن جانبًا، نجد أن الشريف ليس لديه ما يقدمه لك. صدقينى. اتركيه. لقد آن أوان المضى قدمًا فى حياتك". كانتا فى هذه اللحظات تقتربان من المطار. بدأت مارسى فى إنزال وجمع أشيائها.

"سأفكر فى هذا الأمر".

"أيتها البنت الطيبة. إذا ما تردد، أخبرينى ــ جدتى طبيبة شعبية ــ ليس هناك شيء هى لا تستطيع عمله".

* * *

ظهرت كل الصحف الرئيسية تحمل عناوينا فاضحة:

قالت إحدى الصحف: **الشريف ينام مع زوجتي!** قالت صحيفة أخرى : **الشريف ليس شريفًا.** وقالت صحيفة ثالثة: **الشريف يخون فراش الزوجية.** وقالت صحيفة رابعة: **الشريف حطم زواجي.**

كانت الصحف كلها قد نفدت قبل دخول وقت الظهر. ابتاع المحرض على ذلك جريدة من الجرائد اليومية، وعاد مسرعًا إلى شقته ليقرأها.

تقدم السيد ماكسويل أوجولوجو Ogologo بعريضة إلى المتحدث الرسمى فى المجلس الأدنى حول واحد من الأعضاء الأشراف، الذى يسعى لتخريب منزل زوجيته. فى الرسالة المؤرخة اليوم الثلاثين من شهر نوفمبر قال السيد أوجولوجو إن الشريف عبد الجليل يعقوب أغوى زوجته مارسى أوكو أوجولوجو منذ سنوات، وهى سجّانه بسيطة، أغواها بالأشياء المادية وكان يضاجعها بصورة منتظمة. وهو يتهم العضو الشريف بأنه تسبب فى قلق بالغ لأسرته، والتمس إلى المتحدث الرسمى أن يحذر العضو، الذى هو بدوره رب أسرة. قال الرجل الغاضب: "لقد استأجر شقة لها كيما يلتقيان فيها. لقد أغدق عليها الهدايا الغالية، هدايا لا قبل لى أنا بشرائها. لقد حطم زواجى وهدمه، قضى على سعادتى، وعلى حياتى. إنه لا يستحق أن يكون فى هذا المجلس الموقر". جاء ذلك فى ختام الالتماس.

زار هذا المرسل مكتب الشريف يعقوب ــ وقيل إنه خارج البلاد فى مهمة رسمية ــ وعندما اتصلنا بحرم السيد / يعقوب تليفونيًا قالت إن هذا الاتهام مجموعة من الأكاذيب. "لقد طبخت المعارضة هذه القصة للإضرار بزوجى والقضاء على مستقبله السياسى العملى. لن تنجح هذه القصة. وأنا ضامنة الذى يخشى الله. هذه كله أكاذيب".

لم نتمكن من الاتصال بالمرأة محط التساؤل، مارسلينا أوكو أوكولوجو، للتعليق على هذا الكلام.

* * *

سقط التليفون من يد زوجة يعقوب، على الأرض وانهارت جالسة على الكنبة. إذن، هذا الذى تشككت فيه طول الوقت كان حقيقة. لقد شُفى زوجها وأصبحت له عشيقة. أحضرت مخدة من القطيفة ووضعتها على وجهها وراحت تولول. ربما يكونان الآن يقضيان وقتًا طيبًا فى فندق من الفنادق. وربما لا يكون قد سافر إلى لندن أولاً وآخرًا.

لم تدرك أن السائق دخل عليها وراح يراقبها. كانت قد أرسلت السائق ومعه الشغالة إلى السوق. تنحنح السائق.

"تحياتى، يا هانم"(*)

"فاتاى" Fatai .

وقف فاتاى، وهو يلوح حاملاً آلة مهنته. كان بنطاله الجينز ضيقًا ومتسخًا ويغطى ركبه القويين. كانت عضلاته مفتولة، وظاهرة من تحت قميصه الكاكى القصير.

"أنت سائقه. أنت تعرف كل شيء. هل هذا صحيح؟".

"أنا لم أرد أن أخبرك، يا سيدتي؟ لكن سيدى لديه امرأة فى الخارج".

"أنت تعرفها".

"نعم. نحن نزورها مرات عديدة؛ صباحًا، وعصرًا، وأثناء الليل".

"خذنى إلى هناك". قفزت واقفة كيما تذهب وترتدى ملابسها. تردد الخادم، سيدى لن يوافق على ذلك أو يرضى عنه مطلقًا. ولائى بالدرجة الأولى لسيدى. لاحظت حرم يعقوب الارتباك الذى بدا على الخادم، وراحت تراقبه.

قال وهو يندفع خارجًا من غرفة الجلوس: "اسمحى لى بالانصراف حتى أحضر العنوان".

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة بلغة الأجبو Sanu. (المترجم)

عادت الزوجة إلى الكنبة ـ تزايدت ضربات قلبها. لقد كانت تعاني متحملة عجز زوجها، شأنها شأن الزوجات الصالحات، دون أن تعرف أنها هي الزوجة العاجزة. كل ذلك الخروج، وكل ذلك التأخير في الليل، وكل تلك المكالمات التليفونية التي لا تنتهي. كان يقول لها: هذا هو رئيس الحزب. أو المتحدث الرسمي بأسم الولاية، أو ذلك، أو وزير من........ كان ذلك كله كذبًا في كذب. لم يكن ذلك كله من أجل المال والأعمال، وإنما من أجل المتعة. تذكرت تلك المرات التي كان يشجعها خلالها على مرافقة السيدة الأولى في رحلاتها في الخارج. كل ذلك من أجل أن يخلو له الجو مع هذه المرأة القذرة.

عاد الخادم فاتاي. كان يعرف الأمور الداخلية في هذه الأسرة حق المعرفة. كان يعلم أن سيدة يلص في الخارج، بينما سيدته جوعانة. اقترب فاتاي من المرأة التي تبكي.

"حسنًا فعلت. يا سيدتي". وضع يده على كتفي سيدته، هيا بنا يا سيدتي. خطر ببالها أنها ليست مخلوقة من الخشب أو الحطب. الدم يجري في عروقي، دم ساخن. أنا لدي احتياجات ورغبات مثل أي إنسان آخر. كل هذه السنوات، وهو ينام في الخارج، ويتجاهلني، ويميتني جوعًا وشوقًا. سأريه. راح السائق يداعب الرقبة المتجعدة، وأنزل إحدى يديه إلى صدرها. لم يكن ذلك الصدر متماسكًا مثل صدر تينو، لكن الدجاج البيَّاض فيه من السحر ماليس في فراريج الربيع. اتجه فاتاي إلى الباب، وأغلقه بالمفتاح. كان فاتاي قد طلب من تينو القيام بشراء الأشياء المطلوبة ثم تنتظره على جانب الطريق، إلى أن يجيء إليها بعد أن يقوم بإعادة تموين السيارة بالوقود. كان باتاي يتعرق ويتنفس بسرعة. وعندما استدار ليواجه حرم سيده، التي كانت جالسة في لوعة على الكرسي، كانت يداه تسارعان بالفعل إلى فك أزرار بنطاله القصير.

* * *

وصل فرايداى محامى الضمانات المالية إلى محاكم القضاء الجزئى فى الحى. دخل دون أن يدرى المنطقة المحيطة بالمحاكم، حيث الرطوبة، والجدران التى تنمو عليها الطحالب، والبوابة التى لا تعمل، وصناديق النفايات الطافحة، والنفايات التى تتخلل الأرض ذات النباتات غير المقصوصة. خطر بباله أنه ضل طريقه إلى المحاكم، لكن لا. هذه هى المحاكم بالفعل. سار فى الطريق غير الممهد إلى أن وصل إلى المكتب. هذا هو الماء الوسخ متجمعًا على شكل برك. راح يتفحص الوسادات المهجورة والكراسى الخشبية المبعثرة فى المجمع، وهو يهز رأسه متعجبًا. خطر بباله، لابد أن أسرة من الأسر جرى طردها من هنا بالقوة بغية الحصول على مكان للمحاكم. أم أن هذه معروضات؟ بُسط متعفنة، وهذه مِخاد مبعثره فى الممرات التى بين غرف المحكمة، وهذا يوحى أن تلك كانت غرفة المعيشة لعائلة من العائلات، وغرفة طعام، وغرفة نوم رئيسية. تساءل متعجبًا، من الذى يستطيع إقامة العدالة هنا؟ المكان مهلهل. واقع الأمر أن كلمة مهلهل كلمة متواضعة. أطال فرايداى النظر إلى الجدران القذرة، والأسلاك الكهربية المكشوفة، وأماكن المفاتيح الكهربية الخالية من أى شيء، وإلى المراوح التى تئن وتزأر، وكان يعرف أن النظام يلاقى بعض المتاعب. هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟ هل هذا هو الأمر الأخير الذى يحدو الرجل العادي؟ أهذا هو الحال الذى وصلت إليه غرف المحاكم؟

كان أحد الأبواب مفتوحًا. كان هناك خيط من الناس الداخليين والخارجيين. كانت هناك لافتة منخفضة مكتوب عليها **(المسجل)**. سأل فرايداى عن كبير الموظفين القضائيين، الذى يسمع دعواه الابتدائية.

قال له المسجِّل الذى كان يرتدى لباسًا معتادًا: "سوف يأتى، انتظر فى الخارج، سيأتى حالاً".

كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف. وقضيته اليوم تحمل الرقم واحد، وتحدد لنظرها الساعة التاسعة.

قال فرايداى، من باب استبداء الحوار: "قضيتى هى أول القضايا التى سيجرى نظرها اليوم". لم يكن هناك مكان للجلوس سوى فى الخارج، حيث يوجد مقعد بجانب باعة الفول السودانى والبرتقال، تحت شجرة المانجو. كان هناك ثلاثة زبائن يقرأون الصحف بالفعل.

"انتبه، من يجيء أولاً هو الذى يحصل على الخدمة أولاً. القضية الأولى أمام الموظف القضائى هى القضية التى سينظرها".

"أهذا صحيح؟".

"إذن، عليك بمراجعة كاتب الجلسة. الأمر لا يكلف كثيرًا. مجرد شيء رمزى".

كان فرايداى على وشك الخروج: "أين الكاتب؟" القضايا تستغرق أعوامًا كثيرة للبت فيها. وهو مستعد لتقدير كل ما يمكن أن يوفر له الوقت ويختصره.

"ارضه عند مجيء الموظف القضائى وإلا ستضحى بأشياء أخرى".

تساءل فرايداى "ما نوع السيارة التى يركبها الموظف القضائي؟ كان فرايداى يود أن يكون مستعدًا، "ما نوع السيارة التى سيصل بها ذلك الموظف القضائي؟".

راح المسجل هو وكل من كانوا معه فى المكتب الصغير يتبادلون نظرات لها مغزاها. وهنا أطلق أحدهم ضحكة فيها شيء من السخرية والازدراء.

"تسأل عن السيارة؟(*) هل تعنى المركبة؟". خطر على بال فرايداى ما الفرق بين هذه وتلك؟ هذه هى لغة أو لهجة أهل القانون.

"نعم، اسأل عن المركبة، حتى يمكن أن أكون فى البداية، كما تعلم".

(*) أوردت المؤلفة هذا السؤال بلغة الأجبو Car ke? . (المترجم)

"سيصل فى دراجة نارية".

"هل تقصد أنه سيجيء بالمواصلات؟".

رد عليه الرجل "نعم أقصد ذلك، ولمعلوميتك أنه لم يبدأ بعد فى استعمال مركبة". وصمت الموظف ثم أردف قائلاً: "إلى الآن". ضحكت الزبائن استهزاء بصوت عال.

تساءل فرايداى "إلى هذا الحد؟" أومأ الموظف برأسه علامة الموافقة. "لقد تحولت الأمور هنا من سيء إلى أسوأ. المكان هنا ليس فيه أى شيء من التسهيلات.

لما كان فرايداى محاميًا، فقد كان يعرف أن الأصدقاء المتعلمين يتعين عليهم توفير الخردوات مع "شيء صغير" لكاتب المحكمة حتى يقوم بتسجيل قضاياهم. وبغير ذلك، لن يجرى تسجيل حضور المتقاضى.

خرج فرايداى وجلس تحت شجرة المانجو مع بائع البرتقال. كان هناك عدد كبير أيضًا من متسلمى الرّهان فى المنظومة القانونية. أدرك فرايداى أيضًا أن المحكمة العالية كانت فى المبنى نفسه. كانت المحكمة فى كابينة أخرى من الكبائن. وخطر بباله أن قاضى القضاة ربما يجيء هو الآخر على دراجة.

بعد حوالى نصف ساعة، توقفت أمام البوابات دراجة نارية صينية الصنع يصدر عنها دخان وضوضاء، ونزل منها رجل بدين. كان يحمل فى يده حقيبة سوداء على قدر الحال، وسارع اثنان من الكتبة لحمل تلك الحقيبة. وتلى ذلك تبادل حار للكلمات وربما كان ذلك حول الأجرة، بين الراكب وصاحب الدراجة النارية. جرى تناول أوراق البنكنوت القذرة. ثم راغ راكب الدراجة النارية بعد ذلك وسط سحابة أخرى من الدخان الكثيف. ويدخل فرايداى المحكمة.

أكد المسجل "نعم، لقد وصل بالفعل. لكن يتعين عليك إعطاؤه نصف ساعة حتى يستقر. قضيتك ستنتظر فى غرفة المحكمة "الدائرة" رقم (٨) . لا تنس "رؤية" الكاتب حتى يسهل لك أمورك".

راح المحامى يبحث عن الدائرة رقم (٨). كان مقر الدائرة فى ركن من أركان الكابينة الأولى، الموجودة فى نهاية ممر مزدحم خال من الهواء. خطر ببال فرايداى، لابد أن هذه كانت غرفة الأطفال. أو قد تكون غرفة الشغالة. راح ينظر إلى السجادة برتقالية اللون، الخالية من الخيوط والملطخة بالبقع وبها بعض الثقوب، وأطال النظر إلى المقعد ذو الثلاثة أرجل، وحوالى ستة كراسى من البلاستيك المبعثرة فى الحجرة. تساءل فرايداى، هل هذه هى غرفة المحكمة التى يجلس فيها القضاة للمداولة؟

راقب فرايداى أحد الكتبة وهو يقود قاضيه إلى حيث يوجد المدعون والمدافعون فى غرفة من الغرف. وهنا جرى رفع لافتة إلى الأعلى بعد أن كانت موضوعة نحو الأسفل: "**سكوت! المحكمة منعقدة**". الأرجح أن هذا الانعقاد قد يستمر ساعة أو ما يقرب من ذلك، على حد تقدير فرايداى. كان الرجل بحاجة إلى شيء من الهواء الطلق. استدار كيما يرجع إلى الوراء لكنه اصطدم بالموظف القضائى (القاضى الجزئى)، الذى سينظر قضيته.

قال: "عفوًا، يا سيدى". كان القاضى الجزئى يمسك ملفًا فى يده اليمنى. نظر داخل الغرفة التى شغلتها زميلته.

قال موجهًا كلامه ربما إلى كاتب من الكتبه: "كل الدوائر مشغولة". كان الكاتب يمشى خلف القاضى الجزئى المتين الذى كان يحجب رؤيته.

قال الكاتب موافقًا: "نعم، يا سيدى".

"وهو كذلك، إذن تؤجل القضايا التى سأنظرها اليوم إلى أجل غير مسمى".

"نعم، يا سيدى".

"محكمة!".

استدار الاثنان، خرج الرجل المتعلم، فى حين راح غير المتعلم يجرى وراءه.

كان فرايداى واقفًا هناك لا يصدق ذلك الذى تراه عيناه وتسمعه أذناه. تعجب فرايداى، عما يمكن أن يحدث بعد ذلك. **إلى أجل غير مسمى.** هز رأسه انكسارًا وصفق بيديه. هذا لا يصدق. إذن ليس هناك ما يدعو إلى الغضب من أن سجوننا مليئة بالنزلاء الذين ينتظرون المحاكمة. **إلى أجل غير مسمى.** هذا يعنى هذا التعبير اللاتينى "إلى مالا نهاية" أم أن له مضمون آخر فى هذه الأرض الغريبة؟

تعقب خطواته ـــ لولا روث لألغى الحزورة كلها وتنازل عن القضية. مع أول لقاء له مع الآنسة جوميز Gomez، قطع الرجل على نفسه وعدًا، بأنه سوف يرفع قضية أمها من جديد، وسوف يطالب بتعويض، واستئناف، سيفعل شيئًا فى هذه القضية.

قال بصوت عال وهو فى طريقه إلى مكتب المسجل ليعيد رفع القضية "موديانا جوميز سيطول مقامك فى سجن فريمان فورت بعض الشيء".

الفصل الثالث والثلاثون

ليلة مطيرة

أعلنت أنتلى ذات مساء، بعد تناول وجبة الفوفو الصلب مع شيء من الحساء الزيتي: "يا رحمة، أنت وبنتا معكما الكلمة الآن، تقولان إنكما لم تشاركا فى المظاهرات العرقية الدينية. إذًا كان هذا الكلام صحيحًا، فما الذى جعلكما ترتكبان الجرائم التى جرى اتهامكما بها؟ قولا لنا. خبرونا بما جرى فى حياتكما، الكلمة معكما الآن.

كانت المرأتان مستلقيتين على الأرض، تتكلمان بصوت خفيض. قالتا إن الأرض بردتهما. كانتا تعرفان أنهما فى يوم من الأيام سيجيء الدور عليهما لتحكيا ماضيهما. كانتا تَخْشيان هذه المسألة، لا من منطلق أنهما كانتا خائفتين، ولكن لأنهما تصالحتا مع هذا الماضى، وسامحتا بعضهما بعضًا، وأنهما كانتا تريدان المضى قدمًا فى حياتهما السعيدة مظهريًا، وتعيشانها سويًا، وهما تنتظران عشماوى (الجلاد). لقد أعادتا صداقتهما القديمة، وذهبتا إلى ما هو أبعد من ذلك.

الآن، وبعد أن أصبح الماضى فى خبر كان، جرى استدعاؤهما لتضعا هذا الماضى مجردًا أمام الجميع لكى يناقشنه ويَشْرحنه، وربما ينكأن الجراح القديمة؛ وهنا ربتت رحمة على ركبة بنتا: هذا يعنى أمرين: أنها شجعتها على ذلك، وثانيًا أنها أخبرتها أن تكون هى أول من يحكى.

تنحنحت بنتا. كان صوتها من النوع الرنان. فى بعض الأحيان، عندما كانت رحمة داخلة فى حوار مع بنتا، كان حديثهما شبيهًا بشقشقة الطيور. كان صوتاهما رنَّانين، وضحكاتهما مدوية.

بدأت بنتا حديثها: "كنت أنا ورحمة أفضل صديقتين". ولمست رفيقتها فى وركها. كنا فى مدرسة ابتدائية واحدة، كنا نذهب إلى المقرأة(*) makaranta سويًا. كنا لا نفارق بعضنا بعضًا. تحتم علينا الالتحاق بمدرسة ثانوية واحدة. فى الكلية، كنا متجاورين. كنا فى المرحلة (JSS2) عندما وصلتنى رسالة تفيد أن والدى مريض جدًا. لم تكن لدينا النقود المطلوبة للمستشفى. وعليه أخرجتنى أمى من المدرسة. ورتبت الأسرة أمورها كيما أتزوج أبوكى Aboki، الذى قام بتوفير النقود المطلوبة لعلاج والدى. تسربت من المدرسة. كان عمرى فى ذلك الوقت ثلاثة عشر عامًا وأنا الزوجة الثانية له. كانت زوجته الأولى التى نسميها نحن الحاجة، بلا أبناء. لم أكن سعيدة فى زواجى. بكيت كثيرًا على امتداد أشهر طويلة. ولولا أمى التى كانت تجيء كل يوم لزيارتى لكنت قد هربت أو أزهقت حياتى. شجعتنى أمى على البقاء فى منزل الزوجية. فى العطلات كانت رحمة تأتى إلى وتزورنى وتقول لى كل ما حدث فى المدرسة. اعتادت أن تحضر معها كتب المدرسة وتعلمنى كل ما تعلمته. وفى غضون عامين، أصبح لدى طفلين، ولدين. كنت أود العودة إلى المدرسة لكن أبوكى رفض الانصياع إلى هذا المطلب. كان من عادته أن يقول لي: "لقد لبيت لك ما تريدين. ما الذى تريدينه بعد ذلك؟ قلت له إنى افتقدت مدرستى، وصديقاتى وحياتى فى المدرسة. لكنه لم يفهم المشاعر قط. كان أميًا.

ذات يوم جاءتنى رحمة وهى تبكى وتقول إن والديها زوجاها إلى مُعَلم للتخلص منها، وإنها أيضًا يجب أن تتوقف عن الذهاب إلى المدرسة. كانت رحمة فى المرحلة (SSS2). بكينا سويًا. واسيتها وطلبت منها التشجع واستجماع قواها. كان حفل الزواج مصادفًا ليوم السبت. تخيلى مفاجأتنا، عندما اقتيدت رحمة إلى منزلى لتكون الزوجة رقم ٣. كان أبوكِ قد رآها وهى تزورنى ووقع فى غرامها. وعندما اشتكيت بأنى مفتقدة صديقات المدرسة، اهتدى الرجل إلى فكرة الزواج من أعز صديقاتى ويجمع بيننا".

قالت رحمة، بلغة تشوبها اللهفة والحزن: "تغيرت الأمور فيما بيننا. توترت صداقتنا قبل أن تتحول إلى عداء مستحكم".

(*) أوردت المؤلفة هذه الكلمة بلغة الهوسا، وهى تعنى مدرسة أو مقرأة (المترجم)

عبَّرت بنتا عن رأيها، غير موافقة على القصة التى روتها رحمة "لقد استعملت رحمة السحر مع أبوكِ. لقد سرقت أيامى التى من المفترض أن تكون لى فى زوجى. فى الوقت الذى يكون فيه الدور دورى كنت أجهز نفسى وأروح أنتظـــر وأنتظر؛ بلا طائل. لم يكن أبوكى يحترم الليلة. كان يتظاهر دومًا بالتعب أو المرض، أو بأن الحالة المالية والأعمالية ليست على ما يرام. وعندما يدخل الليل يزحف داخلاً غرفة رحمة. وحتى عندما يكون الدور على الحاجة، يذهب أيضًا إلى رحمة. كانت الحاجة كبيرة السن. كانت رحمة تأخذ أدوارنا كلها، إلى أن أصبحت حاملاً. تشاجرنا مرارًا حول هذا الأمر". وهنا لمست ضرتها فى ركبتها.

"بدأت صداقتنا البالغة عشر سنوات فى ذلك الوقت فى الضعف واصطبغت بالمرارة. كانت هناك مباريات فى الصياح والتصايح كل يوم، وشتائم وتعليقات جانبية. كان أبوكِ يقف دومًا فى جانب رحمة. أخيرًا ولدت رحمة طفلة أسمتها زينب. راح زوجنا يمطرها بالهدايا، والملابس، والعطور، والمجوهرات. ومن باب عـــزائى لنفسى، قـــلت لهـــا إنها لا تستطيع إنجـــاب الذكور، وقلت لها أيضًا إنى أم الصبيين الأولين، وإن مكانتى فى البيت آمنة فى حين أن مكانتها مهتزة وغير مؤكدة. أحزنها هذا الكلام، وبخاصة أنها بعد هذا الحمل، يتعذر عليها الحمل بعد ذلك".

تساءلت أنتلى "هل صحيح أنك لا تستطيعين الحمل مرة أخرى يا رحمة؟".

"هذا صحيح، بعد أن ولدت زينب، أصبت بحالة من حالات الخُرَّاج المثانى ــ المهبلى، على حد قول الطبيب. وبذلك أصبحت غير قادرة على التحكم فى التبول أو التبرز. كنت صغيرة جدًا على الحمل. أدت عملية الولادة إلى إتلاف عضلات المثانة والعضلة العاصرة. عند هذه المرحلة كان ولداها حمزة وعثمان قد التحقا بالمدرسة. كان عثمان وحمزة فى مرحلة الحضانة أحدهما فى الصف الأول والآخر فى الصف الثانى، على ما أعتقد. كان من عادة بنتا أن تأخذ هذين الولدين إلى الحضانة فى الصباح وتعود بهما عند الظهر. فى أحد الأيام طلبت من الحاجة

أن تدير بالها على زينب، كان ذلك قبل انصراف الحضانة بوقت قصير، وقلت للمدرسة إن بنتا كانت متوعكة وطلبت منى إحضار ولديها. عاد معى الطفلان. عدنا... جميعًا إلى المنزل. كان هناك نهر مسدود بالقرب من مزرعتنا وكان من عادته أن يفيض على ضفتيه فى فصل الأمطار. كان النهر مهجورًا فى ذلك الوقت. أخذتهما إلى ذلك النهر".

لزمت رحمة الصمت عند هذه النقطة. راحت الباقيات يطلن النظر إليها. كان رأس رحمة منحنيًا وكانت تهزُّه حزنًا.

قالت سوزانا وقد احمر وجهها خجلاً: "واصلى كلامك".

قالت أنتلي: "لا داعى لذلك".

ردت بقية الزنزانة: "هناك داعٍ". نظرت المتحدثة الرسمية إلى الأمر وكأنها تتعامل مع تلاميذها الشاردين.

"رضخت المتحدثة الرسمية، وقالت: وهو كذلك، واصلى كلامك".

"أراد الطفلان أن يتلاعبا بالماء. خضنا فى الماء. أنا.... ضغطت رأسيهما فى الماء. كان الأمر سهلاً مع عثمان. لأن أحد أطرافه كان مشوهًا بسبب شلل الأطفال. كانت الحكومة، يوم أن ولد عثمان، قد شجعتنا على عدم تطعيم أطفالنا؛ قالت الحكومة إن الطعم يحتوى على بعض الكيماويات الضارة. لم يكن عثمان قد طُعِّم ولم تكن عنده مناعة. حمل التيار جثمانيهما إلى بعيد، لن أنسى مطلقًا صراخ الخوف الذى صدر عنهما، ونضالهما المستميت، لن أنسى مطلقًا منظر جثمانيهما، وتيار الماء يكتسحهما إلى بعيد. كان من عادتهما أن يخاطبانى بكلمة أمى".

سألتها إحدى النزيلات: "كيف اكتشف أمرك؟". كانت أنتلى متضايقة تمامًا.

ردت أنتلى على المتسائلة: "لقد أخذتهما من المدرسة، ألم تقل ذلك؟".

بدأت بنتا تصيح وتبكى من جديد عندما تذكرت ولديها الحبيبين.

"اكتشفوا الأمر. اكتشفوا الأمر لأن المدرسة قالت: إنى جئت إلى المدرسة وأخذت الطفلين. وفى اليومِ الذى جاءت الشرطة لأخذ أقوالى والقبض على، أخذت بنتا ابنتى زينب وألقت بها فى البئر الموجودة خلف المنزل، وعليه ألقوا القبض عليها هى الأخرى".

قالت بنتا فى صوت متهدج: "لقد انفطر قلبى وتحطم وأصبحت عاجزة عن الكلام" وراحت الدموع تنهمر على خديها. وبدأت تعانى صعوبة الكلام "ولداى حبيباى، ابناى البريئان. ماذا فعلا؟ لقد كانا عزائى فى هذه الزيجة. لقد كانا كل ما لى فى هذه الدنيا. عندما نظرت إليهما تشجعت على المضى قدمًا على الرغم من الحزن والجحيم اللذين خيما على هذا المنزل. لكنها قتلتهما. رحمة قتلتهما. أنا لن أسامحها مطلقًا، لن أصفو لها مطلقًا. الطريق الوحيد أمامى هى أن تتجرع الكأس نفسها، أن تكابد الألم بنفسها". وتبدى الشرود الذهنى فى نظرات عينيها.

"كانت زينب تلعب بلعبها فى فناءِ المنزل. حملتها. خطر ببالها أنى أود حملها ولذلك لفت رجليها الصغيرتين حولى مثلما اعتادت أن تفعل. وبدلاً من ذلك، قمت أنا بفك رجليها وألقيت بها فى البئر. لو كان بوسعى، لكنت فعلت الشيء نفسه فى أبيكِ. كان أبوكِ سببًا فى هذه المتاعب كلها، تزوجنا ونحن صغيرات جدًا، حُرِمنا من التعليم، حرمنا من المستقبل، أوقف نمونا، سمم صداقتنا".

أبدت أنتلى ملاحظة: "إذن تحول أخلص الأصدقاء إلى أعداء".

قالت إنديورانس، متهامسة، ومتذكرة أن ذلك كله، حدث وبلا أدنى شك، لأن واحدة منهن خطف رجلها: "كل ذلك بسبب الجنس".

قالت أنتلى مصححة كلامها: "لا، ليس الجنس، وإنما الزواج".

"لماذا يتزوج من صديقتين؟ لماذا وافقت على ذلك يا رحمة؟".

طرحت إحدى النزيلات سؤالاً مرًا "لماذا يصادق الرجال نساء كثيرات كما لو كن أشياء يجرى جمعها، مثل الأحذية والملابس؟".

"سوداوات، صفراوات، متينات، نحيفات".

"نحن مقتنيات لهم، يجرى الحصول علينا والاستغناء عنا حسبما يشاءون هم".

قالت بيا "فى المنطقة التى أنا منها، يزور رجل صديقه. ويقدم له الصديق زوجته فى تلك الليلة. كما لو كانت ثمرة من ثمار الكولا".

"بعد أن تلد المرأة، يفقد الرجال الرغبة فيها، ويبحثون عن امرأة شابة أصغر سناً. وهذا هو السبب الوحيد. لا شيء غير ذلك". جاء هذا التعليق من مُديوجا Mudiaga.

قالت باتسي: "إنه العناد".

سألت سوزانا الضرتين: "لماذا الزواج فى هذه السن الصغيرة؟ تتزوجين وأنت فى الثالثة عشرة من عمرك، يا بنتا. لماذا الاندفاع؟".

تساءلت بلسنج فى تواضع: "لماذا وافقت على هذا الزواج؟".

قالت أولورى، التى هبت لمساعدة الاثنتين: "لا خيار لهما. الآباء، فى العادة، هم الذين يرتبون الارتباطات القهرية التى من هذا القبيل".

ولولت المتحدثة الرسمية قائلة "يحدث هذا فى أيامنا هذه وفى عصرنا هذا؟ أليس عندكن تلفاز أو قمر صناعي؟ حتى ترين الفرص الكبيرة المتاحة فى الخارج؟ الحمقاء هى التى توقف تعليمها فى منتصف الطريق فى هذه الأيام. الحصول على درجة الدكتوراه لا يكفى فى هذه الأيام".

واصلت سوزانا كلامها "كنت تبلين بلاء حسناً فى المدرسة. لماذا لم ينتظر إلى أن تنهى تعليمك؟".

ردت أولورى "هذا من صنع الآباء، تذكرى أُورا Auwra. إنهم يتفاوضون على مهر كبير ولا يعطون البنت من خيار سوى الرضوخ لما يشاءون، وهو أن تذهب إلى كوخ زوجها".

لخصت كاجارا الأمر: "أنت كنتن صغيرات السن. لقد مررتن بعواطف يصعب على الكبار المرور بها أو التعامل معها؛ غير الزوجية وتنافسها. حتى الكبيرات فى السن يصعب عليهن التعامل مع هذه الغيرة والمنافسة".

قالت أنتلى لرفاقها فى الزنزانة، وهى تتقدم نحو المقدمة: "هذا سبب من الأسباب التى تؤخر تطور إفريقيا. نصف ذهنها ومواهبها خارج نطاق السيطرة. قدرات أهليها من النساء مبددة، مضحى بها على مذبح شهوات الرجال الجنسية".

تحول انتباه الزنزانة كلها إلى المتحدثة الرسمية، التى اغتنمت الفرصة لإلقاء خطبة تعليمية. أحست الضرتان أنهما عادتا إلى الظلال مرة أخرى.

راحت تعدد على أصابع يدها المفرودة: "ألم تسمعى عن مارى كوري؟ ألم تسمعن عن فيرجينيا وُلف؟ ألم تسمعن عن جولدا مائير؟ أو عن باندرانيكه؟ ألم تسمعن عن أليلى وليامز؟ حدثيهم عن هذه النساء يا بيا". ناشدت الأسماء المذكورة. "هن نساء مثلى ومثلكن، حققن اكتشافات، ووسعن آفاق المعرفة، فى حدود الممكن لهن. هؤلاء نساء أخذن بيد بقية العالم، وأوصلنه إلى آفاق معرفية جديدة". تحولت أنتلى بعد ذلك إلى الضرتين، وراحت توبخهما: "أهليكن بشر يفتقرون إلى التغيير".

نظرت كل من رحمة وبنتا إلى المحاورة. اتكأتا على بعضهما وجلستا وكوعى كل منهما مسنودين على الأرض.

"نعم، هذا هو ما يفعلونه فعلاً، يعرقلون التقدم البشرى عن طريق خنق النمو، عن طريق اقتياد البشر، مثل اقتياد الخراف إلى المجزر".

أعربت سوزانا عن رأيها "كان بوسعكن أن تكن طبيبات أو عالمات".

أوضحت رحمة": أود أن أكون ممرضة".

"أظن أنكم ترون ما يحدث!" صاحت أنتلى فى رفيقاتها فرحًا كما لو كانت تــود القــول: "ألــم أقل لكن؟" ثم راحت توجه حديثها إلى المرأة الأخرى "وأنت، يا بنتا؟ ماذا كان طموحك؟".

ردت عليها البنت الشابة بشغف "محامية". تذكرت للحظة آمالها التى ضاعت وتهللت عيناها فرحًا، وإن هى إلا لحظات، حتى خبى ذلك التهلل، عندما عادت إلى الواقع التى هى عليه.

قالت أنتلى مرة ثانية "أنت تحلمين. من محامية إلى قاضية جزئية، إلى قاضية، من يدري؟ كان بوسعك أن تكونى قاضية من قضاة هذا البلد. لم لا؟ كان بوسعك إصلاح منظومتنا القانونية المتعفنة بدلاً من أن تكونى ضحية لها". سألت أولورى الضرتين: "لماذا لا تهربان مثلما فعلت أُورا؟" ثم راحت تنقل نظراتها من الواحدة إلى الأخرى، لكن باتسى ردت على السؤال قبل أن ترد عليه الضُرتان.

"أعتقد أن الهرب نوع من المخاطرة".

تنحنحت بنتا. اتجهن كلهن نحوها بأنظارهن "فى المنطقة التى أنا منها، قامت واحدة من معارفنا، ومن شريحتنا السنية، بالهرب من زواج قسرى، من رجل كبير السن".

قالت رحمة، مؤيدة قصة رفيقتها: "تقصدين ياجانا".

"نعم، اسمها ياجانا. أعادها أهلها. ربطها الرجل كبير السن فى شجرة الفناء على سبيل العقاب. وعلى امتداد أيام ذبلت ياجانا وذوت. كانت تبول وتتبرز فى المكان نفسه. كانت هناك بقع من الدم وأشياء أخرى".

حاولت بلسنج أن تسأل "تقصدين أن ذلك كان الموعد الشهرى لنزول الدورة؟".

ردت عليها بنتا "لا، أقصد أنها كانت صغيرة على ذلك كله. كانت ملطخة بالدم بسبب العذاب الذى أنزله بها الرجل العجوز. قال لها بعد أن عفا عنها وفك ساقيها المتورمين: "هذا سيعلمك كيف تهربين".

أخذت رحمة الخيط من صديقتها: "هربت ياجانا مرة ثانية. قالت إنها يستحيل عليها العيش مع هذا العجوز، بعد أن حاولت كثيرًا. كان عمرها فى ذلك

الوقت اثنى عشر عامًا، على الرغم من أنها كانت طويلة وممشوقة القوام، في حين كان عمر الرجل سبعين عامًا تقريبًا. كان متجعد الوجه ويمشي متكئًا على عصا بحكم انحناء ظهره. كان يعلم آباءنا في المدرسة الدينية. كانت له ثلاث زوجات. كانت زوجته الأولى صديقة طيبة لجدتنا. وعندما هربت ياجانا في المرة الثانية، سَحَبَها والداها، وأعاداها إلى منزل الزوجية، في هذه المرة تقريبًا، قطع العجوز شقا بالبلطة في قدمها اليمنى. قال: إنه فعل ذلك حتى لا تقوى على الهرب مرة أخرى. نزفت المسكينة حتى الموت. أحسست بألمها، ولا زلت أحس ذلك. يا لها من ميتة بطيئة مؤلمة. لم يتدخل أحد أو يتوسط لدى العجوز شفاعة لتلك المسكينة. الكل كانوا يقفون إلى جانب ذلك الزوج الغاضب". صمتت ثم ضمت يديها إلى بعضها. "بث ذلك الخوف في نفوس العرائس صغيرات السن التعيسات، في منطقتنا وعلى بعد أميال أيضًا من منطقتنا".

هدأت الزنزانة نظرًا لأن كل نزيلة من النزيلات راحت تعمل فكرها فيما سمعت.

"أيقطع قدمها بالبلطة؟ هل الأمر بهذه البساطة؟".

قالت مودي: "هذا عنف منزلي. أليس ذلك هو السبب وراء وجودنا هنا؟ كان زوجي شريرًا، وكان بوسعه أن يجعل الأخرس ينطق".

أخيرًا سألت إحداهن: "وماذا عن الطلاق؟".

قالت بنتا "عادة ما يكون المهر كبيرًا على نحو يصعب معه رده مرة ثانية. كما أن آباءنا يحسون بالخجل والعار عندما تهرب ابنتهما من منزل الزوجية. واقع الأمر أنهما يشعرانك بأنه لن يكون مرغوبًا فيك إذا ما عدت إلى منزل والدك. إلى أين تذهب الواحدة منا؟ في سن الثالثة عشرة لا يكون لنا دخل حتى نعتمد على أنفسنا. وهنا يتعين علينا البقاء تعساء حيث نكون".

قالت رحمة وهي تتحسس رفيقتها "كلمة [تعساء] كلمة بسيطة. الواقع أننا [بؤساء] بباء مغلّظة".

تتدخل تاوا: "إلى هنا، أنت لم يتعين عليك قتل الأطفال الأبرياء. معركتك كانت مع الرجل، ولم تكن مع أبناء رفيقتك".

تساءلت باتسى موجهة كلامها إلى الجدران، وفاردة ذراعيها: "جيل عنيد، إلى متى نتحملكم؟ مملكتى ليس من ممالك هذه الدنيا".

أعربت نيرس عن رأيها "هذا الدور هو خطأ من المجتمع. أنه يقدم أولوية المسائل الذكورية على احتياجات الطفولة. الزوجة التى لا تنجب ذكورًا يصبح وجودها مهددًا فى منزل الزوجية، وبخاصة فى المنازل التى تتعدد فيها الزوجات. جيل عنيد فى واقع الأمر".

كان ولد بيا راقدًا فى هدوء بجوارها. كانت تنصت إلى الحوار، وتروح تراقب كل صوت بعينيها. كانت لا تزال تحس بالضعف. وفجأة ولأول مرة أحست أنها تأثرت بكلام رفيقاتها إلى حد أنها كانت تود أن تقول كلمة أو كلمتين، لكنها امتنعت عن الكلام، الآن، وعلى الرغم من أن الممرضة قالت إن ذلك هو خطأ المجتمع، فإنها كانت مدفوعة إلى ذلك. ساءلت الممرضة نفسها عما تعنيه بهذا الكلام. وعندما وجدت نفسها عاجزة عن تحمل ذلك قامت برفع جسمها مستعينة فى ذلك بكوعيها.

تحولت فى ضعف نحو ستاف وقالت: "المجتمع، المجتمع، المجتمع. نحن المجتمع. نحن الذين نجعل المجتمع بالصورة التى هو عليها".

قالت نيرس وهى تتجه صوب بيا: "لا، ياما" ثم جلست إلى جوار بيا."الرجال هم الذين يجعلون المجتمع بالصورة التى هو عليها. نحن معشر النساء نمضى فى هذا المجتمع بطريقة سلبية، مثل المسافرين فى مركبة تحملهم إلى أى مكان. خذى قضيتى على سبيل المثال". وقفت وراحت تتحدث إلى الزنزانة كلها: "ما الذى فعلته أنا؟ لماذا أنا محبوسة هنا؟ الرجل جعل ابنته تحمل منه، وأحضرها إلى لإجهاضها. لو حافظ على شيئه داخل بنطاله حيث ينبغى أن يكون، لما جئت أنا إلى هنا".

قالت أنتلي: "قلت لكن أننا هنا بسبب المال والرجال. راجعوا الأمر. الرجال هم الذين وضعونا هنا بصورة أو أخرى نتيجة عمل من أعمال الحذف أو الإضافة".

قالت باتسي: "أيتها المتحدثة الرسمية، لا تنظرى إلى الأمر من هذا المنظور. فى الكتاب المقدس الله هو خالق الرجل والمرأة. الرجل والمرأة لكى يكملا بعضهما بعضًا. يجب أن لا يغيب عنك أن الله بعد أن خلق العالم كله، خلق الإنسان بعد ذلك، كان يعلم أن الرجل وحده، ووحيد، على الرغم من الأشياء المخلوقة كلها. وعليه خلق رفيقة تساعده. رفيقة تساعده". كررت هذه العبارة للتأكيد عليها.

صرخت أنتلى منفعلة: "لا تثيرى هذا الأمر! هل قلت رفيقة تساعده؟" طرحت هذا السؤال وهى تصيخ إحدى أذنيها كى تسمع جيدًا. "رفيقه تساعده. مساعدة للرجل؟ ما الذى لدينا حاليًا فى منازلنا؟ لقد استقال الرجل وأعفى نفسه من كل شيء. وضع العبء كله على المرأة. فى كثير من العائلات، لم تعد المرأة هى المساعدة وإنما هى العائل الوحيد. مساعدة بالفعل".

حذرتها بيا: "لا تخرجى عن الموضوع. كنا نتكلم عن المجتمع".

قالت نيرس فى هدوء: "سيَّان. الرجل، المرأة، هذا هو المجتمع".

حاولت أنتلى توضيح المسألة: "الله أعطى المرأة دورًا متعدد الجوانب. هذه هى المشكلة". كان عدد كبير من النزيلات يتكلمن فى آن واحد. بوسعك القول فى سهولة ويسر إن هذه المسألة لمست السواد الأعظم منهن "لقد خلقها مساعدة له لكن انظرى إلى العبء الذى وضعه على كاهلها".

"ما تعنين بذلك؟".

"هى الزوجة. هى الأم. انظرى إلينا هنا فى الأسر. نحن لا يزال مطلوبًا منا تغذية حيوات وتنشئة أطفال للإنسانية، وللمجتمع. انظرى إلى هذا التوأم، انظرى

إلى تاو، وبيا، وأمو. كم عدد الرجال الذين يربون أطفالاً فى قسم الرجال فى الزنازين داخل السجن؟".

"هذه إرادة الله ﷻ وأنها مع........"

تفلت بيا بعنف "اسكتى، ايتها الواعظة. هذه ليست معجزة فى نظرنا".

أبدت إحداهن ملاحظة "الجانب المحزن أن هؤلاء الأولاد سيكبرون، بعد أن تقوم النساء بتغذيتهم وتربيتهم، بقمع أولئك النساء اللاتى غذوهم وربوهم".

تدخلت أفولينو "ذلك الشيء هو السبب. ذلك الشيء هو سبب معاناتنا. الولد الصغير فى هذا البلد له رأى أكبر من المرأه الكبيرة فى السن. والسبب فى ذلك هو قلم صغير من الرصاص".

صاحت إحداهن بصوت عال "صدقت فيما قلْتِ". بدأ عدد كبير من النزيلات يتحدثن منفعلات، البعض منهن كن يتكلمن إلى من يجلسن بجوارهن، وبعض آخر كن يتكلمن مع أخريات بعيدات عنهن. كانت كل من تقع عيناها منهن على امرأة أخرى تروح تتحدث معها.

"هل تعلمين أنه فى المكان الذى أنا منه، يموت الرجل ويترك كل ثروته لولد قد لا يبلغ من العمر سوى أشهر قليلة، فى حين لا تحصل أرملته التى فى منتصف العمر، على شيء من هذه الثروة؟ هل تعلمين أن الرجل يتوفى ويترك زوجاته كلهن لولده، سواء أرادت النساء أم لم ترد؟ وهنا مدت إنديورنس عنقها مثل عنق الديك الرومى، ومدتها فى ذلك الاتجاه، وهذا الاتجاه، وراحت تتكلم وذراعاها ممدودين خلفها.

تساءلت سوزانا من باب الاهتمام "لماذا كل ذلك؟".

ردت أنديورانس بطريقة مثيرة. "بسبب المرود. أحضرى رجلاً وأحضرى امرأة وضعيهما إلى جانب بعضهما. ثم قولى لى الفرق بينهما. خبرينى عن سبب

أن الرجل له الحقوق كلها والمرأة لا حق لها". وتصمت ثم تقوم بالرد على سؤالها. "إنه المرود". وتضع يدها على عانتها. وفى خطوتين طويلتين تتجه إلى التوأم النائم على واحد من الأسرة. كان التوأم نائمًا لكن كانت هناك قطعة من القماش تغطى منتصف التوأم. وبحركة سريعة جذبت انديورانس تلك القطعة بعنف. وأصبح الطفل عاريًا يراه الجميع. فكت انديورانس تنورتها وألقت بها على الأرض، ثم وقفت عارية إلى جانب الطفل. وراحت تشير إلى الولد وبعد ذلك إلى نفسها.

"خبرونى ما الفرق بيننا نحن الاثنين. الرأس، له رأس، ولى أنا رأس. صدر، له صدر، ولى أيضًا أنا صدر. أرجل، أذرع، بطن. الفارق الوحيد، الذى هو السبب الوحيد فى التفرقة المجتمعية بيننا نحن الاثنين، والذى يزكيه ويقمعنى هو هذا!" ثم تذهب بعد ذلك، ونروح تمسك بذلك الشيء غير المختن.

عندما رأت تاو صبيًا ولدها يستخدم بيانًا عمليًا، سارعت إليه وأخذته وهو نائم. قالت مداعبة النزيلات: "اتركن طفلى لحاله، يا أيها البشر!" جفل الطفل من نومه، واستيقظ، وعقد فمه استعدادًا للبكاء. وضعته تاوا على ظهرها وراحت تهدهده للنوم. أما أخوه الذى كان يلعب فى صمت بالقرب من أمه فقد رفع ذراعيه حتى تحمله أمه أيضًا. حملته تاو ووضعته على كتفها. وأخذت تدور فى أنحاء الزنزانة، وهى تهز جسمها، مهدهدة الطفلين كى يناما.

أنهت سوزان الجلسة "فى إفريقيا نجد أن رياح المجتمع......".

".... تحوِّم وتطن".

قالت: "..... نزوات المجتمع لا تزال على هذه الشاكلة... فى البلد الذى أنا منه، فى الدول المتحضرة، النساء لهن صوت، لهن كلمة. بوسعهن التعاون لتغيير القوانين التى لا تناسبهن. هن فى ذاتهن قائدات. تذكرن مارجريت ثاتشر. هنا غابة من الغابات. نصف نسائكم هنا أميات، لا يزلن بحق قيد العبودية".

اندفعت ليد قائلة: "إذا كان بلدكم متحضرًا إلى هذا الحد، فلماذا تتركونه يجيء إلى الغابة ويتزوج من إنسان الغابات؟" قالت هذا الكلام وإصبعها السبابة

مشهور إلى الأمام. وهنا يتحد السبابة مع الإبهام ويفقآن الدُمل. كان السؤال بلاغيًا. لم يكن أحد يتوقع أن تجيب المرأة البيضاء على هذا السؤال، لكن تفكير المتحدثة الرسمية كان فى اتجاه آخر".

قالت على الملأ وهى تشير إلى مكحلتها: "الجنس. الشيء الوحيد الذى يقدره الرجل الأبيض فى الشخص الأسود، ليس ما بين أذنيه، وإنما ما بين وركيه".

قالت باتسي: "لكنهم ينظرون إلينا نظرة احتقار". وهنا خطر على بالها بعض من رعاة الأبرشيات من البيض، فى كنيستها. هؤلاء الرعاة كانوا من السفارة المحلية.

"طريقة جلوسهم على انفراد وأنوفهم فى السماء، تجعلنا نظن أن هناك غائطًا ملطّخًا على جباهنا".

"كانت سوزان تراقب زميلاتها النزيلات. نظرت فى اتجاه البوابات. كانت السجانة لا تزال فى مكانها، يغالبها النوم. وكانت أولورى مستمرة فى الكلام.

كـــانت أولـــورى تقول: "هم يتصرفون كما لو كنا كلنا مجرمين وأغبياء. ولا يمكن الوثوق بنا. أنا أكره البيض".

استشعرت أنتلى الخطر. ألقت نظرة خاطفة على المرأة الإيطالية ورأت الخوف مرتسمًا فى عينيها. هؤلاء النساء قادرات على أن يقطعنا إربًا إربًا. صحيح أن سوزان كانت معهم لكنها لم تنتمى إليهن قط. كانت عازفة عنهن، وتتصرف كما لو كانت شيئًا خاصًا. كانت آمالها لا تزال مركزة على مجيء مسئولها القنصلى ويبعدها عن هذا المكان، الذى لا تنتمى إليه. فى الملعب، كانت تتولى التحكيم فى لعبة كرة القدم، وكانت تتسود هذه اللعبة على العكس من الأخريات".

تدخلت الناطقة الرسمية. وصاحت فيها النزيلات الأخريات "ليس بهذه السرعة".

قالت يوفيوما: "هذا هو السبب الذى يجعلنا نهاجمهم فى دلتا نهر النيجر". لم تكن يوفيوما من صاحبات الصوت العالى لكن كان يبدو عليها الاضطراب. نظرت إلى سوزانا. واستعملت يديها فى التعبير عن غيظها.

"هم يسرقون بترولنا، ويتلفون أرضنا. ثم يلعنونا".

سألت ونمى مشعلة الحرائق عمدًا "هل يستطيع الغريب الوصول إلى بيتك دون أن يدله أخوك على الطريق؟ أليس فأر المنزل هو الذى يقول لفأر الغابة أن هناك سمكًا فى غرفة الكرار؟".

"الرجل الأبيض يتسيّد كل شيء فى بلادنا، لأن إخواننا وقادتنا باعونا له لقاء مليم (كوابو) واحد".

* * *

زاد حرص زوجة الشريف من فاتاى، وهو يحاول حشر نفسه فيما بينها وبين الكنبة. نهضت واقفة ومنذهلة.

نادت بشكل لا يصدق "فاتاى! ما الذى تظن أنك تفعله؟ أنت أيها المجنون؟" وراحت تضربه على سائر أجزاء جسمه بمنديل الرأس الذى انفك من تلقاء نفسه. وراح المسكين يزحف واقفًا. لملم بنطاله حوله وهرب إلى الفناء. راحت تسبه بلغتها وتلعنه.(*)

حبست زوجه الشريف نفسها فى الغرفة، خوفًا من الخادم. بكت بكاءً مرًا. تجرأً على عملها! أنت السبب يا شريف فى هذه اللعنة، وراحت تنتحب فى داخلها. انظر هذا الذى سببته أيها الزوج عديم النفع. تمددت على الكنبة، وانتباهها منقسم بين قصة الجريدة ووقاحة فاتاى. كانت تفكر فيما يمكن أن تفعله، عندما سمعته يدق على النافذة.

(*) أوردت المؤلفة هذا السباب بلغة الهوســا، وكلهــا شــتائم ولعــن : Danwofli. Barawo! Nadevil. Novex. Na Divel Work. Abeg Noves

تساءلت "ماذا تريد؟".

"عنوان المرأة يا سيدتى". وراح يدس قطعة من الورق خلال النافذة".

قالت: "ألقى بها على الأرض". طارت الورقة على السجادة.

أردف قائلاً: "آسف يا سيدتى. هذا من عمل الشيطان".

تجاهلته وذهبت وتناولت الورقة. المشرفة العامة على السجون، (٢٠١) باى باس رود، ستذهب إلى هناك وتحذرها من الاقتراب من زوجها. لقد جاءت لتجنى ذلك الذى لم تزرعه. أين كانت هى يوم أن كنا نعانى، يوم أن كنا نذهب إلى المزرعة، يوم أن كنا نجاهد من أجل توفير احتياجاتنا؟ أين كانت يوم أن كان يعقوب لا يملك سوى دراجته الهوائية؟ الآن وبعد أن تغيرت الأمور وتحسنت، وبعد أن حقق يعقوب ما يريد، جاءت هى لتتمتع بعرق الآخرين وكدهم. لن يحدث ذلك إلا على جثتى، أقسمت حرم يعقوب على ذلك. أحضرت مفاتيح سيارتها، وجففت وجهها وغطت شعرها، واندفعت متجهة إلى العنوان (٢٠١) باى باس رود. مارسى المشرفة العامة على السجون. ترى هل هى شرطية أم فى الجمارك، أم من العاملين فى الهجرة والجوازات؟ هل اختصار اسمها يعنى المشرفة العامة على السجون؟ أم الجوازات؟ أو الموانئ؟

عندما أوشكت أن تهم بركوب السيارة، دق التليفون للمرة الثانية. هذه هى الدقة التاسعة اليوم. كان الخبر منشورًا فى الصحف. كانت تعلم أن الخبر سوف يستغرق وقتًا قبل أن تعرف صديقاتها مضمون الخبر، ثم يطلبنها. البعض منهن يواسينها، والبعض الآخر يفرحن فى السر. حاورت نفسها حول مسألة الرد على المكالمة. استمر دق التليفون. ردت على التليفون ربما يكون المتحدث هو يعقوب. اقتربت من المفتاح وعندما أوشكت على الضغط عليه توقف الرنين. انتظرت قد يطلب الطالب مرة ثانية. وبدلاً من التليفون، دق جرس تليفونها المحمول".

"مرحبًا!".

"رُقية؟ أنا قادى. هل اطلعت على الصحف؟".

"نعم."

"هل أنت فى بيتك؟".

"نعم. كنت على وشك الخروج".

"انتظـريني. لا تـذهبى إلـى أى مكـان. سـأكـون مـعك خلال عشر أو عشرين دقيقة".

"قادى، أنا...".

أصرت صديقتها: "قلت لك انتظرينى. تلك المرأة تريد أن تحصد ذلك الذى لم تزرعه".

"هذا كلام مضبوط".

"أنا أعرف معلما يستطيع عمل ذلك. سآخذك إليه. وبعد الزيارة، لن ينظر الشريف مطلقًا إلى أية امرأة أخرى. بعون الله".

"وهو كذلك. إلى الملتقى".(*)

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة بلغة الهوسا Saikinzo. (المترجم)

الفصل الرابع والثلاثون

استمع الأب آنين إلى نزيلات جناح النساء فى سجن فريمان فورت وهن يروين قصتهن. هل كان يستمع فعلاً إلى الصدق؟ قال فيما بينه وبين نفسه، لابد أن هذه حدوته خيالية، مجرد شيء من صنعهن. كن يتحدثن عن فتاة فى السرير بها مس من شيطان يتخبطها. قلن إنها كانت تهذى وتعجّ فى الكلام. اعتاد الأب آنين على سماع الصراخ والصياح من النزيلات المأزومات، وهو فى طريقه إلى الزنزانة (وو١٠)، لكنه لم يحدث مطلقًا أن ألقى بالا لذلك الصياح والصراخ. النساء يعتقدن أن أومو أصيبت بلعنة فى شبابها، ولعل ذلك كان بسبب والدها. هل يستطيع القسيس الصلاة عليها، ويُخرج منها الروح الشريرة ويشفيها؟ لقد حاول راعى الأبرشيه ذلك لكنه لم يُصِبْ نجاحًا. قال إنها بحاجة إلى مقاتلى الصلاة كيما يساعدونها.

أحـــس الأب آنين بالقهر والخضـــوع. قال لهن فيما بينه وبين نفسه، أنتن لا تعرفن ذلك الذى تسألن عنه. أنتن لا تعرفن ذلك الذى ينطوى عليه. الشيطان ليس نادلا أو صبيا حتى تأمرنه بالانصراف فينصرف فى الحال. قال فاينلى Finley: "إن بيلزيبب Beelzebub كان مقاتلاً، ومستعدًا دومًا للقتال ــ يجب أن يعرف". اقشعر بدنه وهو يتذكر أحداث الأسبوع الفائت ــ الحمد لله أنه على وشك القيام بإجازة ــ أما الآن فهو بحاجة إلى الراحة.

أحس بأنه مختلف عن الأسبوع الماضى ــ منذ آخر جلسة حضرها مع طارد الأرواح الأيرلندى، لم يعد يحس أنه أصبح مثلما كان من قبل ــ لقد طُردت شياطينه وألقى بها فيما تمنى أن يكون تلك الحفرة الأسطورية سحيقة العمق. الآن، مطلوب منه تأدية الخدمة نفسها. هل بوسعه القيام بذلك؟ صحيح أنه ذهب إلى هناك، وصحيح أيضًا أنه شاهد الطقوس، لكنه لم يكن نفسه، لم يكن واعيًا لما حوله. ارتعدت فرائصه مرة أخرى عندما تذكر تلك الأحداث.

حدث ذلك منذ أسبوع على وجه التحديد. كان قد حدد موعدًا مع الأب فاينلى عند الساعة الواحدة. كان ذلك الموعد هو موعد تناول الغداء. كان الأب فاينلى قد وعد بإرسال عامل الاستقبال إلى السكرتارية الكاثوليكية فى مهمة تخص آنين. خطر ببال آنين أن ذلك كان عملاً حكيمًا. لم يكن هناك مفر من تمكينه من المرور عبر الصالة مع الأخت الموجودة هناك. هذه الأخت إيماكيولاتا كانت تنتمى إلى جمهور المصلين نفسه الذى تنتمى إليه دولورس. كانتا ترتديان الثياب نفسها. لم يقو على الاصطبار حتى يرى البشنيقة الزرقاء وهى يجرى إدخالها فى الرداء الأبيض، وذلك الثوب الأبيض الفضفاض ذو الجيوب الشبيهة بالأنابيب. وعليه اقترح أن يكون اللقاء فى سكنه بدلاً من الفندق. يزاد على ذلك أن السكن يكون أكثر هدوءًا فى ذلك الوقت، ومن غير المحتمل أن يزعجهما مجيء طالبى الغداء.

سمع الأب شارلز نباح الكلب بنجو فى الفناء ولذلك عرف أن طارد الأرواح قد وصل. انتظر فى غرفته العليا. تأكد من أن الأدوات المطلوبة كانت جاهزة ومستعدة. كانت هناك مرشة الماء المقدس مملوءة بالماء المقدس. وكان بجوارها صليب معقوف من الفضة، موضوع فوق خشب الصليب بنى اللون. نظر الرجل إلى ذلك الشكل الفضى وهو يعتصره الأسف والندم. تساءل معتذرًا عملك لا ينتهى مطلقًا، أليس كذلك؟ فى كل وقت وحين، تُدعى لتفعل ذلك الذى كنت تفعله قبل ألفى عام. ويروح الأب آنينى يلمس بطرشين(*) كهانته أرجوانى اللون المطوى أربع طيات، وأخذ يلاطف ويدلّل إناء الزيت المُعَمدً. هذان الشيئان هما الأدوات اللازمة لهذه الحرفة.

كان الباب مفتوحًا، ويصل فاينلى، كان يمسك فى يده حقيبته الجلدية. كان بطرشين الكهانة حول عنقه. سلام(**)، قالها من باب تحية أخيه القسيس. ذكر آنين عند الأرض، وبقى هو واقفًا. وأحدث إشارة الصليب وأحنى رأسه وهو يصلى صامتًا.

(*) البطرشين عند النصارى هو شال الكهانة. (المترجم)

(**) أوردت المؤلفة هذه الكلمة من اللغة العبرية. (المترجم)

مضى وقت طويل على قيامه آخر مرة بطرد الأرواح في بلدة زجارولو Zagarolo، على الحدود الخارجية للعاصمة الإيطالية. لقد نسى تمامًا كل ما قام به في ذلك الوقت. والآن مطلوب منه القيام بهذا العمل مرة ثانية، مطلوب منه استدعاء هذه القوة من أعماق كيانه واستخدامها مرة ثانية. تعين عليه المضى قدمًا بحذر. كان مملوءًا بالقلق والارتعاش. لن تكون هذه عملية سهلة. درج ناصحه الأمين، فى الفاتيكان، الدون جبرائيل آمورث، على القول إن الروح الشريرة قوية وعنيدة(*)، قال هذه العبارة بلغته الإيطالية. لن نستطيع القيام بذلك وحدنا. كان فاينلى قد استعد من قبل لهذه المهمة. حصّن نفسه روحيًا بتاسوعية(**) جماهير المصلين، وبالتوبة، والمزيد من الصلاة طلبًا لمساعدة الروح القدس. كان الرجل قد طلب الغوث بصفة خاصة من سرِّ القربان المقدس وطلب الوساطة من العذراء المباركة. **سأضع العداء بينك وبين المرأة، وبين ذريتك وذريتها؛ سيسحق رأسك وأنت ستضرب عقبيه.**

فى كل يوم من أيام الأسبوع الماضى، كان يتلو عشرين عقدًا على المسبحة. لقد صام طوال هذه المدة لكنه تناول اليوم وجبة كاملة هذا الصباح يتقوى بها على الاستعداد لهذه المعركة التى كان يعرف أنها تنتظره. خطر بباله، سوف أدمر هذا المعبد لأبنيه من جديد، ثم ألقى نظرة سريعة على آنين. راح يبحث عن مسبحة الصلاة فى جيوب غُفارته. عثر على المسبحة، وتناولها وعلقها حول عنقه. أيتها الأم مريم توسطى.

جف حلقه: "هل لديك شمعة أيها الآب؟" تنحنح وأحس بعد ذلك بالتشجيع.

كانت هناك شمعة واحدة على المقعد. أشار إليها آنين بفكه. كانت بجواره علبة كبريت. أشعل فاينلى الشمعة ووضعها، وهو يُعَرِّض شريط لهبها للنسيم القادم من الباب المفتوح. قال عند دخوله "سأترك الباب مفتوحًا، ليكون طريقًا للهروب". لم يتبين شارلز ما إذا كان ذلك الباب سيكون مهربًا للبشر أو للروح الشريرة.

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة باللغة الإيطالية: Da solo, non ci puo fare (المترجم)

(**) التاسوعية: عبادة تستمر تسعة أيام عند النصارى. (المترجم)

تراقص لهب الشمعة تراقصًا مجنونًا لفترة من الوقت، مثلما يفعل فريد آستير ثم عادت ثانية إلى الاستقرار. كانت الشمعة تحترق على شكل لهب مستقيم، كان يتحرك يمينًا ويسارًا مثلما يفعل الملاكم. تناول الأب فاينلى المنضحة ورش ماءًا غزيرًا على الأشياء المقدسة. كان يعلم أن تلك الأشياء جرت مباركتها من قبل، لكن ليس لهذا الغرض. تحول إلى القسيس الممسوس وبلله بالسائل، وهو يتمتم بالتعاويذ المطلوبة. أعاد المنضحة وتناول الصليب المعقوف. وأحدث إشارة واسعة بالصليب على جسم زميله، وغطت هذه الإشارة أيضًا الغرفة وأثاثها. ثم مسح على جبهة زميله بالزيت المقدس، ومسح على شفتيه أيضًا، ثم على صدره. ثم وضع شيئًا من الزيت المقدس في غطاء القارورة، وسكب ذلك الزيت فى حلق القسيس آنين. كانت الشعلة قد هبت يمينًا ويسارًا، ثم خبت الشمعة وانطفأت بعد ذلك. نظر فاينلى إلى الأعلى.

قال صوت عريض: "أنا لا أريد الضوء. أنا لا أحبه". أظلمت الغرفة. أدرك طارد الأرواح الشريرة أن العدو قد أُوقظ. وبذلك تكون خيوط المعركة قد تحددت.

من الذى تكلم؟ لم يثق بآنين عند هذا الحد، ولم يكن يعرف الجانب الذى هو فيه. قال فاينلى فيما بينه وبين نفسه لكنى محتاج إلى الضوء، بحث حوله ووجد مصباحًا على رف من الرفوف. أنزل المصباح عن الرف، ورفع غطاء المصباح وعمَّره وأشعل شريطة. وبسرعة، وبينما كان ظهره يحجب آنين، أعاد غطاء المصباح ووضعه على بعد مسافة آمنة. وجمع فاينلى أطراف شجاعته ثم تناول المنضحة والصليب المعقوق كل فى يد من يديه وراح يتكلم بصوت عالٍ.

"أنت أيها الشيطان الذى مس آنين، إنه أنت الذى أتحدث إليه". خيم الصمت على المكان. اهتز المصباح. تجاهل فاينلى المصباح. نفخ قائلاً: "عرِّف نفسك!" انتظر كيما يعطى العدو فرصة للكلام. لم يحدث شيء.

بقى وجه آنين مستقيمًا. كان يحس أن فاينلى يطيل النظر إليه. تعجب قائلاً: ما المفروض على أن أفعله؟" لم يكن يعرف ذلك المطلوب. لم يكن هناك تدريب على ما سيحدث. لم يعرف ذلك الذى كان ينتظره. ولما كان لا يعرف ماذا يفعل، فقد حاول

الدخول فى الصلاة صامتًا، لكن شخصًا ما أو شيئًا ما لطمه لطمة كبيرة على فمه، أغلقته مثلما يغلق الإنسان فمه عند التثاؤب. كان الشيطان قويًا وعنيدًا. لن يخرج ذلك الشيطان بدون قتال، على حد قول الرجل الأيرلندى. كان آنين خائفًا. لكنه كان مصممًا أيضًا على كسب هذه الحرب. قال للروح الخبيثة التى تسكنه: أعيدى إلى حياتى. يجب أن تخرجى منى. يجب أن تحررينى وتطلقى سراحى.

صاح فاينلى نابحًا فى الروح الشريرة: "أعلم أنك هناك، يا جبانة! عرِّفى نفسك! أنت أيتها الروح الشريرة! الآن!" كان ذلك الكلام على صيغة الأمر. تساءل آنين؛ من أين لهذا الرجل بذلك الصوت الوحشى، وقبل أن يستطيع الرد على هذا التساؤل، كان الرجل الأبيض قد أمسك فكه وحوله نحو الأعلى. حاول النظر إلى عينى آنين المجنونتين لكى يمسك ببصره ويوقف حملقته. وراح الرجلان يقاومان بعضهما بعضًا.

"انظر إلىّ! سمِّ نفسك وتقدم إلى الأمام!".

اهتز جسد آنين وارتعد. شخص ما كان يمسك به من تحت إبطيه ويهزه مثلما يهز الإنسان الغسيل. كان يترنح إلى الخلف وإلى الأمام، غير قادر على السيطرة على حركته. وهنا تحدث صوت أنثوى رقيق.

"سلام".

تساءل طارد الأرواح هل أرد عليه أم أتجاهله. سوف أتجاهله.

كرر الصوت ثانية "سلام، يا فاينلى".

"من أنت؟".

"فاجينا(*). اسمى فاجينا". انتظرت قليلاً ثم انفجرت فى الضحك الهستيرى العنيف وبصوت عميق. قالت وهى تشير إلى طارد الأرواح "ها! ها! ها! أنا التى أوصلتك إلى هناك!".

(*) يجب أن لا يغيب عن ذهن القارئ أن كلمة فاجينا Vagina فى الإنجليزية تعنى عضو المرأه التناسلى، وأن كلمة سويت Sweet معناها "حلو". (المترجم)

نعم. خطر بباله أنه استمع إلى فاجينا منذ لحظة. قال فاينلي: "هذا ليس اسمًا". احمر وجهه. لم يكن راضيًا عما يدور.

"الأسم صحيح. أنا فاجينا. فاجينا سويت. جربني. فـ..! فـ..! فـ..! ها! ها! ها!" لقد غيرت صوتها. تعرّف فاينلى صوت دولورس.

صاح فى ذلك الشيء "أوقف ذلك! أوقف ذلك!".

"فاجينا. آنسة فاجينا سويت. فـ... فـ..." أخرج آنين ما بين فخذيه وأعطى إشارة هيا بنا لزميله.

قبل أن يتمكن الأخير من مخاطبة الروح، خاطبته الروح من جديد. سألته "أين جبرائيل؟ لقد أصبحت الروح جادة وجاهزة للعمل. "أين صديقى جبرائيل؟".

رد فاينلى عليها، وندم على ذلك الرد على الفور: "هو ليس صديقك". أدرك أن الروح كانت تحاول كسب الوقت، وتحاول أيضًا تشتيت انتباهه عن فرض الخروج عليها. استسلم الرجل الأبيض. بدأ يتعرق.

أصر الشيطان: "إنه صديقى".

"لا!".

"نعم".

"اخرس".

قال آنين: "اخرس أنت!"، ثم لان بعد ذلك. مط شفتيه. "بلّغ جبرائيل أن صديقه يرسل له التحيات".

سألت فاينلى فى هدوء: "من الذى سأقول عنه هذا الكلام؟.

"قلت لك فاجينا. سويت فاجينا". تراجع فاينلى. نقل الصليب المعقوف إلى يده اليسرى وأمسك به فوق أخيه القسيس. وأمسك المنضحة فى يده اليمنى، وراح يرش رشًا غزيرًا. حاول آنين انتزاع المنضحة من يدى زميله.

صاح قائلاً: "لا! لا!".

شدد قبضته على المنضحة. ورفع يديه بعيدًا عن متناول الشيطان وراح يرش.

"سمِّ نفسك! سمِّ نفسك! من أنت؟".

تحرك جسم آنين مبتعدًا عن الرذاذ الغزير، تبعه فاينلي: "سمِّ نفسك، أيها الشيطان" أصوات غريبة توحي بالاستياء والشكوى، راحت تصدر عن الممسوس.

"سمِّ نفسك! عرّف نفسك وتقدم إلى الأمام!".

"دولورس!".

"كذّاب!".

"أنا شارلز إذن. أنا شارلز أنا الآب شارلز!".

"كذاب!".

"اتركنى يا فاينلى! ما الذى فعلته لك؟".

"عرّف نفسك!" راحا يدوران ويدوران فى الغرفة، وآنين يرجع إلى الخلف على ركبتيه، وفاينلى يتبعه بمنضحة الماء المقدس. وشاهرا الصليب المعقوف فى وجهه. كان جسم آنين يرتعد. والمنضدة تهتز. والغرفة تصيح. وأصوات فرقعة.

"أرجوك، يا فاينلى. أرجوك".

"سمِّ نفسك! من أنت؟".

"إذا ما أخبرتك باسمى، هل ستتركنى أعيش؟ أرجوك يا فاينلى. عِدني؟" كان الصوت صوت دولورس.

"سمِّ نفسك!".

"اسمى بيلزيبب Beelzebub داندا".

"هل أنت متأكد من ذلك؟".

"من فضلك يا ليام Liam".

غير ذلك الشيء صوته من جديد. نظر فاينلى نظرة حادة إلى الأعلى. لقد تعرف صوت عمتّه إطنة Etna. إطنة هذه كانت عمة فاينلى المتوفاة، والتى ربته فى مقاطعة كاونتى أوف كورك التلالية. أرجوك يا ليام، كان من عادة هذه العمة أن تقول: من فضلك يا ليام اذهب واجنى ثمار التفاح؛ من فضلك يا ليام اذهب واحلب الـــ... وبعد أن تم ترسيمه، كانت تصر على مخاطبته بلقب الأب ليام. تشتت من جديد، راح القسيس الإيرلندى يوبخ نفسه ويؤنبها. أنت لا يمكن أن تكسب هذا العمل بدون تركيز. نهض واقفًا. كان حلقه جافًا أكثر من ذى قبل.

"حسن إذن، أنا آمرك يا بيلزيبب داندا بالخروج!" أحدث آكين إشارة تضرع وخضوع ورجاء. وضع راحة يده اليمنى مقلوبة على راحة يده اليسرى.

"لا، لا. أرجوك يا ليام".

"لا تسمينى بهذا الاسم! اخرجى.!".

"أرجوك أيها الأب ليام. أرجوك".

أوه يا عمتى إطنه. راح فاينلى يولول فى داخله. لست أنت. لست أنت. راحت إحدى يدى الشيطان تربت على راحة اليد اليسرى. واصل فاينلى إلحاحه مستخدمًا الماء المقدس والصليب.

صرخ قائلاً: "اخرجى! اخرجى!".

قال الشيء بعنف موجهًا الكلام للرجل الأبيض "قسيس غبى! لا يمكن أن يصبح أسقفًا".

رد فاينلى قائلاً: "أنا لا أود أن أكون أسقفًا".

"أنت تريد ذلك! يا كذاب!".

"أنا لا أريد ذلك".

"أحمق. شخص دون المتوسط! كذاب. ليام الكذاب". الشيء الذى لا يصدق أن هذا الشيء غير صوته إلى صوت جون دينى فتوة المدرسة الابتدائية "ليام الكذاب! ليام الكذاب!".

راح يرش الماء بجنون وهو يقول: "عليك اللعنة! توقف عن هذا الكلام! توقف فى هذه اللحظة!".

كان آنين قد تبلل بالماء عند هذا الحد. وكانت يديه تمسك ما بين وركيه. وراح يترنح ويتدحرج كما لو كان فى غيبوبة بسبب التنويم المغناطيسى. وهنا بدأ ما بين وركيه يتحرك جنسيًا. كان صوته الأنثوى يتوسل إلى القسيس، وهو يشير طلبًا للاقتراب. أغلق فاينلى عينيه وأذنيه عن الإغراء الذى أمامه. أحس بأنه على وشك أن يغمى عليه، لكنه كان يحس بالقوة فى الوقت نفسه. أنفرط لسانه وراح يصدر لغة غريبة، كلمات لا يمكن حل شفرتها.

عندما فتح طارد الأرواح الشريرة عينيه، أبصر آنين وهو يَجْرِى الإلقاء به أعلى وأسفل كما لو كان مصارعًا أمريكيًا. كان هذا الرفيق المسكين يجرى رفعه إلى أعلى مرات عدة ويلقى به على الأرض أحيانًا، وعلى الجدران أحيانًا أخرى. لاحظ فاينلى أنه كان يتجه ناحية الباب. استدار وتبعه ومعه الماء المقدس والصليب المعقوف. وعند الباب، طُرح آنين أرضًا مثل عصا المرشد. هبت عاصفة. اهتز المصباح بشدة، ثم سقط مرتطمًا بالأرض، وتكسر غطاؤه إربًا إربًا. اهتزت الأرفف وألقت ما عليها على الأرض. وهفهفت الرسوم الحائطية، سقطت الرسوم الجدارية على الأرض الأخرى، وتبعثرت فى الغرفة الصغيرة. كان فاينلى يعرف أن ذلك هو الشيطان، وأنه غاضب بسبب إخراجه. دار الشيطان فى الغرفة منفسًا عن غضبه .

شرخ الأشياء، وقلب الأثاث رأسًا على عقب، وطيَّر الأوراق، وسقط الإنجيل المقدس الكبير من فوق القمطر. انزلق على الأرض وخرج من الباب المفتوح. راح فاينلى يواجه كل جانب من جوانب الغرفة. راح يرش الماء المقدس بغزارة وبعصبية. أبصر ريحًا مدومة وهى تدور فى الغرفة خلال سحابة من الدخان.

كان آنين منبطحًا على وجهه على الأرض. كان ثوبه قد تمزق إربًا إربًا. كان يحس وكأنه مركبة معطلة. كان يتمنى أن يستجمع قواه وينهض واقفًا لكن ساقيه كانا بلا حياه. انتظر وراح يراقب في دهشة، وقد راح ما بين وركيه يتمدد. لابد أن هناك شيئًا ما. كان يود أن يمد يديه ويخرج ذلك الشيء. لكن يديه كانتا بلا حياة. أسفر الضغط عن قطع بنطاله. ثم أحس بعد ذلك وكأن ذلك الشيء بدأ يهاجر إلى بطنه وبدنه. انتفخت معدته مثل البالون. خَطَر همتى دمتي[*] على الجدار على بال فاينلى وهو يراقب آنين. انتفخ قميص آنين وتبعثرت أزراره على الأرض. وعندما حاول دون جدوى الإمساك بحجابه الحاجز، أحس بالشيء يصعد إلى صدره. تساءل عما إذا كانت ضلوعه على وشك الانكسار. انتفخ صدره. وأصبح آنين يعانى صعوبة كبيرة فى التنفس. خطر بباله أن هذا هو المطلوب. لقد جاءت النهاية. وعندما كان يستعد لالتقاط نفسه الأخير، أحس بمطر السائل المقدس على جسمه في اللحظة التى أمسك فيها الشيء بحلقه وأحكم قبضته عليها. أحس بأنه سيموت خنقًا. لم يكن يقوى حتى على الصراخ. كانت أوردة وشرايين عنقه واضحه ومحددة تمامًا أثناء تحرك ذلك الجسم الغريب فى تجويفه الصدرى. جحظت عيناه لتصبح مثل عينَىْ عازف الترومبت أو النفير. أحس بألم فى أذنيه. وقبل أن يفكر فى ورطته، انفتح فمه بفعل تثاؤب كبير، كشف عن أسنانه. عرف أنه كان شبيهًا بالتمساح الجائع. أحس بوجود كبير يهرب من بين شفتيه المغلقتين، وانسفط جسمه مثل البالون الذى خرج منه كل هوائه. قال فيما بينه وبين نفسه: أحس وكأنى مثل حقيبة الملاكم.

(*) همتى ــ دمتي: رجل على شكل بيضه عند الأطفال. (المترجم)

خرج الشيء من الباب المفتوح، وهو يصفعه خلفه بشدة. ومن تلقاء نفسه ينفتح الباب وينغلق بغضب مرة ثانية. أصبح الباب بلا مفصلات وأصبح الجزء العلوى منه معلقًا فى حلق الباب. فى الأسفل كان الكلب بنجو ينبح نباحًا وحشيًا ويتصارع تصارعًا جنونيًا مع نفسه. جرى الكلب فى كل الاتجاهات ثم سقط بعد ذلك على جانبيه وراح يتدحرج. وينهض الكلب ويندفع خارجًا من خلال البوابات المغلقة وسط حركة مرور ما بعد الظهيرة الحارقة. وهذه هى إطارات إحدى المركبات تدوس بنجو لترديه قتيلاً أسفل شاسيه المركبة.

فى ذلك الوقت تمكن آنين من النهوض على ركبتيه، وكان يحس وكأنه مثل الجيلى، فى حين كان فاينلى نفسه منهارًا على السرير. كان فاينلى يتنفس بصعوبة. كانت غفارته قد قطعت وتمزقت. كان شعره أشقرًا. وكانت عينه متورمة. وكان الصليب المعقوف لا يزال فى يده. حاول آنين السير على ركبتيه إلى أن يصل إلى السرير. اتكأ بشده على العمود وحاول رفع نفسه إلى الأعلى. أحس وكأنه سكير مخمور لا يعرف ماذا يفعل. قام بمحاولة أخيرة مستندًا بإحدى يديه على كرسى مكسور كان بالقرب منه. لا مفر. توقف عن المحاولة.

سمع الآب وهو يقول بلغته الوطنية "لقد انتهى كل شيء"(*) وهو ينهار ساقطًا هو أيضًا على الأرض.

* * *

خطر ببال آنين، أن ذلك حدث منذ أسبوع، أسبوع واحد فقط. والآن مطلوب منه هو القيام بدور طارد الأرواح، مطلوب منه القيام بطرد الشيطان الذى تلبس أُمو omo. هل يستطيع القيام بذلك؟ كان لا يزال فى مرحلة النقاهة من التجربة السابقة. كان الشيطان شخصية قوية. صحيح أن دولورس، اعتبارًا من ذلك الوقت

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة باللغة الإيطالية: Ta se criocnaithe. (المترجم)

لم تعد تزره أو تعاوده، ولم تظهر على منبحه. هذا يعنى أنها تركته يعيش فى سلام مواصلاً حياته المجزّأه. كان لا يزال يتعافى، ولم يكن قويًا بما فيه الكفاية حتى يواجه ذلك الوحش الذى يحمل الاسم بلزيبب، أو أيًا كان ذلك الاسم. كان يتطلع إلى حلول موعد إجازته، التى أصبحت قاب قوسين أو أدنى.

بدأ القسيس يقول: "انا لا أستطيع".

راقبته سوزان وأكدت قائلة: "لا تتهرب من shine away مسئوليتك".

صححت أنتلى كلام سوزان "لا تتهرب من shy away مسئوليتك".

قال رجل الله للمرأة البيضاء وزميلاتها: "لا أظن أنى قادر على طرد الشيطان الذى مس أومو omo. طرد الأرواح الشريرة عمل خاص. لا يستطيع كل الناس القيام به. وأنا أفضل الصلاة من أجلكن جميعًا، أصلى للرب أن يلتقى بكل واحدة منكن فى منطقة احتياجها".

خطر ببالهن أنه خائف. خطر ببال القسيس: "إذا كان إيمانك صغيرًا مثل حبة الخردل". فبوسعك أن تقول للجبل: تحرك وألق بنفسك فى البحر". وسوف يحدث ذلك.

وتقتبس بعد ذلك بصوت عال: "عجبًا، نحن أصحاب الإيمان القليل،" ثم تعود سوزانا بعد ذلك إلى سريرها.

* * *

عندما أوصلت آيرين المشرفة العامة على السجون إلى المطار، اتجهت الأخيرة إلى صالة السفر حيث جلست هناك. سرح ذهنها فى أشياء كثيرة كانت تود إعمال فكرها فيها. لم يكن لديها فى واقع الأمر ما يشغلها أكثر مما كان فى ذهنها فى ذلك الوقت. لقد قيل كل شيء. كل شيء كان واضحًا تمامًا. كل ما تبقى هو

الوفاء بما عليها من التزامات. خطر ببال مارسي: "أنا لا يمكننى الذهاب إلى لندن بعد هذه المرة، إذا ما تركته، وقد أتركه الآن وفى الحال"، خطر على ذهنها." لكنى لم يسبق لى السفر إلى لندن. وأنا أود السفر إليها. وهذه فرصة طيبة. وهذه الفرصة مجانية. لقد دفع وتحمل النفقات كلها. لكن كيف أتظاهر بأن كل شيء على ما يرام. لن يكون ذلك صحيحًا.

أعلن مكبر الصوت لكل المسافرين إلى لندن على متن الخطوط الجوية البريطانية التوجه إلى المكتب رقم (٤٣). تجاهلت مارسى ذلك الإعلان. وضعت رأسها بين كفيها وراحت تتفكر فى حياتها. لقد قالتها لها آيرين إن **الوقت يمر سريعًا**(*). وهو لا يريد الالتزام، وهو لا يريد سوى المضـــ....... وهو يحصل عليها بالطريقة التى يريدها. إنه يحصل على المتعة التى يريدها نظير أتعاب هو قادر عليها، وبلا مضايقات أو إشكالات. هذه الطريقة تناسبه تمامًا. لكن ماذا يمكن أن يحدث بعد المضى فى هذا الطريق ثلاث أو أربع أو خمس سنوات؟ هل يتعين على البقاء كى أكون عشيقه لرجل وأنا فى سن الخمسين؟ هل هذا ممكن؟ وأنا لست كاميلاً، وهو ليس الأمير شارلز ــ ولابد له من الالتزام. وإذا لم يلتزم فسوف أترك هذا المكان ــ لندن ــ لقد ذكرت جوى لى شيبرد بوش Bush Shepherd. بل إنها أعطتنى قائمة للتسوق. وذكرت لى إديث شارع أكسفور. لابد من أن تزورى شارع أكسفورد، وشارع بوند، وشارع ليفربول. قالت فيما بينها وبين نفسها: لن أقابلك أو أراك على الرغم من ذلك كله. حتى ولو فى هذه المرة فى أضعف الأحوال.

قال مكبر الصوت: "على السادة المسافرين على رحلة الخطوط الجوية البريطانية رقم ٠٧٤، والذين أنهوا إجراءات سفرهم التوجه إلى البوابة رقم ٥٦ للصعود إلى الطائرة".

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة باللغة اللاتينية tempus fugit. (المترجم)

كانت الطائرة لا تزال هناك، هى غير قادرة على الوقوف. كانت تمد رجليها أمامها فى بعض الأحيان، وتروح تحركهما بطريقة عصبية. وفى أحيان أخرى كانت تضم رجليها إلى ركبتيها، متناسية الحركة البشرية من حولها فى جميع الاتجاهات. وضعت رأسها بين كفيها مرة ثانية. كان صندوقها الصغير موضوعًا تحت ركبتيها. راحت فى غفوة. وعندما استيقظت، كان المطار مهجورًا. نظرت إلى ساعتها. كانت الساعة تشير إلى الثانية عشر، منتصف الليل!

نهضت واقفة على قدميها وتمطعت. وتناولت معطفها الصوفى الخشن، وهى شبه نائمة وقصدت إلى مدخل صالة الوصول واستأجرت سيارة أجرة لتقلها إلى منزلها.

كان معها مفتاح شقتها الإضافي. دخلت الشقة. وعندما كانت تحاول الدخول على أطراف أصابعها دون إقلاق للغانية Ghanaian، نادت عليها الأخيرة.

قالت مارسى وهى عند مدخل الباب: "إنه أنا، يا جوي؛ سوف نتكلم غدًا".

سألتها جوى والنوم يداعب جفونها: "هل فاتتك الرحلة؟".

"سوف نتحدث غدًا، من فضلك. طابت ليلتك".

"هل أطلعت على صحف المساء؟".

"غدًا، أرجوك".

يالها من ليلة ليلاء! جافاها النوم. كانت تتقلب على جنبيها وتتحرك قلقًا هنا وهناك بسبب الورطة التى هى فيها. لقد قالت لها آيرين التزمى، التزمى. لابد من الالتزام. إذا كنت بحاجة إلى المساعدة، **فجدتى طبيبة محلية.**

هل أريده هو أم أريد الآخر؟ هل الآخر لا يزال فى المتناول؟ هل أنا، الكاثوليكية التى أخطأت، نعم، لكنى مازلت كاثوليكية، هل أستطيع الزواج من مسلم؟ هل أدخل بيت تتعدد فيه الزوجات؟ ما الذى ستقوله عائلتي؟ هلى مارسى

قصمت ظهر الجمل فى نهاية المطاف؟ هل يحبني؟ هل أُحبه؟ هل يمكن للزواج أن يقوم على أساس من الطب الأسود؟ هل سيدوم مثل هذا الزواج؟ أم أنه سوف يذوب عندما تقوم قوة أخرى، وفتش(*) أقوى باقتلاعه؟ التزمى، التزمى، التزمى. أربعون، أربعون، أربعون. الحياة تبدأ بعد الأربعين. الحياة تنتهى بدءا من الأربعين.

عندما طلع الغد كانت مارسى لا تزال مستيقظة. لم يداعب النوم جفونها إلا عندما بدأ المؤذن يؤذن لصلاة الصبح. وبطريقة حالمة فردت ذراعيها إلي الأمام ومدت رجليها، واستقرت ودخلت في غفوة. لكن التليفون المحمول دق جرسه. قبل أن ترد على الطالب كانت تعرف من هو.

سألها الشريف: "أين أنت يا مارسي؟" كان يبدو عليه القلق "هل فاتتك الرحلة؟ بحثت عنك فى الطائرة، من مقعد إلى آخر. أين أنت؟".

ردت عليه المشرفة العامة على السجون "أنا فى المنزل".

تبينت مارسى أنه لابد أن يكون قلقًا: "لا، لا، لا. ماذا حدث؟".

"لقد غيرت رأيى يا يعقوب".

"تقولين إنك غيَّرت ماذا؟".

خنقت تثاؤبها وقالت "رأيى".

"غيَّرت رأيك إلى ماذا؟".

"أنا أفكر فى حياتى، يا شريف، مستقبلى. أنا لا يمكن أن استمر فيما أنا عليه، بدون التزام".

(*) الفتش: شيء كانت الشعوب البدائية تعتبر أن له قدرة سحرية على حماية صاحبه أو مساعدته. (المترجم)

"استقلى الطائرة التالية، يا مارسى. هناك رحلة أخرى هذه الليلة. تعالى. ودعينا نتكلم سويًا".

"لا".

"أرجوك، يا مارسى. أرجوك. أوحشتنى. أستحلفك بالله".

خطر ببال مارسى، أنت تتوحش المضاجعة. قالت له من خلال التليفون المحمول "أنا آسفة. أود إنهاء المكالمة الآن. أنا لم أنم الليل بطوله. أنا أحس بأنى نعسانة والنوم يغالبنى".

"أرجوك يا مارسى، تعالى هذه الليلة. كل ما تريدين. أحلف لك بالله، وهذا وعد منى، لكن تعالى".

"أنا أريد الالتزام، يا يعقوب. الزواج. إذا لم أكن صالحة لذلك فإلى اللقاء".

"سوف ألتزم، يا مارسى. تعالى. من فضلك".

كان هذا الكلام بلا هدف أو مرمى. قفلت مارسى تليفونها. وقبل أن تعيد التليفون إلى الطاولة دق جرسه مغنيًا مرة ثانية. فتحت التليفون ونظرت إلى الشاشة وراحت تستمع إلى بيانه. ودون أن تنطق بكلمة واحدة، قفلت التليفون مرة ثانية، ثم قفلته بصورة نهائية. حمقاء فى سن الأربعين... حاش لله. قالت فيما بينها وبين نفسها، لا يمكن أن أكون مغفلة إلى الأبد. أولاً وقبل كل شيء، دخلت الدجاجة إلى مهجعها عند الشفق لا من منطلق أن حوصلتها قد امتلأت، وإنما لأن الليل قد أوشك على الدخول. ليلى يقترب، يا يعقوب. أود أن أعيش فى بيت وعائلة.

دق جرس تليفون منزلها مرة ثانية. تناولت سماعة التليفون. خطر ببالها، وداعًا للنوم. سوف أطلب العودة إلى العمل. ليس هناك ما يدعو لبقائى حاليًا فى المنزل. على العكس من ذلك، أنا بحاجة إلى أن أغمس نفسى فى العمل لأنسى قلبى الذى يؤلمنى. سوف أذهب إلى النزيلات، وأتحدث معهن وأنسى أوجاعى وآلامى.

"مرحبًا".

"مرحبًا" كان الطالب هو يعقوب. "يا مارسى، لقد طلبتك لأقول لك أنى سأعود بأسرع ما يمكن. لا أريد أن أقول أكثر من ذلك. خطر على بالى، أننا سنتمكن هنا من البقاء مع بعضنا بلا إزعاج. وطالما أنك لست هنا، صدقينى، فبقائى هنا لا معنى له". لم تنطق مارسى بكلمة واحدة. "سوف أغير موعد رحلة العودة".

"وهو كذلك. إلى أن تعود. لقد أخبرتك بوضعى".

فى مطار هيثرو البعيد، سمع الشريف صوت سماعة التليفون، وعرف أن مارسى قطعت الاتصال مرة ثانية. كان لا يزال يمسك السماعة فى يده. أحس بالغضب. كل ما حوله الآن فى صالة الأمتعة، كان المسافرون الذين وصلوا يتحركون هنا وهناك فى كل الاتجاهات، يبحثون عن حقائبهم وأمتعتهم. أحسّ الشريف بالفراغ. ما الذى يمكن عمله الآن؟ كان يتطلع إلى أسبوع من المتعة والحب مع عشيقته، مع حديث لا ينتهى، ونكات، وتضام، وعرى. لن يحدث ذلك. ترى هل فاتتها الرحلة؟ راح يسائل نفسه.

عندما جلس فى مقعده فى درجة رجال الأعمال، كان قد قام بجولة فى الممر فى الطائرة، بحثًا عن المكان الذى كانت تجلس فيه حبيبته. كان يطيل النظر إلى وجوه الناس. لكن لا، لم تكن مارسى بينهم. وعاد إلى مقعده وقبل كأس الشمبانيا كيما تهدأ أعصابه قبل إقلاع الطائرة. كان الركاب لا يزالون يصعدون إلى الطائرة. كانت لا تزال هناك جلبة كبيرة حول الممرات الموجودة داخل الطائرة.

قبل إضاءة إشارة ربط الأحزمة، روادته رغبة فى البحث مرة ثانية، لكن المضيفة الجوية منعته من ذلك. كان قد التقى اثنين من معارفه فى الدرجة السياحية. حيُّو بعضهم بعضًا وواصل هو سيره إلى مقعده. لم تكن مارسى من بين المسافرين. كان قد واصل سيره إلى المطبخ الصغير ثم اتجه إلى الممر التالى،

وهو يفتش ببطيء عن الوجوه ويتفحصها. كان حزينًا ومهمومًا، ثم يعود بعد ذلك إلى مقعده. هل يمكن أن يعلن الطيار عنها؟ ساءل نفسه. هل هناك مكتب استعلامات للطيران الداخلي؟ هل فاتتها الرحلة؟ كانت تلك ستكون أول مرة تخرج فيها من البلاد، أول مرة تركب فيها الطائرة Phlane. ربما أنها لم تعرف كيف تتصرف؟ قال فيما بينه وبين نفسه كان مفروضًا على أن أساعدها فى ذلك. قد تكون منتظرة الآن عند بوابة أخرى من بوابات صالات السفر، فى انتظار الصعود إلى الطائرة الخطأ.

وصلت المضيفة لتعطيه مشروبًا مع الوجبة المقدمة له. قالت بصوت رقيق "نبيذ أحمر أم أبيض يا سيدى".

رد عليها: "أنا لا أتعاطى الكحول".

وقفت السيدة منتصبة، وهى مرتبكة. أليس هذا هو المسافر نفسه الذى عب كأسًا كبيره من الشمبانيا.

ذكرته قائلة: "لقد تناولت شمبانيا منذ وقت وجيز".

"الشمبانيا ليس فيها كحول. ليس فيها كحول" هكذا رد يعقوب على المضيفة.

انصرفت السيدة مرتبكة ومنشرحة الصدر. العجائب لن تنتهى على هذا الطريق.

وصل الرجل على وجه السرعة إلى صالة الأمتعة، وسرعان ما اندفع الشريف ناحية كابينة التليفون العمومى.

قال فيما بينه وبين نفسه، عندما عاد إلى السير النقال هى تريد الالتزام، عالمه أوشك على التغير. حياته الروتينية على وشك أن تكتنفها بعض التغيرات. وهو يكره التغييرات.

* * *

غادرت كل من رُقيَّة وكادى مكان المداوية بالأعشاب فى ساعة متأخرة من المساء. كانت رقية متهللة بشكل خاص. كانت تمسك فى يديها بعض المخترعات الملفوفة فى أوراق بنية اللون. كان مطلوبًا منها المحافظة على سلامة هذه المخترعات. وطالما أن أحدًا لم ير ذلك الذى بداخل الورق سيظل الدواء محتفظًا بفاعليته.

قالت المداوية لرقية: "لن ينتصب شيئوه على امرأة أخرى، بمشيئة الله". وكشفت بابتسامتها عن أسنان صفراء صفره ثمرة الكولا.

بينما كانتا تعدلان حزاميهما للعودة إلى المنزل، كانت حرم الشريف ممتنة كثيرا لصديقتها. قالت لها: " لا أعرف كيف أشكرك، يا كادى".

تساءلت كادى "إذن ما قيمة الأصدقاء؟" كانت كادى سعيدة لأن صديقتها عثــرت على العلاج. "الواقع أن شخصًا مــا هــو الذى دلنى على الطريق. نحن لا يمكن أن نقف ونراقب النساء الأخريات وهن يأخذن الطعام من أفواهنا. لصَّات! يقطفن ذلك الذى لم يزرعنه. نحن اللاتى قاسين كل شيء".

"هذا صحيح. أين كن عندما بدأ الرجل طريق كفاحه؟".

عندما عادتا إلى المنزل، عرفت حرم الشريف أنها سوف تعود وحدها لأمر خاص. كانت تود أن تطلب من المداوية بالأعشاب شيئًا لحالة زوجها الصحية، لكن وجود كادى منعها من ذلك. وعليه، لم تقو حرم الشريف على التطرق إلى هذا الأمر. ستعود إلى المداوية فى وقت لاحق. وحدها. ذكر(*) الشريف لن ينتصب على امرأة أخرى. لكن فلينتصب معى أنا ــ نعم، سوف أعود للمداوية بالأعشاب مرة أخرى.

(*) أوردت المؤلفة هذه الكلمة بلغة الأجبو abunnan، ولعل ذلك من بــاب الحيــاء والخجــل. (المترجم)

الفصل الخامس والثلاثون

عادت كل من الأخت مارثا والأخت روزمارى إلى جناح النساء بعد ذلك بأسبوع ــ استطاعت مارثا إطلاق سراح شيكا Chika، عن طريق توقيع غرامة عليه بسبب الإخلال بالأمن. قامت رابطة المحاميات بدفع هذه الغرامة، وبذلك يستعيد شيكا حريته، على الرغم من أنه رجل قاس.

عندما وصل الجنود، كان بعض النسوة يلعبن الورق كالعادة. خطر ببال مارثا أن لعب الورق كان شيئًا مبتذلاً مثل الرائحة تمامًا. كان هناك سرير مغطى بملاءتين متنافرتين قديمتين. وقفت أنتلى أمام سرير كان يجلس فيه التوأم.

راحت تنشد "Amo, amas, amat, amamus, amatis, amant"(*).

راح التوأم يرد بعدها "Amo, amas, amat, amama, amati, amant"(**).

"أحسنتما، أحسنتما، أحسنتما. هذا هو الفعل اللاتينى الدال على الحب، وتصريف هذا الفعل الأول هو: Amo, amare, amavi, amatus". وهنا رأت أنتلى الزوار. قالت "سنقف اليوم عند هذا الحد، أيها الرجال الأماجد". قالت هذا الكلام وهى تمد يدها للسلام على مارثا. وهنا تدافع الصبيان بالمناكب وهما يصرخان ارتياحًا.

جلبت الاختان التطعيم اللازم. وقامت روزمارى بمساعدة من ستاف Staff بتحصين الطفلين. وجرى تطعيم الكبار أيضًا. وكانت روزمارى هى التى نصحت بذلك. كانت هناك أمراض كثيرة تبحث عن مستقر لها. وإذا ما نحينا جانبًا الطفح الجلدي، نجد أن أولورى ومودى كانتا مصابتين بسعال دائم. وكانت بلسنج وليد

(*) هذه هى تصريفات الفعل اللاتينى amara (بمعنى يحب). (المترجم)

(**) لعل القارئ يلاحظ الخطأ الذى وقع فيه الأطفال فى تصريف الفعل. (المترجم)

Laide مصابتين بالبرد وسعال جاف متقطع. أخذت روزمارى عينات من الدم والبول من النزيلات بغية تحليل هذه العينات.

ســألت ليد الأخت روزمارى "هل لديك شيء لوجهي؟ شيء من الصابون أو الكريم "ومدت وجهها ناحية الممرضة شيء من الصابون أو الكريم؟" ثم مدت وجهها ناحية الممرضة.

فحصت روزمارى وجه المراهقة. كانت هناك كل أنواع الجروح والبثور. كانت هناك بعض البثور التى جرى فقؤها مؤخرًا. بعض آخر من هذه البثور كانت فى مراحل مختلفة من الجفاف. وكان هناك دُملان آخران ناضجان وفيهما صديد أصفر.

اندفعت الجندية فى شيء من العطف والحنان: "ربما تكون لديك حساسية لشيء ما هنا. سوف أبلغ ذلك للطبيب وأخبرك بما قال".

حزنت الجنديتان عندما علمتا بخبر معاودة الجنون لأومو Omo والتقطيع الذى أحدثته فى طفلتها. تأكدت مخاوف مارثا. كان ضميرها يؤنبها وهى تراقب التوأم وهما يتحركان من ركن إلى الركن الآخر فى تلك الزنزانة الضيقة. خطر ببال مارثا أن هذا هو كون هذين الطفلين. لكن هذا لا يصح. لماذا يعانى هذان الطفلان من السجن مثل الكبار؟ ما الذى فعلاه؟ هذه أرواح بريئة.

قالت للنزيلات، وهى تصفق بيديها جذبا للانتباه: "أخواتى". كانت لا تزال هناك ثرثرة. كانت سوزانا تحكى لبسلنج عن مدى أدب ولياقة الرجال البيض.

"هل تعرفين أن الرجل الأبيض يفتح باب السيارة لامرأته؟ المرأة تنتظر إلى أن ينزل الرجل من السيارة ويندفع ناحية الباب القريب من الراكبة لكى يفتح لها الباب؟ كانت بلسنج غير مصدقة لهذا الكلام.

"هنا، إذا وجدت رجلاً يفتح الباب لامرأة، فذلك يعنى أن القفل عطلان ولا يمكن فتحه من الداخل. أو أن تكون المرأة مريضة".

رجت مارثا النزيلات أن ينتبهن إلى ما تقول.

سألت بلسنج البنت البيضاء: "هل يمكن أن تأخذينى إلى إيطاليا؟ سوف أبحث ما يمكن عمله". تحولن ناحية الجنديتين.

"أيتها المتحدثة الرسمية، بإذن كريم من سيادتك، هناك أمر أود وضعه أمام هذا المجلس".

تلى ذلك شيء من الهدوء. لـــم يكـــن الهدوء كاملاً. كانت ليد هى ويوفيوما لا تزالا تتهامسان، وتستعملان الأيدى فى الإشارة والتعبير. شَكَّت أنتلى أن اشتباكا سيحدث قبل مضى وقت طويل.

صاحت موجهة صياحها إلى الركن الذى كانتا فيه وقالت: "يا ليد/ أعطنى كلمة تبدأ بحرف [النون]".

قالت ليد: "نيرة".

وأنت يا يفيوما: "نيجر" Niger.

"حسن جدًا".

قالت أفولينو رغم أن أحدًا لم يطلب منها ذلك "أنتلى".

قالت لها أنتلى "أنت غبية، لم تلتحقى بالمدرسة مطلقًا؟ أنتلى تبدأ بالحرف I ولا تبدأ بالحرف N. استمعى الآن إلى الأخت مارثا. الكلمة معها".

تنحنحت مارثا: "أيتها الأخوات، كنت أقول لكن أنه حان وقت إبعاد هؤلاء الأبناء عن هنا، حتى نهيئ لهم فرصة حياة طبيعية وحياة أفضل". ثم اتجهت ناحية تواكاليتو Tawakality "تاو، يتعين علينا إرسال التوأم إلى أهلك وناسك. أعطنى عنوانهم. سأبحث عنهم. هذا المكان ليس للأطفال الصغار".

"أنا ليس لى أهل". أجابتها تاو وهى كسيرة الخاطر. لم يكن فى ذلك أى انفعال. وإنما كان حقيقة واقعة: "يجب أن لا يغيب عنك، أنى مضى على الآن ثلاثة

عشر عاما منذ أن تركت منزلى. أمضيت عشر سنوات فى أحد السجون التايلاندية... قبل أن يعيدونى إلى هنا...".

قالت أنتلي: "تقصدين قبل أن يرحلونك إلى نيجيريا".

"نعم. أنا لا أعرف أين أهلى الآن".

أصرت مارثا متسائلة: "أين كان أهلك قبل ذلك؟ أليس لديك أى عنوان يمكن أن تعطينا إياه؟".

"العنوان الوحيد الذى أعرفه موجود فى ليجوس، لكنه عنوان كُفلائى ــ أنا لا أود لأبنائى أن تكون لهم أية علاقة بتجار المخدرات".

قالت مارثا فيما بينها وبين نفسها، الحمد لله. ثم سألت بصوت عال: "وماذا عن أبيهما؟".

"أنا لا أعرف المكان الذى يوجد فيه".

سألت مارثا الزنزانة كلها: "من منكن لديه أحد يمكن أن يأخذ هذا التوأم؟ وإلا فسوف يذهبان إلى ملجأ من الملاجئ. هناك ملجأ طيب أنا أعرفه. وأنا أزوره فى بعض الأحيان. وأحس أن بوسع التوأم الذهاب إلى هناك. اسمه ملجأ رعاية الأطفال. وهو موجود فى بلدة بوارى".

تساءلت أنتليّ: "ماذا عنك، يا بيا، هل يستطع أهلك رعاية الأولاد؟".

ردت عليها بيا من الركن التى هى فيه "قد يكون ذلك شيئًا كثيرًا عليهم. هيومانتى سيكون عبئًا".

كانت تفكر فى اسم آخر لولدها. كان الاسم هيومانتى Humanity يبدو ثقيلاً على أذنها بالنسبة لهذه اللفة الصغيرة. وراحت تداعب خدى الطفل. ويبتسم الطفل. هل أسميه مانديلا؟ ألم يولد موسى فى الأسر؟ كانت أنتلى قد اقترحت تسميته سقراط أو كلنتون. ربما يحدد الاقتراع السرى ذلك الأمر.

تقدمت مودياجا إلى الأمام. "أرسلى واحدًا إلى ابنتي، ليحل محل سيث. أنا على ثقة أنه توفى. لم يحضر لزيارتى منذ أكثر من شهر". قالت هذا الكلام وهى تمسح دمعة سقطت من عينها.

وبختها القسيسة قائلة: "لا تجرى اللعنة على نفسك مستخدمة شفتيك فى ذلك يا أمرأة! لابد أنه مشغول فى الامتحانات أو شيئًا من هذا القبيل. لا تجرى على نفسك اللعنة بشفتيك".

ذكرتهن مودي: "هو مريض مرضًا عضالاً. لابد أن شيئًا ما حدث له. لابد أنه نزلت به كارثة وتوفى".

ذهبت مارثا كيما تواسيها: "سوف أبحث أمر سيث". قالت ذلك من باب الوعد للأم. "لا تشغلى نفسك بهذا الأمر، يا مودى".

قالت أنتليّ: "أيًا كان السبب لا يمكن لنا الفصل بين عضوى التوأم، وإلا فنحن ندعى أننا نعرف أكثر من الآلهة(*) التى خلقتهما".

"وماذا عناك يا إندى؟" نظرت انديورنس إلى أعلى.

"تقولين أنك فقدت أخًا وأسرته فى المظاهرات التى قامت فى كنو؟".

"نعم، فى شاراداء فقدت أخي، وزوجته، وثلاثة أطفال، واثنان.....".

"وهو كذلك، هل نرسل الولدين إلى أمك إذن؟ ليحلا محل الأبناء الذين فقدتهم؟".

أوضحت تاو "نحن مسلمون، وأنا لا أود لهما أن يذهبا يومياهيا".

تدخلت بنتا "أين تودين لهما أن يذهبا؟". ثم قالت ساخرة ومستهزئة: "إلى الشيراتون؟ إلى الهيلتون؟"؛ وواصلت ابتعادها عن الشجار الدائر بينهن.

رددت أنتلى الكلام قائلة: "هى على حق. هم فعلاً مسلمون".

(*) أوردت المؤلفة هنا "الآلهة" gods بصيغة الجمع. وهذا يؤكد أن أنتلى كانت وثنية الديانة. (المترجم

"وعليه، يا إندي، فإن أهلك سيربونهما على أنهما مسلمان".

"في يوماهيا؟".

"لم لا؟ هناك مسلمون أيضًا، أليس كذلك؟".

"لكن المسلمين قلة وأهلي مسيحيون".

تكلمت مارثا بصوت عال: "هذه مجرد أعذار، يا أختى. حاولى العثور على المكان الذى يعيش فيه المسلمون فى يوماهيا، وأرسلى التوأم إلى المدرسة. وهذا هو كل ما فى الأمر".

تساءلت أنتلي: "هل هذا يرضيك؟" ترددت أنديورانس. نظرت إلى التوأم، هذان الشيئان العزيزان. جاء واحد منهما ووقف إلى جوارها، وهو لا يدرى شيئًا عن الحوار الدائر. رق قلب انديورانس.

قالت انديورانس: "أنا موافقة".

"انتهى الأمر. سيذهب معك كل من تايى Taiye وكيهايند، عندما تجيئين فى المرة القادمة، يا مارثا. جهزى الأوراق المطلوبة ثم اتصلى بأهل إندى".

تعجبت بيا: "جاء سليمان ليقضى فى الأمر!".

تقدمت بيا إلى الأمام. وكان طفلها نائمًا على ذراعيها. ألقت اللَّفة على مارثا. "وماذا عني؟ وماذا عن ابني؟".

تساءلت مارثا "ظننت أن أمك ستأتى لأخذه".

"أنا لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك. أرجوك يا أختي، هل يمكن أن تأخذيه بعيدًا عن هنا؟ وها هو عنوان أهلى".

أوضحت إحداهن "سيكون بحاجة إلى الحليب، يا بيا. الحرية أفضل من الحليب". جاء رد الأم على هذا النحو، وهى تنظر إلى ولدها نظرة إشفاق.

كانت قد قررت إعادة إشعال خطط هروبها. هذه ليست حياة. وإذا ما مت أثناء الهرب، فذلك أفضل. لكنى لا أقوى على تحمل الوضع أكثر من ذلك. أنا لا أستطيع تحمل الظلم هنا أكثر من ذلك.

قالت مارثا: "وهو كذلك". ثم راحت تدون بعض الأشياء فى نوتة المذكرات. "حسين، وحسن، وهيومانتي، سوف أبدأ فى تجهيز الأوراق المطلوبة على الفور".

تكلمت سوزانا بصوت عال. "أنا لا زلت أنتظر مجيء الموظف القنصلى من السفارة. منذ المرة الأخيرة التى جاء فيها إلى هنا، لم يعد بعد. أرجوك الاتصال به وتذكيره أنى أنتظر مجيئه، سوزانا... نابوليتانو. سجن فريمان فورت. أرجوك".

فى عصر أحد الأيام

جرى توصيل كلا من آورا Awura هى وومى Mummy إلى الزنزانة (وو ١٠) فى اليوم التالى عند الظهيرة. حملقت النزيلات فى المرأتين الجديدتين.

صحن فيها "آورا! أنت مرة ثانية!

أبدت أنتلى ملاحظة دون أن توجهها إلى أحد بعينه "اعتياد الإجرام أمر شائع بين نزيلات السجون".

ردت المراهقة وهى تشعر بالارتياح "تزوجت العجوز، لكنى هربت".

"لماذا؟".

"أنا لا أحبه. رائحته غير طيبة، هو لا يستحم. هو يقلقنى بهذا الشيء(*)". وراحت تشير إلى ما بين وركيها.

تحولت النزيلات بعد ذلك إلى المرأة الثانية التى كان يبدو عليها الثراء.

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة بإنجليزية ركيكة لأن آورا لا تعرف الإنجليزية جيدًا. (المترجم)
I no like am. He dey smell, he no dey balhe, he too worry for this thing.

كانت قد ذهبت إلى ركن من أركان سرير أومو، وكانت تتأوه ووجهها بين يديها وتجفف وجهها فى صمت. لم يكن لها سرير. عادت مستشيفت ومعها مرتبة وملاءة باهتة. وألقت بهذه الأشياء للمرأة.

"هذا لكما أنتما الاثنتين".

أخرجت مومى آله سوداء. نظرت النساء إليها. أدارت بعض الأرقام وراحت تتكلم فى الآلة.

"لقد أرسلونى إلى سجن فريمان فورت. من فضلك، تعال وأخرجنى منه. كفالة مالية، أى شيء". استمعت برهة من الوقت "إنه خارج البلاد، سيعود مع عطلة نهاية الأسبوع". وراحت تستمع مرة أخرى، "رقم المتحدث هو ٠٩٠٠٠٢١٤٦٥ ثم راحت تصغى مرة أخرى. رقم نائب المتكلم هو ٠٨٠٢٧٤٩٨٨٣٤ من فضلك حاول بأقصى سرعة ممكنة".

عندما وضعت الآلة على الأرض، مالت إلى الخلف ودخلت فى نوبة من الشخير فى غضون لحظات.

توضأت كل من بنتا ورحمة، استعدادًا لصلاة العصر. انضمت إليهما آورا. أشارت أنتلى إلى مستشيف. أشاحت برأسها إلى مومى.

همست: "من هي؟ وماذا فعلت؟".

هبت السجّانة "هذا أمر لا يخصك!".

عندما أُحضرت وجبة المساء، لم تلمسها المرأة الغنية. بقيت فى الركن التى كانت فيه، وهى تتكلم فى الآلة السوداء، وهى ترجو الناس أن يجيئوا ويخرجونها من السجن. أعطى تعيينها للطفلين التوأم.

كانت آورا تحكى لرفيقاتها السابقات عن تجاربها فى منزل الزوج العجوز.

"هو لديه بالفعل ثلاث زوجات. وأنا كنت الرابعة. وفور وصولي تجاهل الزوجات الأخريات. كان يركبني كل صباح. وعندما يعود من السوق، كان يأتي إلى غرفتي. بلا استحمام، وهو متعرق، ومترب... وكل شيء....".

قالت سوزان، وهي تقهقه، متذكرة مارسي "داودا مصباو".

واصـــلت آورا كلامها "لم يعجبني ذلك. قلت له أود الالتحاق بالمدرسة، وأكمل تعليمي الثانوي قال لها : لا. يجب أن أتبعه إلى السوق. هو تاجر غلال، سمسار أو شيء من هذا القبيل. يشتري من الفلاحين، ويبيع بالجوالات. عنده سيارات نقل تحمل الغلال إلى ليجوس، وبورت هاركورت، وإلى أبوجا. تبعته إلى السوق، ساعدته في عد النقود، وعد جوالات الذرة. سمعت سائقيه يتحدثون عن ليجوس، وعن أونيتشا، وبورت هاركورت، وإينوجو. كل هذه المدن الكبيرة. بدأت عندي رغبة السفر إلى ليجوس، البعيدة عنه. خططت للهرب" دق صوت الآلة السوداء.

"مرحبًا! أنا رُقية".

"أنا أراقب السائقين، وحركة سياراتهم".

"فريمان فورت". صمت مؤقت.

"سرقت بعض النقود من بابا Baba (الزوج العجوز)".

"أرجوك حاول. بأسرع وقت ممكن".

"ألم يكن معك جرس؟".

"أنا لا أعرف. هربت ذات صباح. جريت بعيدًا، خبأت نفسي في سيارة نقل متجهة إلى ليجوس". ترددت آورا. توجهت نحوها كل الأعين واستمعت إليها كل الآذان. "تعطلت سيارة النقل في بلدة من البلدات. بدءوا في إنزال حمولة القمح. خبأت نفسي بين الجوالات الموجودة في الخلف. أمضوا يومين في إصلاح السيارة. كانت الحرارة شديدة جدًا. كنت جوعانة، وكنت مضغوطة. قفزت إلى الأسفل، وأمسكوا بي".

"مرحبًا! نعم، أنا أسمعك". فترة صمت "أشكرك كثيرًا. إلى اللقاء".

"اقتادوني إلى مركز الشرطة".

"غدًا؟ ليس بهذه السرعة؟" صمت مؤقت "وهو كذلك. أشكرك. أنا ممنونة لك".

"أحضرتني الشرطة إلى هنا".

* * *

في ضحى أحد الأيام

جاءت مستشيف إلى الزنزانة في اليوم التالي.

نادت بصوت عالٍ: "رقية يعقوب!" قالت هذا الكلام وعلى وجهها نظرة تعبر عن السخرية والاحتقار.

نهضت سيدة المجتمع واقفة وسارت خلف مستشيف خارجة من الزنزانة. لقد أخلت الشرطة سبيلها. ظهر أنها زوجة لرجل من الرجال الكبار. كانت هذه السيدة قد دهست واحدًا من المشاة على الطريق ثم هربت بعد ذلك. وعندما جرى القبض عليها فيما بعد، قاموا باحتجازها. لكن هذه السيدة لها أصدقاء في أماكن رفيعة دفعوا الكفالة نيابة عنها.

قالت أنتلي لرفيقاتها: "هل ترين ما يجري! ماذا قلت لكن؟ هناك منظومتان للعدل في هذا البلد؛ واحدة لنا نحن الفقيرات، وأخرى للأثرياء. بوسعكن الوقوف على ذلك مثلما ترونني واقفة أمامكن هنا. آه يا بلدي، أسفي عليك".

كانت رقية الثائبة إلى رشدها هي التي عادت إلى بيتها. لم تستطع تحمل الذهاب إلى منزل مارسي. أثناء تعجلها، دهست وصدمت واحدًا من البشر mai

ruwa. وخوفًا من إلقاء القبض عليها والإساءة إلى اسم زوجها، واصلت سيرها خوفًا مما يترتب على توقفها. لكن راكبا متحمسًا من راكبى الدراجات النارية طاردها ولحق بها. ومن يمن الطالع أن حدث ذلك بالقرب من مركز الشرطة، سارعت هى باللجوء إليه. سوف تحاول مرة ثانية. سوف أحذر هذه المرأة من الاقتراب من زوجى. سأجعلها تدير بالها على شئونها. مطبخى ليس فيه متسع لهذه المرأة.

عندما وصلت إلى منزلها، سارعت بأخذ دش ساخن، الساعات الأربع والعشرين التى أمضتها فى سجن فريمان فورت كانت مخيفة وغير مريحة إلى أبعد حد فى حياتها؛ الأمراض، السعال، التّهرش الذى لا ينتهي، الرائحة الكريهة والبنت الهاذية! والبنت البيضاء! وهناك أيضًا الأستاذة أو محاضرة الجامعة. شخصيات. فى ذلك الصباح الذى أمضته رُقية فى فريمان فورت، كانت المرأة الإيطالية قد أحضرت الطفلين اللذين لم يمشيا بعد. وكانت قد أشارت إلى أشعة الشمس غير المرئية وهى تضيء الزنزانة الوسخة.

قالت للطفلين: "الشمس"(*)

ردد الأطفال بعدها: "الشمس". ثم قالا مرة ثانية: "الشمس". وسرعان ما تحولت العبارة عندهما إلى أغنية.

قالت سوزانا: "نعم، إنها هناك. أنتما لا ترياها لكنها هناك".

كانت واحدة من المراهقات قد تبرعت باقتباس سطر من حصة العلوم: الشمس تشرق من الشرق وتغيب فى الغرب". هذه العبارة البسيطة استطلقت حديث المحاضرة الجامعية.

تعجبت من التلميذة "هذا هراء! هراء.. هراء.... فى هراء! الشمس لا تتحرك فكيف لها بالشروق والغروب؟ هذا هراء أرسطى وأفلاطوني، وقد أثبت

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة باللغة الإيطالية. (المترجم)

كوبرنيكوس عدم صحة هذا الهراء، نيكولاى كوبر نيكوس ومن بعده جاليليو جاليلى. هاتان هما النظريتان المتنافستان فى ذلك الوقت حول هذه المسألة الكونية؛ وهذا هو ما أطلق عليه جاليليو المنظومات الكونية الرئيسية. كان جاليليو واحدًا من بلدياتك أيتها المرأة البيضاء".

أيدت سوزانا كلامها: "هذا صحيح". وخطر ببالها عندئذ دروس العلوم فى إيطاليا البعيدة. "جاليلو". لقد استنكرت ما قاله هذا الرجل....".

"فى العام (١٦٣٣) الميلادي، فى زمن محاكم التفتيش، أُدين جاليليو لابتكاره نظريات تعاكس ما ورد فى الكتاب المقدس. وأنا شخصيًا، لست مندهشة لذلك. الشمس ثابتة أيتها السيدات والسادة. الأرض هى التى تتحرك. حركة دائرية مزدوجة. الدورة اليومية، فهى تدور حول نفسها لتعطينا النهار، وأثناء دورانها حول الشمس تعطينا العام".

ارتعدت رقية. لقد دخلت فى كل هذه المسائل النحوية بسبب عبارة بسيطة من بنت صغيرة... أنا أشكر الله لأنى تركت هذا المكان المريع. أقسم بالله أنه مريع!

الفصل السادس والثلاثون

قوى هيومانتى بفضل حليب الأم. كان محظوظًا لأن الأخت ماريا عادت حسبما وعدت من قبل، ومعها روزمارى ومعهما مؤن ومنتجات صحية، جرى توزيعها على النزيلات.

أطلق سراح بلسنج فى ذلك اليوم. كان كبير قضاة الولاية قد قام بزيارة جناح النساء ووقع عليها غرامة نظير إخلالها بالأمن. قامت روزمارى بتوصيل الرسالة لرجلها الذى يعمل فى البحرية، والذى جاء ودفع الغرامة على الفور.

قالت لسوزانا "لا تنسى وعدك". قالته وهى حزينة لمفارقة الإيطالية. عندما غادرت بلسنج السجن، أصبح لرفيقاتها على المرتبة متسعًا من المكان على السرير، لكن ذلك المتسع لم يدم طويلاً، فقد جرى إحضار إيتوهان إلى السجن.

كان الوقت مصادفًا لأعياد الميلاد. كانت النزيلات يتمتعن بروح معنوية عالية. كن يتغذين على نحو أفضل فى ذلك الوقت، نظرًا لوجود صنوف متعددة من الطعام جاءت إلى السجن من الجهات الخيرية. قام كبير الاساقفه الكاثوليك بزيارة السجن. أحضر معه جوالات عديدة من الأرز، وجالونات من زيت الخضروات، وأحضر أيضًا بقرة حية، كما أحضر مؤنًا أخرى وملابس. أحضرت مؤسسات أخرى أشياء كثيرة. كراتين من أوراق التواليت، والأشياء الصحية كانت مكومة فوق بعضها فى الفناء. كانت هناك عبوة كبيرة من الماء النقى موضوعة بجوار تلك الكومة. صحيح أن بعضًا من هذه الأشياء تسرب إلى منازل السجانين والسجانات، ولم يصل إلى المستفيدين الحقيقيين سوى القليل من هذه الأشياء.

كانت ريح السموم مستعرة. وكانت العواصف القوية تهز الأسقف وكثيرًا من الزعابيب الترابية فى الجو. كانت أوراقًا جافة عديدة تتطاير داخل الزنزانة. من سوء

الطالع أن هذه الرياح جلبت معها مرض احمرار العين. كانت تاوا أول من أصيبت بهذا المرض. وسرعان ما نقلت هذا المرض إلى ولديها اللذين وزّعاه على بقية النزيلات بحكم انتقالهما من واحدة إلى أخرى. من يمن الطالع أن التبرعات الخيرية كان من بينها حزمة من قوارير النقط المطهِّرة للأعين. قدمت جمعية أنصار الدين الإسلامية بطاطين، وحمولة سيارة نقل من المواد الغذائية الأخرى.

* * *

بعد خمسة أسابيع من مولد هيومانتى، زارته جدته مرة ثانية. كانت مندهشة من مولد أول حفيد لها. راحت تدلل الحفيد بين يديها وابتسمت ابتسامة عريضة.

قالت: "نحمد الله أن كل شيء جرى على ما يرام، وحمدًا لله على سلامتك". كانت قلقة جدًا على ابنتها: "لقد انتهت المصيبة. ونحمد الله". كانت بيا مبتسمة ابتسامة تنم عن الرضا: "قلت لك إنه ذكر".

وافقت الأم: "لقد قُلتِ ذلك فعلاً. هذا الذى لم استطع عمله أنا فعلته أنت".

ابتسمتا للطفل. "تقولين إن اسمه هيومانتى Humanity (إنسانية)؟ هل لازلت مصرة على هذا الاسم؟".

"نعم، هيومانتى. وأى اسم آخر تطلقينه عليه، بصفتك أنت جدته".

راحت تهدهد الطفل القلق إلى الأمام وإلى الخلف "سوف أفكر فى هذا الأمر. عندى لك خبر طيب، يا ابنتى".

راحت الأم والابنة تحملقان فى بعضهما. بكى هيومانتى وجرى إعطائه لأمه من خلال القضبان كى ترضعه. الآن وبعد أن أُخْرج الطفل، أطالت جدته النظر إليــه. ولاحظت الجــدة قــائلة: "أنفه مثل أنفى. أنف صغير، مدبب وليس كبيرًا، أو مفلطحًا مثل الأنف الإفريقى الذى يشتهر به أهل أبيك، يا بيا". ابتسمت الابنة.

"هل جرى تختينه؟".

"ليس بعد. وهذا واحد من الأسباب التى تجعلنى أطلب منك أن تأخذيه من هنا. لكن أنا لا أعرف. قد يحتاج إلى حليب الأم".

"ذلك الجهاد الذى حكيت لك عنه؟".

"نعم أذكر ذلك".

قالت الأم "لقد فعل المعجزات".

"هل مشى الأعرج، وهل أبصر الأعمي؟".

"بيا، لقد حدثت معجزة! تصادف أن أهل آتّى Atte كانوا هناك. هل تعرفين أنه فى النهاية، وعندما أحدث القسيس نداء الهيكل، مناديًا بأن يضحى الناس بأرواحهم فى سبيل الله، هل تعرفين ماذا حدث؟".

"حدثينى عن ذلك".

"ظهروا على الملأ. واعتلى أخوه الهيكل واعترف بأنهم اتهموا ظلمًا فتاة بالقتل. واعترفوا أيضًا بأنهم شجعوا أخاهم على التكويش على أرضنا؛ واعترفوا أيضًا أن أخاهم كان مريضًا بالصرع، وأنه كانت تعاوده نوبات الإغماء".

تعجبت بيا قائلة: "لقد قلت ذلك! قلت إن الرجل كان مريضًا".

"اعتذروا لنا، وقالوا إنهم سيسحبون! القضية من قسم الشرطة".

"هل أفهم من ذلك أنهم ذهبوا إلى مركز الشرطة؟".

"انتظري! لقد ذهبنا إلى قسم الشرطة. لقد تقدموا بطلب لسحب القضية. وفى أى وقت من الأوقات اعتبارًا من الآن سيجرى الإفراج عنك، يا ابنتى. لقد أعطيت المدعى العام شيئًا ما. وقال بعد انتهاء العطلة الرسمية سيحصل من المحكمة على إذنٍ بالإفراج عنك". تنهدت بيا متنفسة الصعداء.

"ربنا كبير!".

"هو ﷻ كبير، يا ابنتى". صدرت عن الأم نظرة أوضحت أنها كانت سرحانه إلى بعيد: "هو ﷻ زوج المترملات، وأبُ اليتامى. كنت أعجب كيف أن ربى تركنى أقاسى هذا العدد الكبير من الأوجاع والآلام".

فكت طرف ردائها وأخرجت منه بعض النقود. "هذه هى النقود التى اقترضتها. قد لا تحتاجينها بعد". وراحت تربط النقود من جديد فى طرف ردائها.

"أعطنى هذه النقود. قد أكون بحاجة إلى "رؤية" السجانة قبل أن يطلقوا سراحى".

"هل آخذ هيومانتى معي؟".

"لا. دعينا ننتظر أسبوعًا. وإذا لم يحدث شيء تعالى وخذيه".

كان ذلك خطأ كلفهم الكثير، والسبب فى ذلك أن لجنة إصلاحات الحكم بالإعدام كانت، وعلى غير علم منهم، قد قدمت تقريرها إلى الحكومة. وأوصت اللجنة بإحالة مسألة الإصلاح هذه الخاصة بحكم الإعدام، إلى الجمعية الإقليمية للنظر فيها ومناقشتها. هذا يعنى أن المناقشة ستطول. وعليه فإن السجون، من تلقاء نفسها قررت تصفية المتراكمات المتبقية، معلقة النتيجة على المناقشات التى ستدور حول هذه المسألة. وهنا جرى استدعاء عشماوى من إجازته.

ذات ليلة، من ليالى الأسبوع التالى، وبينما كانت الأخريات يتسلمن طبق العدس المعتاد، قدموا لأومو غذاء خاصًا من العصيدة الخفيفة مع كمية إضافية من الحليب. بقيت النزيلات مستيقظات تعاطفًا مع تلك الروح المسكينة. وأمت القسيسة الصلاة والغناء إلى طلوع الفجر، عندما جرى اقتياد البنت المضطربة وهى تقاوم، وبعدها لم يُسمع صوتها ولم يرها أحد بعد ذلك.

قالت أنتلى للسجانين: "إنها مجنونة. ولا مسئولية عليها".

نظرت ماليس إليها نظرة غير مريحة، ثم هسهست وهى تسحب أومو لتدفعها إلى أبد الآبدين. قالت ماليس محذرة: "لا مفر، أو وداعًا".

فى تلك الليلة، أخذت كل من بيا وباتسى السجانة على جنب وأعطينها خمسين ألف نيرة نقدًا وعدًا.

الفصل السابع والثلاثون

الليل

كانت أنتلى مسترخية فى سريرها. بلغت من القلق حدًا أبعد عنها النوم. كانت تتنهد مرارًا، وتتقلب ذات اليمين وذات الشمال، غير قادرة على منع ذهنها من التجوال بين نشاطات ما مضى من حياتها. كان حالها دومًا على هذا المنوال، ذهنها جوال بصورة مستمرة. كانت هناك بعوضة عنيدة تطن فوق رأسها، مصرة على وخزها بطفيل الملاريا. غطت نفسها تمامًا بغطائها المهلهل. هذا الغطاء كان لونه ورديًا فى يوم من الأيام وعليه طيورًا صفراء اللون موزعة بطريقة عشوائية على سائر أنحاء ذلك الغطاء. الآن أصبح لون هذا الغطاء مائلاً إلى الابيضاض، ويصعب تمييز الرسوم التى عليه.

كانت لا تزال تسمع طنين البعوضة. أنزلت أنتلى ملابسها ببطيء. ثم قامت بعد ذلك وبحركة سريعة، وخبطت بيديها على رأسها. وهنا توقف طنين الحشرة. إذن! لقد قضيت عليك! تهكمت من الحشرة غير المرئية. جفل طفل من الأطفال فى الأسفل. لابد أن هذا الطفل هو ولد بيا. لقد أعادت بيا تسمية ولدها وأطلقت عليه اسم مانديلا. هدهدت الأم وليدها الحديث. وسرعان ما اخترق صوت طفل يرضع سكون الليل. كان هناك تصفيق هنا وهناك، ناتج عن مصارعة النزيلات للنمل. سألت انتلى نفسها، كيف حال الصغار فى مثل هذه الظروف. المؤسف، بل وفعلاً، كان جسم منديلا الصغير قد طاله لسع حشرات النمل.

استعادت أنتلى بداية النهاية، سلسلة المحاضرات التى لم تتم نظرًا لأن رئيس الجامعة كان يعقد اجتماعًا عامًا آخرًا ليحدد الطريق الذى يُمكّن من تجاوز أزمة الجامعة. قيل للطلاب أن ينتظروا، وأن الاجتماع لن يستغرق سوى وقت قصير.

وانتظر الطلبة. وقسموا أنفسهم إلى جماعات صغيرة وراحوا يناقشون المشكلات الوطنية المشتعلة. وقبل وقت انتهاء المحاضرة بدقائق معدودات، دخل عليهم المحاضر ليعتذر لهم ويطرد الطلاب الذين يصعب السيطرة عليهم. كانت سيبيلا Sybilla قد خطر ببالها أن المتاعب بدأت تختمر. وبينما كانت فى طريقها إلى المكتبة للبحث فى أطروحتها، التقت بعض الأصدقاء الذين كانوا يناقشون الأمر على شكل جماعات مكونة من فردين أو ثلاثة أفراد. كان الموضوع الذى يناقشونه هو موضوع العمل الإضرابى الذى على وشك الوقوع.

كانت قد هدّأت الطلاب "هذا أمر لم يتأكد بعد. هذا يعنى أنهم لا يزالون يأخذون ويردون فى الأمر. ويعنى أيضًا أنهم لم يصلوا بعد إلى مرحلة الإجماع. ولذلك يمكن القول إن الأمل لا يزال موجودًا".

بعد أن دخلت المكتبة، أحست وكأنها تتملكها نوبة من الغضب والإحباط. كانت رفوف المكتبة فارغة، والكتب بالية. كانت طاولات القراءة مصابة بالكساح. هذه طاولة جرى سند أرجلها بالحجارة حتى لا تترجرج. الكراسى تعض أوراك الجالسين عليها. قالت همسًا : كيف لبلد مثل بلدنا المنتج للبترول أن يعمل على تجويع مؤسساته وحرمانها من الأرصدة. لو أضع يدى على الرئيس، سوف... سوف. اضربوا، اضربوا، اضربوا! فى العام الماضى لم يحضر الطلبة سوى ثمانية أسابيع فقط من المحاضرات، كل ذلك لأن الحكومة كانت تلعب "الاستغماية" مع إدارة الجامعة. عودوا إلى غرفة الدراسة، وسوف نقوم بتمويل الجامعات. سوف يُستدعى الطلبة. ستبدأ المحاضرات، كل ما فى الأمر هو تخلى الوزير. سوف تصدر الجامعة إنذارًا نهائيًا، وسوف تتجاهله الحكومة. وهنا سوف ننادى بالإضراب، وسوف يطرد الطلاب شر طرده... كانت قصة لا تنتهى، اسطوانة مكسورة على القرص الدوّار. فى هذا العام الأكاديمى وحده، قمنا بإجازات إجبارية مرات عدة، ونحن الآن فى شهر مارس.

أجبرت سيبيلا نفسها على التركيز على الكلمات التى جرى إعدادها أمامها كيما تعنى شيئًا للطلبة. هذا المجلد، كان فى وقت من الأوقات واحدًا من الكتب النادرة التى يرجع إليها الطلبة، ولا يزال فى المتناول فى مبنى الخريجين. كانت عينا أمين المكتبة الشبيهة بعينى الصقر تراقبان ما يجرى بعناية كبيرة. جرى السطو على كتب أخرى كثيرة بقطع صفحات عدة منها بواسطة بعض الطلاب غير المسئولين. قالت سيبيلا بصوت عال: إنهم مزورون، دجّالون، ذئاب يرتدون ثياب الأغنام.

فى آخر مرة ذهبت خلالها إلى كلية الطب، مرت على المعامل شبه الخالية. كانت المعامل خالية من الماصّات، ومن المواقد، مجرد أنبوبة اختبار، وعينه غير محددة السِّمات فوق سطح الطاولة الخشن. بعد أن أصيبت بالفزع التقت واحدًا من زملائها الأذكياء. كان تافا فى عامه الثامن فى كلية الطب.

كان تافا Tafa قد أكد لها: "نحن نعتمد على الملخصات وعلى خيالنا. لا توجد أية مساعدات للتعليم، لا توجد عينات، ولا توجد مواد".

لا عجب إذن أن أطبائنا، الحاصلين على درجة مسئول طبى رئيسى فى مستشفياتنا، يُعاد امتحانهم من جديد عندما ينتقلون إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ويرسب الكثيرون منهم فى ذلك الامتحان.

عندما غادرت سيبيلا المنطقة الأكاديمية إلى المنطقة السكنية صُدمت بما رأته؛ كان الطلبة يقفون على جانبى المشايات ومعهم حقائب ملابسهم وكراتينهم ومختلف الأكياس التى فيها ممتلكاتهم، وكلهم يتصارعون على ذلك العدد القليل من الحافلات وعربات النقل البسيطة kabukabus. كانت هناك عربة نقل صغيرة okada لا تحمل أكثر من فردين، لكن كان فيها ثلاثة أفراد كان أحدهم يحمل حقيبة ملابسه الكبيرة على رأسه. كان بعض آخر من الطلبة يستجدون من السائقين الخصوصيين الركوب المجانى معهم. أما الحافلة التجارية، وهى الحافلة الوحيدة التى "يجرى تحميلها"، كان بداخلها عدد أكبر من حمولتها الأصلية. سرح ذهنها فى

النقل العام فى بلدة مومباى Mumbai. يوجد أمامها رهط آخر من الطلبة، بدءوا يتحركون بالفعل، بسبب الإحباط، بعد أن تعبوا من الانتظار على أمل وصول المركبات، وراحوا يمشون على أرجلهم: قاصدين؛ البوابة الرئيسية.

سألت سيبى Sybi أحد الواقفين: "ماذا يحدث؟" لكنها سرعان ما عرفت الإجابة.

"ألم تسمعى، أيتها الصمّامة؟".

قام طالب آخر بإعطائها الإجابة. كان يضع صندوقه بين رجليه. لقد أعلن اتحاد الطلاب القيام بإضراب جديد. هذا الإضراب سيكون أم الإضرابات كلها، سيكون الإضراب الذى سينهى الإضرابات كلها، على حد قولهم. وقد أمر الطلاب بالخروج من صالات الإقامة عند الساعة السادسة مساء على أقصى تقدير".

كانت الساعة تشير إلى الخامسة وعشرين دقيقة. سارعت سيبيلا إلى قاعة زيك لإحضار أشيائها. كانت فى الغرفة ب ١٠٧. كانت أبعاد الغرفة ٦ × ١٢ ومخصصة لطالبين. لكن المرافق لم تكن كافية، وكانت متباعدة الأمر الذى جعل الطلبة غير الحظيظين يتوسلون إلى الطيور الباكرة التى شغلت الغرف المتيسرة، طلبًا لبعض الامتيازات. تقول آخر الإحصاءات إنه كانت هناك سبع إناث فى الغرفة كلهن طالبات فيما عداها هى. كانت هناك يميسى yemisi (السنة الثانية قانون) ودايسيى Diseye (ثانية اجتماع)، ننا Nnenna (ثالثة إنجليزي) [تربية]، توين Toyin (العام الأخير، حاسب آلي)، جوماى Jumai، وأصاب Asab (ثانية محاسبة ودراسات مال وأعمال)، وأنا المتواضعة (خريجة الاقتصاد). كانت مراتب الإسفنج يجرى تخبئتها، بحسن نية، تحت السريرين أو يجرى تكويمها بجوار دولاب الملابس. وكانت الأحذية، والأشياء زهيدة القيمة، وكذلك الأشياء الحريمى مبعثرة هنا وهناك. كان دولاب الملابس مليئًا عن آخره، ومن فوقه صناديق وشنط سفر لا تحصى ولا تعد، جرى تكويمها فوق بعضها البعض. وكانت حقائب اليد، والأحزمة تتدلى من مسامير جرى دقها فى جنب الدولاب. لم يكن أى شيء من

هذه الأشياء يخص أحدًا بعينه. كانت شركاء الغرفة ينمن فى أى مكان، ويلبسن الأحذية التى تناسبهن، ويستعلمن مستحضرات التجميل المتيسرة. هل هذه هى الدولة الشيوعية التى تنبأ بها كل من ماركس وإنجلز Engels؟ طرحت سيبيلا هذا السؤال على نفسها، أم يتعين علينا انتظار دولة أخرى؟ إذا ما رجعنا إلى الوراء، نجد أن الغرفة (١٠٧) كانت بمثابة تذوُّق مسبق لجناح النساء فى سجن فريمان فورت.

فى ذلك اليوم، وعندما دفعت الباب لتفتحه، لم تكن فى داخل الغرفة سوى ننا Nnenna، وكانت تقفل سوستة (سحَّاب) الحقيبة التى من طراز لويس Louis فيتون Vuitton، التى أهداها إياها صديقها/ شوجار Sugar دادى، والتى أعجبت بها البنات كلهن، ورحن يستلفنها منها الواحدة بعد الأخرى. كانت نزيلات الغرفة الأخريات قد هربن.

قالت ننا: "أخيرًا جئتى. كنت أفكر فى حزم أشيائك".

ردت عليها سيبيلا: "أشكرك. كنت فى المكتبة. ولم أسمع بالإضراب سوى الآن". وقفتا تحملقان فى بعضهما البعض. سرحت عينا سيبيلا فى ملصقات نجوم الروك المعلقة على الجدران. كانت "سبايسى جيرلز" Spice Girls ينظرن إليها.

"ما طول هذا الإضراب؟ هل قالوا شيئًا عن ذلك؟

"إلى أجل غير مسمى. قالوا: إن هذا الإضراب هو أم الإضرابات كلها".

تنهدت سيبيلا مرة ثانية. هذا المقرر الذى يستغرق ثمانية عشر شهرًا والذى التحقت به هى، بدأ يدخل عامه الثالث، على الرغم من أن الخطأ لم يكن خطؤها هى. كانت الغرفة فى ذلك الوقت تبدو وسيعة ومنظمة. كانت هناك بعض علب المرشات مبعثرة على الأرض مثل السُكارى. كانت هناك حقيبة ملابس من الطراز القديم هجرتها صاحبتها وتركتها فوق دولاب الملابس. تناولت سيبيلا سروالها وفوطتها من فوق المسمار المثبت فى الجدار، وألقت بهما على السرير. أنزلت

الصندوق، ونظفته من الغبار وراحت تضع فيه أشياءها. لم يكن أمامها سوى ثلاثين دقيقة يتعين عليها مغادرة الحرم الجامعى خلالها.

قالت ننا بعد برهة قصيرة: "أنا ذاهبة ستغلقين الغرفة وتسلمين المفتاح. البوابون موجودون هناك، سواء أكان أم لم يكن هناك إضراب".

استدارت لتواجه صديقتها وقالت: "سأفعل ذلك". سألتها "ما الذى ستفعلينه خلال فترة التوقف هذه؟".

"بأمانة، ليست لدى فكرة. الأرجح أنى سوف أتسكع فى المدينة. أنا أكره العودة إلى القرية. وماذا ستفعلين أنت؟".

"لا أدرى يا أختى. لقد سئمت هذا العمل، هذا ليس بعمل".

"أنت لست وحدك".

استعادت سيبيلا ذكرياتها "لم يكن الأمر كذلك عندما كنت طالبة. لقد جئت إلى هنا من أجل برنامج دراسى مدته ثلاث سنوات، وأنهيتى المقرر بعد ثلاث سنوات، فقد كانت الأمور على ما يرام".

قالت ننا وهى تقدر وزن حقيبتها: "الأشياء الآن ليست على ما يرام. الآن المقرر المحدد له ثلاث سنوات يمكن أن يدوم أربع سنوات، أو خمس، أو حتى ست سنوات، وذلك بناء على أخطاء ليست من جانبك أو من صنعك".

اقتربت نينا من سيبيلا. تحاضنتا.

قالت مرة ثانية "أنا ذاهبة. عجلى وغادرى المكان. القراصنة سيبحرون هذه الليلة وعليه يجب أن تتعجلى. لا تتمارضى".

قالت سيبيلا وهى تقفل الصندوق الجلدى: "سأفعل. أنا على وشك أن أنهى ما أقوم به. كلاب البحر ستبحر هذه الليلة! تقاليد الحرم الجامعى. كان ذلك نوعًا آخرًا من التهديد لابد للطلبة من مواجهته. وهى لن تترك هذا التهديد يؤرقها فى الوقت الحالى.

قالت ننا عندما أوشكت على الخروج من الغرفة: "لا تفعلى ذلك الذى لن أفعله أنا".

خرجت سيبيلا بعد فترة قصيرة من مغادرة ننا للغرفة. كانت الساعة تشير إلى السادسة إلا الربع، وسلّمت المفتاح فى مكان إقامة البوابين. وحملت حقيبة ملابسها القديمة المنتفخة وقطعت المسافة سيرا على قدميها إلى بوابة الدخول. كان لا يزال هناك طلاب كثيرون، يبحثون وينتظرون المركبات. تركتهم سيبيلا ومضت فى سيرها من باب تجنب التنافس. سمع كثيرون من الكبار خبر الإضراب وبدءوا يحومون حول طريق الجامعة بحثًا عن صيد. أهملتهم سيبيلا فى البداية. وعندما بدأ الشفق فى التحول إلى ظلام، تسرب اليأس إلى نفسها. قالت فيما بينها وبين نفسها، سوف أقبل أى عرض يوجه إلى الآن. أنا لا أود للعَبدة أن يداهمونى هنا. سيجردونها من ملابسها، ويغتصبونها وقد يقتلونها مثلما تقتل الماعز. أشياء مريعة تحدثِ فى الحرم الجامعى هذه الأيام.

اقتربت منها سيارة جيب، كانت عيون هذه السيارة تغمز غمزًا جنسيًا كما لو كانت قطة نعسانة. وقفت سيبيلا على جانب الطريق، وهى تحاول ألا يبدو عليها اليأس. قللت السيارة الجيب من سرعتها. انفتحت النوافذ الإليكترونية. ووصلت إلى مسامعها موسيقى الراب والبوب. مال عليها السائق الذى فى منتصف العمر.

"اركبى يا آنسة! سأخذك إلى أى مكان على هذا الكوكب، بل وإلى القمر أيضًا".

عادت أنتلى مرة أخرى إلى سريرها. هذه هى البعوضة التى تراجعت راحت تشن هجومًا جديدًا، لكن معها دعم فى هذه المرة. غطت رأسها مرة أخرى، وهى عازمة على استرجاع الأحداث التى قادتها إلى مسار الخسارة والخيانة هكذا.

هذا هو الذى قدتنى إليه، أيها الرئيس توم شجبو Chigbo، أو بالأحرى يا رئيس مجلس الإدارة، أو بالأحرى إيجوييو Egoyibo، هذه هى الطريقة التى دفعتنى بها، لا إلى بيت عمتى، وإنما إلى ارتكاب الجرائم (٤١٩).

فى الوقت الذى عاد فيه الفجر من الرحلة الطويلة التى قامت بها خلال الليل، كانت أنتلى قد مرت خلال رحلتها الخطرة من الحرم الجامعى إلى سجن فريمان فورت. تذكرت أن عمتها كانت سعيدة برؤياها مرة ثانية. كان زوجها قد افتتح لها مؤخرًا مركزًا للمال والأعمال، وكانت تبحث عن يد أمينة تدير هذا المركز. كانت سيبيلا أهلا للترحيب. وكان أحد الفنيين قد مكنها من الإلمام بالماكينات فى وقت قصير: الفاكس، ماكينة التصوير، الهاتف، والحواسب الإليكترونية. كانت تتمتع بروح مرحة، خدمتها خدمة جليلة. كانت كفؤة وحققت عوائد طيبة لصاحبة المكتب.

أصبح الرئيس توم شجبو زبونًا دائمًا للمركز. نقل عملياته المالية والأعمالية إلى مركز سيبيلا ـــ سارت الأحوال على ما يرام، لكن سيبيلا كانت قلقة على عمتها. ماذا يمكن أن يحدث لو أن الطلبة عادوا إلى الجامعة واضطررت أنا إلى ترك المركز؟ خطر ببالها، لابد أن تكون معى مساعدة وأقوم بتدريبها ـــ الإضراب له جوانبه الطيبة، لقد مكنها ذلك الإضراب من جمع مصاريف التعليم للفصل الدراسى الثانى والفصل النهائى ـــ سوف تتمكن من دفع مصروفات التعليم وإكمال دراستها وحصولها على الشهادة التى تؤكد ذلك. كانت تعرف إن بعض الطلاب، النجباء حُجزت شهاداتهم وسحبت إلى أن يسووا ديونهم مع سلطات الكلية. سوف تتخرج سيبيلا ومعها شهادتها، والفضل فى ذلك يرجع إلى شجبو الذى كان يغدق النقود عليها. كانت تتعجب متى وكيف استطاع جمع هذا المال.

رد عليها ردًا مستفيضًا: "ما الذى يقلقك، يا آنسة؟ طالما أقوم أنا بتلبية احتياجاتك".

كان شجبو يستخدم الفاكس دومًا فى إرسال مجموعات كبيرة من الوثائق إلى كل أنحاء العالم. كان يأتى فى بعض الأحيان وينتظر الردود على مضض. لم تكن سيبيلا قلقة من هذا الأمر. كان يرسل دومًا فى طلب بعد المقبلات والمشروبات، كما كان يحضر لها بين الحين والآخر هدايا من العطور والمجوهرات.

كان قد قال لها: "إذا كان هناك شيء تريدينه، خبِّريني".

ردت عليه سيبى بلا تردد "أريد حقيبة يد من طراز لويس فيتون"، وهنا خطرت على بالها تلك الحقيبة التى كانت لدى ننا، وكيف أن كل من كن فى الغرفة كن يشتقن ويتطلعن إليها، وكيف كن يداعبن الحقيبة. ويا للعجب، بعد يومين فقط، كان هناك طقم كامل. طقم من حقائب لويس فيتون، وصل فى أعقاب شجبو من أجل سيبيلا! آه! يا له من حظ!

كانت العمة بيسى سعيدة بابنة أخيها. كانت التجارة رائجة. كانت تفكر فى شراء مولد كبير يمكن استعماله فى ساعات الأظلام التى تؤثر على العمل فى المركز.

وصل شجبو ذات يوم إلى المركز. يبدو أنه كان عجلاً ويود إرسال رسالة إليكترونية. وكان عليه التحرك سريعًا إلى البنوك قبل أن تغلق أبوابها، لصرف حوالة قادمة عن طريق الويسترن يونيون. ومن البنك كان يتعين عليه التوجه إلى المطار. سيجرى اليوم الإفراج عن شحنة بضائعه، لكن كان عليه إرسال هذه الأوراق عن طريق الفاكس إلى شركائه فى باريس، وميلانو، وفيينا. ولم يكن فى المحل ضوء أو إنارة!.

قالت له سيبيلا بلطف: "أترك هذه الوثائق معى. وسأقوم بإرسالها فور عودة التيار الكهربى. أرجو أن تثق بى.

يبدو أن شجبو كان مترددًا. نظر إلى ساعته للمرة الثالثة خلال عشر ثوان.

أمرها قائلاً: "وهو كذلك، يا آنسة. احترسى واحرصى من فضلك. أرسلى هذه الوثائق إلى باريس أولاً. ثم أعيدى إرسالها إلى ميلانو وفيينا. وها هى خمسة آلاف نيرة. وإذا لم تكن كافية فسوف أدفع الباقى عندما أعود".

"وهو كذلك أيها الرئيس، سأفعل ذلك. لا تشغل بالك".

اندفع خارجًا من المركز. كانت سيبيلا قد أخفت المظروف وراحت تركز على تنفيذ المكالمات التليفونية المطلوبة للزبائن. بعد ذلك، وعندما عاد التيار الكهربى، كانت قد أغلقت الدكان ووجهت الفاكس على العنوان المطلوب للزبون الذى تحول إلى حبيب. طلبت رقمًا تليفونيًا فى باريس هو لرجل يدعى السيد/ بيير شيلوت Chaillot. وعندما سمعت صوت الفاكس، داست على زر الإرسال. أُرسلت الوثائق. ثم طلبت بعد ذلك رقم ميلانو. كان الرقم مشغولاً. جرَّبت رقم فيينا. كان مشغــولاً أيضًا. انتظرت، وهى تفكر تفكيرا عميقًا. داست على زر استعادة الرقم: لا يزال الرقم مشغولاً. رتبت الأوراق، وراحت تضرب عليها برفق لضبطها. يتعين على العمة بيسى التفكير فى الاستفادة من آلة الفاكس الميكانيكية. لديها الأرباح الوفيرة التى تمكنها من ذلك. وبهذه الطريقة، لا يتعين على سوى وضع هذه الأوراق فى الآلة، ثم أقوم ببرمجة المطلوب، وستقوم الآلة بطلب الرقم بصورة مستمرة إلى أن يرد، ثم نقوم بعد ذلك بإرسال الأوراق.

قلَّبت سيبيلا الأوراق وتصفحتها. "Mmmm" كانت ترويسة الرسالة معنونة: مؤسسة البترول الوطنية النيجيرية، البنك المركزى النيجيرى، قسم التحويلات الأجنبية. "صندوق البترول، وزارة المالية، مكتب معالى الوزير". قرأت خطابين من الخطابات. كانت الرسالتان موقعتين من كبير التنفيذيين. كانت إحدى الرسالتين تحمل توقيع رئيس الدولة. ترى، هل كان شجبو محاميًا أم مستشارًا لهؤلاء الناس؟ هل هؤلاء هم شركاؤه فى العمل؟ إذا كانت الإجابة بنعم، فهل هذا هو مصدر ثروة هذه الرجل؟ هل هو محام أم مستشار؟ لكن الرجل لم يتخرج فى الجامعة. لقد قال لها ذات مرة إنه وصل إلى المرحلة الثانوية، قبل أن يخرجه عمه من المدرسة. تتلمذ بعد ذلك على يدى عم آخر له، كان واحدًا من تجار قطع الغيار فى كنو.

جربت الرقم مرة أخرى. من يمن الطالع أن بدأت الماكينة فى العمل. أدخلت ورقة فى الفاكس. عند هذه اللحظة دق شخص على باب المحل. استدارت. كان شجبو هو الطارق، وكان يبدو عليه القلق. وضعت ورقة أخرى فى الفاكس ثم ذهبت لفتح الباب.

"وصلت إلى أين، يا آنسة؟".

"أنا شغّالة الآن. أرسلت إلى باريس. وأنا أرسل الآن إلى فيينا. الخط مشغول".

وقف بالقرب منها وراح يراقب ما تفعل: "حسن. بعد الانتهاء من الإرسال. أعيدى إرسال هذه الوثائق إلى الرجل الموجود فى نيويورك وإلى هذه السيدة الموجودة فى ولاية تكساس. "أحسنت. أحسنت. أنت فتاة جيدة".

بعد ذلك بستة أشهر كان إضراب أباطرة الجامعة لا يزال مستمرًا. توافدت جماعات الضغط والأعيان النيجيريين على الحكومة للتحاور مع زعماء قلاع التعليم العالى. رفضت الحكومة الحوار. أبقى الأباطرة على عنادهم. بقى الطلاب فى منازلهم، الأمر الذى أحزن آبائهم وأولياء أمورهم ورعاتهم. أبناء الوزراء كلهم تلقوا تعليمهم فى الخارج. وهو لا يهمه أو يعنيه إذا ما أغلقت جامعاتنا إلى الأبد. لن يتأثر أبناؤه بذلك.

بقيت سيبيلا فى مركز ألفا لرجال الأعمال، لتقوم بتصوير المستندات، والكتابة، وتنفيذ المكالمات التليفونية، والرسائل الفاكسية. كانت فى بعض الأحيان، تلتقى شيف شجبو لشرب نخب معه فى فندق مجاور للمركز، يبدو أنه كان مملوكًا له. كانت هيأه العاملين فى الفندق تعاملهما كما لو كانا من الأسرة المالكة. فى بعض الأحيان وعندما يكون بينهما موعد، كانت سيبيلا تسبق فى الحضور إلى الفندق، وهنا يقوم النادل بتوصيلها إلى غرفتهما الدائمة حتى تكون فى انتظار وصول السيد. فى بعض الأحيان الأخرى كانت تذهب إلى الجناح لتلقاه مشغولاً مع الهاتف، وبالقرب منه قارورة من الجلدر Gulder. كان يشير إليها بخلع ثيابها وتنام إلى جانبه فى السرير.

تواصل ذلك الإضراب الذى يهدف إلى إنهاء الإضرابات كلها.

فى إحدى الليالى وبعد أن كانا مسترخيين على إثر معركة الحب التى دارت

بينهما، اقترح شيف شجبو عليها، امتلاك سيارة pure water للتجول بها فى الحرم الجامعي؟ الكلمتان pure water هما الكلمتان الدراجتان اللتان يُشار بهما إلى الجولف GTI، والسيارة التويوتا ستارلت Starlet. صرخت سايبى فرحًا وقالت: "واو!" الآن ستصبح مثل زميلاتها اللاتى كن يتباهين بخفة الحركة فى الحرم الجامعى، ستكون محطًا للحسد من زميلاتها فى الغرفة.

دخلا فى جولة أخرى من العمليات الحربية. لاحظ شيف شجبو المزيد من العاطفة فى تحركات رفيقته، مزيدًا من التلوى، مزيدًا من الضوضاء التى لا معنى لها. دار بخلده أنت تحصل على المزيد من الحليب من البقرة السعيدة. بعد ذلك، وبعد أن سكِر، سألته فى حذر، فيما إذا كان جادًا فى موضوع السيارة.

قال وهو يستدير ناحيتها: "هذا أكيد يا آنسة. أنا أعنى ما أقول. سوف أشترى لك سيارة. أما إن سألتينى عن قيمتها؟ ستكون فى حدود مبلغ ألف أو ألفى دولار. هذا مبلغ لا قيمة له". وأخذ بجعة كبيرة من الكأس. وشكلت البقايا شنبًا على شفته العليا.

تعجبت سيبيلا من ذكر المبلغ بالدولارات، لماذا لم يذكره بالنيرات؟ لكن الرجل كان من رجل الأعمال العالميين، فضلاً عن أنها ظلت ساكتة. انتظر إلى أن أقوم بتوصيل رفيقاتى فى الغرفة إلى الكلية. ننا، توين، توين، جوماى......

واصل شيف شجبو كلامه بحذر: "أنا لا أريد سوى مساعدتك". راح يمصمص شفته العليا: "سيصل واحد من شركائى فى العمل، قادمًا من ألمانيا فى نهاية هذا الأسبوع. وسوف ينزل فى فندق وايفيريرز wayfarers. أود منك مقابلته وأن تكونى معه لطيفة إلى أن أنضم إليكما".

"أكون لطيفة معه. ماذا تعنى بذلك؟".

"تظاهرى بلعب الكرة(*) playball. اشغليه إلى أن أجيء أنا. سيكون معه المبلغ المتبقى من حساب عقدنا، آلاف الدولارات. وهو يود التفتيش على المشروع قبل دفع القسط الأخير..... وعليه إن سار كل شيء على ما يرام، فسوف تحصلين على سيارتك بعد سفره مباشرة".

"حسن، إن كان الأمر لا يعدو استقباله وملاطفته، فأنا أعتقد أن بوسعى عمل ذلك".

الشيء الذى لا يصدق، أنه كان مستعدًا لجولة ثالثة.

* * *

فى فترة العصر

حدث فى الأسبوع التالى أمران فى سجن النساء ــ إدخال أونوم Onome السجن لا تهامها بالقتل وتولى مارسى لمهام عملها. حدث ذلك فى يوم الاثنين قبل تغيير الورديات، عندما قامت المشرفة العامة على السجون باقتياد امرأة شابه فى العشرينيات من عمرها إلى داخل الزنزانة. وهنا انفك عقال جهنم. راحت النزيلات يصرخن عندما رأين سجانتهن الحبيبة.

ابتسمت أنتلى: "أخيرًا عدت إلى عملك!".

قالت نيرس: "بعد غياب طويل".

قالت سوزان: "تبدين رائعة!".

راحت النزيلات اللاتى جنن بعد قيام مارسى بإجازة، يحملقن فى الرئّسة الجديدة، غير فاهمات ما يدور. كيف للنزيلات أن تنشرح صدورهن عندما يرين

(*) هذا التعبير له معنيان أولهما قريب ومباشر والثانى بعيد وهو المقصود ومعناه المعاشرة الجنسية (المترجم).

ضابطة ترتدى الزى الرسمي، رحن يراقبن المشرفة العامة على السجون وهى تحيى النساء وتسأل عن صحتهن.

اتهمت القسيسة الضابطة قائلة: "لم تكلفى نفسك مئونة زيارتنا".

ردت عليها المشرفة العامة على السجون، وهى تشير إلى النزيلة الجديدة بالاتجاه إلى ركن من أركان الزنزانة: "إنها القوانين، يا باتسى. أنت تعرفين أننا لا يسمح لنا بالمجيء إلى هنا عندما نكون فى إجازة. يا أونوم". قالت لمرافقتها "أوجدى لنفسك مكانًا ورتبى حالك فيه".

نظرت مارسى فى سائر أنحاء الغرفة: "واو! أُناس جُدد كثيرون. وأطفال أيضًا!" ربتت على كتفى التوأم الذى وقف يطيل النظر إليها. اتجهت إلى بيا ولمست وليدها الجديد.

ألمحت أولورى قائلة: "أومو كان لديها طفلة أيضًا لكنها ماتت. ماتت الطفلة لأن أمها أزهقت روحها".

"ثم أعدمت أومو بعد ذلك".

كانت أنتلى تنظر إلى النزيلة الجديدة التى أحضرتها مارسى. كانت أونوم شديدة الجمال. كانت طويلة ورشيقة، لكنها صاحبة أرداف شديدة الاتساع. كانا يتحركان متمردين عندما تمشى. راقبت أنتلى المرأة، وهى عاجزة عن رفع عينيها عنها. وقفت أونوم برهة، مُحملقة فى الفضاء، غير واثقة أو متأكدة مما يمكن أن تفعله. كانت عيناها مثل لوزتين كبيرتين. كانت تبدو خطرة كما لو كانت ثعبانًا. كانت تحركاتها مقصودة وعن عمد. رفعت يدها إلى أنفها وضغطت على فتحتى منخارها. لاحظت أنتلى أنفها المدبب وشفتيها الممتلئتين.

يبدو أن شفتها السفلى كانت مصابة، ومتدلية، ومتهدلة، كما لو كانت كبلاً متدلٍ من كابلات الهاتف. أما شعرها، وعلى الرغم من تصفيفه على شكل خصل، فكان مقصوصًا. قالت المتحدثة الرسمية: "سيعود هذا الشعر إلى وضعه الطبيعى خلال فترة قصيرة، لو بقى طويلاً سيكون أفضل".

اقتربت من مارسى. وأشارت إلى الوافدة الجديدة، باستخدام عينيها.

همست المشرفة العامة على السجون: "قاتلة أخيها. لقد أرسلت القتلة لاغتيال أخيها حتى ترث ضيعة والدها".

"هل هى ممن ينتظرن المحاكمة؟".

"لا. هى ممن ينتظرن الإعدام". وعليه، فقد وَجّه إليها الاتهام وأدينت بالفعل وحُكم عليها.

نظرت كبيرة النزيلات إلى الشابة الصغيرة مرة ثانية. رئيس الدولة، يتعين عليه النظر فى الالتماس المقدم منا، وإلا، سوف أكتب التماسًا آخرًا. وهذا يتطلب إضافة أسماء أخرى جديدة.

سألت مودى السجانة: "كيف أمضيت الأجازة؟ هل تزوجت واحدًا من رجليك؟".

ردت عليها مارسى "مرَّ ماءً كثير من تحت الجسر يا مودى. كيف حال ولدك؟ لقد أبلغتنى جوى أنه لم يزرك منذ مدة".

ردت عليها المرأة المسكينة: "يا أختى. أنا لا أعرف شيئًا". اغرورقت عيناها بالدموع "لابد أنه توفى".

صاحت الزنزانة كلها دفعة واحدة: "حاشا لله!".

وبختها باستور قائلة: "مودى، قلت لك لا تجرى اللعنة على نفسك".

"هو مريض مرض الموت. المرضى بهذا المرض لا يعيشون طويلاً. أنا على يقين من أنه توفى. كان مفروضًا أن يتزوج فى سن مبكرة وينجب أطفالاً".

قالت مارسى: "لا تقولى هذا الكلام يا مودى. هناك عقاقير كثيرة حاليًا فى السوق لمن يعانون من هذه الأمراض المهلكة. قد يكون متوعكًا. لكنه سيجيء إليك قريبًا. أنا على يقين من ذلك".

ردت المرأة: "هذا كلام طيب. هذا كلام طيب".

قالت إحداهن: "آمن Amen توفت".

قالت مارسى: "بلغنى ذلك".

سألتها باستور (القسيسة) "ماذا حدث فى مسألة العفو؟ مضى قرابة العام ولم نسمع شيئًا عن ذلك العفو، لم يطلق سراح أحد".

ردت عليها مارسى "إنها البيروقراطية. حذرتكن أن ذلك لن يكون أمرًا عاجلاً".

تدخلت أنتلى "لقد سمعت عن البيروقراطية. لكن هذا الذى يجرى هنا يبزها ويتفوق عليها. نحن مثل من ينتظر المجيء الثانى للمسيح".

* * *

المساء

وقت الترفيه. خرجت النساء على شكل طابور إلى الأرض المزروعة بالحشيش الأخضر، خلف الزنزانة لاستنشاق شيء من الهواء الطلق. كانت عيدان الحشائش قد بدأ يصفر لونها. كنا فى منتصف موسم رياح السموم. كانت الرياح تصفر، وتحمل المزيد من الغبار. كانت النزيلات ترتعشن وهن واقفات على شكل أزواج أو ثلاثيات يتكلمن فى أمور تافهة. كانت أونوم هى الوحيدة التى تركت فى الزنزانة. كانت مصابة بإصابات سيئة بسبب وحشية الشرطة، على حد قول بعض الناس. عندما ألقى القبض عليها وبعد أن أودعت الحجز. عذبها أصحاب البزز السوداء، وحتى بعد اعترافها بسجل أحداثها السابق، أصروا على "تتبيلها بالفلفل الحريف". واقع الأمر أن إدارة السجن رفضت استلامها عندما جرى إحضارها بسبب حالتها الصحية السيئة. لم يتبق لها كل من أسنانها سوى ثلاثة سنون. أما

بقية الأسنان فقد ضاعت بسبب الصفع على الوجه وبسبب اللكمات، وبسب طبان البنادق. عيناها الواسعتان اللامعتان، كانتا أعظم ما فيها. هاتان العينان أصبحتا مجرد خطين ليس إلا. كانت ترقد فى السرير الذى أخلته أومو، وراحت تطيل النظر إلى السقف، وهى تنتظر وتهزهز رجليها قلقًا.

ألقت سوزان الكرة فى اتجاه التوأم. " [B] هى الحرف الأول من كلمة ball [كرة]". قالت هذا الكلام وهى تشير إلى اللعبة.

ردد الأولاد بعدها: "[B] هى الحرف الأول من كلمة ball [كرة]"..

أعطت المرأة البيضاء الكرة للأطفال الصغار. راحا يركلانها مثلما كانت تفعل النساء من قبل. كانا يصرخان فرحًا، ويسقطان ويقفان مرة أخرى. وانضمت إليها سوزانا.

اتجهت أنتلى صوب الشرخ الذى فى الجدار. نادت بصوت خفيض "أيتها البنت الصغيرة! أعطنى بعشرين نيرة فولا سودانيًا".

لفت النقود على شكل كرة وألقتها من خلال الشرخ. وبعد ذلك بدقيقة واحدة، سقط صاروخ مغلف أمام قدميها. قبل أن تتناول هذا الصاروخ، نظرت المسجونة حولها. كانت السجانات بعيدات. تناولت اللفافة، واتجهت نحو بيا، الجالسة فى ركن من أركان الملعب، ثم جلست أرضًا.

"توأم!".

جاء الولدان يجريان. قسمت أنتلى الفول السودانى إلى ثلاثة أقسام.

قالت وهى تدفع جزءا إلى بيا "هذا من أجل عيون مانديلا". تخلى التوأم عن اللعب، وشغلا نفسيهما بالفول السودانى.

طوت أنتلى شريط الأخبار. قالت، إلى أن يدخل الليل. كان الشريط عامرًا بالأنباء. لقد أبلت البائعة الجائلة بلاء حسنًا. لقد لفت الفول السودانى فى صفحة كاملة من جريدة "هذا اليوم" This Day. ثم تحولت بعد ذلك إلى تلاميذها.

"الآن، أيها الرجال الأفاضل، لا تنسوا. الأفعال تصرف أما الأسماء فيجرى إلحاقها بالضمائر. التصريف الأول، وقد قمتما بتصريف amo, amas, amat. الإلحاق الأول mensa ومعناها "طاولة" هل تعرفان ما هى الطاولة؟" لم يحدث رد فعل من جانبهما. كان الطفلان مشغولين بالفول السودانى. "ما عليكما. هناك ست حالات فى كل إلحاق. حالة الرفع، والمنادى.....".

انتهى الولدان من أكل الفول السودانى ثم هربا.

جلست بيا فى هدوء، تصغى إلى المتحدثة الرسمية. قالت: انفكت عقدة. وسوف تُفكُّ الخيوط، لكن هى لا حول لها أو طول.

...... الإلحاق فى المفرد والجمع يتفقان مع.....".

طلبت السجانة منهن الدخول إلى الزنزانة.

الفصل الثامن والثلاثون

صحيفة هذا اليوم

من مراسلنا القضائى:

أمر قاضى قضاة العاصمة الفيدرالية، أمس، بإطلاق سراح ست وعشرين من النزيلات اللاتى ينتظرن المحاكمة فى سجنى سوليجا وكوجى.

قال القاضى الذى كان يقوم بزيارة دورية للسجون الواقعة فى دائرته إن الهدف هو تبين ما إذا كان أى أحد من النزلاء أو النزيلات، قد جرى بقاؤه فترة أطول من المطلوب أو جرى احتجازه بطريقة غير قانونية.

جاء إطلاق السراح من قبل قاضى القضاة مبنيًا على السلطة المخولة له بناء على القانون الجنائى (الإفراج من الحجز) (النص الخاص بذلك) من القانون رقم ١٩ للعام ١٩٧٩....

..... وفى تطور آخر، فإن مراقبة حقوق الإنسان نادت، وطالبت بالغلق الفورى لسجنى سوليجا وفريمان فورت، من منطلق أن هذين السجنين "لا يصلحان لإسكان البشر فيهما".

صمتت أنتلى بعض الشيء. غير صالحين لإقامة البشر. صح، صح. ومع ذلك فنحن موجودات هنا.

فى الوقت نفسه، جرى الحكم بالإعدام على عشرة أشخاص بعد محاكمة تبين منها أنهم متهمون بالخيانة لمحاولتهم قلب نظام الحكم فى العام الماضى. الرجال التسعة ومعهم المرأة ثبت أنهم شاركوا فى الهجوم على مدرعة فى العاصمة، الأمر الذى أسفر عن معركة بالبنادق، استمرت ثلاث ساعات. والمتهمون أمامهم واحد وعشرون يوما لاستئناف الحكم.

كان الجو متوترًا أمام قاعة المحكمة، نظرًا لأن عائلات هؤلاء المتهمين كانوا يبكون عندما جرى تسليم المحكومين بعد محاكمة دامت ثمانية أشهر، وهذا طبقًا لما أورده مراسل الجريدة.

* * *

بانتهاء حفل الكوكتيل الذى أقيم تكريمًا لشخصية كبيرة، طلب رئيس الدولة رئيس مجلس إدارة لجنة العفو والرحمة. أخذ عضو البرلمان السابق على جنب وراح يبحث فى جيبه. وأخرج من جيبه صورة باهتة من رسالة وقدمها إلى القاضى آلوميوكا.

"سيدى، استلمت هذه الرسالة منذ وقت مضى. وهى من بعض النساء المحبوسات. أرجوك أن تلقى عليها نظرة. وانظر ما الذى يمكن عمله.... هذا رجاء خاص. تشاور مع أعضائك فى المحكمة. وقرروا ذلك الذى يمكن عمله لجناح النساء". نظر رئيس اللجنة إلى الورقة: "رسالة ندم وتوسل حار والتماس للعفو والرحمة وإنقاذ الأرواح كان ذلك هو عنوان الرسالة.

قال وهو ينحنى لتقبل الرسالة: "رغبتك أمر لى، يا صاحب السعادة". "لقد أنهينا عملنا بالفعل لكنى سوف أدخل هذه الرسالة ضمن عملنا". ثم لوّح بالرسالة.

جرى إدراج هذا الطلب ضمن بقية الطلبات التى ستناقش ضمن البند رقم ٧ من جدول الأعمال.

الفصل التاسع والثلاثون

أثناء النهار

كان جمال أنوم مثار حديث الزنزانة. كانت كل واحدة منهن تود لنفسها جزءًا من هذه المرأة. لم تستطع أنتلى إبعاد عينيها عن ردفيها الجنوب إفريقين. كانت نيرس هى ولولورى يتابعانها بأطراف عيونهما. يزاد على ذلك أن المرأة البيضاء هى الأخرى، المتخصصة فى خدمة الذات، كانت مأسورة بتلك الوافدة الجديدة.

جرى تخصيص سرير أومو بعد إخلائه لأنوم. جلست أنوم فى السرير المخصص لها. لم تقل شيئًا طوال الوقت. تنهدت كثيرًا وكانت تضع يدها على ذقنها. تقلبت عيناها الشبيهتان بعينى الثعبان. كانت تراقب الناس وهم يتكلمون عبر الغرفة. كانت إيتوهان توجه إليها الكلام فى بعض الأحيان، وكانت هى بدورها ترد على ذلك الكلام. كانت تستغرق بعضًا من الوقت قبل أن تخرج الكلمات من فمها. منذ إلقاء القبض عليها بدأت تعاودها الفأفأة والتأتأة. كانت تتغلب على هذه الفأفأة والتأتأة عندما تكون لوحدها، لكنها كانت تعلم أنها لن تستطيع نطق كلمة واحدة أمام الزنزانة كلها. كان فكاها يؤلمانها. كان رأسها يدق. كانت تحس ألمًا فى صدرها، وكانت تعرف أيضًا أنها لوت ساقها منذ مدة عندما كانت فى زنزانة الشرطة، التى كان محاميها يطلق عليها اسم غرفة التعذيب.

كانت باستور (القسيسة) هى ومودى تتحدثان بأصوات خفيضة. كانت المرأتان الهوساويتيان مشغولتين فى نقاش حاد، غير عابئتين ببقية الغرفة، كانت رحمة تستخدم الحركة والإشارة على نطاق واسع، وبطريقة مثيرة، فى التعبير عن نفسها، فى حين كانت بنتا تكتفى بالإيماء برأسها إشارة على موافقتها على ما يدور. كانت تاو تمشط شعر إندى. كانت تجلس خلف حبيبتها على سريرهما.

كانت إندى محشورة بين وركى حلاَّقتها. كانتا منشغلتين تمامًا فى الحكاية التى كانت إندى ترويها. كانت تاو تُميل رأسها بين الحين والآخر حتى تستطيع التّسمع بطريقة أفضل.

كانت تاو تود أن تقول: "أهذا صحيح؟". وتود أن تؤكد لها إندى على ذلك.

"نعم، أقول لك إنه صحيح".

بقيت أولورى فى سريرها تصيخ سمعها إلى البنات. لم يكن لديها ما تفعله غير ذلك. فى بعض الأحيان، كانت تراقب البنت البيضاء وهى تلعب مع الأطفال، لكن أذنيها كانتا مع إندى تصغيان إلى قصتها. كانت تلك القصة عن عشيق فى الحياة الأخرى.

كانت إنديورانس تقول: "عرفته من قبل. ثم اختفى بعد ذلك. لم أره منذ أكثر من أربع سنوات. ثم عاد بعد ذلك مختلفًا تمامًا".

قالت تاو: "ربما يكون قد سافر إلى الخارج... وهذا هو مقصد أبنائنا فى هذه الايام. هم يسافرون من هنا إلى ليبيا ومنها يسبحون إلى أوروبا.

"هذا الصبى لم يصل إلى هناك. لقد توقف أمينيك Emenike فى الجابون".

"الجابون؟".

"نعم، الجابون، لأنه كان يقصد إفريقيا الوسطى. وفى الجابون أمسكوا به".

"من الذى أمسك به؟". كانت إندى تحاول إخفاء غضبها وسخطها.

"الشرطة الآن هى التى تلقى القبض على الأشخاص". كان يبيع البنادق. "وبدلاً من أن يتعلم أصول هذا العمل، دخل فى تجارة البنادق مباشرة. سافر إلى الجابون فى المرة الأولى، ولم تحدث أية مشكلة. وسافر فى المرة الثانية، وأمسكوا به. قالت الحكومة الجابونية إنه كان يود الإطاحة برئيسهم. وضعوه فى السجن.

جماعته فى ليبرفيل لم تساعده بكوبو (مليم) واحد. يقولون: إنه كان متسرعًا، ولم يستمع إليهم، وإنه رفض أن يكون صبيًا مثل الصبية الآخرين. وحُكم على إمينيك بعامين من الأشغال الشاقة، هو وأخيه. أرسلوهما إلى سجن فى داخل الغابة. السجن بلا مرافق. وبلا ماء. قال: إن هناك عربة مياه كانت تجلب الماء مرة كل ثلاثة أشهر. ثلاثة أشهر وليست ثلاثة أسابيع أو ثلاثة أيام. وبعد أن تعطلت سيارة الماء، يبقى الشخص هناك مدة ستة أشهر بدون ماء. هذا يعنى أن الإنسان يشرب بوله كى يبقى على قيد الحياة. وفى بعض الأحيان قبل أن ينتهى الإنسان من التبول، يكون إنسان آخر قد أخذ ذلك البول وشربه. تعالوا لتشاهدوا الصراع على البول. الطعام لا يقدم إلا مرة واحدة كل يومين. بعد أن أمضى إمينيك ثلاثة أشهر فى ذلك السجن، عاد مريضًا جدًا جدًا. كان إمينيك على وشك الموت، شكله كان مثل شكل المصاب بمرض نقص المناعة المكتسب (إيدز). وهذا هو السبب وراء إخلاء الجابونيين سبيله. وبذلك يجعلونه يموت بسبب بلدهم.(*)

قالت إحداهن: "أغلق صاحب المحل دكانه، وأوقف تلك التجارة. أنت لا يمكن أن تدخل مجال هذا العمل كما لو كنت تدخل كنيسة الخلاص".

أردفت أولورى من مكانها: "كان إمينيك عجلاً بالفعل". "المفروض أنه كان يتعين عليه أن يكون صبيًا فى البداية. الحساء الساخن يجرى تناوله بالتدريج".

قالت أفولينو: "هذا عمل من أعمال المافيا". يجب أن نعرف ذلك. معروف أن اللصوص المسلحين هم وتجار البنادق، تربطهم ببعضهم قرابة.

قالت تاو "لا يزال أمامه حظ، إن ذهب إلى ليبيا..." وصمتت وراحت تهز رأسها. ونظرت إليها الأخرى انتظارا لنهاية القصة. سبق أن سافرت تاو إلى أماكن كثيرة. وهى تعرف أشياءَ كثيرة.

(*) الأجزاء المكتوبة بالبولد هنا وردت بإنجليزية ركيكة. لأن هذه الشخصيات لا تعرف من الإنجليزية سوى القليل جدًا وتخلط هذا القليل الذى تعرفه بلغاتها الوطنية. (المترجم)

"إن سافر إمينيك إلى ليبيا، فوداعًا له. في البداية سيقطعون يده اليمنى أو ذراعه اليمنى، وهذا يعتمد على ما يرتكبه من جرائم. ثم بعد ذلك رجله اليمنى أو قدمه اليمنى، ثم بعد ذلك ذراعه اليسرى. واقع الأمر، أنهم عندما ينتهون منه، سوف يرجوهم أن يقتلوه".

قالت إحداهن: "بلغنى أنهم فى إيران ينفذون حكم الإعدام فى ميدان عام".

قالت سوزانا من باب التوضيح: "حدث ذلك أثناء الثورة".

أكدت الراوية: "اسمعى يا أنت! هذا يجرى لحد الآن".

قالت تاو مخاطبة يفيوما: "أنت على حق. قال أحد رجال مجموعتنا إن أخاه استطاع شق طريقه إلى إيران. وكان يود الزواج من إيرانية كى يحصل على الأوراق المطلوبة(*). صادق واحدة من البنات. وعندما قبضوا عليه أعدموه شنقًا. أعدموه على الملأ!".

برزت أنتلى من الركن الذى كانت فيه: "أونوم، الكلمة معك الآن!" كانت أنتلى تود سماع صوت البنت، حتى تعفى عينيها من التركيز عليها.

نظرت أونوم إلى الأعلى نظرة حادة. كانت أونوم قد فهمت أن أنتلى هى المتحدثة الرسمية باسم الزنزانة. كانت النزيلات كلهن يدِنَّ لها بالطاعة والاحترام مثلما كن يفعلن فى سجن "سابيل رود" Sapele Road فى بنين للمتحدثة الرسمية مارتينا أوديون.

سألتها الرَّيسة: "ما الذى جاء بك إلى هنا؟ تكلمى! الكلمة معك".

تنحنحت أونوم. حرّكت نصفها الأوسط. كانت متعصبة. فتحت فمها لكن لم تخرج منه أيةّ كلمة... "أنا آه.، آه.، آه...." تلوّت يداها، وضعتهما داخل بعضهما، ومع ذلك لم تخرج كلمة واحدة من فمها.

(*) الشخصية هنا جاهلة. والمقصود "بالأوراق المطلوبة" هنا هو الإقامة الرسمية. وهذا يحسب للمؤلفة فى تصويرها الدقيق لشخصياتها من خلال الكتابة. (المترجم)

اتجهت الأنظار كلها إلى هذه الفتاة التى من ولاية إدو Edo(*). توقفت الطيور الهوساوية عن التغريد. قطعت الجارات المباشرات للفتاة سياق الحديث وقلن: .. "أنا آه.، آه.، آه...".

قالت إيتوهان للمرأة التى من قبيلتها: " لا استطيع Doh، لا أقدر Laho".

غمغمت أونوم قائلة: "من فضلك wuese" وهى تشير بعينيها إلى الفتاة التى من الأدو. هى لا تقوى على الكلام. لم يكن فى فمها سن سليم. هى لا تستطيع الكلام إلا لثغًا.(**) ما عليك من التأتأة والفأفأة. ذهبت إليها إيتوهان، وتشاورتا بصوت خفيض، فى حين كانت بقية الزنزانة تراقب وتنتظر. عندما وقفت إيتوهان، أعلنت على الزنزانة.

"تقول إنى يجب أن أتكلم نيابة عنها. وأنا أعرف قصتها ـ لقد روتها لى ـ سوف تصغى أونوم إلى ما أقوله وإذا ما أخطأت فسوف تصحح خطئى".

"سألت إحداهن: "لماذا لا تستطيع الكلام؟".

أجابت ايتوهان: "بسبب وحشية الشرطة". قالت هذا الكلام، فى الوقت الذى كانت فيه قريبتها تشير إلى فمها وهزت رأسها. وهنا وخزت المتحدثه الرسمية الممرضة (نيرس) التى اتجهت إلى المصابة ورفعت فكها بلطف. كان فكها لا يزال متورمًا مثل ثمرة أُكِل نصفها. هزت ونمى رأسها حزنًا.

كررت الزنزانة كلها كلامها "تكلمى". وهنا أومأت أونوم برأسها مرات عدة إشارة إلى ألفهم.

"اعترفت قائلة: "أشكركن".

"نحن نشكرك أيضًا".

بعد شيء من الصمت المتأمل بدأت إيتوهان كلامها.

(*) الأدو: ولاية من الولايات النيجيرية. (المترجم)

(**) اللّثغ: بتشديد اللام وتسكين الثاء: هو نطق السين ثاءًا. (المترجم

"أونوم إيدوسنوان Edosonwan، والدك، لاكي Lucky إيدوسنوان، كان حظيظًا بحق وحقيقة". أومأت أونوم برأسها علامة الموافقة: "كان عندما يضع يده فى أى شيء ينجح ذلك الشيء. كان الرجل أغنى العاملين فى النقل فى الغرب الأوسط. واقع الأمر أن إيدوسنوان كان رائد النقل الداخلى بين عاصمة ولاية إدو وبقية البلاد الأخرى. كانت مركباته العديدة تعمل على خط العاصمة. كان يجرى كل شهر إضافة حافلات جديدة إلى أسطوله، كما كان يجرى كل شهر أيضًا إضافة مدن جديدة لتكون مقاصد لتلك الحافلات. الناس يقولون إن هذا الثراء والغنى إنما جاء نتيجة لدواء فعال.

الله تعالى deity كان قد وعد أباك بثروة ورفاه لا يقدران بثمن، بشرط واحد فقط: تخلى عن أثمن ما عندك، حسبما يقال، لوالدك. وعندما انهارت توسان أوساجاى Odagie ايدوسنوان، أمك ذات يوم فى سوق أبا oba، ظن الناس أن الوفاء بالشرط قد تحقق.

"لكنك أنت وأخيك آسيموتا Asemota كنتما غبيين. أنتما لم تفهما الكتاب(*)، أى كتاب على الإطلاق. أو البقاء بين جدران غرفة الدراسة. تسربتما وبقيتما عاطلين فى المنزل، ورحتما تبددان ثروة والدكما. أنتما يا معشر الناس عشتما فى (١) شارع إيوى، فى ذلك الوقت. والشيطان هو الذى يوجد العمل للعاطلين. انضم أخوك أسيموتا إلى العصابات السيئة وصبغ مدينة بنين باللون الأحمر. وأنت، يا أونوم، كنت معروفة فى كل النوادى الليلية التى فى المدينة. الموضة Fashion كانت اسمك الأوسط. كان الجمال هلاكك. حطمت زيجات كثيرة فى البلدة. الرجال كانوا يرتعدون فى حضورك، ليس فقط عندما ينظرون إلى وجهك، وإنما أيضًا عندما ينظرون إلى فناؤك الخلفى الذى لا مثيل له".

"تطوعت أونومو لمصلحة الزنزانة": أنا لم أسكر مطلقًا؛ ولم أدخن مطلقًا، لكنى ضا.... كثيرًا".

(*) اللغة الإنجليزية المستعملة فى هذا الجزء توحى بأن الشخصية جاهلة. (المترجم)

"أعلنت الراوية "أنت فى هذا الصدد، كنت مثل أمك توسان أوساجاى إيدوستبوان".

ردت أولورى بحدة وجفاء شديدين: "لا تأت على ذكر الأم". لم تبتعد عيناها عن أونوم. "احك عن البنت".

قالت المحكوم عليها بالإعدام مرة ثانية: "لقد سحرتها العضلة الذكرية". كانت مثارة. "أنا لم أسأمها مطلقًا".

"أونوم، وصلت أخبار حكايات طلعاتك إلى مسامع والدك. أنت رفضت الزواج. رفضت البقاء فى المنزل؟ تخصصتِ فى أزواج النساء الأخريات. لعنتك نساء كثيرات. زار الكثيرون المداوين المحليين من أجلك.

وابتغاء للتقليل من إفراطك وإفراط أخيك، آسيموتا، آثر والدكما لاكى Lucky إشراككما أنتما الاثنان فى أعمال الأسرة المالية والأعمالية. وأصبح آسيموتا مديرًا للجراج فى بنين الجديدة، فى حين أوكل إليك أنت إدارة محطة سابيل رود Road Sapele".

عند هذا الحد، أومأت أونوم برأسها مرات عدة، وعلى شفتيها ابتسامة الذكريات.

غمغمت قائلة: "كنت كذا... كنت كذا. كنت كذا. نعم، هذا صحيح، كنت كذا".

تعجبت النزيلات مندهشات، كم هى جميلة. توقفت الراوية لالتقاط أنفاسها. وانصرفت عيناها إلى النظر إلى الجدران، وإلى بقعة تميل إلى الاسوداد بالقرب من سرير المرأة البيضاء. ترى هل هذه البقعة ثقب من الثقوب العديدة والبقع العديدة التى فى المبنى أم إنها حشرة؟ تحركت هذه البقعة السوداء إلى الأمام. وقفت الراوية لتلقى نظرة على ذلك الشيء من قرب. انظرن، وانتبهن، هذا عقرب!

ابتعدت الأعين كلها عن الشيء الجميل واتجهت صوب إيتوهان. تناولت إيتوهان شبشبًا دون أن تنطق بكلمة واحدة. واقتربت من الجدار، وبضربة محسوبة سحقت العقرب. واستعادت وضعها الأول، واستأنفت حديثها.

وإذا كان الجراد ينجذب إلى الضوء، فالنساء ينجذبن أيضًا إلى حيث تكون النقود. ألقى الكثيرون أنفسهم على قدمى والدك. لكنك طاردتيهم جميعًا، وأحبطت خططهم. آخر ما كنت تريدينه هو تقسيم ثروة وعقارات والدك إلى أجزاء كثيرة عندما يجرى البحث عن العجوز، ولا يتم العثور عليه.

"جاء اليوم عاجلاً أكثر من آجل. فقد أزيح لاكى ايدوسنوان بواسطة ناقل منافس، قيل إن طموحه، استهدف السيطرة على مرفق النقل خارج إقليم الغرب الأوسط السابق. ولا يعرف أحد، كيف سيتم ذلك أهو عن طريق السُم أم عن طريق التحكم من بعد. كل ما يعرف عن هذا الأمر أن لاكى استيقظ فى صباح يوم من الأيام ورأى قدميه وقد تورما ليصبحا أكبر من قدمى فيل من الفيلة. يقول البعض أن منافسًا له احتضنه وكانت معه تعويذة من صنع ساحر. قال آخرون إنه شرب هذه التعويذه فى البيرة. قال طبيب ساحر أنه داس على هذه التعويذة. لا أحد على يقين مما حدث. وعندما دخل المساء أصبح عاجزًا عن القيام لتلبية نداء الطبيعة، كان ينساب منه البول والغائط. تضخمت ساقاه إلى ما يزيد عن حجمها الطبيعى بأكثر من خمس مرات، وكان الماء يقطر منها. ومع دخول الليل، كان يعوى ألمًا، ولا مغيث. لم يستطع أحد مواساته. لا أحد. لم ينجح أحد فى تهدئته. لا أحد.

"كان من رأى أخيك آسيموتا أن ينقله إلى مستشفى الجامعة التعليمى. أما أنت فقد جرى احترام رغبة أخيك. فقد كان رجلاً، أما نحن النساء، فى هذا المجتمع، فلا اعتبار لنا فى حال وجود الرجال. وفى المستشفى التعليمى نصح الأطباء بأخذ لاكى إلى طبيب الأعشاب، لأن مرضه كان من صنع البشر. وهذا تمامًا، هو ما أشرت به أنت يا أونوم. لكن عندما تكون الحياة متعلقة بخيط، فإن الدقيقة الواحدة تصبح هامة. الزيارة إلى مستشفى الرجل الأبيض، التى لم تكن

ضرورية، حسب رأيك، أضاعت وقتا ثمينًا. والذى وضع أمام المداوى بالأعشاب العظيم، كان عبارة عن جثة ميتة، عند وصلت أنت فى نهاية المطاف إلى ضريح ذلك المداوى بالأعشاب.

"جاءت وفاة والدك بمثابة بداية نهاية عائلتك. أنت لم تغفرى لأخيك قتله لوالده. لم تكونى على وفاق معه عند دفن الجثة. بعد فترة الحداد، قررت الأسرة الاجتماع لتقسيم ممتلكات وثروة والدكما بينكما، آخذين فى الاعتبار أن آسيموتا كان ذكرا وسوف يحصل على نصيب الأسد.

"جرى اغتيال آسيموتا رميا بالرصاص قبل اجتماع الأسرة بثلاثة أيام. سطى اللصوص المسلحون على منزله (فيلته) فى إكبوبا Ikpoba، وأمطروه بثلاثين طلقة. ثم ذبحوه من عنقه الميت كما لو كان عنزة من ماعز عيد الميلاد.

عقَّبت البنت قائلة "لعد ق.. ت.. ل. أ.. ب.. ا.. نا. لم يلق بالاً لنصيحتى. وأخذه إلى المستشفى التعليمى. مات والدنا".

راح اجتماع العائلة الذى انعقد بعد ذلك بثلاثة أيام، يتباحث فى ترتيبات جنازة أخيك، آسيموتا؛ وبذلك أصبحت أنتى الوارثة الوحيدة لثروة والدك. أصبحت أنت مدير الإدارة التنفيذى الرئيسى فى خطوط العاصمة. كان عمال الشركة يحترمونك ويطيعونك. وضعوا ملصقًا كبيرًا باسم أونوم العظيمة، على حافلاتهم وراحوا يطوفون أنحاء مدينة بنين على امتداد يومين. وبذلك أصبحت أنت أثرى امرأة فى ولاية إدو Edo". جففت ايتوهان وجهها. وحافظت على جهامتها وهو تعلن؛ "لكن الدجاجة يتعين عليها العودة إلى المنزل لتنام. أونوم، الدجاج يعود دومًا إلى المنزل لينام".

"كان يومك الأول فى المكتب بعد ذلك الفرح. وكنت تجهزين نفسك للنظر فى هذا المشروع الذى أصبح كله ملكًا لك. سمعت هرجًا ومرجًا فى الخارج. قصدت إلى النافذة. كانت الشرطة هناك. توقفت السيارة التى أقلت الشرطة أمام

مكتبك الرئيسى مباشرة. كان داخل السيارة راكب واحد، آخر من كنت تتوقعين رؤيته مرة ثانية. قفز نازلاً من السيارة. لاحظت أنه كان مقيدًا".

وضعت أونوم وجهها فى راحة يدها اليمنى وراحت تحملق فى الفضاء.

سألت الراوية جمهور المستمعات: "هل أواصل كلامى؟".

صاح البعض منهن: "لا!" وذلك من باب التعاطف مع النزيلة المكلومة.

صاح بعض آخر منهن، فضولاً "نعم! واصلى".

لم تعترض أونوم. واصلت وضع وجهها فى راحة يدها.

"تعرَّفك أومكودايون Omokodion على أنك الشخص الذى استأجره هو ورفيقه لقتل شخص يدعى آسيموتا إيدوسنوان، الذى يقيم فى إيكبوبا. كانت معه صورة أخيك، التى أعطيتها لهما. وكان يحمل معه أيضًا الجزء المتبقى من الأتعاب التى أعطيته إياها. ثلاثين ألف نيرة.

"أنكرت. أنكرت فى البداية. قلت للشرطة إن منافس والدك هو الذى قتل والدك العجوز بالسم، وأنه كان يود أيضًا القضاء على أبنائه الذين على قيد الحياة لكى يصبح محتكرًا لمرفق النقل فى ولاية إدو. حافظت على هذه الكذبة. علقتك الشرطة فى السقف الذى تدليت منه مثل دجاجة من الدجاج. قرَّصُوك، وخرَّموك وأحرقوا حلمتيك. وعندما هموا، وهددوك بتفجير قارورة من الجلدر الفوار داخل الجزء الخاص فيك بدأت تعترفين. أونوم ايدوسنوان، لقد حكم عليك القاضى بالإعدام لأنك قتلت أخاك. وعندما أخلى سبيلك من حجز الشرطة وجرى إحضارك إلى سجن فريمان فورت انتظارا لتنفيذ حكم الإعدام فيك، رفض السجن استلامك. فقد كنتى منكسرة ومجروحة، وكانوا يخشون أن تموتى قبل أن يجىء دورك".

عندما انتهت أيتوهان من سرد تفاصيل جريمة أونومو، كان الليل قد أرخى سدوله، وحان موعد تناول عصيدة المساء. اختتمت إيتوهان كلامها: "أنت فى الغرفة السابقة للموت. أنت الآن فى طبق الزمن".

وصلت مستشيف ومعها عربة نقل الطعام. وزعت عليهن الأطباق البائسة. كان أونوم آخر من أخذن الأطباق. وقبل أن تعطى السجانة الطبق للمرأة، انتظرت قليلاً. كانت هناك علبة حليب. أحدثت ثقبين فى العلبة، ولما كانت واعية للأعين التى تراقبها، صبت الكمية كلها فى الطبق وأعطته لأنوم، التى دخلت الآن فى شرج الزمن.

* * *

جرى وضع سيث جوميز فى الراحة لمدة خمسة أسابيع بعد المظاهرة التى قام بها اللايف لوبى Lobby Life (رواق الحياة). لم يشف الصبى تمامًا من الضغوط وما ترتب عليها بالنسبة لصحته الهزيلة. وإذا ما استثنينا أخته روث، وصديقه الجديد، محامى الضمانات المالية فرايداى Friday، نجد أن رفاق دراسته السابقين، والمنتمين إلى عائلته قد حضروا جميعًا مواراته التراب.

عندما انتقلوا إلى الجبَّانة، شرد ذهن فرايداى فى المحادثة التى جرت بينه وبين روث فى واحد من المواعيد الغرامية التى تمت بينهما. كانت تلك المحادثة عن سيث. كان فرايداى قد قال لروث: يتعين عليه الزواج مبكرًا لتخليد اسمه، وذلك طبقًا لما يفعله الناس فى المجتمع التقليدى. لم تعارض روث فى ذلك. كانت تتدبر الأمر فيما بينها وبين نفسها، كيف يتزوج سيث. شخص يجد صعوبة فى استكمال أتعاب الدراسة، كيف يمكن له أن يتولى شئون أسرة؟ نحن نكافح لكى نمضى قدمًا من يوم إلى آخر، فهل نضيف إلينا فما ثالثًا؟

"أنت لا تقولين شيئًا".

كانت روث قد ردت عليه: "أنا أفهم ذلك الذى تقوله، لكن سيث لن يوافق مطلقًا على ذلك".

"لِمَ لا؟".

"أولاً، لأنه يحب أمي حبًا جمًا. وهي أيضًا أحبته حبًا جمًا. ولأنها الآن في محنة، فهو أيضًا يتهاوى تمامًا السبب الثاني أنه لن يوافق على تحويل فتاة صغيرة إلى أرملة".

"كيف ذلك؟".

"لأنه عندما يتزوجها، سيكون عارفًا تمامًا، أن إحدى قدميه في القبر. لقد ناقشنا ذلك في المنزل، عندما كانت أمنا لا تزال معنا. قال سيث: إنه سيواصل الحياة إلى أن يعجز عن مسايرتها، وعندها سوف يستسلم. لا أعتقد أنه لم يسامح الرب الذي جعله عليلاً بهذا الشكل.

سيواصل إلى أن يعجز عن الاستمرار، وعندها سوف يستسلم. خطر ببال فرايداي أن هذا هو ما فعله بالضبط، وهو ينظر في جرح الأرض مستطيل الشكل، هذا المكان الذي سيرتاح فيه صديقه الصغير.

القدس، بيتي السعيد

متى أجيء إليك؟

متى تنتهي آلامي؟

متى أرى وجهك؟

قال المحامي: "هذا تحد". عندما يضع الرب عوائق في طريقنا، فذلك من باب تحدينا واختبارنا؛ هذا تحدٍّ للإنسان كيما يستخدم ذكاءه الذي أعطاه الله إياه في الفهم وإيجاد الحلول. والتحدي في حال سيث يتمثل في اكتشاف العلاج.

كانت روث قد ردت عليه، وهي تتناول مشروبها. كان فرايداي مقهورًا بسبب يأسها.

"لماذا هذا اليأس، يا روث؟".

"هذا ليس يأسا، وإنما هو حقيقة. وأنا إنسانة واقعية. عليل. هذه كارثة نقل دم بين الحين والآخر. عدم وجود بنك للدم. ما الذى يمكن أن يحدث؟ نحن نتجه إلى السوق، لنشترى الدم، دم غير مفحوص. فى هذا اليوم وفى هذا العصر! ما هى فرصتنا فى شراء دم ملوث؟ الفرصة كبيرة جدًا. ما هى فرص بقائه على قيد الحياة؟ لا شيء". نهضت واقفة بعد هذه الملاحظة. "أسرتى مهددة". لم يرَ فرايداى شيئًا لكنه على استعداد أن يقسم أن الدموع كانت فى مقلتيها اللتين تلمعان مثل الماس.

ردت القسيسة قائلة: "أنت من تراب، وستعود إلى التراب". واراياه القبر المجهول، واستدارا استعدادًا للعودة.

تناقش فرايداى وروث فيما بينهما حول ما إذا كانا سيخطرا موديجا أم لا. وبعد جدل طويل قررا أن ذلك لم يكن أمرًا ضروريًا.

* * *

فى الزيارة الأخيرة التى قامت بها الأخت مارثا إلى جناح النساء، دخلت الجناح وحدها، ولكنها غادرته ومعها ثلاثة آخرين: تاى Taiye وكيهايند Kehinde، أو إن شئت فقل: الحسن والحسين، وكان معها أيضًا هيومانتى الصغير، أو بالأحرى مانديلا. كانت مسألة إعداد المستندات المطلوبة أمرًا متعبًا لكن الأخت مارثا صابرت وثابرت. مبلغًا كبيرًا من المال هو الذى رطّب الأيدى وسهل الأمور.

حملت مارثا مانديلا إلى فانديكيا Vandeikya. اندهشت أم بيا بسبب تورم مفاصل الطفل. وهذا هو السبب وراء عدم برها بوعدها الذى قطعته على نفسها مع بيا. ذهبت الأخت مارثا أيضًا إلى يومياهيا، حيث توجد أم إندى Endee العجوز. وقبل أن تترك هذه العجوز، كررت عليها المهمة التى كلّفت بها من قبل النزيلات.

"لا تنسى، يا أمى، أن هذين الطفلين مسلمان. ويتعين عليك تنشئتهما على هذه الشاكلة، تمامًا مثلما كانت أمهما ستفعل".

قالت الأم، وهى تربت على رأس الطفلين وتحتضنهما مرة بعد أخرى "على هذا النحو؟"

"نعم، على هذا النحو".

فكرت العجوز لحظة "وهو كذلك". كان هناك واحد من رجال الأمن فى المجمع المجاور، وكان قد أنشأ مدرسة makaranta للأطفال المسلمين فى المنطقة المجاورة. سوف ترسل التوأم إليه.

قالت العجوز بصوت عال لمارثا "سوف أفعل ما يلزم. كيف حال ابنتى؟".

"كانت إندى بخير عندما تركتها. لقد فقدت كثيرًا من أعضاء الأسرة، يا أمى، لكن هذين الولدين سيكونان فرعك فى المستقبل.

"آمين!".

"هذا مبلغ من المال من باب المساعدة فى تربية هذين الطفلين". كانت مارثا قد اشترت أيضًا بعض المواد الغذائية من الطريق، اشترت بعضًا من اليام، وبعض الأطعمة النيجيرية لأسرة التوأم الجديدة. "لا تقلقى. العناية الإلهية ترعى التوائم دائمًا".

"أعرف ذلك".

"اتمنى لك الخير والعافية".

"إذهبى فى رعاية الله، وأشكرك على ما تفعليه للأقل حظًا. الله وحده هو الذى سيكافئك".

أبدت تلك المحاربة القديمة ملاحظة "الإنسان رب لأخيه الإنسان". تلك كانت عقيدتها، وكان مطلوبًا منها دومًا الإعراب عن هذه العقيدة" الله ﷻ لن ينزل بنفسه

إلى الأرض كى يساعدنا. وعليه ينبغى علينا نحن أن نفعل كل ما نقدر عليه لبعضنا البعض".

"بارك الله فيك وفى أسرتك".

"آمين".

عندما همت مارثا بالانصراف، خطر ببالها شيء ما.

تساءلت العجوز "ما الذى خطر على بالك؟".

"الطفلان فى عامهما الثالث تقريبًا. لكنهما لم يجرى ختنهما بعد.

"أهذا صحيح؟".

"نعم".

"سوف أرتب ذلك".

راحت مارثا تربت على رأسى الطفلين. اقترب الطفلان من بعضهما وراحا ينظران من امرأة إلى الأخرى. تورمت عينا مارثا عندما استأذنت فى الانصراف. كانت تبكى، لكن تلك كانت دموع الفرح.

كان الوقوف لا يزال باكرًا. لديها متسع من الوقت كى تصل إلى قرية زوجها. ستقضى الليل هناك. من يمن الطالع أنها كانت قد وضعت منديلا عند جدته. لم تكن مسالة الاستدلال على المنزل عملية سهلة، لكن المساعدة التى لقيتها من الحاكم المحلى ومن منظمة النساء المسيحيات، مكنتها من الاهتداء إلى المنزل المطلوب.

عندما كانت رئيسة فيلق مريم (العذراء) ترجع إلى الخلف بسيارتها، شاهدت الكرة الزرقاء التى كانت سوزانا قد أعطتها للتوأم هدية للفراق. كان الكرسى الخلفى من السيارة عليه بعض من قشر الموز وبقايا البسكويت، الذى تناوله ركابها طوال الرحلة. أمسكت اللعبة وعادت بها إلى المنزل. عندما اقتربت من المنزل سمعت الطفلين وهما ينشدان شعرًا عربيًا. نظرت خلسة داخل المنزل. رأت سبورة

سوداء في ركن من الأركان قرأت كلمة "بغدادية" Baghdadiya. وفى المؤخرة، استطاعت تمييز رؤوس التلاميذ وهم ينظرون إلى السبورة وإلى الأمام.

وصلت مارثا إلى منزل المرأة العجوزة. ومن خلال النافذة المفتوحة رأت العجوز واقفة فى منتصف الغرفة؛ ارتسمت على شفتيها ابتسامة. دفعت العجوز قدمها اليمنى إلى الأمام، ثم سحبتها إلى الخلف؛ ثم رفعت بعد ذلك ذراعيها إلى السماء وراحت فى صمت ترقص شكرًا وامتنانًا. وضعت مارثا البالونة عند الباب وعادت إلى سيارتها وهى تمشى على أطراف أصابعها.

بعد أن ركبت مارثا سيارتها انتظرت قليلاً. كان الطفلان يصيحان وهما يغادران سجن فريمان فورت، كانا غير مرتاحين وهما ينظران إلى الخلف فى اتجاه أمهما. وسرعان ما استهواهما سحر الرحلة. كانا يتعجبان من الأشجار والمنازل التى كانت تمر عليهما. عندما ضغطت مارثا على زر من الأزرار، نزل الزجاج من تلقاء نفسه. صرخا وراحا يخرجان أذرعهما الصغيرة فى النسيم. قفلت مارثا الزجاج ثانية حفاظًا عليهما، وحفاظًا أيضًا على مانديلا الذى كان نائمًا فى ركن من الأركان.

كانوا قد غادروا الطريق الوعرة المؤدية من السجن إلى الطريق السريع. كان الطقس صحوًا. كانت مارثا تود أن تبدأ الرحلة فى ساعة مبكرة، لكن البيروقراطية هى التى أخرتها، وبخاصة فيما يتعلق بالمستندات. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما بدأت الرحلة. وسرعان ما بدأت تطلع الشمس. نشرت الشمس أشعتها على الكون، باعثة فيه الفرح والإشراق.

صرخ الأطفال وهم يشيرون إلى الشمس: "الشمس. الشمس"(*).

(*) أوردت المؤلفة هذه الكلمة بلغة الأجبو Il sole. (المترجم)

الفصل الأربعون

الديلى تلجراف

قدمت لجنة العفو والرحمة بالأمس تقريرها إلى السيد الرئيس فى الفيلا التى يقيم فيها. أوصت اللجنة فى تقريرها بالعفو عن خمسين نزيلاً ونزيلة فى سائر أنحاء البلاد لأسباب متعددة. نصف هذا العدد يتعلق بأسباب طبية وقلة قليلة من النزلاء لأسباب إنسانية، وبخاصة كبار السن. وقد أثبت النزلاء أسفهم وندمهم الحقيقيين، إضافة إلى أن السواد الأعظم من النزلاء والنزيلات أمضوا ما لا يقل عن خمس سنوات من محكوميتهم. هناك سبع عشرة نزيلة ينتظرن المحاكمة، وقد مضى عليهن سنوات أكثر مما لو حُكم عليهن.

لفتت اللجنة أيضًا انتباه الحكومة إلى قصة سيارة الترحيلات، بلاك ماريا، المؤسفة فى السواد الأعظم من السجون التى قامت اللجنة بزيارتها. وقد لاحظت اللجنة أن ذلك أدى إلى تأخير البت فى القضايا، نظرًا لعدم تمكن النزلاء من الحضور إلى المحكمة. كما حثت اللجنة الحكومة على التعامل مع هذه المسألة من المنظومة القضائية، من خلال ميزانية خاصة بإصلاح المركبات وإعادتها إلى العمل.

شكر الرئيس أعضاء اللجنة على جهودهم التى بذلوها خلال الوقت المحدد لهم. ووعد الرئيس بإحالة التقرير إلى المجلس التنفيذى الفيدرالى للتصديق عليه.

* * *

استفادت تسع نزيلات من سجن فريمان فورت من ذلك العفو. أربعة منهم من جناح الرجال. كان المُعلّم زكارى كادو من بين الفائزين فى ذلك العفو، وعندما طُلب منه فى إحدى المقابلات إنشاد السلام الوطنى، وقف فى وضع الانتباه، واستعاد ذكرياته وراح يقول:

نيجيريا، نحن نحييك

أرضنا الوطنية العزيزة

على الرغم من اختلاف القبيله واللسان

نحن نصمد واقفين في أخوةً....

باءت بالفشل محاولات كل أولئك الذين كانوا يجرون معه المقابلة، عندما حاولوا إسكاته. أصر على إنهاء ما يقول. النشيد الوطني لا يمكن وقفه أو مقاطعته. وبعد أن انتهى الرجل من التحية، أبلغته اللجنة أن النشيد الوطني قد تغير منذ عقود مضت. كان الرجل قد مضى عليه في السجن عشرين عامًا. جريمته: التجوال والتسكع.

كانت بردجت آجبر، وسوزانا نابوليتانا، وتواكاليتو أنيماشون (أو بالأحرى بلندا جونز) وبيشنس أوكويو، من بين أولئك الذين جرى الإفراج عنهن من جناح النساء. كانت الثلاثة الأوليات قد دفعن بالفعل مبالغ للسجانة. كانت بيا أول من دفعن. تسهلت قضيتها بمقتضى حقيقة مفادها أن أهل آتي Atte تقدموا بطلب لسحب القضية، لأن أخاهم القتيل كان مريضًا بالفعل. تلى ذلك أن قام القنصل الإيطالي بتسليم مظروف إلى السجانة المسئولة. واللجنة عندما أوصت بإطلاق سراح سوزانا، كانت تدرك العلاقات الودية بين نيجيريا وإيطاليا، ولم تكن ترغب في إثارة الحزازات القنصلية. كان إخوة باتسي قد أتوا بما جمعوه نيابة عنها، وحصلت هي أيضًا على إطلاق سراحها. كانت تاو قد وُضِعَت هي الأخرى على قائمة العفو لأنها كانت قد أمضت ثلاثة عشر عامًا في السجن الأجنبي.

عندما استعادت حريتها تصارعت فيما بينها وبين نفسها حول مسألة الذهاب أو عدم الذهاب إلى التوأم. وفي نهاية الأمر، ساد المنطق وتركت التوأم لحاله. ستكون يوميا هي الأفضل لهما.

كانت الأخت مارثا هى وواحدة أخرى من الفيلق، عند بوابة السجن لاستقبال النزيلات المحررات. أخذتهن إلى موقف السيارات ودفعت لهن الأجرة إلى مقاصدهن المختلفة.

لم تكن كل هؤلاء النزيلات هناك، عندما حدث ذات مساء، أن فُتحت بوابات السجن وقامت كل من مستشيف باقتياد مارسى أوكو ــ لوجو، المشرفة العامة على السجون، إلى الزنزانة رقم (وو١٠). حيث وضعاها فى ركن من أركان الزنزانة، وراحتا تحملقان فيها.

* * *

كان جهاز راديو السجان يتحدث. كان الاستقبال ضعيفًا، لكن كان بالإمكان تمييز بعض الكلمات.

> أعلنت الحكومة اليوم، تقاعد المفتش الشرطى العام. فى بيان صدر اليوم شكر سكرتير الحكومة رئيس الشرطة على الخدمة الجليلة التى أسداها للأمة....

راح جهاز الراديو يواصل الحديث.

* * *

الغسق

فارت الزنزانة كلها: "مارسى! ماذا حدث؟".

قالت مستشيف من باب الفضول: "قتلت عضوًا من أعضاء المجلس؟".

ردت مارسى "لم أفعل ذلك!".

"قتل! لا تتحدثى معها بهذه الطريقة أيتها المجرمة!".

كانت عينا ماليس تحملقان، وراحت تصيح فى رئيستها. لطمتها مارسى على خدها لطمة شديدة، ودفعتها إلى الركن المكشوف. لم تكن هناك مرتبة، أو غطاء، لا شيء على الإطلاق. بقيت مارسى فى المكان الذى اقتيدت إليه، وهى متكئة على كوعيها.

أعادت إنتلى سؤالها: "ماذا حدث؟" تجمعت النزيلات حول المشرفة العامة السابقة على السجون. نظرت مارسى إلى رفيقاتها الجديدات فى السجن. اغرورقت عيناها بالدموع وتحشرج حلقها. لم تقو على الكلام. غطت وجهها. انتظرت النساء. تبادلن النظرات المخيفة.

عندما غادرت السجانتان المكان، أمسكت المتحدثة الرسمية بيد النزيلة الجديدة، وحاولت جعلها تقف على قدميها. أمسكت مودى باليد الأخرى. وبلا كلام اقتادتا مارسى إلى سرير من الأسرة. وقفن إلى أن انتهت أولورى من تنظيم السرير قدر المستطاع. وأنزلتا مارسى فى السرير.

قالت أنتلي: "مارسى، بغض النظر عن كل ما حدث، أرضى بما حصل. هل تنتظرين المحاكمة أم أنت محكومة بالإعدام؟".

همست السجانة السابقة: "أنا أنتظر المحاكمة".

"حسن".

"هذا طيب".

حيوها قائلات: "الله كبير"(*).

كانت أولورى تتساءل عمن قتلته السجانة السابقة. كانت مستشيف قد قالت إنه عضو من الإشراف. ترى هل كان واحدًا من رجالها؟ هل هو أوبد Obed أم داود مُسْباو Musbau؟ لابد أن ذلك كان حادثًا. المشرفة العامة على السجون ليست

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة بلغة الهوسا Allah Sarki (المترجم)

من النوع الذى يقتل. هل يمكن أن يكون زوجها؟ هل رضخت للضغوط الاجتماعية طلبًا للتصالح مع أمورها الحياتية؟ هل يمكن أن يكون الرجل العنيف قد فاز من جديد، ورفض يد مارسى التى امتدت إليه مثلما حدث فى قضية مودى؟ لكن مستشيف سبق أن قالت إنه عضو من الإشراف هو الذى فقد حياته. هل كان زوج مارسى فى المنزل؟ كان ذلك احتمالاً. كان آميه Ameh قد قالت: "إن أى إنسان بوسعه العمل بالسياسة، أى الانضمام إلى المجلس. هل أصبح السيد أوجولوجو مندوبًا (ممثلاً فى المجلس)؟ أكدت لنفسها من جديد أيًا كان الأمر، فهذا لابد أن يكون حادثًا. مارسى ليست من النوع الذى يقتل، اللهم إلا إذا كان الأمر يتعلق برجلها السابق، ذلك الرجل الشرير، الذى قيل عنه إن بوسعه أن يطحن زميله الآدمى فى الهاون.

أم إنها زوجة عشيقها؟ هل قتلت المشرفة العامة على السجون المرأة فى محاولة منها لكى تخلى لنفسها مكانًا فى مقدمة المنزل؟ هذا ممكن. بعض الرجال كذبوا على عشيقاتهن؛ أنهم كان يمكن أن يتزوجنهن لولا وجود الزوجة. لأنها ستجعل الحياة لا تطاق عند الجميع. وقد تفكر العشيقة فى القضاء على المشكلة. أم أن الزوجة وصلها الخبر وذهبت لمواجهة العشيقة؟ اتركى زوجى لحالة، أيتها الساقطة. اذهبى لحال سبيلك وابحثى عما يليق بك. هذا هو الإنذار الأخير. تلك الأشياء التى من هذا القبيل. ويفضى الشيء إلى ما بعده، وقبل تدارك الأمر يكون القتل البشرى قد حدث. راحت أولورى بعينين مشفقتين تتمعن حال الحارسة السابقة وهى تتنهد حسرة على الحارسة طيبة القلب.

كانت إنتلى هى الأخرى تنظر إلى المشرفة العامة على السجون، وهى تفكر فى أنها ستصبح لها. لقد كنا صديقتين قبل قيامها بإجازتها. ستكون مفتقدة للرجل افتقادًا شديدًا. سأكون أنا ذلك الرجل. وعلى الرغم من أن الطالب الخريج الجامعى السابق لم يكن بدنيًا بما فيه الكفاية، فهى تستشعر الآن بعض الرغبات الملحة. وطالما أن الفتاة البيضاء رفضتها، فقد راحت فى صمت تبحث عن رفيقة. يزاد

على ذلك أن بيا نفسها هى الأخرى لم تتعاطف معها. وهى لم تلح على هذه العلاقة بسبب العنف الذى عانت منه بيا فى وحدتها. لم تبق أونوم فى السجن. أما الآن، ومع هذه الوافدة الجديدة، مع وجود مارسى هنا معهن لأى سبب من الأسباب، فذلك يعنى أن رفيقة إنتلى قد وصلت. جلست إنتلى إلى جوار مارسى، ووضعت يدها على وركها.

"ستتصلح الأمور، يا مرسلينًا Marcellina ــ ستتصلح ــ ستخسرين حياتك السابقة، كل ذلك الذى تركيته وراء ظهرك. ما عليك سوى أن تنسى ذلك كله. هذا هو الطريق الوحيد إلى التعايش مع هذا المكان. انسِ وعيشى حاضرك. سيكون ذلك صعبًا فى البداية، لكنك ستعتادين عليه".

نظرت مارسى إلى المتحدثة الرسمية، نظرة عابرة، نظرة تجاهل، ثم انصرفت لحال سبيلها. خطر ببالها دوى سقوط الكبار. خطر على ذهنها المرتبك، يا لهذا السقوط الذى وقعت فيه مارسى!

كانت الفكرة الوحيدة المسيطرة عليها، هى كيفية الاتصال بثلاثة أشخاص: آيرين جلوفر، جويس بانرمان، ومحامى الكفالات المالية فرايداى. لقد أخذوا منها تليفونها المحمول فى المركز. سوف تواسيها آيرين وتجد لها مخرجًا. أما جويس فسوف تدير بالها على شقتها، فى حين سيحاول الصديق المتعلم الإفراج عنها بضمان مالى ويدافع عنها. هل سيفعل ذلك؟ لقد أساءت معاملته، خدعته، ورفضت استقبال مكالماته. لابد أنه عرف أنى لم أكن مخلصة. قلت له ذلك منذ البداية، لكنه كان يريدنى أن أرفض الرجل الآخر. كيف لى بفعل ذلك، وأخسر كل الأشياء التى وفرها لى الشريف؟ سيستهزئ بى. الآن، وبعد أن مات الشريف، من ذا الذى يستطيع توفير كل تلك الأشياء التى لا تريدين لها أن تفارقك، من؟ الشريف يعقوب. رفض ذهنها التركيز على الرجل. هاجر ذهنها إلى الصديق المتعلم.

لم يكن فرايداى قد اتصل بمارسى فى الفترة الأخيرة. ربما يكون قد عثر على بنت أخرى. النساء كن رخيصات فى ذلك الوقت. كل من يملك بنسا يستطيع الحصول على امرأة. الاقتصاد هو المُلام، لكن ليس هذا هو الصداع الذى يتملكنى

الآن. وآيرين، جويس. فرايداى. جويس. من ذا الذى يمكن أن يتصل بهم من أجلى؟ كانت مستشيف وماليس خارج هذه اللعبة. ربما استطاعت زميلتى يوديم القيام بذلك. آخر ما سمعته عنها هى أنها قامت بإجازتها. يا لسقطة مارسى!".

* * *

فترة العصر

فى عصر يوم الأحد، وبينما كانت النزيلات يضعن وقتهن سدى، اتجهت السجانة حبيبة Habibatu، ماشية على قدميها إلى جناح النساء. كانت فى يدها قصاصة من الورق. راحت إحدى يديها تهز السلاسل لجذب انتباه النزيلات، بينما كانت هى تقرأ بصعوبة الاسم المكتوب على الورقة.

"مُ... ح.. ا.. مى. أ.. ل.. ك.. فا.. لا.. ت. محامى الكفالات. ف.. ر..ا..ى..د..ى. فرايداى...".

نهضت مارسى واقفة. ها هو قد وصل. لقد سمع بصورة أو بأخرى وجاء إلى هنا لزيارتى. لابد أن آداما Adama قد اتصلت به. بحثت عن شبشب. ولفت حول جسمها الإزار لفًا محكمًا. مررت يديها على شعرها. ثم قدمت نفسها بعد ذلك إلى السجانة. نظرت حبيبة المشرفة السابقة على السجون نظرة حقد، وغيظ، عندما ترى الزوجة الأولى ضرتها للمرة الأولى.

"أين أنت ذاهبة؟".

"قلت إن محامى الكفالات موجود هنا لزيارة..".

"يزور من؟ هل أنت مودياجا جومز؟".

نهضت مودى واقفة من سريرها عندما سمعت اسمها. تبادلتا النظرات هى ومارسى.

هزت رأسها "محامى الكفالات، فرايداى؟ جاء لمقابلتى؟ أنا لا أعرف ذلك الرجل".؟

رجعت إلى مكانها، اقتناعًا منها بأن هناك خطأ ما.

أم هو طبيب؟ ربما سيث...؟".

سألتها حبيبة: "**هل أنت شرطية**(*)؟ لماذا كل هذه الأسئلة؟".

حثتها النـــزيــلات الأخريات، "قد يكون أهلك قد وكلّوا محاميًا عنك. اذهبى يا مودى!".

وقفت مودى. كان ذهنها يغلى. كيف تتصرف فى هذا الموقف؟ لم يأت معه سيث. وبعد أن تجاوزت حارستها السابقة، رجتها الأخيرة قائلة،

"مودى، أبلغيه أن مارسى موجودة هنا. قولى له أنى سألت عنه. أرجوك".

أومأت مودى برأسها، وهى تتبع السجانة خارج الزنزانة. فرايدى؟ لماذا فرايداى؟

لماذا لم يجئ سيث؟ حسن.

(*)أوردت المؤلفة هذه العبارة بإنجليزية غير صحيحة نحويًا You be Pplice? (المترجم)

الفصل الحادى والأربعون

اندفعت آداما إلى منزل جوى. وراحت تولول "لقد أخذوا سيدتي". لم تفهم جوى كلمة واحدة مما قالته آداما. كانت البنت الصغيرة مقطوعة الأنفاس.

"من الذى أخذ سيدتك؟".

"الشرطة". كانتا قد أسرعتا إلى مكان مارسى. كانت هناك سيارة بيك ــ أب لونها أزرق غامق، واقفة أمام المدخل، وكانت أنوار السيارة تومض. كان هناك جمع من الجيران والركاب، واقفين يراقبون، ويدغدغون بنغمات مضطربة.

كان ضابط الشرطة المناب يقف فى الخارج مع اثنين من المفتشين. أثناء سيرهما فى الطريق كانت آداما قد أوجزت ما حدث. اقتربت جوى من ضابط الشرطة.

قالت له: "لابد أن تلك كانت نوبة قلبية". "هذه الأشياء، كما تعلمين، تحدث فى مثل هذه الظروف".

رد عليها الضابط وهو يبتسم: "سوف تثبت التحريات حقيقة الأمور" كان يحاول تقدير حجم السيدة: "سوف تتفقين معى أن الظروف كانت غير عادية".

دافعت جوى قائلة "شرِّحوا الجثة".

"أنا لا أعرف شيئًا عن ذلك. أهله يقولون: إنه لا بد أن يدفن غدًا".

"فى حال القتل الخطأ؟".

"هل قتل فى الحقيقة".

"هل بوسعى أن أراها؟".

"فى مركز الشرطة. هذا إن لم تكن نقلت إلى الاحتجاز فى السجن".

"أبهذه السرعة؟".

"ما إن تدور من حولها الشكوك، وما إن يجرى استدعاؤها أمام المحكمة لسؤالها في التهمة، ما الذى يتبقى بعد ذلك؟ لابد من دخولها الحجز".

"اعتقد أنها ستكون فى سجن فريمان فورت؟".

وافق ضابط النوبة: "هو أقرب السجون إلى هنا". لم تستطع جوى منع دموعها.

"ألا يمكن أن ينقلوها إلى مكان آخر؟".

كرر رجل الشرطة كلامه: "سجن فريمان هو الأقرب إلى هنا".

رجته جوى قائلة: "أرجوك، أن تعاملها معاملة طيبة أيها الضابط". كان يدور فى ذهنها حساب الوقت اللازم للوصول إلى سجن فريمان على وجه السرعة. "هى واحدة منكم. كانت ضابطة، المشرفة العامة على السجون. عاملها معاملة حسنة، أرجوك".

لم يكن ذلك أمرًا محتملاً. لأن الحنان ليس موجودًا فى جينات أفراد الأمن.

* * *

عاد الشريف يعقوب من لندن بعد ذلك بثلاثة أيام، واندفع إلى منزل مارسى مباشرة قادمًا من المطار. حذر نفسه، لن تكون هذه زيارة عادية. قد يتعين على التودد إليها ومغازلتها مرة أخرى. وهذا هو ما يسميه الأعضاء الأشراف: (حال الوضع السابق).

دخل المطبخ وابتلع كبسولة من العقار العجيب. قال للعقار: افتح نافذة فرصتك.

كانت مارسى تنتظر فى غرفة الجلوس. أما أداما فكانت تكنس فى الفناء الخلفى. كانت المشرفة العامة على السجون ترتدى بنطالها الجينز. خطر ببال صانع القانون، إن ذلك فأل سيء. كانت غاضبة ومستعدة للحرب. أمسكها من يدها.

رجاها "هيا بنا إلى غرفة النوم".

"لا، يا يعقوب. دعنا نتكلم أولاً".

حاول الإمساك بيدها كى تقف "أنا متعب، أنا قادم من المطار إلى هنا مباشرة، هيا بنا إلى غرفة النوم".

"دعنا نتكلم هنا أولاً".

"أرجوك، عليك الله! يا مليكتي"(*).

دخلا غرفة النوم، والمشرفة العامة على السجون مترددة. الواقع أنه كان يجرها. خلع ملابسه الخارجية وجلس فى السرير. كانت مارسى جالسة فى الجانب المخصص لها من السرير. لم تكن تتجاذب معه أطراف الحديث. خطر ببال الرجل، المفروض أن ما بين وركى يجب أن يتحرك. لكن شيئًا لم يحدث من هذا القبيل. مد ذراعه وجذب عشيقته".

وضع يده على صدرها "ارقدى. ودعينى أحيى أصدقائي". لكنها هزت رأسها.

داهنها: "يا رائعة!".

غمغمت "رائعة".

اخلعى عنك ملابسك يا Amariya. أقبلى على زوجك".

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة بلغة الهوسا Don Allah1 Sarauniyta (المترجم)

"بدأت تهز رأسها تمنعًا من جديد. ثم سمعت الكلمة الأخيرة من كلامه. استدارت لتنظر إليه، لكى تتأكد أن الكلمة حقيقية. أومأ برأسه قائلاً: نعم، Amariya إذا كان ذلك هو ما تطلبين، فلماذا؟ ألقت بنفسها عليه. كلمة Amariya فى لغته تعنى: "عروس".

صرخت "شريف!".

"حبيبتى، رائعتى!".

جاء ردها فى ذلك الوقت مدويًا حتى يسمعه الجميع.

قال ثانية: "اخلعى ملابسك ودعينى أحيى أصدقائي". خلعت ملابسها.

انتهز الفرصة وخلع فانيلته الداخلية. لم يبق شيء سوى السروال. سوف يبقيه إلى أن يصحو الشيء. كان المنظر غير طيب. ضامر مثل دودة القز المُشْعرة. غريب أن شيئًا لم يحدث بعد فى هذه المنطقة. ترى، أهو التعب والإرهاق أم إنه التغير الزمنى؟ ليس هناك تغير زمنى بين لندن ونيجيريا، لأن توقيتنا فى منطقة زمنية واحدة.

بقيا فى أحضان بعضهما، والجسمان متلامسان. كان يعرف، أنها تنتظر منه الأداء فى الحال. تساءل فيما بينه وبين نفسه عن الأسباب التى أدت إلى تأخير الجدول. أدخل يده فى السروال. كان زميله العضو الشريف لا يزال متراجعًا، تراجعًا طويلاً. اعتراه الخوف. سآخذ كبسولة أخرى لتسريع المفعول. كانت ذراعه اليسرى لا تزال تداهن وتداعب رفيقته، مد ذراعه اليمنى وأخذ كبسولة أخرى من الفياجرا، ووضعها فى فمه. وراح يدعو: يا ألله ساعدني(*)ولتخفيف توتره المتزايد صرف ذهنه إلى أشياء أخرى.

"هل سمعتِ عن حكاية الملكة والرئيس الحالى؟".

(*) أوردت المؤلفة هذه العبارة بلغة الهوسا Allah. Allah ba mu lafiya (المترجم).

ردت عليه زوجته المستقبلية، وهى تستعد للضحك "خبِّرني". خطر ببال مارسى أن هناك خطأ ما. يعقوب ليس مستعدًا. المفروض أن يكون مستعدًا الآن. لعل السبب هو ذلك التوتر الذى تسببت أنا فيه. أو قد يكون ذلك إرهاق الرحلة.

"أثناء الزيارة الأخيرة التى قامت بها الملكة إلى نيجيريا، جرى اصطحابها إلى قرية من القرى. وأقاموا لها استقبالاً عظيمًا. كان كل شيء يسير على ما يرام إلى أن وقف الرئيس المحلى، لكى يتكلم إلى الحاضرين. قال لجمهور الحاضرين: "اسمحوا لى بتعديل خصيتى قبل أن أخلع عن الملكة ملابسها"(*).

قالت مارسى عندما انتهى الضحك: "أنا آسفة لموضوع رحلة لندن". وراحت تداعب صدره كثيف الشعر. "سأذهب معك فى المرة القادمة".

لم يسمعها الرجل. لم يكن مصغيًا لها. كان عبد الجليل قد أصيب بالجنون. ما هذا الذى يحدث فى الأسفل؟ كبسولتان ولم تتفتح نافذة الأمل إلى الآن؟ لابد أن ذلك ناجم عن الإرهاق والتوتر خلال الأيام القلائل الماضية.

(*) هذه نكتة لفظية:
Phermit me to adjust my testicles before I undress the Queen
"اسمحوا لى بتعديل خصيتى قبل أن أخلع عن الملكة ملابسها". وصحيح هذا الكلام هو:
Phermit me to adjust my spectacles before I address the Queen.
"اسمحوا لى بتعديل نظارتى قبل أن أتحدث إلى الملكة". التلاعب هنا بكلمة testicles بدلاً من كلمة spectacles وكلمة address و undress . (المترجم).

وعلى الرغم من تشغيل مكيف الهواء، كان لا يزال يحس بالحرارة. كانت هناك صحيفة مطوية ملقاه على الأرض، بجوار السرير. تناول الجريدة لكى يمروح بها على نفسه. كان يحس بثقل على صدره. كانت عيناه خافتتين وناعستين. وبصعوبة بالغة انجذبت عيناه إلى المانشيت **الشريف ينام مع زوجتى!** الذى صرخ فى وجهه. استطاع بصعوبة بالغة الوقوف على اسمه بين الكتابة المتراقصة. لقد بدأت فراشة تتقاتل مع نفسها. فردت جناحيها وطارت فوق مستوى السرير. ضاق صدر يعقوب ضيقًا شديدًا. وتراقص السقف أمامه هنا وهناك. ترك مارسى، وأمسك بصدره كيما يوقف الطرق العنيف المتكرر. سقط السقف عليه.

الليل

أنهت مارسى كلامها "أرسلت فاتاى لاستدعاء طبيب. وبدلاً من إحضار الطبيب ذهب وأحضر زوجته. استدعت زوجته الشرطة. قال ضابط الشرطة المناب إنه قتل بطريق الخطأ أو بغير قصد. لكن زوجته قالت إنه قتل عمدا؛ وقالت أيضًا إنه كان معه ما يزيد على خمسة آلاف جنيه إنجليزى. وأن الدافع وراء هذا القتل هو السرقة".

تساءلت إحداهن: "أهذه هى رقية التى قتلت ثريا mairuwa مؤخرًا؟".

تساءلت وُنمي: "هل شرَّحوا الجثة؟".

"لا أعرف. ولا أظن أنهم فعلوا ذلك. قال أهله، إن دينه يحتم دفنه فى اليوم نفسه".

كانت المتحدثة مذهولة. "فى قضية قتل؟". رحن يحملقن فى الفضاء.

ردت النزيلات دفعة واحدة: "عجيب!".

"أشكركن".

* * *

التقى محامى الضمانات المالية فرايداى السيدة/ موديا جا، وأبلغها أنه سيكون موكلاً عنها فى المحكمة من الآن فصاعدًا. وقال: إنه سيطلب الرأفة لأسباب تتعلق بالدفاع عن النفس الناجم عن القهر الذى استمر سنوات عدة. قال إنه ناقش الأمر مع روث بالفعل وإنه اتخذ الترتيبات اللازمة لسماع الدعوى. وقال إن تاريخ تحديد سماع الدعوى هو التاسع والعشرون من يناير. دار بخلد مودى التحرى عن المركبة المعطلة. خطر ببال مودى، أن ذلك لا يمكن أن يتم إلا إذا جاء هو واصطحبنى إلى المحكمة.

قال المحامى وهو يقرأ ما يدور بخلدها: "لن تكون سيارة الترحيلات مشكلة. لقد جرى إصلاح السيارة بالفعل. لقد صرفت الحكومة المبالغ المطلوبة وطلبت من السجون إصلاح سيارات الترحيلات، حتى يمكن أن تعمل من جديد".

"قلت إن سماع الدعوى سيكون فى اليوم التاسع والعشرين؟" أومأ المحامى برأسه. لقد حصلت على إعلام قضائى بإحضارك أمام المحكمة، للنظر فى شرعية حبسك".

"توجد هنا سجينات أخريات لهن المشكلة نفسها. لكن ليس هناك موكل عنهن. ليس لهن محامٍ يساعدهن".

"ما المطلوب؟".

"لقد أرسلنا رسالة إلى رئيس الدولة. ووقع الجميع عليها. ولعلك تساعدنا كلنا".

"كم عددكن؟".

"حوالى عشرة. أطلق سراح البعض منا، حصلن على العفو. لكن هناك كثيرات أخريات، وقد استؤنف تنفيذ أحكام الإعدام".

"هناك أيضًا نزيلات جديدات. مارسى، سجانتنا السابقة جاءت هى الأخرى إلى السجن منذ أيام قلائل. طلبت منى أن أقول لك ذلك. واقع الأمر، أنها ظنت أنك جئت من أجلها".

"تقصدين، المشرفة العامة على السجون مارسى أوكو ــ أوجولوجو؟".

"هى بعينها".

"موجودة هنا؟" أومأت مودى برأسها "أحضرت إلى هنا منذ ثلاثة أيام".

"لقد فهمت. سوف أجرى بعض التحريات، لكن لا تنسى اليوم التاسع والعشرين. لقد أنهيت الأوراق المطلوبة لذلك. سوف نلتقى فى المحكمة. سوف تنقلك السلطات إلى مبنى المحكمة"

استدار ليذهب إلى حال سبيله، لكنه توقف. "آه، لقد نسيت. هنا سيدة اسمها أنتليِّ". أومأت مودى برأسها "هذا لها من سيث. وهذا أيضًا شيء من العلاج لك أنت".

"تقول من سيث؟" أومأ المحامى برأسه. سيث Seth. نظرا فى أعين بعضهما، والمرأة يدور بخلدها أن هناك خطأ ما. والسبب هو عدم مجيء سيث، وإرسال آخر بدلاً عنه، محامى.

"كيف حاله؟ لماذا لم يأت إلى؟"

"إنه بخير".

"أهو على ما يرام؟" أومأ المحامى برأسه ثانية.

"وماذا عن روث؟".

"روث بخير أيضًا".

كانت عينا المسجونة توحيان بشرود ذهنها، وهى غارقة فى التفكير. ما الذى يمكن عمله؟ عندما تكونين سجينة تصبحين مثل طفلة. الأشياء التى حدثت لك، وغيرت حياتك، حدثت كلها فى غيابك. أنت لم تعرفيها، ولا يمكن أن تعرفيها، ليست لك سيطرة عليها. ويتعين عليك تصديق ما تسمعين. لقد غربت شمس الأمس، وانتهى الأمر. ما عليك سوى أن تطيعى. القمر الذى طلع فى الليلة الماضية كان لونه ورديًا. لقد فهمت. كان يتعين عليك الموافقة. لم يكن هناك من

سبيل لإثبات ما هو عكس ذلك. وعليه، هذا هو سيث الذى وعد بالمجيء بين الحين والآخر، قد توقف عن الحضور، ومع ذلك فهو بخير. مدت يدها وأخذت اللّفة. وهو كذلك.

الفصل الثانى والأربعون

الفجر

يبدو أن صباح اليوم التاسع والعشرين طلع فجره مختلفًا عن الأيام الأخرى. كانت الطيور تغرد، وتطير منتقلة من مكان إلى آخر على الجدار. لقد حلت أندى محل باستور القسيسة. صلت من أجل مودى، ثم صلت بعد ذلك، من أجل من خلفتهن وراءها. وعقب التأمين بعد الصلاة، انطلق صوت سيارة الترحيلات. اهتزت السيارة، وشرقت، ثم عادت إلى الحياة وتركت لحال سبيلها. امتلأ جو الزنزانة بالدخان الرمادى الكثيف.

نظرت أنتلى مرة ثانية إلى الورقة التى وضعتها مودى فى يدها. ابتسمت ابتسامة تنم عن الرضا.

قالت لنفسها بصوت عال "بعد انتظار طويل". ينبغى على أن أصبح قائلة "وجدتها"؛ لكن ذلك لن يكون مناسبًا لهذا الظرف".

التصريف الأول agicola (فلاح) puella, (فتاة) mensa, (شهر)، أخيرًا صيغة الجمع هى: mensae, mensas, mensarum, mensis, mensis.

بعد الساعة الثامنة بقليل، وبعد هضم عصيدة الإفطار، جاءت مستشيف مصحوبة بسجان، اتجها سويًا إلى جناح النساء. كانت فى يدها ورقة طويلة.

"استمعن إلى أسمائكن. ومن تسمع اسمها، تحضر إلى هنا". تركت النساء ألعابهن ودردشتهن، ونظرن إلى السجانة. غمر التفاؤل الغرفة كلها.

"مودياجا جومز!" كانت مودى جاهزة. كانت قد أعطيت طاقمًا موحدًا من الملابس، ارتدت شبشبها المطاطى وتحركت فى اتجاه الفناء".

"سيبلا آدمز!" اندهشت أنتلى لسماع اسمها.

"تساءلت" تقصديني؟".

"انزلى!".

قفزت نازلة من سريرها وأمسكت بحبل ألقاه السجان إليها.

"أولورى آب Abe!، ونمى مولاد Molade!".

عم التفاؤل وشاع فى الزنزانة كلها، وسرى فى كل النزيلات.

"يوفيوما جاك!، إنديورانس نوسو Nwosu! ليد أوشو!".

رفض البق الموت.

"رحمة سول! بنتا سول! أفولينو آنيا! كاجارا ننجى".

أثناء النداء عليهن، كانت الضابطات قد أعطين لكل واحدة منهن زيًا من أزياء السجن، فمن بارتدائه. لم يكن لدى كل منهن حذاء، ذلك الحذاء. قلة منهن هن اللاتى خرجن بلا أحذية. القشف، الكالوهات، الكعوب المشرّخة، كل ذلك خرج من الزنزانة. قبل أن يغادرن الفناء، جرى ربط سلسلة ثقيلة فى ساق كل نزيلة، وجرى ربط هذه السلسلة بنزيلة أخرى. ذهبن جميعًا إلى مكتب المشرفة العامة لاستكمال رسميات الرحيل النهائى.

لم يبق فى الزنزانة سوى مارسى أوكو ـــ لوجو هى وأيتوهان أوزاوير Osaware.

لم تنته التحقيقات بعد فى قضية المشرفة العامة السابقة. **خلاصة الدعوى المقامة على إيتوهان، هى اتهامها بتهريب البنات النيجيريات إلى أوروبا**؛ وسوف تقوم الشرطة بنقل وتحويل تلك الدعوى إلى جهات الاختصاص.

عند الساعة الثامنة وخمسة وأربعين دقيقة، أمرت النزيلات بالخروج اثنتان اثنتان من البوابة الكبيرة حيث كانت سيارة الترحيلات (بلاك ماريا)، تترجرج،

شامخة كما لو كانت منزلاً، والدخان الأسود يخرج من مؤخرتها. وإذا ما أضفنا إلى ذلك الضجيج والضوضاء، فإنها كانت تشبه فسوة أو ضراطًا ناجمًا عن الديزل والزيت، والروائح الناتجة عن العادم. قبل أن يقفزن إلى داخل السيارة، نظرت كل واحدة منهن إلى السماء وإلى الدنيا من حولها، وكانت السماء صافية تمامًا. هذا على النقيض تمامًا من حظيرتهن، التى لا تشرق الشمس أو تغرب عليها.

قام أحد الحراس، بإطلاق طلقتين فى الهواء، وهنا قام السائق الرسمى، لوكمان Lukman كونستبل السجن، برفع رجله من فوق الفرامل. خرجت سيارة الترحيلات من البوابة، انتشر فيروس التفاؤل فى دم السجينات. انتقل ذلك الفيروس من امرأة إلى أخرى، متخذا لنفسه نسبًا وبائيًا. هذا أمل بعد انتظار طويل. تقدم بعد انتظار طويل. وهنا راحت إنديورانس تتغنى بأغانى المدح الواحدة بعد الأخرى.

الرب الذى يرد بالنار

دعوه يكون ربى،

الرب الذى يرد بالنار،

دعوه يكون ربى.

يا ألله، أنا شاكرة جدًا

كل ذلك الذى أعطيتنى إياه،

يارب، أنا ممتنة جدًا جدًا،

أنا أشكرك يا ربى.

أطالت مودى النظر إلى إنديورانس، وهى تستوعب العالم المحيط بها. لم تكن واثقة بالنتائج المترتبة على الأنشطة المحيطة بها. ما الذى كنت أحتاج إليه؟ الحياة لن تكون مثلما كانت. لقد اعتور الحياة كثير من الضرر، لقد تغيرت أشياء كثيرة. مضت قدمًا لأن ذلك هو المطلوب منها. قال المحامى إنه ناقش قضيتها مع

زوث، وأنه سيطلب إعادة النظر فى الدعوى. كيف وأين التقى روث، لم يكشف لها عن ذلك. وماذا عن سيث؟ لا شيء عن سيث، لا شيء إطلاقًا. هذا ليس أمرًا عاديًا، هذا الصمت. سيث الذى كان من عادته أن يزورنى فى كثير من الأحيان، يتوقف عن الزيارة بهذه الطريقة، وبلا إنذار. هذا شيء غير عادى. لابد أن شيئًا قد حدث. هم لا يعرفون كيف يخبرونى بذلك الذى حدث. يظنون أن ذلك سيجعلنى كسيرة القلب، ولذلك فهم يلتزمون الصمت بخصوص هذا الموضوع. لقد مات سيث. مات الصبى المسكين. لعل ذلك يكون راحة له. لم تكن هذه حياة. مريض، مريض، مريض. لعله يرحل ويرتاح فى صدر (سيدنا) إبراهيم، حيث سنلتقى على لا فراق إلى الأبد. آه، يا سيث.

آه، تعال وشاهد! تعال وشاهد،

آه، تعال وشاهد! تعال وشاهد،

تعالى وشاهد ما فعله الرب،

تعال وشاهد ما فعله الرب.

المحامى. كان ناشطًا من نشطاء حقوق الإنسان، على حد قوله. تناقش هو وروث. هذا شيء حسن، سأمضى قدمًا، لكنى أعرف أن ذلك لن يوصلنى إلى أى مكان. قد يوصّل الأخريات أما أنا.... فأنا لا أرى أنى عائدة إلى مهنة الخياطة التى كنت أمارسها من قبل؛ لن أعود إلى الجيران أنفسهم، إلى الزبائن أنفسهن، كما لو أن شيئًا لم يحدث. هل سيقبلوني؟ هل سيرحبون بى فى وسطهم وبينهم، كما لو كنت عائدة من عطلة أم ماذا؟ لا؛ حدثت تغييرات كثيرة، والحياة لا يمكن أن تكون مثلما كانت من قبل، بغض النظر عما يحدث الآن.

راحت تحملق من خلال الثقوب البرميلية الشكل الموجودة فى الحافلة الكبيرة. لقد استقلت سيارات الترحيلات مرات عدة. لكن هذه السيارة أكثر كآبة. فى الخارج، وقبل أن تخطو الخطوة الأولى على السلم المنحدر، فى الثانية الوحيدة

التى بين البوابة والسيارة من الخلف، لاحظت جسم السيارة المدهون بدهان لامع. كانت السيارة تبدو جديدة، لكنها كئيبة من منطلق أنها مثل المرأة العجوز عندما تضع لنفسها مكياجًا. الشروخ الكبيرة، الصدمات، كلها ذكريات لحياة السيارة العملية الشاقة، كل ذلك يمكن الوقوف عليه على الرغم من عملية الدهان، الطلاء، والترقيع والإخفاء.

رأت عيناى، سمعت أذناى،

سوف يتحدث فمى عن خير الإله.

رأت عيناى، سمعت أذناى،

سوف يتحدث فمى عن خير الله.

كانت فى المركبة كبائن كثيرة. كان هناك فرد أمن داخل السيارة وتمثلت مهمته فى تحديد المكان الذى ستنزل فيه كل نزيلة من النزيلات. كانت هناك مقاعد خشبية، لكن النزيلات فضلن الوقوف، والنظر إلى الحياة التى خدعتهن منذ اختفائهن. كانت أرضية الحافلة من المعدن وغير مستوية ومغبَّرة. ومن ينظر إليها يستطيع أن يتبين أنها جرى طلاؤها مؤخرًا. عمل رخيص.

مدت مودى عنقها لتنظر إلى مقدمة الحافلة. لم تستطع تحقيق ما أرادت. لكنها استطاعت رؤية سحابة مختلفة من الدخان، الذى يميل لونه إلى الابيضاض، وكان صادرًا من ناحية كبوُد السيارة. بدا الأمر لها، وكأنهن كن فى غلاية ساحرة كبيرة.

آمين آمين، نِعَمُ وعظمة،

حكمة، وشكر وشرف

القوة والقدرة تنتميان إلى الرب،

إلى الأبد، وإلى الأبد، آمين

داخل الحافلة، كان الجو حارًا ومظلمًا. لم تكن فى الحافلة تهوية. كانت الألواح المعدنية فى السيارة تنبعث منها حرارة. يزاد على ذلك أن الفتحات الثلاثة المستطيلة على كل جانب من جانبى الحافلة لم تكن كافية للسماح بمرور المزيد من الهواء. تزاحمت نزيلات كثيرات على هذه الفتحات كما لو كن فراشات تتسابقن على الضوء. حملقن فى الخارج لتنفس الأوكسجين، ولرؤية البشر الذاهبين إلى أعمالهم. كان هناك بائع يبيع الماء، كانت بروينته(*)* مليئة بجالونات من تجارته. هذه بائعة خبز، تعبت بسبب كثرة تحركها، فجلست على جانب الطريق، كانت حوايتها لا تزال على رأسها. كانت تعد حصيلة ما باعته حتى ذلك الوقت. وصل راكب دراجة نارية تجارية وسط سحابة من الدخان، كانت ماكينته مصابة بعطل الاشتعال الخلفى. وقف لكى يُنْزل الراكب الذى كان معه.

أنزل بول وسيلاس،

أنزل بول وسيلاس،

مُخلِّصى أنزل بول وسيلاس،

هو سوف ينزلني

لاحظت أنتلى الحوار الذى دار بين السائق والراكب قبل أن تترك النافذة. أحست بإعياء، كانت جوعانة بالفعل بعد تناول وجبة الصباح مباشرة. سرح ذهنها فى بيا. فكرت فى الجامعة. فكرت فى رئيس الجامعة، واستشعرت الأسى والأسف والحزن داخلها. تساءلت كيف أثبت براءتي؟ أنا لم أقتل هذا الرجل الأبيض. أنا لا يعنينى ما يقولونه. ولا تعنينى طريقة نسجهم للقصة، أنا لا أعى أو أعرف مشهد القتل. لقد أُلبست التهمة. ألبسنى إياها الرئيس هو وعصابته المجرمة، التى لا قلب لها ولا تعرف الرحمة. عندئذ، تكون حياتى الواعدة قد أحبطت فى منتصف الطريق. آه، لماذا ركبت ذلك المصعد فى ذلك اليوم المشئوم؟ لماذا التقيت ذلك النصَّاب؟ لماذا تقاطع طريقانا؟ لماذا جرى ذلك الإضراب فى الجامعة وعرضنى

(*) البروينة: عربة ذات عجلة واحدة تدفع باليدين وتستعمل فى نقل الأشياء. (المترجم)

لهذا الخطر؟ لماذا؟ لماذا؟ لو كان الميتون يتكلمون، لكان السيد/ كورت هاينز، قال لهم الحقيقة. كنت ستعتلى قفص الاتهام، وتحلف اليمين، وتشهد بالحق.

"أنا لم أُقتل بواسطة هذه المرأة، ولا بواسطة أية إمرأة أخرى. كنا سويًا فى الغرفة عندما استأذنت للذهاب إلى دورة المياه. كنت أرقد على السرير، فى انتظار وصول الساعات الحلوة. أنا عندى هذا الشيء للنساء السوداوات. انفتح الباب الداخلى فجأة، وخرج منه شخص قصير يرتدى زى الفندق. صرخت "من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟" كان يحمل صينية بين يديه. رد على "خدمة الغرف". استطعت أن أقول له وقد تملَّكنى الخوف : أنا لم أطلب خدمة الغرف" وضع الصينية أرضًا وضربنى على رأسى بجسم ثقيل. كنت شبه فائق عندما اتجه إلى دولاب الملابس، ورفع حقيبة ملابسى وخرج بها من الباب. أحسست بالنعاس لكنى عرفت عندما خرجت البنت من الحمام، ثم صرخت بعد ذلك. جذبت هذه الصرخة الانتباه. جاء الناس مهرولين. كان لا يزال هناك فى شيء من الحياة عندما وصلت الشرطة، لكن لابد من أن يعجلوا بذهابى إلى المستشفى، راحوا يفتشون وأخذوا نقدوى وسجائرى. ونشل أحدهم تليفونى المحمول. ووضعوا الحديد فى أيدى المرأة. ثم مت بعد ذلك".

yayi yayi Allah yayi
yayi O
yayi yayi Alaah yayi
Allah yayi Babe
Yayi yayi Alla yayi
Yayio abunde mutum beyiba Allh yayi.)(*)

(*) هذه الأغنية بلغة الهوسا وهى دعاء يطلب رحمة الله، ودعوة له ﷻ بوضع حد للمعاناة. (المترجم)

خلصت أنتلى إلى أن مسألة إثبات براءتها من الاتهام المقام عليها تعد أمرًا فوق مستوى طاقة البشر، اللهم إلا إذا حدثت معجزة. وفجأة، جاء على بالها، ذلك القول الذى كانت باتسى تردده مرارًا على مسامعها. دع الأمور تمر، ودع الملك للمالك. دع الأمور تمر، ودع الملك للمالك. أحنت رأسها وراحت تتذكر ما حدث لها. اغرورقت عيناها بالدموع إلى أن أصبحت لا ترى. كانت تطلب من أخواتها النزيلات أن يُهون على أنفسهن. كانت تلك هى الوسيلة لقضاء يوم بعد آخر، حتى يتغلبن على هذه المصيبة، وإلى أن تجيء النتيجة كيفما كانت. كانت تصارع الذكريات التى كانت تحاول فرض نفسها على ذهنها. كانت تفلح فى طرد هذه الذكريات فى بعض الأحيان. كانت تقول لتلك الذكريات أنا لست بحاجة إليكن. أنا لا أريدكن. ابتعدن عنى. أتركننى أعيش. صحيح أنها فى بعض الأحيان كانت تستسلم فى بعض الأحيان وتتقذ حياتها. أهذا أنا؟ ما الذى حدث؟ أين خرجت أنا عن الخط؟ ما الذى فعلته أنا؟ لو أنى أستطيع إعادة يدى الزمان إلى الوراء آه، لو أن اتحاد الطلاب لم يقم بذلك الإضراب. لو أن الحكومة الجديدة لم تخلف وعدها...، لو، لو، لو؟

الآن، وبعد ظهور ضوء خافت فى النفق، راحت تأذن لنفسها بترف التمسك بالأمل. ربما، أستطيع القيام مرة ثانية والتقط خيط حياتى. ربما أستطيع العيش أولاً وقبل كل شيء. كانت باتسى تشجعنى دومًا وهى تقول: أنتن لن تمتن وإنما ستعشن. أقول لكن إذا كان إيمانكن مثل حبة الخردل هذه، وتقلن لهذا الجبل ابعد عن هنا ، وألق بنفسك فى البحر، فسوف يتحقق ذلك. أيها الجبل، ابعد عن هنا. ألق بنفسك فى البحر. واصل التحرك! ثم اقفز فى البحر!

الصلاة، الصلاة التقليدية خدعتها. وبدلاً من هذه الصلاة التقليدية، بدأت تتشكل لديها ترنيمة ومعها، ذكرياتها عن كنيسة القديس استيفين الإنجليكانية، فى أيام شبابها، تحلّت سيبلا بزى الجوقه الأكاديمى وراحت تنشد ما يلى:

احفظنى،

الصوم يسقط فترة المساء.

يتعمق الظلام، الرب معى تمسّك

عندما يسقط المساعدون الآخرون تهرب الراحات،

آه يا أنت يا من لا يتغير،

احفظنى.

سمعت أصوات بعض الأبواب المعدنية عند إغلاقها وإحكام قفلها بالترباس (المزلاج). قفز الحارس إلى الداخل وأغلق الأبواب. جلس الحارس فى الكابينة الأخيرة، وأغلق الأبواب الخارجية للتابوت المتحرك. اهتزت المركبة بعنف. انقفل باب آخر محدثًا جلبة، وينطلق بعد ذلك صوت آلة التنبيه. جرى بعد ذلك إطلاق طلقتين متتاليتين فى الهواء. وتنهدت سيارة الترحيلات، بلاك ماريا، تنهيدة ثقيلة ومضت تسير إلى الأمام.

صلّت واحدة من الراكبات "سيدى، سيدى، نَجنًا".

مضت السيارة واتجهت صوب الطريق المخصص للسيارات. كان السائق يطل برأسه هنا وهناك مثل البطة، كى يتأكد من خلو الطريق. ضغط السائق على مُخنق السيارة، ليعيد السيارة التى كانت تنذر بالتوقف، إلى الحياة. وعندما كان السّائق على وشك أن يرفع قدمه عن الدبرياج، رأى فى المرآة المشرف العام على السجون يجرى خلفه، ويشير باستخدام ورقة كانت فى يديه، ويطلب منه التوقف. همهم وهو يقول: ماذا يريدون. هذه لخبطة. كيف حصلوا على هذه النجوم، أنا لن أعرف كيف. همهم مرة ثانية ثم توقف. اتجه الضابط إلى السيارة.

"حدث خطأ. توقف. وبطّل ماكينتك!".

حذر السائق قائلاً: "لا يمكن تبطيلها مطلقًا ــ سأتركها تعمل".

"هناك خطأ".

تجمعت النزيلات حول القضبان الحديدية، ولذا سمعن ما يدور بين السائق والضابط. وهنا توقف الغناء تمامًا بعد أن تناقص فى البداية،

حدثت مجموعة من النشاطات فى المؤخرة. هذه أصوات أقدام تدخل السيارة.

"سبيلا آدمز، كاجارا ننجى، يفيوما جاك، انزلن!".

"ذوت حاملات تلك الأسماء وامتقع لونهن. خطأ؟ مثل ماذا؟ اتجهت يد يفيوما إلى المسبحة التى كانت حول عنقها.

سبيلا آدمز، كاجارا ننجى، لقد صدرت ضدكما أحكامًا بالفعل. يفيوما جاك، حكمك لم يكتمل بعد، انزلى!" حدث فك لقيود الأرجل.

تراجعت النساء إلى الخلف فى السيارة، متعلقات بالأمل، وعاجزات عن الحركة.

احتجت زعيمة النساء بصوت متهدج: "لكنى أستأنفت الحكم. لقد استأنفت الحكم. أنا لم أقتل هذا الرجل. لقد لُفّقت لى التهمة".

قال الضابط: "كان يجب عليك أن تقولى هذا الكلام للقاضى، انزلى!".

أقسمت كاجارا. "بأمانة، أنا لم أرتكب عملية الإجهاض". ثم وضعت أصبعها السبَّابه على شفتيها، وأشارت إلى سقف السيارة "والله! لقد كان الجنين ميتًا".

"تعالى هنا من فضلك".

رُفعت بندقية بدون تروٍّ. فُكت قيود الأرجل، وأعيد تقييدها. نظرت النساء الثلاث إلى بعضهن البعض إلى أعلى ثم إلى الأسفل، ثم رحن ينظرن إلى النساء الأخريات، وانكمشن من الخوف، خشية ...آه لقد تقرر لهن الذهاب، كانت

أذهانهن، تتطلع إلى وقف التنفيذ وإعطاء مهلة.... لكن ما يحدث الإنسان شيء مختلف. انهمرت دموعهن نازلة على خدودهن، وهن يخرجن من سيارة الترحيلات كما لو كن سحالى، وعدن للدخول فى بطن الحوت. أقفلت الأبواب المعدنية واستأنفت ماريا سيرها.

* * *

الديلى تايمز

وقعت مأساة أمس أثناء قيام سيارة الترحيلات بلاك ماريا، بنقل بعض المسجونات إلى المحكمة لسماع أقوالهن، وعندما تعطلت السيارة فى منتصف الطريق. كانت سيارة الترحيلات التابعة لسجن فريمان فورت تحمل على متنها سبعة عشر نزيلاً؛ منهم سبع إناث. كانت قضاياهم مؤجلة منذ سنوات. كان بعضهم ينتظر المحاكمة فى حين استأنفت بعض آخر منهم الأحكام الصادرة ضدهم. دلت التحريات على أن سيارة الترحيلات رقم (NPS 2110)، كانت معطلة منذ سنوات. قامت إحدى المنظمات الخيرية بإصلاح السيارة، لكن ندرة وقود الديزل هو الذى عطَّل تشغيل السيارة. وسرعان ما تعطلت المركبة مرة أخرى. ولهذا السبب بقى كثير من النزلاء والنزيلات فى الزنازين دون المثول أمام المحكمة. ويجب أن لا يغيب عنا أن لجنة العفو الرئاسية التى قامت مؤخرًا بزيارة السجون على مستوى الدولة كلها، لفتت الانتباه إلى الحالة المؤسفة التى عليها سيارات الترحيلات على مستوى الدولة، وحثت اللجنة الحكومة النظر فى هذا الأمر. وجرى بعد ذلك تخصيص المبالغ المطلوبة لذلك لإصلاح سيارات الترحيلات المهجورة.

قال أحد شهود العيان لذلك الحادث: إن السيارة تعطلت فجأة وهى تصعد تلا من التلال. وفشلت الجهود كلها فى تشغيل السيارة من جديد. كان الدخان ينبعث من غطاء محرك السيارة. نزل رجل الأمن هو والسائق، لكنهما لم يستطيعا تحديد مصدر الدخان، أو حتى وقفه. وسرعان ما زادت كثافة الدخان.

باءت كل الرجاءات والتوسلات التى وجهها القرويون للسجانين بأن يفتحوا الأبواب ويحاولون المحافظة على سلامة النزلاء، بالفشل الذريع، فقد أدعى السجانون أن النزلاء سيهربون. ومات النزلاء السبعة عشر خنقًا بسبب الدخان.

وعندما اتصلنا بأحد محاميى النزلاء، وصف الحادث بأنه مأساة حقيقية. قال محامى الكفالات المالية، فرايداى، الذى هزّه ذلك الحادث، قال: إن حادث الحريق هذا يعد مثالاً آخرًا على انتهاك حقوق المواطنين الإنسانية وعدم شعور أو إحساس المسئولين عن السجن بالحياة الإنسانية. وطالب فرايداى بإجراء تحقيق من منطلق أن "مبلغًا كبيرًا جرى رصده للإصلاح، وبالتالى ينتفى وجود أى مبرر لتعطل سيارة الترحيلات فى أول طلعة لها بعد الإصلاح مباشرة". كما طالب المحامى فرايداى أيضًا بمحاكمة كل من رجلى الأمن والسائق، مؤكدًا أنهما متهمان بإزهاق الأرواح، أو القتل الجماعى، وهو جريمة ضد الإنسانية.

الديلى ستار

بعد ستة أشهر

ومن مراسلنا القضائى

فى تطور آخر، جرى أمس الحكم بالإعدام شنقًا على المشرفة العامة على السجون، مارسى أوكو أوجلوجو لقتلها الشريف عبد الجليل يعقوب. كانت الآنسة أوجلوجو، السجانة سابقًا، فى سجن فريمان فورت تنتظر المحاكمة خلال الأشهر القليلة الماضية، فى تلك القضية التى انتهت بالأمس. أكد الادعاء أن الهدف من وراء القتل هو السرقة. كانت أرملة القتيل الحاجة رقية يعقوب قد أقرت أن زوجها كان عائدًا للتو من مهمة رسمية عبر البحار، معافًا وبصحة جيدة، وكان يحمل معه مبلغًا كبيرًا من المال ولم يجر العثور على النقود فى مكان الحادث. قال طبيب الشرطة الذى فحص الجثة قبل دفنها بوقت قصير، إن سبب الوفاة يحتمل أن يكون

نوبة قلبية. كان قاضى الجلسة، السيد/ جستس جبيولاى Gbulie، قد حكم على المتهمة بالإعدام، وقال فى حكمه أن الآنسة أوكو أوجولوجو تخلت عن منزل زوجيتها، لتوقع المسئولين الحكوميين النزيهين فى حبالها بغرض السرقة. وهو يرى أن الشريف قد ابتلع شيئًا، ربما يكون قد دُس فى طعامه، وتسبب فى تلك النوبة القلبية.

قال المحامى فرايداى، وكيل الآنسة أوكو أوجولوجو، أنه لن يستأنف الحكم "لأن القضية واضحة بحق" على حد قوله.

لكن المحامية مارثا نويهيم Nwihim، عضو مؤسسة بديل حماية حقوق المرأة وتطويرها اعترضت على الحكم، وقالت إن شركة المحاماة التابعة لها، سوف تستأنف الحكم. قالت أيضًا: إن التاريخ الطبى للمتوفى كان ينبغى أن يقدم للمحكمة، كما كان لابد من تشريح الجثة لتحديد طبيعة السم المزعوم. وهى ترى أن السجانة السابقة لم تحاكم محاكمة عادلة.

جرى أمس أيضًا إلقاء القبض على المفتش العام للشرطة فى منزله. أوضحت المصادر القريبة من الرئاسة أن الرئيس السابق للشرطة كان يجرى استجوابه بشأن بعض الممارسات الفاسدة، وإساءة استعمال منصبه. قال المصدر أيضًا: "إن الحكومة لا تتوانى فى حربها المستمرة على الرشوة، ولن يفلت أحد منها".

المؤلفة فى سطور

إفيوما شنوبا:

– من مواليد بلدة ننوى فى شرقى نيجيريا فى عام ١٩٦٠م.

* فى ست السادسة أو السابعة – فى أثناء الحرب الأهلية – توقف التعليم ، وسعت إفيوما إلى اللجوء إلى ليبرفيل، وجرى نقلها عن طريق البحر إلى أيرلندا.

* فى عام ١٩٧٠ عادت أسرة إفيوما من جديد إلى نيجيريا المتحدة، حيث تمكنت إفيوما من إكمال تعليمها الابتائى ، ثم الثانوى بعد ذلك ، مما أدى إلى التحاقها بجامعة "بنين" عام ١٩٧٦ لدارسة اللغة الفرنسية.

* فى عام ١٩٨٠، حصلت على منحة دراسية من الحكومة الفرنسية للدراسة فى جامعة جرينبل ، ثم تخرجت عام ١٩٨١.

* التحقت بجامعة لاجوس ، حيث حصلت على دراسات عليا فى العلوم السياسية.

التحقت بوزارة الخارجية النيجيرية عام ١٩٨٣، وعملت فى السفارات النيجيرية فى كل من غانا ، وفرنسا، وإيطاليا.

* تشغل حاليًا منصب نائب رئيس البعثة الدبلوماسية فى المفوضية النيجيرية العليا فى أوتاوا بكندا.

* لها ثلاث روايات "تجار اللحم البشرى" عام ٢٠٠٣، "بلا خوف" عام ٢٠٠٤، "فى انتظار ماريا".

* لها مجموعة ضخمة من القصائد التى كتبتها باللغة الفرنسية والإنجليزية كما لها مجموعة كبيرة من القصص القصيرة.

المترجم فى سطور:

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت فى المجلات والصحف العربية المحلية والدولية منها:

مقالات وأبحاث نشرت بمجلية الفيصل ، ومجلة كلية الملك عبد العزيز الحربية والمجلة العربية : الرياض – المملكة العربية السعودية. ومجلة الهلال القاهرة – جمهورية مصر العربية.

وله كتب مترجمة إلى العربية منها:

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية:

١ – التفكيكية : النظرية والممارسات، تأليف كريستوفرنوريس، دار المريخ، الرياض ، المملكة العربية السعودية.

٢ – الشاعر والشكل ، تأليف جدسون جيروم – دار المريخ.

٣ – الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجهان لوجه – دار المريخ

٤ – الأطفال والمخدرات المريخ.

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبداع العالمية للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية:

١ – المعطف المشاكس.

٢ – عمل الفريق الفعال.

(جـ) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال، القاهرة ، جمهورية مصر العربية:

١ – هارون الرشيد ، تأليف : فيلبي.

٢ – الكوكائين والمراهقين.

٣ – بنات مدمني ومدمنات المسكرات.

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال:

١ – حلم ليلة أفريقية.

(هـ) كتب وروايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية:

١ – سبعة أنماط من الغموض، تأليف وليم أمبسون.

٢ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ، تأليف: بالجريف (جزآن).

٣ – حركات التحرير الأفريقي، تأليف ريتشارد جبسون.

٤ – إرادة الإنسان في علاج الإدمان.

٥ – قلب الجزيرة العربية (جزآن)

٦ – سيرتي الذاتية ، تأليف أحمد بللو.

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، جمهورية مصر العربية:

١ – سكين واحد لكل رجل.

٢ – نجوم حظر التجوال الجدد.

– صدرت له مؤخرًا ترجمة "الحج إلى نجد" تأليف : آن بلنت، فى جزأين عن المركز القومى للترجمة.

التصحيح اللغوى: إيمان جاب الله

الإشراف الفنـــى: حســـن كـــامل



الموروث البريطانى يطلق الاسم ماريا Maria مضيفا إليه الصفة سوداء Black ليدل به على تلك السيارة سوداء اللون التى تستخدم فى نقل المسجونين من السجن إلى المحكمة والعكس، وهو ما نطلق عليه نحن هنا فى مصر سيارة الترحيلات. هذا الموروث شائع تماماً ومعروف فى كل الدول الإفريقية الناطقة بالإنجليزية وكان بالإمكان ترجمة عنوان الرواية ليكون "فى انتظار سيارة الترحيلات" لكن الرواية من بدايتها إلى منتاها قائمة على دور كبير لتلك السيارة، ولم تغب عن ذهن المؤلفة على امتداد اثنين وأربعين فصلا، هى عدد فصول الرواية، إلى أن احترقت بمن فيها من النزيلات بسبب إهمال من قام بإصلاحها، وبسبب تقاعس سائقها وحارسها الذى رفض فتح الأبواب لإنقاذ النزيلات، تخوفا من السلطة، وتركهن يحترقن مع السيارة التى هى رمز من رموز الرواية المهمة، ولذلك آثرت الإبقاء على العنوان من باب التركيز على أهميته.



تصميم الغلاف: نادية كشك
عبد الحكيم صالح